


هذّبه وحقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه

الدكتور بشار عواد معروف    عصام فارس الحرستاني

المجلد الأول

الفاتحة - البقرة

مؤسسة الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم


تفسير الطبري
١

الطّبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسّسَة الرّسَالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

# مقدّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبده الكتابَ ولم يجعلْ له عِوَجاً. قَيِّماً لينذر بأساً شديداً من لَدُنه ويُبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً حَسناً﴾ [الكهف: ١-٢].

﴿الحمـدُ لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيمُ الخبير﴾ [سبأ: ١].

﴿الحمـدُ لله الـذي هَدَانـا لهـذا ومـا كُنا لنهتديَ لولا أنْ هدانا الله﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿الحمدُ لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى﴾ [النمل: ٥٩].

﴿الحمدُ لله الذي نَجَّانا من القوم الظالمين﴾ [المؤمنون: ٢٨].

﴿الحمدُ لله الذي أذهبَ عنا الحَزَن﴾ [فاطر: ٣٤].

﴿الحمدُ لله الذي صَدَقنا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤].

﴿فَقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظَلَمُوا والحمدُ لله ربِّ العالمينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿الحمـد لله ربِّ العـالمين. الـرحمن الـرحيم. مَلِكِ يوم الـدين﴾ [الفاتحة: ١-٣].

نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِل له، ومَن يُضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا

إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة قامت بها الأرض والسموات، وخُلِقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رُسلَهُ، وأنزل كُتبَهُ.

وأشهد أن سيدنا وقدوَتنا وإمامنا محمداً عبده ورسوله، وأمينه على وحيه، وخِيرته من خلقه، وسفيره بينه وبين عباده، بعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كُله ولو كره المشركون.

أما بعد،

فإنَّ القرآنَ العظيم هو كتابُ الله «الدَّالُّ عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحمته المُهْدَاةُ التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول فلا يغلق إذا غُلِّقت الأبواب. وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذِّكْرُ الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنُّزُل الكريم الذي لا يَشبع منه العلماء، لا تفنىٰ عجائبه، ولا تُقلع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هداية وتبصيراً. . . فهو نور البصائر مِنْ عَمَاهَا، وشفاء الصدور من أدوائها وجَواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح حَيَّ على الفلاح»[1].

ولحكمةٍ بالغة تعلو على أفهامنا القاصرة، أنزل الله جلّ ثناؤه كتابه باللسان العربي المبين ﴿قرآناً عربياً غيرَ ذي عِوَجٍ لعلهم يتقون﴾ [الزمر: ٢٨] ﴿ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا: لولا فُصِّلت آياته: أأعجمي وعربي﴾ [فصلت: ٤٤]، وجعله شفاءً ورحمة للمؤمنين[2]، فصَرَّف الله سبحانه فيه من كل مثل[3]،

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم: ١/٧.

(٢) تضمين للآية ٨٢ من سورة الاسراء.

(٣) تضمين للآية ٨٩ من سورة الاسراء.

ليهدي به للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين[4]. وجعله المعجزة الكبرى لرسوله ﷺ، وتحدى به جل ثناؤه الإنس والجن، فقال سبحانه: ﴿قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾ [الاسراء: ٨٨]، وتولى حفظه بنفسه ولم يَكِل ذلك إلى أحد من خلقه، فقال تعالى: ﴿إنا نحن نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]، فظهر مصداق ذلك مع طول المدة، وامتداد الأيام، وتوالي الشهور، وتعاقب السنين، وانتشار أهل الاسلام، واتساع رقعته.

وقد سَمّاه الله تعالى القرآن، والفرقان، والكتاب، والذكر، وحَثَّ عباده على الاعتبار بما فيه من المواعظ والبينات، فقال جَلَّ ثناؤه مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدَّبروا آياته وليتذكرَ أولو الألباب﴾ [ص: ٢٩]، وقال الرسول ﷺ: «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعَلَّمه»[5].

وأمرنا الله جل شأنه ورسوله ﷺ بتلاوته وتعاهده وتَدَبُّرِه والعمل به، ومعلوم أن العمل به لا يتم إلا بمعرفة معانيه والوقوف على دلالاته، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «المؤمن الذي يقرأ القرآن، ويعمل به، كالأُتْرُجَّةِ، طَعْمُها طَيِّبٌ وريحها طيب»[6]، وقال ﷺ: «مَثَلُ الذي يقرأ القرآن وهو حافظٌ له مع

---

(٤) تضمين للآية ٩ من سورة الاسراء.

(٥) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه. وفي رواية شعبة: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وهو عند أحمد: ٥٧/١ و٥٨ و٦٩، والدارمي (٣٣٤١)، والبخاري: ٢٣٦/٦، وأبو داود (٣٣٤١)، وابن ماجة (٢١١)، والترمذي (٢٩٠٧)، والنسائي في فضائل القرآن (٦١) و(٦٢) و(٦٣).

(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد: ٣٩٧/٤ و٤٠٣ و٤٠٤ و٤٠٨، والدارمي (٣٣٦٦)، وعبد بن حميد (٥٦٥)، والبخاري: ٢٣٤/٦ و٢٤٤ و٩٩/٧ و١٩٨/٩، ومسلم (٧٩٧)، وأبو داود (٤٨٣٠)، وابن ماجة (٢١٤)، والنسائي: ١٢٤/٨.

السَّفَرَة الكِرام، ومَثَلُ الذي يقرأ وهو يتعاهده وهو عليه شديد، فله أجران»[7].

وكان أبو جعفر الطبري يقول: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته»[8]؟

ولذلك كان الاقبالُ على القرآن الكريم وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه من أعظم ما ينال المؤمن به المطالبَ العالية، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، وهو العلم النافع المؤدي الى العمل الصالح.

ومن أجَلّ التفاسير المتقدمة وأكثرها استيعاباً تفسير أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المعروف بجامع البيان عن تأويل آي القرآن.

---

(٧) أخرجه أحمد: ٦/٤٨ و٩٤ و٩٨ و١١٠ و١٧٠ و١٩٢ و٢٣٩ و٢٦٦ والدارمي (٣٣٧١)، والبخاري: ٦/٢٠٦، ومسلم (٧٩٨)، وأبو داود (١٤٥٤)، وابن ماجة (٣٧٧٩)، والترمذي (٢٩٠٤)، والنسائي في فضائل القرآن (٧٠) و(٧١) و(٧٢).

(٨) ياقوت: إرشاد الأريب: ٦/٤٤٠.

## أبو جعفر الطبري[٩]:

ولد أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري في آمل طبرستان أواخر سنة ٢٢٤هـ أو أوائل سنة ٢٢٥هـ، وحفظ القرآن منذ سن مبكرة واعتنى به والده عناية شديدة، فَجَدَّ في إكمال تعليمه وسمح له في أسفاره وأعانه عليها، فكان طول حياته يمده بالشيء بعد الشيء، فيقتات به.

وكانت بغداد آنذاك عاصمة الدنيا العربية الإسلامية ومعدن العلم والعلماء، يتجه إليها طلبة العلم من كل حدب وصوب، ينهلون من مناهلها العذبة، ولا يمكن لأحد أن يدعي علماً من غير شهادة شيوخها وأساتيذها، لذلك كان من الطبيعي أن يشد أبو جعفر الرحال إليها بُعَيْدَ الأربعين ومئتين، وكان في نفسه أن يسمع من إمام الأئمة، آنذاك، أحمد بن حنبل، ولكن الحظ

---

(٩) ترجمته في الفهرست لابن النديم ٣٢٦، وتاريخ بغداد للخطيب ٢/١٦٢ و١٦٩، وطبقات الشيرازي: ٩٣، والأنساب للسمعاني ٨/٢٠٥-٢٠٧ وتاريخ ابن عساكر: ٣٧/الورقة ٢٤٨، والمنتظم لابن الجوزي: ٦/١٧٠-١٧٢، وإرشاد الأريب: ٦/٤٢٣-٤٦٢ (وهي أوسع التراجم)، وانباه الرواة للقفطي: ٣/٨٩-٩٠ والمحمدون من الشعراء: ٢٦٣، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي: ١/٧٨-٧٩، ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٤/١٩١-١٩٢، وطبقات ابن عبدالهادي، الورقة ١٢٣، وتاريخ الاسلام للذهبي، الورقة ٤٥-٤٧ (أحمد الثالث ٢٩١٧/٩)، وتذكرة الحفاظ: ٢/٧١٠-٧١٦، والعبر: ٢/١٤٦، وسير أعلام النبلاء: ١٤/٢٦٧-٢٨٢، وميزان الاعتدال: ٣/٤٩٨-٤٩٩، ومعرفة القراء: ١/٢٦٤-٢٦٦، ودول الاسلام: ١/١٨٧ وتلخيص: ابن مكتوم ١٩٨، والوافي بالوفيات للصفدي: ٢/٢٨٤-٢٨٧، ومرآة الجنان لليافعي: ٢/٢٦٠، وطبقات السبكي: ٣/١٢٠-١٢٨، والبداية والنهاية لابن كثير: ١١/١٤٥-١٤٧، وطبقات القراء للجزري: ٢/١٠٦-١٠٨، ولسان الميزان لابن حجر: ٥/١٠٠-١٠٣، والنجوم الزاهرة: ٧/٢٠٥، وطبقات المفسرين للسيوطي: ٣٠، وشذرات الذهب: ٢/٢٦٠. وللدكتور أحمد محمد الحوفي كتاب مستقل عنه طبع ضمن سلسلة اعلام العرب بالقاهرة سنة ١٩٦٣.

لم يسعفه فدخل بغداد بُعَيْدَ وفاتهِ بقليلٍ، لكنه أقام بها وكتب عن شيوخها، من مثل محمد بن عبدالملك بن أبي الشَّوارب، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وأحمد بن منيع البَغوي، ومحمد بن حميد الرازي، ويعقوب بن إبراهيم الدَّورقي، وعمر بن علي الفلاس، وسفيان بن وكيع، وغيرهم من علماء الحديث والفقه والتفسير والعربية والنحو، وأكثر عن شيوخه البغداديين حتى كانوا أوسع مَنْ أخذَ عنهم.

ثم انحدر إلى البصرة فسمع من شيوخها مثل محمد بن موسى الحرشي، ومحمد بن عبدالأعلى الصنعاني، وبشر بن معاذ، ومحمد بن بشّار بُندار، ومحمد بن المثنى العَنَزي، وغيرهم. وكتب في طريقه عن شيوخه الواسطيين.

ثم رحل إلى الكوفة فكتب فيها عن أبي كريب محمد بن العلاء الهَمْداني، وهَنّاد بن السري، وإسماعيل بن موسى السُّدي وأضرابهم.

وعاد إلى بغداد فكتب بها ولزم المقام بها، وتفقه بها على مذهب الإمام الشافعي، ومكث فيها طويلاً حتى وفاته ـ فيما عدا مدة رحل منها إلى بعض البلدان، من بينها رحلة إلى مصر والشام بين (٢٥٣ ـ ٢٥٦)هـ، وعودة قصيرة إلى طبرستان سنة ٢٩٠هـ.

أخذ الطبري بمصر عن الربيع بن سليمان المُرادي، وإسماعيل بن إبراهيم المُزني، ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم، وابن وَهْب، ويونس بن عبدالأعلى الصَّدَفي وغيرهم، وكان يرافقه في هذه الرحلة ثلاثة من علماء العصر هم: إمام الأئمة ابن خُزيمة، ومحمد بن نصر المَرْوزي، ومحمد بن هارون الرُّوياني.

وفي مدينة السلام بغداد اكتملت علوم الطبري، فصار أحد علمائها الأعلام في القرآن، والفقه، والحديث، والتاريخ، واللغة، والنحو، والشعر، وبَزَّ أقرانه في هذه العلوم.

وفي مدينة السلام بغداد كتب كتبه النافعة، ولاسيما كتبه: التفسير والتاريخ، وتهذيب الآثار، فهو بغدادي الثقافة، والفكر، والتأليف، بقي فيها الى حين وفاته، فظهر أثر الثقافة البغدادية في تكوين فكره السَّلَفي الأصيل ورده على أهل البدع والضلالات، وتَصَدِّيهِ للجهمية والقدرية والمعتزلة في قولهم بقدرة العباد، وخلق القرآن، وإبطال رؤية الله تعالى يوم القيامة، وتخليد أهل الكبائر في النار، وإبطال شفاعة رسول الله ﷺ. وإيمانه ـ رحمه الله ـ أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن جميع ما في العالم لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى، وهي الآراء التي شحن بها كتبه دفاعاً عن العقيدة الإسلامية الصحيحة، وطريقة الصحابة والتابعين في فهم الكتاب والسنة.

**وفاته:**

قال أحمد بن كامل القاضي: توفي أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في وقت المغرب من عشية الأحد ليومين بقيا من شوّال سنة عشر وثلاث مئة. ودُفن وقد أضحى النهار من يوم الإثنين غد ذلك اليوم في داره برحبة يعقوب بمدينة السلام بغداد، واجتمع لتشييعه من لا يحصيهم عدداً إلا الله، وصلّي على قبره عدة شهور ليلاً ونهاراً، ورثاه خَلْقٌ كثير من أهل الديْن والأدب.

وكان ابن كامل القاضي ممن حضر وفاته، وقد قيل لأبي جعفر الطبري قبل خروج روحه: يا أبا جعفر أنتَ الحجةُ فيما بيننا وبين الله فيما ندين به، فهل من شيء توصينا به من أمر دِيننا، وبَيِّنة لنا نرجو بها السلامة في معادنا؟ فقال: الذي أدينُ اللهَ به وأوصيكم هو ما ثَبَّتُّ في كتبي فاعملوا به وعليه. وأكثرَ من التشهُّد وذكر الله عز وجل، ومسح يده على وجهه، وغَمَّضَ بصَره بيده، وبسَطَها وقد فارقت روحه الدنيا.

ووصفه أصحابه بأنه كان أسمر الى الأدمة، أعين، نحيف الجسم، مديد القامة ـ رحمه الله تعالى ـ.

**أقوال العلماء فيه:**

ونرى من المفيد أن نقتطف هنا آراء العلماء والنُّقَّادِ ممن عاصره أو جاء بعده، لما لذلك من أهمية في توثيقه وبيان فضله ومنزلته، وعُلُوِّ مرتبته، واتساع دائرة علمه.

قال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة المتوفى سنة ٣١١هـ للحسين بن علي التميمي المعروف بحُسَيْنَك لما عاد من رحلته إلى بغداد ولم يسمع من أبي جعفر الطبري: «لو سمعت منه لكان خيراً لك من جميع من سمعت منه سواه»[١٠]. وقال في موضع آخر: «ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير»[١١].

وقال أبو علي الطوماري: كنت أحمل القنديل في شهر رمضان بين يدي أبي بكر بن مجاهد (المتوفى سنة ٣٢٤هـ) إلى المسجد لصلاة التراويح، فخرج ليلة من ليالي العشر الأواخر من داره واجتاز على مسجده فلم يدخله وأنا معه، وسار حتى انتهى إلى آخر سوق العطش فوقف بباب مسجد محمد بن جرير، ومحمد يقرأ سورة الرحمن، فاستمع قراءته طويلاً ثم انصرف، فقلت له: يا أستاذ تركت الناس ينتظرونك وجئت تسمع قراءة هذا؟ فقال: يا أبا عليّ دع هذا عنك، ما ظننت أن الله تعالى خلق بشراً يحسن يقرأ هذه القراءة»[١٢].

وقال ابن مجاهد أيضاً: قال أبو العباس (أحمد بن يحيى ثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ) يوماً: مَن بقي عندكم - يعني في الجانب الشرقي ببغداد - من النحويين؟ فقلت: ما بقي أحدٌ، مات الشيوخ. فقال: حتى خلا جانبكم؟ قلت: نعم الا أن يكون الطبري الفقيه. فقال لي: ابن جرير؟ قلت: نعم. قال: ذاك من حُذّاق الكوفيين. قال أبو بكر (بن مجاهد): وهذا من أبي

(١٠) تاريخ الخطيب: ٢/١٦٤.

(١١) أنساب السمعاني: ٨/٢٠٦.

(١٢) تاريخ الخطيب: ٢/١٦٤.

العباس كثير، لأنه كان شديد النَّفْس شرس الأخلاق، وكان قليل الشهادة لأحد بالحذق في علمه»[١٣].

وقال أبو سعيد بن يونس المتوفى سنة ٣٤٧هـ: «محمد بن جرير من أهل آمل، كتب بمصر، ورجع إلى بغداد، وصنّف تصانيف حسنة تدل على سعة علمه»[١٤].

وقال أبو بكر أحمد بن كامل القاضي تلميذه المتوفى سنة ٣٥٠هـ: «أربعة كنت أحب بقاءهم: أبو جعفر بن جرير، والبربري، وأبو عبدالله بن أبي خيثمة، والمَعْمَري، فما رأيت أفهم منهم ولا أحفظ»[١٥].

وقال في موضع آخر: «لم أرَ بعد أبي جعفر أجمع للعلم وكتب العلماء ومعرفة اختلاف الفقهاء وتمكنه من العلوم منه»[١٦].

وقال أبو محمد عبدالله بن أحمد الفرغاني المتوفى سنة ٣٦٢هـ: «وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل، وحاسد، وملحد، فأما أهل الدين والعلم، فغير منكرين علمه، وزهده في الدنيا، ورفضه لها، وقناعته - رحمه الله - بما كان يردُ عليه من حصةٍ من ضيعة خلّفها له أبوه بطبرستان يسيرة»[١٧].

وقال أبو محمد عبدالعزيز بن محمد الطبري: «كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ على ما لا يجهله أحد عرفه، لجمعه من علوم الإسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحدٍ من هذه الأمة، ولا ظهر من كتب المصنفين وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له. وكان راجحاً في علوم القرآن والقراءات وعلم

(١٣) ارشاد الأريب: ٦/٤٣٨.

(١٤) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢٦٩.

(١٥) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢٧٥.

(١٦) إرشاد الأريب: ٦/٤٤٨.

(١٧) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢٧٤.

التاريخ من الرسل والخلفاء والملوك واختلاف الفقهاء. . . وقد كان له قدم في علم الجدل يدل على ذلك مناقضاته في كتبه على المعارضين لمعاني ما آتى به وكـان فيه من الزهد والورع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال وصدق النية وحقـائق الأفعـال ما دلّ عليه كتـابـه في آداب النفـوس، وكان يحفظ الشعر للجاهلية والإسلام ما لا يجهله إلا جاهل به. . . وكان خلياً عن الدنيا تاركاً لها ولأهلها، يرفع نفسه عن التماسها، وكان كالقارىء الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب. وكان عاملاً للعبادات جامعاً للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدتَ لكتبه فضلاً على غيرها»[18].

وقـال الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ: «استوطن الطبري بغداد وأقام بها إلى حين وفاته، وكان أحد أئمة العلماء يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله. وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره. وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوالِ الصحابةِ والتابعين، ومَنْ بعدهم من الخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم»[19].

وقال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ: «وكان قد جمع من العلوم ما رأس به أهل عصره، وكان حافظاً للقرآن، بصيراً بالمعاني، عالماً بالسنن، فقيهاً في الأحكام، عالماً باختلاف العلماء، خبيراً بأيام الناس وأخبارهم»[20].

---

(١٨) ارشاد الأريب: ٦/٤٣٧-٤٣٩.

(١٩) تاريخه: ٢/١٦٣.

(٢٠) المنتظم: ٦/١٧١.

وقال جمال الدين القِفْطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ: «العالم الكامل الفقيه المقرىء النحوي اللغوي الحافظ الأخباري، جامع العلوم، لم يُرَ في فنونه مثله».

وقال القاضي شمس الدين ابن خَلِّكان المتوفى سنة ٦٨١هـ: «كان إماماً في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك. وله مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله، وكان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحداً... وكان ثقة في نقله، وتاريخُه أصح التواريخ وأثبتها»[٢٢].

وقال مؤرخ الإسلام الحافظ شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ: «الإمام العَلَم المجتهد، عالم العصر، صاحب التصانيف البديعة... كان من كبار أئمة الاجتهاد... كان ثقة، صادقاً، حافظاً، رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والاجتماع والاختلاف، علّامة في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات، وباللغة، وغير ذلك».

## جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

هذا هو العنوان الذي وسم به أبو جعفر الطبري كتابه في تفسير القرآن الكريم، وأملاه ببغداد ابتداءً من سنة ٢٨٣هـ وانتهى من إملائه سنة ٢٩٠هـ[٢٣]، فجاء أجَلَّ تفسيرٍ على الإطلاق.

قال الطبري: حدثتني به نفسي وأنا صبي. وقال: استخرت الله تعالى

(٢١) انباه الرواة: ٣/٨٩.

(٢٢) وفيات الأعيان: ٤/١٩١.

(٢٣) تاريخ الخطيب: ٢/١٦٤ أما ما ورد في إرشاد الأريب لياقوت (٦/٤٣٩) من قول أبي بكر بن كامل أن الطبري قرأه عليهم سنة ٢٧٠ فالظاهر أنه تصحيف، والصواب ٢٩٠.

في عمل كتاب التفسير، وسألته العون على ما نويته ثلاث سنين قبل أن أعمله، فأعانني"[٢٤].

وكان في قدرة الطبري أن يؤلف كتاباً ضخماً جداً في التفسير لما حصل عليه من المعارف المتنوعة المكوّنة له، فيروى عنه أنه قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة. فقالوا: هذا مما تفنىٰ الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة[٢٥]. وذكر أبو محمد عبدالعزيز بن محمد الطبري أنه رأى نسخة منه ببغداد تشتمل على أربعة آلاف ورقة.

نال كتاب الطبري شهرة لم ينلها كتاب في بابته، وحُمِلَ هذا الكتاب مشرقاً ومغرباً، وقرأه الجم الغفير من العلماء في وقته، وكُلٌّ فضَّلَهُ وقدّمه، حتى قال أبو حامد الإسفراييني: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً[٢٦]، ونظر فيه إمام الأئمة ابن خزيمة من أوله إلى آخره فلم يجد أعلم من مؤلفه[٢٧]، ووصفه الخطيب بأنه لم يصنف أحد مثله[٢٨]. وقال أبو محمد الفرغاني: تمَّ من كتب محمد بن جرير كتاب التفسير الذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب، كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد مستقصىً لفَعَلَ[٢٩].

من أجل ذلك اعتنى به الناس عناية شديدة، فاختصره قديماً غير واحد

---

(٢٤) ارشاد الأريب: ٦/٤٣٩.

(٢٥) تاريخ الخطيب: ٢/١٦٣. وتروى مثل هذه الحكاية عن التاريخ أيضاً.

(٢٦) تاريخ الخطيب: ٢/١٦٣.

(٢٧) نفسه: ٢/١٦٤.

(٢٨) نفسه: ٢/١٦٣.

(٢٩) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢٧٣.

من العلماء[٣٠]، وتُرجم منذ القرن الرابع إلى الفارسية[٣١]، ثم إلى التركية[٣٢]. كما أفاد منه كل المفسرين الذين جاءوا بعده، واختصره من المتأخرين غير واحد، وترجم أخيراً إلى الانكليزية[٣٣].

وطبع الكتاب كاملاً بالمطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٢١هـ، ثم بمطبعة بولاق سنة (١٣٢٣ - ١٣٣٠هـ) وغيرهما، وأخرج منه العلامة المحقق الأديب الكبير محمود شاكر ستة عشر مجلداً طبعت في دار المعارف بمصر، ثم توقف عن إتمامه. وأُعِيد نشره على هذه الطبعات عشرات المرات بطريقة التصوير.

استوعب الطبري في كتابه معظم التفاسير المعروفة إلى عصره مما يرتضيه، مثل كتب التفاسير المصنفة عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وقتادة بن دعامة السدوسي، والحسن البصري وأضرابهم.

وأفاد من تفاسير عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جريج، ومقاتل بن حيان النَّبَطيّ.

واستوعب معظم الأحاديث المعروفة في التفسير، صحيحها وضعيفها، فضلاً عن الآثار المروية عن الصحابة والتابعين الذين عُرِف عنهم العناية بتفسير الكتاب العزيز.

على أنّه لم يُدخل في كتابه التفاسير غير الموثوقة، مثل تفاسير ابن الكلبي، ومقاتل بن سليمان، ومحمد بن عمر الواقدي، في حين أخذ عنهم الأخبار والتاريخ كما فعل كثير من المحدثين.

واستقصى كتُب معاني القرآن، مثل كتب: علي بن حمزة الكسائي،

---

(٣٠) الفهرست لابن النديم: ٣٢٦.

(٣١) بروكلمان: ١/٢١٣ (الملحق).

(٣٢) نفسه: ١/٢٤٩.

(٣٣) صدر منه المجلد الأول عن مطبعة اكسفورد.

ويحيى بن زياد الفراء، وأبي الحسن الأخفش، وأبي علي قطرب وغيرهم مما يقتضيه الكلام عند حاجته إليه.

وشحن الكتاب باختلاف القَرَأة، واختلاف النحويين البصريين والكوفيين، وساق الكثير من الشعر الجاهلي والاسلامي للاستدلال به على مدلولات الألفاظ تعضيداً لرأيه أو آراء الآخرين.

**تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن:**

لذلك أصبح «جامع البيان» كتاباً ضخماً يعجز عن قراءته الكثير من المثقفين والمتشوقين إلى معرفة كتاب الله تعالى من غير المختصين به، فضلاً عما فيه من ذكر الاختلافات الكثيرة في التفسير والقراءات والدقائق النحوية واللغوية، وكثرة الأحاديث الضعيفة، وعدم إدراك الناس لمراد الطبري من الاستدلال بها، إلا من رحم ربي، فصار الناس يتيهون في كل هذا ويصعب عليهم إدراك المعاني والدلالات والآراء التي قصدها المؤلف وأراد تثبيتها، وفي كل هذا خطر كبير على تكوين العقل المسلم حينما لا يكون متخصصاً في العلوم الاسلامية.

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من الاختلاف في الكتاب العزيز، فعن جُندب ابن عبدالله البَجَلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرَؤُوا القرآن ما ائتَلَفَت عليه قلوبُكم، فاذا اختلفتُم فقوموا»[٣٤].

وكنتُ منذ طلبي العلم أرجع إلى «جامع البيان» فتسحرني عبارة الطبري القوية البليغة بعد عرضه لآراء المخالفين في كتابه، فيبدو «تفسيره» الخاص به متحداً مترابطاً يصدر عن فهم عميق وإدراك دقيق لكتاب الله العزيز يسير على نمط واحد من أول الكتاب إلى آخره.

---

(٣٤) أخرجه أحمد: ٤/٣١٣، والدارمي (٣٣٦٢) و(٣٣٦٤)، والبخاري: ٦/٢٤٤ و٩/١٣٦، ومسلم: (٢٦٦٧).

ثم أنبهني بعض أصدقائي من محبي العلم إلى الفائدة العظيمة من تقديم «تفسير» الطبري وحده مما ورد في «جامع البيان» دون الآراء والأحاديث والأشعار والقراءات التي استدل بها مخالفوه، أو استدل بها هو نفسه في الرد عليهم أو تقوية رأيه.

وقد شجعني على المضي في هذا العمل ما رأيته من صنيع بعض من اختصر الكتاب أو هذبه في إبقائه على الآراء المختلفة والاقتصار على اختصار الأسانيد وبعض الأشعار، أو اختصاره اختصاراً مجحفاً أخرجه عن مقصده[٣٥].

من هنا أزمعت على تقديم «تفسير الطبري» وحده بعيداً عن الآراء والاستشهادات الكثيرة المتباينة في التفسير، وعُنيت بهذا الأمر عناية شديدة بحيث يأتي الكتاب لطيفاً في حجمه، مستوعباً لجميع ما توصل إليه المؤلف من تأويل.

لذلك حذفت التفاسير التي نقلها ولم يَرْضَهَا وتَوصَّلَ إلى ما يخالفها. وأسقطت معظم ما استشهد به هو أو مخالفوه من الشواهد الشعرية واللغوية، والخلافات الفرعية في الدقائق النحوية.

وأهملت معظم ما استند إليه من الأحاديث والآثار إذ أن في كلامه الذي ارتضاه خلاصة لها، إلا في القليل النادر الصحيح منها، وإلا فإن الغالب على ما ساقه من الأسانيد عدم ارتقائها إلى مراتب الصحة القاطعة.

ولعل مما شجعني على هذا الفعل ما توصل إليه العلامة الجليل الأستاذ محمود شاكر من فائدة تبين أن استدلال الطبري بالآثار الواهية التي يرويها بأسانيدها، لا يراد به إلا تحقيق معنى لفظ أو بيان سياق عبارة، كاستدلال

---

(٣٥) للشيخ العلامة الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد كتاب نفيس في الرد على اختصار الشيخ الصابوني لتفسير الطبري عنوانه «التحذير من مختصرات محمد الصابوني في التفسير» فليراجع ففيه فوائد جمة.

المستدل بالشعر على معنى لفظ في كتاب الله وأنه من أجل هذا الاستدلال لم يبال بما في الإسناد من وهن لا يرتضيه، فهو لم يسقها لتكون مهيمنة على تفسير آي التنزيل الكريم[٣٦].

على أنني رأيت ضرورة الابقاء على استشهادات المؤلف من آي الكتاب العزيز، فهي من أصح ما يُفسّر به، فضلاً عن أنها تزيد من قوة ترابط التفسير الواحد الذي ارتضاه المؤلف.

- وهذا المنهج الذي انتهجته هو الذي حدا بي إلى وسم هذا الاختصار بـ «تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن» ليكون دالاً على اقتصاره على كلام الطبري وما ارتضاه من تأويل لكل آية.

كما عُنينا برصدِ الآراء التي أوردها الطبريُّ عن كبار المفسرين في تأويل كل آية من غير ذكرٍ لأسانيدها ورواتها إذ لم نجد فائدةً للقارىء المثقف في الإبقاء عليها لما فيها من التكرار الذي قد يضيعُ الفائدةَ ويقطع تسلسلَ فهمِ القارىء وتملِّيه للنص.

وحذفنا الاستدلالات التي ساقها المؤلف لإثبات صحة قراءة عاصم، وهي التي اشتهرت في المصاحفِ المطبوعةِ بالمشرق، لأنها لا تُضيفُ جديداً لما هو معروفٌ متداول عند الناس في عصرنا. وفي الوقت نفسه أبقينا على القراءات التي رَجَّحها الطبري على هذه القراءة وما استدلَّ به من الاستدلالاتِ العلمية النفيسة في إثباتِ رجحانها، لما عرفنا عنه من تَبَحُّرٍ في هذا العلم ومعرفة متميزة بأصوله ودقائقه، لينتفع بها أهلُ العلم والقراء على حَدٍّ سواء.

---

(٣٦) مقدمة العلامة الأستاذ محمود شاكر لتفسير الطبري ١/١٧، وتعليقه على المجلد الأول ١/٤٥٤، ٤٥٨ من طبعته المحققة.

ولأبي جعفر آراء سديدة في مسائل الناسخ والمنسوخ، إذ هو من الذين لا يرتضون القولَ بالنسخ إلا بدليلٍ واضح بَيِّنٍ، وله في ذلك مؤلف أشار إليه في تضاعيف كتابه غير مرةٍ، لذا رأينا من المفيد النافع الإبقاء على كثير مما أثبته ودلَّلَ عليه في هذا الشأن لما فيه من الفوائد والعوائد.

ولا بد لنا من أن نشير إلى أننا عرضنا خطتنا وعملنا على طائفة من أهل العلم بعد أن قطعنا فيه شوطاً، فكانوا - جزاهم الله خيراً - يرفدوننا بآرائهم ومقترحاتهم، فنقوّم طريقتنا في الاختيار والتهذيب والإخراج حينما نجد ذلك نافعاً للكتاب مُحَسِّناً له.

وفي مقدمة من اطلع على هذا العمل مذ بدأنا به صديقنا العلامة النحرير المحدث العالم بكتاب الله الفقيه الأصولي النظار الشيخ شعيب الأرنؤوط - مَتَّع الله المسلمين بعلمه ومعرفته - فأنبهنا إلى جملة أمور أدت إلى إنضاج هذا العمل حتى ظهر بهذه الهيأة العلمية النافعة إن شاء الله تعالى، فجزاه الله عنا وعن القراء خير ما يجازي به عباده الصالحين.

كما نرى من الواجب علينا أن ننوه بمؤسسة الرسالة والأستاذ محمد إقبال دعبول الذي تحمس لهذا العمل وتحمل نشره لما رأى فيه من نفع لأمةِ العربيةِ أمّةِ القرآن.

وقد رأيتُ من المفيد لهذا الكتاب أن يشاركني في العمل به صديقي الفاضل الأستاذ عصام فارس الحرستاني، لما عرفته عنه من دقة في عمله وإتقان في ضبطه وتدقيقه وذوق رفيع في الفهم والاختيار، فكان هذا من توفيق الله سبحانه وفضله ومَنّه.

ولسنا هنا في حال ذكر ما عانينا في هذا التهذيب، وما قمنا به من ضبط وتدقيق، فإن الكتاب الذي بين يدي القارىء هو المُنْبِىءُ بكل ذلك.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا وينفع الناسَ بهذا الكتاب، ويتقبل منـا عملنـا فيه، ويجنبنـا مواطن الزلل، وأن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

**وكتبه**

**بمدينة عمان / البلقاء**

**أبو محمـد**

**بشّار بن عوّاد بن معروف البغدادي**


تفسير الطبري
من كتابه
جامع البيان عن تأويل آي القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي حجت الألبابَ بدائعُ حِكمه، وخَصمَت العقولَ لطائفُ حُججه، وقطعت عذرَ الملحدين عجائبُ صُنعه، وهَتفتْ في أسماع العالمينَ ألسنُ أدلته، شاهدةً أنه الله الذي لا إله هُو، الذي لا عِدْلَ له معادل، ولا مِثلَ له مماثل، ولا شريكَ له مُظاهِر، ولا وَلدَ له ولا والد، ولم يكن له صاحبةٌ ولا كفـواً أحدٌ، وأنه الجبار الذي خضعت لجبروته الجبابرة، والعزيز الذي ذلت لعـزته الملوكُ الأعزّة، وخشعت لمهابة سطوته ذَوُو المهابة، وأذعنَ له جميعُ الخلق بالطاعة طوْعاً وكرهاً، كما قال الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿ولله يَسْجُـدُ مَنْ فِي السَّمـوَاتِ والأَرْض طَوْعـاً وَكَرْهاً وَظِلاَلُهُمْ بِالغُدُوِ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] فكل موجود إلى وَحدانيته داعٍ، وكل محسوس إلى رُبوبيته هادٍ، بما وَسَمهم به من آثار الصنعة، من نقص وزيادة، وعجز وحاجة، وتصرف في عاهات عارضة، ومقارنة أحداث لازمة، لتكونَ له الحجة البالغة.

ثم أرْدف ما شهدتْ به من ذلك أدلَّتهُ، وأكد ما استنارت في القلوب منه بهجته، برسلٍ ابتعثهم إلى من يشاء من عباده، دعاة إلى ما اتضحت لديهم صحّتـه، وثبتت في العقول حجته، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وليذَّكَّر أولو النهى والحلم. فأمدَّهم بعوْنه، وأبانهم من سائر خلقه، بما دلّ به على صدقهم من الأدلة، وأيدهم به من الحجج البالغة والآي المعجزة، لئلا يقول القائل منهم: ﴿مَا هٰذَا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأكُلُ مِمَّـا تَأكُلُونَ منْـه وَيَشْـرَبُ مِمَّـا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إنَّكُمْ إذاً لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤] فجعلهم سفراءَ بينه وبين خلقه، وأمناءه على وحيه، واختصهم بفضله، واصطفاهم برسالته، ثم جعلهم ـ فيما خصهم به من مواهبـه، ومَنَّ به عليهم من كرامـاته ـ مراتبَ مختلفة، ومنازل مُفترقة، ورفع بعضهم فوق بعض درجـات، متفـاضـلات متباينات. فكرَّم بعضهم بالتكليم

والنجوى، وأيَّد بعضهم بروح القدس، وخصّه بإحياء الموتى، وإبراء أولي العاهة والعمى، وفضَّل نبينا محمداً ﷺ، من الدرجات بالعليا، ومن المراتب بالعُظمى. فحباه من أقسام كرامته بالقسم الأفضل، وخصه من درجات النبوّة بالحظ الأجزَل، ومن الأتباع والأصحاب بالنصيب الأوفر. وابتعثه بالدعوة التامة، والرسالة العامة، وحاطه وحيداً، وعصمه فريداً، من كل جبار عاند، وكل شيطان مارد، حتى أظهر به الدِّين، وأوضح به السبيل، وأنهج به معالم الحق، ومَحَق به منار الشِّرك. وزُهِقَ به الباطلُ، واضمحل به الضلالُ وخُدَعُ الشيطان وعبادةُ الأصنام والأوثان، مُؤَيَّداً بدلالةٍ على الأيام باقية، وعلى الدهور والأزمان ثابتة، وعلى مَرِّ الشهور والسنين دائمة، يزداد ضياؤها على كرّ الدهور إشراقاً، وعلى مرّ الليالي والأيام ائتلاقاً، خِصِّيصَى[1] من الله له بها دون سائر رسله - الذين قهرتهم الجبابرة، واستذلَّتهم الأمم الفاجرة، فتعفَّتْ بعدهم منهم الآثار، وأخملت ذكرهم الليالي والأيام - ودون مَنْ كان منهم مُرْسلاً إلى أمة دون أمة، وخاصّة دون عامةٍ، وجماعة دون كافَّة.

فالحمدُ لله الذي كرمنا بتصديقه، وشرّفنا باتِّباعه، وجعلنا من أهل الإقرار والإيمان به وبما دعا إليه وجاء به، ﷺ، أزكى صلواته، وأفضل سلامه وأتمَّ تحياته.

ثم أما بعد، فإنّ من جسيم ما خصّ الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة، وشرَّفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة، وحباهم به من الكرامة السنية، حفظَه ما حفظ عليهم - جلّ ذكره وتقدست أسماؤه - من وحيه وتنزيله، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيهم ﷺ دلالة، وعلى ما خصه به من الكرامة علامةً واضحة، وحجةً بالغة، أبانه به من كل كاذب ومفترٍ، وفصَل به وبينهم وبين كل جاحد ومُلْحِد، وفرَّق به بينهم وبين كل كافر ومشرك؛ الذي لو اجتمع جميعُ من بين أقطارها، من جِنّها وإنسها وصغيرها وكبيرها، على أن

(١) أفرده به دون غيره.

يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فجعله لهم في دُجى الظُّلم نوراً ساطعاً، وني سُدَف الشُّبَه شهاباً لامعاً[1]، وفي مضَلة المسالك دليلاً هادياً، وإلى سبل النجاة والحق حادياً، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦] حَرَسَهُ بعينٍ منه لا تنام، وحاطه برُكنٍ منه لا يضام، لا تَهِي على الأيام دعائمه، ولا تبيدُ على طول الأزمان معالمه، ولا يجور عن قصد المحجَّة تابِعُه[2]، ولا يضل عن سُبُل الهدى مُصَاحبه. من اتبعه فاز وهُدِي، ومن حاد عنه ضلَّ وغَوَى، فهو موئلهم الذي إليه عند الاختلاف يَئِلون، ومعقلهم الذي إليه في النوازل يعقلون[3]، وحصنهم الذي به من وساوس الشيطان يتحصنون، وحكمة ربهم التي إليها يحتكمون، وفصْل قضائه بينهم الذي إليه ينتهون، وعن الرضى به يصدرون، وحبله الذي بالتمسك به من الهلكة يعتصمون.

اللهم فَوَفِّقْنَا لإصابة صواب القول في مُحْكَمه ومُتَشابهه، وحلاله وحرامه، وعامِّه وخاصه، ومجمَله ومفسره، وناسخه ومنسوخه، وظاهره وباطنه، وتأويل آيِه وتفسير مُشْكِله. وألهمنا التمسكَ به والاعتصامَ بمحكمه، والثبات على التسليم لمتشابهه. وأوزعنا الشكر على ما أنعمتَ به علينا من حفظه والعلم بحدوده. إنك سميع الدعاء قريب الإجابة. وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

اعلموا عبادَ الله، رحمكم الله، أن أحقَّ ما صُرِفت إلى علمه العناية،

---

(١) السدف: جمع سدفة، وهي ظلمة الليل يخالطها بعض الضوء، تكون في أول الليل وآخره ما بين الظلمة إلى الشفق، وما بين الفجر إلى الصلاة.

(٢) المحجة: الطريق. والقصد: استقامة الطريق وسهولته.

(٣) وأل يئل وألا ووؤولا: لجأ طلباً للنجاة. والموئل: الملجأ والمنجى. والمعقل: الحصن المنيع في رأس الجبل، وعقل إليه يعقل عقلا وعقولا: لجأ إليه وامتنع به.

وبُلِغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضىً، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى وأن أجْمعَ ذلك لباغيه كتابُ الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مِرْية فيه، الفائزُ بجزيل الذخر وسنيّ الأجر تَالِيهِ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حَميد.

ونحن ـ في شرح تأويله، وبيان ما فيه من معانيه ـ منشئون إن شاء الله ذلك، كتاباً مستوعِباً لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه، جامعاً، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافياً. ومُخْبِرُونَ في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه منه، واختلافها فيما اختلفت فيه منهُ. ومُبَيِّنُو عِلَل كل مذهب من مذاهبهم، ومُوَضِّحو[1] الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه.

والله نسألُ عونه وتوفيقه لما يقرب من محَابِّهِ، ويُبْعد من مَساخِطه. وصلى الله على صفوته من خلقه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

وأولُ ما نبدأ به من القِيل في ذلك: الإبانةُ عن الأسباب التي البدايةُ بها أولى، وتقديمها قبل ما عداها أحْرى. وذلك: البيانُ عما في آي القرآن من المعاني التي من قِبَلها يدخلُ اللَّبْس على مَنْ لم يعانِ رياضةَ العلوم العربية ولم تستحكم معرفتُه بتصاريف وجوه منطق الألسُن السليقية الطبيعية.

## القولُ في البيانِ عن اتّفاق معاني آي القرآن، ومعاني منطق مَنْ نزل بلسانه القرآن من وَجْه البيان ـ والدّلالة على أن ذلك من الله تعالى ذكره هو الحكمة البالغة ـ مع الإبانةِ عن فضْل المعنَى الذي به بَايَن القرآنُ سائرَ الكلام

إن من أعظم نعم الله تعالى ذكره على عباده، وجسيم منّته على خلقه،

(١) قال شيخنا العلامة مصطفى جواد رحمه الله ـ ومن خطه نقلت ـ: إثبات النون أولى، كما قال «منشئون» أولاً.

ما منحهم من فَضْـل البيان الذي به عن ضمائرِ صُدُورهم يُبينون، وبه على عزائم نفوسهم يَدُلُّون، فذلَّلَ به منهم الألسن، وسهَّل به عليهم المستصعِب. فبِهِ إياه يُوَحِّدون، وإيَّاه به يُسَبِّحون ويقدسون، وإلى حاجاتهم به يتوصّلون، وبه بينهم يَتحاورُون، فيتعارفون ويتعاملون.

ثم جعلهم، جلّ ذكره ـ فيما منحهم من ذلك ـ طبقاتٍ، ورفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ: فَبَيْنَ خطيب مُسْهِب، وذَلِقِ اللسان مُهْذِب، ومفْحَمٍ عن نفسه لا يُبين، وعَيِيٍّ عن ضمير قلبه لا يُعبّر. وجعل أعلاهم فيه رُتبة، وأرفعهم فيه درجةً، أبلغَهم فيما أرادَ به بَلاغاً، وأبينَهم عن نفسه به بياناً. ثم عرّفهم في تنزيله ومحكم آيِ كتابه فضلَ ما حباهم به من البيان، على مَنْ فضّلهم به عليه من ذي البَكَم والمُسْتَعْجِم اللسان، فقال تعالى ذكرهُ: ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحِلْيَةِ وَهوَ في الخِصَام غَيرُ مُبِين﴾ [الزخرف: ١٨]. فقد وَضَحَ إذاً لذوي الأفهام، وتبين لأولي الألباب، أنّ فضلَ أهل البيان على أهل البَكَمَ والمستعجِم اللسان، بفضل اقتدار هذا من نفسه على إبانة ما أراد إبانته عن نفسه ببيانه، واستعجام لسان هذا عما حاول إبانته بلسانه.

فإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان المعنى الذي به باينَ الفاضلُ المفضولَ في ذلك، فصار به فاضلاً والآخرُ مفضولاً، هو ما وصفنا من فضْل إبانة ذي البيان، عما قصّر عنه المستعجمُ اللسان، وكان ذلك مختلفَ الأقدار، متفاوتَ الغايات والنهايات ـ فلاشك أن أعلى منازل البيان درجةً، وأسنى مراتبه مرتبةً، أبلغُه في حاجة المُبين عن نفسه، وأبينُه عن مراد قائله، وأقربُه من فهم سامعه. فإن تجاوز ذلك المقدار، وارتفع عن وُسْع الأنام، وعجز عن أن يأتي بمثله جميعُ العباد، كان حجةً وعَلَماً لرسل الواحد القهار ـ كما كان حجةً وعَلَماً لها إحياءُ الموتى وابراءُ الأبرص وذوي العمى بارتفاع ذلك عن مقادير أعلى منازل طبّ المتطببين، وأرفع مراتب علاج المعالجين، إلى ما يعجز عنه جميع العالَمين. وكالذي كان لها حجةً وعَلَماً قطعُ مسافة شهرين في الليلة الواحدة، بارتفاع

ذلك عن وسع الأنام، وتعذر مثله على جميع العباد، وإن كانوا على قطع القليل من المسافة قادرين، وللیسير منه فاعلين.

فإذْ كان ما وصفنا من ذلك كالذي وصفنا، فَبَيِّنٌ أنْ لا بيانَ أبْيَنُ، ولا حكمة أبلغُ، ولا منطقَ أعلى، ولا كلَام أشرفُ ـ من بيانٍ ومنطق تحدّى به امرؤ قوماً في زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب والبلاغة، وقِيلِ الشعرِ والفصَاحة، والسجع والكهانة، على كل خطيب منهم وبليغ، وشاعر منهم وفصيح، وكل ذي سجع وكهانة ـ فسفَّه أحلامهم، وقصَّر بعقولهم[1]، وتبرأ من دينهم، ودعا جميعهم إلى اتباعه والقبول منه والتصديق به، والإقرار بأنه رسولٌ إليهم من ربهم. وأخبرهم أن دلالته على صِدْقِ مقالته، وحجَّتَه على حقيقة نبوّته ـ ما أتاهم به من البيان، والحكمة والفرقان، بلسانٍ مثل ألسنتهم، ومنطق موافقةٍ معانيه معاني منطقهم. ثم أنبأ جميعهم أنهم عن أن يأتوا بمثل بَعْضِهِ عَجَزَةٌ، ومن القدرة عليه نقَصَةٌ. فأقرّ جميعُهم بالعجز، وأذعنوا له بالتصديق، وشهدوا على أنفسهم بالنقص. إلا من تجاهل منهم وتعامى، واستكبر وتعاشَى، فحاول تَكَلُّفَ ما قد علم أنه عنه عاجز، ورام ما قد تيقن أنه عليه غير قادر. فأبدى من ضعف عقله ما كان مستتراً، ومن عِيٍّ لسانه ما كان مصُوناً، فأتى بما لا يعجزُ عنه الضعيف الأخرق، والجاهل الأحمق، فقال: «والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، والثاردات ثَرْداً، واللاقمات لقَمْا»[2]، ونحو ذلك من الحماقات المشبهةِ دعواه الكاذبة.

فإذْ كان تفاضُلُ مراتب البيان، وتبايُنُ منازل درجات الكلام، بما وصفنا قَبْلُ ـ وكان الله تعالى ذِكْرُهُ وتقدّست أسماؤه، أحكمَ الحكماء، وأحلمَ الحلماء ـ كان معلوماً أن أبينَ البيان بيانهُ، وأفضلَ الكلام كلامه، وأن قَدْرَ فضْلِ بيانه،

---

(١) سفه أحلامهم: نسبهم إلى السفه، وهو خفة الحلم واضطراب الرأي وضعفه، وهو باب من الجهل.

(٢) من هذيان مسيلمة الكذاب لعنه الله. انظر تاريخ الطبري ٣/٢٤٥ وسواه.

جلّ ذكره، على بيان جميع خلقه، كفضله على جميع عباده.

فإذْ كان كذلك ـ وكان غيرَ مبين منّا عن نفسه مَنْ خاطبَ غيره بما لا يفهمه عنه المخاطب ـ كان معلوماً أنه غير جائز أن يخاطبَ جَلَّ ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطَبُ، ولا يرسلَ إلى أحد منهم رسولاً برسالة إلا بلسانٍ وبيانٍ يفهمه المرسَلُ إليه. لأن المخاطب والمرسَلَ إليه، إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به إليه، فحالهُ ـ قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده ـ سواءٌ، إذ لم يُفِـدْهُ الخطابُ والرسالةُ شيئاً كان به قبل ذلك جاهلاً. والله جل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطاباً أو يرسل رسالةً لا توجب فائدةً لمن خُوطب أو أرسلت إليه، لأنَّ ذلك فينا مِنْ فِعْلِ أهلِ النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك مُتَعال. ولذلك قال جل ثناؤه في محكم تنزيله: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسَـانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُم الَّذِي اخْتَلَفُوا فيه وَهُدَىً ورَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]. فغير جائز أن يكونَ به مهتدياً، منْ كانَ بما يُهْدَى إليه جاهلاً.

فقد تبين إذاً ـ بما عليه دللنا من الدلالة ـ أن كلَّ رسولٍ لله جلّ ثناؤه أرسله إلى قوم، فإنما أرسلهُ بلسان مَن أرسله إليه، وكلّ كتاب أنزله على نبي، ورسالة أرسلها إلى أمة، فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله إليه. فاتَّضَحَ بما قلنا ووصفنا، أن كتاب الله الذي أنزله إلى نبينا محمد ﷺ، بلسان محمد ﷺ. وإذْ كان لسـانُ محمد ﷺ عربياً، فبيِّنٌ أن القرآن عربيٌّ. وبذلك أيضاً نطق محكم تنزيل ربنا، فقال جل ذكره: ﴿إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. وقال: ﴿وَإنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ. نَزَلَ به الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِك لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ـ١٩٥].

وإذْ كانت واضحةً صحةُ ما قلنا ـ بما عليه استشهدنا من الشواهد، ودللنا عليه من الدلائل ـ فالواجبُ أن تكون معاني كتاب الله المنزَل على نبينا محمد ﷺ، لمعاني كلام العرب موافقةً، وظاهرهُ لظاهر كلامها ملائماً، وإن باينه كتابُ الله

بالفضيلة التي فَضَلَ بها سائرَ الكلام والبيان، بما قد تقدّم وَصْفُنَاهُ.

فإذْ كان ذلك كذلك، فَبَيِّنٌ ـ إذْ كان موجوداً في كلام العرب الإيجازُ والاختصارُ، والاجتزاءُ بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمالُ الإطالة والإكثار، والترداد والتكرار، وإظهارُ المعاني بالأسماء دون الكناية عنها، والإسرار في بعض الأوقات، والخبرُ عن الخاصّ في المراد بالعامّ الظاهر، وعن العامّ في المراد بالخاصّ الظاهر، وعن الكناية والمرادُ منه المصرح، وعن الصفة والمرادُ الموصوف، وعن الموصوف والمرادُ الصفة، وتقديمُ ما هو في المعنى مُؤَخَّرٌ، وتأخيرُ ما هو في المعنى مُقَدَّمٌ، والاكتفاءُ ببعض من بعض، وبما يظهر عما يحذف، وإظهارُ ما حَظُّهُ الحذف ـ أن يكون ما في كتاب الله المنزَل على نبيه محمد ﷺ من ذلك، في كلّ ذلك له نظيراً، وله مِثْلاً وشبيهاً.

ونحن مُبَيِّنو جميع ذلك في أماكنه، إن شاء الله ذلك وأمدّ منه بعونٍ وقوة.

# القول في البيان
# عن الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب
# وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم

إن سألنا سائل فقال: إنك ذكرت أنه غيرُ جائز أن يخاطب الله تعالى ذكرهُ أحداً من خلقه إلا بما يفهمه، وأن يرسل إليه رسالة إلا باللسان الذي يفقهه، فما أنت قائل (بالأخبار التي تدل)[1] على أن فيه من غير لسان العرب؟

قيل له: إنّ الذي قالوه من ذلك غير خارج من معنى ما قلنا ـ من أجل أنهم لم يقولوا: هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاماً، ولا كان ذاك لها منطقاً قبل نزول القرآن، ولا كانت بها العرب عارفةً قبل مجيء الفرقان ـ فيكون ذلك قولاً لقولنا خِلافاً[2]. وإنما قال بعضهم: حرف كذا بلسان الحبشة معناهُ كذا، وحرفُ كذا بلسان العجم معناهُ كذا. ولم نستنكر أن يكون الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بجنسين منها؟ كما قد وجدنا اتفاق كَثير منه فيما قد علمناه من الألسن المختلفة، وذلك كالدرهم والدينار والدواة والقلم والقرْطاس، وغير ذلك ـ مما يُتْعِبُ إحصاؤه ويُمِلُّ تَعْدَادُهُ، كرهنا إطالة الكتاب بذكره ـ مما اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى. لعل ذلك كذلك في سائر الألسن التي نجهل منطقها ولا نعرف كلامها.

---

(١) ما بين المعقوفتين من عندي اقتضتها ضرورة التهذيب، وكل الأخبار التي ذكرها ضعيفة سوى خبرٍ واحد من كلام أبي ميسرة الكوفي، انفرد به الطبري وحده.

(٢) خلاف: مخالف، وسيكثر مجيئها في كلام الطبري.

فلو أن قائلاً قال ـ فيما ذكرنا من الأشياء التي عَدَدْنا وأُخْبِرْنا اتفاقَهُ في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية، وما أشبهَ ذلك مما سكتنا عن ذكره ـ : ذلك كله فارسي لا عربي، أو ذلـك كله عربي لا فارسي، أو قال: بعضه عربي وبعضه فارسي، أو قال كان مخرج أصله من عند العرب فوقع إلى العجم فنطقوا به، أو قال: كان مخرج أصله من عند الفرس فوقع إلى العرب فأعربته ـ كان مُستجهلاً. لأن العربَ ليست بأولى أن تكون، كان مخرجُ أصل ذلك منها إلى العجم، ولا العجم أحقُّ أن تكون كان مخرج أصل ذلك منها إلى العرب، إذ كان استعمال ذلك بلفظ واحد ومعنى واحد موجوداً في الجنسين.

وإذْ كان ذلك موجوداً على ما وصفنا في الجنسين، فليس أحدُ الجنسين أولى بأن يكون أصلُ ذلك كان من عنده من الجنسِ الآخر. والمدّعِي أن مخرج أصل ذلك إنما كان من أحد الجنسين إلى الآخر، مدّعٍ أمراً لا يُوصَلُ إلى حقيقة صِحَّتِهِ إلا بخَبَرٍ يُوجِبُ العِلْمَ، ويُزيلُ الشكَّ، ويقطع العذرَ صحّتُه.

بل الصواب في ذلك عندنا: أنْ يسمَّى: عربياً أعجمياً، أو حبشياً عربياً، إذ كانت الأمّتـان له مستعملتين ـ في بيانها ومنطقها ـ استعمالَ سائر منطقها وبيانها. فليس غيرُ ذلك من كلام كلّ أمة منهما، بأولى أنْ يكون إليه منسوباً ـ منه[1].

فكذلك سبيل كل كلمة واسم اتفقت ألفاظ أجناس أمم فيها وفي معناها، ووُجد ذلك مستعملاً في كل جنس منها استعمالَ سائرِ منطقهم، فسبيلُ إضافته إلى كل جنس منها، سبيلُ ما وصفنا ـ من الدرهم والدينار والدواة والقلم، التي اتفقت ألسنَ الفـرس والعرب فيها بالألفاظ الواحدة والمعنى الواحد، في أنه مستحقٌّ إضافته إلى كل جنس من تلك الأجناس ـ اجتماعٌ واقترانٌ[2].

وذلك هو معنى من روينا عنه القولَ في الأحرف التي مضت في صدر

---

(١) قول «منه» متعلق بقوله «بأولى»، أي «بأولى منه...».

(٢) أي أن يجمع بين الوصفين أو يقرن بين النسبتين.

هذا الباب، من نسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الحبشة، ونسبة بعضهم بعضَ ذلك إلى لسان الفرس، ونسبة بعضهم بعضَ ذلك إلى لسان الروم. لأنّ من نسب شيئاً من ذلك إلى ما نسبه إليه، لم ينفِ ـ بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه ـ أن يكون عربياً، ولا من قال منهم: هو عربيّ، نفى ذلك أن يكون مستحقاً النسبةَ إلى من هو من كلامه من سائر أجناس الأمم غيرها. وإنما يكون الإثبات دليلاً على النفي، فيما لا يجوز اجتماعه من المعاني، كقول القائل: فلان قائم، فيكون بذلك من قوله دالاً على أنه غير قاعد، ونحو ذلك مما يمتنع اجتماعه لتنافيهما. فأمّا ما جاز اجتماعه فهو خارج من هذا المعنى. وذلك كقول القائل: فلان قائم مكلِّمٌ فلاناً، فليس في تثبيت القيام له ما دلَّ على نفي كلام آخر، لجواز اجتماع ذلك في حالٍ واحدٍ من شخص واحد. فقائل ذلك صادق إذا كان صاحبه على ما وصفه به.

فكذلك ما قلنا ـ في الأحرف التي ذكرنا وما أشبهها ـ غيرُ مستحيل أن يكون عربياً بعضها أعجمياً، وحبشياً بعضها عربياً، إذ كان موجوداً استعمالُ ذلك في كلتا الأمتين. فناسِبُ ما نَسبَ من ذلك إلى إحدى الأمتين أو كلتيهما محقٌّ غيرُ مبطل.

فإن ظن ذو غباءٍ أنّ اجتماع ذلك في الكلام مستحيلٌ ـ كما هو مستحيل في أنساب بني آدم ـ فقد ظنّ جهلاً. وذلك أن أنساب بني آدم محصورة على أحد الطرفين دون الآخر، لقول الله تعالى ذكره: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ [الأحزاب: ٥]. وليس ذلك كذلك في المنطق والبيان، لأنّ المنطق إنما هو منسوب إلى من كان به معروفاً استعمالُه. فلو عُرِف استعمالُ بعض الكلام في أجناس من الأمم ـ جنسين أو أكثر ـ بلفظ واحد ومعنى واحد، كان ذلك منسوباً إلى كل جنس من تلك الأجناس، لا يستحق جنس منها أن يكون به أولى من سائر الأجناس غيره. كما لو أنّ أرضاً بين سَهل وجبل، لها هواء السهل وهواء الجبل، أو بين برٍّ وبحرٍ، لها هواء البر وهواءُ البحر ـ لم يمتنع

ذو عقل صحيح أن يصفها بأنها سُهْلية جبلية[1]. أو بأنها بَرِّية بحْرية، إذ لم تكن نسبتها إلى إحدى صفتيها نافيةً حقَّها من النسبة إلى الأخرى. ولو أفردَ لها مفردٌ إحدى صفتيها ولم يسلبها صفتها الأخرى، كان صادقاً محقاً.

وكذلك القول في الأحرف التي تقدم ذِكْرُنَاهَا في أول هذا الباب.

وهذا المعنى الذي قلناه في ذلك، هو معنى قول من قال: في القرآن من كل لسان[2] ـ عندنا بمعنى، والله أعلم: أنّ فيه من كلّ لسان اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرها من الأمم التي تنطق به، نظيرَ ما وصفنا من القول فيما مضى.

وذلك أنه غيرُ جائز أن يُتوهَّم على ذي فطرة صحيحة، مقرّ بكتاب الله، ممن قد قرأ القرآن وعرف حدود الله ـ أن يعتقد أن بعضَ القرآن فارسي لا عربي، وبعضه نبطي لا عربي، وبعضه رومي لا عربي، وبعضه حبشي لا عربي، بعد ما أخبر الله تعالى ذكرهُ عنه أنه جعله قرآناً عربياً. لأن ذلك إنْ كان كذلك، فليس قولُ القائل: القرآنُ حبشيٌّ أو فارسيٌّ، ولا نسبةُ من نسبه إلى بعض ألسن الأمم التي بعضهُ بلسانه دون العرب ـ بأولى بالتطويل من قول القائل: هو عربي. ولا قولُ القائل: هو عربيٌّ بأولى بالصّحة والصواب من قول ناسبه إلى بعض الأجناس التي ذكرناها. إذ كان الذي بلسان غير العرب من سائر ألسن أجناس الأمم فيه، نظيرَ الذي فيه من لسان العرب.

وإذا كان ذلك كذلك، فَبَيِّنٌ إذاً خطأ من زعم أن القائل من السلف: في القرآن من كل لسان، إنما عنى بِقِيلِهِ ذلك، أنّ فيه من البيان ما ليس بعربيّ، ولا جائز نسبته إلى لسان العرب.

ويقال لمن أبى ما قلنا ـ ممن زعم أن الأحرف التي قدمنا ذكرها في أول

---

(١) النسب إلى السهل (بفتح فسكون): (سُهْلي)، بضم السين، على غير القياس.

(٢) هو قول أبي ميسرة الكوفي أخرجه عنه الطبري بسند صحيح، لكنه انفرد به.

الباب وما أشبهها، إنما هي كلام أجناس من الأمم سوى العرب، وقعت إلى العرب فعرَّبته ـ: ما برهانك على صحة ما قلت في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له، فقد علمتَ مَن خالفك في ذلك، قال فيه خلاف قولك؟ وما الفرقُ بينك وبين مَنْ عارضك في ذلك، فقال: هذه الأحرف، وما أشبهها من الأحرف غيرها، أصلها عربي، غير أنها وقعت إلى سائر أجناس الأمم غيرها فنطقت كل أمة منها ببعض ذلك بألسنتها من الوجه الذي يجبُ التسليم له؟

فلن يقول في شيء من ذلك قولاً إلا ألزم في الآخر مثله.

فإن اعتـلَّ في ذلك بأقوال السلف التي قد ذكرنا بعضها وما أشبهها، طُولِبَ ـ مطالبَتنا مَنْ تأوَّل عليهم في ذلك تأويله ـ بالذي قد تقدم بيانه. وقيل له: ما أنكرتَ أن يكون من نسب شيئاً من ذلك منهم إلى من نسبه من أجناس الأمم سوى العرب، إنما نسبه إلى إحدى نسبتيه التي هو لها مستحق، من غير نَفيٍ منه عنه النسبة الأخرى؟ ثم يقال له: أرأيتَ من قال لأرض سُهْلية جبلية: هي سُهلية، ولم ينكر أن تكون جبلية، أو قال: هي جبلية، ولم يدفعْ أن تكون سُهْلية، أنافٍ عنها أن تكون جبلية، أو قال: هي جبلية، ولم يدفعْ أن تكون سُهْلية، أنافٍ عنها أن تكون لها الصفة الأخرى بقيله ذلك؟

فإن قال: نعم! كابر عَقْلَه. وإن قال: لا، قيل له: فما أنكرت أن يكون قولُ من قال في سجِّيل: هي فارسية، وفي القسطاس: هي رومية ـ نظيرَ ذلك؟ وسئل الفرقَ بين ذلك، فلن يقولَ في أحدهما قولاً إلا ألزِم في الآخر مثله.

قد دللنا، على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وُفِّق لفهمه، على أن الله جل ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغاتها[1].

(١) الفقرة الأخيرة من فصل عقده الطبري للقول في اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب، حذفناه لقلة أهميته في عصرنا، وكذلك فعلنا بالفصل الذي جاء بعده بعنوان «القول في البيان عن معنى قول رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن من سبعة أبواب الجنة وذكر الأخبار الواردة بذلك» للسبب نفسه.



[راجعهما في الطبعة التي بتحقيق احمد شاكر ومحمد شاكر ١/٢١-٧٢]

## القول في الوجوه التي مِنْ قِبَلِهَا يُوصَلُ
## إلى معرفة تأويل القرآن

قال الله جلّ ذكره وتقدست أسماؤه، لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال أيضاً جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُم الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ، وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تأويلَهُ إلَّا الله، وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]. فقد تبين ببيان الله جلّ ذكره:

أنّ مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ، ما لا يُوصَلُ إلى علمِ تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ. وذلك تأويل جميع ما فيه: من وجوه أمرِهِ ـ واجبِهِ وَنَدْبِهِ وإرْشَادِهِ ـ وصنوفِ نَهيه، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعضَ خَلْقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيه، التي لم يُدْرَك عِلْمُها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمّته. وهذا وجهٌ لا يجوز لأحد القول فيه، إلا ببيان رسول الله ﷺ له تأويلَه بنصٍّ منه عليه، أو بدلالة قد نصَبها، دالَّةٍ أُمَّته على تأويله.

وأنّ منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحدُ القهار. وذلك ما فيه من الخبر عن آجالٍ حادثة، وأوقات آتية، كوقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، ونزول عيسى بن مريم، وما أشبه ذلك: فإن تلك أوقاتٌ لا يعلم أحدٌ حدودَها، ولا يعرف أحدٌ من تأويلها إلا الخبرَ بأشراطها، لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه.

وبذلك أنزل ربُّنا محكم كتابه، فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي، لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ، ثَقُلَتْ فِي السَّموات وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا، قُلْ إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ الله وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وكان نبينا محمد ﷺ إذا ذكر شيئاً من ذلك، لم يدلّ عليه إلا بأشراطه دون تحديده بوقته كالذي روي عنه ﷺ أنه قال لأصحابه، إذْ ذكر الدجّال: «إنْ يخرجْ وأنا فيكُم، فأنا حَجِيجُه، وإنْ يخرجْ بعدي، فالله خليفتي عليكم»[1]، وما أشبه ذلك من الأخبار - التي يَطُولُ باستيعابها الكتاب - الدالّةِ على أنه ﷺ لم يكن عنده علمُ أوقاتِ شيء منه بمقادير السِّنين والأيام، وأن الله جلّ ثناؤه إنما كان عَرَّفَهُ مجيئه بأشراطه، ووقّته بأدلته.

وأن منه ما يعلم تأويلَه كلُّ ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن. وذلك: إقامةُ إعرابه ومعرفةُ المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإنّ ذلك لا يجهله أحدٌ منهم. وذلك كسامعٍ منهم لو سمع تالياً يتلو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢]، لم يجهلْ أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركهُ مما هو مضرَّة، وأن الإصلاحَ هو ما ينبغي فِعله مما فِعْلُهُ منفعةٌ، وإنْ جَهِل المعانيَ التي جعلها الله إفساداً، والمعانيَ التي جَعلها الله إصْلاحاً. فالذي يعلمه ذو اللسان - الذي بلسانه نزل القرآنُ - من تأويل القرآن، هو ما وصفتُ: مِنْ معرفة أعيان المسمَّيات بأسمائها

---

(١) قال ابن حجر في الفتح ١٣: ٨٤ في شرح حديث ابن عمر الذي أخرجه البخاري، وذكر الدجال فقال: «وما من نبي إلا وقد أنذر قومه»، قال: «في بعض طرقه: ان يخرج فيكم فأنـا حجيجه». وهو إشارة إلى حديث النواس بن سمعان، مطولاً، في صحيح مسلم ٢: ٣٧٦، وفيه: «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم»، وان يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم».

اللازمة غير المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة، دون الواجب من أحكامها وصفاتها وهيآتها التي خص الله بعلمها نبيّه ﷺ، فلا يُدرَك علمُهُ إلا ببيانِه، دون ما استأثر الله بعلمِهِ دون خَلْقِهِ.

## النهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي

إن ما كان مِن تأويل آيِ القرآن الذي لا يُدرَك علمه إلا بنَصِّ بيان رسول الله ﷺ، أو بنَصْبه الدلالة عليه ـ غير جائز لأحد القِيلُ فيه برأيه. بل القائلُ في ذلك برأيه ـ وإنْ أصابَ الحق فيه ـ فمخطىءٌ فيما كان من فِعله، بقيله فيه برأيه، لأن إصـابته ليستْ إصابة مُوقنٍ أنه مُحِقٌّ، وإنما هو إصابة خارصٍ[1] وظانٍّ. والقائل في دين الله بالظنّ، قائلٌ على الله ما لم يعلم. وقد حرَّم الله جلّ ثناؤه ذلك في كتابه على عباده، فقال: ﴿قُلْ إنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. فالقائل في تأويل كتاب الله، الذي لا يدرَك علمه إلا ببيان رسول الله ﷺ، الذي جعل الله إليه بيانه ـ قائلٌ بما لا يعلمُ وإن وافق قيله ذلك في تأويله، ما أراد الله به من معناه. لأن القائل فيه بغير علم، قائلٌ على الله ما لا علم له به.

## الحَضّ على العلم بتفسير القرآن

وقد حَثَّ الله عزّ وجل عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات ـ بقوله جلّ ذكره لنبيه ﷺ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّروا آياتِه وَلِيَتَذَكَّرَ أُولو الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا القُرْآنِ

(١) خارص: أي بمخمنٍ، والخرص: الحَزْرُ، وكل قولٍ بالظن.

مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ـ٢٨] وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عبادَه وحَثَّهم فيها على الاعتبار بأمثال آيِ القرآن، والاتعاظ بمواعظه ـ ما يدل على أنَّ عليهمْ معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويلُه من آيِه.

لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَهُ: «اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القيل والبيان والكلام» ـ إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرهُ بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محال أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه، لو أنشد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحكم: «اعتبر بما فيها من الأمثال، وادَّكر بما فيها من المواعظ» ـ إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثم الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم. فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق، فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبر. بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به، إلا بعدَ العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها.

فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: «اعتبرْ بها» إلا لمن كان بمعاني بيانه عالماً، وبكلام العرب عارفاً؛ وإلا بمعنى الأمر ـ لمن كان بذلك منهُ جاهلاً ـ أنْ يعلم معاني كلام العرب ثم يتدبَّره بعدُ، ويتعظ بحِكَمِهِ وصُنوف عِبَره.

فإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان الله جلّ ثناؤه قد أمر عباده بتدبُّره وحثهم على الاعتبار بأمثاله ـ كان معلوماً أنه لم يأمر بذلك مَن كان بما يدُلُّ عليه آيُهُ جاهلاً. وإذْ لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهُمْ بما يدلهم عليه عالمون، صحَّ أنهم ـ بتأويل ما لم يُحجَبْ عنهم عِلْمُهُ من آيِهِ الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه، الذي قد قدَّمنا صفتَه آنفاً ـ عارفون. وإذْ صَحَّ ذلك فَسَد قول من أنكر تفسيرَ المفسرين ـ من كتاب الله وتنزيلِه ـ ما لم يحجب عن خَلقه تأويله.

قد قلنا فيما مَضى من كتابنا هذا في وجُوه تأويل القرآن، وأن تأويل جميع القرآن على أوجهٍ ثلاثة:

**أحدها**: لا سبيل إلى الوصول إليه، وهوالذي استأثر الله بعلمه، وحَجبَ علمه عن جميع خلقه، وهو أوقاتُ ما كانَ من آجال الأمور الحادثة، التي أخبر الله في كتابه أنها كائنة، مثل: وقت قيام الساعة، ووقت نزول عيسى بن مريم، ووقتِ طلوع الشمس من مغربها، والنفخ في الصور، وما أشبه ذلك.

**والوجه الثاني**: ما خصَّ الله بعلم تأويله نبيَّه ﷺ دون سائر أمته، وهو ما فيه مما بعباده إلى علم تأويله الحاجةُ، فلا سبيل لهم إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول ﷺ لهم تأويلَه.

**والثالث منها**: ما كان علمهُ عند أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وذلك علم تأويل عربيته وإعرابه، لا يُوصَل إلى علم ذلك إلا من قِبَلهم.

فإذْ كان ذلك كذلك، فأحقُّ المفسرين بإصابة الحق ـ في تأويلِ القرآنِ الذي إلى عِلْم تأويله للعباد السبيلُ ـ أوضحُهم حُجة فيما تأوَّل وفسَّر، مما كان تأويله إلى رسول الله ﷺ دون سائر أمته من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه: إمَّا من جهة النقل المستفيض، فيما وُجِد فيه من ذلك عنه النقلُ المستفيض، وإمَّا من جهة نقل العُدُولِ الأثبات، فيما لم يكن فيه عنه النَّقلُ المستفيض، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته؛ وأصحُّهم برهاناً ـ فيما ترجَم وبَيَّنَ من ذلك ـ مما كان مُدرَكاً علمهُ من جهة اللسان: إما بالشواهد من أشعارهم، السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائناً من كان المتأوِّل والمفسِّر، بعد أن لا يكون خارجاً تأويلُه وتفسيره ما تأول وفَسَّرَ من ذلك، عن أقوالِ السلفِ من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة.

## القول في تأويل أسماءِ القرآن وسُوَره وآيهِ

إن الله تعالى ذِكْرُهُ سمَّى تنزيله الذي أنزله على عبده محمد ﷺ أسماءً أربعة:

منهن: «القرآن»، فقال في تسميته إياه بذلك في تَنزيله: ﴿نَحْنُ نقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا القُرْآنَ وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال: ﴿إنَّ هٰذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

ومنهن: «الفرقان»، قال جلّ ثناؤه في وحيه إلى نبيه ﷺ يسميه بذلك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١].

ومنهن: «الكتاب»: قال تباركَ اسمهُ في تسميته إياه به: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً، قَيِّماً﴾ [الكهف: ١].

ومنهن: «الذكر»، قال تعالى ذكره في تسميته إياه به: ﴿إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولكل اسم من أسمائه الأربعة في كلام العرب، معنى ووجهٌ غيرُ معنى الآخر ووجهه.

فأما «القرآن»، فإن المفسرين اختلفوا في تأويله. والواجبُ أن يكون تأويله على قول ابن عباس: من التلاوة والقراءة، وأن يكون مصدراً من قول القائل: قرأت، كقولك «الخُسران» من «خَسِرت»، و«الغُفْران» من «غفر الله لك»، و«الكُفران» من «كفرتُك»، و«الفرقان» من «فرَّق الله بين الحق والباطل».

فإنْ قال قائل: وكيف يجوز أن يسمى «قرآناً» بمعنى القراءة، وإنما هو مقروء؟

قيل: كما جاز أن يسمى المكتوب «كتاباً»، بمعنى: كتاب الكاتب، كما قال الشاعر في صفة كتاب طَلاقٍ كتبه لامرأته:

تُؤمِّـل رَجْـعَـةً مِنّـي، وفـيـهـا كِتَـابٌ مثـلَ ما لَصِـق الغِـرَاءُ

يريد: طلاقاً مكتوباً، فجعل «المكتوب» كتاباً.

وأما تأويل اسمه الذي هو «فُرْقان»، فإنَّ تفسيرَ أهل التفسير جاء في ذلك بألفاظ مختلفة، هي في المعاني مؤتلفة.

وأصلُ «الفُرْقان» عندنا: الفرقُ بين الشيئين والفصل بينهما. وقد يكون ذلك بقضاءٍ، واستنقاذٍ، وإظهار حُجَّة، ونَصْرٍ، وغير ذلك من المعاني المفرِّقة بين المُحِقِّ والمُبْطِلِ. فقد تبين بذلك أن القرآن سُمي «فرقاناً»، لفصله - بحججه وأدلَّته وحدود فرائضه وسائر معاني حُكمه - بين المحق والمبطل. وفرقانُه بينهما: بِنَصْرِهِ المُحِقَّ، وتخذيلِهِ المبطلَ، حُكماً وقضاءً.

وأما تأويل اسمه الذي هو «كتابٌ»: فهو مصدر من قولك «كتبت كتاباً» كما تقولُ: قمت قياماً، وحسبت الشيء حِساباً. والكتابُ: هو خطُّ الكاتب حروفَ المعجم مجموعةً ومفترقة. وسُمي «كتاباً»، وإنما هو مكتوب، كما قال الشاعر في البيت الذي استشهدنا به:

* وفيها كِتابٌ مثلَ ما لَصِقَ الغِراءُ *

يعني به مكتوباً.

وأما تأويل اسمه الذي هو «ذِكْرٌ»، فإنه محتمل معنيين: أحدهما: أنه ذكرٌ من الله جلّ ذكره، ذكَّر به عباده، فعرَّفهم فيه حدوده وفرائضه، وسائرَ ما أودعه من حُكمه. والآخر: أنه ذكرٌ وشرفٌ وفخرٌ لمن آمن به وصدَّق بما فيه، كما

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، يعني به أنه شرفٌ له ولقومه.

## ( معنى السورة )

ثم تسمى كل سورة من سور القرآن «سورة»، وتجمع «سُوَراً»، على تقدير «خُطبة وخُطب»، و«غُرفة وغُرَف».

والسورة، بغير همز: المنزلة من منازل الارتفاع. ومن ذلك سُور المدينة، سمي بذلك الحائطُ الذي يحويها، لارتفاعه على ما يحويه. غير أن السُّورة من سُور المدينة لم يسمع في جمعها «سُوَر»، كما سمع في جمع سورة من القرآن «سور». قال العجاج في جمع السُّورة من البناء:

فرُبَّ ذِي سُرَادِقٍ مَحْجُورِ سِرْتُ إليه في أعالي السُّورِ

فخرَج تقدير جمعها على تقدير جَمع بُرَّة وبُسْرة، لأن ذلك يجمع بُرّاً وبُسراً.

وكذلك لم يسمع في جَمع سُوْرة من القرآن سُوْرٌ، ولو جمعت كذلك لم يكن خطأً في القياس، إذا أريد به جميعُ القرآن وإنما تركوا ـ فيما نرى ـ جمعه كذلك، لأن كل جمع كان بلفظ الواحد المذكّر مثل: بُرّ وشعير وقَصَب وما أشبه ذلك، فإن جماعَه يجري مجرى الواحد من الأشياء غيره. لأن حكم الواحد منه منفرداً قَلّما يُصاب، فجرى جماعه مجرى الواحد من الأشياء غيره، ثم جُعلت الواحدة منه كالقطعة من جميعه، فقيل: بُرَّة وشعيرة وقصبة، يراد به قطعة منه. ولم تكن سور القرآن موجودةً مجتمعةً اجتماعَ البر والشعير وسور المدينة، بل كل سورة منها موجودةٌ منفردة بنفسها، انفرادَ كل غُرْفة من الغُرف وخُطبة من الخطب، فجُعِل جمعُها جمع الغُرَف والخطب المبنيِّ جمعها من واحدها.

وقد همز بعضهم السورةَ من القرآن. وتأويلُها، في لغة من هَمَزها،

القطعةُ التي قد أفضِلت من القرآن عما سواها وأبقيت. وذلك أن سؤر كل شيء: البقية منه تَبقى بعدَ الذي يُؤخذ منه، ولذلك سميت الفضْلة من شراب الرجل - يشرَبُه ثم يُفضلها فيبقيها في الإناء - سُؤْراً.

وأما الآية من آي القرآن، فإنها تحتمل وجهين في كلام العرب:

أحدُهما: أن تكون سميت آية، لأنها علامةٌ يُعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤها، كالآية التي تكون دلالةً على الشيء يُستدل بها عليه، ومنه قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾ [المائدة: ١١٤] أي علامةً منك لإجابتك دُعاءنا وإعطائك إيَّانا سُؤْلَنَا.

والآخر منهما: القصةُ، كما قال كعب بن زهير بن أبي سُلمى:

أَلَا أَبْلِغَا هذا المُعَرِّضَ آيَةً ... أَيَقظانَ قالَ القولَ إذْ قَالَ، أمْ حَلَمْ[1]

يعني بقوله «آية»: رسالةً مني وخبراً عني.

فيكون معنى الآيات: القصص، قصةً تتلو قصةً، بفُصُول ووُصُول.

---

(١) ديوانه: ٦٤.

## القول في تأويل أسماء فاتحة الكتاب

صَحَّ الخبر عن رسول الله ﷺ بما حدثني به يونس بن عبدالأعلى، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني[1].

فهذه أسماءُ فاتحة الكتاب.

وسميت «فاتحةَ الكتاب»، لأنها يُفتتح بكتابها المصاحف، ويُقرأ بها في الصلوات، فهي فَواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة.

وسميت «أم القرآن»، لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها، وتأُخّر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة. وذلك من معناها شبيهٌ بمعنى فاتحة الكتاب. وإنما قيل لها - بكونها كذلك - أمَّ القرآن، لتسمية العرب كل جامع أمراً - أو مقدِّمٍ لأمر إذا كانت له توابعُ تتبعه، هو لها إمام جامع - «أُمّاً». فتقول للجلدة التي تجمع الدِّماغ: «أم الرأس». وتسمي لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش - «أُمّاً».

وأما تأويل اسمها أنها «السَّبْعُ»، فإنها سبعُ آيات، لا خلاف بين الجميع من القرَّاء والعلماء في ذلك.

وإنما اختلفوا في الآي التي صارت بها سبع آيات. فقال عُظْمُ[2] أهل الكوفة: صارت سبع آيات بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، ورُوي ذلك عن

(١) أخرجه أحمد ٢/٤٤٨، والدارمي ٣٣٧٧، والبخاري ٦/١٠٢ وفي جزء القراءة خلْف الامام صفحة ١٤٩، وأبو داود (١٤٥٧)، والترمذي (٣١٢٤).

(٢) عظم الشيء أو الناس: معظمهم وأكثرهم.

جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين. وقال اخرون: هي سبع آيات، وليس منهن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، ولكن السابعة «أنعمت عليهم». وذلك قول عُظْم قَرَأَةِ[1] أهل المدينة ومُتْقنيهم.

وأما وصف النبي ﷺ آياتها السبع بأنهن مثانٍ، فلأنها تثنىٰ قراءتها في كل صلاة تطوع. وكذلك كان الحسن البصري يتأول ذلك.

وليس في وجوب اسم «السبع المثاني» لفاتحة الكتاب، ما يدفع صحة وجوب اسم «المثاني» للقرآن كله، ولما ثَنَّى المئين من السور. لأن لكلٍّ وجهاً ومعنىً مفهوماً، لا يَفْسدُ ـ بتسميته بعضَ ذلك بالمثاني ـ تسميةُ غيره بها.

فأما وجه تسمية ما ثَنَّى المئينَ من سور القرآن بالمثاني، فقد بَيَّنَّا صِحَّتَهُ، وسندُل على صحة وجه تسمية جميع القرآن به عند انتهائنا إليه في سورة الزُّمَر، إن شاء الله.

---

(١) قَرَأة: جمع قارىء.

# القول في تأويل الاستعاذة

## تأويل قوله: ﴿أَعُوذُ﴾.

والاستعـاذة: الاستجـارة. وتأويل قول القائل ﴿أَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أستجيرُ بالله ـ دون غيره من سائر خلقه ـ من الشيطان أن يضرَّني في ديني، أو يصدَّني عن حق يلزمني لربي.

## تأويل قوله: ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾.

والشيطان، في كلام العرب: كل متمرد من الجن والإنس والدوابِّ وكل شيء. وكذلك قال ربنا جلّ ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فجعل من الإنس شياطينَ، مثلَ الذي جعل من الجن.

وإنما سُمي المتمرِّد من كل شيء شيطاناً، لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاقَ سائـر جنسه وأفعاله، وبُعْدِهِ من الخير. وقد قيل: إنه أُخِذَ من قول القائل: شَطَنَتْ دَاري من دارك ـ يريد بذلك: بَعُدت.

## تأويل قوله: ﴿الرَّجِيمِ﴾.

وأمـا الرجيم فهو: فَعيل بمعنى مفعول، كقول القائل: كفٌّ خضيبٌ، ولحيةٌ دَهين، ورجـل لَعِينٌ، يريد بذلك: مخضوبة ومدهونة وملعون. تأويل الـرجيم: الملعون المشتوم. وكُلُّ مَشْتُومٍ بقولٍ رديء أو سبٍّ فهو مَرْجُوم. وأصل الرجم الرَّمي، بقولٍ كان أو بفعل. ومن الرجم بالقول قول أبي إبراهيم لإبراهيم صلوات الله عليه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦].

وَقـد يجوز أن يكون قِيل للشيطان رجيمٌ، لأن الله جلّ ثناؤه طرَده من سماواته ورجمه بالشُّهب الثَّواقِب.

# القول في تأويل

# بسم الله الرحمن الرحيم

سْمِ ﴾.

ندَّست أسماؤه أدَّبَ نبيه محمداً ﷺ بتعليمه تقديمَ
ميع أفعاله، وتقدَّم إليه في وصفه بها قبل جميع
ن ذلك وعلمه إياه، منه لجميع خلقه سنَّةً يستَنُّون
فَبِهِ افتتاحُ أوائلِ منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم
ةُ ما ظهر من قول القائل: «بسم الله»، على ما بَطَنَ
.

سم الله» مقتضية فعلاً يكون لها جالباً، ولا فعلَ معها
، «بسم الله» معرفتُه بمراد قائله، عن إظهار قائل ذلك
اطق به عند افتتاحه أمراً، قد أحضر مَنطقهُ به ـ إما
ـ ما قد أغنى سامِعَه عن دلالةٍ شاهدةٍ على الذي
سار استغناءُ سامعٍ ذلك منه عن إظهار ما حذف منه،
قائلاً قيل له: «ما أكلت اليوم؟» فقال: طعاماً ـ عن
ان يكرر ... وله «طعاماً»، «أكلت»، لما قد ظهر لديه من الدلالة
على أن ذلك معناه[1]، بتقدم مسألة السائل إياه عمَّا أكل. فمعقول إذاً أن قول القائل إذا قال: «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم افتتح تالياً سورةً، أن إتباعه «بسم الله الرحمن الرحيم» تلاوَةَ السورة، يُنبِىء عن معنى قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم». ومفهومٌ به أنه مريد بذلك: أقرأُ بسم الله الرحمن الرحيم. وكذلك

(١) معناه: أي ما يعنيه ويقصده.

قوله: «بسم الله» عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله، ينبىء عن معنى مراده بقوله «بسم الله»، وأنه أراد بقِيلِه «بسم الله»، أقوم باسم الله. وأقعد باسم الله. وكذلك سائر الأفعال.

فإن قال لنا قائل: فإن كان تأويلُ قول «بسم الله» ما وصفتَ والجالبُ الباءَ في «بسم الله» ما ذكرتَ، فكيف قيل «بسم الله» بمعنىٰ أقرأُ باسم الله، أو أقوم أو أقعد باسم الله؟ وقد علمت أن كلَّ قارىءٍ كتاب الله، فبعون الله وتوفيقه قراءتُه، وأن كل قائم أو قاعد أو فاعلٍ فعلاً، فبالله قيامُه وقعودُه وفعلهُ. وهَلَّا ـ إذْ كان ذلك كذلك ـ قيل «بالله الرحمن الرحيم» ولم يُقَلْ «بسم الله» فإن قول القائل: أقوم وأقعد بالله الرحمن الرحيم، أو أقرأ بالله ـ أوضحُ معنى لسامعه من قوله «بسم الله»، إذ كان قوله «أقوم أو أقعد باسم الله»، يوهم سامعَه أن قيامه وقعوده بمعنى غيرِ الله.

قيل له، وبالله التوفيق: إن المقصودَ إليه من معنى ذلك غيرُ ما توهَّمته في نفسك. وإنما معنى قوله «بسم الله»: أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء، أو أقرأُ بتسميتي اللهَ، أو أقوم وأقعد بتسميتي اللهَ وذكره ـ لا أنه يعني بقِيلِهِ «بسم الله»: أقوم بالله، أو أقرأُ بالله، فيكونَ قولُ القائل: أقرأ بالله، أو أقوم أو أقعد بالله ـ أولى بوجه الصواب في ذلك من قوله «بسم الله».

فإن قال: فإن كان الأمر في ذلك على ما وصفتَ، فكيف قيل: «بسم الله» وقد علمتَ أنّ الاسم اسمٌ، وأن التسمية مصدرٌ من قولك سَمَّيت؟

قيل: إن العربَ قد تخرج المصادرَ مبهمةً على أسماء مختلفة، كقولهم: أكـرمتُ فلانـاً كرامـةً. وإنمـا بنـاءُ مصدر «أفعلتُ» ـ إذا أخرج على فعله ـ «الإفعالُ». وكقولهم: أهنت فلاناً هَواناً وكلمته كلاماً. وبناء مصدر: «فعَّلت» التفعيل.

فإذْ كان الأمر - على ما وصفنا، من إخراج العرب مصادرَ الأفعال على غير بناء أفعالها - كثيراً، وكان تصديرها إياها على مخارج الأسماء موجوداً فاشياً، فبيِّنٌ بذلك صَوابُ ما قلنا من التأويل في قول القائل «بسم الله»، أن معناه في ذلك عند ابتدائه في فعل أو قول: أبدأُ بتسمية الله قبل فعلي أو قبل قولي. وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن: «بسم الله الرحمن الرحيم»، إنما معناه: أقرأُ مبتدئاً بتسمية الله، أو ابتدىء قراءتي بتسمية الله. فجُعِل «الاسمُ» مكان «التسمية»، كما جُعل الكلامُ مكان التكليم، والعطاءُ مكان الإعطاء.

ولا خلاف بين الجميع من علماء الأمة، أن قائلاً لو قال عند تذكيته بعض بهائم الأنعام[1]: «بالله» ولم يقل: «بسم الله» أنه مخالف - بتركه قِيلَ: «بسم الله» - ما سُنَّ له عند التذكية من القول. وقد عُلم بذلك أنه لم يُرد بقول «بسم الله» «بالله»، كما قال الزاعم أن اسمَ الله في قول الله: «بسم الله الرحمن الرحيم» هو الله. لأن ذلك لو كان كما زعم، لوجب أن يكون القائل عند تذكيته ذبيحتَه «بالله»، قائلاً ما سُنَّ له من القول على الذبيحة. وفي إجماع الجميع على أن قائلَ ذلك تارك ما سُنَّ له من القول على ذبيحته - إذْ لم يقل «بسم الله» - دليلٌ واضح على فساد ما ادَّعى من التأويل في قول القائل: «بسم الله»، أنه مراد به «بالله»، وأن اسم الله هو الله.

وليس هذا هو الموضع من مواضع الإكثار في الإبانة عن الاسم: أهُوَ المسمى، أمْ غيرهُ، أم هو صفة له؟ فَنُطِيلُ الكتابَ به، وإنما هذا موضع من مواضع الإبانة عن الاسم المضاف إلى الله: أهو اسمٌ، أم مصدر بمعنى التسمية؟

القول في تأويل قول الله: ﴿اللهِ﴾.

---

(١) التذكية: النحر والذبح.

وأما تأويل قول الله تعالى ذكره «الله»، فإنه على معنى ما رُوي لنا عن عبدالله بن عباس: هو الذي يَألَهُهُ كُلُّ شيءٍ، ويَعْبُدُهُ كُلُّ خَلْقٍ.

فإن قال لنا قائل: فهل لذلك في «فعل ويفعل» أصل كان منه بناءُ هذا الاسم؟ قيل: أما سماعاً من العرب فلا، ولكن استدلالاً.

فإن قال: وما دلّ على أن الألوهية هي العبادة، وأن الإله هو المعبود، وأن له أصلاً في «فعل ويفعل»؟

قيل: لا تَمَانُعَ بين العرب في الحكم لقول القائل ـ يصف رجلاً بعبادة، وبطلب ما عند الله جلّ ذكره: «تألَّه فلان» ـ بالصحة ولا خلاف.

ولا شك أن «التألُّه»، التفعُّل من «ألَهَ يأله»، وأن معنى «أله» ـ إذا نُطق به: ـ عَبَدَ الله. وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بـ «فعل يفعل»، بغير زيادة.

## القول في تأويل قوله: ﴿الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وأما «الرحمن»، فهو فَعلان، من رحم، و«الرحيم» فعيل منه. والعرب كثيراً ما تبني الأسماء من «فَعِل يفْعَل» على «فعلان»، كقولهم من غَضِب: غَضبان، ومن سَكر: سكران، ومن عَطش: عطشان. فكذلك قولهم «رَحمن» من رَحِمَ، لأن «فعِلَ» منه: رَحم يرْحم. وقيل «رحيم»، وإن كانت عَين «فعِل» منها مكسورة، لأنه مدح. ومن شأن العرب أن يحملوا أبنية الأسماء ـ إذا كان فيها مدح أو ذم ـ على «فعيل»، وإن كانت عين «فعل» منها مكسورةً أو مفتوحةً، كما قالوا من «علم» عالم وعليم، ومن «قدَر» قادر وقدير. وليس ذلك منها بناء على أفْعالها، لأن البناء من «فَعِل يفْعَل» و«فعَل يفعِل» فاعلٌ. فلو كان «الرحمن والرحيم» خارجين على بناء أفعالهما، لكانت صورتهما «الراحم».

فإن قال قائل: فإذا كان الرحمن والرحيم اسمين مشتقين من الرحمة، فما وجهُ تكرير ذلك، وأحدهما مؤدٍّ عن معنى الآخر؟

قيل له: ليس الأمر في ذلك على ما ظننتَ، بل لكل كلمة منهما معنى لا تؤدي الأخرى منهما عنها.

فإن قال: وما المعنى الذي انفردت به كل واحدة منهما، فصارت إحداهما غير مؤدية المعنى عن الأخرى؟

قيل: أما من جهة العربية فلا تَمانُع بين أهل المعرفة بلغات العرب، أن قول القائل: «الرحمن» ـ عن أبنية الأسماء من «فَعِل يفعَل» ـ أشدُّ عدولاً من قوله «الرَّحيم». ولا خلاف مع ذلك بينهم، أنّ كل اسم له أصل في «فَعِلَ يفعَـل» ـ ثم كان عن أصله من «فَعِلَ يفعَلُ» أشد عدولاً ـ أن الموصوف به مفضَّل على الموصوف بالاسم المبني على أصله من «فَعِل يفعَل»، إذا كانت التسمية به مدحاً أو ذماً. فهذا ما في قول القائل «الرحمن»، من زيادة المعنى على قوله «الرحيم» في اللغة.

وأما من جهة الأثر والخبر، ففيه بين أهل التأويل اختلاف.

إن المعنى الـذي في تسمية الله بالـرحمن، دون الـذي في تسميتـه بالرحيم: هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوفٌ بعموم الرحمة جميعَ خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوفٌ بخصوص الرحمة بعضَ خلقه، إما في كل الأحوال، وإما في بعض الأحوال. فلاشك ـ إذ كان ذلك كذلك ـ أن ذلك الخصوص الذي في وصفه بالرحيم، لا يستحيل عن معناه، في الدنيا كان ذلك أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً.

فإذ كان صحيحاً ما قلنا من ذلك ـ وكان الله جلّ ثناؤه قد خصّ عباده المؤمنين في عاجل الدنيا بما لطف بهم من توفيقه إياهم لطاعته، والإيمان به

وبـرسله، واتباع أمره واجتناب معاصيه؛ مما خُذِل عنه مَنْ أشرك به، وكفر، وخالف ما أَمَرَهُ به، وركب معاصيَه؛ وكان مع ذلك قد جعلَ، جَلَّ ثناؤه، ما أعد في آجل الآخرة في جناته من النعيم المقيم والفوز المبين، لمن آمن به، وصَدَّقَ رُسُلَهُ، وعمل بطاعته، خالصاً، دون مَنْ أشرك وكفر به[1] ـ كان بَيِّناً أن الله قد خَصَّ المؤمنين من رحمته في الدنيا والآخرة، مع ما قد عمَّهم به والكفارَ في الدنيا من الإفضال والإحسان إلى جميعهم في البسط في الرزق، وتسخير السحاب بالغَيْثِ، وإخراج النبات من الأرض، وصحة الأجسام والعقول، وسائر النعم التي لا تُحصى، التي يشترك فيها المؤمنون والكافرون.

فربُّنا جلّ ثناؤه رحمنُ جميعِ خَلْقِهِ في الدنيا والآخرة، ورحيمُ المؤمنين خاصةً في الدنيا والآخرة. فأما الذي عمّ جميعَهم به في الدنيا من رحمته فكان رَحمـاناً لهم به، فما ذكرنا مع نظائره التي لا سبيل إلى إحصائها لأحد من خلقه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨].

وأمـا في الآخـرة، فالذي عمّ جميعهم به فيها من رحمته، فكان لهم رحماناً، في تسويته بين جميعهم جلّ ذكرهُ في عَدله وقضائه، فلا يظلم أحداً منهم مِثْقال ذَرّة، وإن تَكُ حسنةً يُضاعفها ويُؤتِ من لَدُنْهُ أجراً عظيماً، وتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ. فذلك معنى عمومه في الآخرة جميعَهم برحمته، الذي كان به رحماناً في الآخرة.

وأما ما خَصَّ به المؤمنين في عاجل الدنيا من رحمته، الذي كان به رحيماً لهم فيها، كما قال جلّ ذكره: ﴿وَكانَ بالمُؤمِنِينَ رَحيماً﴾ [الأحزاب: ٤٣] فما وصفنا من اللطف لهم في دينهم، فخصهم به، دونَ من خذَله من أهل الكفر به. وأما ما خصهم به في الآخرة، فكان به رحيماً لهم دون الكافرين، فما

(١) جواب قوله: «فإذا كان صحيحاً. . .» وما بينهما فصل.

وصفنا آنفاً مما أعدَّ لهم دون غيرهم من النعيم، والكرامة التي تقصرُ عنها الأماني.

وقد زعم بعضُ أهل الغَباء أن العرب كانت لا تعرف «الرحمن»، ولم يكن ذلك في لغتها، ولذلك قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠]، إنكاراً منهم لهذا الاسم. كأنه كان محالاً عنده أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحته، أوْ: لَا وكأنه لم يتْلُ من كتاب الله قول الله ﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ - يعني محمداً - ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وهم مع ذلك به مُكَذِّبُون، ولنبوته جاحدون! فَيَعلَم بذلك أنهم قد كانوا يدافعون حقيقةَ ما قد ثبت عندهم صحتُه، واستحكمتْ لديهم معرفتُه.

وقد زعم أيضاً بعضُ من ضعُفت معرفتُه بتأويل أهل التأويل، وقلَّت روايته لأقوال السلف من أهل التفسير، أن «الرحمن» مجازه: ذو الرحمة، و«الرحيم» مجازه: الراحم[1]. ثم قال: قد يقدِّرون اللفظين من لفظٍ والمعنى واحد، وذلك لاتساع الكلام عندهم، قال: وقد فعلوا مثل ذلك فقالوا: ندمان ونَديم، ثم استشهد ببيتِ بُرْج بن مُسْهِر الطائي:

وَنَـدْمَـانٍ، يزيدُ الـكـأسَ طِيبـاً    سَقَيْتُ وَقَـدْ تَغَـوَّرَتِ النُّجُـومُ[2]

واستشهد بأبياتٍ نظائرِه في النَّديم والنَّدمان، ففرق بين معنى الرحمن والرحيم في التأويل لقوله: الرحمن ذو الرحمة، والرحيم الراحم، وإنْ كان قد ترك بيان تأويل معنَيَيْهما على صحته. ثم مثل ذلك باللَّفظين يأتيان بمعنى

---

(١) الذي عناه الطبري، هو أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه «مجاز القرآن»: ٢١، وقد نقل أكثر كلامه الآتي بنصه.

(٢) حماسة أبي تمام ٣/١٣٥، والمؤتلف والمختلف للآمدي: ٦٢.

واحـد، فعاد إلى ما قد جعله بمعنيين، فجعله مثال ما هو بمعنى واحد مع اختلاف الألفاظ.

ولاشك أن ذا الرحمة هو الذي ثَبت أن له الرحمة، وصحَّ أنها له صفة؛ وأن الراحم هو الموصوف بأنه سيرحم، أو قد رحم فانقضى ذلك منه، أو هو فيه. ولا دلالة له فيه حينئذ أن الرحمة له صفة، كالدلالة على أنها له صفة، إذا وُصِف بأنه ذو الرحمة. فأين معنى «الرحمن الرحيم» على تأويله، من معنى الكلمتين تأتيان مقدَّرتين من لفظ واحد باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني؟ ولكن القول إذا كان على غير أصل معتمد عليه، كان واضحاً عوارُه.

وإن قال لنا قائل: ولم قدَّم اسمَ الله الذي هو «الله»، على اسمه الذي هو «الرحمن»، واسمه الذي هو «الرحمن»، على اسمه الذي هو «الرحيم»؟

قيل: لأن من شأن العرب، إذا أرادوا الخبر عن مُخبَرٍ عنه، أن يقدموا اسمه، ثم يتبعونه صفاتِه ونعوته. وهذا هو الواجب في الحُكم: أن يكون الاسم مقـدَّمـاً قبل نعته وصِفَته، ليعلم السامع الخبرَ، عمَّن الخبرُ. فإذا كان ذلك كذلك ـ وكانَ الله جَلَّ ذكره أسماءٌ قد حرَّم على خلقه أن يتسمَّوا بها، خَصَّ بها نفسه دونهم، وذلك مثلُ «الله» و«الرحمن» و«الخالق»؛ وأسماءٌ أباحَ لهم أن يُسَمِّيَ بَعضهم بعضاً بها، وذلك: كالرحيم والسميع والبصير والكريم، وما أشبه ذلك من الأسماء ـ كان الواجب أن تقدَّم أسماؤه التي هي له خاصة دون جميع خلقـه، ليعـرف السـامعُ ذلك مَنْ تَوجَّه إليه الحمد والتمجيدُ، ثم يُتبع ذلك بأسمائه التي قد تسمى بها غيره، بعد علم المخاطب أو السامع من توجَّه إليه ما يتلو ذلـك من المعـاني. فبدأ الله جلّ ذكره باسمه الذي هو «الله»، لأن الألوهية ليست لغيره جلّ ثناؤه من وجهٍ من الوجوه، لا من جهة التسمِّي به، ولا من جهـة المعنى. وذلـك أنّـا قد بينّـا أن معنى «الله» تعالى ذكره معنى المعبود، ولا معبودَ غيرهُ جلّ جلاله، وأن التسمِّيَ به قد حرّمه الله جلّ ثناؤه،

وإن قصد المتسمِّي به ما يقصدُ المتسمِّي بسعيد وهو شقي، وبحسَنٍ وهو قبيح.

أوَ لَا تَرى أن الله جلّ جلاله قال في غير آية من كتابه: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ فاستكبر ذلك من المقرِّ به، وقال تعالى في خُصوصه نَفسَه بالله وبالرحمن: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] ثم ثنَّى باسمه الذي هو «الرحمن»، إذ كان قد مَنع أيضاً خلقه التسمي به، وإن كان من خلْقه من قد يستحق تسميته ببعض معانيه. وذلك أنه قد يجوز وصْف كثير ممن هو دون الله من خلقه، ببعض صفات الرحمة. وغير جائز أن يستحق بعضَ الألوهية أحدٌ دونَهُ. فلذلك جاء الرحمن ثانياً لاسمه الذي هو «الله». وأما اسمه الذي هو «الرحيم» فقد ذكرنا أنه مما هو جائز وصْف غيره به. والرحمة من صفاته جلّ ذكره، فكان ـ إذ كان الأمرُ على ما وصفنا ـ واقعاً مواقع نعوت الأسماء اللواتي هن توابعها، بعد تقدم الأسماء عليها. فهذا وجه تقديم اسم الله الذي هو «الله»، على اسمه الذي هو «الرحمن»، واسمه الذي هو «الرحمن»، على اسمه الذي هو «الرحيم»[1].

وقد كان الحسنُ البصري يقولُ في «الرحمن» مثل ما قلنا، إنه من أسماء الله التي مَنَعَ التسميَ بها العبادَ.

مع أن في إجماع الأمة من منع التسمِّي به جميعَ الناس، ما يُغني عن الاستشهاد على صحة ما قلنا في ذلك بقول الحسن وغيره.

---

(١) قال العلامة محمود محمد شاكر ـ حفظه الله ـ: هذا الاحتجاج من أجود ما قيل، ودقته تدل على حسن نظر أبي جعفر فيما يعرض له. وتفسيره كله شاهد على ذلك. رحمة الله عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

## القول في تأويل فاتحة الكتاب

### ﴿الحَمْدُ للهِ﴾:

ومعنى ﴿الحَمدُ للهِ﴾: الشكر خالصاً لله جلّ ثناؤه دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كلِّ ما بَرَأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النِّعم التي لا يُحصيها العـدد، ولا يحيط بعددها غيره أحدٌ، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلَّفين لأداء فرائضه، مع ما بَسَطَ لهم في دنياهم من الرزق، وغَذَاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبَّههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدِّية إلى دوام الخلود في دار المُقام في النعيم المقيم. فلربنا الحمدُ على ذلك كله أولاً وآخراً.

فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله «الحمد لله»؟ أَحَمِدَ الله نفسَهُ جلّ ثناؤه فأثنى عليها، ثم عَلَّمَنَاهُ لنقول ذلك كما قال ووصفَ به نفسه؟ فإن كان ذلك كذلك، فما وجه قوله تعالى ذكره إذاً ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهو عَزَّ ذِكْرُهُ معبودٌ لا عابدٌ؟ أم ذلك من قِيلِ جبريلَ أو محمدٍ رَسول الله ﷺ؟ فقد بَطل أن يكون ذلك لله كلاماً.

قيل: بل ذلك كله كلام الله جلّ ثناؤه، ولكنه جلّ ذكره حمِد نفسه وأثنى عليها بما هو له أهلٌ، ثم علَّم ذلك عباده، وفرض عليهم تلاوته، اختباراً منه لهم وابتلاءً، فقال لهم قولوا: ﴿الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾، وقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فقوله: ﴿إياك نعبد﴾ مما عَلَّمَهُمْ جَلَّ ذكره أن يقولوه ويَدينُوا له بمعناه، ذلك موصول بقوله: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، وكأنه قال: قولوا هذا وهذا.

فإن قال: وأين قوله: «قولوا»، فيكونَ تأويلُ ذلك ما ادَّعَيْتَ؟

قيل: قد دللنا فيما مضى أن العرب من شأنها ـ إذا عرفَتْ مكان الكلمة، ولم تَشكَّكْ أنَّ سامعها يعرف، بما أظهرت من منطقها، ما حذفت ـ حَذْفُ ما كفى منه الظاهرُ من منطقها، ولاسيما إن كانت تلك الكلمة التي حُذفت، قولاً، أو تأويل قولٍ.

فكذلك ما حُذف من قول الله تعالى ذكره: ﴿الحمدُ لله رَبِّ العَالَمينَ﴾، لمَّا عُلم بقوله جلّ وعز ﴿إياكَ نَعبُد﴾ ما أراد بقوله: ﴿الحمدُ لله رب العالمين﴾، من معنى أمره عبادَه، أغنتْ دلالة ما ظُهِر عليه من القول عن إبداء ما حُذف.

القول في تأويل قول الله ﴿رَبِّ﴾.

قد مضى البيان عن تأويل اسم الله الذي هو «الله»، في «بسم الله»، فلا حاجة بنا إلى تكراره في هذا الموضع.

وأما تأويل قوله ﴿رَبِّ﴾، فإن الرب في كلام العرب منصرفٌ على معانٍ؛ فالسيد المطاع فيهم يُدْعَى رباً، والرجل المصلح للشيء يدعى رباً، والمالك للشيء يدعى ربه. وقد ينصرف أيضاً معنى «الرب» في وجوه غير ذلك، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة.

فربنا جلّ ثناؤه: السيد الذي لا شِبْه لهُ، ولا مثل في مثل سؤدده، والمصلح أمْرَ خَلْقِه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر.

القول في تأويل قوله: ﴿العالَمِينَ﴾ (١).

والعـالمون جمع عالَم، والعالَم: جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جِمَاعٍ لا واحد له من لفظه.

والعالَم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالَمٌ، وأهل كل قَرْن من كل صنف منها عالَم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالَم، وكل أهل زمان منهم عالَمُ ذلك الزمان. والجنُّ عالَم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كل جنس منها عالم زمانه. ولذلك جُمع فقيل: عالَمون، وواحده جمعٌ، لكون عالَم كل زمان من ذلك عالم ذلك الزمان.

وهذا القول الذي قلناه، قولُ ابن عباس وسعيد بن جبير وهو معنى قول عامة المفسرين.

القول في تأويل قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢).

قد مضى البيانُ عن تأويل قوله «الرحمن الرحيم» في تأويل ﴿بسم الله الرحمن الرَّحِيم﴾، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

ولم نَحتجْ إلى الإبانة عن وجه تكرير ذلك في هذا الموضع، إذْ كنا لا نرى أن «بسم الله الرحمن الرحيم» من فاتحة الكتاب ـ آيةً، فيكونَ علينا لسائلٍ مسألةٌ بأن يقول: ما وجه تكرير ذلك في هذا الموضع، وقد مضى وصفُ الله عزّ وجل به نفسه في قوله «بسم الله الرحمن الرحيم»، مع قرب مكان إحدى الآيتين من الأخرى، ومجاورتها صاحبتها؟ بل ذلك لنا حُجة على خطأ دعوى من ادَّعى أن «بسم الله الرحمن الرحيم» من فاتحة الكتاب آية. إذ لو كان ذلك كذلك، لكان ذلك إعادة آية بمعنى واحد ولفظ واحدٍ مرتين من غير فَصْل يَفصِل بينهما. وغيرُ موجودٍ في شيء من كتاب الله آيتانِ متجاورتان مكررتان بلفظ

واحد ومعنى واحد لا فصل بينهما من كلام يُخالف معناه معناهما. وإنما يُؤتى بتكرير آية بكمالها في السورة الواحدة، مع فُصول تفصِل بين ذلك، وكلامٍ يُعترضُ به بغير معنى الآيات المكررات أو غير ألفاظها، ولا فاصِلَ بين قول الله تبارك وتعالى اسمه «الرحمن الرحيم» من «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقولِ الله: «الرحمن الرحيم» من «الحمدُ لله رب العالمين».

فإن قال: فإن ﴿الحمدُ لله ربِّ العالَمين﴾ فاصل من ذلك.

قيل: قد أنكر ذلك جماعة من أهل التأويل، وقالوا: إن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم، وإنما هو: الحمد لله الرحمن الرحيم رَبِّ العالمين مَلِكِ يوم الدين. واستشهدوا على صحة ماادعوا من ذلك بقوله «مَلِك يوم الدين»، فقالوا: إن قوله «مَلِكِ يومِ الدين» تعليم من الله عبده، أنْ يصفَه بالمُلْك في قراءة من قرأ «مَلِكِ» وبالمِلْك في قراءة من قرأ «مالك». قالوا: فالذي هو أولى أن يكونَ مجاوِرَ وصفه بالمُلْك أو المِلْك، ما كان نظرَ ذلك من الوصف، وذلك هو قوله: «رب العالمين»، الذي هو خبر عن مِلْكه جميع أجناس الخلق؛ وأن يكون مجاورَ وصفه بالعظمة والألُوهة، ما كان له نظيراً في المعنى من الثناء عليه، وذلك قوله: «الرحمن الرحيم». فزعموا أن ذلك لهم دليلٌ على أن قوله «الرحمن الرحيم»، بمعنى التقديم قبل «رب العالمين»، وإن كان في الظاهر مؤخراً. وقالوا: نظائرُ ذلك ـ من التقديم الذي هو بمعنى التأخير، والمؤخر الذي هو بمعنى التقديم ـ في كلام العرب أفشى، وفي منطقها أكثر، من أن يُحصى.

## القول في تأويل قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣).

القرَّاء مختلفون في تلاوة ﴿ملك يَوْمِ الدِّين﴾. فبعضهم يتلوه ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّين﴾، وبعضهم يتلوه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وبعضهم يتلوه ﴿مَلِكَ يَوْمِ

الدِّين﴾ بنصب الكاف. وقد استقصينا حكاية الرواية عمن روُي عنه في ذلك قراءةً في «كتاب القراءات»، وأخبرنا بالذي نختار من القراءة فيه، والعلةِ الموجبة صحة ما اخترنا من القراءة فيه. فكرهنا إعادة ذلك في هذا الموضع، إذ كان الذي قَصَدْنا له، في كتابنا هذا، البيانَ عن وجوه تأويل آيِ القرآن، دون وجوه قراءتها.

ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب، أن المَلِك من «المُلْك» مشتق، وأن المالك من «المِلْك» مأخوذٌ. فتأويل قراءة من قرأ ذلك ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدين﴾، أن لله المُلْك يوم الدين خالصاً دون جميع خلقه، الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكاً جبابرة ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفرادَ بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية. فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصَّغَرة الأذلة، وأن له ـ من دُونهم، ودون غيرهم ـ المُلك والكبرياء، والعزة والبهاء، كما قال جلّ ذكره وتقدست أسماؤه في تنزيله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارزُونَ لا يَخْفَى عَلَى الله مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ اليَوْمَ، لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فأخبر تعالى ذكره أنه المنفرد يومئذ بالمُلك دون ملوك الدنيا، الذين صارُوا يوم الدين من مُلكهم إلى ذِلة وصَغار، ومن دُنياهم في المعاد إلى خسار.

وأولى التأويلين بالآية، وأصحُّ القراءتين في التلاوة عندي، التأويلُ الأول، وهي قراءةُ من قرأ ﴿مَلِكِ﴾ بمعنى المُلك. لأن في الإقرار له بالانفراد بالمُلك، إيجاباً لانفراده بالمِلْك، وفضيلةَ زيادة الملِك على المالك، إذْ كان معلوماً أن لا مَلِك إلا وهو مالكٌ، وقد يكون المالكُ لا ملكاً.

وبعدُ، فإن الله جلّ ذكره، قد أخبر عبادَه في الآية التي قبل قوله ﴿ملِكِ يوم الدين﴾ أنه مالكُ جميع العالمين، وسيِّدهم، ومُصلحُهم، والناظرُ لهم، والرحيم بهم في الدنيا والآخرة، بقوله: ﴿الحمد لله ربِّ العالمين* الرحمٰن الرحيم﴾. وإذْ كان جلّ ذكره قد أنبأهم عن مِلْكه إيَّاهم كذلك بقوله: ﴿ربِّ

العالمين﴾، فأولى الصفات من صفاته جلّ ذكره أن يَتْبَع ذلك، ما لم يحْوِه قوله ﴿ربِّ العالمين الرَّحمن الرحيم﴾، مع قرب ما بين الآيتين من المواصَلة والمجاورة، إذْ كانت حكمته الحكمة التي لا تشبهها حكمةٌ، وكان في إعادة وصفه جلّ ذكره بأنه ﴿مالِكِ يوم الدين﴾، إعادةُ ما قد مضى من وصفه به في قوله ﴿ربِّ العالمين﴾، مع تقارب الآيتين وتجاور الصفتين. وكان في إعادة ذلك تكرارُ ألفاظ مختلفة بمعان متفقة، لا تفيد سامع ما كُرِّر منه فائدةً به إليها حاجة. والذي لم يحْوِه من صفاته جلّ ذكره ما قبل قوله «مالك يوم الدين»، المعنى الذي في قوله «مَلِك يوم الدين»، وهو وصْفه بأنه الملِك.

فَبَيِّنٌ إذاً أن أوْلى القراءتين بالصواب، وأحق التأويلين بالكتاب، قراءة من قرأه ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّين﴾، بمعنى إخلاص المُلك له يوم الدين، دون قراءة من قرأ «مالك يوم الدين» الذي بمعنى أنه يملك الحكم بينهم وفصلَ القضاء، متفرِّداً به دون سائر خلقه.

فإن ظنّ ظان أن قوله ﴿ربِّ العَالمين﴾ نبأ عن ملكه إياهم في الدنيا دون الآخرة، يوجبُ وصْلَ ذلك بالنبأ عن نفسه أنه: مَنْ مَلَكهم في الآخرة على نحوِ ملْكه إياهم في الدنيا بقوله «مالك يوم الدين» ـ فَقد أغفل وَظنَّ خَطأً.

وذلك أنه لو جاز لظان أنْ يظن أن قوله ﴿ربِّ العالمين﴾ محصورٌ معناه على الخبر عن ربوبية عالم الدنيا دُونَ عالم الآخرة، مع عدم الدلالة على أن مَعنى ذلك كذلك في ظاهر التنزيل، أو في خبرٍ عن الرسول ﷺ به منقولٍ، أو بحجة موجودة في المعقول ـ لجاز لآخر أن يظن أن ذلك محصور على عالم الزمان الذي فيه نَزل قوله ﴿ربِّ العالمين﴾، دون سائر ما يحدث بعدَه في الأزمنة الحادثة من العالمين. إذْ كان صحيحاً بما قدمنا من البيان، أن عالَم كل زمان غير عالَم الزمان الذي بعده.

فإن غَبِيَ ـ عن علم صحة ذلك بما قد قدمنا ـ ذو غباء، فإن في قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] دلالةً واضحةً على أن عالم كل زمان، غيرُ عالم الزمان الذي كان قَبله، وعالم الزمان الذي بعدَه، إذْ كان الله جلّ ثناؤه قد فضّل أمة نبينا محمد ﷺ على سائر الأمم الخالية، وأخبرهم بذلك في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلْنَّاس﴾ [آل عمران: ١١٠]. فمعلومٌ بذلك أن بَني إسرائيل في عصر نبينا لم يكونوا ـ مع تكذيبهم به ﷺ ـ أفضلَ العالمين، بل كانَ أفضلَ العالمين في ذلك العصر وبعدَه إلى قيام الساعة، المؤمنون به المتبِعون منهاجهُ، دون من سِواهم من الأمم المكذِّبة الضالة عن منهاجه.

وإذْ كان بيِّناً فساد تأويل متأوِّل لو تأوّل قوله ﴿ربِّ العالمين﴾ أنه معنيٌّ به أن الله ربُّ عَالمي زَمن نبينا محمد ﷺ، دون عالمي سائر الأزمنة غيره ـ كان واضحاً فساد قول من زعم أن تأويلَهُ: ربُّ عالَمِ الدنيا دُون عالَمِ الآخرة، وأن «مالك يوم الدين» استحقَّ الوصلَ به ليُعلَمَ أنه في الآخرة من مِلْكهم ورُبُوبيتهم بمثل الذي كان عليه في الدنيا.

ويُسْأل زاعم ذلك، الفرق بينه وبين متحكم مثله ـ في تأويل قوله ﴿رب العالمين﴾، تحكَّم فقال: إنه إنما عنى بذلك أنه ربّ عالمي زمان محمد ﷺ، دون عالمي غيره من الأزمان الماضية قبله، والحادثة بعدَه، كالذي زعم قائل هذا القول أنه عَنىٰ به عالمي الدنيا دون عالمي الآخرة ـ من أصل أو دلالة. فلن يقول في أحدهما شيئاً إلا ألزم في الآخر مثله.

وأما الزاعم أن تأويل قوله ﴿مالك يوم الدين﴾ أنه الذي يملكُ إقامة يَوم الدين، فإن الذي ألزمْنا قائلَ هذا القول الذي قبله ـ له لازمٌ. إذْ كانت إقامةُ القيامة، إنما هي إعادة الخلق الذين قد بادوا لهيئاتهم التي كانوا عليها قبل

الهلاك، في الدار التي أعَدَّ لهم فيها ما أعَدَّ. وهُمُ العالَمون الذين قد أخبر جلّ ذكره عنهم أنه ربُّهم في قوله ﴿ربِّ العالمين﴾.

وأما تأويل ذلك في قراءة من قرأ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّين﴾، فإنه أراد: يا مالك يوم الدين، فنصَبه بنية النداء والدعاء، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا﴾ [يوسف: ٢٩] بتأويل: يا يوسف أعرضْ عن هذا.

وإنما أوْرطه في قراءة ذلك ـ بنصب الكاف من «مالك»، على المعنى الذي وصفتُ ـ حيرتُهُ في توجيه قَوله: ﴿إياكَ نَعْبدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ وِجْهتَه، مع جر ﴿مالك يوم الدين﴾، وخفضِهِ. فظن أنه لا يصح معنى ذلك بعد جره ﴿مالكِ يوم الدين﴾، فنصب «مالكَ يوم الدين» ليكون «إياكَ نعبد» له خطاباً. كأنه أراد: يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نَستعين. ولو كان عَلم تأويلَ أول السورة، وأن «الحمدُ لله رَبِّ العالمين» أمرٌ من الله عبده بقِيل ذلك، وكان عَقَل عن العرب أن من شأنها إذا حكَت أو أمرت بحكاية خبرٍ يتلو القولَ، أن تخاطب ثم تُخْبِرَ عن غائبٍ، وتخبرَ عن غائب ثم تعودَ إلى الخطاب، لما في الحكاية بالقول من معنى الغائب والمخاطب، كقولهم للرجل: قد قلتُ لأخيك: لو قمتَ لقمتُ، وقد قلتُ لأخيك: لو قام لقمتُ ـ لسَهُل عليه مخرجُ ما استصعب عليه وجْهتُه من جر «مالك يوم الدين».

فقراءة «مالكَ يوم الدين» محظورة غير جائزة، لإجماع جميع الحجة من القراء وعلماء الأمة على رَفض القراءة بها.

القول في تأويل قوله ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾.

والدين في هذا الموضع، بتأويل الحساب والمجازاة بالأعمال، ومن ذلك قول الله جلّ ثناؤه ﴿كلاَّ بَل تُكَذِّبُونَ بالدِّين﴾ ـ يعني: بالجزاء ـ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ

لَحَافِظِين﴾ [الانفطار: ٩-١٠] يُحصون ما تعملون من الأعمال، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦]، يعني غير مجزيِّين بأعمالكم ولا مُحَاسَبين.

وللدين معانٍ في كلام العرب، غير معنى الحساب والجزاء، سنذكرها في أماكنها إن شاء الله.

القول في تأويل قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وتأويل قوله ﴿إيَّاكَ نعبُد﴾: لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ، إقراراً لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك.

وإنما اخترنا البيان عن تأويله بأنه بمعنى نَخشع ونذل ونستكينُ، دون البيان عنه بأنه بمعنى نرجو ونَخاف ـ وإن كان الرجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلة ـ لأن العبودية، عندَ جميع العرب، أصلُها الذلة، وأنها تسمي الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام، وذللته السابلة: معبَّداً.

القول في تأويل قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٤)

معنى قولـه ﴿وإياكَ نستعين﴾: وإياكَ رَبنـا نستعين على عبـادتنا إياك وطاعتنا لك في أمورنا كلها ـ لا أحداً سواك، إذْ كان من يكفُر بك يَستعين في أمورِه معبودَه الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة.

فإن قال قائل: وما معنى أمرِ الله عِبادَه بأن يسألوه المعونةَ على طاعته؟ أوَ جائزٌ، وقد أمرهم بطاعته، أن لا يعينهم عليها؟ أم هل يقول قائل لربه: إياك نستعينُ على طاعتك، إلا وهو على قوله ذلك مُعانٌ؟ وذلك هو الطاعة. فما وجهُ مسألة العبد ربَّه ما قد أعطاه إياه؟

قيل: إن تأويلَ ذلـك على غير الوجه الذي ذهبتَ إليه، وإنما الداعي ربَّه من المؤمنين أن يعينه على طاعته إياه، داعٍ أن يعينه فيما بقي من عُمره على ما كلفه من طاعته، دون ما قد تَقَضَّى ومضى من أعماله الصالحة فيما خلا من عمره. وجازت مسألةُ العبد ربَّه ذلك، لأن إعطاء الله عبدَه ذلك ـ مع تمكينه جوارحه لأداء ما كلَّفه من طاعته، وافترض عليه من فرائضه ـ فضلٌ منه جل ثناؤه تفضّل به عليه، ولُطْف منه لَطَف له فيه. وليس في تَركه التفضُّل على بعض عبيده بالتوفيق ـ مع اشتغال عبده بمعصيته، وانصرافه عن محبته، ولا في بَسطه فضلَه على بعضهم، مع إجهاد العبد نفسه في مَحبته، ومسارعته إلى طاعته ـ فسادٌ في تدبير، ولا جَور في حكم، فيجوز أن يجهلَ جاهل موضع حُكم الله في أمرِه عبدَه بمسألته عونه على طاعته.

وفي أمر الله جلّ ثناؤه عبادَه أن يقولوا: ﴿إياك نعبُدُ وإياكَ نَسْتعين﴾، بمعنى مسألتهم إياه المعونةَ على العبادة، أدلُّ الدليل على فساد قول القائلين بالتَّفويض من أهل القدر[1]، الذين أحالوا أن يأمُرَ الله أحداً من عباده بأمرٍ، أو يكلفه فرضَ عمل، إلا بعدَ إعطائه المعونة على فعلِه وعلى تركِه. ولو كانَ الذي قالوا من ذلك كما قالوا، لبطلت الرَّغبة إلى الله في المعونة على طاعته. إذ كان ـ على قولهم، مع وجود الأمر والنهي والتكليف ـ حقاً واجباً على الله للعبد إعطاؤه المعونة عليه، سأله ذلك عبدهُ أو تركَ مسألة ذلك. بل تَرْكُ إعطائه ذلك عندهم منه جَورٌ. ولو كان الأمر في ذلك على ما قالوا، لكان القائل: ﴿إياك نَعبد وإياك نستعين﴾، إنما يسأل ربَّه أن لا يجور.

وفي إجماع أهل الإسلام جميعاً ـ على تصويب قول القائل: «اللهم إنا

---

(١) أهل القدر: هم نفاة القدر لا مثبتوه، والقائلون بالتفويض هم القدرية والمعتزلة والإمامية يزعمون أن الأمر فوض إلى الإنسان (أي رد إليه)، فإرادته كافية في إيجاد فعله، طاعة كان أو معصية، وهو خالق لأفعاله، والاختيار بيده.

نستعينك»، وتخطئَتِهم قول القائل «اللهم لا تَجُرْ علينا» - دليل واضحٌ على خطأ ما قال الـذين وصفتُ قولهم. إذْ كان تأويلُ قول القـائل عندهم: اللهم إنا نستعينك - اللهم لا تترك مَعونتنا التي تركُهَا جوْرٌ منك.

فإن قال قائل: وكيف قيل: «إياك نعبدُ وإياك نستعين»، فقُدِّم الخبر عن العِبـادة، وأخِّـرتْ مسألةُ المعونة عليها بعدها؟ وإنما تكون العِبادةُ بالمعونة، فمسألةُ المعونة كانت أحقَّ بالتقديم قبلَ المُعَان عليه من العمل، والعبادةُ بها.

قيل: لمَّا كان معلوماً أن العبادة لا سبيل للعبد إليها إلا بمعونة من الله جلّ ثناؤه، وكان محالاً أن يكون العبْد عابداً إلا وهو على العبادة معان، وأن يكـون مُعـاناً عليها إلا وهو لها فاعل - كان سواءً تقديمُ ما قُدم منهما على صاحبه. كما سواءٌ قولك للرجل إذا قضى حاجَتَك فأحسن إليك في قضائها: «قضيتَ حاجتي فأحسنتَ إلي»، فقـدمت ذكـر قضـائـه حاجتَك، أو قلتَ: «أحسنتَ إلي فقضيتَ حاجتي»، فقــدمتَ ذكـر الإحسـان على ذكـر قضـاء الحاجة. لأنه لا يكون قاضياً حاجتكَ إلا وهو إليك محسن، ولا محسناً إليك إلا وهو لحاجتك قاضٍ.

فكذلك سواءٌ قول القائل: اللهم إنا إياك نعبُدُ فأعِنَّا على عبادتك، وقوله: اللهم أعنَّا على عبادتك فإنا إياك نعبُدُ.

وقد ظن بعض أهل الغفلة أن ذلك من المقدم الذي معناه التأخيرُ، كما قال امرؤ القيس:

ولَــوْ أن مَا أسْــعَــى لأدْنَـى مَعِيشَــةٍ كَفاني، ولم أطلُبْ، قليلٌ من المالِ[1]

يريد بذلك: كفاني قليلٌ من المال ولم أطلب كثيراً. وذلك - من معنى التقديم والتأخير، ومن مشابهة بيت امرىء القيس - بمعْزل. من أجل أنه قد

(١) ديوانه ١: ٧١.

يكفيه القليلُ من المال ويطلُب الكثيرَ، فليس وجُودُ ما يكفيه منه بموجبٍ له تركَ طلب الكثير، فيكونَ نظيرَ العبادة التي بوجُودها وجود المعونة عليها، وبوجود المعونة عليها وُجُودها، فيكونَ ذكرُ أحدِهما دالاًّ على الآخر، فيعتدلَ في صحة الكلام تقديمُ ما قُدِّم منهما قبلَ صاحبه، أن يكونَ موضوعاً في درجته ومرتَّباً في مرتَبته.

فإن قال: فما وجْه تكراره «إياك» مع قوله: «نستعين»، وقد تقدَّم ذلك قَبْل «نعبد»؟ وهلاَّ قيل: «إياك نعبُدُ ونستعين»، إذ كان المُخبَرُ عنه أنه المعبودُ، هو المُخبَرُ عنه أنه المستعانُ؟

قيل له: إن الكاف التي مع «إيَّا»، هي الكاف التي كانت تتصل بالفعل - أعني بقوله «نعبد» - لو كانت مؤخرةً بعدَ الفعل. وهي كنايةُ اسم المخاطبِ المنصوب بالفعل فكُثِّرت بـ «إيَّا» متقدِّمةً، إذْ كانت الأسماء إذا انفردتْ بأنفسها لا تكون في كلام العرب على حرف واحد.

فلما كانت الكاف من «إيَّاكَ» هي كنايةَ اسم المخاطَب التي كانت تكون كافاً وحدها متصلةً بالفعل إذا كانتْ بعد الفعل، ثم كان حظُّها أن تعادَ مع كل فعل اتصلتْ به، فيقال: «اللهم إنا نعبُدُكَ ونستعينُكَ ونحمدكَ ونشكرك»، وكان ذلك أفصحَ في كلام العرب، من أن يقال: «اللهم إنا نعبدك ونستعين ونحمد» - كان كذلك، إذا قدِّمت كنايةُ اسم المخاطب قبل الفعل موصولةً بـ «إيا»، كان الأفصح إعادَتها مع كل فعل. كما كان الفصيحُ من الكلام إعادتها مع كل فعل، إذا كانت بعد الفعل متصلةً به، وإن كان تركُ إعادتها جائزاً.

القول في تأويل قوله ﴿**اهْدِنَا**﴾.

ومعنى قوله ﴿اهدِنَا الصراطَ المستقيم﴾، في هذا الموضوع عندنا: وَفِّقْنا للثبات عليه.

ومعناه نظيرُ معنى قوله «إياك نستعين»، في أنه مَسألةُ العبد رَبَّهُ التوفيقَ للثباتِ على العمل بطاعته، وإصابةِ الحق والصواب فيما أمرَهُ به ونهاه عنه، فيما يَستَقبِلُ من عُمُره، دون ما قد مضى من أعماله، وتقضَّى فيما سَلف من عُمُره. كما قوله «إيَّاك نستعين»، مسألةٌ من ربّه المعونةَ على أداء ما قد كَلَّفَهُ مِنْ طاعته، فيما بقي من عُمره.

فكـانَ معنى الكـلام: اللهم إياك نعبدُ وحدَك لا شريكَ لكَ، مخلصين لك العبادةَ دونَ ما سِواكَ من الآلهة والأوثان، فأعِنَّا على عبادتك، ووفِّقنا لما وفَّقت له مَنْ أنعمتَ عليه من أنبيائك وأهل طاعتك، من السبيل والمنهاج.

فإنْ قال قائل: وأنَّى وَجدتَ الهدايةَ في كلام العرب بمعنى التَّوفيق؟

قيل له: ذلك في كلامها أكثرُ وأظهرُ من أنْ يُحصى عددُ ما جاء عنهم في ذلك من الشواهد.

ومنه قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمينَ﴾ في غير آية من تنزيله. وقد عُلم بذلك، أنه لم يَعْن أنه لا يُبيِّنُ للظالمين الواجبَ عليهم من فرائضه. وكيف يجوزُ أن يكونَ ذلك معناه، وقد عمَّ بالبيان جميع المكلَّفين من خلقه؟ ولكنه عنى جلّ وعز أنه لا يُوفِّقهم، ولا يشرَحُ للحق والإيمان صدورهم.

وقد زعم بعضهم أن تأويل قوله ﴿اهدِنا﴾: زِدْنا هداية.

وليس يخلُو هذا القولُ من أحدِ أمرين: إما أن يكون ظنَّ قائلُه أن النبي ﷺ أُمِرَ بمسألة رَبِّه الزيادةَ في البيان، أو الزيادةَ في المعونة والتوفيق.

فإن كان ظن أنه أُمِر بمسألة الزيادة في البيان، فذلك ما لا وجهَ له. لأن الله جلّ ثناؤه لا يكلِّفُ عبداً فرضاً من فرائضه، إلا بعد تبيينه له وإقامة الحجة عليه به. ولو كان مَعنى ذلك معنى مسألتِه البيانَ، لكانَ قد أُمِرَ أنْ يدعو ربَّه

أن يبيِّن له ما فرِضَ عليه، وذلك من الدعاء خَلْفٌ[١]، لأنه لا يفرض فرضاً إلا مبيِّناً لمن فرضَه عليه. أو يكون أُمِرَ أن يدعوَ رَبَّه أن يفرض عليه الفرائض التي لم يفرضْها. وفي فساد وَجه مسألة العبد ربَّه ذلك، ما يوضِّح عن أن معنى ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ﴾، غير معنى: بَيِّنْ لنا فرائضَك وحدودَك.

أو يكون ظن أنه أُمِرَ بمسألة ربه الزيادةَ في المعونة والتوفيق. فإن كان ذلك كذلك، فلن تخلوَ مسألتُه تلك الزيادةَ من أن تكون مسألةً للزيادة في المعونة على ما قد مضى من عمله، أو على ما يحدُث. وفي ارتفاع[٢] حاجةِ العبد إلى المعونة ما قد تقضَّى من عمله، ما يُعلِمُ أن معنى مسألة تلك الزيادة إنما هو مسألتُه الزيادةَ لما يحدث من عمله. وإذ كانَ ذلك كذلك، صارَ الأمر إلى ما وصفنا وقلنا في ذلك: من أنه مسألة العبد ربَّه التوفيقَ لأداء ما كُلِّف من فرائضه، فيما يَستقبل من عُمُره.

وفي صحة ذلك، فسادُ قول أهلِ القدَرِ الزاعمين أنَّ كُلَّ مأمورٍ بأمرٍ أو مكلَّفٍ فرضاً، فقد أعطي من المعونة عليه، ما قد ارتفعت معه في ذلك الفرض حاجَتُهُ إلى ربِّه. لأنه لو كان الأمر على ما قالوا في ذلك، لبطَلَ معنى قول الله جلّ ثناؤه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. وفي صحة معنى ذلك، على ما بيَّنا، فسادُ قولهم.

وقد زعم بعضُهم أن معنى قوله ﴿اهْدنا الصِّراط المستقيم﴾: أسْلِكنا طريق الجنة في المعاد، أيْ قدِّمنا له وامْضِ بنا إليه، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، أي أدخلوهم النارَ، كما تُهْدَى المرأةُ إلى زوجها، يُعنى بذلك أنها تُدخَل إليه، وكما تُهْدى الهديَّة إلى الرجل، وكما تَهدي الساقَ القدمُ[٣].

(١) أي رديء من القول.
(٢) ارتفع الأمر: زال وذهب.
(٣) أي تَردُ به الموارِدَ.

وفي قول الله جلّ ثناؤه ﴿إيَّاكَ نعبُد وإياكَ نستعين﴾ ما يُنْبِىءُ عن خطأ هذا التأويل، مع شهادة الحجة من المفسرين على تخطئته. وذلك أنّ جميعَ المفسرينَ من الصحابةِ والتابعينَ مجمِعُون على أن معنى «الصراط» في هذا الموضع، غيرُ المعنى الذي تأوَّلَهُ قائل هذا القول، وأن قوله: «إياك نستعينُ» مسألةُ العبدِ ربَّه المعونةَ على عبادته. فكذلك قوله «اهْدِنا» إنما هو مسألةُ الثباتِ على الهدى فيما بقي من عُمُره.

والعربُ تقول: هديتُ فلاناً الطريقَ، وهديتُه للطريق، وهديتُه إلى الطريق، إذا أرشدتَه إليه وسدَّدته له. وبكل ذلك جاء القرآن، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال في موضع آخر: ﴿اَجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] وقال: ﴿اهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وكُلُّ ذلك فاشٍ في منطقها، موجودٌ في كلامها.

## القول في تأويل قوله ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (٥)

أجمعت الأمةُ من أهل التأويل جميعاً على أن «الصراط المستقيم»، هو الطريقُ الواضح الذي لا اعوجاجَ فيه. وكذلك ذلك في لغةِ جميعِ العربِ. والشواهدُ على ذلك أكثرُ من أن تُحصَىٰ.

ثم تستعيرُ العربُ «الصراط» فتستعمله في كل قولٍ وعملٍ وُصِفَ باستقامةٍ أو اعوجاجٍ، فتصفُ المستقيمَ باستقامته، والمعوجَّ باعوجاجه.

والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني: ﴿اهدِنا الصِّراط المستقيم﴾، أن يكون معنياً به: وفقنا للثبات على ما ارتضيتَه ووفَّقْتَ له مَنْ أنعمتَ عليه من عبادِكَ، من قولٍ وعملٍ، وذلك هو الصِّراط المستقيم. لأنَّ

مَنْ وُفِّقَ لما وُفق له مَنْ أنعم اللهُ عليه من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء، فقد وُفِّقَ للإسلام، وتصديقِ الرسلِ، والتمسكِ بالكتاب، والعملِ بما أمر الله به، والانزجار عما زَجره عنه، واتباعِ منهجِ النبيِّ ﷺ، ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وكلِّ عبدٍ لله صالحٍ، وكل ذلك من الصراط المستقيم.

وقد اختلفتْ تراجمةُ القرآن[1] في المعنيِّ بالصراط المستقيم. يشملُ معاني جميعهم في ذلك، ما اخترنا من التأويل فيه.

وإنما وصفه الله بالاستقامة، لأنه صوابٌ لا خطأ فيه. وقد زعم بعضُ أهل الغباءِ، أنه سمّاه الله مستقيماً، لاستقامته بأهله إلى الجنة. وذلك تأويلٌ لتأويل جميع أهل التفسير خلافٌ، وكفى بإجماع جميعهم على خلافه دليلاً على خطئه.

## القول في تأويل قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم﴾ (٦)

وقوله ﴿صِرَاط الذين أنعمْتَ عليهم﴾، إبانةٌ عن الصراط المستقيم، أيُّ الصراطِ هو؟ إذْ كان كل طريق من طرُق الحق صراطاً مستقيماً. فقيل لمحمد ﷺ: قُلْ يا محمد: اهدنا يا رَبَّنا الصراطَ المستقيم، صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم بطاعتكَ وعبادتكَ، من مَلائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين وذلك نظير ما قال ربنا جلّ ثناؤه في تنزيله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً* وَإِذاً لآتَيْنَاهُم مِنْ لَدُنَّا أَجْراًعَظِيماً* وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً* وَمَنْ يُطِعِ الله والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٦-٦٩].

فالذي أُمِرَ محمدٌ ﷺ وأمتُه أن يسألوا ربَّهم من الهداية للطريق

---

(١) تراجمة القرآن، جمع ترجمان: وأراد المفسرين.

المستقيم، هي الهداية للطريق الذي وصَف اللهُ جلّ ثناؤه صِفتَهُ. وذلك الطريقُ، هو طريقُ الذين وصَفهم اللهُ بما وصفهم به في تنزيلهِ، ووعدَ مَنْ سَلكه فاستقام فيه طائعاً لله ولرسوله ﷺ، أن يُورِدَهُ مواردهم والله لا يُخْلِفُ الميعاد.

وفي هذه الآية دليلٌ واضح على أنَّ طاعةَ الله جلّ ثناؤه، لا ينالها المُطيعون إلا بإنعامِ الله بها عليهم، وتوفيقه إياهم لها. أوَ لَا يسمعونه يقول: «صراط الذين أنعمت عليهم»، فأضافَ كُلَّ ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنه إنعامٌ منه عليهم؟

فإنْ قال قائلٌ: وأين تمامُ هذا الخبرِ؟ وقد علمتَ أنَّ قولَ القائلِ لآخر: «أنعمت عليك» مقتضٍ الخبرَ عمَّا أنعمَ به عليه، فأين ذلك الخبرُ في قوله «صراط الذين أنعمت عليهم»، وما تلك النعمة التي أنعمها عليهم؟

قيل له: قد قدمنا البيان ـ فيما مضى من كتابنا هذا ـ عن اجتزاءِ العربِ في منطقها ببعضٍ من بعض، إذا كان البعضُ الظاهر دالًّا على البعض الباطن وكافياً منه. فقوله «صراط الذين أنعمتَ عليهم» من ذلك. لأن أمْرَ اللهِ جلّ ثناؤه عبادَه بمسألته المعونةَ، وطلبهم منه الهدايةَ للصراط المستقيم، لما كان متقدماً قولَه «صراطَ الذين أنعمت عليهم»، الذي هو إبانةٌ عن الصراط المستقيم وإبدالٌ منه ـ كان معلوماً أن النعمةَ التي أنعم الله بها على مَنْ أمَرنا بمسألته الهدايةَ لطريقهم، هو المنهاجُ القويمُ والصراطُ المستقيم، الذي قد قَدَّمْنَا البيانَ عن تأويله آنفاً. فكان ظاهرٌ ما ظهر من ذلك ـ مع قرب تجاور الكلمتين ـ مُغْنِياً عن تكراره.

## القول في تأويل قوله: ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾

والقرَأةُ مجمعةٌ على قراءة «غير» بجر الراء منها. والخفضُ يأتيها من وجهين:

أحدهما: أن يكون «غير» صفة لِـ «الذين» ونعتاً لـ (هِمْ) فتخفضها. إذ كان «الذين» خفضاً، وهي لهم نعتٌ وصفةٌ. وإنما جاز أن يكون «غير» نعتاً لِـ «الذين»، و«الذين»، معرفة و«غير» نكرة، لأن «الذين» بصلتها ليست بالمعرفة الموقتة كالأسماء التي هي أماراتٌ بين الناس، مثل زيد وعمرو وما أشبه ذلك، وإنما هي كالنكراتِ المجهولات، مثل الرجل والبعير وما أشبه ذلك. فلما كان «الذين» كذلك صفتُها، وكانت «غير» مضافةً إلى مجهولٍ من الأسماء، نظيرَ «الذين»، في أنه معرفة غير موقتة، كما «الذين» معرفة غير موقتة ـ جاز من أجل ذلك أن يكون «غير المغضوب عليهم» نعتاً لِـ «الذين أنعمت عليهم» كما يقال: «لا أجلسُ إلا إلى العالم غير الجاهل»، يراد: لا أجلس إلا إلى مَنْ يعلم، لا إلى مَنْ يجهل. ولو كان «الذين أنعمت عليهم» مَعرفةً موقتة، كان غير جائز أن يكون «غير المغضوب عليهم» لها نعتاً. وذلك أنه خطأ في كلام العرب ـ إذا وصفت معرفة موقتة بنكرة ـ أن تُلْزِم نَعتها النكرةَ إعرابَ المعرفة المنعوت بها، إلا على نيةِ تكريرِ ما أعربَ المنعوتَ بها. خطأ في كلامهم أن يقال: «مررتُ بعبدالله غير العالم»، فتخفض «غير»، إلا على نية تكرير الباء التي أعرَبتْ عبدالله. فكان معنى ذلك لو قيل كذلك: مَرَرتُ بعبدالله، مررت بغيرِ العالم. فهذا أحدُ وجهي الخفضِ في «غير المغضوب عليهم».

والوجهُ الآخر من وجهي الخفض فيها: أن يكون «الذين» بمعنى المعرفة الموقتة. وإذا وُجِّه إلى ذلك، كانت «غير» مخفوضةً بنية تكرير «الصراط» الذي خُفِض «الذين» عليها، فكأنك قلت: صراطَ الذين أنعمت عليهم، صراطَ غير المغضوب عليهم.

وهذان التأويلان في «غير المغضوب عليهم»، وإن اختلفا في اختلاف مُعرِبَيْهما، فإنهما يتقارب معناهما. من أجل أنَّ مَنْ أنعمَ اللهُ عليه فهداه لدينهِ الحق، فقد سَلِمَ من غضب رَبِّهِ، ونجا من الضلال في دينه.

فسواءٌ - إذْ كان سَامعُ قوله «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم» غيرَ جائزٍ أن يرتاب، مع سماعهِ ذلك من تَاليهِ، في أنَّ الذين أنْعمَ الله عليهم بالهداية للصِّراط غيرُ غاضبٍ ربهم عليهم، مع النعمةِ التي قد عظمت منَّتهُ بها عليهم في دينهم؛ ولا أن يكونوا ضُلَّالاً وقد هداهم الحقَّ ربُّهم. إذْ كان مستحيلاً في فِطَرِهم اجتمــاعُ الــرضَىٰ من الله جلّ ثناؤه عن شخصٍ والغضب عليه في حالٍ واحدةٍ، واجتماعُ الهدىٰ والضلال له في وقتٍ واحد - أوُصِفَ[1] القوم؛ معَ وَصْف الله إياهم بما وصفهم به من توفيقه إياهم وهدايته لهم، وإنعامه عَليهم بما أنعم الله به عليهم في دينهم، بأنهم غيرُ مغضوب عليهم ولا هم ضَالُّون؛ أم لم يوصفوا بذلك. لأن الصِّفة الظاهرة التي وُصفوا بها، قد أنبأت عنهم أنهم كذلك، وإن لم يصرِّح وصفهُم به.

هذا، إذا وجَّهنا «غير» إلى أنهـا مخفـوضة على نية تكرير «الصراطِ» الخافضِ «الذين»، ولم نجعل «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» من صفة «الـذين أنعمت عليهم»، بل إذا جعلناهم غيرَهم. وإن كان الفريقان لاشك مُنْعَماً عليهما في أديانهما.

فأمّا إذا وجهنا «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» إلى أنها من نَعت، «الذين أنعمت عليهم»، فلا حاجةَ بسامعهِ إلى الاستدلال، إذْ كان الصريحُ من معناه قد أغنى عن الدليل.

وقد يجوز نصب «غير» في «غير المغضوب عليهم»، وإن كنتُ للقراءة بها كارهاً لشذوذها عن قراءة القُراء. وإنَّ ما شَذَّ من القراءات عما جاءت به الأمة نقلاً ظاهراً مستفيضاً، فرأيٌ للحَقِّ مخالِفٌ، وعن سبيل الله وسبيل رسول الله ﷺ وسبيل المسلمين متجانفٌ. وإن كان له - لو كان جائزاً القراءةُ به - في الصواب مخرجٌ.

---

(١) يقـول العـلامة محمود شاكر: وسياقُ العبارة: «سواء... أوصف القوم... أم لم يوصفوا»، وما بين هذين فصلٌ طويل كدأب أبي جعفر في بيانه.

فإن قال لنا قائل: فَمَنْ هؤلاء المغضوبُ عليهم، الذين أمرنا الله جلّ ثناؤه بمسألته أنْ لا يجعلنا منهم؟

قيل: هم الذين وصفهم الله جلّ ثناؤه في تنزيله فقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله، مَنْ لَعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ وعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]. فأعلمنا جَلَّ ذِكْرُهُ ثَمَّة[1]، ما أَحَلَّ بهم من عقوبته بمعصيتهم إياه. ثم عَلَّمَنَا، مِنَّةً منه علينا، وجه السبيل إلى النجاة من أن يحِلَّ بنا مثل الذي حَلّ بهم من المَثُلات[2]، ورأفة منه بنا.

## القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)

فإنْ قال لنا قائل: ومَن هؤلاء الضَّالُّون الذين أمرنا الله بالاستعاذة بالله أن يَسلُكَ بنا سبيلَهم ونَضِلَّ ضلالَهم؟

قيل: هم الذين وَصَفهم الله في تنزيله فقال: ﴿يَا أَهلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

فكل حائدٍ عن قَصْدِ السبيل، وسالكٍ غيرَ المنهج القويم، فضَالٌّ عند العرب، لإضلاله وَجهَ الطريق.

---

(١) ثَمَّ وثَمَّةَ (بفتح الثاء): إشارة للبعيد بمنزلة «هنا» للقريب.

(٢) المثلات: جمع مثلة. وهي العقوبة والتنكيل.

## مسألة يَسأل عنها أهل الإلحاد الطَّاعنون في القرآن

إن سألنَا منهم سائل فقال: إنك قد قدَّمتَ في أوَّلِ كتابك هذا في وصْف البيان: بأنّ أعلاه درجةً وأشرفَه مرتبةً، أبلغُه في الإبانة عن حاجة المُبينِ به عن نفسه، وأبينُه عن مُراد قائله، وأقربُه من فهم سامعه. وقلتَ، مع ذلك: إن أوْلى البيان بأن يكون كذلك، كلامُ الله جلّ ثناؤه، لِفَضْله على سائرِ الكلام بارتفاع دَرَجته على أعلى درجاتِ البيان، فما الوجه ـ إذْ كان الأمرُ على ما وصفتَ ـ في إطالة الكلام بمثلِ سورةِ أُمِّ القرآن بسبع آيات؟ وقد حَوَتْ معاني جميعها منها آيتان، وذلك قوله ﴿مَلكِ يومِ الدين إياكَ نَعبد وَإياكَ نَستعين﴾، إذْ كان لاشــك أنَّ مَنْ عَرف مَلك يوم الدين، فقد عَرفَه بأسمائه الحسنى وصفاته المُثْلى. وأن مَنْ كان لله مطيعاً، فلاشك أنه لسبيل من أنعم الله عليه في دينه مُتَّبع، وعن سبيلِ مَنْ غَضِب عليه وضَلَّ مُنْعَدِل. فما في زيادة الآيات الخمس الباقية، من الحكمة التي لم تَحْوِها الآيتان اللتان ذكرنا؟

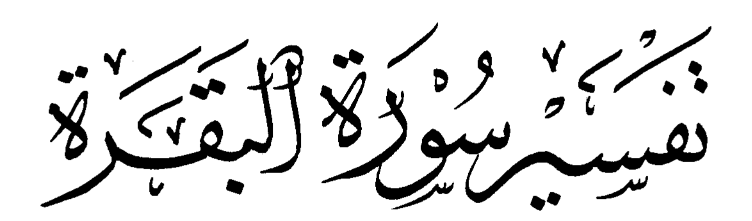
قيل له: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ جَمع لنبينا محمد ﷺ ولأمته ـ بما أنزل إليه من كتابه ـ معاني لم يجمعْهُن بكتابٍ أنزله إلى نَبيٍّ قبله، ولا لأُمَّة من الأمم قبلهم. وذلك أن كُلَّ كتابٍ أنزله جلّ ذكرُه على نبيٍّ من أنبيائه قبله، فإنما أنزله ببعض المعاني التي يحوي جميعَها كتابُه الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ. كالتَّوراة التي هي مواعظ وتفصيل، والزَّبُور الذي هو تحميد وتمجيد، والإنجيل الـذي هو مواعظ وتـذكير ـ لا مُعجـزةَ في واحـد منهـا تشهدُ لمن أنزِل إليه بالتصديق. والكتابُ الذي أنزِل على نبيِّنا محمد ﷺ، يحوي معاني ذلك كله، ويزيد عليه كثيراً من المعاني التي سائرُ الكتب غيرِه منها خالٍ. وقد قدَّمنا ذكره فيما مضى من هذا الكتاب.

ومن أشرفِ تلك المعاني التي فضل بها كتابُنا سائرَ الكتب قبله، نَظْمُه

العجيبُ ورصْفُه الغريب وتأليفُه البديع؛ الذي عجزتْ عن نظم مثْل أصغرِ سورة منه الخطباءُ، وكلَّت عن وَصْفِ شَكْلٍ بعضهِ البُلغاءُ، وتحيَّرت في تأليفه الشعراءُ، وتبلَّدت ـ قصوراً عن أن تأتي بمثله ـ لديه أفهامُ الفُهماء، فلم يجدوا له إلا التسليمَ والإقرارَ بأنه من عند الواحدِ القهار. مع ما يحوي، مَع ذلك، من المعاني التي هي ترغيبٌ وترهيبٌ، وأمرٌ وزجرٌ، وقَصَصٌ وَجَدَلٌ ومَثَلٌ، وما أشبهَ ذلك من المعاني التي لم تجتمع في كتابٍ أُنْزِلَ إلى الأرض من السماء.

فمهما يَكُنْ فيه من إطالة، على نحو مَا في أمِّ القرآن، فَلِمَا وصفتُ قَبْلُ من أنَّ الله جلّ ذكره أرادَ أن يجمعَ ـ برَصْفهِ العجيب ونظْمِه الغريب، المنعدِلِ عن أوزان الأشعار وسَجْعِ الكُهَّان وخطب الخطباء ورَسائل البلغاء، العاجز عن رَصْفِ مِثْلِهِ جميعُ الأنام، وعن نظم نظيره كل العباد ـ الدلالةَ على نبوةِ نبينا محمد ﷺ؛ وبما فيه من تحميدٍ وتمجيد وثناء عليه ـ تنبيهَ العباد على عَظمته وسلطانه وقدرته وعِظم مَملكته، ليذكرُوه بآلائِه، ويحمدوه على نعمائه، فيستحقوا به منه المزيدَ، ويستوجبوا عليه الثوابَ الجزيل؛ وبما فيه من نَعْتِ مَنْ أنعم عليه بمعرفته، وتفضَّل عليه بتوفيقه لطاعته ـ تعريفَ عباده أنَّ كُلَّ ما بهم من نعمةٍ، في دينهم ودنياهم، فمنه، ليصرفوا رَغبتهم إليه، ويبتغوا حاجاتهم من عنده دُون ما سِواهُ من الآلهةِ والأنداد؛ وبما فيه من ذكره ما أحل بمن عَصَاه مِنْ مَثُلاته، وأنزل بمن خالفَ أمرَهُ من عقوباته ـ ترهيبَ عبادهِ عن ركوب معاصيه، والتعرُّضِ لِمَا لا قِبَلَ لهم به من سَخَطِهِ، فيسلكَ بهم في النكال والنِّقمات سبيلَ من ركب ذلك من الهُلاَّك.

فذلك وَجْهُ إطالةِ البيان في سورة أم القرآن، وفيما كان نظيراً لها من سائر سور الفرقان. وذلك هو الحِكمةُ البالغة والحجة الكاملة.


تفسير سورة البقرة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

## القول في تفسير السورة التي يُذْكر فيها البقرة

القول في تأويل قول الله جلّ ثناؤه: ﴿ألم﴾ (١)

اختلفت تَراجِمَةُ القرآن في تأويل قولِ الله تعالى ذكره: «ألـم».

فقال بعضهم: هو اسم من أسماء القرآن.

وقال بعضهم: هو فواتح يفتح الله بها القرآن.

وقال آخرون: هو اسم للسورة.

وقال بعضهم: هو اسم الله الأعظم.

وقال بعضهم: هو قَسَمٌ أقسمَ اللهُ به وهو من أسمائه.

وقال بعضهم: هو حروف مُقَطَّعةٌ من أسماء وأفعال، كُلُّ حرفٍ من ذلك لمعنىً غيرِ معنى الحرفِ الآخر.

وقال بعضهم: هي حروفُ هِجاءٍ موضوع.

وقال بعضهم: هي حروفٌ يشتملُ كُلُّ حرفٍ منها على معانٍ شتى مختلفة.

وقال بعضهم: هي حروف من حساب الجُمَّل.

وقال بعضهم: لكل كتابٍ سرٌّ، وسِرُّ القرآنِ فواتِحُهُ.

وأمَّا أهل العربية، فإنهم اختلفوا في معنى ذلك. فقال بعضهم: هي حروفٌ من حُرُوفِ المعجم، استُغْنيَ بذكر ما ذُكِرَ منها في أوائل السور عن

ذكر بواقيها، التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً؛ كما استغنى المُخبرُ ـ عمن أخبرَ عنه أنه في حروف المعجم الثمانية والعشرين حرفاً ـ بذكر « أ ب ت ث »، عن ذكر بواقي حروفها التي هي تتمة الثمانية والعشرين: قال. ولذلك رفع ﴿ذٰلِكَ الكتابُ﴾، لأن معنى الكلام: الألف واللام والميم من الحروف المقطعة، ذلك الكتابُ الذي أنزلته إليك مجموعاً لا ريبَ فيه.

وقال آخرون: بل ابتدئت بذلك أوائلُ السُّور ليفتحَ لاستماعهِ أسماعَ المشركين ـ إذ تواصَوْا بالإعراضِ عن القرآن ـ حتى إذا استمعوا له تُلي عليهم المُؤَلَّفُ منه.

وقال بعضهم: الحروفُ التي هي فواتح السُّور حروف يستفتحُ اللهُ بها كلامه.

ولكلِّ قولٍ من الأقوال التي قالها الذين وصفنا قولهم في ذلك، وجهٌ معروفٌ.

والصوابُ من القول عندي في تأويل مفاتح السور، التي هي حروف المعجم: أن الله جلّ ثناؤه جعلَها حروفاً مقطَّعة ولم يَصِلْ بعضَها ببعض ـ فيجعلها كسائر الكلام المُتَّصِلِ الحروفِ ـ لأنه عَزَّ ذِكْرُهُ أراد بلفظِه الدلالةَ بكل حرفٍ منه على معانٍ كثيرة، لا على معنى واحد.

فإنْ قال لنا قائل: وكيفَ يجوز أن يكون حرفُ واحدٌ شاملاً الدلالةَ على معانٍ كثيرة مختلفة؟

قيل: كما جاز أن تكون كلمة واحدةٌ تشتمل على معانٍ كثيرةٍ مختلفةٍ، كقولهم للجماعة من الناس: أمَّة، وللحين من الزمان: أمَّة، وللرجل المتعبِّد المطيع لله: أمة، وللدين والملة: أمة. وكقولهم للجزاء والقصاص: دين، وللسلطان والطاعة: دين، وللتذلل: دين، وللحساب: دينٌ، في أشباهٍ لذلك كثيرةٍ يطولُ الكتابُ بإحصائها ـ مما يكونُ من الكلام بلفظ واحد، وهو مشتمل

على معانٍ كثيرةٍ. وكذلك قول الله جلّ ثناؤه: «ألم» و«ألر» و«ألمص» وما أشبه ذلك من حروف المعجم التي هي فواتح أوائل السور، كل حرفٍ منها دالٌّ على معانٍ شتى، شاملٌ جميعُها من أسماء الله عزّ وجل وصفاته ما قاله المفسِّرُون من الأقوال التي ذكرنا عنهم. وهن، مع ذلك، فواتح السور، كما قاله مَنْ قال ذلك. وليسَ كونُ ذلك من حُروف أسماء الله جلّ ثناؤه وصفاتِه، بمانِعِها أنْ تكون للسُّور فواتح. لأن الله جلّ ثناؤه قد افتتح كثيراً من سور القرآن بالحمدِ لنفسهِ والثناءِ عليها، وكثيراً منها بتمجيدِهَا وتعظِيمها، فغيرُ مستحيلٍ أن يبتدىء بعض ذلك بالقسم بها.

فالتي ابتُدِىء أوائِلُها بحرُوف المعجم، أحدُ مَعاني أوائلها: أنهن فواتحُ ما افتَتَحَ بهن من سُور القرآن. وهُنَّ مما أقسمَ بهن، لأن أحدَ معانيهن أنهن من حروف أسماء الله تعالى ذِكْرُهُ وصفاتِه، على ما قدَّمنا البيان عنها، ولاشك في صحةِ معنى القَسَم بالله وأسمائه وصفاته. وهن من حروف حساب الجُمَّل. وهن للسُّور التي افتتحت بهنِ شعارٌ وأسماء. فذلك يحوي مَعانيَ جميعِ ما وصفنا، مما بَيَّنًا، من وجوهِهِ. لأن الله جلّ ثناؤه لو أراد بذلك، أو بشيءٍ منه، الدلالةَ على معنىً واحد مما يحتملهُ ذلك، دونَ سائرِ المعاني غيره، لأبان ذلك لهم رسولُ الله ﷺ إبانةً غيرَ مشكلةٍ إذْ كان جلّ ثناؤه إنما أنزل كتابه على رسوله ﷺ ليُبيِّنَ لهم ما اختلفوا فيه. وفي تركه ﷺ إبانةَ ذلك ـ أنه مرادٌ به من وجُوه تأويلهِ البعضُ دون البعض ـ أوضحُ الدليل على أنه مرادٌ به جميعُ وجوههِ التي هو لها محتملٌ. إذ لم يكن مستحيلا في العقل وجهٌ منها أن يكون من تأويله ومعناه، كما كان غير مستحيلٍ اجتماعُ المعاني الكثيرة للكلمة الواحدة، باللفظ الواحد، في كلامٍ واحد.

ومَنْ أبى ما قلناهُ في ذلك، سُئِل الفرقَ بين ذلك، وبين سائر الحروفِ التي تأتي بلفظٍ واحد، مع اشتمالها على المعاني الكثيرة المختلفة، كالأمة

والدين وما أشبه ذلك من الأسماء والأفعال. فلن يقول في واحدٍ مِنْ ذلك قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخرِ مثله.

وكذلك يُسأل كُلُّ مَنْ تَأوَّلَ شيئاً من ذلك ـ على وجهٍ دُون الأوجهِ الأُخَرِ التي وصفنا ـ عن البرهانِ على دَعْواه، من الوَجه الذي يجبُ التسليمُ له. ثم يُعارَضُ بقولِ مُخالفهِ في ذلك، ويسأل الفرق بينه وبينه: من أصْلٍ، أو مما يدلُّ عليه أصْلٌ. فلن يقولَ في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخر مثله.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ﴾

قال عامةُ المفسرين: تأويل قول الله تعالى ﴿ذلك الكتاب﴾: هذا الكتاب.

فإنْ قال قائـل: وكيف يجـوزُ أن يكون «ذلك» بمعنى «هذا»؟ و«هذا» لاشك إشارة إلى حاضرٍ مُعَايَنٍ، و«ذلك» إشارةٌ إلى غائبٍ غير حاضر ولا مُعايَن؟

قيل: جاز ذلك، لأن كل ما تَقَضَّى، بقُرْبِ تَقضِّيه من الإخبار، فهو ـ وإن صار بمعنى غير الحـاضـر ـ فَكَالحاضِرِ عند المخاطب. وذلك كالرجل يحدِّثُ الرجلَ الحديثَ فيقول السامع: «إن ذلك والله لكما قُلْتَ»، و«هذا والله كما قلتَ»، و«هو والله كما ذكرت»، فيخبرُ عنه مَرَّة بمعنى الغائب، إذْ كان قد تَقضَّى ومضى، ومرة بمعنى الحاضر، لقُرْب جوابه من كلام مخبره، كأنه غير مُنْقَضٍ. فكذلك «ذلك» في قوله ﴿ذلك الكتاب﴾ لأنه جَلَّ ذِكْرُهُ لما قدم قبلَ «ذلك الكتاب» «ألم»، التي ذكرنا تصرُّفَها في وجُوهِها من المعاني على ما وصفنا، قال لنبيه ﷺ: يا محمد، هذا الذي ذكرته وبيَّنْتُه لك، الكتابُ. ولذلك حسن وضع «ذلك» في مكان «هذا»، لأنه أُشِيرَ به إلى الخبر عمّا تضمَّنهُ قوله «ألم» من المعاني، بعد تقضي الخبر عنه بـ «ألم»، فصار لِقُرْبِ الخبرِ عنه من

تقضِّيه، كالحاضرِ المُشَارِ إليه، فأخبر به بـ «ذلك» لانقضائه، ومصير الخبر عنه كالخبر عن الغائب، وترجمهُ[1] المفسِّرون: أنه بمعنى «هذا»، لقربِ الخبر عنه من انقضـائه، فكانَ كالمُشَاهَدِ المُشَارِ إليه بـ «هذا»، نحو الذي وصفناه من الكـلام الجـاري بين النـاس في محـاوراتهم، وكما قال جل ذكره: ﴿وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ﴾ هذا ذكر﴾ [ص: ٤٨-٤٩] فهذا ما في «ذلك» إذا عنى بها «هذا».

وقد يحتمل قوله جلّ ذكره ﴿ذلك الكتاب﴾، أن يكون معنياً به السُّوَرُ التي نزلت قبلَ سورةِ البقرةِ بمكة والمدينة، فكأنه قال جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، اعلمْ أنَّ ما تضمَّنَتْهُ سُوَرُ الكتابِ التي قد أنزلتها إليك، هو الكتـابُ الـذي لا ريبَ فيه. ثم ترجمه المفسرون بأن معنى «ذلك»: «هذا الكتاب»، إذْ كانت تلك السُّور التي نزلت قبل سورة البقرة، من جملةِ جميعِ كتابنا هذا، الذي أنزله الله عزّ وجل على نبينا محمد ﷺ.

وكـان التـأويلُ الأول أولى بما قاله المفسرون، لأن ذلك أظهرُ معاني قولِهم الذي قالوه في «ذلك».

القول في تأويل قوله: ﴿لَارَيْبَ فِيهِ﴾

وتأويل قوله: «لا ريب فيه» «لا شَكَّ فيه».

والهاء التي في «فيه» عائدةٌ على الكتاب، كأنه قال: لا شك في ذلك الكتاب أنه من عندِ اللهِ هُدىً للمتقين.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿هُدىً﴾

---

(١) ترجمه: أي فسره.

والهُدى في هذا الموضع مصدرٌ من قولك: هديتُ فلاناً الطريقَ ـ إذا أرشدتَه إليه، ودَلَلْتَهُ عليه، وبَيَّنْتَهُ له ـ أهديه هُدى وهداية.

فإن قال لنا قائل: أوَ ما كتابُ الله نوراً إلا للمتقين، ولا رَشاداً إلا للمؤمنين؟

قيل: ذلك كما وصفه ربنا عزّ وجل. ولو كان نوراً لغير المتقين، ورشاداً لغير المؤمنين، لم يخصُص الله عزّ وجل المتقين بأنه لهم هدى، بل كان يَعُمُّ به جميع المُنْذَرينَ. ولكنه هدى للمتقين، وشفاءٌ لما في صدور المؤمنين، وَوَقْرٌ في آذان المكذبين، وعمىً لأبصار الجاحدين، وحجةٌ لله بالغةٌ على الكافرين. فالمؤمن به مُهتدٍ، والكافرُ به محجوجٌ.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢)

وأوْلى التأويلات بقول الله جلّ ثناؤه ﴿هدى للمتقين﴾ تأويلُ من وصفَ القومَ بأنهم الذين اتَّقُوا الله تبارك وتعالى في ركوب ما نهاهم عن ركوبه، فتجنبوا معاصِيه، واتَّقوْه فيما أمرهم به من فرائضِه، فأطاعوه بأدائها. وذلك أن الله عز وجل وصَفهم بالتقوى، فلم يحصُرْ تقواهم إياه على بعضٍ ما هو أهلٌ له منهم دون بعض. فليس لأحدٍ من الناس أن يحصُر معنى ذلك، على وَصْفهم بشيءٍ من تَقوى الله عزّ وجل دون شيء، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها. لأنَّ ذلك من صفة القوم ـ لو كان محصوراً على خاص من معاني التقوى دون العام منها ـ لم يَدَعِ الله جلّ ثناؤه بيانَ ذلك لعباده: إما في كتابه، وإما على لسان رسوله ﷺ، إذْ لَم يكن في العقل دليلٌ على استحالة وصفهم بعموم التقوى.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿الَّذِين يُؤْمِنُونَ﴾

ومعنى الإيمان عند العرب: التصديق، فيُدْعَى المصدِّقُ بالشيء قولاً، مؤمناً به، ويُدْعى المصدِّق قولَه بفِعْلِه، مؤمناً. ومن ذلك قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، يعني: وما أنتَ بمصدِّقٍ لنا في قولنا. وقد تدخلُ الخشيةُ لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديقُ القولِ بالعملِ. والإيمانُ كلمةٌ جامعةٌ الإقرارَ بالله وكتُبِهِ ورسلِه، وتصديق الإقرار بالفعل. وإذْ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بتأويل الآيةِ، وأشبه بصفة القوم: أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغَيْب قولاً واعتقاداً وعملاً، إذ كان جلّ ثناؤه لم يحصُرْهم من معنى الإيمان على معنىً دون معنى، بل أجْمَلَ وَصْفَهُم به، من غير خصوصِ شيءٍ من معانيه أخرجَهُ من صفتهم بخبرٍ ولا عقلٍ.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿**بِالْغَيْبِ**﴾

وأصلُ الغيب: كُلُّ ما غاب عنكَ من شيءٍ. وهو من قولك: غاب فُلان يغيبُ غيباً.

وقد اختلفَ أهلُ التأويل في أعيانِ القومِ الذين أنزل الله جلّ ثناؤه هاتين الآيتين من أول هذه السورة فيهم، وفي نَعْتهم وصِفَتهم التي وَصَفهم بها، من إيمانِهم بالغيبِ، سائر المعاني التي حوتها الآيتان من صفاتهم غيرَه.

فقال بعضُهم: هم مؤمنو العربِ خاصةً، دون غيرهم من مؤمني أهل الكتاب.

واستدَلُّوا على صحةِ قولهم ذلك وحقيقة تأويلهم، بالآية التي تتلو هاتين الآيتين، وهو قول الله عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ

قَبْلِكَ﴾. قالوا: فلم يكن للعربِ كتابٌ قبل الكتاب الذي أنزل الله عزّ وجل على محمد ﷺ، تَدينُ بتصديقِه والإقرارِ والعمل به. وإنما كان الكتابُ لأهل الكتابين غيرها. قالوا: فلما قَصَّ اللهُ عزّ وجل نبأ الذين يؤمنون بما أُنْزِلَ إلى محمد وما أُنْزِلَ من قبله ـ بعد اقتصاصه نبأ المؤمنين بالغيب ـ علمنا أن كُلَّ صِنفٍ منهم غيرُ الصنف الآخر، وأن المؤمنين بالغيب نوعٌ غيرُ النوع المصدِّق بالكتابين اللذين أحدهما مُنَزَّلٌ على محمد ﷺ، والآخرُ منهما على مَنْ قَبْلَ رسول الله.

قالوا: وإذْ كان ذلك كذلك، صحَّ ما قلنا من أن تأويل قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، إنما هم الذين يؤمنون بما غاب عنهم من الجنة والنار، والثَّوَاب والعقاب والبعثِ، والتصديقِ بالله ومَلائكته وكُتُبه ورسله، وجميع ما كانت العرب لا تدينُ به في جاهليتها، مما أوجب الله جلّ ثناؤه على عِبَاده الدَّيْنُونة به ـ دون غيرهم.

وقـال بعضهم: بلِ نَزَلَتْ هذه الآيات الأربـعُ في مؤمني أهل الكتاب خاصَّةً، لإيمانهم بالقرآن عند إخبار الله جلّ ثناؤه إياهم فيه عن الغيوب التي كانوا يخفونها بينهم ويُسِرُّونَها، فعلموا عند إظهار الله جلّ ثناؤه نبيَّه ﷺ على ذلك منهم في تنزيله، أنه من عند الله جلّ وعز، فآمَنُوا بالنبيِّ ﷺ، وصدَّقُوا بالقرآن وما فيه من الإخبارِ عن الغيوبِ التي لا عِلْمَ لهم بها، لِمَا استقرَّ عندهم ـ بالحجةِ التي احتجَّ اللهُ تبارك وتعالى بها عليهم في كتابه، من الإخبار فيه عمَّا كانوا يكتمونه من ضمائرهم ـ أن جميع ذلك من عند الله.

وقال بعضهم: بل الآيات الأربعُ من أول هذه السورة، أُنزِلتْ على محمد ﷺ بوصفِ جميع المؤمنين الـذين تلـك صِفَتُهم من العرب والعجم، وأهل الكتابين وسِوَاهم. وإنما هذه صفة صِنْفٍ من الناس، والمؤمن بما أنزل الله على محمد ﷺ، وما أُنزِلَ من قبله، هو المؤمن بالغيب.

وأَوْلى القولين عندي بالصواب، وأشبههما بتأويل الكتاب، القولُ الأول، وهو: أن الذين وَصَفهم الله تعالى ذِكْرُه بالإيمان بالغيب، وبما وصفهم به جلّ ثناؤه في الآيتين الأُوْلَيَيْن، غير الذين وصفهم بالإيمان بالذي أنزل على محمد والذي أنزل على مَنْ قبله من الرسل، لما ذكرت من العللِ قَبْلُ لمن قال ذلك.

ومما يدلّ أيضاً مع ذلك على صحةِ هذا القول، أنه جنَّسَ - بعد وصف المؤمنين بالصِّفتين اللتين وَصَفَ، وبعد تصنيفه كلَّ صنفٍ منهما على ما صنَّف الكفار - جِنْسَيْن: فجعل أحدهما مطبوعاً على قلبه، مختوماً عليه، مأيوساً من إيابه، والآخرَ منافقاً، يُرائي بإظهارِ الإيمان في الظاهر، ويَسْتَسِرُّ النفاقَ في الباطن. فَصَيَّرَ الكفار جنسَيْن، كما صيَّر المؤمنين في أول السورة جِنْسين. ثم عَرَّفَ عبادَهُ نَعْتَ كلِّ صنفٍ منهم وصِفَتَهم، وما أعدَّ لكل فريق منهم من ثواب أو عقاب، وذَم أهل الذَّم منهم، وشكرَ سَعْيَ أهل الطاعة منهم.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿ويُقِيمُونَ﴾.

وإقـامتُها: أداؤها - بحدودها وفروضها والواجب فيها - على ما فُرِضَتْ عليهم كما يقال: أقام القومُ سُوقَهم، إذا لم يُعَطِّلوها من البَيع والشراء فيها.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿الصَّلَوٰةَ﴾

وأما الصلاةُ فإنها في كلام العرب الدُّعاءُ، وأرى أن الصلاة المفروضة سُمِّيت «صلاة»، لأنَّ المصلِّيَ متعرِّضٌ لاستنجاح طلبَته من ثوابِ الله بعمله، مع ما يسأل رَبَّه من حاجاته، تعرُّضَ الداعي بدعائه ربَّه استنجاحَ حاجاته وسؤله.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣)

وأَوْلى التأويلات بالآية وأحقُّها بصفة القوم: أن يكونوا كانوا لجميع اللازم لهم في أموالهم، مُؤدِّين، زكاةً كان ذلك أو نفقةَ مَنْ لَزِمَتْهُ نفقتُه، من أهلٍ وعيال وغيرهم، ممن تجبُ عليهم نَفَقتُه بالقرابةِ والملك وغير ذلك. لأن الله جلّ ثناؤه عَمَّ وصفهم إذْ وصَفهم بالإنفاق مما رزقهم، فمدحهم بذلك من صفتهم. فكان معلوماً أنه إذ لم يَخْصُصْ مدْحَهم ووصفَهم بنوعٍ من النفقاتِ المحمودِ عليها صاحبُها دونَ نوعٍ بخبر ولا غيره ـ أنهم موصوفون بجميع معاني النفقات المحمودِ عليها صاحبُها من طَيِّبِ ما رزقهم رَبُّهم من أموالهم وأملاكهم، وذلك الحلالُ منه الذي لم يَشُبْهُ حرامٌ.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾

قد مضى البيان عن المنعوتين بهذا النعت، وأي أجناس الناس هم.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤)

أما الآخرةُ فإنها صفةٌ للدار، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. وإنما وُصِفَتْ بذلك لمصيرها آخِرةً لأولى كانت قَبْلَها، كما تقولُ للرجل: «أنعمتُ عليك مرَّة بعد أخرى، فلم تشكر لي الأولى ولا الآخرة»، وإنما صارت آخرة للأولى، لتقدُّمِ الأولى أمامَها. فكذلك الدارُ الآخرة، سُمِّيتْ آخرةً لتقدُّم الدار الأولى أمامها، فصارت التاليةُ لها آخرةً. وقد يجوز أن تكون سُمِّيت آخرةً لتأخرها عن الخَلْقِ، كما سميت الدنيا «دنيا» لِدُنُوِّها من الخلق.

وأما الذي وَصَف الله جلّ ثناؤه به المؤمنين ـ بما أنزل إلى نبيه محمد ﷺ وما أنزل إلى مَن قَبله من المرسلين ـ من إيقانِهم به من أمرِ الآخرة، فهو إيقانهم بما كان المشركون به جاحدين: من البَعْث والنُّشور والثوابِ والعقاب والحساب والميزان، وغير ذلك مما أعَدَّ الله لخلْقِه يومَ القيامة.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل فيمن عَنَى اللهُ جلّ ثناؤه بقوله: «أولئكَ على هُدىً من ربهم»:

فقال بعضهم: عَنَى بذلك أهل الصِّفتين المتقدمتين، أعني: المؤمنين بالغيب من العرب، والمؤمنين بما أنزل إلى محمد ﷺ وإلىٰ مَن قَبله من الرسل. وإياهم جميعاً وَصَف بأنهم على هُدىً منه، وأنهم هم المفلحون.

وقال بعضهم: بل عنى بذلك المتقين الذين يؤمنون بالغيب، وهم الذين يؤمنون بما أُنزِلَ إلى محمد، وبما أُنزِلَ إلى مَنْ قَبْلَهُ من الرسل.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الذين يؤمنون بما أنزل إلى محمد ﷺ، وبما أنزل إلى مَنْ قبله، وهم مُؤمنو أهل الكتاب الذين صدقوا بمحمد ﷺ وبما جاء به، وكانوا مؤمنين من قَبْلُ بسائر الأنبياء والكُتُب.

وعلى هذا التأويل الآخر يُحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ في محل خفضٍ، ومحل رفع.

وأولى التأويلات عندي بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أن تكون «أولئك» إشارةً إلى الفريقين، أعني: المتَّقين، والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وتكون «أولئك» مرفوعة بالعائد من ذكرهم في قوله «على هدى من ربهم»؛ وأن

تكون «الذين» الثانيةُ معطوفةً على ما قبلُ من الكلام، على ما قد بيَّنّاه.

وإنما رأينا أن ذلك أولى التأويلات بالآية، لأن الله جلّ ثناؤه نَعتَ الفريقين بنعتِهم المحمود، ثم أثنَى عليهم. فلم يكن عزّ وجل ليخصَّ أحد الفريقين بالثناء، مع تساويهما فيما استحقَّا به الثناءَ من الصفات. كما غيرُ جائزٍ في عَدْلِه أنْ يتساويا فيما يستحقان به الجزاءَ من الأعمال، فيخصَّ أحدهما بالجزاء دون الآخر، ويحرِمَ الآخر جَزَاءَ عملِه. فكذلك سبيلُ الثناء بالأعمال، لأنَّ الثناء أحد أقسام الجزاء.

وأما معنى قوله: ﴿أُولئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نورٍ من ربِّهم وبرهانٍ واستقامة وسَدادٍ، بتسديدِ اللهِ إياهم، وتوفيقه لهم.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)

وتأويل قوله: «وأولئك هم المفلحون» أي أولئك هم المُنْجِحُون المُدْرِكُون ما طَلَبُوا عندَ الله تعالى ذكره بأعمالِهم وإيمانهم بالله وكتبه ورُسله، من الفَوْزِ بالثواب، والخلود في الجِنَان والنَّجاةِ مما أعَدَّ الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)

عن ابن عباس: «إن الذين كفروا»، أي بما أنزِل إليك من ربِّك، وإنْ قالوا إنا قد آمنا بما قد جاءنا من قبلك.

وكان ابن عباس يرى أن هذه الآية نزلتْ في اليهود الذين كانوا بنواحي

المدينةِ على عهد رسول الله ﷺ، توبيخاً لهم في جُحودهم نبوَّةَ محمد ﷺ وتكذيبِهم به، مع علمهم به ومعرفتِهم بأنه رسولُ الله إليهم وإلى الناس كافة.

وأمَّا عِلَّتنا في اختيارنا ما اخترنا من التأويل في ذلك (عن ابن عباس)، فهي أنَّ قول الله جلّ ثناؤه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ عَقِيبَ خبرِ اللهِ جَلَّ ثناؤه عن مؤمني أهلِ الكتاب، وعَقِيبَ نعتهم وصفتهم وثنائه عليهم بإيمانهم به وبكتبه ورسله.

فأَوْلى الأمورِ بحكمة الله، أن يُتلِيَ ذلك الخبرَ عن كُفارهم ونُعُوتهم، وذمِّ أسبابهم وأحوالهم، وإظهارَ شَتْمهم والبراءةَ منهم. لأن مؤمنيهم ومشركيهم ـ وإن اختلفت أحوالهم في اختلاف أديانهم ـ فإن الجنس يجمع جميعَهم بأنهم بنو إسرائيل.

وإنما احتج الله جلّ ثناؤه بأول هذه السورة لنبيِّه ﷺ على مشركي اليهود من أحبار بني إسرائيل الذين كانوا مع علمهم بنبوته مُنْكرين نبوته ـ بإظهار نبيِّه ﷺ على ما كانت تُسِرُّه الأحبار منهم وتكتُمه، فيجهلهُ عُظْمُ اليهودِ وتَعلمُهُ الأحبارُ منهم ـ ليعلموا أنَّ الذي أطلعه على عِلْمِ ذلك، هو الذي أنزل الكتابَ على موسى. إذْ كان ذلك من الأمور التي لم يكنْ محمدٌ ﷺ ولا قومُه ولا عشيرتُه يعلمونه ولا يعرفونه من قبل نزول الفرقان على محمد ﷺ، فيمكنهم ادعاء اللَّبس في أمره عليه السلام أنه نبيٌّ، وأن ما جاء به فمن عند الله. وأنَّى يُمكنُ ادعاء اللَّبس في صدق أُمِّيٍّ نشأ بين أُمِّيِّين لا يكتبُ ولا يقرأ ولا يحسُب، فيقال قرأ الكتبِ فعَلم، أو حسب فنجَّم؟ انبعثَ على أحْبارٍ قُرَّاءٍ كَتَبَةٍ ـ قد درسوا الكتب ورَأسوا الأمم ـ يُخْبرهم عن مستورِ عُيوبهم، ومَصُونِ علومهم، ومكتومِ أخبارهم، وخَفِيَّات أمورهم التي جهلها مَنْ هو دونهم من أحبارهم. إن أمرَ من كان كذلك لغيرُ مُشْكِلٍ، وإنَّ صِدْقَهُ لبَيِّنٌ.

ومما ينبىء عن صحة ما قُلنا ـ من أن الذين عنىٰ الله تعالى ذكره بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ هُم أحبارُ اليهود الذين قُتلوا على الكفرِ وماتوا عليه ـ اقتصاصُ الله تعالى ذِكْرُهُ نبأَهُم، وتذكيرُه إياهم ما أخَذ علَيهم من العهودِ والمواثيق في أمر محمدٍ عليه السلام، بَعْد اقتصاصه تعالى ذكرُه ما اقتص من أمرِ المنافقين، واعتراضِه بين ذلك بما اعترضَ به من الخبر عن إبليس وآدم ـ في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات [البقرة: ٤٠ وما بعدها]، واحتجاجُه لنبيِّه عليهم، بما احتجَّ به عليهم فيها بعد جُحُودهم نبوته. فإذْ كان الخبر أولاً عن مُؤمني أهل الكتاب، وآخراً عن مشركيهم، فأولى أن يكون وَسطاً: ـ عنهم. إذْ كان الكلامُ بعضُه لبعض تَبَعٌ، إلا أن تأتيهم دلالةٌ واضحةٌ بعُدول بعض ذلك عما ابتَدأ به من معانيه فيكونَ معروفاً حينئذ انصرافه عنه.

وأما معنى الكفر في قوله: «إن الذين كفروا» فإنه الجُحُود. وذلك أن الأحبار من يَهودِ المدينة جحدوا نبوَة محمد ﷺ، وستَروه عن الناس وكتمُوا أمره وهُمْ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

وأصْلُ الكفر عند العرب: تَغطيةُ الشيء، ولذلك سمَّوُا الليل «كافراً»، لتغطية ظُلمته ما لَبِسَتْهُ. فكذلك الأحبار من اليهود غطَّوا أمرَ محمد ﷺ وكَتَمُوه الناسَ مع علمهم بنبوته، ووُجُودِهم صِفَتَه في كُتُبهم ـ فقال الله جلّ ثناؤه فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُم الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وهم الذين أنزل الله عزّ وجل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

القول في تأويل قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

وتأويل «سواءٌ»: معتدل. مأخوذ من التّساوي، كقولك: «مُتساوٍ هذان الأمران عندي»، و«هما عِندي سَواءٌ»، أي هما متعادلان عنديَ، ومنه قول الله جلّ ثناؤه: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، يعني: أعْلِمْهُم وآذِنْهُم بالحربِ، حتى يَستوي عِلْمُكَ وعلمُهم بما عليه كلُّ فريقٍ منهم للفريقِ الآخر. فكذلك قوله «سَواءٌ عليهم»: معتدلٌ عندهم أي الأمرين كان منك إليهم، الإنذار أم ترك الإنذار لأنهم لا يؤمنون، وقد خَتمتُ على قلوبهم وسمعهم.

وأما قوله: ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، فإنه ظهرَ به الكلامُ ظهورَ الاستفهام وهو خبرٌ، لأنه وَقعَ موقعَ «أي» كما تقول: «لا نُبالي أقمتَ أم قعدت»، وأنت مخبرٌ لا مستفهم، لوقوع ذلك موقع «أي» وذلك أن معناه إذا قلتَ ذلك: ما نبالي أي هذين كان منك. فكذلك ذلك في قوله: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ»، لما كان معنى الكلام: سواءٌ عليهم أيُّ هذين كان منك إليهم ـ حَسُنَ في موضعه مع سواءٌ: «أفعلتَ أم لم تفعل».

فتأويل الكلام إذاً: معتدلٌ يا محمد ـ على هؤلاء الذين جحدوا نبوَّتك من أحبارِ يهود المدينة بعد علمهم بها، وكتموا بيانَ أمركَ للناس بأنك رسولي إلى خَلْقِي، وقد أخذتُ عليهم العهدَ والميثاقَ أن لا يكتموا ذلك، وأن يُبَيِّنوهُ للناس، ويُخبرُوهم أنهم يجدُون صِفَتَك في كتبهم ـ أأنذرتهم أم لم تنذرهم، فإنهم لا يؤمنون، ولا يرجعون إلى الحق، ولا يصدقونَ بك وبما جئتَهم به.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾

وأصلُ الختم: الطَّبْع. والخاتَم هو الطَّابع. يقال منه: ختمتُ الكتابَ، إذا طَبَعْته.

فإن قال لنا قائل: وكيف يختِمُ على القلوبِ، وإنما الختمُ طبعٌ على الأوعية والظروف والغلف[1]؟

قيل: فإن قلوبَ العباد أوعيةٌ لما أُودِعَتْ من العلوم، وظروفٌ لما جُعل فيها من المعارف بالأمور. فمعنى الختم عليها وعلى الأسماع ـ التي بها تُدرَكُ المسموعات، ومن قِبَلها يُوصَلُ إلى معرفةِ حقائق الإنباء عن المُغَيَّبات ـ نظيرُ معنى الختم على سائر الأوعية والظروف.

وهـذه الآية من أوْضحِ الدليل على فساد قول المنكرين تكليفَ ما لا يُطاقُ إلا بمعونة الله، لأنَّ الله جلّ ثناؤه أخبرَ أنه ختم على قلوب صِنْفٍ من كُفَّار عباده وأسماعهم، ثم لم يُسقط التكليفَ عنهم، ولم يَضَعْ عن أحدٍ منهم فرائضَهُ، ولم يعذِرْهُ في شيءٍ مما كان منه من خلاف طاعته بسبب ما فعل به من الختم والطبع على قلبه وسمعه ـ بَلْ أخبر أنَّ لجميعِهم منه عذاباً عظيماً على تركِهم طاعتَهُ فيما أمَرَهُم به ونهاهم عنه من حدودهِ وفرائضه، مع حَتْمه القضاءَ عليهم مع ذلك، بأنهم لا يؤمنون.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾

وقوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ خبرٌ مبتدأ بعد تمام الخبر عمَّا ختم

---

(١) الغلف جمع غلاف: وهو الصوان الذي يشتمل على ما أوعيت فيه.

الله جلّ ثناؤه عليه من جوارح الكفار الذين مضت قِصَصهم. وذلك أن «غِشاوةٌ» مرفوعة بقوله «وعلى أبصارهم»، فذلك دليل على أنه خَبرٌ مبتدأ، وأن قوله «ختم الله على قلوبهم»، قد تناهى عند قوله «وعلى سَمْعهم».

وذلك هو القراءة الصحيحة عندنا لمعنيين:

**أحدهما**: اتفاقُ الحجة من القُرَّاء والعلماء على الشهادة بتصحيحها، وانفرادُ المخالِفِ لهم في ذلك، وشذوذه عمّا هم على تَخطئتِهِ مُجْمِعُونَ. وكفى بإجماع الحجة على تخطئة قراءته شاهداً على خطئها.

**والثاني**: أن الختمَ غيرُ موصوفةٍ به العيونُ في شيءٍ من كتاب الله، ولا في خبرٍ عن رسولِ الله ﷺ، ولا موجودٍ في لغة أحدٍ من العرب. وقد قال تبارك وتعالى في سورة أخرى: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ ثم قال: ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، فلم يدخل البصرَ في معنى الخَتْم. وذلك هو المعروف في كلام العرب، فلم يَجُزْ لنا، ولا لأحدٍ من الناس، القراءةُ بنصب الغِشاوة، لما وصفتُ من العلتين اللتين ذكرتُ، وإن كان لنَصْبها مخرجٌ معروفٌ في العربية.

وإنما أخبر الله تعالى ذِكْرُهُ نبيه محمداً ﷺ عن الذين كفروا به من أحبار اليهود، أنه قد خَتَم على قلوبهم وطَبعَ عليها ـ فلا يعقلون لله تبارك وتعالى موعظةً وَعَظَهُمْ بها، فيما آتاهم من علم ما عندهم من كُتُبِهِ، وفيما حدَّدَ في كتابه الذي أوحاه وأنزله إلى نبيه محمد ﷺ ـ وعلى سمعهم، فلا يسمَعُون من محمد ﷺ نبيِّ الله تحذيراً ولا تذكيراً ولا حجةً أقامها عليهم بنبوَّته، فيتذكَّرُوا ويَحْذَرُوا عقابَ الله عزّ وجل في تكذيبهم إياه مع عِلْمِهم بصدقهِ وصحةِ أمره. وأعلمه مع ذلك أنَّ على أبصارهم غشاوةً عن أن يُبصروا سبيلَ الهُدى، فيعلموا قُبْحَ ما هم عليه من الضلالة والرَّدَى.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾

وتأويل ذلك عندي، كما قاله ابن عباس وتأوله: ولهم بما هم عليه من خلافك عذابٌ عظيم. قال: فهذا في الأحبار من يهود، فيما كَذَّبُوكَ به من الحق الذي جاءك من ربك بعد معرفتهم.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾

أما قوله: «ومن الناس»، فإن في «الناس» وجهين:

**أحدهما**: أنْ يكونَ جمعاً لا واحدَ له من لَفْظِه، وإنما واحدهم «إنسانٌ»، وواحدتهم «إنسانة».

**والوجه الآخر**: أن يكون أصله «أُناس» أسقِطت الهمزة منها لكثرة الكلام بها، ثم دخلتها الألف واللام المُعَرِّفتان، فأدغِمت اللام ـ التي دخلت مع الألف فيها للتعريف ـ في النون، كما قيل في ﴿لكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨]، على ما قد بَيَّنا في «اسم الله» الذي هو الله. وقد زعم بعضهم أن «الناس» لغة غير «أناس»، وأنه سمع العرب تصغرهُ «نُوَيْس» من الناس، وأن الأصل لو كان أناس لقيل في التصغير: أُنَيس، فَرُدَّ إلى أصله.

وأجمعَ جميعُ أهلِ التأويل على أنَّ هذه الآية نزلت في قومٍ من أهلِ النِّفاق، وأن هذه الصِّفة صِفتُهم.

وتأويل ذلك: أن الله جلّ ثناؤه لما جمع لرسوله محمد ﷺ أمْرَهُ في دار هجرته واستقرَّ بها قرارُه، وأظهر الله بها كلمتَهُ، وفشا في دورِ أهلِها الإسلامُ، وقَهَرَ بها المسلمون مَنْ فيها من أهلِ الشرك من عَبَدَةِ الأوثان، وذَلَّ بها مَن فيها

من أهل الكتاب ـ أظهر أحبارُ يَهودها لرسول الله ﷺ الضَّغائن، وأبدوا له العداوةَ والشنآنَ، حسداً وبغياً، إلا نفراً منهم هداهم اللهُ للإسلام فأسلموا، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وطابَقَهم سراً على معاداة النبي ﷺ وأصحابه وبَغْيهم الغوائِل، قومٌ ـ من أَراهط الأنصار الذين آوَوْا رسولَ الله ﷺ ونَصَروه ـ وكانوا قد عَسَوْا في شِرْكِهم وجاهليَّتهم قد سُمُّوا لنا بأسمائهم، كَرِهْنَا تطويلَ الكتابِ بذكرِ أسمائهم وأنسابهم، وظاهروهم على ذلك في خَفاءٍ غيرِ جِهارٍ، حذارَ القتلِ على أنفسهم، والسِّباءِ من رسول الله ﷺ وأصحابه، وركوناً إلى اليهود لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام. فكانوا إذا لَقُوا رسولَ الله ﷺ وأهلَ الإيمان به من أصحابه قالوا لهم ـ حِذاراً على أنفسهم ـ: إنا مؤمنون بالله وبرسوله وبالبَعْث، وأعطَوْهم بألسنتهم كلمة الحقِّ، ليدرأوا عن أنفسهم حكم الله فيمن اعتقد ما هم عليه مقيمون من الشرك، لو أظهروا بألسنتهم ما هم مُعْتَقِدُوهُ من شِركهم. وإذا لَقُوا إخوانَهم من اليهود وأهل الشرك والتكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به، فَخَلَوْا بهم ﴿قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءونَ﴾. فإياهم عَنى جَلَّ ذِكْرُهُ بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بقوله تعالى خبراً عنهم: آمنا بالله: ـ وصدقنا بالله.

وقد دللنا على أنَّ معنى الإيمان: التصديق، فيما مضى قَبْلُ من كتابنا هذا.

وقوله: ﴿وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، يعني: بالبعثِ يوم القيامة، وإنما سُمي يومُ القيامة «اليومَ الآخر»، لأنه آخر يوم، لا يومَ بعده سواه.

فإنْ قال قائل: وكيف لا يكون بعده يوم، ولا انقطاعَ للآخرة ولا فناء ولا زوال؟

قيل: إن اليومَ عند العرب إنما سُمي يوماً بليلته التي قبله، فإذا لم يتقدم النهارَ ليلٌ لم يُسَمَّ يوماً. فيومُ القيامة يومٌ لا ليلَ بعده، سوى الليلة التي قامت في صبيحتها القيامة، فذلك اليوم هو آخر الأيام. لذلك سماه الله جلّ ثناؤه «اليوم الآخر»، ونعتَهُ بالعَقِيم. ووصفه بأنه يوم عَقيم، لأنه لا ليلَ بعده.

وأما تأويل قوله: «وما هم بمؤمنين»، ونفيُه عنهم جَلَّ ذِكْرُهُ اسمَ الإيمان، وقد أخبر عنهم أنهم قد قالوا بألسنتهم: آمَنَّا بالله وباليوم الآخر ـ فإنَّ ذلك من الله جَل وعَزَّ تكذيبٌ لهم فيما أخبَرُوا عن اعتقادهم من الإيمانِ والإقرار بالبعث، وإعلامٌ منه نبيَّهُ ﷺ أنَّ الذي يُبْدُونَهُ له بأفواهِهِم خلافُ ما في ضمائر قلوبهم، وضِدُّ ما في عزائم نفوسهم.

وفي هذه الآية دلالـةٌ واضحة على بُطُولِ ما زَعَمَتْهُ الجهميةُ: من أن الإيمان هو التصديق بالقول، دون سائر المعاني غيره. وقد أخبر الله جلّ ثناؤه عن الذين ذكرهم في كتابه من أهل النفاق، أنهم قالوا بألسنتهم: «آمنا بالله وباليوم الآخر»، ثم نَفَى عنهم أن يكونوا مؤمنين، إذْ كان اعتقادهم غير مصدِّقٍ قِيلَهُم ذلك.

وقوله «وما هم بمؤمنين» يعني بمصدِّقين، فيما يزعمون أنهم به مُصَدِّقون.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

"وخـداعُ المنـافقِ ربَّـه والمؤمنينَ، إظهارُه بلسانه من القول والتصديق، خلافَ الذي في قلبه من الشك والتكذيب" ليدْرَأ عن نفسه، بما أظهر بلسانه، حكمَ الله عزّ وجل ـ اللازمَ مَنْ كان بمثلِ حاله من التكذيب، لو لم يُظْهِرْ بلسانِه ما أظهرَ من التصديق والإقرار ـ من القَتْل والسِّباء. فذلك خِداعُه ربَّهُ وأهلَ الإيمان بالله.

فإن قال قائل: وكيف يكون المنافقُ لله وللمؤمنين مُخادِعاً، وهو لا يُظْهِرُ بلسانه خلافَ ما هو له معتقدٌ إلا تَقِيَّةً؟

قيل: لا تمتنعُ العربُ من أنْ تُسمي مَنْ أعطى بلسانه غيرَ الذي هو في ضميره تَقِيَّةً لينجو مما هو له خائف، فنجا بذلك مما خافه ـ مُخادِعاً لمن تخلَّصَ منه بالذي أظهر له من التَّقية. فكذلك المنافق، سُمي مخادعاً لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقيَّةً، مما تخلَّص به من القتل والسِّبَاءِ والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر مُسْتبطِنٌ. وذلك من فعلِه ـ وإن كان خِدَاعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا ـ فهو لنفسه بذلك من فعله خادعٌ، لأنه يُظهر لها بفعله ذلك بها، أنهُ يُعطيها أمنيَّتها، ويُسقيها كأس سرُورها، وهو مُورِدُها به حِياض عَطَبها، ومجَرِّعُها به كأسَ عَذابها، ومُزيرُها[1] من غَضب الله وأليم عقابه ما لا قِبَلَ لها به. فذلك خديعَتُه نَفْسَهُ، ظَنّاً منه ـ مع إساءته إليها في أمر معادها ـ أنه إليها مُحْسِنٌ، كما قال جلّ ثناؤه: «وما يخدَعُون إلا أنفسهم ومَا يشعُرُون»، إعلاماً منه عبادَه المؤمنين أنَّ المنافقين بإساءتهم إلى أنفُسهم في إسخاطِهم ربَّهم بكُفْرِهم وشكِّهم وتكذيبهم ـ غيرُ شاعرين ولا دارين ولكنهم على عَمْيَاء من أمرِهم مُقيمون.

وهذه الآية من أوضح الدليل على تكذيب الله جلّ ثناؤه الزاعمينَ: أنَّ الله لا يُعذِّبُ من عباده إلا من كَفَر به عِناداً، بعد علمه بوحدانيته، وبعد تقرُّرِ صحةِ ما عاندَ ربه تبارك وتعالى عليهِ من تَوْحيدهِ، والإقرار بكتبه ورُسله ـ عنده. لأن الله جلّ ثناؤه قد أخبر عن الذين وصفهم بما وصفهم به من النفاق، وخِداعهم إياه والمؤمنين ـ أنهم لا يشعرون أنهم مُبْطِلُونَ فيما هُمْ عليه من

---

(١) أزاره: حَمَلَهُ على الزيارة، وفي حديث طلحة: «. . . حتى أزرته شعوب»، وشعوب هي المنية، أي أوردته المنية فزارها، وجعلها زيارة، وهي هلاك. سخرية بهم واستهزاء.

الباطل مُقِيمون، وأنَّهم بخداعهم - الذي يحسبون أنهم به يُخادعون رَبَّهم وأهلَ الإيمان به - مخدوعون. ثم أخبر تعالى ذكره أنَّ لهم عذاباً أليماً بتكذيبهم بما كانوا يُكَذِّبون من نبوة نبيِّهِ، واعتقاد الكفر به، وبما كانوا يَكذِبون في زعمهم أنهم مؤمنون، وهم على الكفر مُصِرُّون.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾

إنْ قال قائل: أَوَ ليسَ المنافقون قد خَدَعُوا المؤمنين - بما أظهرُوا بألسنتهم من قِيلِ الحَقِّ - عن أنفسهم وأموالِهم وذَراريهم حتى سَلِمَتْ لهم دنياهم، وإن كانوا مخدوعين في أمر آخرتهم؟

قيل: خطأٌ أن يقال إنهم خَدعُوا المؤمنين. لأنَّا إذا قلنا ذلك، أوجبنا لهم حقيقةَ خدعةٍ جازتْ لهم على المؤمنين. كما أنَّا لو قلنا: قتل فلان فلاناً، أوجبنا له حقيقة قتلٍ كان منه لفلان. ولكنا نقول: خادَع المنافقون رَبَّهم والمؤمنين، ولم يَخْدَعوهم بَل خَدعوا أنفسهم، كما قال جلّ ثناؤه، دون غيرها، نظيرَ ما تقول في رجل قاتل آخر فقتَلَ نَفْسَهُ ولم يقتُلْ صاحبه: قاتَل فلان فلاناً فلم يقتل إلا نَفْسَهُ، فتوجبُ له مقاتَلَةَ صاحبه، وتنفي عنه قتلَهُ صاحِبَهُ، وتُوجِبُ له قتلَ نفسِهِ. فكذلك تقول: «خادَعَ المنافقُ ربَّه والمؤمنين فلم يَخْدَعْ إلا نفسه»، فتثبت منه مخادعةَ ربه والمؤمنين، وتنفي عنه أنْ يكونَ خدع غيرَ نفسه، لأن الخادعَ هو الذي قد صَحَّتْ الخديعةُ له، ووَقع منه فِعْلُها. فالمنافقون لم يخدَعُوا غيرَ أنفسِهم، لأنَّ ما كان لهم من مالٍ وأهلٍ، فلم يكن المسلمون مَلَكُوه عليهم - في حال خِداعهم إياهم عنه بنفاقهم وَلا قَبْلها - فيستنقِذُوه بخداعهم منهم، وإنما دافعوا عنه بكذبهم وإظهارهم بألسنتهم غيرَ الذي في ضمائرهم، ويحكُم الله لهم في أموالهم وأنفسهم وذراريهم في ظاهر أمورِهم

بِحُكْم ما انتسبوا إليه من الملّةِ، والله بما يُخْفون من أمورِهم عالم. وإنما الخادع مَنْ خَتَلَ غيرَهُ عن شيئِه، والمخدوعُ غير عالم بموضع خديعةِ خادِعِه. فأما والمُخَادَعُ عارفٌ بخداع صاحبه إياه - غير لاحقِه من خداعه إيَّاهُ مكروهٌ، بل إنما يتجافى للظَّانِّ به أنه له مُخَادِعٌ، استدراجاً، ليبلغ غايةً يتكامل له عليه الحُجَّةُ للعقوبة التي هو به مُوقِع عند بلوغهِ إياها، والمُسْتَدْرَج غيرُ عالمٍ بحالِ نفسه عند مُسْتَدْرِجِه، ولا عارف باطّلاعه على ضميره، وأنَّ إمهالَ مستدرِجِه إياه، تركه معاقبته على جرمه، ليبلغ المخاتِلُ المخادعُ - من استحقاقه عقوبةَ مُسْتَدْرِجِه، بكثرة إساءته، وطول عِصيانه إياه، وكثرة صفحِ المستدرِج، وطولِ عفوهِ عنه - أقصى غايةٍ - فإنما هو خادعٌ نَفْسَهُ لاشك، دون مَنْ حَدَّثَتْهُ نفسُه أنه له مخادع. ولذلك نفىٰ الله جلّ ثناؤه عن المنافق أن يكون خَدَعَ غيرَ نفسِه، إذ كانت الصِّفةُ التي وَصَفنا صفتَه.

وإذا كان الأمر على ما وصفنا من خِدَاع المنافق ربَّه وأهلَ الإيمان به، وأنه غير صائرٍ بخداعهِ ذلك إلى خديعةٍ صحيحةٍ إلا لنفسِه دون غيرها، لما يُورِّطُها بفعله من الهلاك والعطب - فالواجبُ إذاً أن يكون الصحيح من القراءة: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ دون ﴿وَمَا يخادِعُونَ﴾ لأنَّ لفظ «المخادع» غير مُوجبٍ تثبيتَ خديعةٍ على صحَّة، ولفظ «خادع» موجبٌ تثبيتَ خديعةٍ على صحَّة. ولاشك أن المنافق قد أوْجبَ خديعة الله عزّ وجل لِنَفْسه بما رَكِبَ من خداعه ربَّه ورسولَه والمؤمنين - بنفاقه، فلذلك وجبت الصِّحةُ لقراءة من قرأ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

ومن الدلالة أيضاً على أنَّ قراءةَ مَنْ قرأ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ أولى بالصحةِ من قراءة مَنْ قرأ: ﴿وَمَا يخادِعُونَ﴾، أن الله جلّ ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم يُخادعون الله والمؤمنين في أول الآية، فمحال أن يَنفيَ عنهم ما قد أثبت أنهم قد فعلوه، لأن ذلك تضادٌّ في المعنى، وذلك غير جائز من الله جلّ وعز.

## القول في تأويل قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه «وما يشعرون»، وما يَدْرُون. يقال: ما شَعَرَ فلانٌ بهذا الأمر، وهو لا يشعر به - إذا لم يَدْرِ ولم يَعْلم - شِعراً وشعوراً.

فأخبر الله تعالى ذكره عن المنافقين: أنهم لا يشعرون بأن الله خادِعُهم، بإملائِهِ لهم واستدراجِه إياهم، الذي هو من الله جلّ ثناؤه إبلاغٌ إليهم في الحجة والمعذرة، ومنهم لأنفسهم خديعةٌ، ولها في الآجل مَضرة.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾

وأصل المرَض: السَّقم، ثم يقال ذلك في الأجساد والأديان. فأخبر الله جلّ ثناؤه أن في قلوب المنافقين مَرَضاً، وإنما عنىٰ تبارك وتعالى بخبره عن مرض قلوبهم، الخبر عن مرض ما في قلوبهم من الاعتقاد، ولكن لما كان معلوماً بالخبر عن مرض القلب، أنَّه معنيٌّ به مرضُ ما هم معتقدُوه من الاعتقاد، استغنى بالخبر عن القلب بذلك والكفاية عن تصريح الخبر عن ضمائرهم واعتقاداتهم.

ومعنى قول الله جلّ ثناؤه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ إنما يعني: في اعتقادِ قلوبهم الذي يعتقدونه في الدين، والتصديقِ بمحمدٍ ﷺ، وبما جاء به من عند الله - مَرَض وسُقْم. فاجتزأ بدلالة الخبر عن قلوبهم على معناه، عن تصريح الخبر عن اعتقادهم.

والمرضُ الذي ذكر الله جلّ ثناؤه أنه في اعتقاد قلوبهم الذي وصفنا: هو شكُّهم في أمرِ محمدٍ وما جاء به من عند الله، وتحيُّرُهم فيه، فلا هُمْ به موقنون إيقانَ إيمانٍ، ولا هم له منكرون إنكارَ إشراك، ولكنهم، كما وصفهم الله عزّ

وجل، مُذَبْذَبُونَ بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كما يقال: فلان يُمَرِّضُ في هذا الأمر، أي يُضَعِّف العزمَ ولا يصحِّحُ الروِيَّةَ فيه.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾

قد دللنا آنفاً على أن تأويل المرض الذي وَصَف الله جلّ ثناؤه أنه في قلوب المنافقين، هو الشكُّ في اعتقادات قلوبهم وأديانهم، وما هم عليه ـ في أمرِ محمدٍ رسولِ الله ﷺ، وأمر نبوته وما جاء به ـ مقيمون.

فالمرض الذي أخبر الله جلّ ثناؤه عنهم أنَّه زادهم على مرضهم، نظيرُ ما كان في قلوبهم من الشَّكِّ والحيرة قبل الزيادة، فزادهم الله بما أحدث من حدوده وفرائضه ـ التي لم يكن فرضهَا قبل الزيادة التي زادها المنافقين ـ من الشك والحيرة، إذْ شَكُّوا وارتابوا في الذي أحدث لهم من ذلك ـ إلى المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السَّالف، من حدوده وفرائضه التي كان فَرَضَها قبل ذلك. كما زاد المؤمنين به إلى إيمانهم الذي كانوا عليه قبل ذلك، بالذي أحدث لهم من الفرائض والحدود إذْ آمنوا به، إلى إيمانهم بالسالف من حُدُوده وفرائضه ـ إيماناً. كالذي قال جلّ ثناؤه في تنزيله: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذه إيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. فالزيادة التي زيدها المنافقون من الرَّجاسة إلى رجاستهم هو ما وصفنا. والتي زِيْدَهَا المؤمنون إلى إيمانهم، هو ما بَيَّنا. ذلك هو التأويل المُجْمَعُ عليه.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

والأليم: هو المُوجِعُ. معناه: ولهم عذاب مؤلم. بصرفِ «مؤلم» إلى «أليم»، كما يقال: ضَرْبٌ وَجِيع بمعنى مُوجع، والله بَديع السموات والأرض، بمعنى مُبْدِع.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

اختلفت القَـرَأَةُ في قراءة ذلـك، فقرأه بعضهم: ﴿بِمَا كانُوا يَكْذِبُونَ﴾ مُخَفَّفة الذَّال مفتوحة الياء، وهي قراءة عُظْم قَرَأَةِ أهلِ الكوفة وقرأه آخرون: ﴿يُكَـذِّبُـونَ﴾ بضم الياء وتشـديد الـذال، وهي قراءة عُظْم قَرَأَةِ أهل المدينة والحجاز والبصرة.

وكأن الذين قرأوا ذلك، بتشديد الذال وضم الياء، رأوا أن الله جلّ ثناؤه إنمـا أوجب للمنـافقين العـذابَ الأليم بتكذيبهم نبيَّه ﷺ وبما جاء به، وأن الكذِبَ لولا التكذيبُ لا يُوجب لأحدٍ اليَسير من العذاب، فكيف بالأليم منه؟

وليس الأمرُ في ذلك عندي كالذي قالوا. وذلك: أن الله عزّ وجل أنبأ عن المنـافقين في أول النبأ عنهم في هذه السورة، بأنهم يَكذبون بدَعْواهمُ الإيمانَ، وإظهارهم ذلك بألسنتهم، خداعاً لله عزّ وجل ولرسوله وللمؤمنين، فقـال: ﴿وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بالله وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ* يُخَادِعُونَ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بذلك من قِيْلِهم، مع اسْتِسْرَارِهم الشكَّ والريبة، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ بصنيعهم ذلك ﴿إلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ دونَ رسولِ الله ﷺ والمؤمنين؛ ﴿وَمَـا يَشْعُـرُونَ﴾ بموضعِ خديعتهم أنفسَهُم، واستدراج الله عزّ وجل إياهم بإملائه لهم، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ شَكُّ النفاقِ وريبَتُهُ والله زَائِدُهم شكاً وريبة بما كانوا يَكذِبون الله ورسولَهُ والمؤمنينَ بقولهم بألسنتهم آمنَّا بالله وباليوم الآخر، وهم في قِيلِهم ذلك كَذَبَةٌ، لاستسرارهم الشَّكَّ والمرض في اعتقادات قلوبهم

في أمْرِ الله وأمرِ رسوله ﷺ. فأولى في حكْمة الله جلّ جلاله، أنْ يكون الوعيدُ منه لهم على ما افتتح به الخبرَ عنهم من قبيح أفعالهم وذميم أخلاقهم، دون ما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ من أفعالهم. إذ كان سائر آيات تنزيله بذلك نَزَل، وهو: أنْ يفتتحَ ذِكْرَ محاسن أفعالِ قومٍ، ثم يختم ذلك بالوعد على ما افتتح به ذِكره من أفعالهم، ويفتتح ذكر مساوىء أفعال آخرين، ثم يختم ذلك بالوعيد على ما ابتدأ به ذكره من أفعالهم.

فكذلك الصحيح من القول ـ في الآيات التي افتتح فيها ذِكْرَ بعض مساوىء أفعالِ المنافقين ـ أنْ يختمَ ذلك بالوعيدِ على ما افتتح به ذكره من قبائحِ أفعالهم فهذا هذا، مع دلالة الآية الأخرى على صحة ما قلنا، وشهادتها بأنَّ الواجبَ من القراءة ما اخترنا، وأنَّ الصوابَ من التأويل ما تأوَّلْنا، من أنَّ وعيدَ الله المنافقين في هذه الآية العذابَ الأليمَ على الكذب الجامع معنى الشك والتكذيب، وذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١، ٢].

والآية الأخرىٰ في المجادلة: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٦]. فأخبر جلّ ثناؤه أن المنافقين ـ بقِيلِهم ما قالُوا لرسولِ الله ﷺ، مع اعتقادِهم فيه ما هم مُعْتَقِدُونَ ـ كاذبون. ثم أخبر تعالى ذكره أنَّ العذابَ المُهِينَ لهم، على ذلك من كذبهم. ولو كان الصحيح من القراءة على ما قرأه القارئون في سورة البقرة: «ولهم عذاب أليم بما كانوا يُكَذِّبون» لكانت القراءةُ في السورة الأخرى: «والله يشهدُ إن المنافقين لمكذِّبون»، ليكون الوعيدُ لهم الذي هو عَقِيب ذلك وعيداً على التكذيب لا على الكذب. وفي إجماع المسلمين على أنَّ الصوابَ من القراءة في قوله: «والله

يشهد إن المنافقين لكاذبون» بمعنى الكذب - وأنَّ إيعادَ الله تبارك وتعالى فيه المنافقينَ العذابَ الأليمَ على ذلك من كذبهم - أوضحُ في الدلالةِ على أنَّ الصحيحَ من القراءة في سورة البقرة: «بما كانوا يَكْذِبون» بمعنى الكَذِب، وأنَّ الوعيدَ من الله تعالى ذِكْرُه للمنافقين فيها على الكذب - حقٌّ - لا على التكذيب الذي لم يَجْرِ له ذِكْرٌ - نظيرَ الذي في سورة المنافقين سواءً.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾

نزلت في المنافقين الذين كانوا على عَهد رسول الله ﷺ، وإن كان معنياً بها كُلُّ مَنْ كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدَهم إلى يوم القيامة؛ لإجماع الحجة من أهلِ التأويلِ على أنَّ ذلك صفةُ مَنْ كان بين ظَهرَانيْ أصحابِ رسول الله ﷺ - على عهد رسول الله ﷺ - من المنافقين، وأن هذه الآيات فيهم نَزَلَتْ. والتأويلُ المُجْمَعُ عليه أولى بتأويل القرآن، من قولٍ لا دلالةَ على صحته من أصل ولا نظير.

والإفساد في الأرض، العمل فيها بما نهى اللهُ جَلَّ ثناؤه عنه، وتضييعُ ما أمر اللهُ بحِفْظِه، فذلك جملة الإفساد، كما قال جلّ ثناؤه في كتابه مخبراً عن قِيْلِ ملائكتهِ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، يعنون بذلك: أتجعلُ في الأرضِ مَنْ يَعْصِيكَ ويُخالف أمرك؟ فكذلك صفة أهل النفاق: مُفسدون في الأرض بمعصِيَتهم فيها ربَّهم، وركوبهم فيها ما نَهاهم عن ركوبه، وتضييعِهم فرائضَه، وشكِّهم في دينِ الله الذي لا يقبَلُ من أحدٍ عملاً إلا بالتَّصديقِ به والإيقانِ بحقيقته، وكذِبهم المؤمنين بدَعواهم غيرَ ما هُمْ عليه مقيمُون من الشك والرَّيب، وبمظاهرتهم أهلَ التكذيبِ بالله وكُتُبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفسادُ المنافقين

في أرض الله، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مُصْلِحُونَ فيها. فلم يسقط الله جلّ ثناؤه عنهم عقوبتَهُ، ولا خفَّفَ عنهم أليمَ ما أعدَّ من عقابهِ لأهلِ معصيتهِ - بحُسبانهم أنهم فيما أتَوْا من معاصي الله مصلحون - بل أوجبَ لهم الدَّرْكَ الأسفلَ من نارهِ، والأليمَ من عذابهِ، والعارَ العاجلَ بسَبِّ الله إياهم وشَتْمِهِ لهم، فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وذلك من حكم الله جلّ ثناؤه فيهم، أدلُّ الدليلِ على تكذيبه تعالى قولَ القائلين: إن عقوباتِ الله لا يستحقها إلا المعاندُ ربَّه فيما لزمه من حُقُوقهِ وفروضه، بعد علمه وثُبوتِ الحجةِ عليه بمعرفته بلزوم ذلك إياه.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾

لاشك أنهم كانوا يحسبون أنهم فيما أَتَوْا من ذلك مصلحون. فسواءٌ بين اليهـود والمسلمين كانت دعواهم الإصلاحَ، أو في أديانهم، وفيما ركبوا من معصية الله، وكَذِبهم المؤمنينَ فيما أظهروا لهم من القولِ وهُمْ لغيرِ ما أظهرُوا مُستبْطِنون؛ لأنهم كانوا في جميع ذلك من أمرهم عند أنفسهم محسنين، وهم عند الله مُسيئون، ولأمرِ الله مخالفون. لأن الله جلّ ثناؤه قد كان فرض عليهم عداوةَ اليهودِ وحربَهم مع المسلمين، وألزمهم التصديقَ برسول الله ﷺ وبما جاء به من عند الله، كالذي ألزمَ من ذلك المؤمنين. فكان لقاؤهمُ اليهودَ - على وجه الولاية منهم لهم، وشكُّهم في نبوَّةِ رسولِ الله ﷺ وفيما جاء به أنه من عند الله - أعظمَ الفساد، وإن كان ذلك كان عندهم إصلاحاً وهُدىً: في أديانهم أو فيما بين المؤمنين واليهود، فقال جلّ ثناؤه فيهم: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ دون الذين ينهونهم من المؤمنين عن الإفساد في الأرض، ﴿ولكن لا يشعرون﴾.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾

وهذا القولَ من الله جلّ ثناؤه تكذيبٌ للمنافقين في دعواهم. إذا أُمِروا بطاعةِ الله فيما أمرَهم اللهُ به، ونُهُوا عن معصيةِ الله فيما نَهاهم اللهُ عنه، قالوا: إنما نحن مصلحون لا مفسدون، ونحن على رُشْدٍ وهُدىً ـ فيما أنكرتُموه علينا ـ دونكم لا ضالُّون. فَكَذَّبهمُ الله عزّ وجل في ذلك من قِيْلِهم فقال: ألا إنهم هم المفسدون المخالفون أمرَ الله عزّ وجل، المتعدُّونَ حُدُودَهُ، الراكبونَ معصيتَهُ، التاركُون فروضَه، وهم لا يشعُرون ولا يَدْرُون أنهم كذلك ـ لا الذين يأمرونهم بالقسط من المؤمنين، وينهَوْنَهُم عن معاصي الله في أرضه من المسلمين.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾

وتأويل قوله: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾ يعني: وإذا قيل لهؤلاء الذين وَصفَهم اللهُ ونعتهم بأنهم يقولون: ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾: صَدِّقوا بمحمدٍ وبما جاء به من عند الله، كما صدق به الناس. ويعني بـ«الناس» المؤمنينَ الذين آمنوا بمحمدٍ ونبوته وما جاء به من عند الله.

وإنما أُدخِلت الألفُ واللام في «الناس»، وهم بعضُ الناس لا جميعُهم، لأنهم كانوا معروفين عند الذين خُوطِبُوا بهذه الآية بأعيانهم، وإنما معناه: آمِنُوا كما آمنَ الناس الذين تعرفونهم من أهلِ اليقينِ والتصديقِ بالله وبمحمدٍ ﷺ وما جاء به من عند الله وباليوم الآخر. فلذلك أُدخِلت الألفُ واللام فيه، كما أُدخِلَتا في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾

[آل عمران: ١٧٣]، لأنه أُشيرَ بدخولها إلى ناسٍ معروفين عند مَنْ خُوطِبَ بذلك.

القول في تأويل قول الله جلّ ثناؤه: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾

والسفهاء جَمْعُ سَفِيه، كما العلماءُ جمع عليم، والحكماء جمعُ حكيم. والسفيه: الجاهل، الضعيفُ الرأي، القليلُ المعرفة بمواضع المنافع والمضار. ولذلك سَمَّى الله عزّ وجل النِّساء والصبيانَ سفهاء، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ الله لَكُمْ قِيَاماً﴾ [النساء: ٥]، فقال عامة أهل التأويل: هم النساء والصبيان، لضعف آرائهم، وقلة معرفتهم بمواضع المصالح والمضار التي تصرف إليها الأموال.

وإنما عَنَى المنافقون بِقِيْلِهم: أنؤمنُ كما آمَن السُّفهاء ـ إذْ دُعُوا إلى التصديقِ بمحمدٍ ﷺ، وبما جاء به من عند الله، والإقرار بالبعث فقيل لهم: آمنوا كما آمن الناس ـ أصحابَ[1] محمدٍ وأتباعَهُ من المؤمنين المصدِّقين به، من أهل الإيمان واليقين، والتصديقِ بالله، وبما افترض عليهم على لسان رسوله محمد ﷺ وفي كتابه، وباليوم الآخر. فقالوا إجابةً لقائلِ ذلك لهم: أنؤمنُ كما آمَن أهلُ الجهل، ونصدِّقُ بمحمد ﷺ كما صدق به هؤلاء الذين لا عقولَ لهم ولا أفهام؟

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾

---

(١) «أصحاب محمد» مفعول قوله: «وإنما عنى المنافقون بقيلهم...».

وهذا خبرٌ من الله تعالى عن المنافقين الذين تقدم نعتُه لهم، ووصفُه إياهم بما وصفهم به من الشك والتكذيب - أنَّهم هم الجُهَّال في أديانهم، الضعفاءُ الآراءِ في اعتقاداتهم واختياراتهم التي اختاروها لأنفسهم، من الشك والريب في أمرِ الله وأمر رسوله وأمر نبوته، وفيما جاء به من عند الله، وأمر البعث، لإساءَتهم إلى أنفسهم بما أتَوْا من ذلك وهم يحسبون أنَّهم إليها يُحْسِنون. وذلك هو عَيْنُ السَّفَه، لأن السفيه إنما يُفسد من حيث يرى أنه يُصلحُ، ويُضيع من حيث يَرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق: يَعصي رَبَّه من حيثُ يرى أنه يطيعُه، ويكفرُ به من حيث يرى أنه يُؤمن به، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يُحسن إليها، كما وصفهم به ربنا جلّ ذكره، فقال: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾، وقال: ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ - دون المؤمنين المصدقين بالله وبكتابه، وبرسوله وثوابه وعقابه - ﴿ولكن لا يعلمون﴾. وكذلك كان ابن عباس يتأول هذه الآية.

وأما وَجْهُ دخول الألف واللام في «السُّفهاء»، فشبيهٌ بوجه دخولهما في «الناس» في قوله: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾، وقد بينًا العلة في دخولهما هنالك، والعلةُ في دخولهما في «السفهاء» نظيرتها في دخولهما في «الناس» هنالك، سواء.

والدلالةُ التي تدل عليه هذه الآية من خطأ قولِ مَنْ زعم أن العقوبةَ من الله لا يستحقها إلا المعاند ربَّه، بعد عِلْمِه بصحةِ ما عانده فيه - نظيرُ دلالة الآيات الأخَر التي قد تقدم ذكرنا تأويلَها في قوله «ولكن لا يشعرون»، ونظائر ذلك.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾

وهذه الآية نظيرةُ الآيةِ الأخرى التي أخبر الله جلّ ثناؤه فيها عن المنافقين بخداعهم الله ورسولَه والمؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يقُولُ آمَنَّا باللهِ وَبالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، ثم أكْذَبهم تعالى ذكره بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وأنهم بقِيلهم ذلك يُخادعون الله والذين آمنوا. وكذلك أخبر عنهم في هذه الآية أنهم يقولون ـ للمؤمنين المصدِّقين بالله وكتابه ورسوله ـ بألسنتهم: آمنا وصدَّقنا بمحمدٍ وبما جاء به من عند الله، خِداعاً عن دمائهم وأموالهم وذَراريهم، ودرءاً لهم عنها، وأنهم إذا خَلَوْا إلى مَرَدَتِهم وأهلِ العُتُوِّ والشر والخُبث منهم ومن سائر أهل الشرك، الذين هم على مثل الذي هم عليه من الكُفر بالله وبكتابه ورسوله ـ وهم شياطينهم، وقد دللنا فيما مضى من كتابنا على أن شياطينَ كل شيء مَرَدَتُه ـ قالوا لهم: «إنا معكم»، أي إنَّا معكم على دينكم، وظُهراؤكم على مَنْ خالَفَكُم فيه، وأولياؤكم دون أصحابِ محمدٍ ﷺ، «إنما نحن مستهزِئون» بالله وبكتابه ورسوله وأصحابه.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ١٤﴾

أجمع أهل التأويل جميعاً ـ لا خلاف بينهم ـ على أن معنى قوله: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾: إنما نحن ساخرون. فمعنى الكلام إذاً: وإذا انصرف المنافقون خالين إلى مَرَدتهم من المنافقين والمشركين قالوا: إنا معكم على ما أنتم عليه من التكذيبِ بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به، ومُعَاداتِه ومعاداةِ أتباعه، إنما نحن ساخرون بأصحابِ محمدٍ ﷺ، بقيلنا لهم إذا لقيناهم: آمَنَّا بالله وباليوم الآخر.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾

إن معنى الاستهزاء في كلام العرب: إظهارُ المستهزِيء للمستهزَأ به من القول والفعل ما يُرضيه ظاهراً، وهو بذلك من قِيله وفِعْله به مُورِثه مَساءة باطناً. وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر.

فإذا كان ذلك كذلك ـ وكان اللهُ جَلَّ ثناؤه قد جعل لأهلِ النفاق في الدنيا من الأحكام ـ بما أظهروا بألسنتهم، من الإقرار بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، المُدْخِلِهم في عِدَادِ مَنْ يشمله اسمُ الإسلام، وإن كانوا لغير ذلك مستبطنين ـ أحكامَ المسلمين المصدِّقين إقرارَهم بألسنتهم بذلك، بضمائر قلوبِهم، وصحائحِ عزائمهم، وحميدِ أفعالهم المحققة لهم صحَّةَ إيمانهم ـ معَ علم الله عزّ وجل بكذبهم، واطلاعِه على خُبْثِ اعتقادهم، وشكِّهم فيما ادَّعوا بألسنتهم أنهم به مصدِّقون، حتى ظنُّوا في الآخرة إذْ حُشِرُوا في عِدادِ مَنْ كانوا في عِدادهم في الدنيا، أنَّهم وارِدُون موْرِدَهم. وداخلون مدخلهم. والله جلّ جلاله ـ مع إظهاره ما قد أظهر لهم من الأحكامِ المُلْحِقَتِهم في عاجلِ الدنيا وآجل الآخرة إلى حال تمييزه بينهم وبين أوليائه، وتفريقِه بينهم وبينهم ـ معدٌّ لهم من أليمِ عقابه ونَكال عذابِه، ما أعَدَّ منه لأعدى أعدائهِ وشَرِّ عباده، حتى مَيَّزَ بينهم وبين أوليائـه، فألحقهم من طبقات جحيمه بالدَّرك الأسفل ـ كان معلوماً أنه جلّ ثناؤه بذلك من فعلِه بهم ـ وإن كان جزاءً لهم على افعالهم، وعدلاً ما فعل من ذلك بهم لاستحقاقهم إياه منه بعصيانهم له ـ كان بهم ـ بما أظهرَ لهم من الأمور التي أظهرها لهم: من إلحاقه أحكامَهُم في الدنيا بأحكامِ أوليائـه وهم له أعـداء، وحشـرِه إياهم في الآخـرة مع المؤمنين وهم به من المكذبين ـ إلى أن ميَّز بينهم وبينهم ـ مستهزئاً، وبهم ساخراً، ولهم خادعاً، وبهم ماكراً. إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة ما وصفنا قَبْلُ، دون أن يكون ذلك معناه في حالٍ فيها المستهزىء بصاحبه له ظالم، أو عليه فيها غير عادل، بل ذلك معناه في كل أحواله، إذا وُجدت الصفاتُ التي قَدَّمْنَا

ذكرها في معنى الاستهزاء وما أشبهه من نظائره.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: ﴿ويمدهم﴾، وأولى هذه الأقوال بالصواب: أن يكون بمعنى يزيدهم، على وجه الإملاء والترك لهم في عُتُوِّهم وتمردهم، كما وصف ربُّنا أنه فعل بنظرائهم في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، يعني نَذَرُهم ونتركهم فيه، ونملي لهم ليزدادوا إثماً إلى إثمهم.

القول في تأويل قوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾

و«الطُّغيان»: «الفُعْلان»، من قولك: «طَغَى فلان يطغَى طُغياناً». إذا تجاوز في الأمر حَدَّهُ فبغَى. ومنه قول الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧] أي يتجاوزُ حَدَّهُ.

وإنما عنى الله جلّ ثناؤه بقوله «وَيَمُدُّهُمْ في طُغْيَانِهِمْ». أنه يُملي لهم، وَيذَرُهم يَبغون في ضلالهم وكفرهم حيارى يترددون.

القول في تأويل قوله: ﴿يَعْمَهُونَ ١٥﴾

والعَمَه نفسُه: الضَّلال. يقال منه: عَمِه فلانٌ يَعْمه عَمَهاناً وعُمُوهاً، إذا ضل.

و«العُمَّه» جمع عامِهٍ، وهم الذين يضلون فيه فيتحيرون. فمعنى قوله إذاً: «في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ»: في ضلالهم وكفرهم الذي قد غمرهم دَنَسُهُ، وعلاهم

رِجْسِه، يترددون حيارى ضُلَّالاً، لا يجدون إلى المخرجِ منه سبيلاً، لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارَهُم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشْداً ولا يهتدون سبيلاً.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾

إنْ قال قائل: وكيف اشترى هؤلاء القومُ الضلالةَ بالهدى، وإنما كانوا منافقين لم يتقدم نفاقَهم إيمانٌ فيقال فيهم: باعوا هُدَاهم الذي كانوا عليه بضلالتهم التي استبدلوها منه؟ وقد علمتَ أن معنى الشراء المفهوم: اعتياضُ شيءٍ ببذلِ شيءٍ مكانه عِوَضاً منه، والمنافقون الذين وصفهم الله بهذه الصفة، لم يكونوا قط على هُدىً فيتركوه ويعتاضوا منه كفراً ونفاقاً؟

قيل: قد اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، والذي هو أولى عندي بتأويل الآية، ما روينا عن ابن عباس وابن مسعود من تأويلهما قوله: «اشْتَرَوُا الضَّلالةَ بِالهُدى»: أخذوا الضلالةَ وتركوا الهدى. وذلك أنَّ كُلَّ كافرٍ بالله فإنه مستبدلٌ بالإيمان كفراً، باكتسابه الكفرَ الذي وُجِدَ منه، بدلاً من الإيمان الذي أُمِرَ به. أوَ مَا تسمعُ الله جلّ ثناؤه يقول فيمن اكتسب كفراً به مكان الإيمان به وبرسوله: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]؟ وذلك هو معنى الشراء، لأن كل مشترٍ شيئاً فإنما يستبدلُ مكانَ الذي يُؤخذ منه من البدل آخرَ بديلاً منه. فكذلك المنافقُ والكافر، استبدلا بالهدى الضلالةَ والنفاق، فأضَلَّهُمَا الله، وسَلَبَهُمَا نورَ الهدى، فترك جميعَهم في ظلماتٍ لا يبصرون.

## البقرة: ١٦

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾

وتأويل ذلك أنَّ المنافقينَ - بشرائهم الضلالةَ بالهُدى - خسروا ولم يربحوا، لأنَّ الرابح من التجار: المستبدلُ من سلعته المملوكة عليه بدلاً هو أنفسَ من سلعته المملوكة أو أفضلَ من ثمنها الذي يبتاعها به. فأما المستبدِلُ من سلعته بدلاً دُونَها ودونَ الثمنِ الذي ابتاعها به، فهو الخاسرُ في تجارتهِ لاشك. فكذلك الكافر والمنافق، لأنهما اختارَا الحيرةَ والعَمى على الرشادِ والهدى، والخوفَ والرُّعْبَ على الحِفْظِ والأمن، واستبدلا في العاجل: بالرَّشادِ الحيرةَ، وبالهُدى الضلالةَ، وبالحِفْظِ الخوفَ، وبالأمنِ الرعبَ - مع ما قد أعدَّ لهما في الآجل من أليمِ العقابِ وشديدِ العذاب، فخابا وخَسِرا، ذلك هو الخسران المبين.

فإن قال قائل: فما وجه قوله: «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهمْ»؟ وهل التجارة مما تَرْبَح أو تُوكس، فيقال: رَبِحت أو وُضِعَت؟

قيل: إن وجه ذلك على غير ما ظننتَ. وإنما معنى ذلك: فما ربحوا في تجارتهم - لا فيما اشترَوْا، ولا فيما شرَوْا. ولكن الله جلّ ثناؤه خاطب بكتابه عَرباً فسَلكَ في خطابِهِ إياهم وبيانِهِ لهم، مَسْلَكَ خطاب بعضِهم بعضاً، وبيانهم المستعمل بينهم. فلما كان فصيحاً لديهم قولُ القائل لآخر: خابَ سَعْيُكَ، ونام ليلُك، وخسر بيعُك، ونحو ذلك من الكلام الذي لا يَخْفَى على سامعه ما يريدُ قائلُه - خاطبهم بالذي هو في منطقهم من الكلام، فقال: «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهمْ» إذ كان معقولاً عندهم أنَّ الربحَ إنما هو في التجارة، كما النومُ في الليلِ. فاكتفى بفهم المخاطبين بمعنى ذلك، عن أن يقال: فما ربحوا في تجارتهم، وإنْ كان ذلك معناه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ١٦﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه «وَمَا كانُوا مُهْتَدِينَ»: ما كانوا رُشداءَ في اختيارهم الضلالةَ على الهدى، واستبدالهم الكفرَ بالإيمان، واشترائهم النفاقَ بالتصديق والإقرار.

القول في تأويل قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ١٧﴾

إنْ قال لنا قائل: وكيف قيل: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً»، وقد علمتَ أن «الهاء والميم» من قوله «مثلهم» كناية جِمَاعٍ ـ من الرجال أو الرجال والنساء ـ و«الذي» دلالة على واحد من الذكور؟ فكيف جعلَ الخبرَ عن واحدٍ مَثلاً لجماعة؟ وهَلاَّ قِيلَ: مثلهم كمثل الذين استوقدوا ناراً؟ وإنْ جاز عندك أن تمثلَ الجماعةَ بالواحد، فتجيز لقائلٍ رأى جماعةً من الرجال فأعجبته صُوَرهم وتمامُ خلقهم وأجسامهم، أنْ يقول: كأنَّ هؤلاء، أو كأنَّ أجسامَ هؤلاء، نخلةٌ؟

قيل: أما في الموضع الذي مَثَّلَ ربُّنا جلّ ثناؤه جماعةً من المنافقين، بالواحد الذي جعله لأفعالهم مثلاً، فجائز حسنٌ، وفي نظائره، كما قال جلّ ثناؤه في نظير ذلك: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]. يعني كدَوَرَان عَيْنِ الذي يُغشى عليه من الموت ـ وكقوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] بمعنى: إلا كبَعْث نَفْسٍ واحدة.

وأما في تمثيلِ أجسامِ الجماعة من الرجال، في الطولِ وتمامِ الخلق، بالواحدةِ من النخيل، فغيرُ جائزٍ، ولا في نظائره، لفرقٍ بينهما.

فأمـا تمثيلُ الجماعة من المنافقين بالمستوقِدِ الواحد، فإنما جاز، لأنَّ المرادَ من الخبر عن مَثَلِ المنافقين، الخبرُ عن مَثَل استضاءتهم بما أظهروا بألسنتهم من الإقرار وهم لغيرهِ مُسْتَبْطِنُونَ ـ من اعتقاداتهم الرَّديئة، وخَلْطِهم نفاقَهم الباطن بالإقرار بالإيمان الظاهر. والاستضاءَةُ ـ وإن اختلفتْ أشخاصُ أهلها ـ معنىً واحد، لا معانٍ مختلفة. فالمثل لها في معنى المَثَل للشخص الواحد، من الأشياء المختلفة الأشخاص.

وتـأويل ذلـك: مَثَـلُ استضـاءةِ المنـافقين بما أظهروه من الإقرارِ بالله وبمحمـد ﷺ وبما جاء به، قولاً، وهُمْ به مُكَذِّبُونَ اعتقاداً، كمَثَل استضاءةِ الموقد ناراً. ثم أسقط ذِكْرَ الاستضاءة، وأضيف المَثَلُ إليهم.

وأما قوله: «استوْقَدَ نَاراً»، فإنه في تأويل: أوقدَ، كما قال الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَـا: يَا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّـدَى ... فَلَمْ يَسْـتَجِبْـهُ عِنْـدَ ذَاكَ مُجِيبُ[1]

يريد: فلم يُجبه. فكان معنى الكلام إذاً: مَثَلُ استضاءة هؤلاء المنافقين ـ في إظهارهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بألسنتهم، من قولهم: آمنَّا بالله وباليوم الآخر، وصدَّقنا بمحمد وبما جاء به، وهم للكفر مستبطنون ـ فيما الله فاعل بهم، مثل استضاءة مُوقِد نارٍ بنارهِ، حَتى أضاءت له النارُ ما حوله، يعني: ما حول المستوقِدِ.

إن الله جلّ ثناؤه إنما ضرَب هذا المثل للمنافقين ـ الذين وَصَف صِفتَهم وقَصَّ قصَصهم، من لَدُن ابتدأ بِذِكْرِهم بقوله: «ومِنَ الناسِ مَنْ يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هُمْ بمؤمنين» ـ لا المعلنين بالكفر المجاهرين بالشرك. ولو كان المثل لمن آمن إيماناً صحيحاً ثم أعلن بالكفر إعلاناً صحيحاً ـ على ما ظن المتأولُ قولَ الله جلّ ثناؤه: «كمثل الذي استوقدَ ناراً فلما أضاءَتْ ما حوله ذهبَ الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون»: أنَّ ضوءَ النار مثلٌ لإيمانهم

---

(١) الشعر لكعب بن سعد الغنوي (الأصمعيات: ١٤، وأمالي القالي ٢: ١٥١).

الذي كان منهم عندَهُ على صحةٍ، وأنَّ ذهاب نورهم مثلٌ لارتدادِهم وإعلانِهم الكفرَ على صحة - لم يكن هناك من القول خداعٌ ولا استهزاءٌ عند أنفسهم ولا نفاقٌ. وأنَّىٰ يكون خداعٌ ونفاقٌ ممن لم يُبْدِ لكَ قولاً ولا فعلاً إلا ما أوجبَ لك العلم بحالهِ التي هو لك عليها، وبعزيمة نفسه التي هو مقيمٌ عليها؟ إن هذا بغير شَك من النفاق بعيدٌ، ومن الخداع بريءٌ. وإذْ كان القومُ لم تكن لهم إلا حالتان: حالُ إيمانٍ ظاهر، وحالُ كفرٍ ظاهر، فقد سقط عن القوم اسمُ النفـاق. لأنهم في حال إيمـانهم الصحيح كانـوا مؤمنين، وفي حال كفرهم الصحيح كانوا كافرين. ولا حالةَ هناك ثالثةً كانوا بها منافقين.

وفي وَصْفِ الله جلّ ثناؤه إياهم بصفة النفاق، ما يُنْبِىءُ عن أنَّ القول غيرُ القول الذي زعمه من زَعم: أنَّ القومَ كانوا مؤمنين، ثم ارتدوا إلى الكفر فأقاموا عليه، إلا أنْ يكون قائلُ ذلك أراد أنهم انتقلوا من إيمانِهم الذي كانوا عليه، إلى الكفرِ الذي هو نفاق. وذلك قولٌ إنْ قاله، لم تُدْرَكْ صِحَّته إلا بخبرٍ مُستفِيضٍ، أو ببعض المعاني الموجبة صِحَّتَهُ. فأما في ظاهر الكتاب فلا دلالةَ على صحته، لاحتماله من التأويل ما هو أولى به منه.

فإذْ كان الأمر على ما وَصَفْنَا في ذلك، فأولى تأويلات الآية بالآية: مثل استضـاءَة المنـافقين - بمـا أظهروا بألسنتهم لرسولِ الله ﷺ من الإقرار به، وقولِهم له وللمؤمنين: آمنَّا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، حتى حُكِمَ لهم بذلك في عاجـل الدنيا بحكم المسلمين: في حَقنِ الدماء والأموال، والأمن على الذرية من السِّباء، وفي المناكحة والموارثة - كمثل استضاءة المُوقِدِ النارَ بالنار، حتى إذا ارتفق بضيائها، وأبصرَ ما حوله مستضيئاً بنوره من الظلمة، خَمدت النارُ وانطفأت، فذهب نورُه، وعاد المستضيءُ به في ظُلمةٍ وَحيرة.

وذلك أن المنافق لم يزل مستضيئاً بضوء القولِ الذي دَافع عنه في حَياته القتلَ والسباءَ، مع استبطانه ماكانمستوجباً به القتل وسلبَ المال لو أظهره بلسانه

- تُخيِّل إليه بذلك نفسُه أنه بالله ورسوله والمؤمنين مستهزىء مخادعٌ، حتى سَوَّلَتْ له نفسُه - إذْ وَرَد على ربه في الآخرة - أنه ناجٍ منه بمثل الذي نجا به في الدنيا من الكذب والنفاق. أوَ ما تسمع الله جلّ ثناؤه يقول إذْ نَعتَهم، ثم أخبر خبرَهم عند ورودهم عليه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلفونَ لَكُمْ ويَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيء أَلَا إنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبُون﴾ [المجادلة: ١٨]، ظنّاً من القوم أنَّ نجاتهم من عذابِ الله في الآخرة، في مثل الذي كان به نجاؤهم من القتل والسباء وسلب المال في الدنيا: من الكذب والإفك، وأنَّ خداعهم نافعُهم هنالك نَفْعَهُ إياهم في الدنيا، حتى عايَنُوا من أمر الله ما أيقنوا به أنهم كانوا من ظنونهم في غرورٍ وضلال، واستهزاءٍ بأنفسهم وخداع، إذ أطفأ اللهُ نورَهم يوم القيامة، فاستنظروا المؤمنين ليقتبسوا من نورِهم فقيل لهم: ارجعوا وراءَكم فالتمسوا نوراً واصلوْا سَعيراً. فذلك حينَ ذهب اللهُ بنورهم وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون. كما انطفأتْ نار المستوقِدِ النارَ بعد إضاءتها له، فبقيَ في ظلمته حيرانَ تائهاً، يقول الله جلّ ثناؤه: ﴿يَوْمَ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالتَمِسُوا نُوراً فَضربَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ* يُنَادونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ الله وَغَرَّكُمْ بالله الغَرُورُ* فَاليَوْمَ لاَ يُؤخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣-١٥].

فإنْ قال لنا قائل: إنك ذكرتَ أن معنى قول الله تعالى ذكره «كَمَثَلِ الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حَولَهُ»: خَمدتْ وانطفأتْ، وليس ذلك بموجودٍ في القرآن. فما دلالتك على أنَّ ذلك معناه؟

قيل: قد قلنا إنَّ من شأنِ العرب الإيجاز والاختصار، إذا كان فيما نطقت به الدلالةُ الكافية على ما حذفتْ وتركتْ.

القول في تأويل قول الله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

وإذْ كان تأويل قول الله جلّ ثناؤه: «ذهب الله بنورهم وتَركهم في ظلمات لا يبصرون»، هو ما وصفنا ـ من أن ذلك خَبَرٌ من الله جلّ ثناؤه عما هو فاعلٌ بالمنافقين في الآخرة، عند هتك أستارهم، وإظهاره فضائح أسرارهم، وَسلبه ضياءَ أنوارهم، من تَرْكِهم في ظُلَم أهوالِ يوم القيامة يترددون، وفي حَنادسها[1] لا يُبصرون ـ فَبَيِّنٌ أنَّ قوله جلّ ثناؤه: «صمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهم لا يرجعون» من المُؤَخَّرِ الذي معناه التقديم، وأن معنى الكلام: أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، صُمٌّ بكمٌ عُميٌ فهم لا يرجعون، مَثَلُهم كمثلِ الذي استوقدَ ناراً فلما أضاءتْ ما حَوْلَهُ ذهبَ الله بنورهم وترَكهم في ظلمات لا يبصرون، أو كمثل صَيِّب من السماء.

وهـذا خبـرٌ من الله جلّ ثناؤه عن المنافقين: أنهم باشترائهم الضلالةَ بالهدى لم يكونوا للهدى والحق مهتدين، بل هم صُمٌّ عنهما فلا يسمعونهما، لغلبـة خِذلان الله عليهم، بُكمٌ عن القيل بهما فلا ينطقون بهما ـ والبُكم: الخُرْسُ، وهو جِماعُ أبكم ـ عُميٌ عن أن يبصرُوهما فيعقلوهما، لأن الله قد طبع على قلوبهم بنفاقهم فلا يهتدون.

القول في تأويل قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

وقوله: «فهم لا يرجعون»، إخبارٌ من الله جلّ ثناؤه عن هؤلاء المنافقين ـ الـذين نَعَتَهُمُ الله باشتـرائهم الضلالةَ بالهُدَى، وصَممِهم عن سمَاع الخير والحق، وبَكَمهم عن القيل بهما، وعَماهم عن إبصارهما ـ أنهم لا يرجعون

(١) حنادسها، جمع حندس: وهو الليل الشديد الظلمة، والحنادس: ثلاث ليال في آخر الشهر.

إلى الإقلاع عن ضلالتهم، ولا يَتُوبون إلى الإنابة من نفاقهم. فآيَس المؤمنين من أن يبصرَ هؤلاء رشداً، أو يقولوا حقاً، أو يَسمعوا داعياً إلى الهدى، أو أن يَذَّكَّروا فيتوبوا من ضلالتهم، كما آيس من تَوبةِ قادةِ كفارِ أهلِ الكتاب والمشركين وأحبارهم، الذين وَصَفهم بأنه قد ختم على قلوبهم وعلى سَمعهم وغشَّى على أبصارهم.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: **﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾**

والصيِّب «الفَيْعِل» من قولك: صَاب المطر يَصُوبُ صَوباً، إذا انحدَر وَنزَل.

وتأويل ذلك: مَثَلُ استضاءَةِ المنافقين بضوء إقرارهم بالإسلام، مع استسرارهم الكفر، مَثَلُ إضاءة موقد نارٍ بضوء ناره، على ما وصف جلّ ثناؤه من صفته، أو كمثل مَطرٍ مُظلمٍ وَدْقُه تَحَدَّرَ من السماء، تحمله مُزْنَةٌ ظلماء في ليلة مُظلمة. وذلك هو الظلمات التي أخبر الله جلّ ثناؤه أنها فيه.

فإنْ قال لنا قائل: أخبرنا عن هذين المثَلين: أهما مثَلان للمنافقين، أو أحدهُما؟ فإنْ يكونا مثلَيْن للمنافقين، فكيف قيل: «أو كصيِّب»، و«أو» تأتي بمعنى الشك في الكلام، ولم يقل «وكصيب» بالواو التي تُلحِق المثَلَ الثاني بالمثل الأول؟ أو يكون مَثل القوم أحدهما، فما وجه ذكر الآخرِ بـ«أو»؟ وقد علمت أن «أو» إذا كانت في الكلام فإنما تدخل فيه على وجه الشك من المخبِرِ فيما أخبرَ عنه، كقول القائل: «لقيني أخوك أو أبوك» وإنما لَقيه أحدهُما، ولكنه جَهلَ عَيْنَ الذي لقيه منهما، مع علمه أنَّ أحدهما قد لقيه. وغيرُ جائزٍ في الله جلَّ ثناؤه أن يُضافَ إليه الشك في شيءٍ، أو عُزُوب عِلْمِ شيءٍ عنه، فيما أخبَرَ أو تَرك الخبر عنه.

قيل له: إنَّ الأمرَ في ذلك بخلاف الذي ذهبت إليه. و«أو» - وإنْ كانت في بعض الكلام تأتي بمعنى الشك - فإنها قد تأتي دالةً على مثل ما تدلُّ عليه الواو، إما بسابق من الكلام قبلها، وإما بما يأتي بعدَها.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ﴾

إن الله ضَرَب الصِّيب لظاهرِ إيمان المنافق مَثلاً، وَمَثَّلَ ما فيه من ظلماتٍ لضلالته، وما فيه من ضياء برقٍ لنور إيمانه؛ واتقاءه من الصواعق بتصيير أصابعه في أذنيه، لضَعْفِ جَنانه ونَخْبِ[1] فؤاده من حُلول عقوبة الله بساحته؛ وَمشيَه في ضوء البرق لاستقامته على نور إيمانه؛ وقيامَه في الظلام، لحيرته في ضلالته وارتكاسه في عَمَهه.

فتأويل الآية إذاً - إذْ كان الأمر على ما وصفنا - : أو مَثَلُ ما استضاء به المنافقون - من قِيلهم لرسولِ الله ﷺ وللمؤمنين بألسنتهم: آمنا بالله وباليوم الآخرِ وبمحمدٍ وما جاء به، حتى صار لهم بذلك في الدنيا أحكامُ المؤمنين، وهم - مع إظهارِهم بألسنتهم ما يُظهرون - بالله وبرسوله ﷺ وما جاء به من عند الله وباليوم الآخر، مُكَذِّبون، ولخلاف ما يُظهرون بالألسُنِ في قلوبهم مُعْتَقِدُونَ، على عمىً منهم، وجهالة بما هم عليه من الضلال، لا يدرون أيَّ الأمرين اللذين قد شَرَعَا لهم فيه الهداية: أفي الكفر الذي كانوا عليه قبل

---

(١) النخب: الجبن وضعف القلب، ورجل نخب ونخيب ومنخوب الفؤاد: جبانٌ لا خير فيه، كأنه منتزع الفؤاد، فلا فؤاد له.

إرسالِ الله محمداً ﷺ بما أرسله به إليهم، أم في الذي أتاهم به محمد ﷺ من عند ربهم؟ فهم من وعيدِ الله إياهم على لسان محمد ﷺ وَجِلُون، وهم مع وَجَلِهم من ذلك في حقيقته شاكُّون، في قلوبهم مَرَضٌ فزادهُم الله مَرَضاً. كمثل غَيثٍ سرَى ليلاً في مُزنة ظلماء وليلة مظلمة، يحدوها رعدٌ، ويستطير في حافـاتهـا برقٌ شديدٌ لمعـانـه، كثيرٌ خَطرانه، يكادُ سَنا بَرْقِه يَذهب بالأبصار ويختطفها من شدة ضيائه ونور شعاعه، وينهبط منها تارات صواعقُ، تكاد تَدَع النفوسَ من شدة أهوالها زواهق.

فالصَّيب مَثَلٌ لظاهر ما أظهر المنافقون بألسنتهم من الإقرار والتصديق، والظلمات التي هي فيه لظُلُمَاتُ ما هم مستبطنون من الشك والتكذيب ومرض القلوب. وأما الرعدُ والصواعق، فلِما هُمْ عليه من الوَجَل من وعيد الله إياهم على لسان رسوله ﷺ في آي كتابه، إما في العاجل وإما في الآجل، أنْ يحل بهم، مع شكهم في ذلك: هل هو كائن أم غير كائن؟ وهل له حقيقة أم ذلك كذبٌ وباطلٌ؟ ـ مَثلٌ. فهم من وَجلهم، أن يَكون ذلك حَقاً، يَتَّقُونه بالإقرارِ بما جاء به محمد ﷺ بألسنتهم، مخافةً على أنفسهم من الهلاكِ ونزول النَّقِمَات. وذلك تأويل قوله جلّ ثناؤه «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حَذَر الموت»، يعني بذلك: يتقون وَعيدَ الله الذي أنزله في كتابه على لسان رسوله ﷺ، بما يُبْدُونهُ بألسنتهم من ظاهرِ الإقرار، كما يتقي الخائفُ أصواتَ الصواعق بتغطيةِ أذنيه وتصيير أصابعه فيها، حَذَراً على نفسه منها.

وإنما جَعل الله إدخالَهم أصابعَهُم في آذانهم مثلاً لاتِّقائهم رسولَ الله ﷺ والمؤمنين بما ذكرنا أنهم يَتَّقونهم به، كما يتقي سامعُ صَوتِ الصاعقةِ بإدخالِ أصابعهِ في أذنيه. وذلك من المثَل نظيرُ تمثيل الله جلّ ثناؤه ما أنزَل فيهم من الوعيدِ في آيِ كتابهِ بأصواتِ الصواعق. وكذلك قوله: «حَذَرَ الموت»، جعله جلّ ثنـاؤه مثلاً لخوفهم وإشفاقهم من حلول عاجل العقاب المُهْلِكهم الذي

تُوَعِّدُوه بساحتهم، كما يجعل سامعُ أصوات الصواعق أصَابعه في أذنيه، حَذَرَ العطب والموت على نفسه، أنْ تَزهق من شدتها.

وكان قتادةُ وابنُ جُريج يتأولان قوله: «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حَذَر الموت»، أنَّ ذلك من الله جلّ ثناؤه صفةٌ للمنافقين بالهلع وضَعْفِ القلوبِ وكراهة الموت، ويتأوَّلان في ذلك قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

وليس الأمر في ذلك عندي كالذي قالا. وذلك أنه قد كان فيهم من لا تُنكرُ شجاعتُه ولا تُدفع بَسالته، كقُزْمان[١]، الذي لم يَقُمْ مقامه أحَدٌ من المؤمنين بأحُد، أو دونه. وإنما كانت كراهتُهم شُهود المشاهدِ مع رسول الله ﷺ، وتركُهم مُعاونته على أعدائه، لأنهم لم يكونوا في أديانهم مُستبصرين، ولا برسول الله ﷺ مصدِّقين، فكانوا للحضورِ معه مَشَاهِدَهُ كارهين، إلا بالتخذيلِ عنه. ولكن ذلك وَصفٌ من الله جلّ ثناؤه لهم بالإشفاق من حُلول عقوبة الله بهم على نفاقهم، إما عاجلاً وإما آجلاً. ثم أخبر جلّ ثناؤه أن المنافقين - الذين نَعتهم الله النعتَ الذي ذكر، وضرب لهم الأمثال التي وَصَف، وإن اتقوْا عقابه، وأشفقوا من عَذابه إشفاقَ الجاعلِ في أذنيه أصابعَهُ حِذَارَ حُلولِ الوعيد الذي تَوَعَّدَهُم به في آي كتابه - غيرُ مُنْجيهم ذلك من نزوله بعَقْوَتهم[٢]، وحُلوله بساحتهم، إما عاجلاً في الدنيا، وإما آجلاً في الآخرة، الذي في قلوبهم من مَرَضها، والشك في اعتقادها، فقال: «والله مُحيطٌ بالكافرين»، بمعنى جَامِعُهم، فَمُحِلٌّ بهم عُقوبته.

---

(١) كان قزمان حليفاً لبني ظفر، قاتل مع المسلمين يوم أحد حميَّةً لقومه، وقتل وحده من المشركين عشرة، من الاثنين وعشرين رجلاً الذين قتلوا يوم أحد من المشركين.

(٢) العقوة: ساحة الدار، وما كان حولها وقريباً منها.

ثم عاد جلّ ذكره إلى نعت إقرار المنافقين بألسنتهم، والخبر عنه وعنهم وعن نفاقهم، وإتمام المثل الذي ابتدأ ضربَه لهم ولشكِّهم ومَرَض قلوبهم، فقال: «يكاد البرق»، يعني بالبرق، الإقرارَ الذي أظهروه بألسنتهم بالله وبرسوله وما جاء به من عند ربهم. فجعل البرقَ له مثلاً، على ما قدَّمنا صفته.

«يَخطفُ أبصَارهم»، يعني: يذهب بها ويستلبُها ويلتمعها من شدة ضيائه ونُور شُعاعه.

فجعل ضَوءَ البرق وشدة شُعاع نُوره، كضوء إقرارهم بألسنتهم بالله وبرسوله ﷺ وبما جاء به من عند الله واليوم الآخر وشُعاعِ نوره، مثلاً.

ثم قال تعالى ذكره: «كُلَّمَا أضاء لهم»، يعني أنَّ البرق كلما أضاء لهم، وجعل البرق لإيمانهم مَثلاً. وإنما أراد بذلك: أنهم كلما أضاء لهم الإيمان، وإضاءتُه لَهم: أن يَرَوْا فيه ما يُعجبهم في عاجل دنياهم، من النُّصرة على الأعداء، وإصابةِ الغنائم في المغازي، وكثرة الفتوح ومنافعِها، والثراء في الأموال، والسلامةِ في الأبدان والأهل والأولاد ـ فذلك إضاءتُه لهم، لأنهم إنما يُظْهِرُونَ بألسنتهم ما يُظهرونه من الإقرار، ابتغاءَ ذلك، ومدافعةً عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم، وهم كما وصفهم الله جلّ ثناؤه بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ فإنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١].

ويعني بقوله «مَشَوْا فيه»، مشوا في ضوء البرق. وإنما ذلك مَثلٌ لإقرارهم على ماوصفنا. فمعناه: كلما رأوا في الإيمان ما يُعجبهم في عاجلِ دنياهم على ما وصفنا، ثبتوا عليه وأقاموا فيه، كما يمشي السائرُ في ظُلمة الليل وظُلمة الصَّيِّب الذي وصفه جلّ ثناؤه، إذا برقت فيها بارقةٌ أبصرَ طريقه فيها.

«وإذا أظلم»، يعني: ذهب ضوءُ البرق عنهم.

ويعني بقوله «عليهم»، على السائرين في الصَّيِّبِ الذي وَصف جلّ ذكره. وذلك للمنافقين مثَل. ومعنى إظلام ذلك: أن المنافقين كلما لم يَرَوْا في الإسلام ما يعجبهم في دنياهم ـ عند ابتلاء الله مؤمني عباده بالضرَّاء، وتمحيصه إياهم بالشدائد والبلاء، من إخفاقِهم في مَغزاهم، وإدالةِ عدوِّهم منهم، أو إدبارٍ من دنياهم عنهم ـ أقاموا على نفاقهم، وثبتوا على ضلالتهم، كما قام السائر في الصَّيب الذي وصف جَلَّ ذِكْرُهُ، إذا أظلم وخَفتَ ضوءُ البرق، فحارَ في طريقه، فلم يعرف منهجه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾

وإنما خَصّ جلَّ ذِكْرُهُ السمعَ والأبصارَ ـ بأنه لو شاء أذهبَها من المنافقين دون سائر أعضاء أجسامهم ـ لِلَّذي جرَى من ذكرها في الآيتين، أعني قوله: «يجعلون أصابِعَهم في آذانهم من الصواعق»، وقوله: «يكادُ البرق يَخطَفُ أبصارهم كلما أضاء لهم مَشَوْا فيه»، فجرى ذكرها في الآيتين على وجه المثَل. ثم عقَّب جلّ ثناؤه ذِكْرَ ذلك، بأنه لو شاء أذهبه من المنافقين عقوبةً لهم على نفاقهم وكفرهم، وعيداً من الله لهم، كما توعَّدهم في الآية التي قبلها بقوله: «والله مُحيطٌ بالكافرين»، واصفاً بذلك جلّ ذكره نفسَه، أنه المُقْتَدِرُ عليهم وعلى جَمْعِهم، لإحلال سَخَطه بهم، وإنزال نِقْمته عليهم، ومُحذِّرَهم بذلك سَطوته، ومخوِّفَهم به عقوبته، ليتقوا بأسَه، ويُسارعوا إليه بالتوبة.

وإنما معنى قوله: «لذهب بسمعهم وأبصارهم»، لأذهب سَمعَهم وأبصارَهم. ولكن العرب إذا أدخلوا الباء في مثل ذلك قالوا: ذهبتُ ببصره، وإذا حذفوا الباء قالوا: أذهبتُ بصره. كما قال جلّ ثناؤه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، ولو أدخلت الباء في الغداء لقيل: ائتنا بغدَائنا.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: «لذهب بسمعهم» فوحَّد، وقال: «وأبصارهم» فَجَمَعَ؟ وقد علمتَ أن الخبر في السمع خبرٌ عن سَمْع جماعة، كما الخبر عن الأبصار خبرٌ عن أبصار جماعة؟

قيل: قد اختلف أهلُ العربية في ذلك، فقال بعض نحويي الكوفة: وحَّد السمعَ لأنه عَنى به المصدَر وقصَد به الخَرْق، وجمع الأبصار لأنه عَنى به الأعينَ. وكان بعض نحويي البصرة يزعم: أن السمع وإن كان في لفظ واحد، فإنه بمعنى جماعة. ويَحْتَجُّ في ذلك بقول الله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]: لا تَرْتَدُّ إليهم أطرافُهم، وبقوله: ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، يراد به أدْبارُهم. وإنما جاز ذلك عندي، لأن في الكلام ما يَدُل على أنه مُرادٌ به الجمع، فكان في دلالته على المراد منه، وأداء معنى الواحد من السمع عن معنى جماعة، مُغنياً عن جِمَاعه[1]. ولو فعل بالبصر نظيرَ الذي فعل بالسمع، أو فعل بالسمع نظير الذي فعل بالأبصار ـ من الجمع والتوحيد ـ كان فصيحاً صحيحاً، لما ذكرنا من العلة.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

وإنما وَصف الله نفسه جلّ ذكره بالقدرةِ على كل شيءٍ في هذا الموضع، لأنه حذَّر المنافقين بأسَهُ وسَطْوَتَهُ، وأخبرهم أنه بهم مُحيطٌ، وعلى إذهابِ أسماعهم وأبصارهم قَدير. ثم قال: فاتقوني أيُّها المنافقون، واحذَرُوا خِداعي وخداعَ رسولي وأهلِ الإيمان بي، لا أحِلَّ بكم نقمتي، فإني على ذلك وعلى غيره من الأشياء قدير. ومعنى «قدير» قادر، كما معنى «عليم» عالم، على ما

---

(١) أي عن جَمْعِه، والطبري يكثر استعمال «جماع» مكان جمع.

وصفتُ فيما تَقدم من نظائره، من زيادة معنى فعيل على فاعل في المدح والذم.

القـول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

فأمرَ جلّ ثناؤه الفريقين ـ اللَّذَيْنِ أخبرَ الله عن أحدهما أنه سواءٌ عليهم أأُنْذِرُوا أم لم يُنذروا أنهم لا يؤمنون، لطبْعِه على قلوبهم وعلى سمعهم، وعن الآخـرِ أنه يُخادع اللهَ والذين آمنوا بما يُبْدِي بلسانهِ من قِيلهِ: آمنا بالله وباليوم الآخر، مع استبطانهِ خِلافَ ذلك، ومرض قلبه، وشَكِّهِ في حقيقة ما يُبدي من ذلك؛ وغيرهم من سائر خلقه المُكَلَّفين ـ بالاستكانةِ، والخضوع له بالطاعة، وإفرادِ الربوبية له والعبادةِ دون الأوثانِ والأصنام والآلهة. لأنه جَلَّ ذِكْرُهُ هو خالِقُهم وخالقُ مَنْ قبلهم من آبائهم وأجدادهم، وخالقُ أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم. فقال لهم جلّ ذكره: فالذي خَلَقكُم وخَلَقَ آباءكم وأجدادَكم وسائرَ الخلق غيرَكم، وهو يقدرُ على ضرّكم ونَفعكم ـ أولى بالطاعةِ مِمَّنْ لا يقدرُ لكم على نَفعٍ ولا ضرّ.

وهذه الآيةُ من أدَلّ دليلٍ على فسادِ قولِ مَنْ زعم: أنَّ تكليفَ ما لا يطاق إلا بمعونة الله غيرُ جائز. إلا بعد إعطاء الله المكلف المعُونةَ على ما كلَّفه. وذلك أن الله أمر من وَصفنا، بعبادته والتوبة مِن كفره، بعد إخباره عنهم أنهم لا يؤمنون، وأنهم عن ضَلالتهم لَا يَرْجعون.

القول في تأويل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾

وتأويل ذلك: لعلكم تتقون بعبادتكم ربَّكم الذي خلقكم، وطاعتِكم إياهُ

فيما أمركم به ونهاكم عنه، وإفرادكُم له العبادةَ لتتقوا سَخطه وغضبه أنْ يَحلَّ عليكم، وتكونوا من المتقين الذين رضي عنهم ربهم.

فإن قال لنا قائل: فكيف قال جلّ ثناؤه: «لعلكم تتقون»؟ أوَ لم يكنْ عالماً بما يصيرُ إليه أمرهُم إذا هم عبدوه وأطاعُوه، حتى قال لهم: لعلكم إذا فعلتم ذلك أنْ تتقوا، فأخرج الخبرَ عن عاقبةِ عبادتهم إياه مخرج الشك؟

قيل له: ذلك على غيرِ المعنى الذي توهَّمتَ، وإنما معنى ذلك: اعبُدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم، لتتقوه بطاعتهِ وتوحيدهِ وإفرادهِ بالربوبيةِ والعبادة.

## القول في تأويل قوله: ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا

وقوله: «الذي جعل لكم الأرض فِراشاً» مردودٌ على «الذي» الأُولى في قولـه: «اعبدُوا ربكم الذي خَلقَكم»، وهما جميعاً من نَعت «ربكم»، فكأنه قال: اعبدُوا ربكم الخَالِقكُم، والخالقَ الذين من قبلكم، الجاعلَ لكمُ الأرضَ فراشاً. يعني بذلك أنه جعل الأرض مِهاداً مُوطَّأً وَقَراراً يُسْتقرُّ عليها. يُذكِّرُ ربنا جلّ ذكره ـ بذلك من قِيله ـ عبادَهُ نِعَمَهُ عندهم وآلاءه لديهم، ليذكروا أياديَه عندهم، فينيبوا إلى طاعته ـ تعطُّفاً منه بذلك عليهم، ورأفةً منه بهم، ورحمةً لهم، من غير ما حاجةٍ منه إلى عبادتهم، ولكن ليُتِمَّ نعمتَهُ عليهم ولعلَّهم يهتدون.

## القول في تأويل قوله: وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً

وإنما سُميت السماءُ سماءً لعلوِّها على الأرض وعلى سُكانها من خلقه، وكُلُّ شيءٍ كان فوق شيء آخـرَ فهو لِمَا تحتَهُ سَمَاءٌ. ولذلك قيل لسقف البيت:

سَمَاوةٌ، لأنه فوقه مرتفعٌ عليه. ولذلك قيل: سَمَا فلان لفلان، إذا أشرف له وَقَصَد نحوه عالياً عليه.

وإنما ذَكَرَ تعالى ذِكْرُه السماءَ والأرض فيما عَدَّدَ عليهم من نِعَمِهِ التي أنعمها عليهم، لأنَّ منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم، وبهما قوامُ دُنياهم. فأعلمهم أن الذي خَلقهما وخلق جميع ما فيهما وما هُمْ فيه من النعم، هو المستحقُّ عليهم الطاعةَ، والمستوجبُ منهم الشكرَ والعبادةَ، دون الأصنام والأوثانِ، التي لا تضرُّ ولا تنفع.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك أنه أنزل من السماء مطراً، فأخرج بذلك المطر مما أنبتوه في الأرض من زَرْعهم وغَرْسهم ثمرات، رزقاً لهم، غذاءً وأقواتاً. فنبههم بذلك على قدرته وسُلطانه، وذكَّرهم به آلاءَهُ لديهم، وأنه هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم ويكفُلُهم، دون مَنْ جعلوه له نِدّاً وعِدْلاً من الأوثانِ والآلهة. ثم زَجَرَهم عن أن يجعلوا له نِدّاً، مع علمهم بأن ذلك كما أخبرهم، وأنه لا نِدَّ له ولا عِدْل، ولا لهم نافعٌ ولا ضارٌ ولا خالقٌ ولا رازقٌ سِواه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾

والأنداد جمع نِد، والنِّدُّ: العِدْلُ والمِثل. فنهاهم الله تعالى أن يُشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيرَهُ، أو يتخذوا له نِدّاً وَعِدْلاً في الطاعة، فقال: كما لا شريكَ لي في خَلْقِكم، وفي رِزْقِكم الذي أرزقكم وملكي إياكم، ونعمي التي أنعمتُها عليكم، فكذلك فأفردوا ليَ الطاعةَ، وأخلصوا لي العبادةَ، ولا تجعلوا

لي شريكاً ونِدّاً من خلقي، فإنكم تعلمون أنّ كل نعمةٍ عليكم فمنّي.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾

الذي هو أولى بتأويل قوله: «وأنتم تعلمون» أنه يعني بذلك كُلَّ مُكَلَّفٍ، عالم بوحدانية الله، وأنه لا شريكَ له في خلقه، يُشرِكُ معه في عبادته غيرَهُ، كائناً مَنْ كان من الناس، عربياً كان أو أعجمياً، كاتباً أو أُمّيّاً، وإنْ كان الخطابُ لكفارِ أهلِ الكتاب الذين كانوا حواليْ دَار هجرةِ رسولِ الله ﷺ، وأهلِ النفاق منهم، وممن بينَ ظَهرانيهم ممن كان مشركاً فانتقل إلى النفاق بمقدم رسول الله ﷺ.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾

وهذا من الله عزّ وجل احتجاجٌ لنبيه محمد ﷺ على مشركي قومهِ من العربِ ومنافِقيهم، وكفارِ أهلِ الكتاب وضُلاّلهم. الذين افتتح بقَصَصهم قولَه جلّ ثناؤه: «إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم»، وإياهم يخاطبُ بهذه الآيات، وضُرباءَهم يَعني بها، قال الله جلّ ثناؤه لهم: وإنْ كنتم أيها المشركون من العرب والكفارُ من أهل الكتابين، في شَكٍّ - وهو الريب - مما نَزَّلْنَا على عبدنا محمدٍ ﷺ من النورِ والبرهانِ وآياتِ الفرقان: أنه من عندي، وأنّي الذي أنزلتهُ إليه، فلم تُؤمنوا به ولم تُصَدِّقُوه فيما يقول، فَأْتُوا بحجةٍ تدفعُ حُجته، لأنكم تعلمون أنَّ حجةَ كُلِّ ذي نبوةٍ على صِدْقِهِ في دعواهُ النبوةَ: أنْ يأتيَ ببرهانٍ يعجزُ عن أن يأتيَ بمثله جَميعُ الخَلْق. ومن حجة محمد ﷺ على صدقه، وبُرهانه على حقيقة نبوته، وأنَّ ما جاء به من عندي - عَجزُ

جميعكم وجميع مَنْ تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم، عن أن تَأتوا بسورة من مثله. وإذا عَجـزتم عن ذلك ـ وأنتم أهلُ البراعةِ في الفصاحة والبلاغة والذرابة[1] ـ فقد علمتم أنَّ غيرَكم عما عَجزتم عنه من ذلك أعْجزُ. كما كان برهانُ من سَلف من رُسلي وأنبيائي على صدقه، وحُجتهُ على نبوته من الآيات، ما يَعجز عن الإتيانِ بمثله جميعُ خلقي. فيتقرر حينئذٍ عندكم أن محمداً لم يتقوَّلْهُ ولم يَخْتَلِقْهُ، لأن ذلك لو كان منه اختلاقاً وتقوُّلاً لم تعجزوا وجميع خلقي عن الإتيانِ بمثله. لأن محمداً ﷺ لم يَعْدُ أنْ يكون بَشراً مثلكم، وفي مِثْلِ حالِكم في الجسم وبَسطة الخلق وذرابة اللسان ـ فيمكن أن يُظَنَّ به اقتدارٌ على مَا عجزتم عنه، أو يتوهم منكم عجزٌ عما اقتدر عليه.

فإن قال قائلٌ: فإنك ذكرتَ أنَّ الله عنى بقوله: «فأتوا بسورة من مثله»، من مثل هذا القرآن، فهل للقرآن من مثل فيقال: ائتوا بسورة من مثله؟

قيل: انه لم يعنِ به: ائتوا بسورةٍ من مِثْلِه في التأليفِ والمعاني التي باينَ بها سائرَ الكَلام غيره، وانما عنى: ائتوا بسورة من مثله في البيان، لأنّ القرآن أنزله الله بلسانٍ عربي، فكلام العرب لاشك له مِثْلٌ في معنىٰ العربية. فأما في المعنىٰ الذي باين به القرآنُ سائرَ كلام المخلوقين، فلا مثلَ له من ذلك الوجه ولا نظيرَ ولا شبيه.

وإنما احتج الله جلّ ثناؤه عليهم لنبيه ﷺ بما احتج به لهُ عليهم من القرآن، إذْ ظهر عجزُ القوم عن أن يأتوا بسورةٍ من مثله في البيان، إذْ كان القرآن بياناً مثلَ بيانهم، وكلاماً نزل بلسانهم، فقال لهم جلّ ثناؤه: وإنْ كنتم في رَيبٍ من أنَّ ما أنزلتُ على عَبدي من القرآن من عندي، فَأْتُوا بسورةٍ من كلامكم الذي هو مثلهُ في العربية، إذْ كنتم عرباً، وهو بيانٌ نظيرُ بيانكم، وكلامٌ شبيهٌ

---

(١) الذرابة: حِدَّةُ اللسان وفصاحته.

كلامِكم. فلم يكلفهم جلّ ثناؤه أن يأتوا بسورةٍ من غير اللسان الذي هو نظيرُ اللسان الذي نزل به القرآن، فيقدِرُوا أن يقولُوا: كَلَّفْتَنا ما لو أحسنَّاه أتينا به، وإنا لا نقدر على الإتيانِ به لأنَّا لسنا من أهلِ اللسان الذي كلفتنا الإتيانَ به، فليس لك علينا بهذا حجةٌ. لأنا ـ وإنْ عَجزنا عن أن نأتي بمثله من غير ألسنتنا لأنا لسنا من أهله ـ ففي الناس خَلْقٌ كثيرٌ من غير أهل لساننا يقدرُ على أن يأتي بمثله من اللسان الذي كلفتنا الإتيان به. ولكنه جلّ ثناؤه قال لهم: ائتوا بسورةٍ من مثله، لأن مثله من الألسن ألسنكم. وأنتم ـ إنْ كان محمدٌ اختلقه وافتراه، إذا اجتمعتم وتظاهرتُم على الإتيان بمثل سورةٍ منه من لسانكم وبيانكم ـ أقدرُ على اختلاقه ورَصْفِه وتأليفه من محمد ﷺ، وإنْ لم تكونوا أقدرَ عليه منه، فلن تعجزوا ـ وأنتم جميعٌ ـ عمّا قدَرَ عليه محمدٌ من ذلك وهو وحيدٌ، إنْ كنتم صادقين في دعواكم وزعمكم أن محمداً افتراه واختلقه، وأنه من عندِ غيري.

القول في تأويل قوله: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾

وذلـك قول الله لمن شَكَّ من الكفار فيما جاء به محمدٌ ﷺ. وقوله: «فادعوا»، يعني: استنصروا واستغيثوا.

وأما الشهداء، فإنها جمعُ شهيدٍ، كما الشركاءُ جمع شريك، والخطباء جمع خطيب. والشهيد يسمى به الشاهدُ على الشيء لغيره بما يحقّق دَعواه. وقـد يُسَمَّى به المُشَـاهِـدُ للشيء، كما يقال: فلان جليسُ فلان ـ يعني به مُجالسَهُ، ونديمه ـ يعني به منادِمَهُ، وكذلك يقال: شهيده ـ يعني به مُشاهِدَه.

فإذا كانت «الشهداء» محتملةً أن تكون جمعَ «الشهيد» الذي هو منصرف

للمعنيين اللَّذيْنِ وصفت، فأولى وجهٍ بتأويل الآية ما قاله ابن عباس، وهو أن يكون معناه: واستنصروا على أنْ تأتوا بسورةٍ مِنْ مثلِه أعوانَكم وشُهداءَكم الذين يُشاهدونكم ويُعاونونكم على تكذيبهم الله ورسولَهُ، ويُظاهرونَكُم على كُفْرِكُم ونفاقكم، إنْ كنتم مُحِقِّينَ في جُحودكم أن ما جاءكم به محمد ﷺ اختلاقٌ وافتراء، لتمتحنوا أنفسكم وغيرَكم: هل تقدرون على أنْ تأتوا بسورةٍ من مثله، فيقدر محمد على أن يأتي بجميعه من قِبَل نَفسه اختلاقاً؟

وكما قال جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الاسراء: ٨٨]، فأخبر جلّ ثناؤه في هذه الآية، أنَّ مِثْلَ القرآن لا يأتي به الجنُّ والإنسُ ولو تظاهروا وتعاونوا على الإتيانِ به، وتحدَّاهم بمعنى التوبيخِ لهم في سورة البقرة فقال تعالى: «وإنْ كنتم في ريب مما نَزَّلْنا على عبدِنا فأتُوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءَكم من دون الله إن كنتمْ صَادقين». يعني بذلك: إنْ كنتم في شَك في صِدْقِ محمدٍ فيما جاءكم به من عندي أنه من عندي، فأتوا بسورة من مثله، وليستنصرْ بعضُكم بعضاً على ذلك إن كنتم صادقين في زعمكم، حتى تعلموا أنكم إذْ عَجزتم عن ذلك ـ أنه لا يقدر على أن يأتي به محمد ﷺ، ولا من البشر أحدٌ، ويَصِحَّ عندكُم أنه تنزيلي ووَحيي إلى عبدي.

## القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «فإن لم تفعلوا»، إن لم تأتوا بسورة من مثله. فقد تظاهرتم أنتم وشركاؤكم عليه وأعوانكم، فتبين لكم بامتحانكم واختباركم عَجْـزُكم وعَجـزُ جميع خَلْقِي عنـه، وعلمتم أنه من عندي، ثم أقمتم على التكذيبِ به. وقوله: «ولن تفعلوا»، أي لن تأتوا بسورةٍ من مثله أبداً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله «فاتقوا النار»، يقول: فاتقوا أن تَصْلَوُا النارَ بتكذيبكم رسولي بما جاءكم به من عندي أنه من وَحْيِي وتنزيلي، بعد تَبَيُّنِكُم أنه كتابي ومن عندي، وقيام الحجة عليكم بأنه كلامي ووحيي، بعجزِكم وعجزِ جميع خَلْقِي عن أنْ يأتوا بمثله.

ثم وصف جلّ ثناؤه النارَ التي حَذَّرهم صِلِيَّهَا فأخبرهم أنَّ الناسَ وَقُودُها، وأن الحجـارة وَقُـودها، فقال: «التي وقودها الناسُ والحجارة»، يعني بقوله: «وَقُودُها» حَطَبُها، والعربُ تَجعله مصدراً وهو اسم، إذا فتحت الواو، بمنزلة الحطب.

فإذا ضَمت الواو من «الوقود» كان مصدراً من قول القائل: وَقَدَت النارُ فهي تَقِدُ وقوداً وقِدَة ووَقَداناً وَوَقْداً، يراد بذلك أنها التهبتْ.

فإن قال قائل: وكيف خُصَّت الحجارة فقرنت بالناس، حتى جُعلت لنارِ جهنم حطباً؟

قيل: إنها حجارةُ الكبريت، وهي أشد الحجارة ـ فيما بلغنا ـ حَرّاً إذا أُحميت.

القول في تأويل قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ٢٤﴾

قد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا، على أنَّ «الكافر» في كلام العرب، هو الساترُ شيئاً بغطاء، وأن الله جلّ ثناؤه إنما سَمَّى الكافرَ كافراً، لجحودِهِ آلاءَهُ عنده، وتغطيته نَعماءَهُ قِبَله.

فمعنى قوله إذاً: «أُعدت للكافرين»، أُعدت النارُ للجاحدين أن الله رَبُّهم المتوحِّدُ بخَلْقِهم وخَلْقِ الذين من قبلهم، الذي جَعل لهمُ الأرضَ فراشاً، والسماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم - المُشْركينَ معه في عبادَتِهِ الأندادَ والآلهة، وهو المتفردُ لهم بالإنشاء، والمتوحِّدُ بالأقواتِ والأرزاق.

القول في تأويل قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

أما قوله تعالى: «وبشِّر»، فإنه يعني: أخبرهم. والبشارة أصلها الخبرُ بما يُسَرُّ به المخبَرُ، إذا كان سابقاً به كُلَّ مخبِرٍ سواه.

وهذا أمرٌ من الله تعالى نبيَّه محمداً ﷺ بإبلاغ بشارتِهِ خَلْقَهُ الذين آمنوا به وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عند ربه، وصدقوا إيمانهم ذلك وإقرارهم بأعمالهم الصالحة، فقال له: يا محمد، بشِّرْ مَنْ صدَّقك أنك رسولي - وأنَّ ما جئتَ به من الهدى والنور فمن عندي، وحقَّق تصديقَهُ ذلك قولاً بأداء الصالح من الأعمال التي افترضتها عليه، وأوجبتُها في كتابي على لسانك عليه - أنَّ له جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، خاصةً، دُون مَنْ كذَّب بكَ وأنكرَ ما جئته به من الهدى من عندي وعانَدَكَ، ودونَ مَنْ أظهر تصديقكَ، وأقَرَّ أنَّ ما جِئْتَهُ به فمن عندي قولاً، وجَحَدَهُ اعتقاداً، ولم يحققه عملاً. فإن لأولئك النارَ التي وَقُودها الناسُ والحجارة، معدةً عندي.

والجنات: جمع جنة، والجنة: البستان.

وإنما عنى جلّ ذكره بذكر الجنة: ما في الجنةِ من أشجارها وثمارها وغروسها، دون أرضها - ولذلك قال عَزَّ ذِكْرُه: «تجري من تحتها الأنهار». لأنه

معلومٌ أنـه إنما أراد جلّ ثناؤه الخبرَ عن ماءِ أنهارِها أنه جارٍ تحت أشجارِها وغروسها وثمارها، لا أنه جارٍ تحت أرضها. لأن الماء إذا كان جارياً تحت الأرض، فلا حظَّ فيها لعيون مَنْ فوقها إلا بكشف الساتر بينها وبينه. على أنَّ الذي تُوصفُ به أنهارُ الجنة، أنها جارية في غير أخاديد.

فإذا كان الأمر كذلك، في أنَّ أنهارَها جاريةٌ في غير أخاديد، فلاشك أنَّ الـذي أُريدَ بالجنات: أشجارُ الجنات وغروسها وثمارها دون أرضها، إذا كانت أنهارها تجري فوق أرضها وتحتَ غروسها وأشجارها، وذلك أولى بصفة الجنة من أن تكون أنهارها جاريةً تحت أرضها.

وإنما رَغَّبَ اللهُ جلّ ثناؤه بهذه الآية عبادَهُ في الإيمان، وحَضَّهم على عبادته بما أخبرهم أنه أعَدَّهُ لأهل طاعته والإيمان به عنده، كما حَذَّرهم في الآيةِ التي قَبْلَها بما أخبر من إعدادِه ما أعَدَّ ـ لأهلِ الكفر به، الجاعلينَ معه الآلهة والأنداد ـ من عقابِه عن إشراكِ غيرِه معه، والتعرض لعقوبته بركوبِ معصيته وتَرك طاعته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «كلما رُزقوا منها»: من الجنات، والهاء راجعةٌ على الجنات، وإنما المعني أشجارها، فكأنه قال: كلما رُزقوا ـ من أشجارِ البساتين التي أعدها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات في جناته ـ من ثمرة من ثمارها رزقاً قالوا: هذا الذي رُزقنا من قَبْلُ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «هذا الذي رُزقنا من قبل».

فقال بعضهم: تأويل ذلك: هذا الذي رُزقنا من قبل هذا في الدنيا.

وقال آخرون: بل تأويلُ ذلك: هذا الذي رُزِقْنَا من ثمار الجنة من قبل هذا، لشدةِ مشابهةِ بعضِ ذلك في اللونِ والطعم بعضاً. ومن علة قائلي هذا القول: أن ثمار الجنة كلما نُزِعَ منها شيءٌ عاد مكانه آخرُ مثله.

وقال بعضهم: بل قالوا «هذا الذي رزقنا من قبل»، لمشابهته الذي قَبْلَهُ في اللونِ، وإنْ خالفه في الطعم.

وهذا التأويل مذهبُ مَنْ تأول الآية. غير أنه يدفع صحته ظاهرُ التلاوة. والذي يدل على صحته ظاهرُ الآية ويحقق صحته، قولُ القائلين: إن معنى ذلك: هذا الذي رزقنا من قبلُ في الدنيا. وذلك أن الله جلّ ثناؤه قال: «كلما رُزقـوا منهـا من ثمرة رزقاً»، فأخبر جَلَّ ثناؤُهُ أن مِنْ قِيل أهل الجنةِ كلما رُزِقُوا من ثمر الجنة رزقاً، أن يقولوا: هذا الذي رُزقنا من قبلُ. ولم يخصص بأنَّ ذلك من قِيلهم في بعضِ ذلك دون بعضٍ. فإذْ كان قد أخبر جلّ ذكره عنهم أن ذلك من قِيلهم في كل ما رُزقوا من ثمرها، فلا شك أنَّ ذلك من قِيلهم في أولِ رزقٍ رُزِقُوهُ من ثمارها أُتُوا به بعد دخولهم الجنةَ واستقرارهم فيها، الذي لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة. فإذْ كان لاشك أن ذلك من قِيلهم في أوله، كما هو من قِيلهم في أوْسطه ومَا يَتلوه ـ فمعلومٌ أنه مُحال أن يكون من قِيلهم لأولِ رزقٍ رُزِقُوه من ثمار الجنة: هذا الذي رُزقنا من قبل هذا من ثمار الجنة! وكيف يجوز أن يقولوا لأولِ رزقٍ رُزقوه من ثمارها ولمَّا يتقدمه عندهم غيره: هذا هو الذي رُزقناه من قبل؟ إلا أنْ ينسُبهم ذُو غَيَّة وضَلالٍ إلى قِيلِ الكذبِ الذي قد طَهَّرَهُم الله منه، أو يدفعَ دافعٌ أن يكونَ ذلك من قِيلهم لأول رزقٍ رُزقوهُ منها من ثمارها، فيدفعَ صحة ما أوجبَ الله صحته بقوله: «كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً»، من غير نصب دلالة على أنه معنيٌّ به حالٌ من أحوالهم دون حال.

فقد تبين بما بيَّنا أنَّ معنى الآية: كلما رُزق الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة رزقاً قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل هذا في الدنيا.

فإن سألنا سائل، فقال: وكيف قال القوم: هذا الذي رُزقنا من قَبْلُ، والذي رُزقوه من قَبْلُ قد عُدِمَ بأكلِهم إياه؟ وكيف يجوز أن يقول أهل الجنة قولاً لا حقيقةَ له؟

قيل: إن الأمر على غير ما ذهبتَ إليه في ذلك. وإنما معناه: هذا من النوع الذي رُزقناه من قَبل هذا، من الثمار والرزق. كالرجل يقول لآخر: قد أعَدَّ لك فلانٌ من الطعام كذا وكذا من ألوان الطبيخ والشواء والحلوى. فيقول المقولُ له ذاك: هذا طعامي في منزلي. يعني بذلك: أن النوع الذي ذكر له صاحبه أنه أعده له من الطعام هو طعامُه، لا أن أعيانَ ما أخبره صاحبه أنه قد أعده له، هو طعامه. بل ذلك مما لا يجوز لسامعٍ سَمعه يقول ذلك، أن يتوهم أنه أراده أو قصدَه، لأن ذلك خلافُ مَخرَج كلامِ المتكلم. وإنما يوجَّه كلامُ كُلِّ متكلمٍ إلى المعروفِ في الناس من مخارجه، دون المجهولِ من معانيه. فكذلك ذلك في قوله: «قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل»، إذ كان ما كانوا رُزقوه من قَبْلُ قد فَنِيَ وعُدِم. فمعلوم أنهم عَنَوْا بذلك: هذا من النوع الذي رُزقناه من قبل، ومن جنسه في السِّمَات والألوان.

## القول في تأويل قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَـٰبِهاً﴾

والهاء في قوله: «وأتُوا به مُتشابهاً» عائدةٌ على الرزق فتأويله: وأُتُوا بالذي رُزقوا من ثمارها متشابهاً.

وقد اختلَفَ أهلُ التأويل في تأويل «المتشابه» في ذلك:

فقال بعضهم: تشابُهه أن كله خيار لا رَذْلَ فيه.

وقال بعضهم: تشابُهه في اللون وهو مختلفٌ في الطعم.

وقال بعضهم: تشابُهه في اللون والطعم.

وقال بعضهم: تشابُهه، تشابه ثمر الجنة وثمر الدنيا في اللون، وإن اختلف طعومهما.

وقال بعضهم: لا يُشبه شيءٌ مِمَّا في الجنة ما في الدنيا، إلا الأسماء.

وأولى هذه التأويلات بتأويل الآية، تأويلُ من قال: وأُتُوا به متشابهاً في اللونِ والمنظر، والطعمُ مختلفٌ. يعني بذلك اشتباه ثمر الجنة وثمر الدنيا في المنظر واللون، مختلفاً في الطعمِ والذوقِ، لِمَا قَدَّمْنَا من العلة في تأويل قوله: «كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل» وأن معناه: كلما رُزقوا من الجِنان من ثمرةٍ من ثمارها رزقاً قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل هذا في الدنيا: فأخبر الله جلّ ثناؤه عنهم أنهم قالوا ذلك، ومن أجل أنهم أُتُوا بما أُتُوا به من ذلك في الجنة متشابهاً، يعني بذلك تشابهَ ما أُتُوا به في الجنة منه. والذي كانوا رُزِقُوه في الدنيا، في اللونِ والمرأى والمنظر، وإنْ اختلفا في الطعم والذوق، فتباينا، فلم يكن لشيءٍ مما في الجنة من ذلك نظيرٌ في الدنيا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾

والهاء والميم اللتان في «لهم» عائدتان على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والهاء والألف اللتان في «فيها» عائدتان على الجنات. وتأويل ذلك: وبشّرِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناتٍ فيها أزواجٌ مطهرة.

والأزواج جمع زَوْج، وهي امرأةُ الرجل. يقال: فلانة زَوْجُ فلان وزوجته.

وأما قوله: «مُطَهَّرة» فإنَّ تأويله أنهن طُهِّرنَ من كُلِّ أذىً وقَذىً وريبةٍ، مما يكون في نساءِ أهلِ الدنيا، من الحيضِ والنفاسِ والغائطِ والبول والمخاط والبُصاق والمني، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: والذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنات خالدون. والهاء والميم من قوله «وهم»، عائدة على الذين آمنوا وعملوا الصالحات. والهاء والألف في «فيها» على الجنات. وخُلودُهم فيها دوامُ بقائِهم فيها على ما أعطاهم اللهُ فيها من الحَبْرَةِ والنعيمِ المقيم.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾

إن الله جلّ ذكره أخبر عباده أنه لا يستحيي أنْ يضربَ مثلاً ما بعوضةً فما فوقها، عَقِيب أمثالٍ قد تَقَدَّمَتْ في هذه السورة، ضربها للمنافقين، دون الأمثال التي ضربها في سائر السور غيرها. فَلأَنْ يكون هذا القول ـ أعني قوله: «إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما» ـ جواباً لنكيرِ الكفارِ والمنافقين ما ضرب لهم من الأمثال في هذه السورة، أحق وأولى من أنْ يكون ذلك جواباً لنكيرهم ما ضرب لهم من الأمثال في غيرها من السور.

فإن قال قائل: إنما أوجبَ أنْ يكون ذلك جواباً لنكيرهم ما ضرَب من الأمثال في سائر السور، لأنَّ الأمثالَ التي ضربها اللهُ لهم ولآلهتهم في سائر السور أمثالٌ موافقة المعنى لما أخبر عنه: أنه لا يستحيي أن يضربه مثلاً، إذْ كان بعضها تمثيلاً لآلهتهم بالعنكبوت، وبعضها تشبيهاً لها في الضَّعْفِ والمهانةِ

بالذباب. وليس ذكر شيء من ذلك بموجود في هذه السورة، فيجوزَ أنْ يقال: إن الله لا يستحيي أن يضربه مثلاً.

فإن ذلك بخلاف ما ظنّ. وذلك أنَّ قولَ الله جلّ ثناؤه: «إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها»، إنما هو خبرٌ منه جَلَّ ذِكْرُهُ أنه لا يستحيي أنْ يضربَ في الحق من الأمثالِ صغيرها وكبيرها، ابتلاءً بذلك عبادَهُ واختباراً منه لهم، ليميزَ به أهلَ الإيمانِ والتصديقِ به من أهلِ الضلالِ والكفرِ به، إضلالاً منه به لقوم، وهدايةً منه به لآخرين.

لا أنه جَلَّ ذِكْرُه قصَد الخبرَ عن عين البعوضة أنه لا يستحيي من ضَرْبِ المَثَلِ بها، ولكن البعوضةَ لَمَّا كانت أضعفَ الخَلْقِ خَصَّها الله بالذكر في القِلة، فأخبر أنه لا يستحيي أن يضرب أقلَّ الأمثالِ في الحق وأحقرَها وأعلاها إلى غير نهاية في الارتفاع، جواباً منه جلّ ذكره لمن أنكر من منافقي خَلْقِه ما ضرَب لهم من المثل بِمُوقِد النارِ والصِّيب من السماء، على ما نَعتهما به من نَعْتهما.

فإن قال لنا قائل: وأين ذِكْرُ نكيرِ المنافقين الأمثالَ التي وصفتَ، الذي هذا الخبرُ جوابه، فنعلم أنَّ القولَ في ذلك ما قلتَ؟

قيل: الدلالة على ذلك بينةٌ في قولِ الله تعالى ذكره: «فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحَقُّ من رَبِّهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً». وإن القوم الذين ضرَب لهم الأمثال في الآيتين المقدَّمتين ـ اللتين مثَّل ما عليه المنافقون مقيمون فيهما: بموقِد النار والصّيب من السماء، على ما وصفَ من ذلك قبل قوله: «إنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً» ـ قد أنكروا المثل وقالوا: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ فأوضح لهم تعالى ذكره خطأ قِيلهم ذلك، وقَبَّح لهم ما نَطَقُوا به، وأخبرهم بحكمهم في قِيلهم ما قالوا منه، وأنه ضلالٌ وفسوقٌ،

وأن الصوابَ والهدى ما قاله المؤمنون دون ما قالوه.

وأما تأويل قوله: «إن الله لا يستحيي»، فإنَّ بعض المنسوبين إلى المعرفة بلغةِ العرب كان يتأول معنى «إن الله لا يستحيي»: إن الله لا يخشى أن يضرب مثلاً، ويستشهدُ على ذلك من قوله بقول الله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ويزعم أن معنى ذلك: وتستحي الناس والله أحق أن تستحيه ـ فيقول: الاستحياء بمعنى الخشية، والخشية بمعنى الاستحياء.

وأما معنى قوله: «أن يضرب مثلاً»، فهو أن يبيِّن ويصف، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، بمعنى وَصَفَ لكم.

وأما «ما» التي مع «مثل»، فإنها بمعنى «الذي»، لأن معنى الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضة في الصغر والقلة فما فوقها ـ مثلاً.

فإن قال لنا قائل: فإنْ كان القولُ في ذلك ما قلتَ، فما وجه نصب البعوضة، وقد علمتَ أنَّ تأويل الكلام ما تأولت: أن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً الذي هو بعوضة؛ فالبعوضةُ على قولك في محل الرفع؟ فأنَّى أتاها النصبُ؟

قيل: أتاها النصبُ من وجهين:

**أحدُهما**: أن «ما» لما كانت في محل نَصْب بقوله «يضرب»، وكانت البعوضة لها صلة، عُرِّبت بتعريبها، فألزمت إعرابها. والعرب تفعل ذلك خاصة في «من» و«ما»، تعرب صِلاتهما بإعرابهما، لأنهما يكونان معرفة أحياناً، ونكرة أحياناً.

**وأما الوجه الآخر**: فأنْ يكون معنى الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضةٍ إلى ما فوقها، ثم حذف ذكر «بين» و«إلى»، إذ كان في

نصب البعوضة ودخول الفاء في «ما» الثانية، دلالة عليهما، كما قالت العرب: «مُطِرنا ما زُبالة فالثَّعْلَبِيَّة»، و«له عشرون ما ناقة فجملاً»، و«هي أحسنُ الناس ما قرناً فقدماً»، يعنون: ما بين قَرْنِها إلى قَدَمِهَا. وكذلك يقولون في كل ما حَسُنَ فيه من الكلام دخول: «ما بين كذا إلى كذا»، ينصبون الأول والثاني، ليدل النصبُ فيهما على المحذوف من الكلام. فكذلك ذلك في قوله: «ما بعوضة فما فوقها»[(١)].

وأما تأويل قوله «فما فوقها»: فما هو أعظم منها ـ عندي ـ لما ذكرنا أن البعوض أضعف خلق الله، فإذْ كانت أضعف خلق الله فهي نهايةٌ في القِلَّةِ والضعفِ. وإذْ كانت كذلك، فلاشك أنَّ ما فوق أضعف الأشياء، لا يكون إلا أقوى منه. فقد يجب أن يكون المعنى: فما فوقها في العظم والكبر، إذ كانت البعوضة نهايةً في الضعف والقلة. فقد تبين إذاً بما وصفنا، أن معنى الكلام: إن الله لا يستحيي أنْ يَصِفَ شبَهاً لما شبَّه به الذي هو ما بين بعوضةٍ إلى ما فوق البعوضة.

فأما تأويل الكلام لو رفعت البعوضة، فغير جائز في «ما»، إلا ما قلنا من أن تكون اسماً، لا صلة بمعنى التطول.

القول في تأويل قوله: **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا**

يعني تعالى ذكره بقوله: «فأما الذين آمنوا»، فأما الذين صدقوا الله

(١) أكثر هذا من كلام الفراء في معاني القرآن ١: ٢١ ـ ٢٢، وذكر الوجهين السالفين جميعاً، وكلامه أبسط من كلام الطبري وأبين.

ورسوله. وقوله: «فيعلمون أنه الحق من ربهم». يعني: فيعرفون أن المثَل الذي ضرَبه الله، لِما ضرَبه له، مثَل.

وقوله «وأما الذين كفرُوا»، يعني الذين جحدوا آياتِ الله، وأنكرُوا ما عرفوا، وستروا ما علموا أنه حَقٌّ، وذلك صفةُ المنافقين، وإياهم عَنَى اللهُ جَلَّ وعز - ومَنْ كان من نظرائهم وشركائهم من المشركين من أهل الكتاب وغيرهم - بهذه الآية، فيقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلاً.

وتأويل قوله «ماذا أراد الله بهذا مثلاً»، ما الذي أراد الله بهذا المثل مثلاً. «فذا»، الذي مع «ما»، في معنى «الذي»، وأراد صلته. وهذا إشارةٌ إلى المثل.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: **يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا**

يعني بقوله جلّ وعز: «يضل به كثيراً»، يُضِلُّ اللهُ به كثيراً من خَلْقِه. والهاء في «به» من ذكر المثل. وهذا خبر من الله جلّ ثناؤه مبتدَأً، ومعنى الكلام: أن الله يُضل بالمثل الذي يضربه كثيراً من أهل النفاق والكفر. فيزيد هؤلاء ضلالاً إلى ضلالهم، لتكذيبهم بما قد عَلِمُوه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله لما ضربه له، وأنه لما ضربَه له موافق. فذلك إضْلالُ الله إياهم به. و«يهدي به»، يعني المثل، كثيراً من أهلِ الإيمانِ والتصديق، فيزيدهم هُدىً إلى هُداهم وإيماناً إلى إيمانهم. لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق ما ضرَبه الله له مثلاً، وإقرارُهم به. وذلك هدايةٌ من الله لهم به.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: **وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾**

وأصلُ الفسق في كلام العرب: الخروجُ عن الشيء. يقال منه: فسقت

الرُّطبَة إذا خرجت من قشرها. ومن ذلك سُميت الفأرةُ فُوَيْسِقة، لخروجها عن جُحرها، فكذلك المنافق والكافر سُميا فاسِقَيْن، لخروجهما عن طاعة ربهما. ولذلك قال جلّ ذكره في صفة إبليس: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، يعني به خرج عن طاعته واتباعِ أمره.

فمعنى قوله: «وما يُضِل به إلا الفاسقين»، وما يضل الله بالمثل الذي يضربُه لأهلِ الضلال والنفاق. إلا الخارجينَ عن طاعته، والتاركينَ اتباعَ أمرِهِ، من أهلِ الكفرِ به من أهلِ الكتاب، وأهل الضلال من أهلِ النفاق.

القول في تأويل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾

وهذا وصف من الله جلّ ذكره الفاسقين الذين أخبر أنه لا يُضل بالمثَل الذي ضربه لأهل النفاق غيرَهم، فقال: وما يُضِل اللهُ بالمثل الذي يضربه ـ على ما وصف قبلُ في الآيات المتقدمة ـ إلا الفاسقين الذين ينقُضُون عهد الله من بعد ميثاقه.

ثم اختلف أهلُ المعرفة في معنى العهد الذي وصف اللهُ هؤلاء الفاسقين بنقضه.

وأولى الأقوال عندي بالصواب في ذلك قولُ مَنْ قال: إن هذه الآيات نزلت في كفارِ أحبارِ اليهود الذين كانوا بين ظَهْرانَيْ مهاجَرِ رسولِ الله ﷺ، وما قَرُبَ منها من بقايا بني إسرائيل، ومَنْ كان على شِرْكِهِ من أهلِ النفاق الذين قد بينا قَصَصهم فيما مضى من كتابنا هذا.

وقد دللنا على أنَّ قولَ الله جلّ ثناؤه: «إنَ الذين كفروا سواء عليهم»، وقوله: «ومن الناس مَنْ يقولُ آمنا بالله وباليوم الآخر»، فيهم أنزلت، وفيمَنْ كان على مِثْلِ الذي هم عليه من الشرك بالله. غيرَ أن هذه الآيات عندي، وإنْ

كانت فيهم نزلتْ، فإنه معنيٌّ بها كل مَنْ كان على مثلِ ما كانوا عليه من الضلال، ومعنيٌّ بما وافق منها صفة المنافقين خاصةً، جميعُ المنافقين؛ وبما وافق منها صفةَ كفارِ أحبار اليهود، جميعُ مَنْ كان لهم نظيراً في كفرهم.

وذلك أن الله جلّ ثناؤه يَعُمُّ أحياناً جميعَهم بالصفة، لتقديمهِ ذكر جميعهم في أولِ الآيات التي ذكرتْ قَصَصهم، ويخص أحياناً بالصفة بعضَهم، لتفصيله في أولِ الآيات بين فَرِيقَيْهم، أعني: فريقَ المنافقين من عَبَدَةِ الأوثانِ وأهلِ الشرك بالله، وفريقَ كفارِ أحبارِ اليهود. فالذين ينقضون عهدَ الله، هم التاركون ما عَهِدَ اللهُ إليهم من الإقرار بمحمد ﷺ وبما جاء بِهِ، وتبيين نبوته للناس، الكاتمونَ بيانَ ذلك بعدَ علمهم به، وبما قد أخذَ اللهُ عليهم في ذلك، كما قال الله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ونبذُهم ذلك وراءَ ظهورِهم، هو نقضُهم العهدَ الذي عهدَ إليهم في التوراة الذي وصفناه، وتركُهم العمل به.

وإنما قلت: إنه عنى بهذه الآيات مَنْ قلتُ إنه عنى بها، لأن الآيات ـ من مبتدأ الآيات الخمس والست من سورة البقرة ـ فيهم نَزَلَتْ، إلى تمام قصصهم. وفي الآية التي بعد الخبر عن خَلْقِ آدم وبيانِهِ في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. وخطابِهِ إياهم جلّ ذكره بالوفاء بذلك خاصة دون سائر البشر ـ ما يَدُلُّ على أنّ قوله: «الذين ينقضُون عهدَ الله من بعد ميثاقه» مقصودٌ به كفارهم ومنافقوهم ومَنْ كان من أشياعهم من مشركي عبدةِ الأوثان على ضلالهم. غيرَ أن الخطاب ـ وإن كان لمن وصفت من الفريقين ـ فداخلٌ في أحكامهم، وفيما أوجبَ اللهُ لهم من الوعيد والذم والتوبيخ، كُلُّ مَنْ كان على

سبيلهم ومنهاجِهم من جميعِ الخلق وأصنافِ الأمم المخاطبين بالأمرِ والنهي.

فمعنى الآية إذاً: وما يُضِلُّ به إلا التاركينَ طاعةَ الله، الخارجينَ عن اتباع أمره ونهيه، الناكثين عهودَ الله التي عهدها إليهم، في الكتب التي أنزلها إلى رُسُله وعلى ألسن أنبيائه، باتباع أمرِ رسولهِ محمد ﷺ وما جاء به، وطاعة الله فيما افترض عليهم في التوراةِ من تبيينِ أمره للناس، وإخبارهم إياهم أنهم يجدونه مكتوباً عندهم أنه رسولٌ من عند الله مفترضةٌ طاعتهُ، وترك كتمان ذلك لهم. ونكثُهم ذلـك ونَقضُهم إياه، هو مخالفتهمُ اللهَ في عهدهِ إليهم ـ فيما وصفتُ أنه عهد إليهم ـ بعد إعطائهم ربهم الميثاقَ بالوفاء بذلك. كما وصفهم به ربنا تعالى ذكره بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى الله إلا الحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وأما قوله: «من بعد ميثاقه»، فإنه يعني: من بعد توَثُّق الله فيه بأخذِ عهودهِ بالوفاء له، بما عَهِدَ إليهم في ذلك. غيرَ أن التوثق مصدرٌ من قولك: توثقت من فلان تَوَثُّقاً، والميثاقُ اسمٌ منه. والهاء في الميثاق عائدة على اسم الله.

وقد يدخل في حكم هذه الآية كل مَنْ كان بالصفة التي وصف الله بها هؤلاء الفاسقين من المنافقين والكفار، في نقضِ العهدِ وقطعِ الرحم والإفسادِ في الأرض.

## القول في تأويل قوله تعالى: وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ

والذي رَغب اللهُ في وَصْلِه وذمَّ على قطعهِ في هذه الآية: الرَّحِمُ. وقد بين ذلـك في كتـابه، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُم أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]. وإنما عنى بالرحم أهلَ الرحم

الذين جمعتهم وإياه رَحِمٌ والدةٍ واحدة. وقطعُ ذلك: ظُلْمُهُ في تَرْكِ أداءِ ما ألزمَ الله من حقوقها، وأوجبَ من بِرِّها. وَوَصْلُها: أداءُ الواجبِ لها إليها من حقوقِ الله التي أوجبَ لها، والتعطفُ عليها بما يحقُّ التعطف به عليها.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾

وفسادُهم في الأرض: هو ما تقدم وَصْفُنَاهُ قَبْلُ من معصيتهم ربَّهم، وكفرهم به، وتكذيبهم رسوله، وجحدهم نبوته، وإنكارِهم ما أتاهم به من عند الله أنه حقٌّ من عنده.

القول في تأويل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾

والخاسرون جمع خاسر، والخاسرون: الناقصُون أنفسهم حظوظَها - بمعصيتهم الله - من رحمته، كما يخسرُ الرجل في تجارته، بأنْ يُوضَع من رأس ماله في بيعه. فكذلك الكافر والمنافق، خسر بحرمان الله إياه رحمتَه التي خلقها لعباده في القيامة، أحوج ما كان إلى رحمته.

القول في تأويل قول الله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾

إن معنى قوله: «وكنتم أمواتاً» أمواتَ الذِّكْرِ، خمولاً في أصلاب آبائكم نُطَفاً، لا تُعْرَفُونَ ولا تُذْكَرُونَ: فأحياكم بإنشائكم بشراً سوياً حتى ذُكِرتم وعُرِفتم وحَيِيتم، ثمَّ يميتكم بقبضِ أرواحكم وإعادتِكُم رُفاتاً لا تُعرفون ولاَ تُذكرون في

البرزخ إلى يوم تُبْعَثُونَ، ثم يحييكم بعد ذلك بنفخ الأرواح فيكم لبعث الساعة وصَيحةِ القيامة، ثم إلى الله تُرجعونَ، بعد ذلك، كما قال: «ثم إليه تُرجعون»، لأن الله جلّ ثناؤه يحييهم في قبورهم قبلَ حشرهم، ثم يحشرهم لموقفِ الحساب، كما قال جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] وقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلونَ﴾ [يس: ٥١].

وهذه الآية توبيخٌ من الله جلّ ثناؤه للقائلين: «آمنَّا بالله وباليوم الآخر»، الذين أخبر الله عنهم أنهم مع قِيلهم ذلك بأفواهِهم، غيرُ مؤمنين به. وأنهم إنما يقولون ذلك خِداعاً لله وللمؤمنين، فعذَلهم الله بقوله: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم»، ووبَّخهم واحتج عليهم - في نكيرهم ما أنكروا من ذلك وجحودهم ما جحدوا بقلوبهم المريضة - فقال: كيف تكفرون بالله فتجحدون قُدْرَتَهُ على إحيائِكم بعد إماتتكم، لبعث القيامة، ومجازاةِ المُسِيء منكم بالإساءةِ والمحسن بالإحسان، وقد كنتم نطفاً أمواتاً في أصلاب آبائكم، فأنشأكم خَلْقاً سوياً، وجعلكم أحياءً، ثم أماتكم بعد إنشائكم. فقد علمتم أنَّ مَنْ فعل ذلك بقدرته، غير مُعْجزهِ - بالقدرة التي فعل ذلك بكم - إحياؤكم بعد إماتتكم، وإعادتكم بعد إفنائِكم، وحشركم إليه لمجازاتكم بأعمالكم.

ثم عَدَّدَ ربنا تعالى ذكره عليهم وعلى أوليائهم من أحبار اليهود - الذين جمع بين قَصَصهم وقَصَص المنافقين في كثيرٍ من آي هذه السورة التي افتتح الخبرَ عنهم فيها بقوله: «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذرْهم لا يؤمنون» - نِعَمَهُ التي سَلَفَتْ منه إليهم وإلى آبائهم، التي عَظُمَتْ منهم مواقعها. ثم سَلَبَ كثيراً منهم كثيراً منها، بما رَكِبُوا من الآثام، واجترموا من الأجرام، وخالفوا من الطاعةِ إلى المعصية، مُحَذِّرَهُم بذلك تعجيلَ العقوبة لهم، كالتي عَجَّلَها للأسلافِ والأَفْراطِ قبلهم، ومُخوِّفَهم حُلولَ مَثُلاتِه بساحتهم

كالذي أحل بأوَّليهم، ومُعرِّفَهم ما لهم من النجاةِ في سرعة الأوْبةِ إليه، وتعجيلِ التوبة، ومن الخلاص لهم يوم القيامة من العقاب.

فبدأ بعد تعديده عليهم ما عدَّد من نعمه التي هم فيها مُقيمون، بذكر أبينا وأبيهم آدم أبي البشر صلوات الله عليه، وما سلف منه من كرامته إليه، وآلائه لديه، وما أحلَّ به وبعدوِّهِ إبليس من عاجلِ عقوبته بمعصيتهما التي كانت منهما، ومخالفتهما أمره الذي أمرهما به. وما كان من تَغَمُّدِهِ آدمَ برحمته إذْ تاب وأناب إليه. وما كان من إحلالهِ بإبليس من لعنتهِ في العاجل، وإعداده له ما أعَدَّ له من العذابِ المقيم في الآجل، إذ استكبر وأبى التوبةَ إليه والإنابة، منبهاً لهم على حكمهِ في المنيبين إليه بالتوبة، وقضائه في المستكبرين عن الإنابة، إعذاراً من الله بذلك إليهم، وإنذاراً لهم، ليتدبروا آياته وليتذكر منهم أولُو الألباب. وخاصًّاً أهلَ الكتاب - بما ذَكر من قصص آدم وسائر القصص التي ذكرها معها وبعدها، مما عَلِمَهُ أهلُ الكتاب وجَهِلَتْهُ الأمَّةُ الأمّيةُ من مشركي عَبَدةِ الأوثان - بالاحتجاج عليهم - دون غيرهم من سائر أصناف الأمم، الذين لا علم عندهم بذلك - لنبيه محمد ﷺ، ليعلموا بإخبارهِ إياهم بذلك، أنَّهُ للهِ رسولٌ مبعوثٌ، وأنَّ ما جاءهم به فَمِنْ عندهِ. إذْ كان ما اقتص عليهم من هذه القصص، من مكنونِ علومهم، ومَصُونِ ما في كتبهم، وخفيِّ أمورهم التي لم يكن يدعي معرفةَ عِلْمِهَا غيرُهم وغيرُ مَنْ أخذَ عنهم وقرأ كتبهم.

وكان معلوماً من محمد ﷺ أنه لم يكن قط كاتباً، ولا لأسفارهم تالياً، ولا لأحدٍ منهم مُصاحباً ولا مجالساً، فيمكنهم أنْ يَدَّعوا أنه أخذ ذلك من كتبهم أو عن بعضهم، فقال جلّ ذكره - في تعديدهِ عليهم ما هُمْ فيه مقيمون من نعمه، مع كفرهم به، وتركهم شُكْرَهُ عليها بما يجبُ له عليهم من طاعته: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. فأخبرهم جلّ ذكره أنه خلق

لهم ما في الأرض جميعاً، لأن الأرضَ وجميع ما فيها لبني آدم منافعُ. أما في الدين، فدليلٌ على وحدانية ربهم، وأما في الدنيا فمعاشٌ وبلاغ لهم إلى طاعتهِ وأداء فرائضه، فلذلك قال جلّ ذكره: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً».

وقوله: «هو» مكنيٌّ من اسم الله جلّ ذِكْرُه عائدٌ على اسمه في قوله: «كيف تكفرون بالله». ومعنى خَلْقِه ما خَلَقَ جَلَّ ثناؤه، إنشاؤه عينه، وإخراجه من حال العدم إلى الوجود. و«ما» بمعنى «الذي».

فمعنى الكلام إذاً: كيف تكفرون بالله وكنتم نُطفاً في أصلاب آبائكم فجعلكم بشراً أحياءً، ثم يُمِيتكم، ثم هو مُحْيِيكم بعد ذلك وباعثكم يوم الحشرِ للثوابِ والعقاب، وهو المنعمُ عليكم بما خلق لكم في الأرض من معايشكم وأدلتكم على وحدانية ربكم.

و«كيف» بمعنى التعجب والتوبيخ، لا بمعنى الاستفهام، كأنه قال: ويْحَكم كيف تكفرون بالله، كما قال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾

الاستواء في كلام العرب منصرف على وجوه: منها انتهاءُ شباب الرجل وقوته، فيقال، إذا صار كذلك: قد استوى الرجلُ. ومنها: استقامة ما كان فيه أَوَدٌ من الأمور والأسباب، يقال منه: استوى لفلان أمرُه إذا استقام بعد أَوَدٍ. ومنها: الإقبال على الشيء يقال استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوؤه بعد الإحسان إليه. ومنها: الاحتياز والاستيلاء. كقولهم: استوى فلانٌ على

المملكة. بمعنى احتوى عليها وحازَها. ومنها: العلو والارتفاع، كقول القائل، استوى فلان على سريره. يعني به علوَّه عليه.

وأوْلى المعاني بقول الله جلّ ثناؤه: «ثم استوى إلى السماء فسوَّاهن»، علا عليهن وارتفع، فدبرهن بقدرته، وخلقهنَّ سبع سماوات.

والعجبُ ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله: «ثم استوى إلى السماء»، الذي هو بمعنى العلو والارتفاع، هرباً عند نفسه من أن يلزمه بزعمه ـ إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك ـ أن يكون إنما علاَ وارتفع بعد أن كان تحتها ـ إلى أن تأوله بالمجهول من تأويله المستنكر. ثم لم يَنْجُ مما هرَب منه! فيقال له: زعمت أن تأويل قوله «استوى» أقبلَ، أفكان مُدْبراً عن السماء فأقبل إليها؟ فإنْ زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل، ولكنه إقبال تدبير، قيل له: فكذلك فقُلْ: علا عليها علو مُلْكٍ وسُلْطان، لا عُلُوَّ انتقالٍ وزَوال. ثم لن يقول في شيء من ذلك قولا إلا ألزم في الآخر مثله. ولولا أنا كرهنا إطالةَ الكتاب بما ليس من جنسه، لأنبأنا عن فسادِ قولِ كل قائلٍ قال في ذلك قولًا، لقول أهل الحق فيه مخالفاً. وفيما بَيَّنا منه ما يُشرِف بذي الفهم على ما فيه له الكفاية إن شاء الله تعالى.

فإن قال لنا قائل: أخبرنا عن استواء الله جلّ ثناؤه إلى السماء، كان قبل خلق السماء أم بعده؟

قيل: بعده، وقبل أن يسويهن سبعَ سماوات، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿ثمَّ آسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ [فصلت: ١١]. والاستواء كان بعد أن خلقها دُخاناً، وقبل أن يسوِّيَها سبعَ سموات.

وأما قوله «فسواهن» فإنه يعني: هَيَّأهن وخلقهن ودبَّرهن وقوَّمهن. والتسوية في كلام العرب: التقويم والإصلاح والتوطئة، كما يقال: سوَّى فلان لفلان هذا الأمر. إذا قَوَّمَهُ وأصلحه وَوَطَّأه له. فكذلك تسوية الله جلّ ثناؤه سماواته: تقويمه إياهن على مشيئته، وتدبيره لهن على إرادته، وتفتيقهن بعد ارتتاقهن.

فمعنى الكلام إذاً: هو الذي أنعم عليكم، فخلق لكم ما في الأرض جميعاً وسخَّره لكم تفضُّلاً منه بذلك عليكم، ليكون لكم بلاغاً في دنياكم ومتاعاً إلى موافاةِ آجالكم، ودليلاً لكم على وَحدانية ربكم. ثم علا إلى السماوات السبع وهي دخان، فسوَّاهن وحبَكهن، وأجرىٰ في بعضهن شمسَهُ وقمره ونجومه، وقَدَّرَ في كُلِّ واحدةٍ منهن ما قدر من خلقه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩﴾

يعني بقوله جلّ جلاله: «وهو»: نفسَه. وبقوله: «بكل شيء عليم»: أن الذي خلقكم، وخلق لكم ما في الأرض جميعاً، وسَوَّى السماوات السبع بما فيهن فأحكمهن من دخان الماء، وأتقن صُنْعَهُنَّ، لا يخفى عليه - أيها المنافقون والملحدون الكافرون به من أهل الكتاب - ما تبدون وما تكتمون في أنفسكم. وإن أبدى منافقوكم بألسنتهم قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وهم على التكذيب به منطوون. وكذَّبتْ أحباركم بما أتاهم به رسولي من الهدى والنور. وهم بصحَّتِهِ عارفون. وجحدوه وكتموا ما قد أخذتُ عليهم - ببيانه لخلقي من أمر محمد ونبوته - المواثيقَ وهم به عالمون. بل أنا عالم بذلك من أمركم وغيره من أمورِكم وأمورِ غيركم، إني بكل شيء عليم. وقوله: «عليم» بمعنى عالم.

## القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾

**إن الله جلّ ثناؤه خاطب الذين خاطبهم بقوله: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم»، بهذه الآيات والتي بعدها، مُوَبِّخهم مُقَبِّحاً إليهم سوء فِعَالهم ومقامهم على ضلالهم، مع النعم التي أنعمها عليهم وعلى أسلافهم؛ ومذكِّرَهم ـ بتعديدِ نِعَمِهِ عليهم وعلى أسلافهم ـ بأسَهُ، أن يسلكوا سبيلَ مَنْ هلك من أسلافهم في معصيته، فيسلك بهم سبيلهم في عقوبته؛ ومُعَرِّفَهُم ما كان منه من تعطفه على التائب منهم استعتاباً منه لهم.** فكان مما عَدَّدَ من نعمه عليهم أنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً، وسَخَّرَ لهم ما في السموات من شمسها وقمرها ونجومها، وغير ذلك من منافعها التي جعلها لهم ولسائر بني آدم معهم منافع. فكان في قوله تعالى ذِكْرُه: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعــون»، معنى: اذكـروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم، إذ خلقتكم ولم تكونوا شيئاً. وخلقتُ لكم ما فـــي الأرض جميعاً. وسويت لكم ما في السماء. ثم عطف بقوله: «وإذ قال رَبُّك للملائكة» على المعنى المقتضى بقوله: «كيف تكفرون بالله». إذ كان مقتضياً ما وصفتُ من قوله: «اذكروا نعمتي إذ فعلت بكم وفعلتُ، واذكروا فعلي بأبيكم آدم إذ قلتُ للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفةً».

### القول في تأويل قوله: ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾

والملائكة جمع مَلأكٍ، غيرَ أن أحدَهم، بغير الهمزة أكثرُ وأشهر في كلام العـرب منـه بالهمـز. وذلك أنهم يقولون في واحدهم: مَلَك من الملائكة، فيحذفون الهمز منه، ويحركون اللام التي كانت مسكنة لو هُمز الاسم. وإنما يحـركونها بالفتح، لأنهم ينقلون حركة الهمزة التي فيه بسقوطها إلى الحرف

الساكن قبلها: فإذا جمعوا واحدهم، ردوا الجمع إلى الأصل وهمزوا، فقالوا: ملائكة:

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

أي مُستخلفٌ في الأرض خليفةً، ومُصَيِّرٌ فيها خَلَفاً.

القول في تأويل قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾

والخليفة الفعيلة من قولك: خَلَفَ فلان فلاناً في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده. كما قال جلّ ثناؤه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] يعني بذلك أنه أبدلكم في الأرض منهم، فجعلكم خلفاء بعدهم. من ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة، لأنه خَلَفَ الذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خَلَفاً. يقال منه: خلف الخليفة، يخلُف خلافة وخِلِّيفَى.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه خبراً عن ملائكته: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾

إنْ قال لنا قائل: وكيف قالتِ الملائكةُ لربها إذْ أخبرها أنه جاعلٌ في الأرض خليفة: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»، ولم يكن آدمُ بَعْدُ مخلوقاً ولا ذُريته، فيعلموا ما يفعلونَ عياناً؟ أعلمتِ الغيبَ فقالتْ ذلك، أم قالتْ ما قالتْ من ذلك ظناً؟ فذلك شهادةٌ منها بالظن، وقولٌ بما لا تعلم. وذلك ليس من صفتها. أمْ ما وجه قِيلها ذلك لربها؟

قيل: قد قالت العلماءُ من أهلِ التأويل في ذلك أقوالاً (أوْلاَها) تأويلُ مَنْ قال: إن ذلكَ منها استخبارٌ لربها، بمعنى: أعْلِمْنَا يا ربَّنا أجاعلٌ أنتَ في الأرض مَنْ هذه صِفَتُـهُ، وتـاركٌ أنْ تجعـلَ خلفاءَك منا ونحن نُسَبِّحُ بحمدك ونُقَدِّسُ لك ـ لا إنكارٌ منها لِمَا أعْلَمَها رَبُّها أنه فاعلٌ وإنْ كانت قد استعظمتْ لما أخبرت بذلك، أنْ يكونَ لله خَلْقٌ يعصيه.

وأما وصفُ الملائكة مَن وصفت ـ في استخبارها ربَّها عنه ـ بالفساد في الأرض وسفك الدماء، فغير مستحيلٍ فيه، وهو أن الله جلّ ثناؤه أخبرهم أنه جاعلٌ في الأرض خليفة تكون له ذرية يفعلون كذا وكذا، فقالوا: «أتجعل فيها مَنْ يفسد فيها»، على ما وصفت من الاستخبار.

فإنْ قال لنا قائلٌ: وما وجه استخبارها، والأمر على ما وصفتَ، من أنها قد أخبرت أن ذلك كائن؟

قيل: وجه استخبارها حينئذٍ يكون عن حالهم عند وقوع ذلك. وهل ذلك منهم؟ ومسألتهم ربَّهم أن يجعلهم الخلفاءَ في الأرض حتى لا يعصوه.

فإن قال قائل: فإنْ كان أَوْلى التأويلاتِ بالآية هو ما ذكرتَ، من أنَّ الله أخبر الملائكة بأنَّ ذريةَ خليفتهِ في الأرض يفسدون فيها ويسفكون فيها الدماء، فمن أجل ذلك قالت الملائكة: «أَتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها»، فأين ذكر إخبارِ الله إياهم في كتابه بذلك؟

قيل له: اكتفى بدلالة ما قد ظهرَ من الكلام عليه عنه، إذ كان فيما أظهر من كلامـه، دلالـة على معنى مُرادِهِ. ونظائرُ ذلك في القرآن وأشعار العرب وكلامها أكثر من أنْ يُحصى.

القول في تأويل قوله تعالى: وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

أمـا قوله: «ونحن نسبِّح بحمدك» فإنه يعني: إنا نعظِّمك بالحمد لك والشكر، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ٣]، وكما قال: ﴿وَالمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٤]. وكُلُّ ذِكْرٍ لله عند العرب فتسبيحٌ وصلاة. يقول الرجل منهم: قضيتُ سُبْحتي من الذكر والصلاة.

وأصلُ التسبيح لله عند العرب: التنزيهُ له مِنْ إضافةِ ما ليسَ من صفاتهِ إليه، والتبرئة له من ذلك.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾

والتقـديس هو التـطهير والتعظيم، ومنه قولهم: «سُبُّوح قُدُّوس»، يعني بقولهم: «سُبوح»، تنزيهٌ لله، وبقولهم: «قُدوسٌ»، طهارةٌ له وتعظيم. ولذلك قيل للأرض: «أرض مُقدسة»، يعني بذلك المُطَهَّرة. فمعنى قول الملائكة إذاً: «ونحن نسبِّـح بحمدك»، نُنَزِّهُكَ ونُبَرِّئُكَ مما يُضِيفُه إليك أهلُ الشرك بكَ، ونُصَلِّي لك «ونقدس لك»، ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارةِ من الأدناس وما أضاف إليك أهلُ الكفر بك.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾

وهذا الخبرُ من الله جَلَّ ثناؤه ينبىء عن أن الملائكة التي قالت: «أتجعلُ فيهـا من يُفسد فيها ويسفك الدماء»، استفظعتْ أنْ يكونَ لله خَلْقٌ يعصيه، وعجبتْ منه إذْ أُخْبِرَتْ أنَّ ذَلك كائن. فلذلك قال لهم ربهم: «إني أعلم ما لا تعلمون». يعني بذلك، والله أعلم: إنكم لتعجبون من أمر الله وتستفظعونه، وأنا أعلمُ أنه في بعضكم، وتَصفُونَ أنْفُسَكُم بصفةٍ أعلمُ خِلافَها من بعضكم، وتُعرِّضون بأمرٍ قد جعلته لغيركم. وذلك أنَّ الملائكة لما أخبرها ربها بما هو

كائنٌ من ذريةِ خليفته، من الفساد وسفك الدماء، قالت لربها: يا رب أجاعلٌ أنتَ في الأرضِ خليفةً من غيرنا، يكونُ من ذريته مَنْ يَعصيكَ، أم منا، فإنَّا نُعَظِّمُكَ ونصلي لك ونطيعك ولا نعصيك؟ - ولم يكن عندها عِلْمٌ بما قد انطوى عليه كَشْحاً إبليسُ من استكباره على ربه - فقال لهم ربهم: إني أعلم غيرَ الذي تقولون من بعضكم. وذلك هو ما كان مستوراً عنهم من أمر إبليس، وانطوائه على ما قد كان انطوى عليه من الكِبْرِ. وعلى قِيلهم ذلك، ووصفهم أنفسهم بالعموم من الوصف، عُوتبوا.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾

على التأويل الذي تأول «آدم» مَن تأوله، بمعنى أنه خُلق من أديم الأرض، يجب أن يكون أصْل «آدم» فعلاً سُمي به أبو البشر، كما سمي «أحمد» بالفعل من الإحماد، و«أسعد» من الإسعاد، فلذلك لم يُجَرَّ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾

اختلف أهلُ التأويل في الأسماء التي علمها آدم ثم عَرضها على الملائكة، (وأَوْلاَهَا) بالصواب، وأشبهها بما دَلَّ على صحتهِ ظاهرُ التلاوة، قولُ مَنْ قال في قوله: «وعلم آدم الأسماء كلها» أنها أسماءُ ذريته وأسماءُ الملائكة، دون أسماءِ سائرِ أجناس الخَلْق. وذلك أن الله جلّ ثناؤه قال: «ثم عرَضهم على الملائكة»، يعني بذلك أعيانَ المسمِّين بالأسماء التي علمها آدم. ولا تكادُ العرب تَكْني بالهاء والميم إلا عن أسماءِ بني آدم والملائكة. وأما إذا كانت عن أسماء البهائم وسائرِ الخَلْق سِوَى من وصفناها، فإنها تَكْني عنها بالهاء والألف أو بالهاء والنون، فقالت: «عرضهن» أو «عرضها»، وكذلك تفعل إذا كَنَتْ عن

أصنافٍ من الخَلْق كالبهائم والطير وسائر أصناف الأمم وفيها أسماءُ بني آدم والملائكة، فإنها تكني عنها بما وصفنا من الهاء والنون أو الهاء والألف. وربما كَنَتْ عنها، إذا كان كذلك، بالهاء والميم، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥]، فكنى عنها بالهاء والميم، وهي أصنافٌ مختلفة فيها الآدمي وغيره. وذلك، وإن كان جائزاً، فإنَّ الغالبَ المستفيضَ في كلام العرب ما وَصفنا، من إخراجهم كنايةَ أسماء أجناسِ الأمم ـ إذا اختلطت ـ بالهاء والألف أو الهاء والنون. فلذلك قلتُ: أولى بتأويل الآية أن تكون الأسماء التي علَّمها آدمَ أسماء أعيان بني آدم وأسماء الملائكة.

القول في تأويل قوله تعالى: ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

قد تقدم ذِكْرُنَا التأويلَ الذي هو أَوْلَى بالآية، على قراءتنا ورَسم مُصْحفنا، وأن قوله: «ثم عَرَضهم»، بالدلالة على بني آدم والملائكة، أولى منه بالدلالة على أجناس الخلق كلها، وإن كان غيرَ فاسد أن يكون دالاًّ على جميعِ أصنافِ الأمم، للعللِ التي وصفنا.

ويعني جلّ ثناؤه بقوله: «ثم عَرَضهم»، ثم عرَض أهل الأسماء على الملائكة.

القول في تأويل قوله: فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ

وتأويل قوله «أنبئوني»: أخبروني.

القول في تأويل قوله جلّ ذكره: بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ

(يعني (جلّ ثناؤه): بأسماء هذه التي حَدَّثتُ بها آدمَ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١﴾

ومعنى ذلك: فقال أنبئوني بأسماء مَنْ عرضتُه عليكم أيتها الملائكة ـ القائلون: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا، أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قِيلِكُم أني إنْ جعلتُ خليفتي في الأرض من غيركم عَصَاني ذريته وأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وإنْ جَعَلْتُكُم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس. فإنكم إنْ كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتُهم عليكم من خَلْقِي، وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم، وَعلِمَهُ غيركم بتعليمي إياه؛ فأنتم ـ بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد بعدُ، وبما هو مستترٌ من الأمور، التي هي موجودة، عن أعينكم ـ أحرى أنْ تكونوا غير عالمين. فلا تسألوني ما ليسَ لكم به عِلْمٌ، فإني أَعْلَمُ بما يُصْلِحُكم ويصلحُ خَلْقِي.

وهذا الفعل من الله جلّ ثناؤه بملائكته ـ الذين قالوا له: «أتجعل فيها من يفسد فيها»، من جهةِ عتابهِ جلّ ذكره إياهم ـ نظيرُ قولهِ جَلَّ جلاله لنبيه نوح صلوات الله عليه إذ قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] ـ: لَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. فكذلك الملائكة سألت ربها أنْ تكون خلفاءه في الأرض لِيُسَبِّحُوهُ ويقدسوه فيها، إذْ كان ذريةُ مَنْ أخبرهم أنه جاعلُه في الأرض خليفةً، يفسدون فيها ويسفكون الدماء، فقال لهم جلّ ذكره: «إني أعلم ما لا تعلمون». يعني بذلك: إني أعلم أنَّ بعضَكم فاتحُ المعاصي وخاتِمُها، وهو إبليس، منكراً بذلك تعالى ذِكْرُه قولَهم. ثم عرَّفهم موضعَ هَفْوَتِهم في قِيلهم ما قالوا من ذلك، بتعريفهم قُصورَ عِلْمِهم عَمَّا هم له شاهدون عياناً، ـ فكيف

بما لم يروه ولم يُخبَرُوا عنه؟ - بعرضه ما عرض عليهم من خلقه الموجودين يومئــذ، وقيله لهـم: «أنبئــوني بأسمــاء هؤلاء إن كنتم صادقين» أنكم إن استخلفتكم في أرضي سَبَّحتمـوني وَقَـدَّسْتُموني، وإن استخلفتُ فيها غيرَكم عَصَـاني ذُريته وأفسدوا وسفكوا الدماء. فلما اتَّضَحَ لهم موضعُ خطأ قِيلهم، وبَدَتْ لهم هفوةُ زَلَّتِهم، أنابوا إلى الله بالتوبة فقالوا: «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا»، فسارعوا الرجعة من الهفوة، وبادروا الإنابة من الزلة، كما قال نوح - حين عوتب في مَسألته فقيل له: لا تسألْن مَا لَيْسَ لك به عِلْم -: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُـوذُ بِكَ أَنْ أَسْـأَلَـكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. وكذلك فِعْلُ كُلِّ مُسَدَّدٍ للحق مُوفَّق له - سريعة إلى الحق إنابته، قريبة إليه أوْبته.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

وهذا خَبَرٌ من الله جلّ ذكره عن ملائكته، بالأوبةِ إليه، وتسليم عِلْمِ ما لم يعلموه له، وتَبَرِّيهم من أنْ يعلموا أو يعلم أحد شيئاً إلا ما علَّمه تعالى ذكره.

وفي هذه الآيات الثلاث العبرةُ لمن اعتبرَ، والذكرى لمن ادَّكَرَ، والبيان لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، عما أودع الله جلّ ثناؤه آيَ هذا القرآن من لطائفِ الحكم التي تعجزُ عن أوصافها الألسن.

وذلك: أن الله جلّ ثناؤه احتجَّ فيها لنبيهِ ﷺ على مَنْ كان بين ظهرَانَيْه من يَهود بني إسرائيل، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن جلّ ثناؤه أطلعَ عليها من خَلْقِه إلا خاصاً، ولم يكن مُدركاً علمه إلا بالإنباء والإخبار، لتتقرر عندهم صحة نبوته، ويعلموا أنَّ ما أتاهم به فمن عنده. ودلّ فيها على

أن كل مُخْبرٍ خبراً عما قد كان ـ أو عما هو كائن مما لم يكنْ، ولم يأته به خبر، ولم يُوضَع له على صحته برهان، ـ فمتقولٌ ما يستوجبُ به من ربه العقوبة. ألا ترى أنَّ الله جلّ ذكره رَدَّ على ملائكته قِيلَهم: «أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها وَيسفكُ الدماءَ وَنحنُ نُسبح بحمدك ونقدسُ لك» قال: «إني أعلمُ ما لا تعلمونَ»، وعَرَّفَهم أنَّ قِيلَ ذلك لم يكن جائزاً لهم، بما عَرَّفَهُم من قُصورِ عِلْمِهم عند عرضهِ ما عَرَضَ عليهم من أهل الأسماء، فقال: «أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتمْ صادقين». فلم يكن لهم مَفزَعٌ إلا الإقرارُ بالعجز، والتبرِّي إليه أنْ يعلموا إلا ما عَلَّمهم، بقولهم: «سبحانك لا عِلْمَ لنا إلا ما علمتنا». فكان في ذلك أوضحُ الدلالة وأبينُ الحجة، على كذبِ مقالةِ كُلِّ من ادَّعى شيئاً من علومِ الغيب من الحُزاة[1] والكهنة والعافَةِ[2] والمنجِّمة. وذكَّر بها الذين وَصَفنا أمرَهم من أهل الكتاب ـ سوالفَ نِعَمِهِ على آبائهم، وأياديَه عند أسلافهم، عند إنابتهم إليه، وإقبالهم إلى طاعته، مُستعطفَهم بذلك إلى الرَّشاد، ومُستعتِبَهم به إلى النجاة. وحذَّرهم ـ بالإصرار والتمادي في البغي والضلال ـ حلولَ العقاب بهم، نظيرَ ما أحل بعدوِّه إبليس، إذ تمادَى في الغي والخَسار.

## القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

وتأويل ذلك: أنك أنت يَا ربنا العليمُ من غير تعليمٍ بجميع ما قد كان وما هو كائن، والعالم للغيوب دون جميعِ خَلْقِكَ. وذلك أنهم نَفَوْا عن أنفسهم بقولهم: «لا علم لنا إلا ما علمتنا»، أن يكون لهم علمٌ إلا ما عَلَّمهم ربهم،

---

(١) الحزاة جمع حاز: وهو كالكاهن، يحزر الأشياء ويقدرها بظنه.

(٢) العافة جمع عائف: وهو الذي يعيف الطير فيزجرها ويتفاءل أو يتشاءم بأسمائها وأصواتها وممرها. واسم حرفته: العيافة.

وأثبتوا ما نَفَوْا عن أنفسهم من ذلك لربهم بقولهم: «إنك أنتَ العليم»، يعنون بذلك العالم من غير تعليم، إذ كان مَنْ سوَاك لا يعلم شيئاً إلا بتعليم غيره إياه. والحكيم: هو ذو الحكمة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

إن الله جلّ ثناؤه عَرَّفَ ملائكته ـ الذين سألوه أن يجعلهم الخُلفاءَ في الأرض، ووَصفوا أنْفُسَهم بطاعتِهِ والخضوع لأمره، دونَ غيرهم الذين يُفسدون فيها ويسفكون الدماء ـ أنَّهم، من الجهلِ بمواقعِ تدبيره ومحل قَضَائه قَبل إطلاعه إياهم عليه، على نحو جهلِهم بأسماءِ الذين عرَضهم عليهم، إذ كان ذلك مما لم يعلِّمهم فيعلَموه، وأنهم وغيرَهم من العبادِ لا يعلمون من العلم إلا ما علَّمهم إياهُ رَبُّهم، وأنه يَخُصُّ بما شاء من العلم مَنْ شَاء من الخلق، ويمنعه منهم مَنْ شاء، كما علم آدم أسماء ما عَرَض على الملائكة، ومنعهم عِلْمها إلا بعد تعليمه إياهم.

فأمـا تأويل قوله: «قال يا آدم أنبئهم»، يقول: أخبر الملائكةَ، والهاء والميم في قولـه «أَنْبِئْهُم» عائـدتان على الملائكة. وقوله: «بأسمائهم» يعني بأسماء الذين عَرَضهم على الملائكة، والهاء والميم اللتان في «أسمائهم» كناية عن ذكر «هؤلاء» التي في قوله: «أنبئوني بأسماء هؤلاء». «فلما أنبأهم» يقول: فلمـا أخبر آدمُ الملائكةَ بأسماء الذين عرضهم عليهم فلم يعرفوا أسماءهم، وأيقنوا خطأ قِيلهم: «أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسفك الدماءَ ونحن نسبِّح بحمدك ونقدسُ لك»، وأنهم قَد هَفوْا في ذلك وقالوا ما لا يعلمون كيفية وقوع قضاء ربهم في ذلك لو وقع، على ما نطقوا به، ـ قال لهم ربهم: «ألم أقلْ

لكمُ إني أعلمُ غَيبَ السموات والأرض». **والغيب: هو ما غاب عن أبصارهم** فلم يعاينوه؛ توبيخاً من الله جلّ ثناؤه لهم بذلك، **على ما سَلَفَ من قِيلهم**، وَفَرَط منهم من خطأ مَسألتهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

إن معنى قوله «وأعلم ما تُبدون »، وأعلم - مع علمي غيبَ السموات والأرض - ما تُظْهِـرُونَ بألسنتكم، «وما كنتم تكتمون»، وما كنتم تُخْفُونَهُ في أنفسكم، فلا يخفى عليَّ شيء، سواءٌ عندي سرائركم وعلانيتكم.

والـذي أظهروه بألسنتهم ما أخبرَ الله جلّ ثناؤه عنهم أنهم قالوه، وهو قولُهم: «أتجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبِّح بحمدك ونقدس لك»؛ والذي كانوا يكتمونه، ما كان منطوياً عليه إبليسُ من الخلافِ على الله في أمرِهِ، والتكبُّرِ عن طاعته.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

أما قوله: «وإذ قلنا» فمعطوف على قوله: «وإذ قال ربك للملائكة»، كأنه قال جَلَّ ذِكْرُه لليهود - الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهَاجَرِ رسول الله ﷺ من بني إسرائيل، مُعَدِّداً عليهم نِعَمَهُ، ومذكِّرَهُم آلاءه، على نحو الذي وصفنا فيما مضى قبل -: اذكروا فعلي بكم إذْ أنعمتُ عليكم. فخلقتُ لكم ما في الأرض جميعاً، وإذ قلتُ للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة فكرمتُ أباكم آدمَ بما آتيتهُ من عِلمي وفضلي وكرامتي، وإذْ أسجدتُ له ملائكتي فسجدوا له. ثم

استثنى من جميعهم إبليس، فدلَّ باستثنائه إياه منهم على أنه منهم، وأنه ممن قد أُمِر بالسجودِ معهم، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿إلا إبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ* قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١١، ١٢]، فأخبر جلّ ثناؤه أنه قد أمر إبليس فيمن أمرَهُ من الملائكة بالسجود لآدمَ. ثم استثناه جَلَّ ثناؤه مما أخبر عنهم أنهم فعلوه من السجود لآدم، فأخرجه من الصفةِ التي وصفهم بها من الطاعةِ لأمرِهِ، ونفى عنه ما أثبته لملائكتهِ من السجود لعبده آدم.

## القول في معنى: إِبْلِيسَ

وإبليس «إفعيل»، من الإبلاس، وهو الإياس من الخير والندمُ والحزن. وكما قال الله جلّ ثناؤه: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، يعني به: أنهم آيِسُونَ من الخير، نادمون حزناً.

فإن قال قائل: فإن كان إبليس، كما قلتَ، «إفعيل» من الإبلاس، فهلا صُرف وأُجريَ؟ قيل: تُرِك إجراؤه استثقالاً، إذ كان اسماً لا نظيرَ له من أسماء العرب، فشبَّهته العربُ ـ إذْ كان كذلك ـ بأسماء العجم التي لا تُجرَى. وقد قالوا: مررتُ بإسحاق، فلم يُجروه. وهو من «أسحقه الله إسحاقاً»، إذْ كان وَقَع مبتدَأ اسماً لغير العرب، ثم تَسَمَّتْ به العربُ فجرى مَجراه ـ وهو من أسماء العجم ـ في الإعراب فلم يصرف. وكذلك «أيوب»، إنما هو «فيعول» من «آب يؤوبُ».

وتأويل قوله: «أبَى»، يعني جلّ ثناؤه بذلك إبليس، أنَّهُ امتنع من السجود لآدمَ فلم يسجد له. «واستكبر»، يعني بذلك أنه تعظَّمَ وتكبَّرَ عن طاعةِ الله في السجود لأدم. وهذا، وإنْ كان من الله جلّ ثناؤه خبراً عن إبليس، فإنه تقريعٌ

لِضُرَبائهِ من خَلْقِ الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمرِ الله، والانقيادِ لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه، والتسليم له فيما أوجب لبعضِهم على بعضٍ من الحقِّ. وكان مِمَّنْ تكبَّرَ عن الخضوع لأمر الله، والتذلل لطاعته، والتسليم لقضائه فيما ألزمهم من حقوق غيرهم - اليهودُ الذين كانوا بين ظهرانيْ مُهاجَرِ رسول الله ﷺ، وأحبارُهم الذين كانوا برسول الله ﷺ وصفتهِ عارفينَ، وبأنه لله رسولٌ عالِمينَ. ثم استكبروا - مع عِلْمِهم بذلك - عن الإقرار بنبوَّتِه، والإذعان لطاعته، بَغياً منهم له وحسداً. فَقرَّعهم الله بخبره عن إبليس الذي فعل في استكباره عن السجود لآدم حسداً له وبغياً، نظيرَ فِعْلِهم في التكبر عن الإذعان لمحمد نبي الله ﷺ ونبوته، إذْ جاءهم بالحق من عند ربهم حسداً وبغياً.

ثم وَصَف إبليس بمثل الذي وصف به الذين ضربَه لهم مثلاً في الاستكبار والحسد والاستنكاف عن الخضوع لمن أمرَهُ الله بالخضوع له، فقال جلّ ثناؤه: «وكان» - يعني إبليس - «منَ الكافرين» - من الجاحدين نِعَمَ الله عليه وأياديَه عنده، بخلافه عليه فيما أمرَهُ به من السجود لآدم، كما كفرت اليهودُ نِعَمَ ربِّها التي آتاها وآباءَها قَبْلُ: من إطعامِ الله أسلافَهم المَنَّ والسلوى، وإظلال الغمام عليهم، وما لا يُحْصَى من نعمه التي كانت لهم، خصوصاً ما خصَّ الذينَ أدركوا محمداً ﷺ بإدراكهم إياه، ومشاهدتهم حجةَ الله عليهم، فجحدت نبوَّته بعد عِلْمِهم به، ومعرفتهم بنبوته حسداً وبغياً. فنسبه الله جلّ ثناؤه إلى «الكافرين»، فجعله من عِدَادِهم في الدين والملة، وإنْ خالفهم في الجنس والنسبة. كما جعل أهلَ النفاقِ بعضَهم من بعضٍ، لاجتماعهم على النفاق، وإن اختلفتْ أنسابُهم وأجناسهم فقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧] يعني بذلك أنَّ بعضَهم من بعضٍ في النفاق والضلال. فكذلك قوله في إبليس: كان من الكافرين، كان منهم في الكُفر بالله ومخالفتِه أمرَهُ، وإنْ كان مخالفاً جنسُه أجناسَهم ونَسَبُه نسبهم. ومعنى

قوله: «وكان من الكافرين» أنه كان حين أبَى عن السجود ـ من الكافرين حينئذ.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾

وفي هذه الآية دلالة واضحة على صِحَّةِ قَولِ مَنْ قال: إن إبليس أُخرجَ من الجنة بعد الاستكبار عن السجود لآدم، وأُسكنها آدمُ قبل أنْ يهبط إبليس إلى الأرض. ألا تسمعون الله جلّ ثناؤه يقول: ﴿وقلنا يا آدمُ اسكنْ أنت وزوجك الجنة وكُلَا منها رَغَداً حَيثُ شئتما ولا تَقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين* فأزَلَّهُمَا الشيطانُ عنها فأخرجَهُمَا مما كانا فيه﴾. فقد تبين أنَّ إبليسَ إنما أزلهما عن طاعةِ الله بعد أن لُعِن وأظهرَ التكبر، لأنَّ سجودَ الملائكة لآدم كان بعد أن نُفخ فيه الروح، وحينئذٍ كان امتناعُ إبليس من السجود له، وعند الامتناع من ذلك حَلَّتْ عليه اللعنة.

ويقال لامرأة الرجل: زَوْجُه وزَوْجتُه، والزوجة بالهاء أكثر في كلام العرب منها بغير الهاء. والزوج بغير الهاء يقال إنه لغة لأزْد شَنوءة. فأما الزوج الذي لا اختلاف فيه بين العرب، فهو زوجُ المرأة.

## القول في تأويل قوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾

أمـا الـرَّغَد، فإنه الواسعُ من العيش، الهنيءُ الذي لا يُعنِّي صاحِبَهُ. يقال: أرْغد فلان، إذا أصاب واسعاً من العيش الهنيء.

فمعنى الآية: وقلنا يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجك الجنة، وكلا من الجنة رزقاً واسعاً هنيئاً من العيش حيث شئتما.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾

والشجر في كلام العرب: كُلُّ ما قامَ على ساقٍ، ومنه قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، يعني بالنجم ما نَجمَ من الأرض من نَبْتٍ، وبالشجر ما استقلَّ على ساق.

ثم اختلف أهلُ التأويل في عين الشجرة التي نُهي عن أكل ثمرها آدم، فقال بعضهم: هي السُّنبلة، وقال آخرون: هي الكرمة، وقال آخرون: هي التينةُ.

والقول في ذلك عندنا أنَّ الله جلّ ثناؤه أخبر عباده أن آدم وزوجَه أكلا من الشجرةِ التي نهاهُما ربُّهما عن الأكل منها، فأَتَيا الخطيئةَ التي نهاهما عن إتيانِها بأكْلِهما ما أكلا منها، بعد أن بيّن الله جلّ ثناؤه لهما عَينَ الشجرة التي نهاهما عن الأكلِ منها، وأشار لهما إليها بقوله: «ولا تقربا هذه الشجرة»، ولم يضع الله جلّ ثناؤه لعباده المخاطَبين بالقرآن، دلالةً على أيِّ أشجارِ الجنة كان نَهيُه آدمَ أنْ يَقْرَبَها، بنصٍّ عليها باسمها، ولا بدلالة عليها. ولو كان لله في العلم بأي ذلك من أيٍّ رضاً، لم يُخل عبادَه من نَصْب دلالة لهم عليها يَصِلُونَ بها إلى معرفةِ عينها، ليطيعوه بعلمهم بها، كما فعل ذلك في كُلِّ ما بالعِلْمِ به له رضاً.

فالصواب في ذلك أن يقال: إن الله جلّ ثناؤه نهى آدمَ وزوجته عن أكلِ شجرةٍ بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه، فأكلا منها كما وصفهما الله جلّ ثناؤه به. ولا عِلْمَ عندنا بأيِّ شجرةٍ كانت على التعيين، لأنَّ الله لم يَضَع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن، ولا في السنّة الصحيحة. فأنّى يأتي ذلك؟. وذلك عِلْمٌ، إذا عُلِمَ لم ينفع العالِمَ به علمه، وإنْ جَهِلَهُ جاهلٌ لم يضرَّه جهلُه به.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ


وفي قوله «فتكونا من الظالمين»، وجهانِ من التأويل:

**أحدهما**: أن يكون «فتكونا» في نية العطف على قوله «ولا تقربا»، فيكون تأويله حينئذ: ولا تقربا هذه الشجرة ولا تكونا من الظالمين. فيكون «فتكونا» حينئذٍ في معنى الجزم مجزوماً بما جُزم به «ولا تقربا»، كما يقول القائل: لا تُكلم عمراً ولا تُؤْذِهِ.

**والثاني**: أن يكون «فتكونا من الظالمين»، بمعنى جواب النهي. فيكون تأويله حينئذٍ: لا تقربا هذه الشجرة، فإنكما إنْ قَرَبتماها كنتما من الظالمين. كما تقول: لا تَشتمْ عمراً فيشتُمكَ، مجازاةً. فيكون «فتكونا» حينئذٍ في موضع نَصبٍ، إذْ كان حرفاً عُطِف على غير شكله، لما كان في «ولا تقربا» حرف عامل فيه، ولا يصلح إعادته في «فتكونا».

وأما تأويل قوله «فتكونا من الظالمين»، فإنه يعني به فتكونا من المُتَعَدِّينَ إلى غيرِ ما أذِن لهم وأبيح لهم فيه، وإنما عَنى بذلك أنكما إنْ قربتما هذه الشجرةَ، كنتما على منهاجِ مَنْ تَعدَّى حُدودي، وعَصى أمري، واستحلَّ محارمي، لأنَّ الظالمين بعضُهم أولياء بعض، والله وليُّ المتقين.

وأصل «الظلم» في كلام العرب، وضعُ الشيء في غير موضعه. وقد يتفرع الظلم في معانٍ يطول بإحصائها الكتاب، وسنبينها في أماكنها إذا أتينا عليها إنْ شاء الله تعالى. وأصلُ ذلك كله ما وصفنا من وضع الشيء في غير موضعه.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾

«فأزلَّهما بتشديد اللام، بمعنى: استزلَّهما، من قولك زلَّ الرجل في دينه: إذا هَفَا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه. وأزلَّه غيره: إذا سبب له ما يزلّ من أجله في دينه أو دنياه، ولذلك أضاف الله تعالى ذكره إلى إبليسَ خُروجَ آدم وزوجته من الجنة، فقال: «فأخرجهما» يعني إبليسُ «مما كانا فيه»، لأنه كانَ الذي سَبَّب لهما الخطيئة التي عاقبهما الله عليها بإخراجهما من الجنة.

وقد أخبر الله تعالى ذِكْرُه عن إبليسَ أنه وسوسَ لآدم وزوجته ليبدي لهما ما وُورِيَ عنهما من سَوآتهما، وأنه قال لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرةِ إلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا من الخَالِدِينَ* وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢١] مُدلِّياً لهما بغرور. ففي إخباره جَلَّ ثناؤه - عن عدوِّ الله أنه قاسم آدمَ وزوجته بقِيلِه لهما: إني لكما لمن الناصحين - الدليلُ الواضح على أنه قد باشر خطابهما بنفسه: إما ظاهراً لأعينهما، وإما مُسْتَجِناً في غيره. وذلك أنه غير مَعقول في كلام العرب أن يقال: قاسم فلانٌ فلاناً في كذا وكذا. إذا سَبَّبَ له سبباً وصلَ به إليه دون أنْ يحلفَ له. والحلف لا يكون بتسبب السبب. فكذلك قوله «فوسوس إليه الشيطان»، لو كان ذلك كان منه إلى آدم - على نحو الذي منه إلى ذريته، من تزيين أكلِ ما نهى اللهُ آدم عن أكله من الشجرة، بغير مباشرةِ خطابهِ إياه بما استزلَّهُ به من القولِ والحيل - لما قال جلّ ثناؤه: «وقاسَمهما إني لكما لمن الناصحين». كما غير جائز أن يقول اليوم قائلٌ ممن أتى معصيةً: قاسمني إبليسُ أنه لي ناصحٌ فيما زيَّنَ لي من المعصية التي أتيتها. فكذلك الذي كان من آدمَ وزوجته، لو كان على النحو الذي يكون فيما بين إبليس اليومَ وذرية آدم - لما قال جلّ ثناؤه: «وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾

وأما تأويل قوله: «فأخرجهما»، فإنه يعني: فأخرج الشيطانُ آدمَ وزوجته، «مما كانا»، يعني مما كان فيه آدمُ وزوجته من رَغَدِ العيشِ في الجنة، وسَعَةِ نعيمها الذي كانا فيه. وقد بينا أن الله جلّ ثناؤه إنما أضاف إخراجهما من الجنة إلى الشيطان - وإنْ كان الله هو المُخْرِجَ لهما - لأن خروجهما منها كان عن سببٍ من الشيطان، فأُضِيفَ ذلك إليه لتسبيبه إياه، كما يقول القائل لرجل وَصل إليه منه أذىً حتى تحوَّلَ من أجله عن موضعٍ كان يسكنه: «ما حَوَّلني من موضعي الذي كنتُ فيه إلا أنتَ»، ولم يكن منه له تحويل، ولكنه لما كان تحوّله عن سبب منه، جازَ له إضافة تحويله إليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾

يقال هبط فلان أرض كذا ووادِيَ كذا، إذا حلّ ذلكِ.

وقد أبان هذا القولُ من الله جلّ ثناؤه، عن صحة ما قلنا من أنّ المخرِجَ آدمَ من الجنة هو اللهُ جلّ ثناؤه، وأنَّ إضافةَ الله إلى إبليس ما أضاف إليه من إخراجهما، كان على ما وصفنا. ودلَّ بذلك أيضاً على أنَّ هبوطَ آدم وزوجته وعدوهما إبليس، كان في وقتٍ واحد، بجَمْع الله إياهم في الخبر عن إهباطهم، بعد الذي كان من خطيئةِ آدمَ وزوجته، وتسبُّب إبليس ذلك لهما، على ما وصفه رَبُّنا جَلَّ ذِكْرُه عنهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾

والمستقرُّ في كلام العرب، هو موضِعُ الاستقرار. فإذْ كان ذلك كذلك،

فحيث كان من الأرض موجوداً حالاً، فذلك المكانُ من الأرض مُسْتَقَرُهُ. وإنما عنى الله جلّ ثناؤه بذلك: أنَّ لهم في الأرض مستقرّاً ومنزلاً، بأماكنهم ومستقرِّهم من الجنة والسماء. وكذلك قوله: «ومتاع» يعني به: أنَّ لهم فيها متاعاً بمتاعهم في الجنة.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾

والمتاع، في كلام العرب، كل ما استُمْتِعَ به من شيءٍ، من معاشٍ استُمتع به أو رِياشٍ أو زينة أو لذة أو غير ذلك. فإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان الله جلّ ثناؤه قد جعل حياةَ كل حيٍّ متاعاً له يستمتع بها أيام حياته، وجعل الأرضَ للإنسان متاعاً أيام حياته، بقراره عليها، واغتذائه بما أخرج الله منها من الأقواتِ والثمار، والتذاذهِ بما خلق فيها من الملاذِّ، وجعلها من بعد وفاته لجثته كِفاتاً[1]، ولجسمه منزلاً وقَراراً؛ وكان اسم المتاع يشمل جميع ذلك ـ كان أولى التأويلات بالآية ـ إذْ لم يكن الله جلّ ثناؤه وضع دلالة دالة على أنه قَصد بقوله: «ومتاعٌ إلى حين» بعضاً دون بعض، وخاصّاً دون عامّ في عقل ولا خبر ـ أن يكون ذلك في معنى العامِّ، وأنْ يكونَ الخبرُ أيضاً كذلك، إلى وقت يطولُ استمتاعُ بني آدم وبني إبليس بها، وذلك إلى أن تُبدَّلَ الأرضُ غيرَ الأرضِ. فإذْ كان ذلك أوْلَى التأويلات بالآية لما وَصفنا، فالواجب إذاً أن يكون تأويل الآية: ولكم في الأرض مَنازلُ ومساكنُ تستقرُّون فيها استقرارَكم ـ كان ـ في السماوات، وفي الجنان في منازلكم منها، واستمتاع منكم بها وبما أخرجتُ لكم منها، وبما جعلتُ لكم فيها من المعاش والرياش والزِّين والملاذِّ، وبما أعطيتُكم على ظهرها أيامَ حياتِكم ومن بعدِ وفاتِكم لأرْماسكم وأجداثكم تُدفنون

(١) الكفات: الموضع الذي يضم فيه الشيء ويقبض.

فيها[1]، وتبلغون باستمتاعكم بها إلى أن أُبدلَكُم بها غيرَها.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾

أما تأويل قوله: «فتلقى آدم»، فقيل: إنه أَخَذَ وقَبِلَ. وأصله التفعُّل من اللقاء، كما يتلقى الرجلُ الرجلَ مُستقبَله عند قدومهِ من غيبته أو سفره، فكأنَّ ذلك كذلك في قوله «فتلقى»، كأنه استقبله فتلقَّاهُ بالقبول حين أوحى إليه أو أخبر به. فمعنى ذلك إذاً: فلقَّى الله آدمَ كلماتِ توبةٍ، فتلقَّاها آدمُ من ربهِ وأخذها عنه تائباً، فتاب الله عليه بقِيلهِ إياها، وقبوله إياها من ربه.

والذي يدل عليه كتابُ الله، أنَّ الكلماتِ التي تلقاهُنَّ آدمُ من ربه، هُنَّ الكلماتُ التي أخبر الله عنه أنه قالها متنصِّلاً بقِيلها إلى ربه، معترفاً بذنبه، وهو قوله: «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإنْ لم تَغفرْ لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين».

وهذا الخبر الذي أخبر الله عن آدم - من قِيله الذي لقَّاه إياه فقاله تائباً إليه من خطيئته - تعريفٌ منه جَلَّ ذِكْرُه جميعَ المخاطبين بكتابه، كيفيةَ التوبةِ إليه من الذنوب، وتنبيهٌ للمخاطَبينَ بقوله ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، على موضعِ التوبةِ مما هم عليه من الكفر بالله، وأنَّ خلاصَهم مما هم عليه مُقيمون من الضلالة، نظير خلاصِ أبيهم آدم من خطيئته، مع تذكيرِهِ إياهم به السالفَ إليهم من النِّعَمِ التي خَصَّ بها أباهم آدم وغيرَهُ من آبائهم.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾

---

(١) الأرماس جمع رمس، والأجداث جمع جدث (بفتحتين): وهما بمعنى القبر.

وقوله: «فتاب عليه»، يعني: على آدم. والهاء التي في «عليه» عائدةٌ على آدم. وقوله: «فتاب عليه»، يعني رزَقَهُ التوبة من خطيئتِهِ. والتوبةُ معناها الإنابةُ إلى الله، والأوبةُ إلى طاعته مما يَكرَهُ من معصيته.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾

وتأويل قوله: «إنه هو التواب الرحيم»، أن الله جلّ ثناؤه هو التواب على مَنْ تاب إليه ـ من عباده المذنبين ـ من ذنوبه، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيتهِ بما سَلَفَ من ذنبه. وقد ذكرنا أنَّ معنى التوبة من العبد إلى ربه، إنابتُه إلى طاعته، وأوْبَتُه إلى ما يُرضيه بتركهِ ما يَسْخَطه من الأمورِ التي كان عليها مُقيماً مما يكرهه ربه. فكذلك توبة الله على عبده، هو أنْ يرزقَهُ ذلك، ويؤوب له من غضبه عليه إلى الرِّضَا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه.

وأما قوله: «الرحيم»، فإنه يعني أنه المُتَفَضِّلُ عليه مع التوبة بالرحمة. ورحمته إياه، إقالةُ عَثْرته، وصفحه عن عقوبة جُرْمِه.

وقد ذكرنا القول في تأويل قوله: «قلنا اهبطوا منها جميعاً» فيما مضى، فلا حاجة بنا إلى إعادته، إذْ كان معناه في هذا الموضع، هو معناه في ذلك الموضع.

## القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾

وتأويل قوله: «فإما يأتينكم»، فإن يَأتكم. و«ما» التي مع «إن» توكيدٌ للكلام، ولدخولها مع «إن» أدخلت النون المشددة في «يأتينَّكم»، تفرقةً

بدخولها بين «ما» التي تأتي بمعنى توكيد الكلام - التي تُسَمِّيها أهل العربية صلةً وحَشواً - وبين «ما» التي تأتي بمعنى «الذي»، فتؤذِن بدخولها في الفعل، أنّ «ما» التي مع «إن» التي بمعنى الجزاء، توكيد، وليست «ما» التي بمعنى «الذي».

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾

والهدى، في هذا الموضع، البيان والرشاد.

وأقرب إلى الصواب منه عندي وأشبهُ بظاهر التلاوة، أن يكون تأويلها: فإما يأتينكم يا معشرَ مَنْ أُهبطَ إلى الأرضِ من سمائي، وهو آدمُ وزوجته وإبليس - كما قد ذكرنا قَبْلُ في تأويل الآية التي قبلها - إما يأتينكم مني بيانٌ من أمري وطاعتي، ورشادٌ إلى سبيلي وديني، فمن اتبعه منكم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وإنْ كان قد سَلَفَ منهم قبل ذلك إليَّ معصيةٌ وخلافٌ لأمري وطاعتي. يُعَرِّفهم بذلك جلّ ثناؤه أنه التائبُ على مَنْ تاب إليه من ذنوبه، والرحيمُ لمن أنابَ إليه، كما وصف نفسه بقوله: «إنه هو التوَّابُ الرحيم».

وذلك أنَّ ظاهرَ الخطابِ بذلك إنما هو للذين قال لهم جلّ ثناؤه: «اهبطوا منها جميعاً»، والذين خُوطِبُوا به هم مَنْ سَمَّيْنَا. وذلك، وإنْ كان خطاباً من الله جلّ ذكره لمن أُهبط حينئذٍ من السماء إلى الأرض، فهو سنَّةُ الله في جميع خَلْقِه، وتعريفٌ منه بذلك الذين أخبر عنهم في أول هذه السورة بما أخبر عنهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وفي قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، وأن حكمه فيهم - إنْ تابوا إليه وأنابوا واتبعوا ما

أتاهم من البيان من عند الله على لسان رسوله محمد ﷺ - أنهم عنده في الآخرة ممن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وأنهم إنْ هلكوا على كُفرهم وضلالتهم قبل الإنابة والتوبة، كانوا من أهل النارِ المخلَّدين فيها.

وقوله: «فمن تَبِعَ هُدَايَ»، يعني: فمن اتبع بَياني الذي آتيتُه على ألْسُنِ رُسُلي، أو مع رسلي.

وقوله: «فلا خوفٌ عليهم»، يعني فهم آمنون في أهوالِ القيامة من عقابِ الله، غير خائفين عذابه، بما أطاعوا الله في الدنيا واتبعوا أمره وهُداه وسبيله، ولا هم يحزنون يومئذ على ما خلَّفوا بعد وفاتهم في الدنيا.

وليس شيءٌ أعظمَ في صدر الذي يموتُ مِمَّا بعد الموت. فأمَّنهم منه وَسلاَّهم عن الدنيا فقال: «ولا هُمْ يحزنون».

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾

يعني: والذين جَحدوا آياتي وكذَّبُوا رسلي. وآيات الله: حُجَجه وأدلتُه على وحدانيَّتِه وربوبيَّتِه، وما جاءت به الرُّسُل من الأعلام والشواهد على ذلك، وعلى صِدْقِها فيما أنبأتْ عن ربِّها. وقد بَيَّنا أنَّ معنى الكفر، التغطيةُ على الشيء.

«أولئك أصحاب النار»، يعني: أهلُها الذين هم أهلها دون غيرهم، المُخَلَّدُونَ فيها أبداً إلى غير أمَدٍ ولا نهاية.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «يا بني إسرائيل» وَلَدِ يعقوبَ بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن وكان يعقوب يدعى «إسرائيل»، بمعنى عبدالله وصفوته من خلقه. و«إيل» هو الله، و«إسرا» هو العبد، كما قيل: «جبريل» بمعنى عبدالله.

وإنما خاطب الله جلّ ثناؤه بقوله: «يا بني إسرائيل» أحبارَ اليهود من بني إسرائيل، الذين كانوا بين ظَهرانَيْ مُهَاجَر رسول الله ﷺ، فنسبهم جلّ ذكره إلى يعقوب، كما نسب ذرية آدم إلى آدم، فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] وما أشبه ذلك. وإنما خصَّهم بالخطاب في هذه الآية والتي بعدها من الآي التي ذكَّرهم فيها نِعَمَهُ ـ وإنْ كان قد تَقدَّمَ ما أنزل فيهم وفي غيرهم في أول هذه السورة ما قد تقدم ـ أنَّ الذي احتج به من الحجج والآيات التي فيها أنباءُ أسلافهم، وأخبار أوائِلهم، وَقَصَصُ الأمورِ التي هُمْ بعِلْمِهَا مَخْصُوصونَ دون غيرهم من سائر الأمم، ليس عند غيرهم من العلم بصحته وحقيقته مثلُ الذي لهم من العلم به، إلا لمن اقتبسَ عِلْمَ ذلك منهم. فعرَّفهم بإطلاع محمد ﷺ على علمها ـ مع بُعْدِ قومهِ وعشيرته من معرفتها، وقِلَّةِ مزاولةِ محمدٍ ﷺ دِرَاسةَ الكتب التي فيها أنباءُ ذلك ـ أن محمداً ﷺ لم يَصِلْ إلى عِلْمِ ذلك إلا بوحيٍ من الله وتنزيلٍ منه ذلك إليه ـ لأنهم من عِلْم صحة ذلك بمحلّ ليس به من الأمم غيرهم، فلذلك جلّ ثناؤه خصّ بقوله: «يا بني إسرائيل» خطابَهم.

## القول في تأويل قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾

ونعمته التي أنعم بها على بني إسرائيل جَلَّ ذِكْرُه، اصطفاؤُه منهم الرُّسُلَ، وإنزاله عليهم الكُتُبَ، واستنقاذُه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضَّرَّاء من فرعونَ وقومِهِ، إلى التمكين لهم في الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعام المنِّ والسلوى. فأمر جلّ ثناؤه أعقابهم أن يكون ما سلف منه

إلى آبائهم على ذُكْرٍ[1]، وأن لا ينسوا صَنِيعَه إلى أسلافهم وآبائهم، فيحلّ بهم من النقم ما أحلّ بمن نَسِيَ نعمَهُ عنده منهم وكفرها، وجحد صنائعه عنده.

وتذكيرُ الله الذين ذكَّرهم جلّ ثناؤه بهذه الآية من نعمه على لسانِ رسولِهِ محمدٍ ﷺ، نظيرُ تذكيرِ موسى صلوات الله عليه أسلافَهم على عهده، الذي أخبر اللهُ عنه أنه قال لهم، وذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

قد تقدم بياننا فيما مضى - عن معنى العهد - من كتابنا هذا، والصوابُ عندنا من القولِ فيه. وهو في هذا الموضع: عهدُ اللهِ ووصيتهُ التي أخذَ على بني إسـرائيلَ في التوراة، أن يُبَيِّنُوا للناسِ أمرَ محمدٍ ﷺ أنه رسولٌ، وأنهم يَجِدُونَهُ مكتوباً عندهم في التوراة أنه نبيُّ الله، وأنْ يؤمنوا به وبما جاء به من عند الله.

«أُوفِ بعهدكم»: وعهدهُ إياهم أنهم إذا فعلوا ذلك أدْخَلهم الجنةَ، كما قال جَلَّ ثَنـاؤُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّـلاةَ وَآتَيْتُمُ الـزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]، وكمـا قال: ﴿فَسَـأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي

---

(١) أي: على تَذَكُّرٍ، كما في القاموس المحيط.

التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾

وتأويل قوله: «وإياي فارهبون»، وإياي فاخْشَوْا ـ واتَّقُوا أيها المُضَيِّعُونَ عَهْدِي من بني إسرائيل، والمُكَذِّبون رسولي الذي أخذتُ ميثاقكم ـ فيما أنزلتُ من الكتُب على أنبيائي ـ أن تُؤمنوا به وتَتَّبِعُوه ـ أنْ أُحِلّ بكمْ من عقوبتي، إنْ لم تُنِيبُوا وتتوبوا إليَّ باتباعه والإقرار بما أنزلتُ إليه، ما أحللتُ بِمَنْ خالفَ أمري وكذَّبَ رُسلي من أسلافكم.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «آمنوا»، صدِّقوا، كما قدمنا البيانَ عنه قَبْلُ. ويعني بقوله: «بما أنزلتُ»، ما أنزل على محمد ﷺ من القرآن. ويعني بقوله: «مصدِّقاً لما معكم»، أن القرآن مصدِّق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة. فأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم جَلَّ ثناؤه أنَّ في تصديقهم بالقرآن تصديقاً منهم للتوراة، لأنَّ الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه، نظيرُ الذي من ذلك في التوراة والإنجيل. ففي تصديقهم بما أنزل على محمدٍ تصديقٌ منهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيبٌ منهم لما معهم من التوراة.

وقوله: «مصدقاً»، قطع[1] من الهاء المتروكة في «أنزلته» من ذكر «ما» ومعنى الكلام: وآمنوا بالذي أنزلته مصدقاً لما معكم أيها اليهود، والذي معهم: هو التوراة والإنجيل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾

فإنْ قال لنا قائل: كيف قِيل: «ولا تكونوا أَوَّلَ كافرٍ به»، والخطابُ فيه لجميع، وقوله: «كافر» واحد؟ وهل نجيز ـ إن كان ذلك جائزاً ـ أن يقول قائل: «ولا تكونوا أول رجُلٍ قام»؟

قيل له: إنما يجوز توحيد ما أُضيفَ له «أفعل» وهو خبر لجميع، إذا كان اسماً مشتقاً من «فعل ويفعل»، لأنه يؤدِّي عن المرادِ معه المحذوف من الكلام وهو «مَنْ»، ويقوم مقامه في الأداء عن معنى ما كان يُؤدِي عنه «مَنْ» من الجمع والتأنيث، وهو في لفظ واحد. ألا ترى أنك تقول: ولا تكونوا أَوَّلَ مَنْ يكفر به. «فمن» بمعنى جميع، وهو غير متصرفٍ تصرفَ الأسماء للتثنية والجمع والتأنيث. فإذا أُقيم الاسمُ المشتق من «فعل ويفعل» مُقَامه، جرى وهو موحّد مجراه في الأداء عما كان يؤدي عنه «مَنْ» من معنى الجمع والتأنيث، كقولك: «الجيش مُنهزم»، و«الجند مقبلٌ»، فتوحِّد الفعلَ لتوحيد لفظ الجيش والجند. وغيرهم جائز أن يقال: «الجيش رجل، والجند غلام»، حتى تقول: «الجند غلمان والجيش رجال». لأنَّ الواحدَ من عدد الأسماء التي هي غير مشتقة من «فعل ويفعل»، لا يؤدّي عن معنى الجماعة منهم.

وأما تأويل ذلك، فإنه يعني به: يا معشرَ احبارِ أهل الكتاب، صدِّقوا بما

---

(١) قوله: «قطع»، أي حال. والطبري يكثر من هذا الاستعمال كما سيأتي.

أنزلتُ على رسولي محمد ﷺ من القرآنِ المصدِّق كتابَكم والذي عندكم من التوراة والإنجيل، المعهود إليكم فيهما أنه رسولي ونبيِّي المبعوثُ بالحق، ولا تكونوا أوَّلَ أمتكُمْ كذَّبَ به وجَحد أنه من عندي، وعندكم من العلمِ به ما ليسَ عند غيرِكم.

وكفرهم به: جُحودهم أنه من عند الله. والهاء التي في «به» من ذكر «ما» التي مع قوله «وآمنوا بما أنزلتُ».

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

(يعني): لا تبيعوا ما آتيتُكُم من العلم بكتابي وآياته بثمنٍ خسيسٍ وَعَرضٍ من الدنيا قليل. وبيعُهم إياه ـ تَرْكُهم إبانةَ ما في كتابهم من أمرِ محمدٍ ﷺ للناس، وأنه مكتوبٌ فيه أنه النبيُّ الأميُّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ـ بثمن قليل، وهو رِضاهم بالرياسة على أتباعم من أهل مِلَّتهم ودينهم، وأخذهم الأجرَ مِمَّنْ بَيَّنُوا له ذلك على ما بَيَّنُوا له منه.

وإنما قلنا بمعنى ذلك «لا تبيعوا»، لأنَّ مشتري الثمن القليل بآيات الله بائعُ الآياتِ بالثمن، فكلُّ واحدٍ من الثمن والمثمَّن مَبيع لصاحبه، وصاحبه به مشترٍ. فيكون حينئذ نهيُه عن أخْذِ الأجر على تَبْيِينهِ، هو النهي عن شراء الثمنِ القليل بآياته.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ۝٤١﴾

يقول: فاتقونِ ـ في بَيعكم آياتي بالخسيس من الثمن، وشرائكم بها القليلَ من العَرَض، وكفركم، بما أنزلتُ على رسولي وجحودكم نبوة نبيِّي ـ أنْ أُحِلَّ بكم ما أحللتُ بأسلافكم الذين سلكوا سبيلكم من المَثُلات والنَّقِمات.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾

يعني بقوله: «ولا تلبسُوا»، لا تخلطوا. واللَّبْس هو الخلط. يقال منه: لَبَست عليه هذا الأمر ألبِسهُ لبساً: إذا خلطته عليه.

فإن قال لنا قائل: وكيف كانوا يلبِسون الحَقَّ بالباطل وهم كفَّار؟ وأيُّ حَقٍّ كانوا عليه مع كفرهم بالله؟

قيل: إنه كان فيهم منافقون منهم يُظْهِرونَ التصديقَ بمحمدٍ ﷺ ويستبطنون الكفر به. وكان عُظْمُهم يقولون: محمد نبيٌّ مبعوث، إلا أنه مبعوثٌ إلى غيرنا. فكان لَبْسُ المنافق منهم الحقَّ بالباطل، إظهارَه الحقَّ بلسانه، وإقرارَه بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به جهاراً، وخلطه ذلك الظاهر من الحق بما يستبطنه. وكان لَبْسُ المقرّ منهم بأنه مبعوثٌ إلى غيرهم، الجاحدُ أنه مبعوث إليهم، إقرارَه بأنه مبعوثٌ إلى غيرهم، هو الحق، وجحودَه أنه مبعوثٌ إليهم، وهو الباطل، وقد بَعثه الله إلى الخلق كافة. فذلك خلطهم الحق بالباطل ولَبْسهم إياه به.

## القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

(يعني): ولا تخلطوا على الناس ـ أيها الأحبارُ من أهل الكتاب ـ في أمرِ محمدٍ ﷺ وما جاء به من عند ربه، وتزعموا أنه مبعوثٌ إلى بعض أجناس الأمم دون بعض، أو تُنَافِقُوا في أمره، وقد علمتم أنه مبعوثٌ إلى جميعِكم وجميعِ الأمم غيركم، فتخلطوا بذلك الصدقَ بالكذبِ، وتكتموا به ما تجدونه في كتابِكم من نعتهِ وصفتهِ، وأنه رسولي إلى الناسِ كافةً، وأنتم تعلمون أنه رسولي، وأنَّ ما جاء به إليكم فمن عندي، وتعرفون أن من عهدي ـ الذي

أخذتُ عليكم في كتابِكم - الإيمانَ به وبما جاءَ به والتصديقَ به.

القـول في تأويل قولـه تعـالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

ذُكِر أنَّ أحبارَ اليهود والمنافقين كانوا يأمرون الناسَ بإقامِ الصلاةِ وإيتاء الزكاة ولا يفعلونه، فأمرهم الله بإقام الصلاة مع المسلمين المصدِّقين بمحمدٍ وبما جاء به، وإيتاءِ زكاةِ أموالهم معهم، وأن يخضعوا لله ولرسوله كما خضعوا.

وقد بَيَّنا معنى إقامةِ الصلاة فيما مضى من كتابنا هذا، فكرهنا إعادته. أما إيتاءُ الزكاة، فهو أداءُ الصدقةِ المفروضة. وأصل الزَّكاة، نماءُ المال وتثميرهُ وزيادتهُ ومن ذلك قيل: زكا الزَّرْعُ، إذا كثر ما أخرج الله منه. وزَكتِ النَّفقةُ، إذا كثرْت. وقيل زكا الفَرْدُ، إذا صارَ زَوْجاً بزيادة الزائد عليه حتى صار به شَفْعاً.

وإنما قيل للزكاة زكاة، وهي مال يخرجُ من مالٍ، لتثميرِ الله - بإخراجها مما أخرجت منه - ما بقي عند ربِّ المال من مالهِ. وقد يحتمل أن تكون سُمِّيت زكاة، لأنها تطهيرٌ لما بقيَ من مالِ الرجل، وتخليصٌ له من أن تكون فيه مَظْلمةٌ لأهلِ السُّهْمان[1]، كما قال جلّ ثناؤه مخبراً عن نبيه موسى صلوات الله عليه: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤]، يعني بريئةً من الذنوبِ طاهرة. وكما يقال للرجل: هو عدل زَكِيٌّ - لذلك المعنى. وهذا الوجه أعجبُ إليَّ - في تأويلِ زكاة المال - من الوجه الأول، وإنْ كان الأول مقبولاً في تأويلها.

وإيتاؤها: إعطاؤُها أهلها.

---

(١) السهمان جمع سهم، كالسهام: وهو النصيب والحظ.

وأما تأويل الرُّكوع، فهو الخضوعُ لله بالطاعة. يقال منه: ركع فلانٌ لكذا وكذا، إذا خضع له.

وهذا أمرٌ من الله جلّ ثناؤه ـ لمن ذكر من أحبار بني إسرائيل ومنافقيها ـ بالإنابةِ والتوبةِ إليه، وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والدخول مع المسلمين في الإسلام، والخضوع له بالطاعة؛ ونهيٌ منه لهم عن كتمانِ ما قد علموه من نبوةِ محمدٍ ﷺ، بعد تظاهر حججه عليهم، بما قد وصفنا قَبْلُ فيما مضى من كتابنا هذا، وبعد الإعذارِ إليهم والإنذارِ، وبعد تذكيرهم نِعَمَهُ إليهم وإلى أسلافهم تعطُّفاً منه بذلك عليهم، وإبلاغاً في المعذرة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾

التأويلُ الذي يدلُّ على صحته ظاهرُ التلاوة: أتأمرونَ الناسَ بطاعةِ الله وتتركون أنفسكم تعصيه؟ فَهَلَّا تأمرونَها بما تأمرون به الناسَ من طاعةِ ربكم؟ مُعيِّرَهُم بذلك، ومُقَبِّحاً لهم قبيحَ ما أتوا به.

ومعنى «نِسْيانهم أنفسَهم» في هذا الموضع، نَظيرُ «النسيان» الذي قال جلّ ثناؤه ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] بمعنى: تركوا طاعةَ الله، فتركهم الله من ثوابه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾

يعني بقوله: «تتلون» تدرسون وتقرأون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يعني بقـوله: «أفلا تعقلون»، أفلا تَفْقَهُونَ وتفهمون قُبْحَ ما تأتون من معصيتكم ربَّكم التي تأمـرون النـاس بخـلافهـا، وتَنهوْنَهُم عن رُكوبها وأنتم راكبُوها، وأنتم تعلمون أنَّ الذي عليكم من حَقِّ الله وطاعته، واتباعِ محمدٍ والإيمان به وبما جاء به، مثل الذِي على مَنْ تأمرونه باتباعه؟ وهذا يدلُّ على صحة ما قلنا، من أمرِ أحبارِ يهود بني إسرائيل غيرَهم باتِّباعِ محمد ﷺ، وأنهم كانوا يقولون: هو مبعوثٌ إلى غيرنا! كما ذكر قبل.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «واستعينوا بالصبر»، استعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهَدْتُموني في كتابكم ـ من طاعتي واتباعِ أمري، وترك ما تَهوَوْنَهُ من الرياسةِ وحُبِّ الدنيا، إلى ما تكرهونه من التسليمِ لأمرِي واتباعِ رسولي محمد ﷺ ـ بالصبرِ عليه والصلاة.

وقد قيل: إنَّ معنى «الصبر» في هذا الموضع الصّوم، و«الصومُ» بعض معاني «الصبر». وتأويل مَنْ تأوَّل ذلك عندنا: أن الله تعالى ذِكْرُه أمرهم بالصبر على كُلِّ ما كرهته نفوسُهم من طاعة اللهِ، وتَرْكِ معاصيه. وأصلُ «الصبر»: منعُ النفس مَحَابَّها، وكفُّها عن هواها، ولذلك قيل للصابر على المصيبة: «صابرٌ»، لكفِّهِ نَفْسَهُ عن الجزع. وقيل لشهر رمضان «شهر الصَّبر»، لصبر صائميهِ عن المطاعم والمشارب نهاراً، وصبرُه إياهُم عن ذلك، حَبْسُه لهم وكفُّه إياهم عنه، كما تصبر الرجلَ المُسِيءَ للقتلِ فتحبسهُ عليه حتى تقتله. ولذلك قيل: «قَتَلَ فلانٌ فلاناً صَبْراً»، يعني به: حبسه عليه حتى قتله، فالمقتول «مصبور» والقاتلُ «صابر».

وأما «الصلاة»، فقد ذكرنا معناها فيما مضى.

فإنْ قال لنا قائل: قد عَلِمْنَا معنى الأمر بالاستعانةِ بالصبر على الوفاء بالعهد والمحافظة على الطاعة، فما معنى الأمر بالاستعانة بالصلاة على طاعة الله وترك معاصيه، والتعرِّي عن الرياسة وترك الدنيا؟

قيل: إن الصلاة فيها تلاوة كتابِ الله الداعيةِ آياتُه إلى رفضِ الدنيا وهَجْرِ نعيمها، المسليةِ النفوسَ عن زينتها وغُرورها، المذكِّرةِ الآخرةَ وما أعدَّ الله فيها لأهلها، ففي الاعتبار بها المعونةُ لأهلِ طاعة الله على الجدِّ فيها، كما روي عن نبيِّنا ﷺ أنه كان إذا حَزَبهُ أمر فَزِع إلى الصلاة[1].

فأمر اللهُ جَلَّ ثناؤه الذين وصف أمْرَهُم من أحبارِ بني إسرائيل، أنْ يجعلوا مفزَعهم ـ في الوفاء بعهدِ الله الذي عاهدوه ـ إلى الاستعانةِ بالصبر والصلاة، كما أمر نبيه محمداً ﷺ فقال له: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. فأمره جلّ ثناؤه في نوائبِهِ بالفزَعِ إلى الصبرِ والصلاة.

### القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾

يعني بقـولـه جلّ ثناؤه: «وإنها»، وإنَّ الصلاةَ. فـ«الهاء والألف» في «وإنها» عائدتانِ على الصلاةِ. وقد قال بعضهم: إن قوله: «إنها» بمعنى: إنَّ إجابةَ محمد ﷺ. ولم يَجْرِ لذلك بلفظ الإجابة ذِكْرٌ، فتجعل «الهاء والألف» كناية عنه. وغيرُ جائزٍ تركُ الظاهرِ المفهوم من الكلام، إلى باطنٍ لا دلالةَ على صحته.

ويعني بقوله: «لكبيرةٌ»، لشديدةٌ ثقيلة.

---

(١) مسند أحمد ٣٨٨/٥، وأبو داود (١٣١٩)، وهو صحيح.

ويعني بقوله: «إلّا على الخاشعين»، إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطواتِه، المُصدِّقينَ بوعدهِ ووعيده.

وأصل «الخشوع»: التواضعُ والتذلل والاستكانة.

فمعنى الآية: واستعينوا، أيها الأحبارُ من أهل الكتاب، بِحَبْسِ أنفسكم على طاعةِ الله، وكَفِّها عن معاصي الله، وبإقامةِ الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقرِّبَة من مَراضي الله، العظيمةِ إقامتُها إلا على المتواضعين لله، المستكينين لطاعته، المتذللين من مخافته.

## القول في تأويل قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾

إنْ قال لنا قائل: وكيف أخبر اللهُ جَلَّ ثناؤه عَمَّنْ قد وَصَفه بالخشوع له بالطاعة، أنه «يظن» أنه مُلاقِيه، والظنُّ شَكٌّ، والشاك في لقاءِ الله عندك بالله كافر؟

قيل له: إنَّ العربَ قد تُسمي اليقينَ «ظناً»، والشك «ظناً»، نظيرَ تسميتهم الظُّلمة «سُدْفَة»، والضياء «سُدْفَة»؛ والمغيث «صَارخاً»، والمستغيث «صارخاً»، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تسمي بها الشيءَ وضدَّه. ومنه قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

## القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾

إنْ قال لنا قائل: وكيف قيل إنهم مُلَاقُو رَبِّهم، فأضيف «الملاقون» إلى الرب تبارك وتعالى، وقد علمتَ أنَّ معناه: الذين يظنون أنهم يَلْقَوْنَ ربهم؟ وإذْ كان المعنى كذلك، فمن كلام العربِ ترك الإضافة وإثبات النون، وإنما تُسقط النونَ وتضيف، في الأسماء المبنية من الأفعال، إذا كانت بمعنى «فعل»، فأما

إذا كانت بمعنى «يفعل وفاعل»، فشأنها إثبات النون وترك الإضافة.

قيل: لا تدافع بين جميعِ أهلِ المعرفة بلغاتِ العرب وألْسُنِهَا، في إجازةِ إضافةِ الاسم المبني من «فعل ويفعل» وإسقاط النون، وهو بمعنى «يفعل وفاعل»، أعني بمعنى الاستقبال وحالِ الفعلِ ولما يَنْقض. فلا وجه لمسألة السائل عن ذلك: لِمَ قيلَ؟

فتأويل الآية إذاً: واستعينوا على الوفاءِ بعهدي بالصبرِ عليه والصلاة، وإنَّ الصلاة لكبيرةٌ إلا على الخائفين عقابي، المتواضعينَ لأمري، الموقنينَ بلقائي والرجوع إليَّ بعد مماتهم.

وإنما أخبر الله جلّ ثناؤه أنَّ الصلاة كبيرةٌ إلا على مَنْ هذه صفتهُ، لأن مَنْ كان غيرَ مُوقنٍ بمعادٍ، ولا مصدِّقٍ بمرجعٍ ولا ثواب ولا عقاب، فالصلاةُ عنده عَنَاءٌ وضلال، لأنه لا يرجو بإقامتها إدراكَ نفعٍ ولا دفعَ ضُرٍّ. وحُقَّ لِمَنْ كانت هذه الصفةُ صفته أنْ تكون الصلاةُ عليه كبيرةً، وإقامتها عليه ثقيلة وله فادحة.

وإنما خَفَّتْ على المؤمنين المصدِّقين بلقاء الله، الراجينَ عليها جزيلَ ثوابِهِ، الخائفين بتضييعها أليمَ عقابِهِ، لِمَا يرجون بإقامتها في مَعادهم من الوصولِ إلى ما وَعَدَ اللهُ عليها أهلها، ولما يحذرون بتضييعها ما أوعد مُضيعَها. فأمر الله جَلَّ ثناؤه أحبارَ بني إسرائيل الذين خاطبهم بهذه الآيات، أنْ يكونوا من مُقيمِيها الراجينَ ثوابَها، إذا كانوا أهلَ يقينٍ بأنهم إلى الله راجعون، وإياه في القيامة مُلاقون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ٤٦﴾

و«الهاء والميم» اللتان في قوله: «وأنهم»، من ذكر الخاشعين، و«الهاء» في «إليه»، من ذكر الرب تعالى ذكره في قوله: «مُلَاقو ربهم».

فتأويل الكلمة، وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين الموقنين أنهم إلى رَبهم راجعون.

يعني: يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة. لأنَّ الله تعالى ذكره قال في الآية التي قبلها: «كيفَ تكفرونَ بالله وكنتمْ أمواتاً فأحياكمْ ثم يُميتكم ثم يُحييكم ثم إليه تُرجعون». فأخبر جلّ ثناؤه أنَّ مَرْجِعَهم إليه بعد نَشرهم وإحيائهم من مماتهم، وذلك لاشك يوم القيامة. فكذلك تأويل قوله: «وأنهم إليه راجعون».

القول في تأويل قوله تعالى ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾

وتأويل ذلك في هذه الآية، نظيرُ تأويله في التي قبلها في قوله: «اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأوفوا بعهدي». وقد ذكرته هنالك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٤٧﴾

وهذا أيضاً مما ذَكَّرهم جَلَّ ثناؤه من آلائهِ ونِعَمِهِ عندهم. ويعني بقوله: «وأني فَضَّلتكم على العالمين»، أنِّي فضلتُ أسلافكم، فنسب نِعمَه على آبائهم وأسلافهم، إلى أنها نِعَمٌ منه عليهم، إذ كانت مآثر الآباء مآثرَ للأبناء، والنعم عند الآباء نعماً عند الأبناء، لكونِ الأبناء من الآباء. وأخرج جَلَّ ذِكْرُه قوله: «وأني فضلتكم على العالمين» مُخرَجَ العُمومِ، وهو يريد به خُصوصاً، لأن المعنى: وأني فضلتكم على عَالَمِ مَنْ كنتم بين ظَهريه وفي زمانه.

وقد أتينا على بيانِ تأويلِ قوله: «العالمين» بما فيه الكفايةُ في غير هذا الموضع، فأغنى ذلك عن إعادتهِ.

البقرة: ٤٨

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾

يعني: واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً. وجائزٌ أيضاً أن يكون تأويله، واتقوا يوماً لا تَجْزِيه نفسٌ عن نفس شيئاً، فَحُذِفَت «الهاء» الراجعةُ على اليوم، إذ فيه اجتزاء - بما ظهر من قوله: «واتقوا يوماً لا تجزي نفس»، الدال على المحذوف منه - عما حذف. إذ كان معلوماً معناه.

وقد زعم قومٌ من أهل العربية أنه لا يجوز أن يكون المحذوف في هذا الموضع إلا «الهاء». وقال آخرون لا يجوز أن يكون المحذوف إلا «فيه». وقد دللنا فيما مضى على جواز حذف كل ما دلّ الظاهر عليه.

وأما المعنى في قوله: «واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفس شيئاً»، فإنه تحذيرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عبادَه الذين خاطبهم بهذه الآية - عقوبتَهُ أنْ تحلَّ بهم يوم القيامة، وهو اليوم الذي لا تجزي فيه نفسٌ عن نفس شيئاً، ولا يَجْزي فيه والدٌ عن وَلده ولا مولود هُو جازٍ عن وَالده شيئاً.

وأما تأويل قوله: «لا تَجْزي نفسٌ»، فإنه يعني: لا تُغني.

وأصل «الجزاء» - في كلام العرب -: القضاء والتعويض. يقال: «جَزيته قَرْضَه ودَيْنَهُ أجزيه جَزاءً»، بمعنى قضيته دَيْنَهُ. ومن ذلك قيل: «جزى الله فلاناً عَنِّي خيراً أو شراً»، بمعنى أثابه عَني، وقَضاهُ عَنِّي ما لزمني له بفعله الذي سلف منه إليَّ. وقد قال قوم من أهل العلم بلغة العرب: «يقال أجزيتُ عنه كذا» إذا أعَنْتُهُ عليه، و«جَزَيت عَنك فلاناً» إذا كافأته.

فمعنى الكلام إذاً: واتقوا يَوْماً لا تقضي نَفْسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا تُغني عنها غِنى.

فإن قال لنا قائل: وما معنى: لا تقضي نفسٌ عن نفس ولا تُغني عنها غِنى؟

قيل: هو أنَّ أحدنا اليوم ربَّما قضى عن ولَدِه أو والدِه أوْ ذِي الصداقة والقرابة ـ دَيْنهُ. وأما في الآخرة فإنه ـ فيما أتَتْنَا به الأخبارُ عنها ـ يَسُرُّ الرجلَ أن يَبْرُدَ[1] لهُ على وَلده أو والده حَقٌّ. وذلك أن قضاء الحقوق في القيامة من الحسنات والسيئات، فقوله جلّ ثناؤه: «لا تجزي نفس عن نفس شيئاً». يعني: أنها لا تقضي عنها شيئاً لزمها لغيرها، لأنَّ القضاءَ هنالك من الحسنات والسيئات على ما وصفنا. وكيف يقضي عن غيره ما لَزِمَهُ، مَنْ كان يسرُّهُ أن يَثْبُتَ له على وَلده أو والده حق، فيؤخذَ منه ولا يُتجافى له عنه؟

## القول في تأويل قوله عزّ وجل: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾

و«الشفاعة» مَصْدَرٌ من قولِ الرجل: «شَفع لي فلانٌ إلى فلان شَفاعة»، وهو طلبه إليه في قضاء حاجته. وإنما قيل للشفيع «شَفيعٌ وشافع»، لأنه ثنَّى المستشفعَ به فصار به شَفعاً، فكان ذو الحاجة ـ قبل استشفاعهِ به في حاجته ـ فَرداً، فصار صَاحبُه له فيها شافعاً، وطلبُه فيه وفي حاجته شَفاعة. ولذلك سُمي الشفيعُ في الدارِ وفي الأرضِ «شفيعاً»، لمصيرِ البائع به شفعاً.

فتأويل الآية إذاً: واتقوا يوم لا تقضي نفس عن نَفس حَقاً لَزِمَها للهِ جَلَّ ثناؤه ولا لغيره، ولا يَقبلُ الله منها شفاعةَ شافعٍ، فيترك لها ما لزمها من حقّ.

وقيل: إن الله عزّ وجل خاطب أهلَ هذه الآية بما خاطبهم به فيها، لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل، وكانوا يقولون: نحنُ أبناءُ الله وأحبَّاؤه وأولاد أنبيائه، وسيشفعُ لنا عنده آباؤنا. فأخبرهم الله جَلَّ وعز أنَّ نفساً لا تجزي عن نفسٍ شيئاً في القيامة، ولا يُقبل منها شفاعةُ أحدٍ فيها، حتى يُستَوفَى لكلِّ ذي حَقٍّ منها حقه.

---

(١) برد عليه حق: وجب ولزم. وبرد لي عليه كذا وكذا: أي ثبت. ويقال: لي عليه ألف بارد، أي ثابت.

فآيَسَهُم جَلَّ ثناؤه مما كانوا أطْمَعُوا فيه أنفسَهم، من النجاةِ من عذابِ الله - مع تكذيبهم بما عرفوا من الحق، وخلافِهم أمرَ الله في اتباع محمدٍ ﷺ وما جاءهم به من عنده - بشفاعةِ آبائهم وغيرهم من الناس كلهم؛ وأخبرهم أنه غيرُ نافعهم عنده إلا التوبة إليه من كفرهم، والإنابة من ضلالهم. وجعَل ما سنَّ فيهم من ذلك إماماً لكل مَنْ كان على مِثل مِنهاجهم، لئلا يطمعَ ذو إلحادٍ في رحمته.

وهذه الآية، وإنْ كان مَخرجها عاماً في التلاوة، فإنَّ المرادَ بها خاصٌ في التأويل، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمَّتي»[1] وأنه قال: «ليس منْ نبيٍّ إلا وقد أُعْطيَ دَعْوةً، وإنِّي اختبأتُ دَعوتي شفاعةً لأمَّتي، وهي نائلةٌ إنْ شاء الله منهم مَنْ لا يشرك بالله شيئاً»[2]. فقد تبين

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي (٢٤٣٥) من حديث ثابت عن أنس ورجاله رجال مسلم، وأخرجه أحمد ٣/٢١٣، وأبو داود (٤٧٣٩) من حديث أشعث الحدَّانيّ عن أنس، ورجاله ثقات غير أشعث هذا، فقد وثقه النسائي ويحيى بن معين، وتكلم فيه العقيلي فقال: «في حديثه وهم» وغَلَّطه الذهبي في الميزان فقال: «قول العقيلي في حديثه وهم، ليس بمسلم إليه، وأنا أتعجبُ كيف لم يخرج له البخاري ومسلم!» «تهذيب الكمال ٣/ الترجمة ٥٢٧»، وفي الباب عن جابر، أخرجه الترمذي (٢٤٣٦) بسند فيه محمد بن ثابت البناني وهو ضعيف.

(٢) أصله في الصحيحين فقد أخرجه البخاري ٨/٨٢ و٩/١٧٠، ومسلم (١٩٨) من حديث أبي هريرة بلفظ «لكل نبي دعوة فأُريد إن شاءَ الله أنْ اختبىءَ دعوتي شفاعةً لأُمتي يوم القيامة»، وأخرجه مسلم من حديث أنس أيضاً (٢٠٠)، وهو بهذا اللفظ في معظم دواوين الإسلام. وزيادة «وهي نائلةٌ إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئاً» أخرجها مسلم (١٩٩) من حديث أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة. وأخرجها الترمذي (٣٦٠٢) عن أبي كريب، به، وابن ماجة (٤٣٠٧) عن أبي بكر بن أبي شيبة به، وقال الترمذي: حسن صحيح. =

بذلك أن الله جلّ ثناؤه قد يَصفح لعباده المؤمنين ـ شفاعة نبينا محمد ﷺ لهم ـ عن كثير من عُقوبة إجرامهم بينهم وبينه، وأن قولَه: «ولا يُقبل منها شفاعةٌ»، إنمـا هي لمن مات على كفـره غيرَ تائبٍ إلى الله عزّ وجل. وليس هذا من مواضعِ الإطالةِ في القولِ في الشفاعة والوعد والوعيد، فنستقصي الحِجاجَ في ذلك. وسنأتي على ما فيه الكفاية في مواضعه إنْ شاء الله.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾

و«العَدْلُ» ـ في كلام العرب؛ بفتح العين ـ الفِدْية.

وإنما قيل للفدية من الشيء والبدَلِ منه: «عَدلٌ»، لمعادلته إياه وهو من غير جنسه، ومَصيره له مثلاً، من وَجه الجزاء، لا من وجه المُشابَهة في الصورة والخِلْقةِ، كما قالَ جلّ ثناؤه: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [الآنعام: ٧٠]، بمعنى: وإن تَفد كلَّ فديةٍ لا يؤخذ منها.

يقال منه: « هذا عَدْله وعَديله». وأما «العِدل» ـ بكسر العين ـ فهو مثل الحِمْلِ المحمولِ على الظهر. يقال من ذلك: «عندي غلام عِدْل غلامك، وشاة عِدْل شاتك» ـ بكسر العين ـ إذا كان غلامٌ يعدلُ غلاماً، وشاة تعدل شاة. وكذلك ذلك في كل مِثْلٍ للشيءِ من جِنْسِه. فإذا أُريدَ أنَّ عنده قيمته من غير جنسه، نُصبت العين، فقيل: «عِندي عَدل شَاتِكَ من الدراهم». وقد ذُكِرَ عن

= وفي هذا الحديث بيان فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء حيث آثر أمته على نفسه وأهل بيته بدعوته المجابة ولم يجعلها أيضاً دعاءً عليهم بالهلاك كما وقع لغيره ممن تقـدم. ومن صحـة نظره ﷺ أنه جعلها للمذنبين من أمته لكونهم أحوج إليها من الطائعين. وأما قوله ﷺ: «فهي نائلة» ففيه دليل لأهل السنة والجماعة أن من مات غير مشرك لا يخلد في النار ولو مات مصراً على الكبائر (وانظر فتح الباري: ٨١/١١).

بعض العربِ أنه يكسر العين من «العدل» الذي هو بمعنى الفِدية، لمعادلة ما عادَله من جهة الجزاء، وذلك لتقارب معنى العَدل والعِدْل عندهم. فأما وَاحد «الأعدال»، فلم يسمع فيه إلا «عِدل» بكسر العين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾

وتأويل قوله: «ولا هُم يُنصرون»، يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يَشفعُ لهم شافع، ولا يُقبل منهم عَدْلٌ ولا فدية. بَطلت هنالك المُحاباة، واضمحلت الرُّشَى والشفاعات، وارتفع بين القوم التعاونُ والتناصر، وصار الحُكم إلى العَدل الجبار الذي لا ينفعُ لديه الشُّفعاء والنُّصراء، فيجزي بالسيئة مِثْلَها وبالحسنةِ أضعافَها، وذلك نظير قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْؤُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٦].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾

أما تأويل قوله: «وإذ نَجَّيْناكم»، فإنه عطف على قوله: «يا بني إسرائيلَ اذكرُوا نِعْمتي». فكأنه قال: اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم، واذكروا إنعامَنا عليكم - إذ نَجيناكم من آل فرعون - بإنْجائِنَاكُم منهم.

وأما «آل فرعون»، فإنهم أهلُ دينه وقومُه وأشياعُه.

وأصل «آل» أهل، أبْدِلت الهاء همزة، كما قالوا «ماءٌ» فأبدلوا الهاء همزة، فإذا صغَّروه قالوا: «مُوَيْهٌ» فردوا الهاء في التصغير. وأخرجوه على أصله. وكذلك إذا صغَّروا «آل»، قالوا «أُهَيْل». وقد حكي سماعاً من العرب في تَصْغير «آل» «أويل». وقد قيل: «فلان من آل النساء»، يراد به أنه منهن خُلِقَ. ويقال ذلك أيضاً بمعنى أنه يريدُهنَّ وَيهواهنَّ.

وأحسن أماكن «آل» أن يُنطق به مع الأسماء المشهورة، مثلُ قولهم: آل النبي محمد ﷺ، وآل علي، وآل عباس، وآلُ عَقِيل. وغيرُ مستحسن استعمالُه مع المجهول وفي أسماء الأَرَضين وما أشبه ذلك. غيرُ حسن عند أهل العلم بلسان العرب أن يقال: رأيتُ آلَ الرجل ورآني آل المرأة ـ ولا ـ: رأيت آل البصرة وآل الكوفة. وقد ذكر عن بعض العرب سَماعاً أنها تقول: «رأيتُ آل مكة، وَآل المدينة». وليس ذلك في كلامهم بالفاشي المستعمل.

وأما «فرعون» فإنه يقال إنه اسمٌ كانت مُلوك العمالِقة بمصر تُسَمَّى به، كما كانت مُلوك الروم يُسَمَّى بعضهم «قيصر»، وبعضهم «هِرَقْل»، وكما كانت ملوك فارس تسمَّى «الأكاسرَة» واحدهم «كسرى»، وملوك اليمن تسمى «التبابعة» واحدهم «تُبَّع».

وإنما جاز أنْ يُقالَ: «وإذْ نَجَّيناكم من آلِ فرعون»، والخطابُ به لِمَنْ لم يدرك فرعونَ ولا المنجَّين منه، لأن المخاطبين بذلك كانوا أبناءَ من نَجَّاهم من فرعون وقومه، فأضافَ ما كان من نعمه على آبائهم إليهم، وكذلك ما كانَ من كُفران آبائهم على وجه الإضافة، كما يقول القائلُ لآخر: «فعلنا بكم كذا وفعلنا بكم كذا، وقتلناكم وسَبَيْنَاكم»، والمخبِر إما أن يكون يعني قومه وعشيرته بذلك، أو أهل بلده ووطنه ـ كانَ المقولُ له ذلك أدرك ما فُعِلَ بهم من ذلك أو لم يدركه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾

وفي قوله: «يسومونكم» وجهان من التأويل:

**أحدهما**: أن يكون خَبراً مستأنفاً عن فِعل فرعونَ ببني إسرائيل، فيكونَ معناه حينئذ: واذكروا نعمتي عليكم إذ نجَّيتُكم من آل فرعون، وكانوا من قَبْلُ يسومونكم سُوء العذاب. وإذ كان ذلك تأويله، كان موضع «يسومونكم» رفعاً.

**والوجه الثاني**: أن يكون يسومونكم حالاً، فيكون تأويله حينئذ: وإذْ نجَّيناكم. من آل فرعون سائميكم سُوءَ العذاب، فيكون حالاً من آل فرعون.

وأما تأويل قوله: «يسومونكم» فإنه: يُورِدُونَكُم، ويُذِيقُونكم، ويُولونكم. يقال منه: «سامَهُ خُطةَ ضَيم»، إذا أولاه ذلك وأذاقَه.

فأما تأويل قوله: «سُوء العذاب»، فإنه يعني ما سَاءَهم من العذاب. وقد قال بعضهم: أشدّ العذاب. ولو كان ذلك معناه لقيل: أسوأ العذاب.

فإن قال لنا قائل: وما ذلك العذابُ الذي كانوا يُسومُونهم، الذي كان يسوؤهم؟

قيل: هو ما وصفه الله تعالى في كتابه فقال: «يُذبِّحون أبناءكم وَيستحيُون نساءَكم».

القول في تأويل قوله تعالى: **يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ**

وأضاف اللهُ جَلَّ ثناؤه ما كان من فِعْلِ آلِ فرعون ببني إسرائيل - منْ سَوْمهم إياهم سُوءَ العذاب، وذَبْحِهم أبناءَهم، واستحيائهم نساءَهم - إليهم، دون فرعون - وإنْ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك كانَ بقوَّةِ فرعون، وعن أمرهِ - لمباشرتهم ذلك بأنفسهم. فبيِّنٌ بذلك أنَّ كُلَّ مباشرٍ قَتْلَ نفسٍ أو تعذيبَ حَيٍّ بنفسه، وإنْ كانَ عن أمْرِ غيره، ففاعله المتولِّي ذلك هو المستحقُّ إضافة ذلك إليه، وإن كان الآمرُ قاهراً الفاعلَ المأمورَ بذلك - سلطاناً كان الآمرُ، أو لصاً خارباً[1]، أو مُتَغلِّباً فاجراً. كما أضاف جلّ ثناؤه ذَبْحَ أبناء بني إسرائيل واستحياءَ نسائِهم، إلى آلِ فرعونَ دون فرعون، وإنْ كانوا بِقُوَّةِ فرعونَ وأمرِه إياهم بذلك،

(١) الخارب: اللص الشديد الفساد.

فَعَلُوا ما فعلوا، مَعَ غَلَبَتِهِ إياهم وقهره لهم. فكذلك كل قاتلٍ نَفساً بأمرِ غيره ظلماً، فهو المقتولُ عندنا به قِصَاصاً، وإنْ كان قَتله إيّاها بإكراهِ غيرِهِ له على قتله.

وأما تأويلُ ذَبْحِهم أبناء بني إسرائيل واستحيائِهم نساءَهُم فمعناه: ذَبْحُ آل فرعون الصِّبيانَ وتَرْكهم من القتل الصَّبايا. وإنما قيل: «ويَستحيون نساءَكم»، إذْ كان الصَّبايا داخلات مع أمهاتهن ـ وأمهاتهن لا شَك نساء ـ في الاستحياء، لأنهم لم يكونُوا يقتلونَ صغارَ النساء ولا كبارَهن، فقيل: «ويستحيون نساءكم»، يعني بذلك الوالداتِ والمولودات، كما يقال: «قد أقبلَ الرجال»، وإنْ كان فيهم صبيان. فكذلك قوله: «ويستحيون نساءكم». وأما من الذكور، فإنه لَمَّا لم يَكُنْ يُذْبَحُ إلا المولودون، قيل: «يُذبحُونَ أبناءكم»، ولم يقل: يذبحون رجالكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

أما قوله: «وفي ذلكُم بَلاءٌ من رَبكم عَظيمٌ» فإنه يعني: وفي الذي فعلنا بكم، من إنْجَائِنَاكُم ـ مما كُنْتُمْ فيه من عذابِ آلِ فرعون إياكم، على ما وصفتُ ـ بلاءٌ لكم من ربِّكم عظيم.

ويعني بقوله «بلاء»: نعمةٌ.

وأصلُ «البَلاء» ـ في كلامِ العربِ ـ الاختبارُ والامتحان، ثم يُستعملُ في الخيرِ والشر. لأنَّ الامتحان والاختبارَ قد يكون بالخير كما يكون بالشر، كما قال ربُّنا جلّ ثناؤه: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، يقول: اختبرناهم، وكما قال جلّ ذكره: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ثم تسمِّي العربُ الخيرَ «بلاءً» والشر «بلاءً». غيرَ

أنَّ الأكثرَ في الشرِّ أنْ يُقال: «بَلَوْتُه أبلوه بَلاءً»، وفي الخير: «أبليْتُه أُبْلِيه إبلاءً وبلاءً».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾

أما تأويل قوله: «وإذْ فرقنا بكم»، فإنه عطفٌ على «وإذْ نجَّيْناكم»، بمعنى: واذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم، واذكروا إذْ نجَّيناكم من آلِ فرعونَ، وإذْ فرَقنا بكمُ البحرَ.

ومعنى قوله: «فَرَقنا بكم»، فَصلنا بكم البحر. لأنهم كانوا اثنَيْ عشر سِبْطاً؛ ففرَقَ البحر اثني عشر طريقاً، فَسَلَكَ كُلُّ سِبْطٍ منهم طريقاً منها. فذلك فَرْقُ اللهِ بهم عزّ وجل البحرَ وفصلُه بهم، بتفريقِهم في طُرقه الاثني عشر.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾

ويعني بقوله: «وأنتم تنظرون»، أي تنظرون إلى فَرْقِ الله لكم البحرَ وإهلاكهِ آلَ فرعون في الموضع الذي نَجَّاكم فيه، وإلى عظيم سلطانه - في الذي أرَاكُم من طاعةِ البحرِ إياهُ، من مصيرهِ رُكاماً فِلَقاً[1] كهيئة الأطوادِ الشامخة، غير زائل عن حَدِّهِ، انقياداً لأمرِ الله وإذعاناً لطاعته، وهو سَائلٌ ذائبٌ قبل ذلك.

يُوقِفُهم بذلك جَلّ ذِكْرُه على موضعِ حُجَجِه عليهم، ويُذَكِّرُهم آلاءَه عند

(١) ركام: مجتمع بعضه فوق بعض والفِلَق جمع فِلْقَة، وهي: الشق.

أوائلهم، ويُحَذِّرُهم ـ في تكذيبهم نَبِيَّنا محمداً ﷺ ـ أنْ يحلَّ بهم ما حلَّ بفرعونَ وآله، في تكذيبهم موسى ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأ بعضهم: «وَاعَدْنا» بمعنى أن الله تعالى واعد موسى مُوافاة الطور لمناجاته، فكانت المواعدةُ من الله لموسى، ومن موسى لربه. وكان من حجتهم على اختيارهم قراءة «واعَدْنا» على «وَعَدْنا» أنْ قالوا: كُلُّ اتِّعادٍ كان بين اثنين للالتقاء والاجتماع، فكلُّ واحدٍ منهما مواعِدٌ صاحبَهُ ذلك. فلذلك ـ زعموا ـ وَجَبَ أن يُقْضَى لقراءة مَنْ قرأ «واعَدْنا»، بالاختيار على قراءة من قرأ «وعدنا».

وقرأ بعضهم: «وعدنا»، بمعنى أن الله الواعدُ والمنفردُ بالوَعْدِ دونه. وكان من حجتهم في اختيارِهم ذلك أنْ قالوا: إنما تكونُ المواعدةُ بين البشر، فأما الله جلّ ثناؤه، فإنه المنفردُ بالوعد والوعيد في كُلِّ خيرٍ وشر. قالوا: وبذلك جاء التنزيل في القرآن كله، فقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحقِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]. قالوا: فكذلك الواجبُ أنْ يكونَ هو المنفرد بالوعد في قوله: «وإذ وَعدْنا موسى».

والصواب عندنا في ذلك من القول: أنهما قراءتان قد جَاءت بهما الأمَّةُ وقرأت بهما القَرَأَةُ، وليس في القراءةِ بإحداهما إبطالُ معنى الأخرى، وإنْ كان في إحداهما زيادةُ معنىً على الأخرى من جهةِ الظاهر والتلاوة، فأما من جهة المفهوم بهما، فهما متفقتان. وذلك أنَّ مَنْ أخبرَ عن شخصٍ أنه وَعَدَ غيرَهُ اللقاءَ بموضعٍ من المواضع، فمعلومٌ أنَّ الموعودَ ذلك واعدَ صاحبه من لقائه

بذلك المكان، مثل الذي وَعده من ذلك صاحبه، إذا كان وَعْدُهُ ما وَعَدَهُ إياه من ذلك عن اتفاقٍ منهما عليه. ومعلومٌ أن موسى صلوات الله عليه لم يَعِدْهُ ربُّه الطورَ إلا عن رضَا موسى بذلك، إذْ كان موسى غير مشكوكٍ فيه أنه كان بكُلِّ ما أَمَرَ اللهُ به راضياً، وإلى مَحَبَّتِهِ فيه مُسَارعاً. ومعقولٌ أن الله تعالى لم يَعِدْ موسى ذلك، إلا وموسى إليه مُسْتَجِيبٌ. وإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنَّ الله عزّ ذِكْرُه كان وَعد موسى الطورَ، ووعدَهُ موسَى اللقاءَ. فكان الله عزّ ذكره لموسى واعِداً مُواعِداً له المُناجاةَ على الطور، وكان موسى وَاعداً لربِّهِ مُواعِداً له اللقاءَ. فبأيِّ القراءتين من «وعد» و«واعد» قرأ القارىء، فهو للحق في ذلك - من جهة التأويل واللغة - مصيبٌ، لما وَصَفْنَا من العِلَل قَبْلُ.

ولا معنى لقول القائل: إنما تكونُ المواعدةُ بين البشر، وأنَّ اللهَ بالوعدِ والوعيدِ منفردٌ في كُلِّ خيرٍ وشر. وذلك أن انفرادَ الله بالوعدِ والوعيدِ في الثوابِ والعقابِ، والخير والشر، والنَّفْعِ والضُرِّ الذي هو بيدِهِ وإليهِ دونَ سائرِ خَلْقِه - لا يُحيل الكلامَ الجاريَ بين الناسِ في استعمالهم إياه عن وجوهه، ولا يُغَيِّرُهُ عن معانيه. والجاري بين الناسِ من الكلامِ المفهوم ما وصفنا: من أنَّ أيَّ اتِّعادٍ كان بين اثنين، فهو وَعْدٌ من كُلِّ واحدٍ منهما صاحبَه، ومواعدةٌ بينهما، وأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما واعدٌ صاحبه مواعدٌ. وأنَّ الوعْدَ الذي يكونُ به الانفرادُ من الواعد دون الموعود، إنما هو ما كان بمعنى «الوعد» الذي هو خلافُ «الوَعيد».

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: مُوسَىٰ

«ومـوسى» - فيمـا بلغنـا - بالقبـطية كلمتان، يُعْنَى بهما وشَجَرٌ. فـ «مو»، هو الماء، و«شا» هو الشجر. وإنما سمي بذلك - فيما بلغنا - لأنَّ أُمَّهُ لَمَّا جعلتهُ في التابوت - حين خافتْ عليه من فرعونَ وألقته في اليَمِّ، كما أوحى اللهُ إليها، وقيل: إنَّ اليَمَّ الذي ألقته فيه هو النيل - دفعته أمواجُ اليم

حتى أدخلتـه بين أشجارٍ عند بيتِ فرعون، فخرج جواري آسِيةَ امرأةِ فرعون يَغْتَسِلْنَ، فَوجَدْنَ التابوتَ فأخَذنَهُ. فسمي باسم المكان الذي أُصيبَ فيه، وكان ذلك بمكانٍ فيه ماء وشجر، فقيل: موسى، ماء وشجر.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

ومعنى ذلك: وإذْ وَاعَدنا موسى أربعينَ ليلة بتمامها. فالأربعون ليلة كلها داخلة في الميعاد.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾

وتأويل قوله: «ثم اتخذتم العجلَ من بَعده»، ثم اتخذتم في أيامِ مُواعَدةِ مُوسى العِجْلَ إلهاً، مِنْ بَعْدِ أنْ فارقَكُم موسى مُتوجِّهاً إلى الموعد. و«الهاء» في قوله: «من بَعْدِه» عائدةٌ على ذِكْرِ موسى.

فأخبر جَلَّ ثناؤه المخالفينَ نَبيَّنا ﷺ من يهودِ بني إسرائيل، المُكَذِّبينَ، المُخَاطَبِينَ بهـذه الآية - عن فِعْـلِ آبـائهم وأسـلافهم، وتكذيبهم رُسُلهم، وخـلافهم أنبياءَهم، مع تَتـابعِ نِعمَه عليهم، وشُيوعِ آلائه لديهم، مُعَرِّفَهُم بذلـك أنهم - من خلاف محمـد ﷺ وتكذيبهم به، وجحودهم لرسالته، مع عِلْمِهم بِصِـدْقِه - على مِثْلِ منهاجِ آبائهم وأسلافهم، ومُحَذِّرَهُم من نُزولِ سَطوتـه بهم - بمُقامهم على ذلك من تكذيبهم - ما نَزَلَ بأوائلهم المكذبين بالرسُل: مِنَ المسخِ واللعنِ وأنواعِ النِّقمات.

تأويل قوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ۝٥١﴾

يعني: وأنتمْ واضعو العبادةِ في غير موضعها، لأنَّ العبادةَ لا تَنبغي إلا لله عزّ وجل، وعبدتُم أنتم العِجْلَ ظُلماً منكم، ووضعاً للعبادةِ في غير موضعها. وقد دللنا - في غير هذا الموضع مما مَضَى من كتابنا - أنّ أصلَ كُلِّ ظُلمٍ، وضع الشيءِ في غير مَوْضعه. فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾

يقول: تركنا مُعَاجَلَتَكُمْ بالعقوبة، «من بعد ذلك»، أي مِنْ بعدِ اتِّخَاذِكم العجلَ إلٰهاً.

فمعنى الكلام إذاً: ثم عفونا عنكم من بعد اتخاذكم العجلَ إلٰهاً، لتشكروني على عفوي عنكم، إذْ كان العفوُ يُوجِبُ الشكرَ على أهل اللبِّ والعقل.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾

يعني بقوله: «وإذ آتينَا موسى الكتابَ»: واذكروا أيضاً إذْ آتينا مُوسى الكتاب والفُرقان. ويعني بـ«الكتاب»: التوراة، وبـ«الفرقان»: الفصل بين الحق والباطل.

وأوْلَى التأويلات بتأويل الآية، ما روي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد: من أنَّ «الفرقان»، الذي ذَكَرَ اللهُ أنه آتاهُ موسى في هذا الموضع هو

الكتابُ الذي فَرَقَ به بين الحق والباطل، وهو نعتٌ للتوراة وصِفَةٌ لها.

فيكـون تأويلُ الآية حينئذٍ: وإذْ آتينا مُوسى التوراةَ التي كتبناها له في الألواح وفَرَقنا بها بين الحق والباطل.

فيكون «الكتاب» نعتاً للتوراة أُقيمَ مقامَها، استغناء به عن ذِكْرِ التوراة، ثم عَطف عليه بـ «الفرقان»، إذْ كان من نعتها.

وقد بَيَّنا معنى «الكتاب» فيما مضى من كتابنا هذا، وأنه بمعنى المكتوب.

وإنما قُلْنَا هذا التأويل أوْلَى بالآية، وإنْ كان محتملاً غيرُه من التأويل، لأنَّ الذي قبله من ذِكْر «الكتاب»، وأن معنى «الفرقان» الفَصْل - وقد دللنا على ذلك فيما مضى من كتابنا هذا -، فإلحاقُه، إذْ كان كذلك، بصفة مَا وَلِيَهُ، أوْلَى من إلحاقهِ بصفةِ ما بَعُدَ منه.

وأمـا تأويل قولـه: «لَعلكمْ تَهتـدونَ»، فنـظير تأويل قولـه: «لعلكم تشكرون»، ومعناه لتهتدوا.

وكـأنـه قال: واذكُروا أيضاً إذْ آتينا مُوسى التوراةَ التي تَفرقُ بين الحق والباطل لتهتدوا بها، وتَتَّبِعُوا الحَقَّ الذي فيها، لأنِّي جعلتُهَا كذلك هُدىً لمن اهتدَى بها، واتَّبع ما فيها.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

وتأويل ذلك: واذكرُوا أيضاً إذ قال موسى لقومه من بني إسرائيل: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم. وظُلْمُهم إيَّاها، كانَ فِعْلَهم بها ما لم يكن لَهُمْ أنْ يفعلوه بها، مِمَّا أوجبَ لهمُ العقوبةَ من الله تعالى. وكذلك كُلُّ فاعلٍ فعلاً يستوجِبُ به العقوبة من الله تعالى، فهو ظالمٌ لنفسهِ بإيجابهِ العقوبةَ لها من الله تعالى. وكان الفِعْلُ الذي فعلوه فَظلموا به أنفسهم، هو ما أخبر الله عنهم: من ارتدادِهم باتخاذِهم العجلَ رَبًّاً بعد فراقِ موسى إيَّاهم.

ثم أمرَهم موسى بالمراجعة من ذنبهم، والإنابة إلى الله من رِدَّتِهم، بالتوبةِ إليه، والتسليم لطاعتـه فيما أمرهم به. وأخبرهـم أنَّ توبتهم من الذنب الذي رَكِبُوه قَتْلُهم أنْفُسَهم.

وقد دَللنا فيما مضى على أنَّ معنى «التوبة»: الأوْبة مما يَكْرَهُهُ اللهُ إلى ما يَرضاهُ من طاعتهِ.

فاستجابَ القومُ لِمَا أَمَرَهُمْ به موسى من التوبةِ مما ركبوا من ذنوبهم إلى ربهم، على ما أمرهم به.

وأما معنى قوله: «فتوبوا إلى بَارئكم»، فإنه يعني به: ارجِعُوا إلى طاعةِ خالِقكم، وإلى ما يُرضيه عنكم.

وهـو من «بَـرَأ الله الخلق يبرؤه فهو بارىء». و«البريَّة»: الخَلْق. وهي «فَعليةٌ» بمعنى «مفعـولـة»، غير أنها لا تُهمز. كما لا يهمز «مَلَك» وهو من «لأك»، لكنه جرى بترك الهمز كذلك.

وقد قيل: إنَّ «البرية» إنما لم تُهمز، لأنها «فعيلة» من «البَرَى»، والبَرَى: التراب، فكان تأويله على قولِ مَنْ تأوَّله كذلك: أنه مخلوقٌ من التراب.

وقال بعضهم: إنما أخذت «البريّة» من قولك: «بريتُ العود». فلذلك لم يُهمز.

وترك الهمز من «بارِئكم» جائز، والإبدال منها جائز. فإذْ كان ذلك جائزاً في «باريكم»، فغير مستنكر أنْ تكون «البرية» من: «بَرَى الله الخلق»، بترك الهمزة.

وأما قوله: «ذلكم خيرٌ لكم عند بَارِئكم»، فإنه يعني بذلك: توبتُكم بقتلِكُم أنفسَكم، وطاعتُكم رَبَّكم، خيرٌ لكم عند بارئكم، لأنكم تَنْجُونَ بذلك من عقابِ الله في الآخرة على ذنبكم، وتستوجبون به الثوابَ منه.

وقوله: «فتاب عليكم»، أي: بما فعلتم مِمَّا أمركم به من قَتْلِ بعضِكم بعضاً. وهذا من المحذوف الذي اسْتُغْنِيَ بالظاهرِ منه عن المتروك. لأن معنى الكلام: فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسَكم، ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم، فَتُبْتُمْ، فتابَ عليكم. فترك ذكر قوله: «فتبتم»، إذْ كان في قوله: «فتاب عليكم» دلالةٌ بَيِّنةٌ على اقتضاء الكلام «فَتُبْتُمْ».

ويعني بقوله: «فتاب عليكم»، رجعَ لكم ربكم إلى ما أحببتم: من العفوِ عن ذُنُوبِكم وعظيمِ ما ركبتم، والصفحِ عن جُرْمِكُم، «إنه هو التوابُ الرحيم» يعني: الراجعُ لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يُحِبُّ من العفوِ عنه.

ويعني بـ «الرحيم»، العائد إليه برحمته المُنْجيةِ من عقوبته.

القول في تأويل قوله تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً

وتأويل ذلك: واذكروا أيضاً إذْ قلتم يا مُوسى لَنْ نُصدِّقَكَ ولن نُقِرَّ بما جئتنا به، حتى نرى الله جهرة ـ عياناً برفعِ الساترِ بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودُونه، حتى نَنْظُرَ إليه بأبصارنا، كما تُجهر الرَّكِيَّةُ. وذلك إذا كان ماؤها

قد غَطَّاهُ الـطينُ، فَنُقِّيَ ما قد غَطَّاهُ حتى ظَهرَ الماءُ وَصَفا. يقال منه: «قد جَهرت الركية أجهرُها جَهْراً وَجهْرة». ولذلك قيل: «قد جاهر فلانٌ بهذا الأمر مُجاهَرةً وجِهاراً»، إذا أظهره لرأيِ العينِ وأعْلَنَهُ.

فَذَكَّـرهم بذلـك جَلَّ ذِكْـرُه اختـلافَ آبـائهم، وسوءَ استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثـرة مُعاينتهم من آياتِ الله جلَّ وعز وعِبَر ما تَثْلَجُ بأقلِّها الصدورُ، وتطمئن بالتصديقِ معها النفوسُ. وذلك مع تَتَابُعِ الحجج عليهم، وسبوغ النعمِ من الله لديهم، وهم مع ذلك مَرَّةً يَسألون نبيَّهم أنْ يجعلَ لهم إلهاً غيرَ الله. ومرَّة يعبُدون العجلَ من دونِ الله. ومرة يقولون: لا نُصَدِّقكَ حتى نرى الله جَهْرةً وأخـرى يقـولُون له، إذا دُعُوا إلى القتال: اذْهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون. ومرة يقال لهم: قُولوا حِطَّةٌ وادْخُلُوا البابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لكم خَطاياكم. فيقولون: حِنطةٌ في شعيرة! ويدخلون البابَ من قِبَلِ أَسْتاهِهم، مع غير ذلك من أفعالِهم التي آذوا بها نَبِيَّهم عليه السلام، التي يكثر إحصاؤها.

فأعلم رَبُّنا تَبارك وتعالى ذِكْرُه الذين خاطَبهم بهذه الآياتِ من يهودِ بني إسرائيل، الذين كانوا بَيْنَ ظَهرانَيْ مُهاجَر رسولِ الله ﷺ، أنهم لن يَعْدُوا أنْ يكونوا - في تكذِيبهم محمداً ﷺ، وجحودهم نُبوَّتَهُ، وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به، ومعـرفتهم بحقيقة أمره - كأسلافِهم وآبائهم الذين فَصَّلَ عليهم قَصَصهم، في ارتدادِهم عن دينهم مرةً بعد أخرى، وتَوَثُّبهم على نَبِيِّهم موسى صلوات الله وسلامه عليه تارة بعد أخرى، مع عظيمِ بلاءِ الله جَلَّ وعزَّ عندهم، وسُبوغِ آلائهِ عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ٥٥﴾

وأصل «الصاعقة»، كُلُّ أمرٍ هائلٍ رآه المَرءُ أو عَايَنَهُ أو أصابه - حتى يصير من هَوْلِهِ وعظيمِ شأنه إلى هلاكٍ وعَطب، وإلى ذهابِ عقلٍ وغُمورِ فَهْمٍ، أو فَقْدِ بعضِ آلاتِ الجسم - صوتاً كان ذلك أو ناراً أو زَلْزلةً أو رَجْفاً. ومما يدلُّ على أنه قد يكونُ مصعوقاً وهو حيٌّ غير ميت، قول الله عزّ وجلّ: ﴿وخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعني: مَغْشِيّاً عليه.

ويعني بقوله: «وأنتم تنظرون»، وأنتم تنظرون إلى الصاعقة التي أصابتكم، يقول: أخذتكم الصاعقة عِياناً جِهاراً وأنتم تنظرونَ إليها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يعني بقوله: «ثم بَعثناكم»، ثم أحييناكم.

وأصل «البعثة»: إثارةُ الشيءِ من محلِّهِ. ومنه قيل: «بَعث فلان راحلتَه». إذا أثارَها من مَبْركها للسير.

ومن ذلك قيل: «بعثتُ فلاناً لحاجتي»، إذا أقَمْتُه من مكانِه الذي هو فيه للتوجه فيها. ومن ذلك قِيلَ ليومِ القيامة: «يوم البَعْث»، لأنه يومٌ يُثَارُ الناسُ فيه من قبورهم لموقفِ الحساب.

ويعني بقوله: «من بعد موتكم»، من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم.

وقوله: «لعلكم تشكرون»، يقول: فعلنا بكم ذلك لتشكروني على ما أوْلَيْتُكم من نِعمتي عليكم، بإحيائي إياكم، استبقاءً منّي لكم، لتراجعوا التوبة من عظيمِ ذنبكم، بعد إحلالي العقوبةَ بكم بالصاعقة التي أحْلَلْتُهَا بكم،

فأماتتكم بعظيمِ خَطَئِكم الذي كان منكم فيما بَيْنَكم وبين رَبّكم.

وهذا القولُ على تأويلِ من تأول قوله: «ثم بَعثناكم»، ثم أحييناكم.

القول في تأويل قوله تعالى: وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ

«وظللنا عليكم الغمام» عَطْفٌ على قوله: «بَعثناكم من بعد موتكم». فتأويلُ الآية: ثم بعثناكم من بعد موتكم وظللنا عليكم الغمام ـ وعَدَّدَ عليهم سائرَ ما أنعمَ به عليهم ـ لَعَلَّكُمْ تشكرون.

و«الغمام» جَمْعُ «غمامة»، كما السحابُ جمع سحابة. و«الغمام» هو ما غَمَّ السماءَ فألبسَها من سَحاب وقتام، وغير ذلك مما يسترها عن أعينِ الناظرينَ. وكُلُّ مُغَطًّى فالعربُ تُسَمِّيه مغموماً.

وإذا كان معنى الغمام ما وَصَفْنَا، مِمَّا غَمَّ السماء من شيءٍ يُغطي وَجْهَها عن الناظرِ إليها، فليس الذي ظَلَّلَهُ اللهُ عزّ وجلّ على بني إسرائيل ـ فوصفه بأنه كان غماماً ـ بأوْلى، بوصفه إياه بذلك أنْ يكون سحاباً، منه بأنْ يكونَ غير ذلك مما ألبس وجهَ السماء من شيءٍ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ

اختلف أهل التأويل في صفة «المنّ». فقال بعضهم: هو صمغةٌ، وقال آخرون: هو عسلٌ، وقال آخرون: هو الخبز الرقاق، وقال آخرون: هو الزنجبيل، وقال آخرون: هو الذي يسقط على الشجر، الذي يأكله الناس، وقال آخرون: هو اللبن الصافي.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾

«والسلوى» اسم طائر يشبه السُّمانَى، واحِدُه وجِماعهُ بلفظٍ واحد، كذلك السُّمانَى لفظ جماعها وواحدها سواء. وقد قيل: إنَّ واحدةَ السلوى، سَلواةٌ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾

وهذا مما استُغني بدلالةِ ظاهرهِ على ما تُرك منه. وذلك أن تأويل الآية: وظللنا عليكم الغمامَ، وأنزلنا عليكمُ المَنَّ والسَّلْوى، وقلنا لكم: كُلُوا من طَيِّباتِ ما رزقناكم. فترك ذكر قوله: «وقلنا لكم»، لما بَيَّنا من دلالة الظاهرِ في الخطاب عليه.

وعنى جلَّ ذِكْرُه بقوله «كُلُوا من طيباتِ ما رزقناكم»: كُلُوا من شَهِيَّاتِ رِزْقنا الذي رَزَقْنَاكُمُوهُ.

وقد قيل: عنى بقوله: «من طيبات ما رزقناكم»، من حلالهِ الذي أبَحْنَاهُ لكم فجعلناه لكم رزقاً.

والأول من القولين أولى بالتأويل، لأنه وَصَفَ ما كان القومُ فيه من هَنِيءِ العيشِ الذي أعطاهم، فَوَصْفُ ذلك بـ «الطيب»، الذي هو بمعنى اللذة، أحْرَى من وَصْفِه بأنه حلالٌ مُبَاح.

و«ما» التي مع «رزقناكم»، بمعنى «الذي». كأنه قيل: كُلُوا من طيبات الرزقِ. الذي رَزَقْنَاكموه.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾

وهذا أيضاً من الذي اسْتُغْنِيَ بدلالةِ ظاهره على ما تُرِكَ منه. وذلك أنَّ معنى الكلام: كلوا من طيبات ما رزقناكم. فخالَفُوا ما أَمَرْنَاهُم به وعصوا رَبَّهم، ثم رسولَنا إليهم، و«وما ظلمونا»، فاكتفى بما ظهر عما ترك.

وقوله: «وما ظلمونا» يقول: وما ظَلَمُونا بِفِعْلِهِم ذلك ومعصيتهم، ولكن كانوا أنفسَهُم يظلمون.

ويعني بقـوله: «وما ظلمونا»، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانَهم إيَّانا، موضع مَضرَّةٍ علينا ومَنْقَصةٍ لنا، ولكنهم وضعُوه من أنفسهم موضعَ مضرَّةٍ عليها ومنقصةٍ لها.

وقـد دللنا فيما مضى، على أنَّ أصلَ «الظلم»: وضعُ الشيء في غير موضعه ـ بما فيه الكفاية، فأغنى ذلك عن إعادته.

وكذلك ربُّنا جَلَّ ذِكْرُه، لا تضرُّه معصيةُ عاصٍ، ولا يتحيَّفُ خزائنه ظُلْمُ ظالمٍ، ولا تنفعه طاعةُ مطيعٍ، ولا يزيدُ في مُلْكِه عَدْلُ عادل، بل نفسَه يظلمُ الظالمُ، وحظَّها يَبْخَسُ العاصي، وإياها ينفعُ المطيع، وحظَّها يُصيب العادلُ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾

و«القريةُ» ـ التي أمرهم اللهُ جلّ ثناؤه أنْ يدخلوها، فيأكلوا منها رغداً حيث شاؤوا ـ فيما ذُكِرَ لنا: بيت المقدس.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾

يعني بذلك: فَكُلُوا من هذه القرية حيث شئتم عَيْشاً هَنيئاً واسعاً بغير حساب. وقد بَيَّنا معنى «الرغد» فيما مضى من كتابنا.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾

أما «البابُ» الذي أُمِرُوا أن يدخلوه، فإنه قيل: هو بابُ الحِطَّة من بيت المقدس.

وأصل «السجود» الانحناءُ لمن سُجِدَ لَه معظِّماً بذلك. فكل مُنْحَنٍ لشيءٍ تعظيماً له فهو «ساجد».

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾

وتأويل قوله: «حِطَّة»، فِعْلَةٌ، من قول «القائل: حَطَّ الله عنك خَطاياك فهو يَحُطُّها حِطَّة»، بمنزلة الردَّةِ والحِدَّة والمِدَّة، من حَددتَ وَمَدَدتَ.

واختلفَ أهلُ العربية في المعنى الذي من أجله رُفعت «الحطة».

والذي هو أقربُ عندي في ذلك إلى الصواب، وأشبه بظاهر الكتاب: أن يكون رفع «حطة» بنيَّةِ خبرٍ محذوفٍ قد دَلَّ عليه ظاهرُ التلاوة، وهو: دخولُنا البـابَ سُجَّداً حطةٌ، فكفى من تكريره بهذا اللفظ، ما دَلَّ عليه الظاهرُ من التنزيل، وهو قوله: «وادخلوا البابَ سُجَّداً»، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وإذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قوماً الله مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةٌ[1] إلى رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، يعني: موعظتنا إياهم معذرة إلى ربِّكم. فكذلك عندي في تأويل قوله: «وقولوا حطة»، يعني بذلك: وإذ قلنا ادخلوا هذه القريةَ، وادخلوا الباب سُجّداً، وقولوا: دخولنا ذَلك سُجَّداً حِطةٌ لذنوبنا.

---

(١) قراءتنا: «معذرة» بالنصب في مصـاحفنـا. والرفع قراءةُ عامة قُرَّاءِ الحجاز والكوفة والبصرة، وقرأ بعض أهل الكوفة «معذرة» بالنصب.

القول في تأويل قوله تعالى: نَّغْفِرْ لَكُمْ

يعني بقوله «نغفرْ لكمة نتغمَّد لكم بالرّحمةِ خطاياكم، ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبةِ عليها.

وأصل «الغفر» التغطيةُ والستر، فَكُلُّ ساترٍ شيئاً فهو غَافِرُه. ومن ذلك قيل للبيضةِ من الحديدِ التي تُتَّخَذُ جُنَّةً للرأس: «مِغْفر»، لأنها تُغطي الرأسَ وَتُجِنُّهُ. ومثله «غِمْدُ السيف»، وهو ما تغمَّده فوارَاهُ. ولذلك قيل لزئبر الثَّوب: «غَفْرة»، لتغطيته الثوب، وحَوْلِه بين الناظرِ والنظرِ إليه.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: خَطَـٰيَـٰكُمْ

و«الخطايا» جمع «خَطية»، بغير همز، كما «المطايا» جَمْعُ «مَطِيَّة»، و«الحَشايا» جمع «حَشِيَّة». وإنما تُرك جَمْعُ «الخطايا» بالهمز، لأنَّ تركَ الهمزِ في «خَطيئة» أكثر من الهمز، فَجُمِعَ على «خطايا»، على أنَّ واحدتها غير مهموزةٍ. ولو كانت «الخطايا» مجموعةً على «خطيئة» بالهمز: لقيل: خَطائي، على مثل قبيلة وقبائل، وصحيفة وصحائف. وقد تُجمعُ «خطيئة» بالتاء، فيهمز فيقال «خطيئات». و«الخطيئة» فعيلة، من «خَطِىءَ الرجل يَخْطَأ خِطْأً»، وذلك إذا عَدَلَ عن سبيل الحق.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

يعني: مَنْ كان منكم مُحسناً زِيدَ في إحسانهِ، ومَنْ كان مخطِئاً نغفر له خَطيئته.

فتأويل الآية: وإذْ قلنا ادخلوا هذه القرية مُباحاً لكم كُلُّ ما فيها من

الطيبات، مُوسَّعاً عليكم بغيرِ حسابٍ؛ وادخلوا البابَ سُجَّداً، وقولوا: سجودنا هذا لله حِطَّةٌ من رَبِّنا لذنوبنا يَحُطُّ به آثامَنا، نَتَغَمَّد لكم ذنوبَ المذنبِ منكم فنسترها عليه، ونحط أوزارَه عنه، وسَنزيد المحسنَ منكم - إلى إحساننا السالف عنده - إحساناً. ثم أخبرَ اللهُ جَلَّ ثناؤه عن عظيمِ جَهالتهم، وسوء طاعتهم ربَّهم، وعِصيانهم لأنبائهم، واستهزائهم برُسلِهِ - مع عظيمِ آلاءِ الله عزَّ وجل عندهم، وعجائبِ ما أراهُمْ من آياتهِ وعِبره؛ مُوَبِّخاً بذلك أبناءهم الذين خُوطِبُوا بهذه الآيات، ومُعَلِّمَهُم أنهم إنْ تَعدَّوْا - في تكذيبهم محمداً ﷺ، وجحودهم نُبُوَّتَهُ، مع عظيمِ إحسانِ الله بمبعثه فيهم إليهم، وعجائبِ ما أظهرَ على يديهِ من الحجج بين أظهرهم - أنْ يكونوا كأسلافهم الذين وصفَ صِفَتَهُم، وقَصَّ علينا أنباءَهم في هذه الآيات، فقال جلّ ثناؤه: «فبدَّلَ الذين ظَلمُوا قولاً غَير الذي قيلَ لهمْ فأنزلنا على الذينِ ظَلمُوا رِجْزاً من السماء» الآية.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾

وتأويل قوله: «فبدَّل»، فغيَّر. ويعني بقوله: «الذين ظَلموا»، الذين فعلوا ما لم يكنْ لهم فِعْلُه. ويعني بقوله: «قَوْلاً غيرَ الذي قيل لَهم»، بَدَّلوا قولاً غير الذي أُمِرُوا أن يقولوه، فقالوا خِلافَهُ. وذلك هو التبديلُ والتغيير الذي كان منهم. وكان تبديلُهم - بالقول الذي أُمِرُوا أنْ يقولوا - قولاً غيره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

يعني بقوله: «فأنزلنَا عَلى الذين ظَلمُوا»، - على الذين فعلوا ما لم يكن

لهم فِعلُه»، من تَبْدِيلهم القولَ، الذي أمرهم الله جلّ وعز أن يقولوه، قولاً غيره، ومعصيتِهم إياه فيما أمَرَهُم به، وبركوبِهم ما قَدْ نَهاهم عن ركوبه، ـ «رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون».

و«الـرِّجـز»، في لغة العرب، العذابُ. وهو غير «الرُّجْز»[1]. وذلك أنّ «الرِّجز»: البَثْر، ومنه الخبر الذي روي عن النبي ﷺ في الطاعون أنه قال: إنه رِجْز عُذِّبَ به بعضُ الأمم الذين قبلكم[2].

وقد دللنا على أن تأويل «الرجز» العذاب. وعذابُ الله جلّ ثناؤه أصنافٌ مختلفة. وقد أخبر الله جلّ ثناؤه أنه أنزل على الذين وصَفْنا أمْرَهُم الرجزَ من السماء وجائزٌ أن يكون ذلك طاعوناً، وجائز أن يكون غيره. ولا دلالةَ في ظاهرِ القرآن ولا في أثرٍ عن الرسولِ ثابتٌ، أيّ أصنافِ ذلك كانَ.

فالصوابُ من القول في ذلك أنْ يُقالَ كما قال الله عزّ وجل: فأنزلنا عليهم رجزاً من السماء بفسقهم.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾

وقد دللنا ـ فيما مضى من كتابنا هذا ـ على أن معنى «الفِسْق»، الخروج من الشيء.

فتـأويل قوله: «بما كانوا يفسقون» إذاً: بما كانوا يتركون طاعةَ الله عزّ وجل، فيخرُجون عنها إلى معصيتِهِ وخلافِ أمرِهِ.

---

(١) الرُّجْز: الأوثان، والرِّجز: هو البثر: خراج صغار كالذي يكون من الطاعون والجدري.

(٢) قطعة من حديث صحيح أخرجه من حديث أسامة بن زيد: مالك (١٨٦٨)، وأحمد ٥/٢٠٠ و٢٠٢ و٢٠٧ و٢٠٨، والبخاري ٤/٢١٢ و٩/٣٤، ومسلم (٢٢١٨)، والترمذي (١٠٦٥) وغيرهم.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾

يعني بقوله: «وإذ اسْتَسْقَى مُوسَى لقومه»، وإذ اسْتسقانا موسى لقومه، أي سألَنـا أنْ نسقيَ قومـه ماءً. فتـركَ ذكر المسؤول ذلك، والمعنى الذي سأل موسى، إذْ كان فيما ذُكر من الكلام الظاهر دلالة على معنى ما تُرِك.

وكـذلـك قوله: «فقلنا اضربْ بعَصاك الحجرَ فانفجرت منه اثنتا عَشْرَة عيناً»، مما استغني بدلالة الظاهر على المتروك منه. وذلك أنَّ معنى الكلام: فقلنا اضرب بعصاكَ الحجر. فضربَه، فانفجرت. فترك ذِكْرَ الخبرِ عن ضَرْبِ موسى الحجر، إذ كان فيما ذكر دلالة على المراد منه.

وكذلك قوله: «قد عَلِمَ كُلُّ أناسٍ مشرَبهم»، إنما معناه: قد علم كل أناس منهم مشربهم. فترك ذكر «منهم» لدلالةِ الكلامِ عليه.

وقومُ موسى، هم بنو إسرائيل، الذين قَصَّ الله عزّ وجل قَصَصهم في هذه الآيات. وإنما اسْتسقى لهم ربَّهُ الماءَ في الحالِ التي تاهوا فيها في التِّيه.

وأما قوله: «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أناس مَشْرَبهم»، فإنما أخبر الله عنهم بذلك لأن مَعناهم - في الذي أخرج الله عزّ وجل لهم من الحجر، الذي وصَف جَلَّ ذِكْرُه في هذه الآية صِفتَهُ - من الشرب، كان مخالفاً مَعاني سائرِ الخَلْق فيما أخرجَ الله لهم من المياهِ من الجبالِ والأرضين، التي لا مالكَ لها سوى الله عزّ وجل. وذلك أنَّ الله كان جعل لكل سِبْطٍ من الأسباط الاثني عشر، عيناً من الحجر الذي وَصَفَ صِفَتَهُ في هذه الآية، يشربُ منها دونَ سائرِ الأسباطِ غيره، لا يدخل سِبْطٌ منهم في شُرب سبط غيره. وكان مع ذلك لكل عينٍ من تلك العيونِ

الاثنتي عشرة، موضعٌ من الحجر قد عرفه السِّبط الذي منه شربه. فلذلك خَصَّ جلّ ثناؤه هؤلاء بالخبر عنهم: أنَّ كُلَّ أناسٍ منهم كانوا عالِمين بمشرَبهم دونَ غيرهم من الناس. إذْ كان غيرهم ـ في الماء الذي لا يملكه أحدٌ ـ شُركاءَ في منابعه ومسايله. وكان كُلُّ سبطٍ من هؤلاء مفرداً بشُرب مَنبَعٍ من منابعِ الحجر ـ دون سائرِ منابعهِ ـ خاصٌّ لهم دون سائر الأسباط غيرهم. فلذلك خُصوا بالخبر عنهم: أنَّ كُلَّ أناسٍ منهم قد عَلِمُوا مشرَبهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾

وهذا أيضاً مما استغني بذكر ما هو ظاهر منه، عن ذكره ما تُرِك ذكره وذلك أن تأويل الكلام: فقلنا اضربْ بعصاك الحجرَ، فضربه، فانفجرتْ منه اثنتا عشرةَ عيناً، قد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مشربهم، فقيل لهم: كلوا واشربوا من رزق الله. أخبر اللهُ جَلَّ ثناؤه أنه أمرهم بأكلِ ما رَزَقهم في التِّيه من المَنِّ والسلوى، وبشرب ما فجَّرَ لهم فيه من الماء من الحجر المُتعاوَر[1]، الذي لا قَرارَ له في الأرض، ولا سبيلَ إليه إلّا لمالكيهِ، يتدفقُ بعيونِ الماء، ويَزخرُ بينابيع العَذْب الفرات، بقدرة ذي الجلال والإكرام.

ثم تَقدم جَلَّ ذِكْرُه إليهم ـ مع إبَاحَتِهم ما أُباح، وإنعامِه عليهم بما أنعم به عليهم من العيش الهنيء ـ بالنهي عن السعيِ في الأرضِ فساداً، والعَثا فيها استكباراً. فقال جلّ ثناؤه لهم: ولا تَعْثَوْا في الأرض مُفسدين».

---

(١) الحجر المتعاور: الحجر المتبادل، ينقل من يد إلى يد. من تعاوروا الشيء: إذا تبادلوه، ولا يُتعاورُ شيءٌ حتى يكون منقولاً، أما الثابتُ فلا يتعاورهُ الناسُ ولا يتبادلونه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾

يعني بقوله: «لَا تَعْثَوْا» لا تَطْغَوا، ولا تسعوا في الأرض مُفْسِدينَ.

وأصل «العَثا» شِدَّةُ الإفساد، بل هو أشدُّ الإفساد. يقال منه: «عَثِيَ فلانٌ في الأرض» - إذا تجاوز في الإفسادِ إلى غايتِهِ - «يَعْثَى عَثا»، مقصور، وللجماعة: هم يَعْثَون. وفيه لغتان أخرَيان، إحداهما: «عَثا يعثو عُثُوّاً». ومن قرأها بهذه اللغة. فإنه ينبغي له أن يضُمَّ الثاء من «يعثُو»، ولا أعلم قارئاً يُقتَدى بقراءته قَرأ به. ومَنْ نطق بهذه اللغة مخبراً عن نفسه قال: «عَثَوْتُ أعثو»، ومن نطق باللغة الأولى قال: «عَثِيتُ أعْثَى».

والأخرى منهما: «عَاثَ يعيثُ عَيْثاً وعُيُوثاً وعَيَثَاناً»، كل ذلك بمعنى واحد.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾

قد دللنا - فيما مضى قَبْلُ - على معنى «الصبر» وأنه كَفُّ النفسِ وَحَبسُها عن الشيء. فإذْ كان ذلك كذلك، فمعنى الآية إذاً: واذكروا إذْ قلتم - يَا مَعشر بني إسرائيل -: لنْ نُطيقَ حَبْسَ أنفسنا على طعامٍ واحد - وذلك «الطعام الواحد»، هو ما أخبر الله جَلَّ ثناؤه أنه أَطْعمهُموه في تِيههم، وهو «السلوى» في قولِ بعضِ أهلِ التأويل، وفي قول وهب بن منبه: هو «الخبزُ النقيّ مع اللحم» - فاسأل لنا ربَّكَ يُخْرِجِ لنا مما تُنْبِتُ الأرضُ من البقْل والقِثَّاء، وما سمى الله مع ذلك، وَذكر أنهم سألوه موسى.

وإنما قال جلّ ذكره: «يُخرِجْ لنا مما تُنبتُ الأرض» ـ ولم يَذْكُر الذي سألوه أنْ يدعُو ربَّهُ ليخرجَ لهم من الأرض، فيقول: قالوا ادْعُ لنا رَبَّك يُخْرِجُ لنا كذا وكذا مما تُنْبِتُهُ الأرضُ من بَقْلها وقثائها ـ لأن «من» تأتي بمعنى التبعيض لِمَا بعدها. فاكتفى بها عن ذِكْر التبعيض، إذْ كان معلوماً بدخولها معنى ما أُريدَ بالكلام الذي هيَ فيه. كقول القائل: «أصبحَ اليوم عند فلان من الطعام»، يريد شيئاً منه.

فتأويلُ الكلام إذاً ـ على ما وَصَفْنَا من أمْرِ «مِنْ» ـ: فادعُ لنا ربك يخرج لنا بعضَ ما تُنْبتُ الأرضُ من بقلها وقثائها.

و«البَقْل» و«القِثَّاء» و«العَدَس» و«البَصَل»، هو ما قد عَرَفَهُ الناسُ بينهم من نباتِ الأرضِ وَحبِّها.

وأمـا «الفُوم» فإنَّ أهل التأويل اختلفوا فيه. فقال بعضهم: هو الحِنطة والخبز، وقال آخرون: هو الثوم، وهو في بعض القراءات «وثومها».

وقد ذُكر أن تسمية الحِنطة والخبز جميعاً «فوماً» من اللغة القديمة. حُكِيَ سماعاً من أهلِ اللغة: «فَوِّمُوا لنا»، بمعنى: اخْتَبِزُوا لنا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾

يعني بقوله: «قال أتستبدلون الذي هو أدْنَى بالذي هو خَير»، قال لهم موسى: أتأخذون الذي هو أخَسُّ خطراً وقيمةً وقَدْراً من العيشِ، بَدلاً بالذي هو خيرٌ منه خطراً وقيمةً وقدراً؟ وذلك كان استبدالهم.

وأصل «الاستبدال»: هو تركُ شيءٍ لآخر غيره مكانَ المتروك.

ومعنى قوله: «أدنى» أَخَسُّ وأوضعُ وأصغرُ قدراً وخطراً. وأصله من قولهم: «هذا رجل دَنِيٌّ بَيِّنُ الدَّناءة» و«إنه ليُدنِّي في الأمور» بغير همز، إذ كان يَتَتَبَّعُ خَسيسها. وقد ذُكر الهمزُ عن بعض العرب في ذلك، سماعاً منهم. يقولون: «ما كنت دَانئاً، ولقد دَنأت».

ولا شكَّ أنَّ من استبدَلَ بالمنِّ والسلوى البقلَ والقِثَّاءَ والعدَس والبصلَ والثّوم، فقد استبدل الوَضيع من العيش بالرفيع منه.

وقد تأوّلَ بعضُهم قوله: «الذي هُو أدْنى» بمعنى: الذي هو أقربُ. ووجَّه قوله: «أدْنى»، إلى أنه أفعل من «الدُّنُوِّ»، الذي هو بمعنى القُرْبِ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: **ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ**

وتأويل ذلك: فَدَعَا مُوسى، فاسْتَجَبْنَا له، فقلنا لهم: «اهبطوا مصراً»، وهو من المحذوفِ الذي اجتُزِىء بدلالةِ ظاهرِه على ذكر ما حُذف وتُرك منه.

وقد دللنا ـ فيما مضى ـ على أن معنى «الهُبُوط» إلى المكان، إنما هو النزولُ إليه والحلولُ به.

فتأويل الآية إذاً: وإذ قُلتم يا موسى لنْ نَصْبر على طعامٍ واحد، فادْع لنا ربك يُخرجْ لَنا مما تُنبت الأرضُ من بقلها وقِثائها وفُومها وَعَدَسها وبَصَلها. قال لهم موسى: أتستبدلون الذي هو أَخَسُّ وأردأ من العيش، بالذي هو خير منه. فدعا لهم ربَّه أنْ يُعطيهم ما سألوه، فاستجابَ الله له دعاءه، فأعطاهم ما طلبوا، وقال الله لهم: اهبطوا مصراً فإنَّ لكم ما سألتم.

وأولى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصواب أنْ يُقالَ: إن موسَى سأل رَبَّهُ أنْ يعطي قومَه ما سألوه من نباتِ الأرض ـ على ما بَيَّنَهُ الله جلّ وعز في كتابه ـ وهم في الأرض تائهون، فاستجاب الله لموسى دعاءه، وأمره أنْ يهبطَ بمن معه من قومهِ قَراراً في الأرض التي تُنْبِتُ لهم ما سألَ لهم من ذلك، إذْ كان الذي سألوه لا تُنبته إلا القُرى والأمصار، وأنه قد أعطاهم ذلك إذْ صارُوا إليه. وجائز أن يكون ذلك القَرارُ «مصرَ»، وجائز أن يكون «الشام».

فأما القراءةُ، فإنها بالألف والتنوين: «اهبطوا مصراً». وهي القراءة التي لا يجوز عندي غيرها، لاجتماعِ خطوطِ مصاحفِ المسلمين، واتفاق قراءة القَرَأَةِ على ذلك. ولم يقرأ بترك التنوين فيه وإسقاط الألف منه، إلا من لا يجوز الاعتراضُ به على الحجة[1]، فيما جاءت به من القراءة مستفيضاً بينها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾

يعني بقوله: «وضُربت»، أي فُرضت ووُضعت عليهم الذلةُ وألزِمُوها. من قول القائل: «ضَرَبَ الإمامُ الجزيةَ على أهل الذمة»، و«ضربَ الرجل على عَبده الخرَاج»، يعني بذلك وضعه فألزمه إياه، ومن قولهم: «ضَرَبَ الأميرُ على الجيش البَعْثَ»، يُراد به: ألزمهموه.

وأما «الذلة» فهي «الفِعْلة» من قول القائل: «ذَلَّ فلانٌ يَذِلُّ ذُلاًّ وذِلَّة»، كـ «الصِّغرة» من «صَغُرَ الأمر»، و«القِعْدة» من «قَعَد».

و«الذِّلَّة» هي الصَّغارُ الذي أمرَ الله جلّ ثناؤه عبادَه المؤمنين أنْ لا يُعْطوهم أماناً ـ على القرَارِ على ما هم عليه من كفرهم به وبرَسوله ـ إلا أن يبذُلوا الجزيةَ عَليه لهم، فقال جلّ وعز: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلاَ باليَوْمِ الآخِرِ وَلاَ

---

(١) الحجة هنا: الذين يُحتَجُّ بهم.

يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

فأخبرهم الله جَلَّ ثناؤه أنه يُبْدِلُهم يالعزِّ ذُلًّا، وبالنعمة بؤساً، وبالرِّضا عنهم غَضَباً، جزاءً منه لهم على كُفرهم بآياته، وقتلهم أنبياءَه ورسلَه، اعتداءً وظلماً منهم بغير حق، وعصيانهم لَهُ، وخلافاً عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾

يعني بقوله: «وَباؤوا بغضَب منَ الله، انصرفوا وَرَجعوا. ولا يقال «باؤوا» إلَّا موصولاً: إمَّا بخيرٍ، وإمَّا بشر. يقال منه: «باء فُلان بذنبه يَبوء به بَوْءاً وَبواءً». ومنه قول الله عزّ وجل ﴿إنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩]، يعني: تنصرفَ متحمِّلهما وترجعَ بهما، قد صارَا عليك دُوني.

فمعنى الكلام إذاً: ورجعوا منصرفين متحمِّلين غَضَبَ الله، قد صار عليهم من الله غَضَبٌ، وَوَجبَ عليهم منه سُخط.

وقدَّمنا معنى غَضَبِ اللهِ على عبدهِ فيما مضى من كتابنا هذا، فأغنى عن إعادتهِ في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «ذلك»، ضَرْبَ الذلةِ والمسكنةِ عليهم، وإحلالَه غضَبه بهم. فَدَلَّ بقوله «ذلك» ـ وهو يعني به ما وصفنا ـ على أنَّ قولَ القائل: «ذلك»، يشملُ المعاني الكثيرةَ إذا أُشيرَ به إليها.

ويعني بقـوله: «بأنهم كانوا يكفرون»، مِنْ أجْلِ أنهم كانوا يكفرون. يقول: فَعلنا بهم - من إحلالِ الذلّ والمسكنةِ والسُّخط بهم - من أجل أنهم كانوا يكفرون بآياتِ الله ويقتلونَ النبيينَ بغيرِ الحق.

فقوله: «وضُربَتْ عليهم الذِّلة والمسكنةُ وباؤوا بغضَبٍ من الله ذلك بأنّهم كانـوا يكفرون بآيات الله»، يقول: كانَ ذلكَ مِنَّا بكفرهم بآياتنا، وجزاءً لهم بقتلِهم أنبياءَنا.

وقد بَيَّنا فيما مضى من كتابنا أنَّ معنى «الكفر»: تغطية الشيء وستره، وأنَّ «آيات الله» حُجَجُه وأعلامُه وأدلَّتهُ على توحيدِهِ وصِدْقِ رُسُلِهِ.

فمعنى الكلام إذاً. فعلنا بهم ذلك، من أجل أنهم كانوا يجحدون حُججَ الله على توحيدهِ وتصديقِ رسله، ويدفعون حقيتها، ويكذبون بها.

ويعني بقوله: «ويقتلونَ النبيين بغير الحق»: ويقتلونَ رُسُلَ الله الذين ابتَعثهم - لإنباء ما أرسلهم به عنه - لمن أُرْسِلُوا إليه، منكرين رسالتهم جاحدين نبوتهم.

## القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٦١﴾

وقوله: «ذلك»، رد على «ذلك» الأولى. ومعنى الكلام: وضُربَتْ عليهمُ الـذِلَّةُ والمسكنةُ، وباؤوا بغضبٍ من الله من أجلِ كفرهم بآياتِ الله وقتلِهم النبيين بغير الحق، من أجل عِصْيانهم رَبَّهم واعتدائِهم حدودَهُ، فقال جلّ ثناؤه: «ذلك بما عَصَوْا»، والمعنى: ذلك بعصيانِهم وكفرهم مُعتدين.

و«الاعتداء»، تجاوزُ الحَدِّ الذي حَدَّهُ اللهُ لعبادهِ إلى غيره. وكُلُّ متجاوزٍ حَدَّ شيءٍ إلى غيره، فقد تَعدَّاهُ إلى ما جاوزَ إليه.

ومعنى الكلام: فعلتُ بهم ما فعلتُ من ذلك، بما عَصَوا أمري، وتَجاوزُوا حَدِّي إلى ما نَهَيْتُهم عنه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾

أمَّا «الذين آمنوا»، فهم المُصَدِّقُون رسولَ الله فيما أتاهم به من الحقّ من عند الله. وإيمانُهم بذلك، تَصْدِيقُهم به ـ على ما قد بَيَّناهُ فيما مضى من كتابنا هذا.

وأما «الذين هادوا»، فهم اليهود. ومعنى: «هادوا»، تَابُوا. يقال منه: «هادَ القوم يَهودُون هَوداً وَهَادَة». وقيل: إنما سُميت اليهودُ «يَهودَ»، من أجل قولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

القول في تأويل قوله عزّ وجل: ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾

و«النصارى» جمع، واحدهم نَصْرَان، كما واحد السَّكارَى سَكران، وواحد النَّشاوى نَشوان. وكذلك جَمْعُ كُلِّ نَعْتٍ كان واحدهُ على «فَعْلان» فإن جمعه على «فعالى». إلا أنَّ المستفيضَ من كلام العرب في واحد «النصارى» «نصرانيٌّ». وقد حُكي عنهم سماعاً «نَصْران» بطرح الياء، وسُمع منهم في الأنثى: «نصرانة». وقد سُمع في جمعهم «أنْصار»، بمعنى النصارى، لِنُصْرَةِ بعضِهم بعضاً، وَتناصُرِهم بينهم. وقد قيل إنهم سُمُّوا «نَصَارى»، مِنْ أجلِ أنهم نزلوا أرضاً يقال لها «ناصرة».

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾

و«الصابئون» جمع «صَابىء»، وهو المستحدثُ سِوَى دِينِه ديناً، كالمرتدِ من أهلِ السلامِ عن دينه. وكُلُّ خارجٍ من دينٍ كان عليه إلى آخرَ غيرِه، تُسَمِّيه العربُ: «صابئاً». يقال منه: «صَبأ فلان يَصْبأ صَبأ». ويقال: «صَبأت النُّجوم»: إذا طَلعت. «وصَبأ علينا فُلان موضعَ كذا وكذا»، يعني به: طلع.

واختلف أهـلُ التأويل فيمن يَلْزَمُهُ هذا الاسم من أهلِ المِلَلِ. فقال بعضهم: يلزم ذلك كُلَّ مَنْ خرجَ من دينٍ إلى غير دين. وقالوا: الذين عَنى الله بهذا الاسم، قومٌ لا دِينَ لهم.

وقال آخرون: هم قومٌ يعبدون الملائكة ويُصَلُّون إلى القِبلة.

وقال آخرون: بل هم طائفةٌ من أهل الكتاب[1].

القـول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

يعني بقوله: «من آمَن بالله واليوم الآخر»، مَنْ صدَّق وأقرَّ بالبعثِ بعد الممات يوم القيامة، وعمل صالحاً فأطاع الله، فلهم أجْرُهُم عند ربهم. يعني بقوله: «فلهم أجرهم عند ربهم»، فلهم ثوابُ عَمَلِهم الصالح عند ربهم.

فإنْ قال لنـا قائـل: فأين تَمـامُ قولـه: «إنَّ الـذين آمنـوا وَالذين هَادوا وَالنصارى وَالصابئين»؟

قيل: تَمامُهُ جملةُ قَوله: «مَنْ آمَن بالله واليوم الآخر». لأن معناه: مَنْ آمن منهم بالله واليومِ الآخِر، فترك ذِكْرَ «منهم» لدلالةِ الكلامِ عليه، استغناءً بما ذَكر عما تَرَكَ ذِكْرَهُ.

---

(١) لعل هذا هو الأصح إن شاء الله، لما نعرفه من عقائد الموجودين الآن منهم في العراق.

فإنْ قال: وما معنى هذا الكلام؟

قيل: إنَّ معناه: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، مَنْ يؤمنْ بالله وَاليومِ الآخر، فلهُم أجْرُهم عند ربِّهم.

فإن قال: وكيف يُؤمن المؤمن؟

قيل: ليس المعنى في المؤمن المعنى الذي ظَنَنْتَهُ، من انتقالٍ من دِينٍ إلى دين، كانتقال اليهوديِّ والنصرانيِّ إلى الإيمان ـ وإنْ كان قد قيل إنَّ الذين عُنُوا بذلك، مَنْ كان من أهلِ الكتابِ على إيمانهِ بعيسى وبما جاء به، حتى أدرك محمداً ﷺ فآمن به وصدَّقه، فقيل لأولئك الذين كانوا مؤمنين بعيسى وبما جاء به، إذْ أدْركُوا محمداً ﷺ: آمِنُوا بمحمدٍ وبما جَاء به ـ ولكن معنى إيمانِ المؤمنِ في هذا الموضع، ثباتُه على إيمانهِ وتَرْكُه تبديلَهُ. وأما إيمانُ اليهود والنصارى والصابئين، فالتصديقُ بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به، فَمَنْ يؤمن منهم بمحمدٍ وبما جاء به واليوم الآخر، ويَعملْ صالحاً، فلم يبدِّلْ ولم يغيِّرْ حتى توفيَ على ذلك، فله ثوابُ عملهِ وأجرة عند ربه، كما وصف جلّ ثناؤه.

وأما قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾

فإنـه يعني به جَلَّ ذِكْرُه: ولا خوفٌ عليهم فيما قَدِموا عليه من أهوالِ القيامة، ولا هم يحزنون على ما خَلَّفُوا وراءهم من الدنيا وَعيشها، عند معاينتهم ما أعدَّ الله لهم من الثوابِ والنعيم المقيم عنده.

فكـان إيمـانُ اليهـود: أنه مَنْ تمسَّكَ بالتوراةِ وسُنةِ موسى، حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان مَنْ تمسَّكَ بالتوراة وأخذ بسُنة موسى ـ فَلَمْ يَدَعْهَا ولم يَتَّبِعْ عيسى ـ كان هالكاً. وإيمانُ النصارى: أنه مَنْ تَمَسَّكَ بالإنجيلِ منهم

وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه، حتى جاءَ محمد ﷺ، فمن لم يَتَّبِعْ محمداً ﷺ منهم ويَدَعْ ما كان عليه من سُنة عيسى والإنجيل - كان هالكاً.

والـذي قلنـا من التـأويل، أشبهُ بظاهر التنزيل. لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه لم يخصِّص - بالأجر على العملِ الصالح مَع الإيمان - بعضَ خَلْقِه دون بعضٍ منهم.

## القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾

«الميثاق»، «المفعال»، من «الوثيقة»، إمّا بيمينٍ، وإما بعهدٍ، أو غير ذلك من الوثائق.

ويعني بقوله: «وإذْ أخَذْنا ميثاقكم»، الميثاقَ الذي أخبرَ جَلَّ ثناؤُه أنه أَخَذَ منهم في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مَيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [البقرة: ٨٣-٨٥]، والآيات التي ذكر معها.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾

وأما «الطور» فإنَّهُ الجبلُ في كلامِ العرب.

وقيل: إنه اسمُ جبلٍ بعَيْنِهِ. وذُكِر أنه الجبلُ الذي ناجَى الله عليه موسى.

وقيل: إنّه من الجبال ما أنبتَ دُون ما لم يُنبت.

## القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾

اختلف أهلُ العربية في تأويل ذلك، والصوابُ في ذلك عندنا: أنَّ كُلَّ كلامٍ نُطِق به - مفهومٍ به معنى ما أريد - ففيه الكفاية من غيره.

ويعني بقوله: «خُذُوا مَا آتيناكم»، ما أمرناكم به في التوراة.

وأصلُ «الإيتاء»، الإعطاء.

ويعني بقوله: «بقُوّة»، بجدٍّ في تأديةِ ما أمرَكُم فيه وافترضَ عليكم.

فتأويل الآية إذاً: خُذُوا ما افترضناهُ عليكم في كتابنا من الفرائض، فاقبلوه، واعملوا باجتهادٍ منكم في أدائهِ، من غيرِ تقصيرٍ ولا توانٍ. وذلك هو معنى أخذهم إياه بقُوَّةٍ، بجدٍّ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يعني: واذكروا مَا فيما آتيناكُم من كتابنا من وَعْدٍ ووعيدٍ شديد، وترغيبٍ وترهيب، فاتْلُوه، واعتَبِرُوا به، وتَدَبَّرُوهُ إذا فعلتم ذلك، كي تَتَّقُوا وتَخافوا عقابي، بإصرارِكم عَلى ضَلالِكم، فتنتهوا إلى طاعتي، وتَنْزِعُوا عما أنتُمْ عليه من مَعصيتي. والذي آتاهم الله هو التوراة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «ثم تَوَلَّيتم»: ثم أعْرَضْتُم. وإنما هو «تفعَّلتم» من قولهم: «ولّاني فُلَان دُبُرَهُ» إذا استدبرَ عنه وخلَّفه خَلْفَ ظهره. ثم يستعمل ذلك في كل تاركِ طاعةٍ أُمِرَ بها، ومُعْرِضٍ بوجهه. يقال: قد تولَّى فلانٌ عن طاعةِ فلان، وتولَّى عن مواصلته»، ومنه قول الله جلّ ثناؤه ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُون﴾ [التوبة: ٧٦]، يعني بذلك: خالفوا ما كانوا وَعَدُوا الله من قولهم: ﴿لَئِن آتانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ من الصَّالِحِين﴾ [التوبة: ٧٥]، ونبذوا ذلك وراء ظُهورهم.

ومن شأن العرب استعارةُ الكلمةِ ووضعها مكانَ نَظِيرها.

ونظائر ذلك في كلام العرب أكثر من أنْ تُحصى.

فكذلك قوله: «ثم تَوليتمْ من بعد ذلك»، يعني بذلك: أنكم تركتم العملَ بما أخذْنا ميثاقكم وعُهودَكم على العملِ به بجدٍّ واجتهاد، بعد إعطائكم ربَّكم المواثيقَ على العملِ به، والقيامِ بما أمركم به في كتابكم، فنبذتُمُوه وراءَ ظهوركم.

وكنَى بقوله جَلَّ ذِكْرُه: «ذلك»، عن جميعِ ما قبله في الآية المتقدمة، أعني قوله: «وإذْ أخذنا ميثاقكم ورَفعنا فوقكم الطورَ».

## القول في تأويل قوله تعالى ذِكْرُه: فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ

يعني بقوله جَلَّ ذكره: «فلوْلا فَضْلُ الله عَليكم»، فلولا أنَّ الله تَفَضَّلَ عليكم بالتوبةِ - بعد نَكْثِكم الميثاقَ الذي واثقتُموه - إذْ رفع فوقكم الطور - بأنكم تجتهدون في طاعتِه، وأداءِ فرائضِه، والقيام بما أمركم به، والانتهاءِ عما نهاكم عنه في الكتابِ الذي آتاكم، فأنعمَ عليكم بالإسلام ورحمته التي رَحمكم بها، وتجاوز عنكم خَطيئتكم التي ركبتُموها، بمراجعتكم طاعةَ ربكم - لكنتم من الخاسرين.

وهـذا، وإنْ كان خطاباً لِمَنْ كان بين ظَهرانيْ مُهَاجَر رسولِ الله ﷺ من أهلِ الكتاب أيامَ رسول الله ﷺ، فإنما هو خَبَرٌ عن أسلافهم - فأخرجَ الخبرَ مُخرجَ المخبَرِ عنهم - على نحو ما قد بَيَّنا فيما مضى، من أنَّ القبيلةَ من العرب تخـاطبُ القبيلةَ عند الفخار أو غيره، بما مضى من فِعل أسلافِ المخاطِب

بأسلاف المخاطَب، فتضيف فعل أسْلاف المخاطِب إلى نفسها فتقول: فعلنا بكم وفعلنا بكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٦٤﴾

فلولا فضلُ الله عليكم ورحمته إياكم ـ بإنقاذه إياكم بالتَّوبة عليكم من خطيئتكم وجُـرْمكم ـ لكنتم الباخسين أنفسكم حُظوظَها دائماً، الهالكين بما اجترمتم من نَقض ميثاقكم، وخلافكم أمرَهُ وطاعته.

وقد تقدم بياننا قَبْلُ عن معنى «الخسار»، بما أغنى عن إعادتِهِ في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾

يعني بقوله: «وَلقدْ علمتم»، ولقد عَرَفتم. كقولك: «قد عَلمتُ أخاك، ولم أكُنْ أعلمه»، يعني عرفته، ولم أكن أعرفه، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، يعني: لا تعرفونهم الله يعرفهم.

وقوله: «الذينَ اعْتَدَوا منكم في السبت»، أي الذين تجاوزوا حَدِّي وركبوا ما نَهَيْتُهم عنه في يوم السبتِ، وَعَصَوا أمْري.

وقد دللت ـ فيما مضى ـ على أنّ «الاعتداء»، أصلُه تجاوزُ الحدِّ في كُلِّ شيءٍ. بما أغنى عن إعادتهِ في هذا الموضع.

وهذه الآية وآيات بَعدها تتلوها، مِمَّا عَدَّدَ جَلَّ ثناؤهُ فيها على بَني إسرائيل

- الذين كانوا بين خلال دور الأنصار زمانَ النبيِّ ﷺ، الذين ابتدأ بذكرهم في أول هذه السورة من نَكْثِ أسلافهم عهدَ الله وميثاقه - ما كانوا يُبرمون من العقود، وحَذَّرَ المخاطَبين بها أنْ يحلَّ بهم - بإصرارهم على كفرِهم، ومُقامهم على جحودِ نُبوَّةِ محمدٍ ﷺ، وتركهم اتباعَه والتصديقَ بما جاءهم به من عند ربِّهِ - مثلُ الذي حَلَّ بأوائِلهم من المَسْخِ والرَّجْف والصعق، وما لا قِبَلَ لهم به من غَضَب الله وسَخَطه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۝٦٥﴾

يعني بقوله: «فقلنا لهم» أي: فقلنا للذين اعتدَوْا في السبت - يعني في يوم السبت.

وأصلُ «السَّبْتِ»، الهدُوُّ والسكونُ في رَاحة وَدَعة، ولذلك قيل للنائم «مَسْبُوت» لهدوِهِ وسكونِ جسده واستراحته، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾ [النبأ: ٩] أي راحةً لأجسادكم. وهو مصدر من قول القائل: «سبت فلان يَسْبُتُ سَبْتاً».

وقوله: «كُونوا قرَدةً خَاسئين»، أي: صِيرُوا كذلك.

و«الخاسيء» المُبْعَدُ المطرودُ، كما يخسأ الكلبُ يقال منه: «خَسأْتُه أخسؤُه خَسْأً وخسُوءاً، وهو يَخسأ خُسوءاً». قال: ويقال: «خَسَأته فَخسَأَ وَانخَسأ».

فكذلك معنى قوله: «كونُوا قِرَدةً خاسئين» أي، مُبْعَدِينَ من الخير أذلَّاء صُغَراء.

## القول في تأويل قوله تعالى: فَجَعَلْنَاهَا

اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ «الهاء والألف» في قوله: «فجعلناها»، وعلامَ هي عائدة؟ فروي عن ابن عباس فيها قولان:

**أحدهما**: فجعلنا تلك العُقوبةَ ـ وهي المَسخة ـ «نكالاً».

فالهاءُ والألف من قوله: «فجعلناها» ـ على قول ابن عباس هذا ـ كناية عن «المَسْخة»، وهي «فَعلة» من مَسخهم الله مَسخةً.

فمعنى الكلام على هذا التأويل: فقلنا لهُم: كونوا قردة خاسئين، فصاروا قِرَدةً مَمْسُوخينَ، «فجعلناها»، فجعلنا عقوبَتنا ومسخَنا إياهم، «نكالاً لما بَين يَدَيها وَمَا خَلْفَها وَمَوْعظةً للمتقين».

**والقول الآخر**: من قولي ابن عباس: «فجعلناهَا»، يعني الحِيتان.

«والهاء والألف» ـ على هذا القول ـ من ذكر الحيتان، ولم يَجْرِ لها ذِكْرٌ. ولكن لما كان في الخبر دلالة، كَنَى عن ذكرها. والدلالة على ذلك قوله: ولقد عَلِمْتُم الذين اعْتَدَوْا مِنْكُمْ في السبتِ».

## القول في تأويل قوله: نَكَـٰلًا

و«النَّكـال» مصدرٌ من قول القائل: «نَكَّل فلان بفلان تَنكيلاً وَنكالاً». وأصل «النَّكال»، العقوبة.

## القول في تأويل قوله تعالى: لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا

وأوْلَىٰ التـأويلات بتـأويل الآية: «لمـا بين يديها»: يقول: لِيَحْذَرْ مَنْ

بَعْدَهُم عقوبتي. «وما خلفها»: يقول: الذين كانوا بقوا معهم. وذلك لما وصفنا من أن «الهاء والألف» ـ في قوله: «فجعلناها نكالاً» ـ بأنْ تكونَ من ذكر العقوبة والمَسخة التي مَسخَها القوم، أوْلى منها بأنْ تكونَ من ذكر غيرها. مِنْ أجلِ أنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤهُ إنما يحذِّر خَلْقَهُ بأسَهُ وسطوَته، وبذلك يُخوفهم. وفي إبانتهِ عَزَّ ذِكْرُه ـ بقوله: «نكالاً»: أنه عَنى به العقوبةَ التي أحَلَّها بالقوم ـ ما يُعْلِمُ أنه عَنَى بقوله: «فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها»، فجعلنا عقوبتنا التي أحْللناها بهم عقوبةً لما بين يديها وما خلفها ـ دون غيره من المعاني. وإذْ كانت «الهاء والألف» ـ بأنْ تكونَ من ذكر المسخة والعقوبة، أولى منها بأنْ تكونَ من ذِكْرِ غيرِها؛ فكذلك العائد في قوله: لما بين يَدَيْها وما خَلفها» من «الهاء والألف»: أنْ يكون من ذكر «الهاء والألف» اللَّتَيْنِ في قوله: «فَجعلناها»، أولى من أنْ يكون من ذكر غيره.

فتأويلُ الكلام ـ إذْ كان الأمرُ على ما وَصَفْنَا ـ: فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين، فجعلنا عقوبتنا لهم عقوبةً لما بين يَديها من ذنوبهم السالفة منهم، بمَسْخِنَا إياهم وعقوبتنا لهم ـ ولما خلفَ عقوبتنا لهم من أمثال ذنوبهم: أنْ يعمل بها عامل، فَيُمْسَخُوا مثل ما مُسخوا، وأنْ يحلَّ بهم مِثْل الذي حَلَّ بهم، وتحذيراً من الله تعالى ذِكْرُهُ عبادَه: أنْ يأتوا من مَعاصيهِ مِثْلَ الذي أتى المَمْسُوخون، فَيُعَاقَبوا عقوبتهم.

القول في تأويل قوله تعالى: **وَمَوْعِظَةً**

و«الموعظة»، مصدر من قول القائل: «وَعظتُ الرجل أعِظه وَعظاً وَمَوْعظة»، إذا ذكَّرته.

فتأويل الآية: فجعلناها نَكالاً لما بين يديها وما خلفها وَتَذْكِرَةً للمتقين، ليتَّعظوا بها، ويعتبرُوا، ويتذكروا بها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ۝٦٦﴾

وأمّا «المتقون»، فهم الذين اتقوا، بأداء فرائضه واجتنابِ معاصيه.

فجعل تعالى ذِكْرُه ما أحلَّ بالذين اعتدَوْا في السبتِ من عقوبتهِ، موعظةً للمتقين خاصَّةً، وعبرةً للمؤمنين، دون الكافرينَ به إلى يوم القيامة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾

وهـذه الآية مما وبَّخَ الله بها المخاطَبين من بني إسرائيل، في نَقْض أوائلهم الميثاقَ الذي أخذه اللهُ عليهم بالطاعةِ لأنبيائه، فقال لهم: واذكروا أيضاً من نكْثكم ميثاقي، «إذ قَال مُوسى لقومه» - وَقوْمُه بنو إسرائيل، إذ ادَّارَأُوا في القتيلِ الذي قُتل فيهم إليه - «إنَّ الله يأمرُكم أنْ تَذبحوا بَقرَة قالوا أتتَّخِذُنَا هُزُواً».

و«الهزُؤ»: اللعب والسخرية.

ولا ينبغي أن يكون من أنبياء الله - فيما أَخْبَرَتْ عن الله من أمرٍ أو نهيٍ - هزُؤٌ أو لَعِبٌ. فظنوا بموسى أنه في أمرِه إياهم - عن أمرِ الله تعالى ذِكْرُه بذبحِ البقرة عند تَدَارُئِهم في القتيلِ إليه - أنه هازِئٌ لاعبٌ. ولم يكن لهم أنْ يَظُنُّوا ذلك بنبيٍّ الله، وهو يخبرهم أنَّ الله هو الذي أمرَهم بذبح البقرة.

فأخبرهم موسى - إذْ قالوا له ما قالوا - أنَّ المخبر عن الله جلّ ثناؤه بالهزء والسخرية، من الجاهلين. وبَرَّأَ نَفْسَهُ مما ظنوا به من ذلك فقال: «أعوذُ بالله أنْ أكونَ من الجاهلين»، يعني: من السفهاء الذين يروون عن الله الكذب والباطل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾

فقال الذين قيل لَهم: «إنَّ الله يأمركم أنْ تَذْبَحُوا بَقرة» - بعد أنْ عَلِمُوا واستقرَّ عندهم، أنَّ الذي أمَرَهُم به موسى عليه السلام من ذَلك عن أمرِ الله من ذَبْحِ بقرة - جدٌّ وحَقٌّ، «ادعُ لنا ربك يُبيِّنْ لنا ما هِيَ»، فسألوا موسى أن يسأل رَبه لهم ما كان الله قد كَفَاهُم بقوله لهم: «اذبحوا بقرة». لأنه جَلَّ ثناؤهُ إنما أمرهم بذبحِ بقرةٍ من البقر - أيّ بقرةٍ شاءُوا ذَبْحَها من غيرِ أنْ يحصر لهم ذلك على نوعٍ منها دون نوعٍ أو صنفٍ دون صنف - فقالوا بجفاءِ أخلاقِهم وغِلَظِ طبائعهم، وسُوء أفهامهم، وتكلُّف ما قد وضعَ اللهُ عنهم مَؤُنته، تَعنُّتاً منهم لرسولِ الله ﷺ.

فلما تكلَّفُوا جَهلاً منهم مَا تكلَّفوا - من البحثِ عما كانوا قد كُفُوه من صِفةِ البقرةِ التي أُمِرُوا بذبحها، تعنُّتاً منهم نَبيَّهم مُوسَى صلوات الله عليه، بعد الذي كانوا أظهروا له من سوءِ الظنِّ به فيما أخبرهم عن الله جلّ ثناؤه، بقولهم: «أتتخـذنا هزواً» - عاقبهم عَزَّ وجل بأنْ حَصَرَ ذَبْحَ ما كان أمَرَهُم بذبحهِ من البقر، على نوعٍ منها دون نوعٍ، فقال لهم جَلَّ ثناؤه - إذْ سألوه فقالوا: ما هي؟ ما صفتها؟ وما حِلْيتها؟ حَلِّها لنا لنعرفها! - قال: «إنها بَقَرَةٌ لا فَارضٌ ولا بكرٌ».

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «لا فَارِضٌ»، لا مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ. يقال منه: «فرضتْ البقرة تَفرِضُ فُروضاً»، يعني بذلك: أَسَنَّتْ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾

و«البِكر» من إناثِ البهائم وبني آدم، ما لم يفتَحِلْهُ الفَحْلُ، وهي مكسورة

الباء. لم يسمع منه «فَعَل» ولا «يفعل». وأما «البَكْرُ» بفتح الباء، فهو الفتيُّ من الإبل.

وإنما عنَى جلّ ثناؤه بقوله «وَلا بِكْرٌ» ولا صغيرة لم تَلِدْ.

القول في تأويل قوله تعالى: عَوَانٌ

«العوَان» النَّصَف التي قد وَلَدت بَطناً بعد بطنٍ، وليست بنعتٍ للبكر. يقال منه: «قد عَوَّنت»، إذا صارت، كذلك.

وإنما معنى الكلام أنه يقول: إنها بقرة لا فارضٌ ولا بِكْرٌ بَلْ عوانٌ بين ذلك. ولا يجوز أن يكون «عوَانٌ» إلا مبتدأ. لأن قوله «بين ذلك»، كناية عن الفارض والبكر، فلا يجوز أن يكون متقدِّماً عليهما.

وَجمعها «عُوْنٌ». يقال: «امرأة عَوَانٌ، من نسوة عُون».

وبقرة «عَوَانٌ، وَبقر عُونٌ». قال: ورُبما قالت العرب: «بقر عُوُنٌ» مثل «رُسُلٌ»، يطلبون بذلك الفرق بين جمع «عَوَان» من البقر، وجمع «عَانَة» من الحُمُر. ويقال: «هذه حرب عَوَان»، إذا كانت حرباً قد قُوتِلَ فيها مرة بعد مرة. يُمثِّلُ ذلك بالمرأة التي ولدت بَطناً بعد بطن. وكذلك يُقال: «حَاجة عَوَانٌ»، إذا كانت قد قُضيت مرة بعد مرة.

القول في تأويل قوله تعالى: بَيْنَ ذَٰلِكَ

يعني بقوله: «بين ذلك»، بين البكر والهرمة.

فمعنى الكلام: قال إنه يقولُ إنها بقرةٌ لا مسنَّة هرِمة، ولا صغيرةٌ لم تلد، ولكنها بقرة نَصَفٌ قد ولدت بطناً بعد بطن، بين الهرَم والشباب. فجمع «ذلك»

معنى الهرم والشباب لما وصفنا. ولو كان مكان الفارض والبكر اسما شخصين، لم يجمع مع «بين» «ذلك». وذلك أن «ذلك» لا يؤدِّي عن اسم شخصين. وغيرُ جائز لمنْ قال: «كنت بين زيد وعمرو»، أن يقول: «كنت بين ذلك»، وإنما يكونُ ذلك مع أسماء الأفعال دون أسماء الأشخاص.

القولِ في تأويل قوله تعالى: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾

يقول الله لهم جلّ ثناؤه: افْعَلُوا ما آمُرُكُم به، تُدْرِكُوا حاجاتكم وطلباتكم عنـدي، واذبحوا البقرةَ التي أمرتكم بذبحها، تَصِلُوا - بانتهائكم إلى طاعتي بذبحها - إلى العلمِ بقاتلِ قتيلكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ﴾

ومعنى ذلك: قال قومُ موسى لموسى: ادْع لنا ربك يُبيِّنْ لنا ما لونها؟ أي لون البقرة التي أمَرْتَنا بذبحها. وهذا أيضاً تعنُّتٌ آخرُ منهم بعد الأول، وتكلُّفُ طَلَبِ ما قد كانوا كُفُوهُ في المرة الثانية والمسألة الآخرة. وذلك أنهم لم يكونوا حُصِرُوا في المرةِ الثانية - إذ قيل لهم بعد مسألتهم عن حِلْيَةِ البقرةِ التي كانوا أُمِرُوا بذبحها، فأبوا إلا تَكَلُّفَ ما قد كُفُوه من المسألةِ عن صفتها، فحُصِروا على نوعٍ دون سائرِ الأنواع، عقوبةً من الله لهم على مَسألتهم التي سألوها نبيَّهم ﷺ، تعنتاً منهم له. ثم لم يحصُرهم على لونٍ منها دون لون، فأبَوْا إلا تَكَلُّفَ ما كانوا عن تكلُّفهِ أغنياء، فقالوا - تعنُّتاً منهم لنبيهم ﷺ، «ادْعُ لنا ربك يبيِّن لنـا ما لونها»، فقيل لهم عقوبةً لهم: «إنها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونها تَسُرُّ الناظرين». فحُصِرُوا على لونٍ منها دون لون. ومعنى ذلك: أن البقرة التي أمرتكم بذبحها صفراءُ فاقعٌ لونها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾

يعني: خالصٌ لونُها. و«الفقوع» في الصفرة، نظير «النُّصُوع» في البياض، وهو شِدَّتُه وصفاؤه، يقال منه: «فَقع لونه يفقَعُ ويفقُعُ فَقعاً وفُقوعاً، فهو فاقعٌ».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩﴾

يعني بقوله «تسر الناظرين»، تُعجب هذه البقرة - في حُسْنِ خَلْقِها وَمنظرها وَهيئتها - الناظرَ إليها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠﴾

يعني بقوله: «قالوا»، قال قومُ مُوسى - الذين أُمِرُوا بذبح البقرة - لموسى. فترك ذِكْرَ موسى، وذَكَرَ عائِدَ ذِكْرِهِ، اكتفاءً بما دَلَّ عليه ظاهرُ الكلام. وذلك أن معنى الكلام: قالوا له: ادعُ ربَّك. فلم يذكر «له» لما وصفنا.

وقوله: «يبيِّن لَنا ما هي»، خبرٌ من الله عن القوم بجَهْلةٍ منهم ثالثة. وذلك أنهم لو كانوا، إذْ أُمِرُوا بذبحِ البقرةِ، ذَبَحُوا أيَّتَها تَيَسَّرَتْ مما يقعُ عليه اسمُ بقرةٍ، كانت عنهم مُجْزِئةً، ولم يكن عليهم غيرُها، لأنهم لم يكونوا كُلِّفُوها بصفةٍ دون صفة. فلما سألوا بيانها بأيِّ صفةٍ هيَ، بَيَّنَ لهم أنها بِسِنٍّ من الأسنانِ دون سِنٍّ سائر الأسنان، فقيل لهم: هي عَوانٌ بَين الفارض والبكر والضرع. فكانوا - إذْ بُيِّنَتْ لهم سِنُّها - لو ذبحوا أدنى بَقرَة بالسن التي بُيِّنت لهم، كانت عنهم مُجزئةً، لأنهم لم يكونوا كُلِّفوها بغير السن التي حُدَّتْ لَهم،

ولا كانوا حُصِرُوا على لونٍ منها دون لون. فلما أبوا إلا أنْ تكونَ مُعَرَّفَةَ لهم بنعوتها، مبينةً بحدودها التي تُفَرِّقُ بينها وبين سائرِ بهائمِ الأرض، فَشَدَّدُوا على أنفسهم ـ شدَّد الله عليهم بكثرةِ سُؤالهم نبيِّهم واختلافِهم عليه.

ولكن القوم لما زَادوا نبيَّهم موسى ﷺ أذىً وَتعنُّتاً، زادَهُمْ اللهُ عقوبةً وتشديداً.

وفي أقـوال الصحـابـة والتابعين والخالِفين بعدهم ـ من قولهم إن بني إسرائيل لو كانوا أخَذُوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأتْ عنهم، ولكنهم شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عليهم ـ من أوضح الدلالة على أنَّ القوم كانوا يرون أنَّ حُكْمَ الله، فيما أمَـرَ ونهى في كتـابـهِ وعلى لسـانِ رَسُـولـه ﷺ، على العموم الظاهر، دون الخصوصِ الباطن، إلا أنْ يخصَّ بعضَ ما عمَّه ظاهرُ التنزيل كتابٌ من اللهِ أو رسولِ الله؛ وأنَّ التنزيلَ أو الرسولَ، إنْ خصَّ بعض ما عمَّه ظاهرُ التنزيلِ بحكمٍ خلاف ما دَلَّ عليه الظاهر، فالمخصوصُ من ذلك خارجٌ من حكمِ الآية التي عَمَّتْ ذلك الجنسَ خاصة، وسائرُ حُكم الآية على العموم؛ على نحو ما قد بَيَّنـاه في كتـابنا (كتاب الرسالة) من (لطيف القول في البيان عن أصول الأحكـام) ـ في قولنـا في العمومِ والخصوص، وموافقةِ قولهم في ذلك قولَنا ومذهبِهم مذهبَنا، وَتخطئتهم قولَ القائلين بالخصوص في الأحكام، وشهادَتهم على فسادِ قولِ مَنْ قالَ: حُكم الآية الجائية مجيءَ العُمومِ على العموم، ما لم يُختصَّ منها بعض ما عَمَّتْهُ الآية. فإن خُصَّ منها بعضٌ، فحكمُ الآية حينئذٍ على الخصوص فيما خُصَّ منها، وسائر ذلك على العموم.

وأما تأويل قوله: «تَشابَهَ علينا»، فإنه يعني به: التَبَس علينا.

و«تَشَابَهَ علينا»، بتخفيف الشين ونصب الهاء، على مثال «تَفاعل»، ويذكِّر الفعلَ، وإن كان «البقر» جماعاً. لأنَّ من شأنِ العربِ تذكيرَ كُلِّ فِعْلِ جَمْعٍ

كانت وِحْدَانُهُ بالهاء، وجمعه بطرح الهاء - وتأنيثُه، كما قال الله تعالى في نظيره في التذكير: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، فذكَّر «المنقعر» وهو من صِفَةِ النخلِ، لتذكير لفظ «النخلة - وقال في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، فأنَّثَ «الخاوية» - وهي من صفة «النخل» - بمعنى النخل. لأنها وإنْ كانت في لفظِ الواحدِ المذكر - على ما وصفنا قَبْلُ - فهي جماع «نخلة».

وأما قوله «وإنَّا إنْ شَاءَ الله لَمهتدونَ»، فإنهم عنوا: وإنَّا إنْ شَاء الله لَمُبَيَّنٌ لنا ما التبسَ عَلينا وتَشابَهَ من أمرِ البقرة التي أمرنا بذبحها. ومعنى «اهتدائهم» في هذا الموضع معنى: «تبيُّنهم» أيَّ ذلك الذي لزمهم ذَبْحه مما سواه من أجناسِ البقر.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾

وتأويل ذلك: قال موسى: إن الله يَقول إنَّ البقرةَ التي أمرتكم بذَبحها بقرَةٌ لا ذَلولٌ. ويعني بقوله: «لا ذلولٌ»، أي لم يُذَلِّلْهَا العملُ. فمعنى الآية: إنها بقرةٌ لم تُذللها إثارةُ الأرض بأظلافها، ولا سُنِيَ عليها الماءُ فَيُسْقَى عليها الزرعُ. كما يقال للدابة التي قد ذَلَّلَها الركوبُ أو العمل: «دَابة ذَلُولٌ بَيِّنَةُ الذِّل» بكسر الذال. ويقال في مثله من بني آدم: «رجل ذَليل بَيِّنُ الذِّلِّ والذِّلة».

ويعني بقوله «تُثيرُ الأرضَ»، تقلبُ الأرض للحرث. يقال منه: «أثرتُ الأرضَ أُثيرها إثارة»، إذا قَلَبتها للزرع. وإنما وصفها جلّ ثناؤه بهذه الصفة، لأنها كانت - فيما قيل - وَحْشِية.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾

ومعنى «مُسلَّمة» «مفعَّلة» من «السَّلامة». يقال منه: «سُلِّمتْ تُسلَّم فهي مُسلَّمة»، يعني: لا عوار فيها.

فمعنىٰ الكلام: إنه يقول إنها بقرة لم تُذلِّلها إثارةُ الأرض وَقلبها للحراثةِ، ولا السُّنُوُّ عليها للمزارع، وهي مع ذلك صحيحةٌ مسلَّمة من العيوب.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾

يعني بقوله: «لا شية فيها»، لا لونَ فيها يخالفُ لونَ جلدها. وأصله من «وَشْيِ الثَّوب»، وهو تحسينُ عُيوبهِ التي تكونُ فيه، بضروبٍ مختلفة من ألوان سداه ولُحمته. يقال منه: «وَشَيْتُ الثوبَ فأنا أشِيه شِيةً ووَشْياً»، ومنه قِيلَ للسَّاعي بالرجل إلى السلطان أو غيره: «وَاشٍ»، لِكَذِبهِ عليه، وتحسينِه كذبه بالأباطيلِ. يقال منه: «وَشَيْتُ به إلى السلطان وِشايةً».

وإنما قيل: «لا شِيةَ فيها» وهي من «وَشَيت»، لأن «الواو» لما أُسْقِطت من أولها أبدلتْ مكانَها «الهاءُ» في آخرها. كما قيل: «وَزنته زِنة» و«وَسِنَ سِنةً» و«وَعدته عِدة» و«وَدَيْتُهُ دِيةً».

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾

(وتأويل ذلك): الآنَ بَيَّنْتَ لنا الحَقَّ في أمرِ البقر، فعرفنا أَيُّها الواجبُ علينا ذَبحها منها. لأنَّ الله جلّ ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم قد أطاعوهُ فذَبحوها، بعد قِيلهم هذا. مع غِلَظِ مُؤْونةِ ذَبحها عليهم، وثِقَلِ أمرها، فقال: «فذَبحوها وما كادوا يفعلون»، وإنْ كانوا قد قالوا ـ بقولهم: الآن بيَّنتَ لنا الحق ـ هُراءً

من القول، وأتَوْا خطأً وَجهلاً من الأمر. وذلك أنَّ نبيَّ الله موسى ﷺ كانَ مبيِّناً لهم - في كل مسألةٍ سألوها إياه، وردٍّ رادُّوه في أمرِ البقر - الحقَّ. وإنما يقال: «الآن بَيَّنتَ لنا الحق»، لمن لم يكن مبيِّناً قبلَ ذلك، فأما مَنْ كان كُلُّ قِيله - فيما أبانَ عن الله تعالى ذِكْرُه - حقاً وبياناً، فغيرُ جائزٍ أنْ يُقالَ له - في بعض ما أبانَ عن الله في أمره ونهيه، وأدّى عنه إلى عبادِه من فرائضهِ التي أوجبها عليهم -: «الآن جئتَ بالحق»، كأنه لم يكن جَاءهم بالحق قبل ذلك!

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ٧١﴾

يعني بقوله: «فَذَبحوها»، فذبح قومُ موسى البقرة، التي وَصَفَها الله لهم وأمَرهم بذبحها.

ويعني بقوله: «وَما كادُوا يَفعلونَ»، أي: قاربوا أن يَدَعُوا ذَبْحَها، ويتركوا فَرْضَ الله عليهم في ذلك.

ثم اختلف أهلُ التأويل في السبب الذي من أجله كادوا أن يُضِيعوا فَرْضَ الله عليهم، في ذبح ما أمرهم بذبحه من ذلك، والصوابُ من التأويل عندنا: أنَّ القومَ لم يكادوا يفعلون ما أمَرهم اللهُ به من ذبحِ البقرة، لخلَّتين إحداهما: غلاءُ ثمنهـا، مع ما ذُكر لنا من صِغَر خطرها وقلة قيمتها؛ والأخرى: خوفُ عظيمِ الفضيحةِ على أنفسهم، بإظهار الله نبيَّه موسى صلوات الله عليه وأتباعَه - على قاتلهِ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «وإذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً»، واذكروا يا بني إسرائيل إذْ قتلتم نفساً.

وقـوله: «فادّارأتم فيها»، يعني فاختلفتم وتنازعتم. وإنما هو «فتدارأتم فيها» على مثال «تفاعلتم»، من الدرءِ. و«الدَّرْء» العِوَج.

فكان اختلافهم وتنازُعهم وخصامُهم بينهم - في أمر القتيل - هو «الدَّرْء» الذي قال الله جلّ ثناؤه لذرِّيتهم وبقايا أولادهم: «فادّارأتم فيها والله مُخرجٌ ما كنتم تَكتمون».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢﴾

يعني بقوله: «والله مُخرج مَا كنتم تكتمون»، والله مُعْلِنٌ ما كنتم تُسِرُّونه من قَتلِ القتيل الذي قَتلتم، ثم ادارأتم فيه.

ومعنى «الإخراج» - في هذا الموضع - الإظهارُ والإعلان لِمَنْ خفيَ ذلك عنه، وإطلاعُهم عليه، كما قال الله تعالى ذكره: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّماوَاتِ والأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٧]، يعني بذلك: يُظْهِرُه ويطلِعُه من مَخْبئه بعد خفائهِ.

والذي كانوا يكتمونه فأخرجه، هو قتلُ القاتلِ القتيلَ. لما كتم ذلك القاتلُ وَمن عَلمه مِمَّنْ شايعه على ذلك، حَتى أَظهره الله وأخرَجه، فأعلن أمرَه لمن لا يعلم أمره.

وعنى جلّ ذكره بقوله: «تكتمون»، تُسِرُّون وتُغيِّبون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾

يعني جلّ ذكره بقوله: «فَقُلنا»، فقلنا لقوم موسى الذين ادَّارؤوا في القتيل - الـذي قد تَقَـدَّمَ وصفُنـا أمـره -: اضربوا القتيلَ. و«الهاء» التي في قوله:

«اضربوه»، من ذكر القتيل؛ «ببعضها» أي: ببعض البقرة التي أمَرَهُم الله بذبحها فذبحوها.

والصوابُ من القول عندنا في تأويل قوله: «فقلنا اضربوه ببعضها»، أنْ يقال: أمرهم الله جلّ ثناؤه أنْ يَضربُوا القتيلَ ببعض البقرة ليحيا المضروبُ. ولا دلالةَ في الآية، ولا في خبرٍ تقومُ به حُجَّةٌ، على أيِّ أبعاضِها التي أمر القوم أن يضربُوا القتيل به. وجائزٌ أنْ يكونَ الذي أُمِروا أن يضربوه به هو الفخذ، وجائزٌ أن يكون ذلك الذَّنَبُ وغُضروفُ الكتفِ، وغيرُ ذلك من أبعاضها. ولا يَضُرُّ الجهلُ بأيِّ ذلك ضَرَبُوا القتيلَ، ولا ينفعُ العِلْمُ به، مع الإقرار بأنَّ القومَ قد ضربوا القتيلَ ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله.

فإنْ قال قائل: وما كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها؟ قيل: ليحيا فَيُنْبِىءَ نبيَّ الله موسى ﷺ والذين ادَّارَؤُوا فيه ـ مَنْ قاتله.

فإن قال: وأين الخبرُ عن أنَّ الله جَلَّ ثناؤه أمرَهم بذلك لذلك؟

قيل: تُرِكَ ذلك اكتفاءً بدلالةِ ما ذُكِرَ من الكلامِ الدالِّ عليه ـ نحوَ الذي ذكرنا من نظائرِ ذلك فيما مضى. ومعنى الكلام: فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا، فضربوه فحيي ـ: كما قال جلّ ثناؤه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، والمعنى: فضرَب فانفلق ـ دل على ذلك قوله: «كذلك يُحيي الله الموتى ويُريكم آياته لَعلكم تَعقلون».

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

وقوله: «كذَلك يُحْيِي الله الموتى»، مخاطبةٌ من الله عبادَه المؤمنين، واحتجاجٌ منه على المشركين المكذبين بالبعث، وأمْرُهم بالاعتبارِ بما كان منه جَلَّ ثناؤه من إحياءِ قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدنيا. فقال لهم تعالى

ذِكْرُه: أيها المكذبون بالبعث بعدَ الممات، اعتبروا بإحيائي هذا القتيلَ بعد مماتِه، فإنِّي كما أَحْيَيْتُهُ في الدنيا، فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يومَ البعثِ.

وإنمـا احتج جَلَّ ذِكْرُه بذلك على مشركي العرب، وهم قومٌ أُميُّون لا كتـابَ لهم، لأنَّ الـذين كانوا يعلمون عِلْمَ ذلك من بني إسرائيل كانوا بين أظهُرِهم، وفيهم نزلتْ هذه الآياتُ. فأخبرهم جَلَّ ذِكْرُه بذلك، ليتعرفوا عِلْمَ مَنْ قبلهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾

يعني جلّ ذكره: ويُرِيكمُ اللهُ أيها الكافرون المُكَذِّبُونَ، بمحمدٍ ﷺ، وبما جاء به من عند الله، من آياته ـ وآياتُهُ: أعلامُه وحججه الدالةُ على نبوته لتعقِلُوا وتَفهموا أنه مُحِقٌّ صادق، فتؤمنوا به وتَتَّبِعُوهُ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾

يعني بذلك كفار بني إسرائيل، وهم ـ فيما ذكر ـ بنو أخي المقتول، فقال لهم: «ثم قَستْ قُلوبكم»، أي جَفَّت وَغَلظت وَعَسَتْ.

يقال: «قسا» و«عسا» و«عتا» بمعنى واحد، وذلك إذا جَفا وغلظ وصَلُبَ. يقال منه: «قَسا قَلْبُه يَقسُو قَسْواً وَقَسْوَة وَقَسَاوةً وَقَسَاءً».

ويعني بقوله: «مِنْ بَعد ذَلك»، مِنْ بعد أنْ أحيا المقتولَ لهم ـ الذي ادَّارأوا في قتله، فأخبرَهم بقاتلهِ، وبالسببِ الذي مِنْ أجلهِ قَتَلَهُ، وفَصَلَ اللهُ

تعالى ذِكرُه بخبره بين المُحِقِّ منهم والمُبْطِلِ. وكانت قساوةُ قلوبهم التي وَصَفَهُم اللهُ بها، أنهم ـ فيما بلغنا ـ أنكروا أنْ يكونوا هُم قتلوا القتيلَ الذي أحياهُ الله، فأخبر بني إسرائيل بأنهم كانوا قَتَلَتَهُ، بعد إخبارِهِ إياهم بذلك، وبعد مِيتَتِهِ الثانية.

## القولُ في تأويل قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

يعني بقوله: «فهي»: «قلوبكم». يقول: ثم صلبت قلوبكم ـ بعد إذ رأيتمُ الحَقَّ فَتَبَيَّنْتُموهُ وعرفتموه ـ عن الخضوعِ لهُ، والإذعانِ لواجبِ حَقِّ الله عليكم، فقلوبكم كالحجارةِ صَلابةً ويُبْساً وغِلَظاً وشِدَّة، «أو أشد قَسوة»، يعني: قلوبُهم ـ عن الإذعانِ لواجبِ حَقِّ الله عليهم، والإقرارِ له باللازمِ من حقوقهِ لهم ـ أشد صلابةً من الحجارة.

فإن سأل سائل فقال: وما وجه قوله: «فهي كالحجارة أو أشدُّ قَسوة»، و«أو» عند أهل العربية، إنما تأتي في الكلام لمعنى الشَّكِّ، واللهُ تعالى جَلَّ ذكره غيرُ جائزٍ في خَبَرِهِ الشكُّ؟

قيل: إنَّ ذلك على غيرِ الوجهِ الذي توهَّمته، من أنه شَكٌّ من الله جَلَّ ذِكْرُه فيما أخبرَ عنه، ولكنه خبرٌ منه عن قلوبهم القاسية، أنها ـ عند عباده الذين هُم أصحابها، الذين كَذَّبُوا بالحق بعد ما رأوا العظيمَ من آياتِ الله ـ كالحجارةِ قَسوةً أو أشد من الحجارةِ، عندهم وعند مَنْ عرف شأنهم.

وقد قال في ذلك جماعةٌ من أهلِ العربية أقوالاً. فقال بعضهم: إنما أراد الله جلّ ثناؤه بقوله «فهي كالحجارة أو أشدُّ قَسوةً»، وما أشبه ذلك من الأخبار التي تأتي بـ«أو» كقوله: ﴿وأَرْسَلْنَاهُ إلى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُون﴾ [الصافات: ١٤٧]، وكقولِ الله جلّ ذكره: ﴿وإنَّا أَوْ إيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَىً أَوْ فِي

ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] الإبهامَ على مَنْ خَاطَبَهُ، فهو عالمٌ أيُّ ذلك كان. قالوا: ونظيرُ ذلك قولُ القائل: «أكلتُ بُسْرة أو رُطبة»، وهو عالم أيَّ ذَلك أكل، ولكنه أبهم على المخاطب.

وقال بعضهم: ذلك كقول القائل: «ما أطعمتك إلا حُلواً أو حامضاً»، وقد أطعمه النوعين جميعاً. فقالوا: فقائلُ ذلك لم يكن شاكاً أنَّه قد أطْعم صاحبَه الحُلوَ والحامضَ كليهما، ولكنه أراد الخبر عَمَّا أطْعمه إياهُ أنه لم يَخْرُجْ عن هذين النوعين. قالوا: فكذلك قوله: «فهي كالحجارةِ أو أشد قسوة»، إنما معناه: فقلوبُهم لا تخرجُ من أحدِ هذين المِثْلين، إما أنْ تكون مِثْلاً للحجارة في القسوة، وإما أنْ تَكون أشد منها قسوة. ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضُها كالحجارةِ قسوةً، وبعضُها أشد قسوةً من الحجارة.

وقال بعضهم: «أو» في قوله: «أو أشد قسوة»، بمعنى، وأشد قَسوة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ولَا تُطِعْ مِنْهُم آثِماً أوْ كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٢٤] بمعنى: وكفُوراً.

وقال آخرون: «أو» في هذا الموضع بمعنى «بل»، فكأن تأويله عندهم: فهي كالحجارة بَلْ أشَدُّ قسوةً، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وأَرْسَلناه إلى مِئَة ألفٍ أو يَزِيدُون﴾ [الصافات: ١٤٧]، بمعنى: بل يزيدون.

وقال آخرون: معنى ذلك فهي كالحجارة، أو أشد قسوَةً عندكم.

ولِكُلٍّ مما قِيلَ من هذه الأقوالِ التي حَكَيْنَا وجهٌ ومَخرجٌ في كلام العرب. غير أنَّ أعجبَ الأقوالِ إليَّ في ذلك ما قلناهُ أولاً، ثم القولُ الذي ذكرناه عَمَّنْ وَجَّهَ ذلك إلى أنه بمعنى: فهي أوجُهٌ في القسوة: إما أن تكون كالحجارة، أو أشد، على تأويل أنَّ منها كالحجارة، ومنها أشد قسوةً. لأن «أو»، وإن استُعملت في أماكنَ من أماكن «الواو» حَتى يلتبسَ مَعناها ومعنى «الواو»، لتقارب معنييهما

في بعض تلك الأماكن ـ فإنَّ أصلها أنْ تأتيَ بمعنى أحد الاثنين. فتوجيهها إلى أصلهـا ـ ما وَجدْنَا إلى ذلك سبيلاً ـ أعجبُ إليَّ من إخراجِها عن أصلها، ومعناها المعروف لها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾

يعني بقوله جَلَّ ذِكْرُه «وإنَّ من الحجارة لما يتفجَّر منه الأنهار»: وإن من الحجارة حجارةً يتفجرُ منها الماءُ الذي تكون منه الأنهار، فاستغنى بذكر الأنهار عن ذكر الماء. وإنما ذَكَّرَ فقال «منه»، للفظ «ما».

«والتفجُّر»: «التفعُّل» من «تفجَّر الماء»، وذلك إذا تَنَزَّلَ خارجاً من مَنبعه. وكل سائلٍ شَخَصَ خارجاً من موضعِهِ ومكانِهِ، فقد «انفجر»، ماءً كان ذلك أو دماً أو صَديداً أو غير ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «وَإِنَّ منها لما يَشَّقَّق»، وإنَّ منَ الحجارة لحجارة يَشقَّقُ. وتشقُّقها: تَصَدُّعها. وإنما هي: لَما يتشقّق، ولكن التاء أدغمت في الشين فصارت شيناً مشددة.

وقوله: «فيخرُجُ منهُ الماء»، فيكون عيناً نابعةً وأنهاراً جاريةً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾

البقرة: ٧٤.

يعني بذلك جلّ ثناؤه: وإنَّ من الحجارةِ لما يَهبطُ ـ أي يتردَّى من رَأسِ الجبلِ إلى الأرضِ والسفحِ ـ من خوفِ الله وَخَشيتهِ. وقد دللنا على معنى «الهبوط» فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وأُدخلت هذه «اللامات» اللواتي في «ما»، توكيداً للخبر.

وإنما وصف الله تعالى ذكره الحجارةَ بما وصفها به ـ من أنَّ منها المتفجرَ منه الأنهار، وأنَّ منها المتشققَ بالماء، وأنَّ منها الهابطَ من خشيةِ الله، بعد الذي جَعل منها لقلوبِ الذين أخبر عن قسوةِ قلوبهم من بني إسرائيل، مثلاً ـ معذرةً منه جَلَّ ثناؤُه لها، دون الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بني إسرائيل، إذْ كانوا بالصفة التي وصفهم الله بها من التكذيب لرُسله، والجحودِ لآياته، بعد الذي أراهم من الآياتِ والعبر، وعاينوا من عجائب الأدلةِ والحجج، مع ما أعطاهم تعالى ذِكْرُهُ من صِحَّةِ العقولِ، ومَنَّ به عليهم من سَلامة النفوس التي لم يعطها الحجر والمدَر، ثم هو مع ذلك منهُ ما يتفجَّرُ بالأنهار، ومنهُ ما يتشقَّقُ بالماء، ومنه ما يهبطُ من خشيةِ الله، فأخبر تعالى ذِكْرُه أنَّ منَ الحجارة ما هو أَلينُ من قُلوبهم لما يُدْعَوْنَ إليه من الحق.

وقد دللنا فيما مضى على معنى «الخشية»، وأنها الرهبة والمخافة، فكرهنا إعادة ذلك في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾

يعني بقوله: «وما الله بغافل عَما تعملون»، وما الله بغافل ـ يَا معشر المُكَذِّبينَ بآياتهِ، والجاحدين نُبُوَّة رسولهِ محمدٍ ﷺ، والمُتَقَوِّلينَ عليه الأباطيلَ من بني إسرائيل وأحبارِ اليهود عما تعملون من أعمالكم الخبيثة، وأفعالكم الرديئة، ولكنه مُحْصِيها عليكم، فَمُجازيكم بها في الآخرة، أو مُعَاقِبُكم بها في الدنيا.

وأصل «الغَفْلة» عن الشيء، تَرْكُهُ على وجهِ السَّهْو عنه، والنسيان له.

فأخبرهم تعالى ذكره أنه غيرُ غافلٍ عن أفعالهم الخبيثة، ولا سَاهٍ عنها، بل هو لها مُحْصٍ، وَلها حافظٌ.

## القول في تأويل قوله تعالى: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «أفتطمعون» يا أصحابَ محمد، أي: أفَتَرْجُونَ يا معشرَ المؤمنين بمحمدٍ ﷺ، والمُصَدِّقينَ ما جاءكم به من عند الله، أنْ يُؤْمِنَ لكم يهودُ بني إسرائيل؟

ويعني بقوله: «أنْ يُؤمنوا لكم»، أنْ يُصَدِّقُوكم بما جاءكم به نبيكم محمد ﷺ من عند ربكم.

## القول في تأويل قوله تعالى: وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

أما «الفريق» فَجَمْعٌ، كالطائفة، لا واحدَ له من لفظه. وهو «فعيل» من «التفرق»، سُمِّي به الجِماع، كما سميت الجماعة بـ«الحزب»، من «التحزُّب»، وما أشبه ذلك.

وإنما جَعَل الله الذين كانوا على عهدِ موسى ومَنْ بَعدهم من بني إسرائيل، من اليهود الذين قالَ اللهُ لأصحابِ محمد ﷺ: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم» ـ لأنهم كانوا آباءَهُم وأسلافَهُم، فجعلهم منهم، إذْ كانوا عَشائرَهُم وفَرَطهم وأسلافَهم، كما يذكر الرَّجلُ اليوم الرَّجلَ، وقد مَضى على منهاج الذاكر وطريقته. وكان من قومه وعشيرته، فيقول: «كان مِنّا فلانٌ»، يعني أنه كان من أهلِ طريقتهِ ومذهبه، أو من قومهِ وعشيرته فكذلك قوله: «وقد كان فريقٌ منهم».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾،

إنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما عَنى بذلك من سَمِعَ كلامَهُ من بني إسرائيل، سماعَ موسى إياهُ منه، ثم حَرَّفَ ذلك وبدَّل، من بعد سماعِهِ وعِلْمِهِ به وفَهْمِه إياه. وَذلك أنَّ الله جلّ ثناؤه إنما أخبرَ أنَّ التحريفَ كان من فريقٍ منهم كانوا يسمعون كلامَ الله عزّ وجل، استعظاماً من الله لِمَا كانوا يأتون من البُهْتَانِ، بعد توكيدِ الحجـة عليهم والبرهان، وإيذاناً منه تعالى ذِكْرُه عبادَهُ المؤمنينَ، قَطْعَ أطماعهم من إيمانِ بَقايا نَسْلِهم بما أتاهم به محمد من الحَقِّ والنورِ والهدى، فقال لهم: كيف تطمعون في تصديقِ هؤلاء اليهود إياكم، وإنما تُخبرونهم - بالـذي تُخبـرونهم من الأنباء عن الله عزّ وجل - عن غيب لم يُشَاهِدُوه ولم يُعَاينوه، وقد كان بعضُهم يسمعُ من الله كلامَهُ وأمْرَهُ ونَهْيَهُ، ثم يُبدِّله ويُحَرِّفه ويجحده؟ فهؤلاء الذين بين أظهُرِكم من بقايا نَسْلِهم، أحرى أنْ يَجْحَدُوا ما أَتَيْتُموهم به من الحق، وهم لا يسمعونَهُ من الله، وإنما يسمعونه منكم - وأقربُ إلى أنْ يُحَرِّفُوا ما في كتبهم من صفةِ نبيكم محمد ﷺ ونَعْتِه ويُبَدِّلُوه، وهم به عالِمون، فيجحدوه ويكذبوا - من أوائِلهم الذين بَاشَرُوا كلامَ الله من اللهِ جَلَّ ثناؤُه، ثم حَرَّفُوه من بعد ما عَقَلُوه وعَلِمُوه، مُتَعَمِّدِينَ التحريفَ.

ويعني بقوله: «ثم يحرِّفونه»، ثم يبدلون معناهُ وتأويلَهُ ويغيِّرونه. وأصله من «انحـرافِ الشيءِ عن جهتِهِ»، وهو مَيْلُه عنها إلى غيرها. فكذلك قوله: «يحرِّفونه» أي يُمِيلُونَهُ عن وجهه ومعناهُ الذي هو معناه، إلى غيره. فأخبر الله جلّ ثناؤه أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك، على عِلْمٍ منهم بتأويلِ ما حَرَّفوا، وأنه بخلاف ما حَرَّفوه إليه. فقال: «يحرِّفونه من بعد ما عَقلوه»، يعني: من بعد ما عقلوا تأويله، «وهم يعلمون»، أي: يعلمون أنهم في تحريفهم ما حَرَّفُوا من ذلك مُبْطِلُونَ كاذبون.

وذلـك إخبـارٌ من الله جلّ ثناؤه عن إقدامهم على البَهْتِ، ومناصبتهم العداوةَ له ولرسوله موسى ﷺ، وأنَّ بقاياهم - من مُناصبتهم العداوةَ لله ولرسولهِ محمدٍ ﷺ بَغياً وَحسداً - على مِثْلِ الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عَصر موسى عليه الصلاة والسلام.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾

أما قوله: «وَإذا لَقُوا الذينَ آمَنوا قالوا آمَنا»، فإنه خَبَرٌ من الله جلّ ذكره عن الذين أَيْأَس أصحابَ محمد ﷺ من إيمانهم - من يهودِ بني إسرائيل، الذين كان فريقٌ منهم يسمعون كلامَ الله ثم يحرفونه من بعد ما عَقلوه وهم يعلمون - وهُم الـذين إذا لَقُوا الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ قالوا: آمنا. يعني بذلك: أنهم إذا لَقُوا الذين صَدَّقوا بالله وبمحمدٍ ﷺ وبما جاءَ به من عند الله، قالوا: آمنا - أي صَدَّقْنَا بمحمدٍ وبما صدَّقتم به، وأقررنا بذلك. أخبرَ الله عزّ وجل أنهم تخلَّقوا بأخلاق المنافقين، وسلكوا منهاجَهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

يعني بقوله: «وإذا خَلا بعضُهم إلى بَعض» أي: إذا خلا بعضُ هؤلاء اليهود - الذين وصف اللهُ صِفَتهم - إلى بعض منهم، فصاروا في خَلاءٍ من الناس غيرهم، وذلك هو الموضع الذي ليس فيه غيرهم - «قالوا» يعني: قال بعضُهم لبعضٍ: «أتُحدِّثونهم بما فَتحَ الله عليكم».

وأصلُ «الفتح» في كلام العرب: النصرُ، والقضَاءُ، والحُكْم. يقال منه: «اللهم افْتَحْ بيني وبين فلان»، أي احْكُمْ بيني وبينه.

ويقال للقاضي: «الفتَّاح». ومنه قول الله عزّ وجل ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِين﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: احْكُمْ بيننا وبينهم.

فإذا كان معنى الفتح ما وصفنا، تَبَيَّنَ أنَّ معنى قوله: «قالوا أتُحدِّثونهم بما فَتحَ الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم»، إنما هو: أَتُحَدِّثُونَهم بما حَكم الله به عليكم، وَقضَاه فيكم؟ ومِنْ حُكمهِ جَلَّ ثناؤُه عليهم ما أخذ به ميثاقَهم من الإيمان بمحمد ﷺ، وبما جاء به في التوراة. ومن قَضَائه فيهم أنْ جعلَ منهم القِرَدَة والخنازير، وغير ذلك من أحكامهِ وقضائه فيهم. وكُلُّ ذلك كان لرسولِ الله ﷺ وللمؤمنينَ به، حُجةً على المُكَذِّبينَ به من اليهود المُقِرِّينَ بحُكْمِ التوراة، وغير ذلك[1].

فإذْ كان ذلك كذلك. فالذي هو أولى عندي بتأويل الآية: أتحدثونهم بما فتحَ الله عليكم من بَعْثِ محمد ﷺ إلى خَلْقِه؟ لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُه إنما قَصَّ في أول هذه الآية الخبرَ عن قولهم لرسولِ الله ﷺ ولأصحابه: آمنا بما جاء به محمد ﷺ؛ فالذي هو أوْلى بآخرِها أنْ يكونَ نظيرَ الخبرِ عما ابتُدىء به أوَّلُها.

وإذا كان ذلك كذلك، فالواجبُ أنْ يكونَ تلاوُمهم، كان فيما بينهم، فيما كانوا أظهروهُ لرسولِ الله ﷺ ولأصحابه من قولهم لهم: آمنا بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به. وكان قِيلُهم ذلك، مِنْ أجلِ أنهم يجدون ذلك في كتُبهم، وكانوا يخبِرُون أصحابَ رسولِ الله ﷺ بذلك. فكان تلاوُمهم ـ فيما بينهم إذا خَلوا ـ على ما كانوا يُخبرونهم بما هو حُجَّةٌ للمسلمين عليهم عند رَبِّهم. وذلك أنهم

---

(١) أي من أحكامه وقضائه.

كانوا يخبرونهم عن وجُودِ نَعْتِ محمدٍ ﷺ في كتبهم، ويكفرون به. وكان فتحُ الله الذي فَتحه للمسلمين على اليهود، وحُكمه عليهم لهم في كتابهم، أنْ يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ إذا بُعث. فلما بُعِثَ كفروا به، مع عِلْمِهم بنبوتِهِ.

وقوله: «أفَلا تَعقلون»، خبرٌ من الله تعالى ذكره - عن اليهود اللائمينَ إخوانَهم على ما أخبرُوا أصحابَ رسولِ الله ﷺ بما فَتَحَ الله لَهم عليهم - أنهم قالوا لهم: أفَلا تفقهونَ أيها القومُ وتعقلون، أنَّ إخبارَكم أصحابَ النبي ﷺ بما في كُتُبِكُم أنه نبيٌّ مبعوثٌ، حجةٌ لَهم عليكم عند ربكم، يحتجون بها عليكم؟ أي: فلا تفعلوا ذلك، ولا تقولوا لَهُمْ مِثْلَ ما قلتم، ولا تُخْبِرُوهم بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك. فقال جلّ ثناؤه: «أوَ لاَ يَعلمون أنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّون وَما يُعلنون».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ»، أوَ لا يَعلم - هؤلاء اللائمُونَ من اليهود إِخْوانَهم من أهلِ مِلَّتهم، على كونهم إذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وعلى إخبارهم المؤمنينَ بما في كتبهم من نَعْتِ رسولِ الله ﷺ ومبعثه، القائلون لهم: أَتُحَدِّثونَهُم بما فَتحَ الله عليكم ليحاجُّوكم به عندَ ربِّكم - أنَّ الله عالمٌ بما يُسِرُّون، فيخفونَه عن المؤمنين في خَلائهم - مِنْ كُفْرِهم، وتَلاوُمِهم بينهم على إظهارِهم ما أظهرُوا لرسولِ الله وللمؤمنينَ به من الإقرار بمحمدٍ ﷺ، وعلى قِيلهم لهم: آمنا، وَنَهْيِ بعضِهم بعضاً أنْ يخبروا المؤمنين بما فتحَ اللهُ للمؤمنين عليهم، وقضى لهم عليهم في كتبهم، من حقيقةِ نبوةِ محمدٍ ﷺ ونَعتهِ ومبعثِهِ - وما يُعلنون، فَيُظْهِرُونَهُ لمحمدٍ

ﷺ ولأصحابِه المؤمنين به إذا لَقُوهم، من قِبَلِهم لهم: آمنَّا بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به، نِفَاقاً وخِداعاً لله ولرسوله وللمؤمنين؟

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «ومنهم أمِّيُّون»، ومن هؤلاء اليهود - الذين قَصَّ الله قَصَصهم في هذه الآيات، وأَيأَسَ أصحابَ رسول الله ﷺ من إيمانهم فقال لهم: أفتطمعون أن يُؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يَسمعون كلامَ الله، ثم يُحَرِّفُونه من بعد ما عَقلوه، وهم إذا لقوكم قالوا: آمنا.

وأرى أنه قيل للأمي «أمي»؛ نِسْبةً له بأنه لا يكتبُ إلى «أمه»، لأنَّ الكتابَ كان في الرجالِ دون النساء، فنُسِب مَنْ لا يكتبُ ولا يَخُطُّ من الرجال - إلى أُمِّهِ - في جهلِه بالكتابة، دونَ أبيهِ، كما ذكر عن النبي ﷺ من قوله: «إنَّا أمةٌ أميةٌ لا نكتبُ ولا نحسب»[1]، وكما قال: ﴿هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

فإذا كان معنى «الأمي» في كلام العرب ما وصفنا، فالذي هو أولى بتأويل قوله: «ومنهم أميون»: ومنهم من لا يُحْسِنُ أنْ يَكْتُبَ.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾

يعني بقوله: «لا يَعلمون الكتاب»، لا يعلمون ما في الكتابِ الذي أنزلَهُ الله، ولا يَدْرُونَ ما أَوْدَعَهُ الله من حدودِه وأحكامِه وفرائضه، كهيئة البهائم،

(١) حديث صحيح من حديث ابن عمر، أخرجه أحمد: ٢/٤٣ و٥٢، والبخاري: ٣/٣٥ و١٢٣ و١٢٤، وأبو داود (٢٣١٩)، والنسائي: ٤/١٣٩ و١٤٠.

وإنما عنى بـ «الكتاب»التوراةَ، ولذلك أُدخلت فيه «الألف واللام»، لأنه قُصِدَ به كتابٌ معروف بعينه.

ومعناه: ومنهم فريقٌ لا يكتبون، ولا يَدْرُونَ ما في الكتاب الذي عرفتموه الذي هو عندهم ـ وهم ينتحلونه ويَدَّعُونَ الإقرارَ به ـ من أحكام الله وفرائضه، وما فيه من حدودهِ التي بَيَّنَها فيه.

وأولى ما يقالُ في تأويلِ قوله: «إلا أمانِيَّ»، بالحَقِّ، وأشبَهُهُ بالصواب: إن «الأميِّين» الذين وصفهم اللهُ بما وَصَفَهم به في هذه الآية، أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله على موسى شيئاً، ولكنهم يَتَخَرَّصُونَ الكَذِبَ ويَتَقَوَّلُونَ الأباطيلَ كذباً وزوراً.

و«التمني» في هذا الموضع، هو تَخَلُّقُ الكذبِ وتَخَرُّصُه وافتعالُه. يقال منه: «تمنَّيت كذا»، إذا افتعلته وتخرَّصته.

والذي يدلُّ على صِحَّةِ ما قُلْنا في ذلك ـ وأنه أوْلى بتأويل قوله: «إلا أماني» مِنْ غَيرِهِ من الأقوال ـ قولُ الله جلّ ثناؤه: «وَإنْ هُم إلا يظُنُّون». فأخبر عنهم جَلَّ ثناؤهُ أنهم يتمنَّون ما يتمنَّون من الأكاذيبِ، ظناً منهم لا يقيناً. ولوْ كان معنى ذلك أنهم «يتلُونه»، لم يكونوا ظانِّين، وكذلك لو كان معناه «يَشتهونه». لأن الذي يتلوه، إذا تَدَبَّرَهُ عَلِمَهُ. ولا يستحق ـ الذي يتلو كتاباً قرأه، وإنْ لم يتدبَّره ـ بتركه التدبُّرَ أنْ يقال: هو ظانٌّ لما يتلو، إلا أنْ يكونَ شاكاً في نَفْسِ ما يتلوه، لا يدري أحَقٌّ هو أم باطل. ولم يكنِ القومُ ـ الذين كانوا يتلون التوراةَ على عَصْرِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ من اليهود ـ فيما بَلَغَنا ـ شَاكِّينَ في التوراة أنها من عندِ الله. وكذلك «المتمني» الذي هو في معنى «المتشهي» غير جائزٍ أن يقال: هو ظَانٌّ في تَمَنِّيهِ. لأنَّ التمنِّي من المُتَمَنِّي، إذا تَمَنَّى ما قد وجد عينَه. فغيرُ جائزٍ أن يقال: هو شاكٌّ، فيما هُوَ به عالِمٌ. لأنَّ العِلْمَ والشكَّ

معنيان ينفي كُلُّ واحدٍ منهما صاحِبَهُ، لا يجوزُ اجتماعهما في حَيِّزٍ واحد. والمتمني في حال تمنِّيهِ، موجودٌ تمنيه، فغيرُ جائز أن يقال: هو يظنُّ تمنيه.

وإنما قيل: «لا يعلمونَ الكتابَ إلا أماني»، و«الأماني» من غير نوع «الكتاب»، كما قال رَبُّنَا جَلَّ ثناؤه: ﴿وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]، و«الظنُّ» من «العلم» بمعزل. وكما قال: ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إلا ابْتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ [الليل: ١٩-٢٠]، في نظائرَ لما ذَكَرْنَا يَطُولُ بإحصائِها الكتابُ.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «وإنْ هم إلا يظنون»، وما هم، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿قَالتْ لَهُمْ رسُلُهُمْ إنْ نَحْنُ إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]، يعني بذلك: مَا نحن إلا بشر مثلكم.

ومعنى قوله: «إلا يَظنُّون»: إلا يَشُكُّون، ولا يعلمون حقيقته وصِحَّتَهُ. و«الظن» ـ في هذا الموضع ـ الشك.

فمعنى الآية: ومنهم مَنْ لا يكتبُ ولا يخُط ولا يعلم كتابَ الله ولا يدري ما فيه، إلا تَخَرُّصاً وتَقَوُّلاً ـ على اللهِ ـ الباطلَ، ظناً منه أنه مُحِقٌ في تَخَرُّصِه وتَقَوُّلِه الباطل.

وإنما وصفهم الله تعالى ذكرهُ بأنهم في تخرُّصهم على ظن أنهم مُحِقُّونَ وهم مُبْطِلون، لأنهم كانوا قد سمعوا من رؤسائهم وأحبارهم أموراً حَسِبُوها من كتابِ الله، ولم تَكُنْ من كتابِ الله، فوصفهم جلّ ثناؤه بأنهم يتركون التصديق بالذي يُوقِنون به أنه من عند الله مما جاء به محمد ﷺ، ويتَّبعون ما هم فيه شاكُّون، وفي حقيقتهِ مرتابون، مما أخبرهم به كُبراؤهم ورؤساؤهم وأحبارُهم،

عِناداً منهم لله ولرسوله، ومخالفة منهم لأمرِ الله، واغتراراً منهم بإمهالِ اللهِ إياهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ﴾

و«الويل»: هو العذاب ـ الذي هو شُربُ صديدِ أهلِ جهنمَ في أسفلِ الجحيم ـ لليهودِ الذين يكتبون الباطلَ بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

يعني بذلك: الذين حَرَّفُوا كتابَ الله من يَهودِ بني إسرائيل، وكتبوا كتاباً على ما تأولوه من تأويلاتهم، مخالفاً لما أنزل الله على نبيه موسى ﷺ، ثم باعُوه من قومٍ لا عِلْمَ لهم بها، ولا بما في التوراة، جُهَّالٍ بما في كتبِ الله ـ لِطَلَبِ عَرَضٍ من الدنيا خسيس، فقال الله لهم: «فويلٌ لهم مما كتبتْ أيديهم وَويلٌ لهم مما يَكسبون».

فإنْ قال لنا قائل: وما وَجْهُ قولِهِ: «فَويلٌ للذين يَكتبون الكتاب بأيديهم»؟ وهل تكونُ الكتابةُ بغير اليد، حتى احتاج المخاطَبُونَ بهذه المخاطبة، إلى أنْ يُخبَرُوا عن هؤلاء القوم ـ الذين قَصَّ قصتهم ـ أنهم كانوا يكتبون الكتابَ بأيديهم؟

قيل له: إنَّ الكتابَ من بني آدمَ، وإنْ كان منهم باليدِ، فإنه قد يُضَافُ الكتابُ إلى غيرِ كاتبِهِ وغير المتولِّي رَسْمَ خَطِّهِ فيقال: «كتب فلان إلى فلان بكذا»، وإنْ كان المتولِّي كتابته بيده، غيرَ المضاف إليه الكتاب، إذا كان

الكاتبُ كتبه بأمرِ المضافِ إليه الكتاب. فأعْلَمَ ربُّنا بقوله: «فَويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم» عبادَهُ المؤمنين، أنَّ أحبارَ اليهود تَلِي كتابةَ الكذب والفِرْية على الله بأيديهم، على عِلْمٍ منهم وعَمْدٍ للكذبِ على الله، ثم تَنْحَلُه إلى أنه مِنْ عندِ الله وفي كتابِ الله، تكذّباً على الله وافتراءً عليه. فنفى جَلَّ ثناؤُه بقوله: «يكتبـون الكتـابَ بأيديهم»، أن يكـونَ ولى كتـابةَ ذلك بعضَ جُهَّالهم بأمرِ علمـائهم وأحبارهم. وذلك نظيرُ قول القائل: «بَاعني فلانٌ عينَه كذا وكذا، فاشترى فلانٌ نفسهُ كذا»، يُرادُ بإدخال «النفس والعين» في ذلك، نفيُ اللَّبْسِ عن سامعـهِ، أنْ يكون المتولِّي بيعَ ذلك أو شراءَه، غيرُ الموصوف له أمره، ويُوجب حقيقةَ الفعل للمُخبَّر عنه. فكذلك قوله: «فويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم».

القول في تأويل قوله تعالى: **﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ۝٧٩﴾**

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم»، أي: فالعذابُ - في الوادي السائل من صديدِ أهل النار في أسفل جهنم - لهم، يعني: للذين يكتبون الكتابَ، من يهودِ بني إسرائيل محرَّفاً، ثم قالوا: هذا من عند الله، ابتغاءَ عَرَضٍ من الدنيا به قليل ممن يبتاعه منهم.

وقوله: «مِمَّا كتبت أيْديهم»، يقول: من الذي كَتَبَتْ أيديهم من ذلك، وويلٌ لهم أيضاً «مما يَكسِبون»، يعني: مما يعملونَ من الخطايا، ويجترحون من الآثامِ، ويكسبون من الحرامِ، بكتابهم الذي يكتبونَهُ بأيديهم بخلافِ ما أنزلَ اللهُ، ثم يأكلونَ ثمنه، وقد باعوه مِمَّنْ بَاعوهُ منهم على أنه من كتابِ الله.

وأصل «الكَسْب»: العملُ. فكُلُّ عاملٍ عملاً، بمباشرةٍ منه لِمَا عَمِل،

ومُعاناةٍ باحترافٍ، فهو كاسبٌ لما عمل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾

يعني بقوله: «وقالوا»، اليهودَ. يقول: وقالت اليهودُ: «لن تمسنا النارُ» يعني: لن تُلاقي أجْسَامَنا النارُ ولن نَدْخُلَها، «إلا أياماً معدودة». وإنما قيل «معدودة»، وإنْ لم يكن مبيّناً عددها في التنزيل، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه أخبر عنهم بذلك، وهم عارفون عَددَ الأيام التي يُوقِّتُونها لمكْثِهم في النار. فلذلك تَركَ ذِكْرَ تَسميةِ عددِ تلك الأيام، وسمَّاها «معدودةً»، لما وصفنا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠﴾

لما قالت اليهودُ ما قالت من قولها: «لَنْ تمسنا النارُ إلا أياماً معدودة» قال اللهُ لنبيه محمد ﷺ: قلْ يا محمد، لمعشر اليهود: «أتَّخَذْتُم عند الله عهداً»: أأخَذْتُم بما تقولون من ذلك من الله ميثاقاً، فاللهُ لا يَنقُضُ ميثاقه، ولاَ يبدِّلُ وَعْدَهُ وعقده، أم تَقولون على الله الباطلَ جهلاً وَجَرَاءةً عليه؟.

وإن مما أعطاهُ الله عبادَهُ من ميثاقه: أنَّ مَنْ آمن به وأطاع أمره، نَجَّاهُ من ناره يوم القيامة. ومن الإيمانِ به، الإقرارُ بأنْ لاَ إله إلا الله. وكذلك من ميثاقه الذي وَاثقهم به: أنَّ مَنْ أتى الله يوم القيامة بحجة تكون له نجاةً من النار، فَيُنجِّيه منها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾

وقول: «بَلى مَنْ كسبَ سَيئة»، تكذيبٌ من الله القائلين من اليهود: «لن تَمسنا النارُ إلا أياماً معدودةً»، وإخبارٌ منه لهم أنه معذِّبٌ مَنْ أشرك ومَنْ كَفَر به وبرسُلِه، وأحاطت به ذنوبه، فَمُخَلِّده في النار، فإنَّ الجنة لا يسكنها إلا أهلُ الإيمانِ به وبرسوله، وأهلُ الطاعة له، والقائمون بحدوده.

وأمـا «بلى»، فإنهـا إقـرارٌ في كُلِّ كلامٍ في أولـه جَحْدٌ، كما «نعم» إقرار في الاستفهـام الـذي لا جَحْـد فيه. وأصلها «بل» التي هي رجوع عن الجحد المحض في قولك: «ما قام عمرو بَلْ زيد». فزيدت فيها «الياء» ليصلح عليها الوقوف، إذْ كانت «بل» لا يصلحُ عليها الوقوف، إذ كانت عطفاً ورجوعاً عن الجحد. ولتكون ـ أعني «بلى» ـ رجوعاً عن الجحد فقط، وإقراراً بالفعل الذي بعد الجحد، فدلَّت «الياء» منها على معنى الإقرار والإنعام. ودَلَّ لفظُ «بل» على الرجوعِ عن الجحد.

وأما «السيئة» التي ذكرَ اللهُ في هذا المكان، فإنها الشِّرْكُ بالله.

وإنما قلنا إنَّ «السيئة» ـ التي ذكر الله جلّ ثناؤه أنَّ من كسبها وأحاطتْ به خطَيِئتُه، فهو من أهل النار المُخَلَّدِينَ فيها ـ في هذا الموضع، إنما عَنَى اللهُ بها بعض السيئات دون بعض، وإنْ كان ظاهرُها في التلاوة عاماً، لأنَّ الله قَضى على أهلها بالخلود في النار. والخلود في النار لأهلِ الكفر بالله دونَ أهلِ الإيمان به، لتظاهرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بأنَّ أهلَ الإيمان لا يُخَلَّدونَ فيها، وأنَّ الخلودَ في النار لأهل الكفرِ بالله دون أهلِ الإيمان. فإنَّ الله جَلَّ ثناؤه قد قَرَن بقوله: «بَلَى مَنْ كسب سَيئة وأحَاطَتْ به خَطيئته فأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون» ـ قولَهُ ـ «والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ أولئكَ أصْحابُ الجنة هُم فيها خالدون». فكان معلوماً بذلك أنَّ الذين لهم الخلودُ في النار من أهلِ السيئات، غيرُ الذين لهم الخلود في الجنة من أهل الإيمان.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ الذين لهم الخلودُ في الجنة من الذين آمنوا، هم الذين عملوا الصالحات، دون الذين عملوا السيئات، فإنَّ في إخبارِ الله ـ أنه مُكَفِّرٌ، باجتنابنا كبائرَ ما نُنْهَىٰ عنه، سيئاتِنا، ومُدْخِلُنا المدْخلَ الكريم ـ ما يُنْبِىءُ عن صِحَّةِ ما قلنا في تأويل قوله: «بلى مَنْ كسب سَيئة»، بأنَّ ذلك على خاص من السيئات دون عامِّها.

فإنْ قال لنا قائل: فإنَّ الله جلّ ثناؤه إنما ضَمِن لنا تكفيرَ سيئاتنا باجتنابنا كبائرَ ما نُنْهَىٰ عنه، فما الدلالة على أن الكبائر غيرُ داخلةٍ في قوله: «بلى مَن كسب سيئة»؟

قيل: لما صَحَّ أنَّ الصغائرَ غير داخلةٍ فيه، وأنَّ المعني بالآية خاصٌّ دون عامٍّ، ثَبت وصحَّ أنَّ القضاء والحُكْمَ بها غيرُ جائز لأحدٍ على أحد، إلا على مَنْ وَقَفهُ الله عليه بدلالةٍ من خبرٍ قاطعٍ عُذْرَ مَنْ بَلَغه. وقد ثَبت وصَحَّ أنَّ الله تعالى ذكره قد عنى بذلك أهلَ الشرك والكفر به، بشهادةِ جميعِ الأمة. فوَجبَ بذلك القضاءُ على أنَّ أهل الشرك والكفر مِمَّنْ عَناهُ الله بالآية. فأما أهلُ الكبائر، فإنَّ الأخبار القاطعةَ عُذْرَ من بَلَغته، قد تظاهرت عندنا بأنهم غيرُ معنيِّين بها. فَمَنْ أنكر ذلك ـ ممن دافع حُجَّة الأخبارِ المستفيضة والأنباء المتظاهرة ـ فاللازم له تَرْكُ قطع الشهادة على أهلِ الكبائرِ بالخلودِ في النار، بهذه الآية وَنظائرها التي جاءت بعمومهم في الوعيد. إذْ كان تأويلُ القرآن غيرَ مدْرَك إلا ببيانِ مَنْ جعلَ الله إليه بَيانَ القرآن، وكانت الآيةُ يأتي عاماً في صنفٍ ظاهرُها، وهي خاصٌّ في ذلك الصنف باطِنُها.

ويُسأل مُدَافعو الخبر بأنَّ أهلَ الكبائر من أهل الاستثناء، سُؤالنا مُنْكِرَ رَجْم الزاني المحْصن، وزوال فَرض الصلاة عن الحائض في حال الحيض. فإن السؤالَ عليهم، نظيرُ السؤال على هؤلاء، سَواءً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «وأَحَاطَتْ به خَطيئته»، اجتمعتْ عَليه **فمات عليها**، قبل الإنابةِ والتوبة منها.

وأصلُ «الإحاطة بالشيء»، الإحداقُ به، بمنزلة «الحائط» الذي تُحاطُ به الدارُ فتُحدِق به. ومنه قولُ الله جلّ ثناؤه: ﴿ناراً أَحاطَ بهِمْ سُرَادِقُها﴾ [الكهف: ٢٩].

فتأويلُ الآية إذاً: مَنْ أشرك بالله واقترف ذنوباً جَمَّةً فمات عليها قبل الإنابة والتوبة، فأولئك أصحابُ النار هم فيها مخلَّدون أبداً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «فأولئك أصحابُ النار هُمْ فيها خالدون»، فأولئكَ الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيئاتهم، أصحابُ النار هم فيها خالدون.

ويعني بقوله جلّ ثناؤه: «أصحابُ النار»، أهلُ النار. وإنما جَعَلَهُم لها أصحاباً لإيثارِهم - في حياتهم الدنيا ما يُورِدُهُمُوها ويورِدُهم سعيرَها - على الأعمال التي توردهم الجنةَ فجعلهم جَلَّ ذِكْرُه - بإيثارهم أسبابَها على أسبابِ الجنة - لها أصحاباً، كصاحبِ الرجلِ الذي يُصاحبه مُؤْثِراً صُحْبَتَهُ على صُحْبةِ غيرِه، حتى يُعْرَفَ به.

«هُم فيها»، يعني: هم في النار خالدون. ويعني بقوله: «خالدون» مقيمون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ويعني بقوله: «والذين آمنوا»، أي صَدَّقُوا بما جاء به محمدٌ ﷺ. ويعني بقوله: «وعَمِلُوا الصالحات»، أطاعوا الله فأقاموا حُدودَهُ، وأدَّوا فرائضه، واجتنبوا محارِمَهُ. ويعني بقوله: «فأولئك»، فالذين هم كذلك «أصحابُ الجنة هُم فيها خالدون»، يعني: أهلُها الذين هم أهلُها، هُم فيها خالدون»، مقيمون أبداً.

وإنما هذه الآية والتي قَبْلَها إخبارٌ من الله عبادَه عن بَقاءِ النارِ وبقاء أهلها فيها، وبقاء الجنة وبقاء أهلها فيها، وَدوام ما أعَدَّ في كُلِّ واحدةٍ منهما لأهلها، تكذيباً من الله جَلَّ ثناؤه القائلينَ من يهودِ بني إسرائيل: إنَّ النار لَنْ تَمَسَّهُم إلا أياماً معدودةً، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة. فأخبرهم بخلودِ كفارِهم في النارِ، وخُلودِ مؤمنيهم في الجنة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾

قد دَلَّلْنَا ـ فيما مضى من كتابنا هذا ـ على أنَّ «الميثاق» «مِفْعال» من «التَّوَثُّقِ باليمين» ونحوِهَا من الأمور التي تُؤَكِّدُ القولَ. فمعنى الكلام إذاً: واذكروا أيضاً يا معشرَ بني إسرائيل، إذْ أخذنا ميثاقكم لا تعبدون إلا الله.

والقَرَأَةُ مختلفة في قراءة قوله: «لا تعبدون». فبعضهم يقرؤها بالتاء، وبعضهم يقرؤها بالياء، والمعنى في ذلك واحدٌ. وإنما جازت القراءة بالياء والتاء، وأنْ يُقال «لا تعبدون» و«لا يعبدون» وهم غَيَبٌ[1]، لأنَّ أخْذَ الميثاق،

(١) غَيَبٌ: جمع غائب.

بمعنى الاستحلاف. فكما تقول: «استحلفتُ أخاكَ ليقومَنَّ» - فتخبر عنه خبرَك عن الغائبِ لغيبتهِ عنكَ. وتقول: «استحلفته لتقومَن»، فتخبرُ عنه خَبرَك عن المخاطَب، لأنك قد كنتَ خاطبته بذلك - فيكون ذلك صحيحاً جائزاً. فكذلك قوله: «وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ لا تعبدون إلا الله» و«لا يَعبدون». من قرأ ذلك «بالتاء» فمعنى الخطاب، إذْ كان الخطاب قد كان بذلك. ومن قرأ «بالياء»، فلأنهم ما كانوا مخاطَبين بذلك في وقت الخبر عنهم.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

وقوله جلّ ثناؤه: «وبالوالدين إحساناً»، عطفٌ على موضع «أنْ» المحذوفة في «لا تَعبدون إلا الله». فكان معنى الكلام: وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيل بأنْ لا تعبدُوا إلا اللهَ، وبالوالدين إحساناً، فرفع «لا تعبدون» لَمَّا حذفَ «أن»، ثم عطف «بالوالدين» على موضعها.

وأما «الإحسان» فمنصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ يؤدي معناه قوله: «وبالوالدين»، إذْ كان مفهوماً معناهُ. فكان معنى الكلام - لو أظهر المحذوف -: وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيل بأنْ لا تَعبدوا إلا الله، وبأنْ تُحسِنُوا إلى الوالدين إحساناً فاكتفى بقوله: «وَبالوالدين» من أن يقال: وبأنْ تُحسِنُوا إلى الوالدين إحساناً إذْ كان مفهوماً أنَّ ذلك معناه بما ظَهرَ من الكلام.

فإنْ قال قائل: وَما ذَلك «الإحسانُ» الذي أخذ عليهم بالوالدين الميثاقَ؟

قيل: نظيرُ ما فَرض اللهُ على أمَّتنا لهما من فِعْلِ المعروف لهما، والقول الجميل، وخفضِ جَناح الذل رحمةً بهما، والتحنُّن عليهما، والرأفة بهما، والدعاءِ بالخير لهما، وما أشبه ذلك من الأفعال التي نَدَبَ اللهُ عباده أن يفعلوا بهما.

## القول في تأويل قوله تعالى: وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ

يعني بقوله: «وذي القُرْبى»، وبذي القربى أنْ يَصِلُوا قرابته منهم وَرَحِمَهُ.

و«القُرْبى» مصدر على تقدير «فُعْلى»، من قولك، «قَرُبت مني رَحِمُ فلان قَرَابةً وقُرْبى وقُرْباً»، بمعنى واحد.

وأمـا «اليتامى». فهم جمع «يَتيم»، مثل «أسير وأسارى». ويدخل في اليتامى الذكور منهم والإناث.

ومعنى ذلك: وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيل لا تَعبدون إلا الله وحده دونَ مَنْ سِواهُ من الأنداد، **وبالوالـدين** إحساناً، وبذي القربى: أنْ تَصِلُوا رَحمه، وتعرفوا حَقَّهُ، وباليتامى: أنْ تَتعطَّفوا عليهم بالرحمة والرأفة، وبالمساكين: أن تُؤتوهم حقوقَهم التي ألزمها الله أموالكم.

و«المسكين»، هو المُتَخَشِّعُ المتذللُ من الفاقةِ والحاجة، وهو «مِفْعيل» من «المسكنة». و«المسكنة» هي ذلُّ الحاجةِ والفاقة.

## القول في تأويل قوله تعالى: وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا

إن قال قائل: كيف قيل: «وقُولوا للناس حُسْناً»، فأخرجَ الكلامَ أمراً ولَمَّا يتقدمه أمر، بل الكلامُ جارٍ من أولِ الآية مجرى الخبر؟

قيل: إنَّ الكلامَ، وإنْ كان قد جرى في أولِ الآية مجريَ الخبر، فإنه مما يَحْسُنُ في مَوْضعهِ الخطابُ بالأمر والنهي. فلو كان مكانَ: «لاتعبدون إلا الله»، لا تعبدوا إلا الله ـ على وَجْهِ النَّهْيِ من الله لهم عن عبادةِ غيره ـ كان حَسَناً صواباً. وقد ذُكر أنَّ ذلك كذلك في قراءةِ أُبيٍّ بن كعب. وإنما حَسُنَ

ذلك وجاز ـ لو كانَ مقروءاً به ـ لأنَّ أَخْذَ الميثاق قولٌ.

فكان معنى الكلام ـ لو كان مقروءاً كذلك ـ: وإذ قلنا لبني إسرائيل: لا تعبـدوا إلا الله، كما قال جَلَّ ثناؤه في موضع آخر: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]. فلما كان حسناً وضـعُ الأمـر والنهي في موضع: «لا تعبدون إلا الله»، عطف بقوله: «وقُولُوا للناس حُسْناً»، على موضع «لا تعبدون»، وإنْ كان مخالفاً كل واحد منهما معناه معنى ما فيهِ، لِمَا وَصَفْنَا من جوازِ وَضْعِ الخطاب بالأمر والنهي موضع «لا تعبدون». فكأنه قيل: وإذ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيل لا تعبدوا إلا الله، وقولوا للناس حُسناً. وهو نظيرُ ما قَدَّمنا البيانَ عنه: من أنَّ العربَ تَبتدىء الكلامَ أحياناً على وجهِ الخبرِ عن الغائبِ في موضع الحكايةِ لما أخبرت عنه، ثم تعود إلى الخبر على وجهِ الخطابِ؛ وتبتدىء أحياناً على وجهِ الخطاب، ثم تعود إلى الإخبار على وجهِ الخبر عن الغائبِ، لما في الحكاية من المعنيين.

وأما «الحسن» فإنَّ القَرَأَة اختلفت في قراءته. فقرأته عامة قَرَأَةِ الكوفة غير عاصم: «وقولوا للناس حَسَناً» بفتح الحاء والسين. وقرأته عامة قرَّاء المدينة: «حُسْناً» بضم الحاء وتسكين السين. وقد رُوي عن بعض القَرَأَةِ أنه كان يقرأ: «وقولوا للناس حُسْنَى» على مثال «فُعْلى».

والصوابُ من القراءة في قوله: «وقُولُوا للناس حَسَناً»، لأنَّ القومَ إنما أُمِرُوا في هذا العهد الذي قيل لهم: «وقولوا للناس» باستعمال الحَسَن من القولِ، دونَ سائرِ معاني الحسن الذي يكون بغير القول. وذلك نَعْتٌ لخاص من معاني الحُسْنِ، وهو القول. فلذلك اخترتُ قراءته بفتح الحاء والسين، على قراءته بضم الحاء وسكون السين.

وأما تأويل القول الحسن الذي أمرَ الله به الذين وصف أمْرَهم من بني

إسـرائيل في هذه الآية، أنْ يقولوه للناسِ فهو أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع الأدبِ الحسن الجميل والخُلُقِ الكريم، وهو مما ارتضاه الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

يعني بقوله: «وأقيموا الصلاة»، أدُّوها بحقوقها الواجبة عليكم فيها من ركوعٍ، وسجودٍ، وخشوعٍ، واقبالٍ عليها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

قد بيَّنا فيما مضى قَبْلُ، معنى «الزكاة» وما أصلها.

وأما الزكاة التي كان اللهُ أمر بها بني إسرائيلَ الذين ذَكَرَ أمْرَهم في هذه الآية، فهي ما كانَ اللهُ فَرَضَ عليهم في أموالِهم من الزكاة، وهي سُنَّةٌ كانت لهم غير سُنَّةِ محمدٍ ﷺ. كانت زكاة أموالهم قربَاناً تهبطُ إليه نارٌ فتحملها، فكـان ذلك تقبُّلَه. ومَنْ لم تفعل النارُ به ذلك كان غير مُتَقَبَّلٍ، وكان الذي قُرِّبَ، منْ مكسبٍ لا يَحلُّ: من ظُلم أو غَشْم، أو أخْذٍ بغير ما أمره اللهُ به وبيَّنه له.

القـول في تأويل قولـه تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾

وهـذا خَبَرٌ من الله جلّ ثناؤه عن يهود بني إسرائيل، أنهم نكثوا عَهْدَهُ ونقضوا ميثاقه، بعد ما أخذ اللهُ ميثاقهم على الوفاءِ له، بأنْ لا يعبدُوا غيرَهُ، وأن يُحسنـوا إلى الآبـاء والأمهات، ويَصِلُوا الأرْحامَ، ويتعطفوا على الأيتام، ويؤدُّوا حُقوقَ أهلِ المسكنة إليهم، ويأمُروا عبادَ الله بما أمرهم الله به وَيحثُّوهم

على طاعتهِ، ويُقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤتوا زكاة أموالهم - فخالفوا أمْرَهُ في ذلك كُلِّهِ، وتولَّوا عنه معرضين، إلا مَنْ عَصَمه الله منهم، فوَفَى لله بعهدِهِ وميثاقه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾

قوله: «وإذْ أخذنا ميثاقكمْ لا تَسفكون دماءَكم» في المعنى والإعراب نظيرُ قوله: «وإذْ أخَذنا ميثاق بَني إسرائيل لا تَعبدون إلا الله».

وأما «سفك الدم»، فإنه صَبُّه وإراقته.

فإنْ قال قائل: وما معنى قوله: «لا تَسفكون دماءكم ولا تُخرجون أنفسَكمْ من دياركم»؟ وقال: أوَ كانَ القومُ يقتلون أنفسهم ويخرجونها من ديارها، فنُهُوا عن ذلك؟

قيل: ليس الأمرُ في ذلك على ما ظَنَنْتَ، ولكنهم نُهُوا عن أنْ يقتلَ بعضُهم بعضاً. فكان في قتلِ الرجلِ منهم الرجلَ قتلُ نفسه، إذ كانت مِلَّتُهما واحدة، فهما بمنزلةِ رجلٍ واحد. كما قال عليه السلام:

«إنما المؤمنون في تراحُمهم وتعاطُفهم بَينهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى بعضُه تَداعى له سَائر الجسد بالحمَّى والسهر»[1].

(١) هكذا رواه الطبري، بهذا اللفظ، والمحفوظُ الصحيح هو ما رواه الشعبي عن النعمان ابن بشير، قال قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» أخرجه الحميدي (٩١٩)، وأحمد ٢٦٨/٤ و٢٧٠ و٢٧٦، والبخاري ١١/٨-١٢، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له. وله طرق أخرى عن خيثمة وسماك بن حرب عن النعمان، بمعناه.

وقد يجوز أن يكون معنى قوله: «لا تَسفكون دماءكم»، أي: لا يقتل الرجلُ منكم الرجلَ منكم، فيقادَ به قِصاصاً، فيكون بذلك قاتلاً نَفْسَهُ، لأنه كان الذي سبَّب لنفسه ما استحقَّت به القتلَ. فأُضيفَ بذلك إليه، قتلُ وليّ المقتول إياه قِصاصاً بوليِّهِ. كما يقال للرجل يركبُ فعلاً من الأفعال يستحق به العقوبة، فيعاقب العقوبة: «أنت جنيتَ هذا على نفسك».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾

يعني بقوله: «ثم أقررتم»، ثم أقررتم بالميثاقِ الذي أخَذْنَا عليكم: لا تسفكونَ دِماءكم ولا تُخرجون أنفسكم من دياركم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤﴾

وأوْلى الأقوال في تأويل ذلك بالصوابِ عندي: أنْ يكون قوله: «وأنتم تَشهدون» خبراً عن أسلافهم، وداخلاً فيه المُخَاطَبُونَ منهم، الذين أدركوا رسول الله ﷺ، كما كان قوله: «وإذْ أخذنا ميثاقكم» خبراً عن أسلافِهم، وإنْ كان خطاباً للذين أدركوا رسولَ الله ﷺ. لأنَّ الله تعالى أخذَ ميثاقَ الذين كانوا على عهدِ رسولِ الله مُوسى ﷺ من بني إسرائيل ـ على سبيل ما قد بَيَّنَهُ لنا في كتابه ـ فألزم جميعَ مَنْ بعدَهم من ذُرِّيتهم من حُكْمِ التوراة، مِثْلَ الذي ألزم منه مَنْ كان على عهدِ موسى منهم ثم أنَّبَ الذين خاطبهم بهذه الآياتِ على نَقضِهم ونقض سَلفهم ذلك الميثاقَ، وتكذيبهم ما وَكَّدوا على أنفسهم له بالوَفاءِ من العهودِ، بقوله: «ثم أقررتم وأنتم تَشهدون». فإذْ كان خارجاً على وجهِ الخطابِ للذين كانوا على عهدِ نبينا ﷺ منهم، فإنه معنيٌّ به كُلُّ مَنْ وَاثَقَ بالميثاقِ منهم على عهدِ موسى ومن بَعده، وكُلُّ مَنْ شهدَ منهم بتصديقِ ما في التوراة. لأنَّ

الله جلّ ثناؤه لم يخصص بقوله: «ثم أقررتم وأنتم تشهدون» ـ وما أشْبَهَ ذلك من الآيِ ـ بعضَهم دون بعضٍ. والآيةُ محتملةٌ أنْ يكونَ أُرِيدَ بها جميعهم. فإذْ كان ذلك كذلك، فليس لأحدٍ أنْ يَدَّعي أنه أُرِيدَ بها بعضٌ منهم دون بعض. وكذلك حُكم الآية التي بعدها، أعني قوله: «ثم أنتم هؤلاء تَقتلونَ أنْفسكم» الآية. لأنه قد ذَكَرَ لنا أنَّ أوائِلَهُم قد كانوا يفعلون من ذلك ما كان يفعله أواخرُهم، الذين أدركوا عصرَ نبينا محمد ﷺ.

القــول في تأويل قوله تعــالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾

يتَّجه في قوله «ثم أنْتُم هؤلاء» وجهان:

**أحدهما**: أن يكون أُرِيدَ به: ثم أنتم يا هؤلاء، فترك «يا» استغناءً بدلالة الكلام عليه، كما قال ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ٢٩]، وتأويله: يا يوسف أعرض عن هذا. فيكون معنى الكلام حينئذ: ثم أنتم يا معشر يهود بني إسرائيل ـ بعد إقرارِكم بالميثاقِ الذي أخَذْتُه عليكم: لا تسفكون دماءكم، ولا تُخرجون أنفسكم من دياركم، ثم أقررتم، بَعدَ شهادتكم على أنفسكم، بأنَّ ذلك حقٌّ لي عليكُم، لازمٌ لكم الوفاءُ لي به ـ تقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، متعاونين عليهم، في إخراجكم إياهم، بالإثم والعدوان.

والتعـاونُ هو «التظاهر». وإنما قيل للتعاون «التظاهر»، لتقوية بعضِهم ظهرَ بعضٍ. فهو «تفاعل» من «الظهر»، وهو مساندةُ بعضِهم ظهرَه إلى ظَهر بعض.

والوجه الآخر: أنْ يكون معناه: ثم أنتم قَومٌ تقتلون أنفسكم. فيرجعُ إلى الخبر عن «أنتم». وقد اعتُرِض بينهم وبين الخبرِ عنهم «بهؤلاء»، كما تقول العرب: «أنَا ذا أقُوم، وأنَا هذا أجلس». وإذ قيل: «أنا هذا أجلس»، كان صحيحاً جائزاً كذلك: «أنتَ ذَاك تقوم».

وأما «العدوان» فهو «الفُعلان» من «التعدِّي» يقال منه: «عَدَا فلان في كذا عَدْواً وَعُدْواناً، واعتَدَى يَعتدي اعتداءً»، وذلك إذا جاوز حدَّه ظُلماً وَبغياً.

وقد اختلف القرَأَةُ في قراءة «تظاهرون». فقرأها بعضهم: «تَظَاهَرُون» على مثال «تَفاعلون» فحذف التاء الزائدة، وهي التاء الآخرة. وقرأها آخرون: «تَظَّاهَرُون» فشدَّد، بتأويل: تَتظاهرون، غير أنهم أدغَموا التاء الثانية في الظاء، لتقارب مخرجيهما، فَصَيَّروهما ظاء مشددة. وهاتان القراءتان، وإن اختلفتْ ألفاظهما، فإنهما مُتفقتا المعنى. فسواءٌ بأيِّ ذلك قرأ القارىء، لأنهما جميعاً لُغتان معروفتان، وقراءتان مستفيضتان في أمصار الإسلام بمعنى واحد، ليس في إحداهما معنى تستحقُّ به اختيارَها على الأخرى، إلا أن يختارَ مُختارٌ «تَظَّاهَرُون» المشدَّدةَ، طلباً منه تتمةَ الكلمة.

القول في تأويل قوله تعالى: وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ تُفَدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «وإنْ يأتوكم أسارَى تُفادوهم»، اليهودَ. يُوَبِّخُهم بذلك، ويُعَرِّفُهم به قبيحَ أفعالهم التي كانوا يفعلونها، فقال لهم: ثم أنتم ـ بعد إقرارِكم بالميثاقِ الذي أخذتُه عليكم: أنْ لا تسفكوا دماءَكم، ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم ـ تقتلون أنفسكم، يعني به: يقتلُ بعضُكم بعضاً، وأنتم، مع قتلِكم مَنْ تَقتلون منكم، إذا وجدتم الأسيرَ منكم في أيدي غيركم من

أعـدائكم، تَفْدُونَهُ، ويُخْرِجُ بعضكم بعضاً من ديارهِ. وقتلكُم إياهم وإخراجُكُموهم من ديارهم، حرامٌ عليكم، وتركهم أسرى في أيدي عَدوِّكُم حرامٌ عليكم، فكيف تستـجـيزونَ قتـلَهـم، ولا تسـتجيزون ترك فدائهم من عدوِّهم؟ أم كيف لا تستجيزون ترك فدائهم، وتستجيزون قتلهم؟ وهما جميعاً ـ في اللازم لكم من الحكم فيهم ـ سواءٌ. لأن الـذي حَرَّمْتُ عليكم من قتلِهم وإخـراجِهم من دورهـم، نظيرُ الـذي حرمتُ عليكم من تركهم أسـرى في أيدي عدوهم، أَفَتؤمِنُون ببعضِ الكتاب ـ الذي فرضتُ عليكم فيه فرائضي، وبيَّنتُ لكم فيه حدودي، وأخـذتُ عليكم بالعمـلِ بما فيه ميثاقي ـ فتصدِّقون به، فَتُفَادُونَ أَسْراكم من أيدي عدوكم وتكفرون ببعضه، فتجحدون، فتقتلون مَنْ حرَّمتُ عليكم قتلَه من أهل دينكم ومن قومكم، وتخرجونهم من ديارهم، وقد علمتم أنَّ الكفر منكم ببعضه نقضٌ منكم عهدي وميثاقي؟

واختلف القَـرَأَةُ في قراءة قولـه: «وإنْ يَأتـوكم أسارى تفدوهم». فقرأه بعضهم: «أسرىٰ تَفْدُوهم»، وبعضهم: «أسَارىٰ تُفادُوهم»، وبعضهم «أُسَارىٰ تَفدُوهم»، وبعضهم «أسْرىٰ تُفادوهم».

وأولى بالصواب في ذلك قراءةُ من قرأ «وإنْ يَأتوكم أسْرى»، لأن «فعالى» في جمع «فعيل» غيرُ مستفيض في كلام العرب، فإذْ كان ذلك غير مستفيض في كلامهم، وكان مُسْتَفِيضاً فاشياً فيهم جمعُ ما كانَ من الصفاتِ ـ التي بمعنى الآلام والزمانة ـ وواحدُه على تقدير «فعيل»، على «فعلى»، كالذي وصفنا قبل، وكـانَ أحد ذلك «الأسير»، كان الواجبُ أن يُلحق بنظائرهِ وأشكاله، فيجمع جَمعَها دون غيرها ممن خالفها.

وأما مَنْ قرأ «تُفادُوهم»، فإنه أراد: إنكم تَفْدُونهم من أسْرهم، ويفدِي منكم ـ الذين أسروهم ففادوكم بهم ـ أسرَاكم منهم.

وأما من قرأ ذلك «تَفدوهم»، فإنه أراد: إنكم يا معشرَ اليهود، إنْ أتاكمُ الذين أخرجتموهم منكم من ديارهم أسْرى فدَيْتموهم فاستنقذتموهم.

وهذه القراءةُ أعجبُ إليَّ من الأولى - أعني: «أسرى تُفادُوهم» - لأنَّ الذي على اليهودِ في دينهم فداء أسراهم بكلِّ حالٍ، فَدَى الآسرون أسْراهم منهم أم لم يَفْدُوهم.

وأما قوله: «وَهو مُحرَّمٌ عليكم إخراجهم»، فإنَّ في قوله: «وهو» وجهين من التأويل.

**أحدهما**: أنْ يكون كنايةً عن الإخراج الذي تقدم ذكره. كأنه قال: وتُخرجون فريقاً منكم من ديارهم، وإخراجهم مُحَرَّمٌ عليكم. ثم كرر «الإخراج» الذي بعد «وهُو محرم عليكم»، تكريراً على «هو»، لَمَّا حَالَ بين «الإخراجِ» و«هُوَ» كلامٌ.

**والتأويل الثاني**: أن يكون عماداً، لَمَّا كانت «الواو» التي مع «هو» تقتضي اسماً يَلِيها دون الفعل. فلما قدَّم الفِعْلَ قبل الاسم - الذي تقتضيه «الواو» أن يليَها - أولِيَت «هو»، لأنه اسم، كما تقول: «أتيتُك وهو قائمٌ أبوك» بمعنى: «وأبوُك قائم» إذْ كانت «الواو» تقتضي اسماً، فعُمدت بـ «هو»، إذ سبق الفعلُ الاسمَ، ليصلح الكلام.

القول في تأويل قوله تعالى: فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «فما جزاء من يفعل ذلك منكم»: فليسَ لمن قتلَ منكم قتيلاً - فكفر بقتلِهِ إياه، بنقضِ عهدِ الله الذي حَكَمَ به عليه في التوراة - وأخرج

منكم فريقاً من ديارهم مُظاهِراً عليهم أعداءَهُم من أهل الشرك ظُلماً وعُدواناً وخلافاً لما أمَرَهُ الله به في كتابهِ الذي أنزله إلى موسى - جَزاءٌ - يعني «بالجزاء»: الثواب، وهو العِوَضُ مِمَّا فَعل من ذلك والأجر عليه - إلا خزيٌ في الحياة الدنيا. «والخِزي»: الذُّلُّ والصَّغارُ، يقال منه: «خُزِيَ الرجل يَخْزَىٰ خزياً»، «في الحياة الدنيا»، يعني: في عاجل الدنيا قبل الآخرة.

ثم اختلف في الخِزْي الذي أخزاهم الله بما سَلَفَ من معصِيتهم إياه. فقال بعضهم: ذلك هو حُكمُ اللهِ الذي أنزله إلى نَبِيِّهِ محمدٍ ﷺ: من أَخْذِ القاتلِ بِمَنْ قتل، والقَوَد به قصاصاً، والانتقام للمظلوم من الظالم.

وقال آخرون: بل ذلك، هو أخذُ الجزيةِ منهم ما أقامُوا على دِينهم، ذلةً لهم وصَغاراً.

وقال آخرون: بل ذلك الخزي الذي جُوزُوا به في الدنيا: إخراج رسولِ الله ﷺ النضيرَ من ديارهم لأوَّلِ الحَشْرِ، وقتل مقاتِلَةِ قُرَيظة وَسَبي ذراريهم، فكان ذلك خزياً في الدنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾

يعني بقوله: «ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشدِّ العذاب»: ويوم تَقوم الساعةُ يُرَدُّ مَنْ يفعل ذلك منكم - بعد الخِزْيِ الذي يَحلُّ به في الدنيا جزاءً على معصية الله - إلى أشدِّ العذابِ الذي أعدَّ الله لأعدائه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٨٥﴾

اختلف القَرَأَةُ في قراءة ذلك. فقرأه بعضهم: «وما الله بغافل عمَّا يَعملون» بـ«الياء»، على وجه الإخبارِ عنهم. فكأنهم نَحَوْا بقراءتهم معنى: «فما جَزَاءُ من يَفْعلُ ذلك منكم إلا خِزْيٌ في الحياة الدنيا ويَومَ القيامة يُردُّون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يَعملون»، يعني: عما يعمله الذين أخبرَ اللهُ عنهم أنه ليس لهم جزاءٌ على فِعْلِهم إلا الخزيُ في الحياةِ الدنيا، ومرجعهم في الآخرة إلى أشَدِّ العذاب.

وقرأه آخرون: «وما اللهُ بغافل عمَّا تَعملون» بـ«التاء» على وجه المخاطبة، وكأنهم نَحَوْا بقراءتهم: «أفَتؤمنون ببعض الكتاب وتَكفُرون ببعض». وما اللهُ بغافلٍ، يَا معشرَ اليهود، عما تَعملون أنتم.

وأعجب القراءتين إليَّ قراءةُ مَنْ قرأ بـ«الياء»، إتباعاً لقوله: «فما جزاء من يفعلُ ذلك منكم»، ولقوله: «ويوم القيامة يردُّون». لأن قوله: «وما الله بغافلٍ عما يَعملون» إلى ذلك، أقربُ منه إلى قوله: «أفتُؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض»، فإتباعه الأقربَ إليه، أوْلى من إلحاقهِ بالأبعد منه. والوجه الآخر غيرُ بعيدٍ من الصواب.

وتأويل قوله: «وما الله بغافل عما يَعملون»، وما الله بساهٍ عن أعمالهم الخبيثة، بلْ هُو مُحْصٍ لها، وحافظُها عليهم حتى يجازيَهُم بها في الآخرة، ويخزيَهم في الدنيا، فَيُذِلَّهم ويفضَحهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٨٦﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه أولئك الذين أخبرَ عنهم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب، فيفادُون أسْراهم من اليهود، ويكفرونَ ببعض، فيقتلون مَنْ حَرَّمَ الله

عليهم قتله من أهل مِلّتهم، ويخرجون من دارِه مَنْ حَرَّمَ الله عليهم إخراجَهُ من داره، نقضاً لعهدِ الله وميثاقِهِ في التوراة إليهم. فأخبر جلّ ثناؤه أنَّ هؤلاء هم الذين اشتروا رياسةَ الحياةِ الدنيا على الضعفاء وأهلِ الجهل والغباء من أهل ملتهم، وابتاعوا المآكلَ الخسيسة الرديئة فيها بالإيمان، الذي كان يكونُ لهم به في الآخرة ـ لو كانوا أتَوْا به مكانَ الكفر ـ الخلودُ في الجنان. وإنما وصفَهم الله جَلَّ ثناؤه بأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، لأنهم رضُوا بالدنيا بكفرهم باللهِ فيها، عِوَضاً من نعيمِ الآخرة الذي أعَدَّهُ الله للمؤمنين. فجعل حُظوظَهم من نعيمِ الآخرة بكفرهم بالله، ثمناً لما ابتاعوه به من خسيسِ الدنيا.

ثم أخبر الله جلّ ثناؤه أنهم إذْ باعوا حُظوظهم من نَعيم الآخرة ـ بتركهم طاعتَهُ، وإيثارِهم الكُفْرَ به والخسيسَ من الدنيا عليه ـ لا حظَّ لهم في نعيم الآخرة، وأنَّ الذي لهم في الآخرة العذابُ، غيرَ مُخَفَّفٍ عنهم فيها العذاب. لأن الذي يُخَفَّفُ عنه فيها من العذاب، هو الذي له حظٌّ في نعيمها، ولا حظَّ لهؤلاء، لاشترائهم ـ بالذي كان في الدنيا ـ دنياهم بآخرتهم.

وأما قوله: «ولا هم يُنصرون» فإنه أخبر عنهم أنه لا ينصُرهم في الآخرة أحدٌ، فيدفعُ عنهم بِنُصرته عذابَ الله ـ لا بقوته ولا بشفاعته ولا غيرهما.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «آتينا مُوسَى الكتاب»: أنزلناه إليه. وقد بيَّنا أنَّ معنى «الإيتاء» الإعطاء، فيما مضى قَبْلُ.

و«الكتاب» الذي آتاه اللهُ موسى عليه السلام، هو التوراةُ.

وأما قوله: «وَقَفَّيْنا»، فإنه يعني: وأرْدَفنا، وأتْبَعْنَا بعضَهم خلف بعض، كما يَقْفُو الرجلُ الرجلَ: إذا سار في أثره من ورائه.

ويعني بقوله: «من بعده»، من بعد موسى.

ويعني بـ «الرسل»: الأنبياء، وهم جمع «رسول». يقال: هو «رَسولٌ وهم رُسُلٌ»، كما يقال: «هو صبورٌ وهُم قوم صُبُر، وهو رجل شكور وهم قوم شُكُر».

وإنما يعني جلّ ثناؤه بقوله: «وقفَّينا من بَعده بالرسل»، أي أتبعنا بعضَهم بعضاً على منهاجٍ واحدٍ وشريعةٍ واحدة. لأنَّ كُلَّ مَنْ بعثه الله نبياً بعد موسى ﷺ إلى زمان عيسى بن مريم، فإنما بَعثه بأمر بني إسرائيل بإقامةِ التوراة، والعملِ بما فيها، والدعاء إلى ما فيها. فلذلك قيل: «وَقَفَّيْنا من بعده بالرسل»، يعني على منهاجِهِ وشريعتِهِ، والعمل بما كان يعملُ به.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

يعني بقوله: «وآتَينا عيسَى آبْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَات»، أعطينا عيسى بن مريم.

ويعني بـ «البينات» التي آتاه الله إياها: ما أظهرَ على يديهِ من الحججِ والدلالة على نبوته: من إحياءِ الموتى، وإبراء الأكمه، ونحو ذلك من الآيات، التي أبانت مَنْزِلَتَهُ من اللهِ، ودَلَّتْ على صِدْقِه وصحة نبوته.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾

أما معنى قوله: «وأيَّدْناه»، فإنه قَوَّيْناهُ فَأعَنَّاهُ، يقال منه: «أيَّدَكَ الله»، أي قوَّاك، «وهو رَجُل ذو أيْدٍ، وذُو آدٍ»، يُراد: ذو قوة.

ثم اختلف في تأويل قولـه: «بـروح القـدس». فقـال بعضهم: «روح

القدس» الذي أخبر الله تعالى ذكره أنه أيَّدَ عيسى به، هو جبريلُ عليه السلام.

وقال آخرون: «الروح» الذي أُيِّد الله به عيسىٰ، هو الإنجيل، وقال آخرون: هو الاسم الذي كان يحيي به الموتىٰ.

وأوْلى التأويلات في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: «الروح» - في هذا الموضع - جبريل. لأنَّ الله جلّ ثناؤه أخبر أنه أيَّدَ عيسى به، كما أخبر في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]، فلو كان الرُّوح الذي أيَّده اللهُ به هو الإنجيل، لكان قوله: «إذ أيَّدتُك برُوح القُدُس»، و«إذْ علَّمتك الكتاب والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل»، تكريرُ قول لا معنى له. وذلك أنه على تأويل قول من قال: معنى: «إذ أيّدتك برُوح القدس»، إنما هو: إذ أيَّدتُك بالإنجيلِ - وإذْ علَّمْتُكَ الإنجيل. وهو لا يكون به مُؤيَّداً إلا وهو معلَّمه، فذلك تكريرُ كلامٍ واحد، من غيرِ زيادةِ معنى في أحدهما على الآخر. وذلك خَلفٌ[1] من الكلام، والله تعالى ذِكْرُه يتعالى عن أنْ يُخاطِبَ عبادَهُ بما لا يفيدُهم به فائدةً. وإذْ كان ذلك كذلك، فَبيِّنٌ فسادُ قولِ مَنْ زعم أن «الروح» في هذا الموضع، الإنجيلُ، وإنْ كان جميع كُتُبِ الله التي أوحاها إلى رسُله رُوحاً منه، لأنها تحيا بها القلوبُ الميِّتةُ، وتنتعش بها النفوسُ المولِّية، وتهتدي بها الأحلامُ الضَّالة.

وإنما سمَّىٰ اللهُ تعالى جبريل «رُوحاً» وأضافه إلى «القدس»، لأنه كان بتكوينِ اللهِ له رُوحاً من عنده، من غير وِلادةِ والدٍ ولَدَهُ، فسماه بذلك «رُوحاً»، وأضافه إلى «القدس» - و«القدس»، هو الطُّهْرُ - كما سَمّى عيسى بن مريم

(١) الخلف: الرديء الفاسد من القول. يقال في المثل: «سكتَ ألفاً ونطق خلفاً»، للرجل يُطيلُ الصمت، فإذا تكلم تكلم بالخطأ والخطل.

«روحاً» لله، من أجلِ تكوينِه له رُوحاً من عنده من غير ولادةِ والدٍ وَلدَه.

وقد بيَّنا فيما مضى من كتابنا هذا، أن معنى «التقديس»: التطهير، و«القدس»: الطهر، من ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «أفكلما جَاءكم رسولٌ بما لا تَهوى أنفسُكم»، اليهودَ من بني إسرائيل.

يقول الله جلّ ثناؤه لهم: يا معشرَ يهودِ بني إسرائيل، لقد آتينا موسى التوراةَ، وتَابَعنا من بعدِهِ بالرُّسُلِ إليكم، وآتينا عيسى بن مريم البيِّنَات والحجج، إذ بعثناهُ إليكم، وقوَّيناه برُوح القدس، وأنتم كلما جاءكم رسُولٌ من رُسُلي بغير الذي تَهْوَاهُ نُفُوسُكم استكبرتُمْ عليهم ـ تَجَبُّراً وبغياً ـ استكبارَ إمامِكُم إبليس ـ فكذَّبتم بعضاً منهم وقتلتم بعضاً. فهذا فِعْلُكم أبداً برُسلي.

وقوله: «أفكلَّما»، وإنْ كان خَرَجَ مَخرج التقرير في الخطاب، فهو بمعنى الخبر.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾

اختلفت القرَأَةُ في قراءة ذلك. فقرأه بعضهم: «وَقَالوا قُلوبنا غُلْف» مخففة اللام ساكنة. وهي قراءةُ عامةِ الأمصار في جميع الأقطار. وقرأه بعضهم: «وقالوا قُلوبنا غُلُف» مثقلة اللام مضمومة.

فأما الذين قرأوها بسكونِ اللام وتخفيفها، فإنهم تأوَّلُوها، أنهم قالوا:

قلوبنا في أكِنَّة وأغطية وغلْف. و«الغُلْف» - على قراءة هؤلاء - جمع «أغْلف»، وهو الذي في غلاف وغطاء، كما يقال للرجل الذي لم يُخْتَتَنْ «أغلف»، والمرأة «غلفاء». وكما يقال للسيف إذا كان في غلافه: «سيف أغْلف، وقوسٌ غَلفاء» وجمعها «غُلْف». وكذلك جمع ما كان من النعوتِ ذكرُه على «أفعل» وأنثاه على «فعلاء»، يجمع على «فُعْل» مضمومة الأول ساكنة الثاني، مثل: «أحمر وحُمر، وأصفر وصُفر»، فيكون ذلك جماعاً للتأنيث والتذكير. ولا يجوز تثقيل عين «فُعْل» منه، إلا في ضرورة شعر.

وَأما الذين قرأوها «غُلُف» بتحريكِ اللام وضَمِّها، فإنهم تَأوَّلُوها أنهم قالوا: قُلوبنا غُلُفٌ للعلمِ، بمعنى أنها أوعيةٌ.

و«الغلف» على تأويل هؤلاء جمع «غلاف». كما يجمع «الكتاب كُتُب، والحجاب حُجُب، والشهابُ شُهُب». فمعنى الكلام على تأويل قراءة من قرأ «غُلُف» بتحريك اللام وضمها، وقالت اليهود: قلوبنا غُلُفٌ للعِلْمِ وأوعيةٌ له ولغيره.

والقراءة التي لا يجوز غيرها في قوله: «قلوبنا غُلف»، هي قراءة من قرأ «غلْف» بتسكين اللام - بمعنى أنها في أغشيةٍ وأغطية، لاجتماع الحجة من القَرَأَةِ وأهلِ التأويل على صحتها، وشذوذِ مَنْ شَذَّ عنهم بما خالفه، من قراءة ذلك بضم «اللام».

وقد دَلَّلْنا على أنَّ ما جَاءت به الحجة متفقة عليه، حجةٌ على مَنْ بلغه. وما جاء به المنفردُ، فغير جائز الاعتراضُ به على ما جاءت به الجماعةُ التي تقوم بها الحجة نقلاً وقولاً وعملاً، في غير هذا الموضع، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا المكان.

البقرة: ٨٨

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «بل لعنهم الله»، بل أقصاهم الله وأبعدَهم وطرَدهم وأخزاهم وأهْلَكَهُمْ بكفرهم، وجُحودهم آيات الله وَبَيناته، وما ابتعث به رُسُلَهُ، وتكذيبهم أنبياءَه. فأخبر تعالى ذِكْرُهُ أنه أبعدهم منه ومن رحمته بما كانوا يفعلون من ذلك.

وأصلُ «اللعن» الطردُ والإبعادُ والإقصاءُ يقال: «لعن الله فلاناً يلعنه لعناً، وهو ملعون». ثم يُصرف «مفعول»: فيقال: هو «لَعين».

فقول الله تعالى ذكرهُ «بل لَعنهُمُ الله بكفرهم» تكذيبٌ منه للقائلين من اليهود: «قلوبنا غلف». لأن قوله: «بَلْ» دلالةٌ على جَحْدِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ وإنكاره ما ادَّعَوْا من ذلك، إذ كانت «بل» لا تدخلُ في الكلامِ إلا نقضاً لمجحود. فإذْ كان ذلك كذلك، فبيِّنٌ أنَّ معنى الآية: وقالت اليهود: قُلوبنا في أكِنَّةٍ مما تَدْعُونا إليه يا محمد. فقال الله تعالى ذكره: ما ذلك كما زعموا، ولكنَّ الله أقصَى اليهودَ وأبعدَهم من رَحمتِهِ، وطردهم عنها، وأخزاهم بجحودهم له ولرسله، فقليلاً ما يؤمنون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾

إنَّ الله جلّ ثناؤه أخبرَ أنه لَعَن الذين وَصَف صِفَتَهُم في هذه الآية، ثم أخبر عنهم أنهم قَليلُو الإيمانِ بما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ. ولذلك نصب قوله: «فقليلاً»، لأنه نعتٌ للمصدرِ المتروك ذكره. ومعناه: بل لعنهم الله بكفرهم، فإيماناً قليلاً ما يؤمنون. فقد تبيَّن إذاً بما بيَّنا فسادُ قولِ مَن قال: إنه يعني به: فلا يؤمن منهم إلا قليلٌ، أو فقليلٌ منهم من يؤمن، لأنه لو كان ذلك كذلك، لكان «القليل» مرفوعاً لا منصوباً. لأنه إذا كان ذلك تأويله، كان

«القليل» حينئـذٍ مرافعاً «ما». فإذ نصب «القليل» ـ و«ما» في معنى «مَنْ» أو «الذي» ـ فقد بقيت «ما» لا مُرافع لها. وذلك غير جائز في لغةِ أحدٍ من العرب.

فأما أهلُ العربية فإنهم اختلفوا في معنى «ما» التي في قوله: «فقليلاً ما يؤمنون». فقال بعضهم: هي زائدة لا معنى لها، وإنما تأويل الكلام: فقليلاً يُؤمنون، كما قال جلّ ذكره ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وما أشبه ذلك، فزعم أن «ما» في ذلك زائدة، وأن معنى الكلام: فبرحمةٍ من الله لِنْتَ لهم.

ولعل قائلاً أن يقول: هل كان للذين أخبرَ اللهُ عنهم أنهم قَليلاً ما يؤمنون ـ من الإيمانِ قليل أو كثير، فيقال فيهم: «فقليلاً مَا يؤمنون»؟

قيل: إنَّ معنى «الإيمان» هو التصديق. وقد كانت اليهودُ التي أخبر الله عنها هذا الخبر تُصَدِّقُ بوحدانيةِ الله، وبالبعثِ والثوابِ والعقاب، وتكفر بمحمد ﷺ ونبـوتـه، وكُلُّ ذلك كان فرضاً عليهم الإيمانُ به، لأنه في كتبهم، ومما جاءهم به موسى، فَصَـدَّقُوا ببعضٍ ـ وذلك هو القليل من إيمانهم ـ وكَذَّبُوا ببعضٍ، فذلك هو الكثيرُ الذي أخبر الله عنهم أنهم يكفرون به.

وقد قال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قيل: «فقليلاً مَا يُؤمنون»، وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: «قَلَّما رأيتُ مثلَ هذا قط». وقد روى عنها سماعاً منها: «مررتُ ببلادٍ قَلَّما تُنْبتُ إلا الكراث والبصل» يعني: ما تُنبتُ غيرَ الكراث والبصل، وما أشبه ذلك من الكلام الذي يُنطق به بوصف الشيء بـ «القلة»، والمعنى فيه نفي جميعه.

القـول في تأويل قولـه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «ولما جاءَهُم كتابٌ من عند الله مُصدق لما مَعهم»، ولما جاء اليهودَ من بني إسرائيل الذين وَصَفَ جَلَّ ثناؤه صِفَتَهم - «كتابٌ من عند الله» - يعني بـ «الكتاب» القرآن الذي أنزله اللهُ على محمدٍ ﷺ - «مصدق لما معهم»، يعني مُصَدِّقٌ للذي معهم من الكتبِ التي أنزلها الله من قبل القرآن.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وكانوا من قَبْلُ يَستفتحون على الذين كفروا»، أي: وكان هؤلاء اليهود - الذين لمّا جاءهم كتابٌ من عند الله مُصَدِّقٌ لما مَعهم، من الكتبِ التي أنزلها الله قبل الفُرْقان، كَفَرُوا به - يَستفتحون بمحمد ﷺ - ومعنى «الاستفتاح»، الاستنصار - يستنصرونَ اللهَ به على مُشركي العرب من قبل مبعثه، أي من قبل أن يُبْعَثَ.

فإنْ قال لنا قائل: فأين جوابُ قوله: «ولما جَاءَهم كتابٌ من عند الله مُصدِّقٌ لما معهم»؟

قيل: قد اختلف أهلُ العربية في جوابه. فقال بعضهم: هو مما تُرِكَ جوابُه، استغناءً بمعرفةِ المخاطَبينَ به بمعناه، وبما قد ذكر من أمثاله في سائر القرآن. وقد تفعلُ العربُ ذلك إذا طال الكلام، فتأتي بأشياء لها أجوبة، فتحذفُ أجوبتها، لاستغناءِ سامعيها - بمعرفتهم بمعناها - عن ذِكْرِ الأجوبةِ، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَو قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾ [الرعد: ٣١]، فترك جوابه. والمعنى: ولو أن قرآناً سوى هذا القرآنِ سُيِّرت به الجبالُ، لَسُيِّرَتْ بهذا القرآن - استغناءً بِعِلْمِ

السامعين بمعناه. قالوا: فكذلك قوله: «ولما جاءَهم كتابٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم».

وقال آخرون: جوابُ قوله: «ولِما جَاءَهم كتابٌ من عند الله» في «الفاء» التي في قوله: «فَلما جَاءَهم ما عَرَفوا كفروا به»، وجواب الجزاءَيْن في «كفروا به»، كقولك: « لما قمتَ، فلما جئتنا أحسنتَ»، بمعنى: لما جئتنا إذ قمتَ أحسنتَ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٨٩﴾

قد دللنا فيما مضى على معنى: «اللعنة»، وعَلى معنى «الكفر»، بما فيه الكفاية.

فمعنى الآية: فخِزْيُ الله وإبعاده على الجاحدين ما قد عَرَفُوا من الحق عليهم لله ولأنبيائه، المنكرين لما قد ثَبتَ عندهم صِحَّتُه من نبوةِ محمدٍ ﷺ. ففي إخبارِ الله عزّ وجلّ عن اليهود ـ بما أخبر الله عنهم بقوله: «فلما جاءَهم ما عرفوا كفروا به» ـ البيانُ الواضحُ أنهم تَعَمَّدُوا الكفر بمحمد ﷺ، بعد قيام الحجةِ بنبوته عليهم، وقَطْعِ الله عُذرَهم بأنه رَسولُه إليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا﴾

ومعنى قوله جَلَّ ثناؤه: «بئسَ مَا اشتروا به أنفسهم»: ساء ما اشْتَرَوْا به أنفسَهم.

وأصل «بِئْسَ» «بَئِسَ» من «البؤس»، سُكِّنت همزتها، ثم نُقلت حركَتُها

إلى «الباء»، كما قيل في «ظَلِلت» «ظِلْت»، وكما قيل «للكَبِدْ» «كِبْد» ـ فنقلت حركة «الباء» إلى «الكاف»، لما سُكِّنت «الباء».

وقد يحتمل أن تكون «بئس»، وإن كان أصلها «بَئِس»، من لغة الذين ينقلون حركةَ العينِ من «فَعِل» إلى الفاء، إذا كانت عين الفعل أحد حروف الحَلْقِ الستة، كما قالوا من «لَعِبَ» «لِعْبَ» ومن «سَئِمَ» «سِئْمَ»، وذلك ـ فيما يقال ـ لُغةٌ فَاشية في تميم.

ثم جُعلت دَالةً على الذم والتوبيخ، وَوُصِلَتْ بـ «ما».

وأوْلى الأقوالِ عندي بالصواب، قول من جعل «بئسما» مرفوعاً بالراجع من «الهاء» في قوله: «اشتروا به»، كما رفعوا ذلك بـ «عبدالله» إذ قالوا: «بئسما عبدُالله»، وجعل «أن يكفروا» مترجمة عن «بئسما». فيكون معنى الكلام حينئذ: بئس الشيءُ باعَ اليهودُ به أنفُسَهُم، كُفْرهُم بما أنزلَ الله بغياً وَحسَداً أنْ يُنَزِّلَ اللهُ من فَضْلِهِ. وتكون «أن» التي في قوله: «أن ينزل الله، في موضع نصب. لأنه يعني به «أن يكفروا بما أنزل الله»: من أجل أن ينزل الله من فَضله عَلى مَنْ يَشاءُ من عباده. موضع «أن» جَزاءٌ. وكان بعضُ أهلِ العربية من الكوفيين يزعم أن «أن» في موضعِ خفض بنية «الباء». وإنما اخترنا فيها النصبَ لتمام الخبرِ قَبْلَها، ولا خافضَ معها يخفضها. والحرف الخافض لا يخفضُ مضمراً.

وأما قوله: «اشتروا به أنفسهم»، فإنه يعني به: بَاعُوا أَنْفُسَهُم، والعربُ تقول: «شَرَيْتُه»، بمعنى بِعْتُه. و«اشتروا»، في هذا الموضع، «افتعلوا» من «شَريت». وكلام العرب ـ فيما بلغنا ـ أن يقولوا: «شَريت» بمعنىٰ: بعت، و«اشتريتُ» بمعنى: ابْتَعْتُ. وقيل: إنما سُمي «الشاري»، «شارياً»، لأنه باع نفسه ودُنياه بآخرته.

وأما معنى قوله: «بغياً»، فإنه يعني به: تَعَدِّياً وَحسَداً.

فمعنى الآية: بئسَ الشيء باعوا به أنفسَهُم، الكفرُ بالذي أنزل اللهُ في كتابه على موسى ـ من نبوة محمد ﷺ، والأمر بتصديقهِ واتِّباعه ـ من أجل أن أنزل الله من فَضْله، وفضله: حِكْمتُه وآياتُه ونبوته، على مَنْ يشاء من عباده ـ يعني به: على محمدٍ ﷺ ـ بغياً وحسداً لمحمد ﷺ، من أجل أنه كان من ولدِ إسماعيلَ، ولم يَكُنْ من بني إسرائيل.

فإنْ قال قائل: وكيف باعت اليهودُ أنفسها بالكفر، فقيل: «بئسَ ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله»؟ وهل يُشترَى بالكفر شيءٌ؟.

قيل: إن معنى: «الشراء» و«البيع» عند العرب، هو إزالةُ مالكٍ مِلكَه إلى غيرِهِ، بعِوَضٍ يَعْتَاضُه منه. ثم تستعمل العربُ ذلك في كُلِّ معتاضٍ من عمله عِوَضاً، شراً أو خيراً. فتقول: «نعم ما باع به فلانٌ نفسَهُ» و«بئس مَا باع به فلانٌ نفسه»، بمعنى: نعم الكسب أكسبها، وبئس الكسب أكسبها ـ إذا أورثها بسَعْيِهِ عليها خيراً أو شراً. فكذلك معنى: قوله جَلَّ ثناؤه: «بئس ما اشتروا به أنفسهم» ـ لما أَوْبَقوا أنفسهم بكفرهم بمحمدٍ ﷺ فأهلكوها، خاطبهم الله والعرب بالذي يعرفونه في كلامِهم، فقال: «بئس ما اشْتَرَوْا به أنفسهم»، يعني بذلك: بئس ما أَكْسَبُوا أنفسهم بسعيهم، وبئس العوض اعتاضوا، من كفرهم بالله في تكذيبهم محمداً، إذْ كانوا قد رَضُوا عِوَضاً من ثوابِ الله وما أَعَدَّ لهم ـ لو كانوا آمنوا بالله وما أنزل على أنبيائه ـ بالنار وما أَعَدَّ لهم بكفرهم بذلك.

وهذه الآية ـ وما أخبر الله فيها عن حَسد اليهود محمداً ﷺ وقومَه من العرب، من أجلِ أنَّ الله جعل النبوةَ والحِكْمةَ فيهم دونَ اليهودِ من بني إسرائيل، حتى دعاهم ذلك إلى الكفر به، مع عِلْمِهم بصدقه، وأنه لله نبيٌّ مبعوثٌ ورسولٌ مُرسل ـ نظيرهُ الآية الأخرى في سورة النساء، وذلك قوله: ﴿أَلَمْ

تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ويَقُولُونَ لِلّذِينَ كَفَرُوا هٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً. أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٥١-٥٤].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾

قد ذكرنا تأويلَ ذلك وبيَّنا معناه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾

يعني بقوله: «فباؤوا بغضَب على غضَب»، فرَجعت اليهودُ من بني إسرائيل ـ بعد الذي كانوا عليه منَ الاستنصارِ بمحمدٍ ﷺ والاستفتاحِ به، وبعد الذي كانوا يُخبرون به الناسَ من قَبل مبعثه أنه نبيٌّ مبعوث ـ مُرْتَدِّين على أعقابهم حين بعثه اللهُ نبياً مُرسلاً، فباؤوا بغضب من الله ـ استحقوه منه بكفرهم بمحمد حين بُعث، وجُحودهم نبوته، وإنكارهم إياه أن يكون هو الذي يجدون صِفَتَهُ في كتابهم، عِناداً منهم له وبغياً، وحسداً له وللعرب ـ على غضبٍ سالفٍ، كان من اللهِ عليهم قبل ذلك، سابقٍ غضبَهُ الثاني، لِكُفْرِهم الذي كان قبلَ عيسى بن مريم، أو لعبادَتِهم العِجْلَ، أو لغير ذلك من ذنوبٍ كانت لهم سَلفت، يستحقون بها الغضبَ من الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٩٠﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وللكافرين عَذابٌ مُهين»، وللجاحدين نبوةَ محمد ﷺ من الناس كلهم، عذابٌ من الله، إما في الآخرة، وإما في الدنيا والآخرة، «مهين» هو المُذِلُّ صاحِبَهُ، المخزي، المُلْبِسُهُ هَواناً وذِلةً.

فإنْ قال قائل: وأي عذابٍ هُو غيرُ مُهينٍ صاحبَهُ، فيكون للكافرين المهين منه؟

قيل: إن المهين هو الذي قد بيَّنا أنه المورثُ صاحِبَهُ ذِلةً وهواناً، الذي يَخْلُدُ فيه صاحبه، لا ينتقل من هوانِهِ إلى عِزٍّ وكرامة أبداً. وهو الذي خَصَّ اللهُ به أهلَ الكفر به وبرسله. وأما الذي هو غير مهين صاحبَه، فهو ما كان تمحيصاً لصاحبه. وذلك هو كالسارق من أهل الاسلام، يسرق ما يجب عليه به القطعُ فتقطعُ يده، والزاني منهم يزني فيقام عليه الحَدُّ، وما أشبه ذلك من العذابِ والنَّكال الذي جعله الله كفاراتٍ للذنوب التي عُذِّب بها أهلُها، وكأهلِ الكبائرِ من أهلِ الإسلام الذين يُعَذَّبون في الآخرة بمقادير أجرامهم التي ارتكبوها، لِيُمَحَّصُوا من ذنوبهم، ثم يدخلون الجنة. فإنَّ كُلَّ ذلك، وإنْ كان عذاباً، فغيرُ مهين مَنْ عُذِّبَ به. إذ كان تعذيبُ الله إياه به ليمحِّصه من آثامه، ثم يُورِدَه مَعدِنَ العِزِّ والكرامة، ويخلِّده في نعيم الجنان.

القول في تأويل قوله تعالى: **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا**

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وإذا قيلَ لهم»، وإذا قيل لليهود من بني إسرائيل - الذين كانوا بين ظَهْراني مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ -: «آمنوا»، أي صَدِّقُوا، «بما أنزَل الله»، يعني بما أنزل الله من القرآنِ على محمدٍ ﷺ، «قالوا: نؤمن»، أي نصدِّق «بما أُنْزِلَ علينا»، يعني: بالتوراة التي أنزلها الله على موسى.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه: بقوله: «وَيَكفرون بما وَرَاءه»، ويجحدون، «بما وراءه»، يعني: بما وراء التوراة.

وتأويل «وَرَاءه» في هذا الموضع: «سِوَى». كما يُقالُ للرجل المتكلم بالحسن: «ما وراء هذا الكلام شيء» يراد به: ليس عند المتكلم به شيء سوى ذلك الكلام. فكذلك معنى قوله: «ويكفرون بما وَراءه»، أي بما سوى التوراة، وبما بَعده من كُتب الله التي أنزلها إلى رسله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وهُوَ الحَقُّ مُصَدقاً»، أي: ما وراء الكتاب ـ الذي أنزل عليهم من الكتبِ التي أنزلها اللهُ إلى أنبيائه ـ الحقُّ. وإنما يعني بذلك تعالى ذِكْرُه القرآنَ الذي أنزله إلى محمد ﷺ.

وذلك خبرٌ من الله أنهم من التكذيب بالتوراة، على مِثْلِ الذي هُمْ عليه من التكـذيب بالإنجيل والفُرقان، عِناداً لله، وخِلافاً لأمره، وَبَغياً على رُسله صلوات الله عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩١﴾

يعني جَلَّ ذكره بقوله: «قُلْ فلم تقتلون أنبياءَ الله»، قل يا محمد، ليهود بني إسرائيل ـ الذين إذا قُلْتَ لهم: آمنوا بما أنزَل اللهُ قَالوا: نؤمنُ بما أُنْزِلَ علينا ـ: لِمَ تقتلون ـ إنْ كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم ـ

أنبياءَهُ، وقـد حَرَّمَ اللهُ في الكتابِ الذي أنزَل عليكم قَتْلَهُم، بل أمرَكم فيه باتباعهم وطاعَتِهم وتصديقهم؟ وذلك من الله جَلَّ ثناؤه: تكذيبٌ لهم في قوله: «نُؤمنُ بما أنزِلَ عَلينا»، وتعييرٌ لهم.

وتأويل قوله «من قبل»، أي: من قبل اليوم.

وأما قوله: «إن كنتمْ مُؤمنين»، فإنه يعني: إنْ كنتم مؤمنينَ بما نَزَّلَ اللهُ عليكم كمـا زعمتم. وإنمـا عنى بذلـك اليهـودَ الذين أدرَكُوا رسولَ الله ﷺ وأسلافَهم ـ إنْ كانوا وكنتم، كما تزعمون أيها اليهودُ، مؤمنينَ. وإنما عيَّرهم جَلَّ ثناؤه: بقتلِ أوائلهم أنبياءَه، عند قولهم حين قِيلَ لهم: آمنوا بما أنزل الله. قالوا: نؤمنُ بما أُنْزِلَ علينا. لأنهم كانوا لأوائلهم ـ الذين تولَّوا قَتْلَ أنبياء الله، مع قِيلِهم: نؤمنُ بما أُنْزِلَ علينا ـ متولِّين، وبفعلهم راضين. فقال لهم: إنْ كنتم كما تزعمون مُؤمنين بما أنْزِل عليكم، فلم تتولَّون قَتَلَةَ أنبياءِ اللهِ؟ أي: تَرضَوْنَ أفعالهم.

القـول في تأويل قولـه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولقد جَاءكمْ مُوسَى بالبينات»، أي جاءكم بالبيناتِ الدالَّةِ على صِدْقِهِ وصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ، كالعصا التي تحولَّتْ ثعباناً مُبيناً، ويده التي أخـرجها بيضاء للناظرين. وفَلْقِ البحرِ ومصيرِ أرضِه له طريقاً يَبساً، والجراد والقُمَّل والضفادع، وسائر الآيات التي بَيَّنَتْ صِدْقَهُ وصحة نبوته.

وإنما سماها الله «بينات»، لِتَبَيُّنِها للناظرينَ إليها معجزةً لا يَقْدرُ على أنْ يأتيَ بها بَشرٌ، إلا بتسخيرِ اللهِ ذلك لَهُ. وإنما هي جمع «بينة»، مثل: «طيبة. وَطيبات».

ومعنى الكلام: ولقد جاءكم ـ يا معشرَ يهود بني إسرائيل ـ موسى بالآياتِ البيناتِ على أمرِهِ وصدقِهِ وصحةِ نبوته.

وقوله: «ثم اتخذتُم العِجْلَ من بَعده وَأنتم ظَالمون»، يقول جَلَّ ثناؤه: ثم اتخذتم العجل من بعد مُوسى إلهاً. فـ«الهاء» التي في قوله: «من بعده»، من ذكر موسى. وإنما قال: من بعد موسى، لأنهم اتخذوا العجلَ من بَعد أنْ فارقهم موسى ماضياً إلى رَبِّهِ لموعدِهِ ـ على ما قد بيَّنا فيما مضى من كتابنا هذا.

وقد يجوز أن تكون «الهاء» التي في «بعده» إلى ذِكْرِ المجيء. فيكون تأويل الكلام حينئذٍ: ولقد جاءكم موسى بالبينات، ثم اتخذتم العجلَ من بعد مجيءِ البَيِّنَاتِ وأنتم ظالمون. كما تقول: «جئتني فكرهتُه»، يعني: كرهتُ مجيئكَ.

وأما قوله: «وأنتم ظَالمون»، فإنه يعني بذلك: أنكم فعلتم ما فعلتم من عبادةِ العجلِ وليس ذلكم، وعبدتم غيرَ الذي كان ينبغي لكم أنْ تعبدوه. لأنَّ العبادةَ لا تنبغي لغير الله. وهذا توبيخٌ من الله اليهود، وتعبير منه لهم، وإخبارٌ منه لهم أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا ـ من اتخاذ العجل إلهاً وهو لا يملكُ لهم ضرّاً ولا نفعاً، بعد الذي علموا أنَّ رَبَّهم هو الربُّ الذي يفعلُ من الأعاجيبِ وبدائعِ الأفعالِ ما أجراه على يدي موسى صلوات الله عليه، من الأمورِ التي لا يقدر عليها أحدٌ من خَلْقِ الله، ولم يقدر عليها فرعونُ وجُنده مع بطشهِ وكثرةِ أتباعه، وقُرْبِ عهدهم بما عَايَنُوا من عجائبِ حِكم الله ـ فهم إلى تكذيبِ محمدٍ ﷺ وجحودِ ما في كتبهم ـ التي زعموا أنَّهم بها مؤمنون ـ من صِفَتِهِ ونَعْتهِ، مع بُعْدِ ما بينهم وبين عهد موسى من المدة ـ أَسْرَع، وإلى التكذيبِ بما جاءهم به موسى من ذلك أقرب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وإذ أخذنا ميثاقكم»، واذكروا إذ أخذْنا عُهودكم، بأنْ خُذُوا ما آتيناكم من التوراة - التي أنزلتها إليكم أنْ تعملوا بما فيها من أمري، وَتنتهوا عما نَهَيْتُكم فيها - بجدٍّ منكم في ذلك ونشاط، فأَعْطَيْتُم على العملِ بذلك ميثاقَكُم، إذ رفعنا فوقكمُ الجبلَ.

وأما قوله: «وَاسمعوا»، فإنَّ معناه: واسمعوا ما أمرتكم به وتَقَبَّلُوه بالطاعةِ، كقـولِ الرجل للرجل يأمره بالأمر: «سمعت وأطعتُ»، يعني بذلك سمعتُ قولك، وأطعتُ أمرك، فكذلك معنى قوله: «واسمعوا»، اقْبَلُوا ما سمعتم واعْمَلُوا به.

فمعنى الآية: وإذ أخذنا ميثاقكم أنْ خُذوا ما آتيناكم بقوة، واعملوا بما سمعتم، وأطيعوا الله، ورفعنا فوقكم الطورَ من أجل ذلك.

وأما قوله: «قالوا سَمعنا»، فإنَّ الكلامَ خرج مخرج الخبرِ عن الغائب بعد أنْ كان الابتداء بالخطاب، فإن ذلك كما وصفنا، من أن ابتداء الكلام، إذا كان حكايةً، فالعربُ تُخاطب فيه ثم تَعود فيه إلى الخبر عن الغائب، وتخبر عن الغائب ثم تخاطب، كما بيَّنا ذلك فيما مضى قبل. فكذلك ذلك في هذه الآية، لأن قوله: «وإذ أخذنا ميثاقكم»، بمعنى: قلنا لكم، فأَجَبْتُمُونا.

وأمـا قولـه: «قالوا سَمعنا»، فإنه خبرٌ من الله - عن اليهودِ الذين أخذ ميثاقهم أنْ يعملوا بما في التوراة، وأنْ يُطِيعُوا الله فيما يسمعون منها - أنهم قالوا حين قيل لهم ذلك: سمعنا قولك، وعصينا أمرك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ ذلك. فقال بعضهم: وأُشْرِبُوا في قلوبهم حُبَّ العجل.

وقال آخرون: معنى ذلك أنهم سُقُوا الماءَ الذي ذُرِّي فيه سُحالة العجل.

وأولى التأويلين اللذين ذكرت بقولِ الله جَلَّ ثناؤه: «وأُشْرِبُوا في قلوبهم العجل» تأويلُ مَنْ قال: وأشربوا في قلوبهم حُب العجل. إن الماءَ لا يقال منه: أشْرِبَ فلانٌ في قلبه، وإنما يقال ذلك في حب الشيء، فيقال منه: «أُشْرِبَ قلبُ فلانٍ حُبَّ كذا»، بمعنى: سُقِيَ ذلك حتى غَلَبَ عليه وخَالط قلبه، ولكنه ترك ذكر «الحب» اكتفاءً بفهمِ السامعِ لمعنى الكلام. إذْ كان معلوماً أنَّ العجلَ لا يُشْربُ القلبَ، وأن الذي يُشْربُ القلبَ منه حُبُّه، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عن القَرْيَةِ التي كَانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتي كُنَّا فِيها والعِيرَ الَّتي أَقْبَلْنا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢].

وقد تقولُ العرب: «إذا سَرَّكَ أنْ تنظر إلى السَّخاء فانظر إلى هَرِم، أو إلى حاتم»، فتجتزىء بذكر الاسم من ذكر فعله، إذا كان معروفاً بشجاعة أو سخاء أو ما أشبه ذلك من الصفات.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: قُلْ، يا محمدُ ليهودِ بني إسرائيل: بئس الشيء يأمركم به إيمانكم؛ إنْ كان يَأمركم بقتلِ أنبياءِ الله ورُسُله، والتكذيب بكتبه،

وجحودِ ما جاء من عنده. ومعنى «إيمانهم»: تصديقهم الذي زعموا أنهم به مصدقون من كتاب الله، إذ قيل لهم: آمنوا بما أنزَل الله. فقالوا نؤمن بما أُنْزِلَ علينا. وقوله: «إنْ كنتم مُؤمنين»، أي: إن كنتم مصدِّقينَ كما زعمتم بما أنزلَ اللهُ عليكم، وإنما كذبهم الله بذلك ـ لأن التوراة تنهى عن ذلك كله، وتأمر بخلافه. فأخبرهم أنَّ تصديقَهُم بالتوراة، إنْ كان يأمرهم بذلك فبئس الأمر تأمر به. وإنما ذلكَ نَفْيٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن التوراة، أنْ تكون تأمر بشيء مما يكرهه الله من أفعالهم، وأن يكون التصديقُ بها يدل على شيءٍ من مخالفة أمر الله؛ وإعلامٌ منه جَلَّ ثناؤه أنَّ الذي يأمرهم بذلك أهواؤُهم، والذي يحملهم عليه البغيُ والعدوان.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

وهذه الآيةُ مما احتج الله بها لنبيه محمد ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظَهْرَاني مُهاجَرِهِ، وَفضحَ بها أحبارَهُم وعلماءهم. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤه أمر نبيه ﷺ أن يدعوَهم إلى قضيةٍ عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف. كما أمره الله أن يدعوَ الفريقَ الآخر من النصارى ـ إذْ خالفوه في عيسى صلوات الله عليه وجادَلوا فيه ـ إلى فَاصلةٍ بينه وبينهم من المباهَلة. وقال لفريق اليهود: إنْ كنتم مُحِقِّينَ فتمنَّوا الموتَ، فإن ذلك غير ضارِّكم، إنْ كنتم مُحِقِّين فيما تَدَّعُونَ من الإيمان وقُرْبِ المنزلةِ من الله. بَلْ إنْ أُعْطِيتُم أمنيَّتكم من الموتِ إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحةِ من تَعَبِ الدنيا ونَصَبِها وكدَر عيشها، والفوزِ بجوارِ الله في جنانه، إنْ كان الأمر كما تزعمون: من أنَّ الدارَ الآخرةَ لكم خالصةٌ دُوننا. وإنْ لم تُعْطَوْهَا عَلِمَ الناسُ أنكم المُبْطِلُونَ ونحن المُحِقُّونَ في دَعْوانا، وانكشف أمرُنا وأمركم لهم. فامتنعت اليهود من إجابةِ

النبيَّ ﷺ، إلى ذلك، لعلمها أنها إنْ تمنَّت الموتَ هلكَتْ، فذهبت دُنياها، وصارت إلى خِزْي الأبد في آخرتها. كما امتنع فريقُ النصارى ـ الذين جادَلُوا النبي ﷺ في عيسى، إذْ دُعوا إلى المباهلة ـ من المباهلة.

فانكشف ـ لِمَنْ كان مشكـلاً عليه أمـرُ اليهـود يومئذ ـ كَذِبُهم وَبهتهم وبغيهم على رسولِ الله ﷺ، وظهرت حجةُ رسولِ الله وحجة أصحابه عليهم، ولم تزل والحمد لله ظاهرةً عليهم وعلى غيرهم من سائر أهل الملل.

وإنمـا أمـر رسـولُ الله ﷺ أن يقـول لهم: «فتمنـوا المـوت إن كنتم صادقين»، لأنهم ـ فيما ذكر لنا ـ قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ من كَان هُوداً أو نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١].

فقال الله لنبيه محمد ﷺ: قُلْ لهم: إنْ كنتم صادقين فيما تزعمون، فَتَمَنَّوُا الموتَ. فأبانَ اللهُ كَذِبَهُم بامتناعهم من تَمَنِّي ذَلك، وأفلجَ حجةَ رسولِ الله ﷺ.

وأما تأويلُ قوله: «قُلْ إن كانتْ لكمُ الدارُ الآخرةُ عندَ الله خَالصَةً»، فإنه يقول: قُلْ يا محمد: إنْ كان نعيمُ الدارِ الآخرةِ وَلَذاتها لكم يا مَعشَرَ اليهود عند الله. فاكتفى بذكر «الدار»، من ذكر نعيمها، لمعرفة المخاطبين بالآية معناها.

وقد بيَّنا معنى «الدار الآخرة». فيما مضى، بما أَغْنَى عن إعادتهِ في هذا الموضع.

وأما تأويل قوله: «خَالصَةً»، فإنه يعني به: صَافيةً. كما يقال: «خَلص لي فلان»، بمعنى صار لي وحدي وصَفَا لي. يقال منه: «خَلص لي هذا الشيءُ فهـو يَخلُصُ خُلوصـاً وخَـالصَـة»، «والخالصةُ» مصدر مثل «العافية». ويقال للرجل: «هذا خُلْصَاني»، يعني: خالِصَتي من دون أصحابي.

وقد روي عن ابن عباس أنه كان يتأول قوله: «خالصة»: خاصةً.

وأما قوله: «من دُونِ الناسِ»، فإنَّ الذي يدل عليه ظاهرُ التنزيل أنهم قالوا: لنا الدارُ الآخرةُ عند الله خالصةً من دونِ جميعِ الناس. ويبيِّن أنَّ ذلك كان قولهم ـ من غير استثناءٍ منهم من ذلك أحداً من بني آدم ـ إخبارُ الله عنهم أنهم قالوا: «لنْ يدخل الجنة إلا مَنْ كان هُوداً أو نَصارى».

وأما قوله: «فتمَّنُوا الموتَ» فإنَّ تأويله: تَشَهَّوه وأَرِيدُوهُ. (وقد قيل: إن) تأويله: فَسَلُوا الموتَ. ولا يعرف «التمني» بمعنى «المسألة» في كلام العرب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٩٥﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عن اليهودِ وكراهتهم الموتَ، وامتناعهم عن الإجابة إلى ما دُعُوا إليه من تمني الموت، لعلمهم بأنهم إنْ فعلوا ذلك فالوعيدُ بهم نازلٌ، والموتُ بهم حالٌ؛ ولمعرفتهم بمحمدٍ ﷺ أنه رسولٌ من الله إليهم مرسلٌ، وهم به مكذبون، وأنه لم يخبرهم خبراً إلا كان حقاً كما أخبَرَ. فهم يحذَرُون أنْ يَتمنوا الموتَ، خوفاً أنْ يحلَّ بهم عقابُ الله بما كَسَبَتْ أيديهم من الذنوب.

وأما قوله: «بما قدَّمتْ أيديهم»، فإنه يعني به: بما أَسْلَفَتْهُ أيديهم. وإنما ذلك مَثَلٌ، على نحوِ ما تتمثلُ به العربُ في كلامها. فتقول للرجل يُؤخذ بجريرةٍ جرَّها أو جنايةٍ جَناها فيعاقبُ عليها: «نالَك هذا بما جَنتْ يَدَاك، وبما كسبت يداك، وبما قَدمَت يَدَاك»، فتضيف ذلك إلى «اليد». ولعل الجناية التي جَناها فاستحق عليها العقوبةَ، كانت باللسانِ أو بالفرج أو بغير ذلك من أعضاء جسده سِوَى اليد.

وإنما قيل ذلك بإضافته إلى «اليد»، لأنَّ عُظْمَ جنايات الناسِ بأيديهم، فجرى الكلامُ باستعمال إضافةِ الجناياتِ التي يَجنيها الناسُ إلى «أيديهم»، حتى أُضيفَ كل ما عُوقِبَ عليه الإنسانُ مما جَناهُ بسائر أعضاء جسده، إلى أنها عقوبةٌ على ما جَنَتْهُ يده.

فلذلك قال جَلَّ ثناؤه للعرب: «ولن يَتمنَّوه أبداً بما قَدَّمَتْ أيديهم»، يعني به: ولن يتمنى اليهود الموتَ بما قَدَّمُوا أمامهم في حياتهم من كفرهم بالله، في مخالفتهم أمرَهُ وطاعته في اتباع محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، ويعلمون أنه نبيٌّ مبعوث. فأضاف جَلَّ ثناؤه ما انْطوَت عليه قُلوبهم، وأضمرته أنفسهم، ونطقت به ألسنتهم - من حَسَدِ محمدٍ ﷺ، والبغي عليه، وتكذيبه وجحود رسالته - إلى أيديهم، وأنه مما قدمته أيديهم، لعلم العرب معنى ذلك في منطقها وكلامها. إذْ كان جَلَّ ثناؤه إنما أنزل القرآنَ بلسانها وبلغتها.

وأما قوله: «والله عليمٌ بالظالمين»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤه: والله ذُو عِلْمٍ بظَلَمَةِ بني آدم - يهودها ونَصَاراها وسائر أهلِ المللِ غيرها - وما يعملون.

وظلم اليهود: كفرهم بالله في خِلافهم أمرَهُ وطاعَته في اتباع محمد ﷺ، بعد أنْ كانوا يستفتحون به وَبمبعثه، وجحودهم نبوته وهم عالمون أنه نبيُّ الله ورسوله إليهم.

وقد دللنا على معنى «الظلم» فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

القول في تأويل قوله تعالى: وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وَلتجدنهم أحْرَصَ الناس عَلى حَياة» - اليهودَ - يقول: يا محمد، لتجدنَّ أشَدَّ الناسِ حِرْصاً على الحياة في الدنيا، وأشدهم كراهةً للموت، اليهود، وإنما كراهتهم الموتَ، لِعِلْمِهم بما لهم في الآخرةِ من الخزيِ والهَوَانِ الطويل.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ومنَ الذينَ أشْركوا»، وَأحرصَ من الذين أشركوا على الحياة، كما يقال: «هو أشجعُ الناسِ ومِنْ عَنترة» بمعنى: هو أشجع من الناس ومن عنترة. فكذلك قوله: «ومنَ الذين أشركوا». لأن معنى الكلام: ولتجدن - يا محمدُ - اليهودَ من بني إسرائيل، أحرصَ من الناسِ على حياةٍ ومن الذين أشركوا. فلما أُضيفَ «أحرص» إلى «الناس» وفيه تأويل «من»، أظهرت بعد حرف العطف، رَدّاً - على التأويل الذي ذكرنا.

وإنما وصف الله جَلَّ ثناؤه اليهودَ بأنهم أحرصُ الناسِ على الحياة، لعِلْمِهم بما قد أعدَّ لهم في الآخرة على كفرهم بما لا يقرُّ به أهل الشرك، فهم للموت أكْرَهُ من أهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث، لأنهم يؤمنون بالبعثِ، ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب. والمشركون لا يصدقون بالبعثِ ولا العقابِ، فاليهودُ أحرصُ منهم على الحياةِ وأكرهُ للموت.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

هذا خَبَرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عن الذين أشركوا - الذين أخبر أن اليهودَ أحرص منهم على الحياة. يقول جَلَّ ثناؤه: يَوَدُّ أحدُ هؤلاء الذين أشركوا - الآيِسُ، بفناءِ دنياه وانقضاء أيامِ حياته، أنْ يكونَ له بعد ذلك نُشُور أو محيا

أو فرَحٌ أو سرور - لَو يُعَمَّرُ ألفَ سنة، حتى جَعل بعضهم تحيَّة بعض: «عَشرة آلاف عام»، حِرْصاً منهم على الحياة.

القول في تأويل قوله تعالى: وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّر»، وما التعميرُ - وهو طولُ البقاء - بِمُزَحْزِحِه من عذابِ الله.

وقوله «هو» عِمادٌ[1]، لِطَلَبِ «ما» الاسم أكثرَ من طَلَبِهَا الفِعْلَ.

«وأن» التي في «أنْ يُعَمَّر»، رَفْعٌ، بـ«مزحزحه»، و«هو» الذي مع «ما» تكرير، عِمادٌ للفعل، لاستقباحِ العربِ النكرةَ قبل المعرفة.

وأما تأويل قوله: «بمزحزحه»، فإنه بِمُبْعِدِهِ ومُنَحِّيهِ، يقال منه: «زحزحه يُزَحْزِحُه زَحزحةً وَزحزَاحاً»، «وهو عنك مُتزحزح»، أي: متباعد.

فتأويل الآية - وما طولُ العمر بِمُبْعِدِه من عذابِ الله، ولا مُنَحِّيهِ منه، لأنه لابُدَّ للعمرِ من الفناء، ومصيره إلى الله.

القول في تأويل قوله جَلَّ ثناؤه: وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «والله بصير بما يعملون»، والله ذُو إبصارٍ بما يعملون، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمالهم، بل هو بجميعها مُحيطٌ، ولها حافظٌ ذاكر، حتى يُذِيقَهُمْ بها العقابَ جزاءَها.

---

(١) العماد، هو ما اصطلح عليه البصريون بقولهم: «ضمير الفصل»، ويسمى أيضاً: «دعامة» و«صفة».

وأصل «بصير» «مُبْصر» - من قول القائل: «أبصرت فأنا مُبصر»، ولكن صُرف إلى «فعيل»، كما صرف «مُسمع» إلى «سميع»، و«عذاب مؤلم» إلى «أليم»، و«مُبدع السموات» إلى «بديع»، وما أشبه ذلك.

القول في تأويل قوله جَلَّ ثناؤه: **﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾**

أجمع أهلُ العلم بالتأويل جميعاً على أنَّ هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذْ زعموا أن جبريلَ عدوٌّ لهم، وأنَّ ميكائيلَ وليٌّ لهم.

وأما تأويل الآية - أعني قوله: «قُلْ من كان عدواً لجبريل فإنه نَزَّله على قلبكَ بإذن الله» - فهو: أنَّ الله يقولُ لنبيه: قل يا محمد - لمعاشرِ اليهودِ من بني إسرائيل، الذين زعموا أنَّ جبريلَ لهم عدو، من أجل أنه صاحب سَطَواتٍ وعذابٍ وعقُوبات، لا صاحب وحْيٍ وتنزيلٍ ورحمة، فأبوا اتِّباعَكَ، وجحدوا نبوتك، وأنكروا ما جئتَهم به من آياتي وبينات حُكمي، من أجل أنَّ جبريل وليُّكَ وصاحب وحْيِي إليكَ، وزعموا أنه عدوٌّ لهم -: مَنْ يَكُنْ من الناس لجبريلَ عدواً، ومنكراً أن يكون صاحبَ وحيِ اللهِ إلى أنبيائه، وصاحبَ رحمتِهِ، فإنِّي لَهُ وليٌّ وخليلٌ، ومقرٌّ بأنه صاحبُ وَحي إلى أنبيائه ورسله، وأنه هو الذي ينزل وَحْيَ الله على قَلبي من عند ربي، بإذنِ ربي له بذلك، يربطُ به على قلبي، ويَشُدُّ فؤادي.

وإنما قال جَلَّ ثناؤه: «فإنه نزَّله على قَلبك» - وهو يعني بذلك قلب محمدٍ ﷺ، وقد أمرَ محمداً في أولِ الآية أن يُخبر اليهودَ بذلك عَنْ نفسه - ولم يقل: فإنه نزله على قلبي، ولو قيل: «على قلبي» كان صواباً من القول، لأنَّ من شأنِ العرب إذا أمرت رجلاً أن يحكي ما قِيلَ له عن نفسه، أن تخرج فعلَ المأمور

مرةً مضافاً إلى كنايةِ نفسِ المُخْبِرِ عن نفسه، إذ كانَ المخبرَ عن نفسه؛ ومرةً مضافاً إلى اسمه، كهيئة كناية اسم المخاطب، لأنه به مخاطب. فتقول في نظير ذلك: «قُلْ للقوم إنَّ الخير عندي كثير» ـ فتخرج كناية اسم المخبر عن نفسِه، لأنه المأمورُ أنْ يُخبرَ بذلك عن نفسه ـ: و«قل للقوم إن الخير عندك كثير» ـ فتخرج كناية اسمه كهيئةِ كنايةِ اسمِ المخاطب، إنه وإنْ كان مأموراً بقِيلِ ذلك، فهو مخاطَبٌ مأمورٌ بحكايةِ ما قِيلَ له. وكذلك «لا تقل للقوم إني قائم» و«لا تقل لهم إنك قائم»، و«الياء» من «إني» اسم المأمور بقول ذلك، على ما وصفنا. ومن ذلك قول الله عزّ وجل: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيُغْلَبُونَ﴾ و«تُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢]، بالياء والتاء.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «مُصَدِّقاً لما بين يديه»، القرآنُ. وَنَصَب «مُصَدقاً» على القطع من «الهاء» التي في قوله: «نَزَّلَه على قلبك».

فمعنى الكلام: فإنَّ جبريلَ نَزَّلَ القرآنَ على قلبكَ، يا محمدُ، مُصَدِّقاً لما بين يَدَي القرآن. يعني بذلك: مصدِّقاً لما سَلَفَ من كُتُبِ الله أمامه، ونزلت على رسله الذين كانوا قبل محمدٍ ﷺ. وتصديقُه إياها، موافقة معانيه معانيها في الأمرِ باتباعِ محمدٍ ﷺ وما جاء به من عند الله، وهي تصدِّقه.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وهُدىً» ودليلٌ وبرهان. وإنما سَماه الله جَلَّ ثناؤه «هُدىً»، لاهتداءِ المؤمنِ به. و«اهتداؤه به» اتخاذه إياه هَادياً يتبعه، وقائداً ينقادُ لأمره ونهيه وحَلاله وحَرامه. و«الهادي» من كُلِّ شيءٍ: ما تَقَدَّمَ أمامه. ومن ذلك

قيل لأوائلِ الخيل: «هـواديهـا»، وهو ما تقدم أمامَها. وكذلك قيل للعُنُقِ: «الهادي»، لتقدمها أمامَ سائرِ الجسد.

وأما «البُشْرى» فإنها البشارة. أخبر اللهُ عبادَه المؤمنينَ جَلَّ ثناؤه أن القرآنَ لهم بُشرَى منه، لأنه أعْلَمَهُم بما أعَدَّ لهم من الكرامة عنده في جناته، وما هُمْ إليه صائـرون في مَعـادهم من ثوابِهِ، وذلك هو «البُشرى» التي بَشَّرَ اللهُ بها المؤمنين في كتابه.

لأن «البشارة» في كلامِ العرب، هي: إعلامُ الرجلِ بما لم يَكُنْ به عالماً مما يَسُرُّه من الخبر، قبل أن يسمعه من غيره، أو يعلمه من قِبَلِ غيره.

القول في تأويل قوله جَلَّ ذكره: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه مَنْ كانَ عدواً لله، مَنْ عاداه، وَعادَى جميع ملائكته ورُسله؛ وإعلامٌ منه أنَّ مَنْ عادى جبريلَ فقد عَاداه وعادى ميكائيل، وعادى جميعَ ملائكتهِ ورسله. لأنَّ الذين سَمَّاهم الله في هذه الآية هم أولياءُ اللهِ وأهلُ طاعتهِ، ومَنْ عادَى لله وَلياً فقد عَادى الله وَبارزه بالمحاربة، ومن عَادى الله فقد عادى جميعَ أهل طاعته ووَلايته. لأن العدوَّ لله عدوٌّ لأوليائهِ، والعدوُّ لأولياءِ اللهِ عدوٌّ له. فكذلك قال لليهود ـ الذين قالوا: إنَّ جبريلَ عدوُّنا من الملائكة، وميكائيل وليُّنا منهم ـ: «مَنْ كانَ عدواً لله وَملائكته ورُسُله وجبريل وميكالَ فإنَّ الله عدوٌّ للكافرين»، من أجل أنَّ عَدُوَّ جبريل عدوٌّ كل وليٍّ لله. فأخبرهم جَلَّ ثناؤه أنَّ مَنْ كان عدوًّاً لجبريل، فهو لكل مَنْ ذكره ـ من ملائكتهِ ورُسُلهِ وميكالَ ـ عدوٌّ، وكذلك عدوٌّ بعضِ رُسُلِ الله، عَدُوٌّ لله ولكل وَلِيٍّ.

فإنْ قالَ قائلٌ: أو ليس جبريل وميكائيل من الملائكة؟

قيل: بلىٰ.

فإنْ قال: فما مَعنى تكرير ذكرهما بأسمائهما، وقد مضى ذِكْرُهما في الآية في جُملة أسماء الملائكة؟

قيل: معنى إفراد ذِكْرهما بأسمائهما، أنَّ اليهودَ لما قالت: «جبريل عدوُّنا، وميكائيل وَليُّنا» - وزعَمتْ أنها كفرتْ بمحمدٍ ﷺ، من أجل أنْ جبريلَ صاحبُ محمد ﷺ - أعْلَمَهُمُ اللهُ أنَّ مَنْ كان لجبريلَ عدواً، فإنَّ اللهَ له عَدُوٌّ، وأنه من الكافرين. فنصَّ عليه باسمِهِ وعلى ميكائيلَ باسمه، لئلا يقولَ منهم قائل: إنما قال الله: مَنْ كان عدواً لله وملائكته ورسله، ولسنا للهِ ولا لملائكتِهِ ورسلِهِ أعداءً. لأنَّ الملائكة اسم عام محتملٌ خاصاً، وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه. وكذلك قوله: «ورسله»، فلستَ يا محمد داخلاً فيهم. فَنَصَّ اللهُ تعالى على أسماء مَنْ زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم، ليقطع بذلك تلبيسَهم على أهلِ الضعف منهم، ويحسم تمويههم أمورَهم على المنافقين.

وأما إظهار اسمِ الله في قوله: «فإنَّ الله عَدُوٌّ للكافرين»، وتكريره فيه - وقد ابتدأ أولَ الخَبر بذكره فقال: «مَنْ كانَ عَدُواً لله وملائكته» - فلئلَّا يلتبسَ لو ظهر ذَلك بكناية، فقيل: «فإنه عدوٌّ للكافرين»، على سامعِه، مَن المعنيّ بـ «الهاء» التي في «فإنه»: أأللهُ، أم رُسُلُ اللهِ جَلَّ ثناؤه، أم جبريلُ، أم ميكائيلُ؟ إذْ لو جاء ذلك بكناية على ما وصفت، فإنه يلتبسُ معنى ذلك على مَنْ لم يُوقَّف على المعنيِّ بذلك، لاحتمالِ الكلام ما وصفت.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولَقد أنزلنا إليك آيات»، أي أنزلنا إليك يا محمدُ علاماتٍ واضحاتٍ دالَّاتٍ على نُبوتكَ: وتلكَ الآياتُ هي ما حَوَاهُ كتابُ الله الذي أنزله إلى محمدٍ ﷺ من خَفايا علوم اليهود ومَكنونِ سرائرِ أخبارهم وأخبار

أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عمَّا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارُهم وعلماؤهم ـ وما حَرَّفَهُ أوائِلهم وأواخرهم وبَدَّلوه، من أحكامِهم التي كانت في التـوراة. فأطلعهـا الله في كتابهِ الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ. فكان، في ذلك من أمره، الآياتُ البينات لمن أنصف نفسه، ولم يَدْعُه إلى إهلاكِها الحَسَدُ والبغيُ. إذْ كان في فطرةِ كُلِّ ذي فِطرةٍ صحيحةٍ، تصديقُ مَنْ أتى بمثل الذي أتى به محمدٌ ﷺ من الآياتِ البيناتِ التي وصفتُ، من غير تَعلُّمٍ تَعَلَّمَهُ من بَشَرٍ، ولا أخذ شيء منه عن آدمي.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٩٩﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وما يكفر بها إلا الفاسقون»، وما يَجحد بها. وقد دَلَّلْنَا فيما مضى من كتابنا هذا على أن معنى «الكفر» الجحود، بما أغنى عن إعادته هنا. وكذلك بيَّنا معنى «الفِسْق»، وأنه الخروجُ عن الشيءِ إلى غيره.

فتأويل الآية: ولقد أنزلنا إليكَ، فيما أوحينا إليكَ من الكتابِ، علاماتٍ واضحاتٍ تبيِّنُ لعلماءِ بني إسرائيل وأحبارهم ـ الجاحدينَ نبوتَك، والمُكَذِّبينَ رِسَـالتـك ـ أنـكَ لي رسولٌ إليهم، ونبيٌّ مبعوثٌ، وما يجحدُ تلك الآيات ـ الدالاتِ على صِدْقِكَ ونبوتك، التي أنزلتها إليك في كتابي فيكذب بها منهم ـ إلا الخارجُ منهم من دينه، التارك منهم فرائضي عليه في الكتاب الذي يَدين بتصديقِهِ. فأما المتمسكُ منهم بدينه، والمتبعُ منهم حُكْمَ كتابه، فإنه بالذي أنزلتُ إليكَ من آياتي مصدِّقٌ. وهم الذين كانوا آمنوا بالله وصدَّقوا رسولَهُ محمداً ﷺ من يهودِ بني إسرائيل.

القول في تأويل قوله جَلَّ ذكره: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٠﴾

«العهد»: الميثاقُ الذي أعطته بنو إسرائيل ربَّهم ليعمَلُنَّ بما في التوراة مرةً بعد أخرى، ثم نقض بعضُهم ذلك مرَّة بعد أخرى. فوبَّخهم جَلَّ ذِكْرُه بما كان منهم من ذلك، وعَيَّرَ به أبناءَهم، إذْ سلكوا منهاجَهم في بعض ما كان جَلَّ ذِكْرُه أخذَ عليهم الإيمانَ به من أمرِ محمدٍ ﷺ من العهدِ والميثاق، فكفروا وجحدوا ما في التوراة من نَعْتِه وصِفَتِه، فقال تعالى ذكره: أَوَ كُلَّما عاهَدَ اليهودُ من بني إسرائيل ربَّهم عهداً، وأوثقوه ميثاقاً، نَبذه فريقٌ منهم، فتركه وَنَقضه؟

وأما «النَّبْذ» فإنَّ أصله ـ في كلام العرب ـ الطَّرْح، ولذلك قيل للملقوط: «المنبوذ»، لأنه مطروحٌ مرميٌّ به. ومنه سمي النبيذ «نبيذاً»، لأنه زبيبٌ أو تَمْرٌ يُطرح في وعاء، ثم يعالج بالماء. وأصله «مفعول» صُرِفَ إلى «فعيل»، أعني أنَّ «النبيذَ» أصلُه «مَنْبُوذٌ» ثم صرف إلى «فعيل» فقيل: «نَبيذ» كما قيل: «كَفٌّ خَضيب، ولحيةٌ دَهِين» ـ يعني: مخضوبةٌ ومدهونةٌ. يقال منه: «نبذته أنبِذُه نَبْذاً».

فمعنىٰ قولـه جل ذكره: «نَبذه فريقٌ منهم»، طرحه فريقٌ منهم، فتركه ورفضَه ونَقضه.

و«الهاء» التي في قوله: «نبذه»، من ذِكْرِ العهد. فمعناه أوَ كلما عاهدوا عهداً نبذ ذلك العهدَ فريق منهم.

و«الفريق»: الجماعةُ، لا واحدَ له من لفظه، بمنزلة «الجيش» و«الرَّهْط» الذي لا واحدَ له من لفظه.

و«الهاء والميم» اللتان في قوله: «فريق منهم»، من ذكر اليهود من بني إسرائيل.

وأما قوله: «بل أكثرُهم لا يؤمنون» فإنه يعني جَلَّ ثناؤه: بل أكثر هؤلاء ـ الذين كُلَّما عاهدُوا الله عهداً ووَاثقوه مَوثِقاً، نقضه فريق منهم ـ لا يؤمنون.

ولذلك وَجهان من التأويل:

**أحدهما**: أنْ يكونَ الكلام دلالةً على الزيادة والتكثير في عدد المُكَذِّبينَ الناقضينَ عهدَ اللهِ، على عَدَد الفريق. فيكون الكلام حينئذٍ معناه: أو كلما عاهدتِ اليهودُ من بني إسرائيل رَبَّها عَهداً نقض فريقٌ منهم ذلك العهدَ؟ لا - مَا ينقض ذلك فريقٌ منهم، ولكن الذي ينقضُ ذلك فيكفرُ بالله، أكثرهُم، لا القليل منهم. فهذا أحدُ وجهيه.

**والوجه الآخر**: أنْ يكون معناه: أوَ كلما عاهدت اليهود ربَّها عهداً، نبذ ذلك العهدَ فريقٌ منهم؟ لا - ما ينبذ ذلك العهد فريق منهم فَينقضُه - على الإيمانِ منهم بأنَّ ذلكَ غير جائز لهم - ولكن أكثرهم لا يصدِّقون بالله ورُسله، ولا وَعْدِهِ ووعيدهِ. وقد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا معنى «الإيمان»، وأنه التصديق.

القول في تأويل قوله جَلَّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولما جاءهم»، أحبارَ اليهود وعلماءَها من بني إسرائيل - «رسولٌ»، يعني بالرسول: محمداً ﷺ.

وأمـا قولـه: «مُصَدِّقٌ لما معهم»، فإنه يعني به أن محمداً ﷺ يُصدِّق التوراةَ والتوراةُ تُصَدِّقُه، في أنه لله نبيٌّ مبعوثٌ إلى خَلْقِه.

وأما تأويل قوله: «ولما جاءَهم رسول من عند الله مصدق لما معهم»، فإنه للذي هو مع اليهودِ، وهو التوراةُ. فأخبر الله جَلَّ ثناؤه أنَّ اليهودَ لما جاءهم

رسولُ الله ﷺ من اللهِ بتصديقِ ما في أيديهم من التوراة، أنّ محمداً ﷺ نبيٌّ لله، «نبذ فريق»، يَعني بذلك: أنهم جَحَدُوه ورفضوه بعد أنْ كانوا به مُقِرِّينَ، حسداً منهم له وبغياً عليه. وقوله: «من الذين أوتوا الكتاب». وهم علماءُ اليهود الذين أعطاهم الله العِلْمَ بالتوراةِ وما فيها. ويعني بقوله: «كتاب الله»، التوراةَ.

وقوله: «وَرَاء ظُهورهم»، جعلوه وراء ظهورهم. وهذا مَثَلٌ، يقال لكل رافضٍ أمراً كان منه على بَال: «قد جَعل فلان هذا الأمرَ منه بظَهْر، وجعله وراء ظهره»، يعني به: أعْرَضَ عنه وصَدَّ وانصرف.

ومعنى قوله: «كأنهم لا يعلمون»، كأنَّ هؤلاء الذين نبذوا كتابَ الله من علماء اليهود ـ فنقضوا عهدَ الله بتركهم العمل بما وَاثقوا الله على أنفسهم العملَ بما فيه ـ لا يعلمون ما في التوراة من الأمرِ باتباعِ محمدٍ ﷺ وتصديقه. وهذا من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ إخبارٌ عنهم أنهم جحدوا الحقَّ على عِلْمٍ منهم به ومعرفة، وأنهم عاندوا أمرَ اللهِ فخالفوا على علمٍ منهم بوجوبه عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾

يعني بقوله: «واتبعوا ما تَتلو الشياطين»، الفريقَ من أحبارِ اليهود وعلمائها، الذين وصفهم جَلَّ ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذي أنزله على موسى، وراء ظهورهم، تجاهلاً منهم وكفراً بما هُمْ به عالمون، كأنهم لا يعلمون. فأخبر عنهم أنهم رَفَضُوا كتابَةُ الذي يعلمون أنه منزلٌ من عنده على نبيه ﷺ، ونقضوا عهدَه الذي أخذه عليهم في العملِ بما فيه، وآثروا السِّحْرَ الذي تَلَتْهُ الشياطينُ في مُلْكِ سليمان بن داود فاتبعوه، وذلك هو الخَسَارُ والضلالُ المبين.

واختلف أهلُ التأويل في الذين عنوا بقوله: «واتَّبعوا ما تَتلو الشياطين على

مُلك سُليمان». والصواب أنَّ ذلك توبيخٌ من الله لأحبارِ اليهودِ الذين أدركوا رسولَ الله ﷺ، فجحدوا نبوته، وهم يعلمون أنه لله رسولٌ مُرسَلٌ؛ وتأنيبٌ منهُ لهم في رفضِهم تنزيلَهُ، وهجرهم العملَ به، وهو في أيديهم يعلمونه ويعرفونَ أنه كتابُ الله، واتِّباعِهم واتِّباع أوائلهم وأسلافِهم مَا تلته الشياطينُ في عهد سليمان. وقد بيَّنا وجْه جَوَاز إضَافةِ أفعالِ أسلافِهم إليهم فيما مضى، فأغنى ذلك عن إعادتهِ في هذا الموضع.

وإنما اخترنا هذا التأويلَ، لأن المتَّبعةَ ما تَلَتْهُ الشياطينُ، في عهد سليمان وبَعده إلى أنْ بعث الله نبيه بالحق، وأمْرُ السحرِ لم يَزلْ في اليهود. ولا دلالةَ في الآية أنَّ اللهَ تعالى أرادَ بقولِهِ: «واتبعوا» بعضاً منهم دون بعض. إذْ كان جائزاً فصيحاً في كلام العرب إضافة ما وَصفنا ـ من اتِّباعِ أسلافِ المخبر عنهم بقوله: «واتبعوا ما تتلو الشياطين» ـ إلى أخلافهم بعدهم، ولم يكن بخصوص ذلك عن رسول الله ﷺ أثرٌ منقول، ولا حجةٌ تدلُّ عليه. فكان الواجبُ من القولِ في ذلك أنْ يقالَ: كُلُّ مُتَّبِعٍ ما تَلَتْهُ الشياطينُ على عهدِ سليمانَ من اليهودِ، داخلٌ في معنى الآية، على النحو الذي قلنا.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ما تتلو الشياطين»، الذي تَتلو. فتأويل الكلام إذاً: اتبعوا الذي تتلو الشياطين.

واختُلف في تأويل قولـه: «تتلو». فقال بعضهم: يعني بقوله: «تَتلو»، تُحدِّثُ وتروي، وتتكلم به وتخبر. نحو «تِلاوة» الرجل للقرآن، وهي قراءته. وَوَجَّه قائِلو هذا القول تأويلَهم ذلك، إلى أنَّ الشياطين هي التي علَّمت الناسَ السحرَ ورَوته لهم.

وقال آخرون: معنى قوله: «ما تتلو» ما تَتَّبعهُ وتَرويه وتعمل به.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل أخبر عن الذين أخبر عنهم أنهم اتَّبعوا ما تَتلو الشياطينُ على عهد سليمان، باتباعهم ما تلَته الشياطين.

ولقول القائل: «هو يتلو كذا» في كلام العرب مَعنيان.

**أحدهما**: الاتِّباعُ، كما يقال: «تَلوتُ فلاناً» إذا مشيتَ خلفه وتبعتَ أثره، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]، يعني بذلك تتَّبع.

**والآخر**: القراءةُ والدراسة، كما تقول: «فلان يَتلو القرآنَ»، بمعنى: أنه يقرؤه ويدرسه.

ولم يخبرنا الله جَلَّ ثناؤه ـ بأنَّ معنى «التلاوة» كانت تلاوةَ الشياطين الذين تَلوْا ما تَلوه من السحرِ على عهد سليمان ـ بخبرٍ يقطعُ العذر. وقد يجوزُ أنْ تكونَ الشياطينُ تلت ذلك دِرَاسةً وروايةً وعملاً، فتكون كانت متَّبعَتَهُ بالعمل، ودارِسَتَهُ بالرواية. فاتبعت اليهود منهاجَها في ذلك، وعملت به، ورَوَته.

القول في تأويل قوله تعالى: عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «على مُلك سليمان»، في مُلْكِ سليمان. وذلك أنَّ العربَ تضعُ «في» موضع «على»، و«على» في موضع «في». من ذلك قَولُ الله جَلَّ ثناؤه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] يعني به: على جذوع النخل، وكما قالوا: «فعلت كذا في عهد كذا، وعلى عهد كذا»، بمعنى واحد.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾

إن قال لنا قائلٌ: وما هذا الكلام، من قوله: «واتَّبَعُوا ما تَتلو الشياطينُ عَلى مُلك سُليمان»، ولا خبرَ مَعنا قَبْلُ عن أحدٍ أنه أضَافَ الكفرَ إلى سليمان، بل إنما ذكر اتباع مَنِ اتبع من اليهود ما تلته الشياطينُ؟ فما وَجْهُ نفيِ الكفرِ عن سليمانَ، بعقبِ الخبرِ عن اتباعِ من اتبعت الشياطينَ في العملِ بالسحرِ وروايتِهِ من اليهود؟

قيل: وجْـهُ ذلـك، أنَّ الذين أضافَ اللهُ جَلَّ ثناؤه إليهم اتباعَ ما تلته الشياطينُ على عَهد سليمانَ من السحرِ والكفرِ من اليهودِ، نسبوا ما أضافه اللهُ تعالى ذِكْرُه إلى الشياطين من ذلك، إلى سليمان بن داود. وزعموا أنَّ ذلك كان من عِلْمِـه وروايته، وأنه إنما كانَ يستعبدُ مَنْ يستعبد من الإنس والجن والشياطين وسائر خلق الله بالسِّحْر. فَحَسَّنُوا بذلك ـ من ركوبهم ما حرَّم اللهُ عليهم من السحر ـ أنفسَهم، عند مَنْ كان جاهلاً بأمر الله ونهيه، وعِنْدَ مَنْ كان لا عِلْمَ له بمـا أنزل اللهُ في ذلك من التوراة. وتَبَرَّأ بإضافةِ ذَلك إلى سليمان ـ من سليمان، وهو نبيّ الله ﷺ ـ منهم بَشرٌ، وأنكروا أنْ يكونَ كانَ للهِ رسولاً، وقالوا: بل كان سَاحراً! فبرَّأ اللهُ سليمانَ بن داود من السحرِ والكفرِ عند مَن كان منهم ينسبه إلى السحرِ والكفرِ ـ لأسبابٍ ادَّعوها عليه قد ذكرنا بعَضها، وسنذكر باقي ما حَضَرنا ذِكْرُه منها ـ، وأكذب الآخرين الذين كانوا يَعملون بالسحر متزيِّنين عند أهل الجهلِ في عملهم ذلك، بأنَّ سليمانَ كان يعمله. فنفى اللهُ عن سليمان عليه السلام أنْ يَكونَ كانَ ساحراً أو كافراً، وأعْلَمَهُم أنهم إنما اتبعوا ـ في عملهم بالسحر ـ ما تَلَتْهُ الشياطينُ في عهدِ سليمان، دون ما كان سليمان يأمـرُهم من طاعةِ الله، واتباع ما أمَرَهُمْ به في كتابه الذي أنزله على مُوسى

صلوات الله عليه.

فإذْ كان الأمر في ذلك على ما وصفنا - وتأويل قوله: «واتبعوا ما تَتلو الشياطين على مُلك سليمان وما كفر سليمانُ ولكن الشياطينَ كفرُوا» ما ذكرنا - فَبيِّنٌ أنَّ في الكلام متروكاً، ترك ذكره اكتفاءً بما ذكر منه، وأن معنى الكلام: واتَّبَعُوا ما تتلو الشياطينُ من السحر على ملك سليمان، فَتُضِيفُهُ إلى سليمانَ، وما كَفَرَ سليمانُ، فيعمل بالسحر، ولكنَّ الشياطينَ كفروا يعلِّمونَ الناس السحر.

وأما معنى قوله: «مَا تتلو»، فإنه بمعنى: الذي تتلو، وهو السحر.

ولعل قائلاً أن يقول: أوَ ما كان السحرُ إلا أيامَ سليمان؟

قيل له: بلى، قد كان ذلك قبل ذلك، وقد أخبر الله عن سَحَرةِ فرعونَ ما أخبر عنهم، وقد كانوا قبل سُليمان، وأخبر عن قومِ نوحٍ أنهم قالوا لنوح إنه ساحر.

فإن قال: فكيف أخبرَ عن اليهودِ أنهم اتبعوا ما تَلَتْهُ الشياطينُ على عهد سليمان؟

قيل: لأنهم أضافوا ذلك إلى سليمان،على ما قد قَدَّمْنَا البيانَ عنه. فأراد الله تعالى ذِكْرُه تَبرئَةَ سُليمانَ مما نَحَلُوهُ وأضافوا إليه، مما كانوا وجدُوه، إما في خزائنه، وإما تحت كرسيه، على ما جاءتْ به الآثارُ التي قد ذكرناها من ذلك. فحصر الخبر عما كانت اليهود اتبعته، فيما تلته الشياطين أيام سليمان دون غيره لذلك السبب، وإنْ كانت الشياطينُ قد كانت تاليةً للسحرِ والكُفرِ قبل ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾

وتأويل «ما» التي في قوله: «ومَا أنزِل على الملكين» بمعنى «الذي».

وإنما اخترت ذلك، من أجل أن «ما»، إنْ وجِّهتْ إلى معنى الجحد، تنفي عن «المَلَكين» أن يكونا مُنْزلاً إليهما، ولم يخل الاسمان اللذان بعدهما ـ أعني «هاروت وماروت» ـ من أنْ يكونا بدلاً منهما وترجمةً عنهما أو بدلاً من «الناس» في قوله: «يُعَلِّمون الناسَ السحر»، وترجمة عنهما.

فإنْ جعلا بدلاً من «الملكين» وترجمة عنهما، بطل معنى قوله: «وما يُعَلِّمانِ منْ أحدٍ حتى يَقولا إنما نحنُ فتنة فلا تكفُر فيتعلمون منهما ما يفرِّقُون به بين المرء وزَوجه». لأنهما إذا لم يكونا عالمين بما يُفرَّقُ به بين المرء وزوجه، فما الذي يَتعلَّم منهما من يفرق بين المرء وزوجه؟

فإذْ كان ذلك كذلك فإن: «هاروتَ وماروتَ»، مترجمٌ بهما عن المَلَكين، ولـذلـك فُتِحَتْ أواخـرُ أسمـائهما، لأنهما في موضع خَفض على الرَّد على «الملكين». ولكنهما لما كانا لا يُجرَّان، فتحت أواخر أسمائهما.

فإن التَبَسَ على ذي غَباء ما قُلنا فقال: وكيف يَجوز لملائكةِ الله أن تُعلِّم الناسَ التفريقَ بين المرء وزوجه؟ أم كيف يجوز أن يُضافَ إلى الله تبارك وتعالى إنزالُ ذَلك على الملائكة؟

قيل له: إنَّ الله جَلَّ ثناؤه عَرَّفَ عباده جميعَ ما أمرَهم به وجميعَ ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونَهاهم بعد العِلْم منهم بما يؤمرون به ويُنهون عنه. ولو كان الأمر على غير ذلك، لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم. فالسحر مما قد نَهى عبادَه من بني آدم عنه، فغير منكر أن يكونَ جَلَّ ثناؤه عَلَّمه الملكين اللذين سماهما في تنزيله، وجعلهما فتنةً لعبادِه من بني آدم ـ كما أخبرَ عنهما أنهما يقولان لمن يتعلم ذلك منهما: «إنما نَحنُ فتنةٌ فلا تكفُر» ـ ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه، وعن السحر، فيمحِّصَ المؤمنَ

بتركه التعلمَ منهما، ويُخزيَ الكافرَ بتعلُّمه السحرَ والكفرَ منهما. ويكون الملكان - في تعليمهما مَنْ عَلَّما ذلك - لله مُطيعين، إذْ كانا - عن إذْنِ الله لهما بتعليم ذلك مَنْ عَلَّماه - يعلمان. وقد عُبد من دُون الله جماعةٌ من أولياء الله، فلم يَكُنْ ذلك لهم ضائراً، إذْ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عُبد بعضُهم والمعبود عنه نَاهٍ. فكذلك الملكان، غيرُ ضائِرِهما سِحْرُ مَنْ سَحَر ممن تعلَّم ذلك منهما، بعد نَهْيِهما إياهُ عنه، وعِظَتِهما له بقولهما: «إنما نحنُ فتنة فلا تكفُر»، إذْ كانا قد أدَّيا ما أُمِرَا به بقِيلِهما ذلك.

وأما قوله «ببابل»، فإنه اسم قرية أو موضع من مَوَاضع الأرضِ.

وأما «السحر» فإنه خُدَعٌ وَمَخاريقُ وَمَعانٍ يفعلها الساحرُ، حتى يُخيل إلى المسحورِ الشيءُ أنه بخلافِ ما هُوَ به، نظيرَ الذي يرَى السَّراب من بعيد فيخيَّل إليه أنه ماءٌ، ويرى الشيءَ من بعيد فيُثبته بخلافِ ما هو على حقيقته. وكراكب السفينـةِ السائرةِ سيراً حثيثاً، يخيلُ إليه أنَّ ما عاينَ من الأشجارِ والجبالِ سائرٌ معه. فكذلك المسحورُ ذلك صِفَتُه: يَحْسبُ بعدَ الذي وصَل إليه من سحرِ الساحر، أنَّ الذي يراهُ أو يفعله بخلافِ الذي هو به على حقيقته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

وتأويل ذلك: وما يُعَلِّمُ الملكان أحداً من الناس الذي أُنزلَ عليهما من التَّفريق بين المرء وزوجه، حتى يقولا له: إنما نحنُ بَلاءٌ وفتنةٌ لبني آدم، فلا تكفر بربك.

وأما «الفتنة» في هذا الموضع، فإن معناها: الاختبارُ والابتلاء، من ذلك

قولك: «فتنتُ الذَّهبَ في النار»، إذا امْتَحَنْتَها لتعرفَ جَوْدَتَها[1] من رداءتها، «أفتنها فِتنة وفُتوناً».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾

وقوله جَلَّ ثناؤه: «فيتعلَّمون منهما»، خبرٌ مبتدأٌ عن المتعلِّمين من المَلَكين ما أُنزِلَ عليهما، وليس بجوابٍ لقوله: «وما يعلِّمان من أحدٍ»، بل هو خبرٌ مُستأنفٌ، ولذلك رُفع فقيل: «فيتعلَّمون». فمعنى الكلام إذاً: وما يعلِّمان من أحَدٍ حتى يقولا إنما نحنُ فتنة، فيأبَوْنَ قَبُولَ ذلك منهما، فيتعلَّمونَ منهما ما يُفَرِّقُونَ به بين المرء وزوجه.

و«الهاء» و«الميم» و«الألف» من قوله: «منهما»، من ذكر الملكين. ومعنى ذلك: فيتعلم الناسُ من الملكين الذي يفرِّقون به بين المرء وزوجه.

و«ما» التي مع «يفرقون» بمعنى «الذي». وقيل: معنى ذلك: السحرُ الذي يفرقون به. وقيل: هو معنى غير السحر.

وأما «المرء»، فإنه بمعنى: رجل من أسماء بني آدم، والأنثى منه «المرأة». يُوَحَّد ويُثَنَّى ولا تُجمعُ ثلاثته على صورته، يقال منه: «هذا امرؤٌ صالح، وهذان امرآن صالحان». ولا يقال: هؤلاء امرؤو صدق، ولكن يقال: «هؤلاء رجالُ صِدق وقَوْم صِدق». وكذلك المرأة تُوحد وتُثنى ولا تُجمع على صورتها. يقال: «هذه امرأة، وهاتان امرأتان». ولا يقال: هؤلاء امرآت، ولكن: «هؤلاء نسوة».

---

(١) في الأصل: جودتهما، لعله من غلط الطبع.

وأما «الزوج»، فإنَّ أهلَ الحجاز يقولون لامرأة الرجل: «هي زوجه» بمنزلة الـزوج الـذَّكـر، ومن ذلـك قول الله تعـالى ذكره: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وتميمٌ وكثير من قَيْسٍ وأهل نجد يقولون: «هي زوجته».

فإن قال قائل: وكيف يُفَرِّقُ الساحرُ بين المرء وزَوجه؟

قيل إنَّ معنى «السحر»: تخييلُ الشيءِ إلى المرءِ بخلافِ ما هُوَ بهِ في عَينه وحقيقته. فإذْ كان ذلك صحيحاً فتفريقه بين المرء وزوجه: تخييلُه بسحره إلى كُلِّ واحدٍ منهما شخصَ الآخر على خِلافِ ما هُوَ به في حقيقته، من حُسْنٍ وجمال، حتى يُقَبِّحَهُ عنده، فينصرف بوجهه ويعرض عنه، حتى يُحدِث الزوجُ لامرأته فراقاً. فيكون الساحر مفرِّقاً بينهما بإحداثهِ السببَ الذي كان منه فُرْقَة ما بينهما. وقد دَللنا، في غير موضعٍ من كتابنا هذا، على أنَّ العربَ تضيفُ الشيءَ إلى مُسَبِّبِهِ من أجلِ تَسبّبه، وإنْ لم يكن باشَرَ ما حدَث عن السَّبب ـ بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. فكذلك تفريقُ الساحرِ بسحرِه بين المرء وزوجه.

القول في تأويل قوله عزّ وجل: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وما هُمْ بضَارِّين به من أَحَدٍ إلا بإذن الله»، وما المُتَعَلِّمُـونَ من الملكين هاروت ومـاروت مَا يُفَـرِّقـون به بين المرء وزوجه. بضارِّينَ ـ بالذي تَعَلَّمُوه منهما، من المعنى الذي يُفَرِّقُونَ به بين المرء وزوجه ـ مِنْ أحدٍ مِنَ الناس إلاَّ مَنْ قَضى الله عليه أنَّ ذلك يَضُرُّهُ. فأما مَنْ دفعَ الله عنه ضَرَّه، وَحَفِظَهُ من مكرُوهِ السحرِ والنفثِ والرُّقى، فإنَّ ذلك غيرُ ضارِّهِ، ولا نائِله أذاه.

ولِـ «الإذن» في كلام العرب أوجه:

منها: الأمرُ على غيرِ وَجه الإلزام. وغيرُ جائز أن يكون منه قوله: «وما هُمْ بضَارِّينَ به منْ أحدٍ إلا بإذن الله»، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه قد حرَّم التفريقَ بين المرء وَحَليلته بغيرِ سحرٍ ـ فكيفَ به على وَجْهِ السحر؟ ـ على لسان الأمة.

ومنها: التخليةُ بين المأذون له، والمخلَّى بينه وبينه.

ومنها: العِلْمُ بالشيء، يقال منه: «قد أذِنْت بهذا الأمر» إذا علمت به «آذن به إذْناً» ومنه قوله جَلَّ ثناؤه: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِن اللهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وهذا هو معنى الآية، كأنه قال جَلَّ ثناؤه: وما هُمْ بضارِّينَ، بالذي تَعَلَّمُوا من المَلَكين، من أحدٍ إلا بِعِلْمِ الله. يعني: بالذي سَبَق له في عِلْمِ الله أنه يضره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ويتعلَّمون»، الناسَ الذين يتعلمون من المَلَكين ما أنزل عليهما من المعنى الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، يتعلمون منهما السحر الذي يَضُرُّهم في دِينهم، ولا ينفعهم في مَعَادهم. فأمَّا في العاجلِ في الدنيا، فإنهم قد كانوا يكسبون به ويُصيبون به معاشاً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وَلَقد عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ مَالهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ»، الفريقَ الذين لما جَاءهم رسولٌ من عندِ الله مصدقٌ لِمَا معهم، نَبذوا

كتابَ الله وراءَ ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون، واتَّبعُوا مَا تَتلو الشياطينُ على مُلْكِ سليمان، فقال جَلَّ ثناؤه: لقد عَلِمَ النابذون ـ من يهودِ بني إسرائيل ـ كتابي وراءَ ظهورهم تجاهلاً منهم ـ التاركونَ العملَ بما فيه من اتباعِكَ يا محمدُ واتبَاع ما جِئْتَ به، بعدَ إنزالي إليكَ كتابي مُصَدِّقاً لما معهم، وبعد إرسالكَ إليهم بالإقـرارِ بمـا معهم ومـا في أيديهم، المؤثرونَ عليه اتِّبَاعَ السحر الذي تَلَتْهُ الشياطينُ على عَهد سليمان، والذي أُنْزِلَ على المَلَكين ببابلَ هاروتَ وماروتَ ـ لَمَنِ اشترى السحرَ بكتابي الذي أنزلتُه عَلى رسولي فآثَرَهُ عليه، مَا لَهُ في الآخرةِ من خَلاقٍ.

أما قوله: «لَمَن اشتراه»، فإن «من» في موضع رفع، وليس قوله: «ولقد عَلموا» بعاملٍ فيها. لأن قوله: «ولقد علموا»، بمعنى اليمين، فلذلك كانت في موضع رفع. لأنَّ الكلام بمعنى: والله لمن اشترى السحر ما لَهُ في الآخرةِ من خَلاق. ولِكَوْن قوله: «قد علموا» بمعنى اليمين، حُقِّقت بـ «لام اليمين»، فقيل: «لَمَن اشتراه»، كما يُقال: «أقسم لَمَنْ قام خيرٌ مِمَّنْ قَعدَ». وكما يقال: «قَدْ علمت، لعمرٌو خيرٌ من أبيك».

ومعنى «الخَلاَق» في هذا الموضع: النصيب. وذلك أنَّ ذلك معناه في كلام العرب.

فقولهُ: «ما له في الآخرة من خَلاق»: ما لَهُ في الدارِ الآخرةِ حظٌّ من الجنةِ، مِنْ أجلِ أنه لم يكنْ له إيمانٌ ولا دِينٌ ولا عملٌ صالح يجازَى به في الجنة ويُثَاب عليه، فيكون له حظٌّ ونصيب من الجنة. وإنما قال جَلَّ ثناؤه: «ما له في الآخرة من خَلاق»، فوصفه بأنه لا نصيبَ له في الآخرة، وهو يعني به: لا نصيب لَهُ من جزاءٍ وثوابٍ وجنةٍ دون نصيبه من النارِ، إذْ كان قد دَلَّ ذمُّه جَلَّ ثناؤه أفعالَهم ـ التي نفى من أجلها أن يكون لهم في الآخرة نصيبٌ

ـ على مُرادِه من الخبر، وأنه إنما يعني بذلك أنه لا نصيبَ لهم فيها من الخيراتِ، وأما من الشرورِ فإنَّ لهم فيها نصيباً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ١٠٢﴾

قد دللنا فيما مضى قَبْلُ على أنَّ معنى «شَرَوْا»: «باعوا». فمعنى الكلام إذاً: ولَبِئْسَ ما باعَ به نَفْسَهُ مَنْ تَعَلَّمَ السحر، لو كان يعلم سُوء عاقبته.

فإنْ قال لنا قائل: وكيف قال جَلَّ ثناؤه: «ولبئس ما شَرَوْا به أنفسهم لو كانوا يَعلمون»؟ وقد قال قبل: «ولقدْ علموا لَمَنِ اشتراه ما لَهُ في الآخرة من خلاق»، فكيف يكونون عالمين بأنَّ مَنْ تعلم السحر فلا خلاقَ لَهم، وهم يجهلون أنهم بئس مَا شَرَوا بالسحر أنفسهم؟

قيل: إنَّ معنى ذلك على غير الوجهِ الذي توهمته، من أنهم موصوفون بالجهل بما هم موصوفون بالعلم به. ولكن ذلك من المُؤَخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ. وإنما معنى الكلامِ: وما هم ضارُّون به مِنْ أحدٍ إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يَضُرُّهم ولا ينفعهم، ولبئس ما شَرَوْا به أنفسهم لو كانوا يعلمون، ولقد علموا لَمَنِ اشتراهُ ما لَهُ في الآخرة من خلاق. فقوله: «لبئس مَا شَرَوْا به أنفسَهُم لو كانوا يَعلمون»، ذمٌّ من الله تعالى ذِكْرُه فِعْلَ المتعلِّمين من المَلَكين التفريقَ بين المرء وزوجه، وخبرٌ منه جَلَّ ثناؤه عنهم أنهم بِئْسَ ما شَرَوْا به أنفسهم، برِضَاهم بالسحرِ عِوَضاً عن دِينهم الذي به نجاةُ أنفسهم من الهلكة، جهلًا منهم بسوء عاقبةِ فِعْلِهم، وخسارةِ صَفقةِ بَيْعهم. إذْ كان قد يتعلَّم ذلك منهما من لا يعرفُ الله، ولا يعرفُ حلالَهُ وحرامه، وأمْرَهُ ونهيه. ثم عاد إلى الفريق ـ الذين أخبر الله عنهم أنهم نَبذُوا كتابَهُ وراءَ ظُهورِهم كأنهم لا

يعلمون، واتَّبَعُوا ما تتلو الشياطينُ على مُلْكِ سليمانَ وما أنزلَ على الملكين ـ فأخبر عنهم أنهم قد عَلموا أنَّ من اشترى السحر، ما لَهُ في الآخرة من خلاق؛ ووصفهم بأنهم يركبون معاصيَ الله على عِلْمٍ منهم بها، ويكفرون بالله ورسله، ويؤثرون اتباعَ الشياطين والعملَ بما أحْدَثَتْهُ من السِّحْرِ، على العملِ بكتابهِ ووَحْيِهِ وتنزيلِهِ، عِناداً منهم، وبغياً على رسله، وتَعَدِّياً منهم لحدودِه، على معرفةٍ منهم بما لِمَنْ فَعَلَ ذلك عندَ اللهِ من العقابِ والعذابِ. فذلك تأويل قوله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولو أنهم آمنوا واتقوا»، لو أن الذينَ يتعلَّمون من الملكين ما يفرِّقون به بين المرء وزوجه، «آمنوا» فصدَّقوا الله ورسوله وما جاءهم به من عند ربهم، «واتقوا» ربَّهم فخافوهُ فخافوا عِقَابَهُ فأطاعوه بأداءِ فرائضهِ وتجنَّبوا معاصيَه ـ لكان جزاءُ الله إياهم، وثوابُه لهم على إيمانِهم به وتقواهم إياه، خيراً لهم من السِّحْرِ وما اكتسبوا به، «لو كانوا يعلمون» أن ثوابَ الله إياهم على ذلك خيرٌ لهم من السحر ومما اكتسبوا به. وإنما نَفَى بقولِهِ: «لو كانوا يعلمون» العِلْمَ عنهم: أن يكونوا عالمينَ بمبلغِ ثوابِ الله، وقدر جزائه على طاعته.

و«المَثُوبَةُ» في كلام العرب، مصدر من قول القائل: «أَثَبْتُك إثابةً وثَواباً ومَثُوبة». فأصل ذلك من: «ثابَ إليكَ الشيءُ» بمعنى: رجع. ثم يقال: «أَثَبْتُه إليكَ»: أي، رَجَعْتُه إليكَ ورَدَدْتُه. فكان معنى: «إثابة الرجل الرجلَ على الهدية وغيرها»: إرجاعه إليه منها بدلاً، وردّه عليه منها عِوَضاً. ثم جعل كل

مُعَوِّضٍ غيرَهُ من عمله أو هديته أو يدٍ له سَلَفَتْ منه إليه: مُثيباً له. ومنه «ثواب» الله عز وجل عبادَه على أعمالهم، بمعنى: إعطائه إياهم العِوَضَ والجزاءَ عليه، حتى يرجع إليهم بَدلٌ من عملهم الذي عملوا له.

القول في تأويل قوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا

نهى الله جَلَّ ثناؤه المؤمنينَ أن يقولوا لنبيه: «رَاعِنَا» لأنها كلمةٌ كَرِهَهَا لهم، نظيرَ الذي ذُكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا: للعنب الكَرْم، ولكن قُولُوا: الحبَلة»[1]. و«لا تقولوا: عَبْدِي، ولكن قولوا: فتايَ»[2]. وما أشبه ذلك، من الكلمتين اللتين تكونان مستعملتين بمعنى واحدٍ في كلامِ العرب، فتأتي الكراهةُ أو النهيُ باستعمال إحداهما، واختيار الأخرى عليها في المخاطبات.

فإنْ قال لنا قائل: فإنَّا قد عَلِمْنَا معنى نَهْيِ النبيِّ ﷺ في «العنب» أنْ يقال له «كرم»، وفي «العبد» أن يقال له «عبد»، فما المعنى الذي في قوله: «راعنا» حينئذٍ، الذي من أَجْلِهِ كان النهيُ من الله جَلَّ ثناؤه للمؤمنين عَنْ أن

---

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم (٢٢٤٨) من حديث علقمة بن وائل عن أبيه بلفظ لا تقـولوا: الكَرْمُ، ولكن قولوا: «الحَبَلَةُ» يعني: العِنَبُ، وفي لفظ آخر: «لا تقولوا: الكَرْمُ ، ولكن قولوا: العِنَبُ والحَبَلَةُ»، وأخرجه البخاري ٥١/٨، ٥٢ ومسلم (٢٢٤٧) عن أبي هريرة بألفاظ متقاربة.

(٢) **قطعة** من حديث طويل، أخرجه أحمد ٣١٦/٢، والبخاري ١٩٦/٣، ومسلم تحت الحديث (٢٢٤٩) عن أبي هريرة بلفظ «لا يقل أحدُكم: أطعِمْ رَبّك وَضِّىء رَبّكَ، اسقِ ربّك، [ولا يقل أحدُكم: ربّي]، وليقل: سَيّدي، مَولاي. ولا يقل أحدُكم: عبدي، أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي» والزيادة لمسلم، وأخرجه أحمد ٤٢٣/٢ و٤٤٤ و٤٦٢ و٤٦٣ و٤٨٤ و٤٩١ و٤٩٦ و٥٠٨ ومسلم (٢٢٤٩) وأبو داود (٤٩٧٥) عن أبي هريرة أيضاً بألفاظ متقاربة.

يقولوه، حتى أمرهم أن يؤثروا قوله: «انْظُرْنا»؟

قيل: الذي فيه من ذلك، نظيرُ الذي في قول القائل: «الكرم» للعنب، و«العبد» للمملوك. وذلك أن قول القائل: «عبدي» لجميع عبادِ الله، فكره النبي ﷺ أنْ يُضافَ بعضُ عبادِ الله - بمعنى العبُودية - إلى غير الله، وأمر أن يضافَ ذلك إلى غيره، بغير المعنى الذي يضاف إلى الله عزَّ وجل، فيقال: «فَتَايَ». وكذلك وجه نهيه في «العنب» أن يقال: «كرم»، خوفاً من تَوَهُّم وَصْفِهِ بالكَرَم، وإن كانت مُسَكَّنةً، فإنَّ العرب قد تُسَكِّنُ بعض الحركاتِ إذا تتابعت على نوعٍ واحد. فكره أن يتصف بذلك العنب. فكذلك نهى الله عزَّ وجل المؤمنين أن يقولوا: «راعنا»، لَمَّا كان قولُ القائل: «راعنا» محتملاً أن يكون بمعنى احفظنا ونحفظكَ، وارقُبْنا ونرقبك. من قولِ العرب بعضِهم لبعض: «رعاك الله»: بمعنى حَفِظَكَ الله وكَلأَكَ - ومحتملاً أن يكون بمعنى: أرِعْنَا سَمْعَكَ، من قولهم: «أرعيتُ سَمعي إرعاءً - أو - رَاعيته سَمْعي رِعَاء أو مُرَاعاة» بمعنى: فَرَّغْتُه لسماعِ كلامِهِ.

وكان الله جَلَّ ثناؤه قد أمَر المؤمنين بتوقير نبيه ﷺ وتعظيمه، حتى نهاهم جَلَّ ذِكْرُه فيما نهاهم عنه عَنْ رفعِ أصواتِهم فوقَ صَوته، وأن يَجْهَرُوا له بالقولِ كجهرِ بعضهم لبعضٍ، وخوفهم على ذَلك حُبوطَ أعمالهم. فتقدم إليهم بالزجرِ لهم عن أنْ يقولوا له من القولِ ما فيه جَفاءٌ، وأمرَهُم أن يتخيَّرُوا لخطابهِ من الألفاظِ أحْسَنَها، ومن المعاني أرَقَّها. فكان من ذلك قولهم: «راعنا» لما فيه من احتمال معنى: ارعنا نَرْعاك، إذ كانتِ المُفَاعَلَةُ لا تكون إلا من اثنين، كما يقول القائل: «عاطِنا، وحادثنا، وجالسنا»، بمعنى: افعل بنا نَفعل بك - ومعنى: أرْعِنا سمعك، حتى نفهمكَ وتَفْهَمَ عنا. فنهى الله تعالى ذِكْرُه أصحابَ محمدٍ أن يقولوا ذلك كذلك، وأن يفردوا مسألته بانتظارهم وإمهالهم، ليعقِلُوا عنه، بتبجيلٍ منهم له وتعظيم، وأنْ لا يسألوهُ ما سَألوه من ذلك على وجهِ الجفاءِ

والتَّجَهُّم منهم له، ولا بالفظاظةِ والغِلْظَةِ، تَشَبُّهاً منهم باليهود في خطابهم نبيَّ الله ﷺ، بقولهم له: «اسْمَعْ غَير مُسمع وراعنا».

يَدُلُّ على صِحَّةِ ما قلنا في ذلك قوله: «ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلاَ المُشْرِكينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيرٍ مِنْ رَبِّكُمْ»، فدلَّ بذلك أنَّ الذي عاتبهم عليه، مما يسرُّ اليهودَ والمشركين.

## القول في تأويل قوله تعالى: وَقُولُوا انظُرْنَا

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وقولوا انْظُرنا»، وقولوا أيها المؤمنون لنبيِّكم ﷺ: انْظُرْنا وارقبنا، نفهم ونتبين ما تقول لنا، وتُعلِّمنا، يقال منه «نظرت الرجلَ أَنْظُرُه نَظِرَةً» بمعنى انتظرته ورقَبْته، ومنه قول الله عزَّ وجل: ﴿يوم يقُولُ المُنَافِقُونَ والمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُواانْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، يعني به: انتظرونا.

## القول في تأويل قوله جَلَّ ثناؤه: وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «واسمعوا»، واسمعوا ما يُقالُ لكم ويُتلى عليكم من كتابِ ربكم، وعُوه وافهموه.

فمعنى الآية إذاً: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا لنبيكم: رَاعِنَا سَمْعَكَ وفرِّغْهُ لنا نفهمك وتفهمْ عنا ما نقول. ولكن قولوا: انتظرنا وترقَّبْنا حتى نفهمَ عنك ما تعلِّمنا وتبيِّنَهُ لنا. واسمعوا منه ما يقولُ لكم، فَعُوهُ واحفظوهُ وافهموه. ثم أخبرهم جَلَّ ثناؤه أنَّ لمن جحدَ منهم ومن غيرهم آياته، وخالف أمْرَهُ ونهيه، وكَذَّبَ رسوله، العذابَ المُوجِعَ في الآخرةِ، فقال: وللكافرين بي وبرسولي

عَذابٌ أليم. يعني بقوله: «الأليم»، الموجع.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

يعني بقوله «ما يود»، ما يُحِبُّ، أي: ليس يُحب كثيرٌ من أهل الكتاب. يقال منه: «وَدَّ فلانٌ كذا يَوَدُّهُ وُدّاً وَوِدّاً ومَوَدَّة».

وأمَّا «المشركين»، فإنهم في موضع خفضٍ بالعطفِ على «أهل الكتاب».

فتأويل الكلام: ما يحبُّ الكافرون من أهلِ الكتاب ولا المشركين بالله من عَبَدَةِ الأوثانِ، أنْ يُنَزَّلَ عليكم من الخير الذي كان عند الله فنزَّلَهُ عليكم. فتمنَّى المشركون وكَفَرَةُ أهلِ الكتابِ أنْ لا يُنَزِّلَ الله عليكم الفرقانَ، وما أوحاهُ إلى محمدٍ ﷺ من حِكَمِهِ وآياتهِ، وإنما أحَبَّتِ اليهودُ وأتباعُهم من المشركين ذلك، حسداً وبغياً منهم على المؤمنين.

وفي هذه الآية دلالةٌ بيِّنَةٌ على أنَّ الله تبارك وتعالى نَهى المؤمنين عن الرُّكونِ إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع من قولهم، وقبول شيءٍ مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، بإطلاعهِ جَلَّ ثناؤه إياهم على ما يَسْتَبْطِنُهُ لهم أهلُ الكتابِ والمشركون من الضِّغْنِ والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خِلافَ ما هم مُستبطنون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «والله يختص برحْمَته منْ يَشاء»: والله يختص منْ يشاءُ بنبوتهِ ورِسالتهِ فيرسله إلى مَنْ يشاءُ من خَلْقِهِ فيتفضلُ بالإيمان على مَنْ أحبَّ فيهديه له و«اختصاصُه» إياهم بها إفرادُهم بها دون غيرهم من خَلْقِه. وإنما جعل الله رسالته إلى مَنْ أرْسل إليه من خَلْقِه وهدايتَهُ مَنْ هدى من عباده، رحمةً منه له، ليصيِّرُهُ بها إلى رِضاه ومحبته وفوزِهِ بها بالجنة، واستحقاقِهِ بها ثناءَه. وكُلُّ ذلك رحمةً من الله له.

وأما قوله: «والله ذُو الفضلِ العظيم». فإنه خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عن أنَّ كُلَّ خيرٍ ناله عبادُه في دِينهم ودُنياهم، فإنه من عنده ابتداءً وتفضُّلاً منه عليهم، من غيرِ استحقاقٍ منهم ذلك عليه.

وفي قولـه: «والله يختص برحْمَتـه مَنْ يَشاء وَالله ذُو الفضْل العظيم»، تعريضٌ من الله تعـالى ذِكْرُه بأهلِ الكتاب: أنَّ الذي آتى نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين به من الهـداية، تفضُّلٌ منه، وأنَّ نِعَمَهُ لا تُدْرَكُ بالأمانيِّ، ولكنها مَواهب منه يختصُّ بها مَنْ يشاءُ من خلقه.

## القول في تأويل قوله تعالى: مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ما نَنْسخْ مِنْ آيةٍ»: ما ننقل من حُكمِ آيةٍ، إلى غيره فنبدِّله ونغيِّره. وذلك أنْ يحوِّلَ الحلالَ حراماً، والحرام حلالاً، والمباحَ محـظوراً، والمحـظورَ مباحاً. ولا يكون ذلك إلاّ في الأمرِ والنهي، والحَظْرِ والإطلاقِ، والمنعِ والإباحةِ. فأما الأخبار، فلا يكونُ فيها ناسخ ولا منسوخ.

وأصـل «النسـخ» من «نسخ الكتاب»، وهو نَقْلُه من نُسخةٍ إلى أخرى غيرها. فكذلك معنى «نسخ» الحكم إلى غيره، إنما هو تحويلُه ونَقْلُ عبارته

عنه إلى غيرها. فإذا كان ذلك معنى نسخ الآية، فسواءٌ - إذا نُسِخَ حُكْمُهَا فغُيِّر وبُدِّلَ فرضها، ونُقل فرضُ العباد عن اللازم كان لهم بها - أُأقِرَّ خَطُّها فترك، أو مُحِي أثَرُها فعُفِّي ونُسي، إذْ هي حينئذٍ في كِلْتَا حالتيها منسوخة، والحكم الحادث، المبدَل به الحكم الأول، والمنقول إليه فرضُ العبادِ، هو الناسخ. يقال منه: «نسخَ اللهُ آيةَ كذا وكذا يَنسخها نَسخاً» و«النُّسخة» الاسم.

## القول في تأويل قوله تعالى: أَوْ نُنسِهَا

وتأويل: «أو نُنْسِها» بمعنى: نتركها. لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه أخبرَ نبيه ﷺ أنَّه مهما بَدَّلَ حُكْماً أو غيَّره، أو لم يبدله ولم يغيره، فهو آتيهِ بخيرٍ منه أو بِمِثْلِه. فالذي هو أولى بالآية، إذْ كان ذلك معناها، أن يكون - إذْ قَدَّمَ الخبرَ عما هو صانعٌ إذا هوَ غيَّرَ وبدل حُكْمَ آيةٍ - أن يُعقِّبَ ذلك بالخبرِ عَمَّا هو صانعٌ إذْ هو لم يبدِّل ذلك ولم يغيِّر. فالخبرُ الذي يجبُ أنْ يكونَ عَقيب قوله: «ما ننسخ من آية». قولـه: أو نترك نسخها، إذْ كان ذلك المعروف الجاري في كلامِ الناس. مع أن ذلك إذا قُرِىءَ كذلك بالمعنى الذي وصفت، فهو يشتمل على معنى «الإنساء» الذي هو بمعنىٰ الترك، ومعنى «النَّساء» الذي هو بمعنى التأخير إذْ كان كل متروك فمؤخَّرٌ على حالِ مَا هو متروكٌ.

## القول في تأويل قوله تعالى: نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ

ومعنى ذلك عندنا: مَا نُبَدِّل من حُكْمِ آيةٍ فنغيره، أَوْ نَتْرُكْ تبديلَهُ فنقرّه بحاله، نأتِ بخيرٍ منها لكم - من حكم الآية التي نسخنا فغيَّرنا حُكْمَها - إمَّا في العاجلِ، لِخِفَّتِهِ عليكم، مِنْ أجلِ أنه وَضْعُ فَرْضٍ كان عليكم، فأسقطَ ثِقْلَهُ عنكم، وذلك كالذي كان على المؤمنين من فَرْضِ قيامِ الليلِ، ثم نسخ ذلك فوضع عنهم، فكان ذلك خيراً لهم في عاجِلهم، لسقوطِ عِبْءِ ذلك وثِقْلِ

حمله عنهم، وإمَّا في الآجل، لِعِظَم ثوابه، من أجل مَشَقَّةِ حمله وثِقَل عبئه على الأبدان. كالذي كان عليهم من صيام أيامٍ معدوداتٍ في السنة، فنسخ وفرض عليهم مكانه صوم شهرٍ كامل في كل حَوْل. فكان فرضُ صومِ شهرٍ كامل كُلَّ سنة، أثقلَ على الأبدانَ من صيام أيام معدودات. غيرَ أن ذلك وإن كان كذلك، فالثوابُ عليه أجزل، والأجر عليه أكثر، لفَضْلِ مَشَقَّتِه على مكلَّفيه من صومِ أيام معدوداتٍ. فذلك وإنْ كان على الأبدان أشقَّ، فهو خيرٌ من الأول في الأجل لفضلِ ثوابِه وعِظَمِ أجْرِهِ، الذي لم يكن مثلُه لصوم الأيام المعـدودات. فذلـك معنى قوله: «نأتِ بخيرٍ منها». لأنه إمَّا بخيرٍ منها في العاجل لخفَّتِه علىٰ مَنْ كُلِّفَهُ، أو في الأجلِ لعِظَمِ ثوابِه وكثرةِ أجرِه.

أو يكون مثلها في المشقة على البَدنِ واستواءِ الأجرِ والثوابِ عليه، نظيرَ نَسْخِ الله تعالى ذِكْرُه فرضَ الصلاةِ شَطْرَ بيتِ المقدس، إلى فرضها شَطْرَ المسجدِ الحرام. فالتـوجُّـهُ شطرَ بيت المقـدس، وإنْ خالف التوجُّه شَطْر المسجد، فكُلْفة التوجُّه ـ شطرَ أيِّهما توجّه شطْرَه ـ واحدة. لأن الذي على المُتَوجِّهِ شطر البيت المقدس من مؤُونة توجُّهه شطره، نظيرُ الذي على بَدَنِهِ من مؤونة توجُّهـه شطرَ الكعبة، سواء. فلذلك هو معنى «المِثْل» الذي قال جَلَّ ثناؤه: «أو مِثْلِها».

وإنما عَنى جَلَّ ثناؤه بقوله: «ما نَنسخ من آية أو نُنسها»: ما ننسخ من حُكمِ آيةٍ أو نُنْسِه. غير أنَّ المخاطبينَ بالآية لما كان مفهوماً عندهم معناها، اكتفى بدلالة ذكر «الآية» من ذكر «حُكْمِهَا». وذلك نظير سائر ما ذكرنا من نظائره فيمـا مضى من كتابنا هذا، كقوله: ﴿وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ﴾ [البقرة: ٨٣]، بمعنى حُبِّ العجل، ونحو ذلك.

فتأويلُ الآية إذاً: ما نغيرْ من حُكْمِ آيةٍ فنُبدِّلَهُ، أو نتركه فلا نبدله، نأتِ

بخيرٍ لكم ـ أيها المؤمنون ـ حُكْماً منها، أو مِثْل حكمها في الخفَّةِ والثِّقل والأجرِ والثواب.

فإنْ قال قائل: فإنَّا قد علمنا أنَّ العِجْلَ لا يُشْرَبُ في القلوبِ، وأنه لا يلتبس على مَنْ سَمع قوله: «وأشْرِبوا في قُلوبهم العجل»، أن معناه: وأشربوا في قلوبهم حُبَّ العجل، فما الذي يدلّ على أنَّ قوله: «ما نَنسخْ من آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها» ـ لذلك نظيرٌ؟

قيل: الذي دلَّ على أنَّ ذلك كذلك قوله: «نأتِ بخيرٍ منها أو مِثْلِها»، وغيرُ جائزٍ أنْ يكونَ من القرآنِ شيءٌ خيرٌ من شيء، لأن جَميعه كلام الله، ولا يجوزُ في صِفاتِ الله تعالى ذكره أن يُقال: بعضها أفضلُ من بعض، وبعضُها خيرٌ من بعض.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ألم تَعْلَمْ أن الله عَلى كل شيء قَدير»، ألم تعلم يا محمد أنِّي قادرٌ على تعويضكَ مما نسختُ من أحكامي، وغَيَّرته من فرائِضِي التي كنتُ افْتَرَضْتُهَا عليكَ، ما أشَاءُ مما هو خيرٌ لك ولعبادي المؤمنين معك، وأنفعُ لكَ ولهم، إمَّا عاجلاً في الدنيا، وإما آجلاً في الآخرة ـ أو بأن أُبَدِّلَ لكَ ولهم مكانه مثله في النفع لهم ـ عاجلاً في الدنيا وآجلاً في الآخرة ـ وشَبيهَهُ في الخِفَّةِ عليكَ وعَليهم؟ فاعلمْ يا محمد أنِّي على ذلك وعلى كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

ومعنى قوله: «قدير» في هذا الموضع: قويٌّ. يقال منه: « قد قَدَرت على كذا وكذا»، إذا قَويتَ عليه، «أقدرُ عليه وأقدُرُ عليه قُدْرة وقدْرَاناً ومَقْدِرَة»، وبنو مُرّة من غَطفان تقول: «قَدِرْت عليه» بكسر الدال.

فأما من «التقدير» من قول القائل: «قَدَرْتُ الشيءَ»، فإنه يقال منه قَدَرْته أقدِرُه قَدْراً وقَدَراً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

إنْ قال لنا قائل: أوَلم يكن رسولُ الله ﷺ يعلم أنَّ الله على كُلِّ شيءٍ قدير، وأنهُ له مُلْكُ السماوات والأرض، حتى قيل له ذلك؟

قيل: بلى! فقد كان بعضُهم يقولُ: إنما ذلك من الله جَلَّ ثناؤه خبرٌ عن أنَّ محمداً قد عَلِمَ ذلك، ولكنه قد أخرج الكلامَ مُخرج التقرير، كما تفعلُ مِثْلَهُ العربُ في خطابِ بعضِها بعضاً، فيقول أحدهم لصاحبه: «أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ ألم أتَفضَّلْ عليكَ؟» بمعنى إخباره أنه قد أكرمه وتفضَّل عليه، يريد: أليس قد أكرمتُكَ؟ أليس قد تفضلتُ عليك؟ بمعنى: قد علمت ذلك.

وهذا لا وجه لَهُ عندنا. وذلك أنَّ قوله جَلَّ ثناؤه: «ألم تعلم»، إنما معناه: أمَا علمتَ. وهو حرف جَحْدٍ أُدْخلَ عليه حرفُ استفهام، وحروف الاستفهام إنما تدخلُ في الكلام إمَّا بمعنى الاستثبات، وإما بمعنى النفي، فأما بمعنى الإثبات، فذلك غير معروفٍ في كلام العرب، ولاسيما إذا دخلتْ على حروفِ الجحد. ولكن ذلك عندي، وإن كانَ ظهر ظهورَ الخطابِ للنبيِّ ﷺ، فإنما هو معنيٌّ به أصحابه الذين قال لهمُ اللهُ جَلَّ ثناؤه: «لا تَقولوا رَاعِنا وقُولوا انْظُرنا واسْمَعوا». والذي يدلُّ على أنَّ ذلكَ كذلك، قولُه جَلَّ ثناؤه: «ومَا لكم مِنْ دُون الله من وَليٍّ وَلاَ نَصير»، فعاد بالخطابِ في آخرِ الآية إلى جميعهم، وقد ابتدأ أولها بخطابِ النبي ﷺ بقوله: «ألم تَعلم أن الله لهُ مُلْكُ السموات والأرض»، لأنَّ المُرادَ بذلك الذين وصفتْ أمرَهم من أصحابه. وذلك من كلام العرب

مستفيضٌ بينهم فصيحٌ: أنْ يُخْرِجَ المتكلمُ كلامَه على وجهِ الخطابِ منه لبعض الناسِ وهو قاصدٌ به غيرَهُ، وعلى وجهِ الخطابِ لواحدٍ وهو يقصدُ به جماعةً غيره، أو جماعة والمخاطبُ به أحدُهم - وعلى وجه الخطاب للجماعة، والمقصودُ به أحدهم. من ذلك قول الله جَلَّ ثناؤه: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ﴾ ثم قال: ﴿واتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إنّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [الأحزاب: ١-٢]، فرجع إلى خطاب الجماعة، وقد ابتدأ الكلام بخطاب النبي ﷺ، فكذلك قوله: «ألم تَعلم أنَّ اللهَ على كل شيء قدير* ألم تَعلم أن الله لَه مُلْكُ السماوات والأرض»، وإن كان ظاهرُ الكلام على وَجْهِ الخطابِ للنبي ﷺ، فإنه مقصودٌ به قَصْد أصحابه. وذلك بَيِّنٌ بدلالة قوله: «ومَا لكم من دُون الله من وَليٍّ ولا نصير* أم تريدون أنْ تسألوا رَسولَكُم كما سُئل مُوسى مِنْ قَبْلُ» الآيات الثلاث بعدها - على أنَّ ذلك كذلك.

أما قوله: «لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض» ولم يقل: ملك السماوات، فإنه عَنَى بذلك «مُلْكُ» السلطانِ والمملكةِ دون «المِلْك». والعرب إذا أرادت الخبرَ عن «المملكة» التي هي مملكة سلطان، قالت: «ملَكَ اللهُ الخَلْقَ مُلكاً». وإذا أرادت الخبر عن «المِلك» قالت: «مَلَكَ فلان هذا الشيءَ فهو يَمْلِكُه مِلْكاً وَمَلَكة وَمَلْكاً».

فتأويل الآية إذاً: ألم تعلم يا محمدُ أنَّ لي مُلك السماواتِ والأرض وسُلطانهما دون غيري، أحكمُ فيهما وفيما فيهما ما أشاء، وآمُر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عمّا أشاء، وأنسخ وأبدِّل وأغيِّر من أحكامي التي أحكُم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقِرُّ منها ما أشاء؟

وهذا الخبر وإنْ كان من الله عزَّ وجل خطاباً لنبيِّه محمد ﷺ على وَجْهِ الخبر عن عظمته، فإنه منه جَلَّ ثناؤه تكذيبٌ لليهودِ الذين أنكروا نَسْخ أحكام

التوراة، وجَحدوا نبوَّةَ عيسى، وأنكروا محمداً ﷺ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغييرِ ما غيَّر الله من حُكْمِ التوراة. فأخبرهم اللهُ أنَّ له مُلك السماوات والأرض وسلطانهما، فإنَّ الخَلْقَ أهل مَملكته وطاعته، عليهم السَّمعُ له والطاعةُ لأمرِهِ ونهيِهِ، وأنَّ له أمْرَهم بما شاء، ونهيَهُم عَمَّا شاء، ونسخَ ما شَاء، وإقرارَ ما شاء، وإنساءَ ما شاء من أحكامِهِ وأمرِهِ ونهيِهِ. ثم قال لنبيه ﷺ وللمؤمنين معه: انقادوا لأمري، وانتهوا إلى طاعتي فيما أنسخُ، وفيما أتركُ فلا أنسخُ، من أحكامي وحدودي وفرائضي، ولا يَهُولَنكم خلافُ مخالفٍ لكم في أمري ونهيِي وناسخِي ومنسوخي، فإنَّهُ لا قيِّمَ بأمرِكم سوايَ، ولا ناصرَ لكم غيري، وأنا المنفردُ بوَلَايتكم، والدفاع عنكم، والمتوحِّدُ بِنُصْرَتِكم بعزِّي وسلطاني وقوّتي على مَنْ نَاوَأَكُمْ وحادَّكُم، ونَصبَ حَرْبَ العداوةِ بينهُ وبينكم، حتى أعْلِي حُجَّتَكُم، وأجعَلَها عليهم لَكُمْ.

و«الوليُّ» معناه «فعيل» من قول القائل: «وَليتُ أمرَ فلان»، إذا صِرْتَ قيِّماً به، «فأنا أليه، فهو وَلِيّه» وقيِّمه. ومن ذلك قيل: «فلان وَليُّ عهد المسلمين»، يعني به: القائم بما عُهِدَ إليه من أمر المسلمين.

وأما «النصير» فإنه «فعيل» من قولك: «نَصرتُك أنصُرك، فأنا ناصرك ونصيرك»، وهو المؤيِّد والمقوِّي.

وأما معنى قوله: «من دون الله»، فإنه سوَى الله، وبعد الله.

فمعنى الكلام إذاً: وليس لكم، أيها المؤمنون، بعدَ الله من قيِّمٍ بأمركم، ولا نَصيرٍ فيؤيِّدَكم ويقوِّيكم، فيعينكم على أعدائكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾

وتأويل ذلك: أنّه استفهامٌ مبتدَأٌ، بمعنى: أتريدون أيُّها القومُ أنْ تسألوا رَسُولكم؟ وإنما جَازَ، أن يستفهم القوم بـ «أمْ»، وإنْ كانت «أم» أحد شروطها أن تكون نَسَقاً في الاستفهام لتقدُّمِ ما تَقَدَّمَها من الكلام، لأنها تكون استفهاماً مُبتدأً إذا تقدمها سابقٌ من الكلام. ولم يُسمع من العرب استفهامٌ بها ولم يتقدمها كلام. ونظيره قوله جَلَّ ثناؤه: ﴿ألم* تَنْزِيلُ الكِتَاب لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالمِين* أمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ﴾ [السجدة: ١-٣].

وقد تكون «أم» بمعنى «بل»، إذا سبقها استفهامٌ لا يصلح فيه «أيّ»، فيقولون: «هل لَكَ قِبَلنا حقٌّ، أم أنتَ رجلٌ معروفٌ بالظلم».

وقد كان بعضهم يقول ـ مُنْكِراً قولَ مَنْ زعم أنَّ «أم» في قوله: «أم تريدون» استفهام مستقبَلٌ منقطع من الكلام، يميل بها إلى أوّله ـ: إنَّ الأول خبر، والثاني استفهام، والاستفهامُ لا يكونُ في الخبر، والخبر لا يكون في الاستفهام، ولكن أدركه الشكُّ ـ بزعمه ـ بعد مُضيِّ الخبر، فاستفهم.

فإذْ كان معنى «أم» ما وصفنا، فتأويلُ الكلام: أتريدون أيها القومُ أنْ تَسألوا رسولَكُم من الأشياءِ نظيرَ ما سألَ قومُ موسى من قبلكم، فتكفروا ـ إنْ مُنِعْتُموه ـ في مسألتكم ما لا يجوز في حِكْمةِ الله إعطَاؤكُمُوهُ، أو أنْ تهلكوا إنْ كان مما يجوز في حكمته عَطاؤُكُموه، فأعطاكُمُوه، ثم كفرتم من بعد ذلك، كما هَلَكَ مَنْ كان قبلكم من الأمم التي سألت أنبياءَها ما لم يَكُنْ لها مسألتُها إياهم، فلما أعطيت كفرت، فَعُوجِلَتْ بالعقوباتِ لكفرها، بعد إعطاءِ الله إيَّاها سُؤْلَها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ومَنْ يَتبدَّل»، ومَنْ يستبدل «الكفر»، ويعني

بـ «الكفر» الجحودَ بالله وبآياته، «بالإيمان»، يعني بالتصديقِ باللهِ وبآياتهِ والإقرارِ به.

وقد قيل: عَنى بـ «الكفر» في هذا الموضع: الشِدَّةَ، وبـ «الإيمان» الرخاء. ولا أعرفُ الشِدَّةَ في معاني «الكفر»، ولا الرخاءَ في معنى «الإيمان»، إلا أنْ يكون قائلُ ذلك أرَاد بتأويلهِ «الكفر» بمعنى الشدة في هذا الموضع، وبتأويله «الإيمان» في معنى الرخاء ـ: ما أعَدَّ الله للكفار في الآخرة من الشدائد، وما أعَدَّ الله لأهلِ الإيمان فيها من النعيم، فيكون ذلك وجهاً، وإنْ كان بعيداً من المفهوم بظاهر الخطاب.

وفي قوله: «ومَنْ يتبدَّلِ الكفرَ بالإيمان فَقدْ ضَلَّ سَواء السبيل»، دليلٌ واضح على ما قلنا: من أنَّ هذه الآيات من قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا رَاعِنا»، خطابٌ من اللهِ جَلَّ ثناؤه المؤمنينَ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وعتابٌ منهُ لهم على أمر سَلَفَ منهم، مما سُرَّ به اليهودُ، وكرهه رسولُ الله ﷺ لهم، فكرهه الله لهم، فعاتَبهم على ذلك، وأعْلَمَهُم أن اليهود أهلُ غِشٍّ لهم وحسدٍ وبَغْيٍ، وأنهم يتمنَّونَ لهم المكارهَ، ويبغونهم الغوائلَ ونهاهم أنْ ينتصحوهم، وأخبرهم أنَّ مَنِ ارتدَّ منهم عن دينه فاستبدل بإيمانهِ كفراً، فقد أخطأ قَصْدَ السبيل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾

أما قوله: «فقد ضَلَّ»، فإنه يعني به: ذهب وحادَ. وأصلُ «الضلال عن الشيء»، الذهابُ عنه والحَيْد، ثم يُستعملُ في الشيءِ الهالك، والشيء الذي لا يُؤبَه له، كقولهم للرجل الخامل الذي لا ذِكْرَ له ولا نَباهة: «ضُلُّ بن ضُلّ» و«قُلُّ بنَ قُلّ».

والذي عَنَى اللهُ تعالى ذِكْرُه بقوله: «فقد ضَلَّ سَواءَ السبيل»، فقد ذهب عن سواء السبيل وحَادَ عنه.

وأما تأويلُ قوله: «سَواء السبيل»، فإنه يعني بـ«السواء»، القصدَ والمنهجَ. وأصْل «السواء» الوسط. ذُكر عن عيسى بن عمر النحويّ أنه قال: «ما زلت أكتبُ حتى انقطع سَوائِي»، يعني: وسطي، والعربُ تقول: «هو في سَواء السبيل»، يعني في مستوى السَّبيل، و«سواء الأرض»: مستواها، عندهم.

وأمّا «السَّبيل»، فإنها الطريقُ المسبولُ، صُرف من «مَسبول» إلى «سبيل».

فتأويل الكلام إذاً: ومن يستبدل بالإيمان بالله وبرسوله الكفرَ، فيرتدَّ عن دِينهِ، فقد حَادَ عن مَنهَجِ الطريقِ ووَسطهِ الواضحِ المسبول.

وهذا القولُ ظاهرُه الخبرُ عن زوالِ المستبدِلِ بالإيمانِ الكفرَ عن الطريق، والمعنيُّ به الخبرُ عنه أنه تَرك دِينَ اللهِ الذي ارتضاه لعباده، وجعله لهم طريقاً يَسْلُكونه إلى رِضَاهُ، وسبيلاً يركبونها إلى محبته والفوز بجناته. فجعل جَلَّ ثناؤه الطريق - الذي إذا ركبَ محجَّته السائرُ فيه، ولزم وَسَطه المجتازُ فيه، نَجَا وبلغَ حاجَتَهُ، وأدرك طلبته - لدِينهِ الذي دعا إليه عبادَهُ، مثلاً، لإدراكِهم بلزومهِ واتِّباعِه، طَلباتهم في آخرتهم، كالذي يُدرك اللازم محجَّة السبيلِ - بلزومهِ إيَّاها - طلبتَهُ من النجاةِ منها، والوصول إلى الموضعِ الذي أَمَّهُ وقصده. وجعل مثل الحَائِدِ عن دِينهِ، الجائرِ عن اتِّباعِ ما دَعاه إليه من عبادته - في إخطائه ما رجَا أن يدركه بعمله في آخرتهِ وينال به في معادِهِ، وذهابه عما أَمَّلَ من ثواب عمله، وبُعْدِه به من رَبِّه - مثلَ الحائدِ عن منهجِ الطريقِ وقَصْدِ السبيلِ، الذي لا يزدادُ وُغُولاً في الوجهِ الذي سَلكه، إلاّ ازدادَ من موضعِ حاجتهِ بُعْداً، وعن المكانِ الذي أمَّهُ وأراده نَأْياً.

وهذا السبيلُ التي أخبرَ اللهُ عنها، أنَّ مَنْ يَتَبَدَّلِ الكفرَ بالإيمان فقد ضلَّ سَواءَها هي «الصِّراط المستقيم»، الذي أمرنا بمسألته الهدايةَ له بقوله: «اهْدِنَا الصِراطَ المستقيم، صِراطَ الذين أنْعمتَ عَليهم».

القول في تأويل قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا

وقَدْ صَرَّح هذا القولُ من قولِ الله جَلَّ ثناؤه، بأنَّ خطابه بجميع هذه الآيات من قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تَقولوا رَاعِنا» - وإن صَرَفَ في نَفسه الكلامَ إلى خطابِ النبيِّ ﷺ - إنما هو خطابٌ منه للمؤمنين من أصحابهِ، وعتابٌ منه لهم، ونهيٌ عن انتصاحِ اليهود ونظرائِهم من أهلِ الشركِ وقَبُولِ آرائِهم في شيءٍ من أمور دينهم - ودليلٌ على أنهم كانوا استعملوا أو مَنِ استعمل منهم في خطابهِ ومسألته رسولَ الله ﷺ الجفاءَ، وما لم يكن له استعماله معه، تأسِّياً باليهودِ في ذلك أو ببعضِهم. فقال لهم رَبُّهم ناهياً عن استعمال ذلك: لا تقولوا لنبيِّكم ﷺ كما تقولُ له اليهود: «رَاعِنا»، تأسِّياً منكم بهم، ولكن قولوا: «انْظُرنا واسمعوا» فإنَّ أذى رسولِ الله ﷺ كفرٌ بي، وجحودٌ لحقِّي الواجبِ لي عليكم في تعظيمِه وتوقيرِهِ، ولمن كَفَرَ بي عذابٌ أليم؛ فإنَّ اليهودَ والمشركين ما يودُّون أنْ يُنَزَّلَ عليكم من خيرٍ من رَبِّكم، ولكنَّ كثيراً منهم وَدُّوا أنهم يَرُدُّونكم مِنْ بَعْدِ إيمانكم كفاراً، حَسَداً من عند أنفسهم لكم ولنبيكم محمد ﷺ، من بعد ما تَبيَّنَ لهم الحَقُّ في أمرِ محمدٍ، وأنه نبيٌّ إليهم وإلى خَلْقِي كافةً.

القول في تأويل قوله تعالى: حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم

ويعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «حَسَداً من عند أنفسهم»، أنَّ كثيراً من أهل

الكتاب يَوَدُّون للمؤمنين ما أخبر الله جَلَّ ثناؤه عنهم أنهم يودونه لهم، من الرِّدَّةِ عن إيمانِهم إلى الكفرِ، حَسَداً منهم وبغياً عليهم.

وأما قوله: «من عند أنفُسِهم»، فإنه يعني بذلك: من قِبَلِ أنْفُسِهم، كما يقولُ القائل: «لي عِندكَ كذا وكذا»، بمعنى: لي قِبَلَكَ.

وإنما أخبرَ اللهُ جَلَّ ثناؤه عنهم المؤمنين أنَّهم ودُّوا ذلك للمؤمنين، من عند أنفسهم، إعْلاماً منه لهم بأنهم لم يُؤْمَرُوا بذلك في كتابهم، وأنهم يأتون ما يأتون من ذلك على عِلْمٍ منهم بنهي الله إياهم عنه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «من بَعد مَا تَبينَ لَهُمُ الحقُّ»، أي من بعد ما تَبيَّنَ بهؤلاء الكثيرِ من أهـلِ الكتـاب ـ الذين يودُّون أنَّهم يردُّونكم كفاراً من بعد إيمانكم ـ الحقُّ في أمرِ محمدٍ ﷺ، وما جاءَ بِهِ من عند ربه، والملة التي دعا إليها فأضاءَ لهم: أنَّ ذلك الحق الذي لا يمترون فيه.

فَدَلَّ بقوله ذلك: أنَّ كُفْرَ الذين قَصَّ قِصَّتهم في هذه الآية بالله وبرسوله، عنادٌ، وعلى عِلْمٍ منهم ومعرفةٍ بأنهم على الله مفترون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «فاعفوا»، فتجاوزوا عما كان منهم من إساءةٍ وخطأ في رأيٍ أشاروا به عليكم في دِينكم، إرادةَ صَدِّكم عنه، ومحاولة ارتدادكم بعد إيمانكم ـ وعَمَّا سَلَفَ منهم من قِيلهم لنبيِّكم ﷺ: ﴿ٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا

لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِم وَطَعْناً فِي الدِّين﴾ [النساء: ٤٦]، واصفحوا عمَّا كان منهم من جهلٍ في ذلك - حتى يأتيَ الله بأمره، فيحدث لكم من أمره فيكم ما يشاء، ويقضي فيهم ما يريد. فقضى فيهم تعالى ذِكْرُه وأتى بأمره، فقال لنبيه ﷺ وللمؤمنين به: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. فنسخ الله جَلَّ ثناؤه العفو عنهم والصفح، بفرض قِتالِهم على المؤمنين، حتى تصيرَ كلمتُهم وكلمةُ المؤمنين واحدة، أو يؤدُّوا الجزيةَ عن يَدٍ صَغاراً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾

قد دللنا فيما مضى على معنى «القدير»، وأنه القويّ.

فمعنى الآية ههنا: إنَّ الله - على كل ما يَشاء بالذين وصفتُ لكم أمْرَهُمْ من أهلِ الكتاب وغيرهم - قديرٌ، إنْ شاء انتقم منهم بعنادهم ربَّهم، وإنْ شاء هَدَاهُم لما هداكم الله له من الإيمان، لا يتعذَّرُ عليه شيءٌ أراده، ولا يتعذرُ عليه أمرٌ شَاء قضاءه، لأنَّ له الخَلق والأمرَ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾

قد دللنا فيما مضى على معنى «إقامَة الصلاة»، وأنها أداؤها بحدودها وفروضها، وعلى تأويلِ «الصلاة» وما أصلها، وعلى معنى «إيتاء الزكاة»، وأنه إعطاؤها بطيبِ نَفْسٍ عَلى ما فُرِضَتْ وَوَجبت، وعلى معنى «الزكاة»، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وأما قوله: «وَمَا تُقدِّموا لأنفسكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجدوهُ عندَ الله»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: ومهما تعملوا من عَملٍ صالحٍ في أيامِ حياتكم، فتقدِّمُوه قبلَ وفاتكم ذُخْراً لأنفسكم في مَعادِكم، تجدوا ثوابَهُ عند ربكم يوم القيامة، فيجازيكم به.

و«الخير» هو العملُ الذي يرضاه الله. وإنما قال: «تَجِدُوه»، والمعنى: تجدوا ثوابَهُ، لاستغناء سامعِي ذلك بدليل ظاهرٍ على مَعنى المراد منه.

وإنما أمرَهم جَلَّ ثناؤه في هذا الموضع بما أمرهم به، من إقامِ الصلاة وإيتاء الزكاةِ وتقديمِ الخيرات لأنفسهم، لِيُطَهِّرُوا بذلك من الخطأ الذي سَلَفَ منهم في استنصاحهم اليهود، ورُكونِ مَنْ كان رَكن منهم إليهم، وجفاءِ مَنْ كان جَفا منهم في خطابه رَسولَ الله ﷺ بقوله: «رَاعِنا»، إذْ كانت إقامةُ الصلوات كفارةً للذنوب، وإيتاءُ الزكاة تطهيراً للنفوس والأبدانِ من أدْناسِ الآثام، وفي تَقديمِ الخيراتِ إدراكُ الفَوْز برضوان الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٠﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مَهما فَعلُوا من خيرٍ وشرٍّ سِرّاً وعلانيةً، فهو بصيرٌ لا يخفى عليه منه شيء، فيجزيهم بالإحسان خيراً، وبالإساءة مثلها.

وهذا الكلام، وإنْ كان خَرَجَ مخرجَ الخبر، فإن فيه وَعْداً ووعيداً وأمراً وزجراً. وذلك أنه أعْلَمَ القومَ أنه بصيرٌ بجميعِ أعمالهم، ليَجِدُّوا في طاعته، إذْ كان ذلك مذخوراً لهم عنده حتى يُثيبهم عليه، كما قال: «وما تُقَدِّمُوا لأنْفُسِكم من خيرٍ تجدوه عند الله»؛ وليَحْذَرُوا معصيتَهُ، إذْ كان مُطَّلِعاً على راكبها، بعد تقدُّمِه إليها فيها بالوعيد، وما أوْعدَ عليه ربُّنا جَلَّ ثناؤه فمنهيٌّ عنه، وما وَعَد عليه فمأمورٌ به.

أما قوله: «بَصير»، فإنه «مُبصر» صُرِف إلى «بصير»، كما صرف «مُبدع» إلى «بديع» و«مؤلم» إلى «أليم».

القول في تأويل قوله تعالى جلَّ ذِكرُهُ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وقالوا»، وقالت اليهودُ والنصارى «لن يدخل الجنة».

فإنْ قال قائلٌ: وكيف جمع اليهود والنصارى في هذا الخبر، مع اختلافِ مقالةِ الفريقين؛ واليهود تدفَع النصارى عن أنْ يكونَ لها في ثوابِ الله نصيبٌ، والنصارى تدفعُ اليهودَ عن مثل ذلك؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلافِ الذي ذهبتَ إليه. وإنما عنَى به: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلا مَنْ كان هُوداً؛ وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى. ولكن معنى الكلام لمَّا كان مفهوماً عند المخاطبين به معناه، جُمع الفريقان في الخبرِ عنهما، فقيل: «وقالوا لَنْ يَدخل الجنةَ إلا مَنْ كان هُوداً أو نَصارَى» الآية - أي قالت اليهود: لن يدخل الجنةَ إلَّا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلَّا من كان نصرانياً.

وأما قوله: «مَن كان هُوداً»، فإن في «الهود» قولين:

**أحدهما**: أنْ يكونَ جمع «هائد» كما جاء «عُوط» جمع «عائط» و«عوذ» جمع «عائذ» و«حول» جمع «حائل»، فيكون جمعاً للمذكر والمؤنث بلفظٍ واحد. و«الهائد». التائبُ الراجعُ إلى الحق.

**والآخر**: أن يكون مَصدراً عن الجميعِ، كما يقال: «رَجُلٌ صَوْم، وقَوْمٌ

صَوْم»، و«رجل فِطْرٌ وقومٌ فِطْرٌ، ونِسوة فِطْرٌ».

وقد قيل: إنّ قَوله: «إلا مَنْ كان هُوداً»، إنما هو قوله، إلّا مَنْ كان يَهوداً، ولكنه حذف الياء الزائدة، ورَجع إلى الفعل من اليهودية. وقيل: إنه في قراءة أبي: «إلا من كان يَهودياً أو نَصرانياً».

وقد بيَّنا فيما مضى معنى «النصارى»، ولِمَ سُمِّيَتْ بذلك، وجُمِعَتْ كذلك، بما أغنى عن إعادته.

وأما قوله: «تلك أمانيُّهم»، فإنه خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قول الذين قالوا: «لن يدخل الجنةَ إلّا مَنْ كان هُوداً أو نَصَارَى»، أنه أمانيّ منهم يتمنَّونَهَا على اللهِ بغيرِ حقٍ ولا حجةٍ ولا برهان، ولا يقين علم بصحة ما يَدَّعُونَ، ولكن بادِّعاءِ الأباطيلِ وأمانيّ النفوس الكاذبة.

القــول في تأويل قولــه تعــالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

وهذا أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤه لنبيه ﷺ بدعاءِ الذين قالوا: «لن يدخلَ الجنة إلّا مَنْ كان هُوداً أو نَصَارَى» - إلى أمرٍ عدلٍ بين جميع الفرق: مسلمها، ويَهودها، ونَصارَاها، وهو إقامةُ الحجة على دَعواهم التي ادَّعوا: من أنَّ الجنة لا يَدْخُلُها إلّا مَنْ كان هُوداً أو نصارى. يقول الله لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، قُلْ للزاعمينَ أنَّ الجنة لا يدخُلها إلّا مَنْ كان هوداً أو نصارى، دُونَ غيرهم من سَائر البشر: «هَاتُوا بُرهانكم» على ما تزعمون من ذلك، فنسلِّمَ لكم دَعْواكم إنْ كنتم في دَعواكم - من أنَّ الجنةَ لا يدخلها إلّا مَنْ كان هوداً أو نصارى - مُحِقِّينَ.

و«البرهان»، هو البيانُ والحجة والبيِّنة.

وهـذا الكلام، وإنْ كان ظاهرهُ ظاهر دُعاء القائلين: «لن يدخُلَ الجنة إلا مَنْ كان هُوداً أو نَصارَى» - إلى إحضار حُجة على دعواهم ما ادَّعوا من ذلك، فإنه بمعنَى تكذيبٍ من اللهِ لهم في دعواهم وقِيلهم، لأنهم لم يكونوا قادرينَ على إحضارِ برهانٍ على دعواهم تلك أبداً. وقد أبان قوله: «بَلى مَنْ أسْلَمَ وجْههُ لله وهُـو مُحْسِنٌ»، عن أنَّ الـذي ذكرنا من الكلام، بمعنى التكذيبِ لليهودِ والنصارى في دعواهُم وما ذكر الله عنهم.

وأما تأويل قوله: «قل هَاتُوا بُرهانكم»، فإنه: أحْضِرُوا وَأْتُوا به.

## القول في تأويل قوله تعالى: بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «بَلى مَنْ أسلم»، أنه ليس كما قال الزاعمون: «لَنْ يَدْخُلَ الجنةَ إلَّا مَنْ كان هُوداً أو نَصارَى»، ولكن من أسْلَمَ وجههُ للهِ وهو مُحْسِنٌ، فهو الذي يدخلها وينعم فيها.

وقد بيَّنا معنى «بلى» فيما مضى قَبْلُ.

وأما قوله: «مَنْ أسلم وجهه لله»، فإنه يعني بـ «إسلام الوجه»: التذلُّل لطاعتـهِ، والإذعان لأمره. وأصلُ «الإسلام» الاستسلامُ، لأنه من «استسلمتُ لأمرِهِ» وهو الخضوع لأمره. وإنما سُمِّيَ «المسلمُ» مسلماً، بخضوعِ جوارحهِ لطاعةِ ربه.

وخصَّ اللهُ جَلَّ ثناؤه بالخبر عمن أخبر عنه بقوله: «بَلى مَنْ أسْلَم وَجهه لله»، بإسلام «وجهه» له دونَ سائرِ جوارحه، لأنَّ أكرمَ أعضاءِ ابنِ آدمَ وجوارحه وَجهه، وهو أعْظَمُهَا عليه حُرْمَةً وحقاً. فإذا خضَع لشيءٍ وجهه الذي هو أكرمُ

أجزاء جسدهِ عليه، فغيرُه من أجزاءِ جسده أحرَى أنْ يكون أخضع له، ولذلك تذكر العرب في منطقها الخبرَ عن الشيءِ فتضيفُه إلى «وجههِ»، وهي تعني بذلك نَفْسَ الشيء وَعيْنَهُ، فكذلك معنى قوله جَلَّ ثناؤه: «بَلى من أَسْلم وَجْهَهُ لله»، إنما يعني: بلى مَنْ أسلم لله بَدَنَـهُ، فخضع له بالطاعةِ جسدُه، وهو محسنٌ في إسلامه له جَسدَه، فله أجرهُ عند ربه. فاكتفى بذكر «الوَجه» من ذكر «جَسده»، لدلالةِ الكلامِ على المعنى الذي أُريدَ به بذكر «الوجه».

وأما قوله: «وهو محسنٌ»، فانه يعني به: في حال إحسانه وتأويل الكلام: بلى مَنْ أخْلَصَ طَاعَتَهُ للهِ وعبادته له، محسناً في فعله ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «فله أجْرُه عندَ ربه»، فللمُسَلِّمِ وجْهَهُ لله محسناً، جزاؤهُ وثوابه على إسلامه وطاعته ربه، عندَ الله في معاده.

ويعني بقـولـه: «ولا خوفٌ عليهم» ـ على المسلمين وجوههم لله وهم محسنون، المخلصين له الدِّينَ في الآخرة ـ من عقابهِ وعذابِ جحيمه، ومَا قدموا عليه من أعمالهم.

ويعني بقوله: «ولَا هُمْ يحزنون»، ولا هم يحزنون على ما خَلَّفُوا وراءهم في الدنيا، ولا أن يُمْنَعُوا ما قَدِمُوا عليه من نعيمِ ما أعدَّ اللهُ لأهلِ طاعته.

وإنما قال جَلَّ ثناؤه: «ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحزنون»، وقد قال قَبْلُ: «فلهُ أجرهُ عند ربِّه»، لأنَّ «مَنْ» التي في قوله: «بَلى منْ أسلم وجْهَهُ لله» في لفظِ واحدٍ ومعنًى جميعٍ، فالتوحيدُ في قوله: «فله أجره» للفظ، والجمع في قوله: «ولا خَوفٌ عليهم» للمعنى.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾

ذُكر أنَّ هذه الآية نزلت في قَوْمٍ من أهل الكتابين، تَنازعُوا عندَ رسول الله ﷺ فقال بعضهم لبعض ذلك.

وأمّا تأويل الآية فإنه: قالت اليهود: ليست النصارى في دِينها على صوابٍ! وقالت النصارى: ليست اليهود في دينها على صواب! وإنما أخبر الله عنهم بقِيلِهم ذلك للمؤمنين، إعلاماً منه لهم بتضييعِ كُلِّ فريقٍ منهم حُكْمَ الكتاب الذي يُظهر الإقرارَ بصحته، وأنه من عند الله، وجحودِهم مع ذلك ما أنزل الله فيه من فروضه. لأنَّ الإنجيلَ الذي تَدِينُ بصحته وحقيَّته النصارى، يحققُ ما في التوراة من نبوَّةِ موسى عليه السلام، وما فَرَضَ الله على بني إسرائيل فيها من الفرائضِ، وأنَّ التوراةَ التي تَدِينُ بصحتها وحَقِّيتها اليهودُ، تحققُ نبوَّةَ عيسى عليه السلام، وما جاء به من عندِ اللهِ من الأحكام والفرائض.

ثم قال كُلُّ فريقٍ منهم للفريق الآخر ما أخبر الله عنهم في قوله: «وقالتِ اليهودُ لَيست النصارى عَلَى شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء»، مع تلاوةِ كُلِّ واحدٍ من الفريقين كتابَه الذي يشهد على كذبه في قِيلِه ذلك. فأخبر جَلَّ ثناؤه أنَّ كُلَّ فريقٍ منهم قال ما قال من ذلك، على عِلْمٍ منهم أنَّهم فيما قالوه مُبْطِلُون؛ وأتوا ما أَتَوْا من كُفْرِهم بما كفروا به، على معرفةٍ منهم بأنهم فيه مُلْحِدُون.

فإنْ قال لنا قائل: أوَ كانتِ اليهودُ والنصارى بعد أن بَعث الله رسولَهُ على شيءٍ، فيكون الفريق القائل منهم ذلك للفريق الآخر، مُبْطِلاً في قِيلِه ما قالَ من ذلك؟

قيل: إنَّ إنكارَ كُلِّ فريقٍ منهم، إنما كان إنكاراً لنبوَّةِ النبيِّ الذي ينتحلُ التصديقَ به وبما جاء به الفريقُ الآخر، لا دفعاً منهم أن يكون الفريق الآخر ـ في الحال التي بعث الله فيها نبينا ﷺ ـ على شيءٍ من دينه، بسبب جحودهِ نبوَّةَ نبيِّنا محمدٍ ﷺ. وكيف يجوزُ أنْ يكون معنى ذلك إنكارَ كل فريقٍ منهم أن يكونَ الفريقُ الآخر على شيءٍ بعد بعثه نبينا ﷺ، وكلا الفريقين كان جاحداً نبوةَ نبينا محمدٍ ﷺ، في الحالِ التي أنزل الله فيها هذه الآية؟ ولكن معنى ذلك: وقالت اليهود: ليست النصارى على شيءٍ من دِينِها مُنذُ دانت دينها! وقالت النصارى: ليست اليهود على شيءٍ مُنذ دانت دينها! فكذَّبَ اللهُ الفريقين في قِيلِهما ما قالا.

وأما قوله: «وهُم يَتلونَ الكتابَ»، فإنه يعني به كتابَ الله التوراةَ والإنجيلَ، وهما شاهدان على فريقي اليهود والنصارى بالكفر، وخلافِهم أمرَ اللهِ الذي أمرهم به فيه.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾

إن الله تبارك وتعالى أخبر عن قَوم ـ وَصَفَهم بالجهلِ، ونَفى عنهم العلم بما كانت اليهود والنصارى به عالمين ـ أنهم قالوا بجهلهم نظيرَ ما قال اليهود والنصارى بعضُها لبعضٍ، مِمَّا أخبر عنهم أنهم قالوهُ في قوله: «وقالت اليهودُ ليست النصارى على شَيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء». وجائزٌ أن يكونوا هم المشركينَ من العربِ، وجائزٌ أن يكونوا أُمَّةً كانت قبلَ اليهودِ والنصارى، ولا أمَّة أوْلى أنْ يُقالَ هي التي عُنيت بذلك من أخرى، إذْ لم يكن في الآيةِ دلالةٌ على أيٍّ من أيٍّ، ولا خبرَ بذلك عن رسولِ الله ﷺ ثبتت حُجَّته من جهةِ نقلِ الواحدِ العَدْلِ، ولا من جهة النقل المستفيض.

وإنما قصدَ الله جَلَّ ثناؤه بقوله: «كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قَولِهم»، إعلامَ المؤمنين أنَّ اليهودَ والنصارى قد أتوا ـ من قِيلِ الباطل، وافتراءِ الكذبِ على الله، وجحودِ نبوةِ الأنبياء والرسل، وهم أهلُ كتابٍ يعلمون أنهم فيما يقولون مُبْطِلُونَ، وبجحودهم ما يجحدون من مِلَّتِهم خارجون، وعلى الله مُفترون ـ مثل الذي قاله أهلُ الجهل بالله وكتبه ورسله، الذين لم يبعث الله لهم رسولاً ولا أوحى إليهم كتاباً.

وهذه الآيةُ تنبىء عن أنَّ مَنْ أتى شيئاً من معاصي الله على علم منه بنهيِ اللهِ عنها، فمصيبته في دينه أعظمُ من مصيبةِ مَنْ أتى ذلك جاهلاً به. لأن الله تعالى ذِكْرُه عَظَّمَ توبيخَ اليهودِ والنصارى بما وَبَّخَهُمْ به ـ في قِيلِهم ما أخبرَ عنهم بقوله: «وقالتِ اليهودُ ليست النصارى على شيء، وقالتِ النصارى ليستِ اليهودُ على شيء» ـ من أجل أنهم أهلُ كتابٍ، قالوا ما قالوا من ذلك على عِلْمٍ منهم أنهم مُبطلون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فالله يَقضي فيفصل بين هؤلاء المختلفين، ـ القائلِ بعضُهم لبعضٍ: لستم على شيءٍ من دِينكم، يومَ قِيامِ الخَلْقِ لربِّهم من قُبورِهم، فيتبيَّنُ المُحِقُّ منهم من المُبْطِلِ، بإثابتهِ المُحِقَّ ما وَعدَ أهلَ طاعتهِ على أعمالهِ الصالحة، ومجازاتهِ المُبْطِلَ منهم بما أوعد أهلَ الكفر به على كُفْرِهم به ـ فيما كانوا فيه يختلفون من أديانِهم ومِلَلِهم في دار الدنيا.

وأما «القيامةُ» فهي مصدر من قولِ القائل: «قمت قياماً وقيامة»، كما يقال: «عُدْتُ فلاناً عِيادة» و«صنتُ هذا الأمرَ صيانةً».

وإنمـــا عنى «بـالقيامـة» قيامَ الخَلْقِ من قبـورهم لربهم. فمعنى «يوم القيامة»: يوم قيام الخلائق من قُبورهم لِمَحْشَرِهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾

قد دَلَّلنا فيما مضى قَبْلُ، على أنَّ تأويلَ «الظلم»، وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعه. وتأويل قوله: «ومَنْ أظلم»، وأيُّ امرىء أشدّ تَعدِّياً وَجراءة على الله وخِلافاً لأمرهِ، من امرىءٍ مَنَعَ مساجدَ الله أنْ يُعبَدَ الله فيها؟

و«المساجد» جَمْعُ «مسجد»: وهو كُلُّ موضع عُبِدَ الله فيه. وقد بيَّنا معنى «السجود» فيما مضى. فمعنى «المسجد»: الموضع الذي يُسْجَدُ للهِ فيه، كما يُقالُ للموضع الذي يُجْلَسُ فيه: «المجلس»، وللموضع الذي يُنْزَلُ فيه «منزل» ثم يجمع: «منازل ومجالس»، نظيرَ مَسجدٍ وَمَساجد. وقد حكي سماعاً من بعض العرب «مساجد»، في واحدِ المساجدِ، وذلك كالخطأ من قائلهِ.

وأما قوله: «أنْ يُذْكَرَ فيها اسمه»، فإنَّ فيه وجهين من التأويل.

**أحدهما**: أن يكون معناه: ومَنْ أظلمُ ممن مَنع مساجد الله منَ أن يُذْكَرَ فيهـا اسمُـه، فتكون «أن» حينئذ نصباً، من قولِ بعضِ أهلِ العربية بفَقْدِ الخافض، وتعلُّقِ الفعلِ بها.

**والوجه الآخر**: أن يكون معناه: ومَنْ أظلمُ مِمَّنْ مَنع أنْ يُذْكَرَ اسمُ الله في مسـاجـدهِ، فتكـون «أن» حينئـذٍ في موضع نصب، تكريراً على موضعِ المساجدِ ورَدّاً عليه.

وأما قوله: «وسعى في خرابها» فإنَّ معناه: ومَنْ أظلم ممن منع مساجدَ الله أن يُذْكَر فيها اسمُه، ومِمَّنْ سَعى في خرابِ مساجدِ الله. فـ«سعى» إذاً، عطفٌ على «منع».

فإنْ قال قائل: ومَن الَّذي عنى بقوله: «ومنْ أظلمُ ممن مَنع مَساجد الله أنْ يُذكر فيها اسْمُه وسَعى في خرابها»؟ وأيُّ المساجد هيَ؟

قيل: إنَّ الـذين منعوا مساجدَ الله أن يُذْكَرَ فيها اسمُه هم النصارى، والمسجدُ بيت المقدس، وذلك أنهم هُم الذين سعوا في خرابِ بيتِ المقدس، وأعَـانُـوا بُخْتُنَصَّر على ذلك، ومَنعوا مُؤمني بني إسرائيل من الصلاةِ فيه بعد مُنصرَفِ بختنصَّر عنهم إلى بلاده.

والدليلُ على صِحَّةِ ما قلنا في ذلك، قيامُ الحُجة بأنْ لا مسجدَ عَنَى اللهُ عَزَّ وجـلَّ بقـوله: «وسَعى في خَرَابها» إلاّ أحد المسجدين: إمَّا مسجد بيت المقدس، وإمَّا المسجد الحرام. وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان معلوماً أنَّ مشركي قريش لم يسعَوْا قطُّ في تخريبِ المسجد الحرام، وإنْ كانوا قد مَنعوا في بعض الأوقاتِ رسولَ الله ﷺ وأصحابَهُ من الصلاةِ فيه ـ صَحَّ وثبت أنَّ الذين وصَفهم اللهُ عَزَّ وجل بالسعيِ في خرابِ مساجدِهِ، غيرُ الذين وصفهم الله بعمارتها. إذْ كان مشـركـو قريش بَنَـوا المسجـد الحرامَ في الجاهلية، وبِعمارته، كان افتخارهم، وإن كان بعضُ أفعالهم فيه، كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم.

وأخرَى، أنَّ الآية التي قبل قوله: «ومَنْ أظلمُ ممن مَنع مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمُه»، مضَت بالخبرِ عن اليهود والنصارى وذمِّ أفعالهم، والتي بعدَها نبَّهت بذمِّ النصـارى والخبـر عن افتـرائِهم على ربهم، ولم يجر لقريش ولا لمشركي العرب ذِكْرٌ، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجَّه الخبرُ ـ بقول الله عَزَّ

وجـل: «ومَنْ أظلمُ ممن مَنَعَ مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمه» - إليهم وإلى المسجد الحرام.

وإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بالآية أن يوجَّه تأويلها إليه، وهو ما كان نظيرَ قِصَّة الآية قبلها والآية بعدَها، إذْ كان خبرُها لخبرهما نظيراً وشكلاً، إلّا أنْ تقومَ حُجةٌ يجبُ التسليم لها بخلاف ذلك، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت.

فإنْ ظنَّ ظانٌّ أنَّ ما قلنا في ذلك ليس كذلك - إذْ كان المسلمون لم يَلزمهم قطُّ فَرْضُ الصلاة في المسجد المقدس، فمنعوا من الصلاة فيه فيلجئون توجيه قوله: «ومَنْ أظلم ممن مَنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه»، إلى أنه معنيٌّ به مسجد بيت المقدس - فقد أخطأ فيما ظن من ذلك. وذَلك أن الله جَلَّ ذِكْرُه إنما ذكر ظُلْمَ مَنْ مَنع مَنْ كان فرضَه الصلاةُ في بيتِ المقدس من مؤمني بني إسرائيل، وإياهم قَصَدَ بالخبر عنها بالظلمِ والسعيِ في خَرَاب المسجد. وإنْ كان قَدْ دَلَّ بعموم قوله: «ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ مَنع مساجدَ الله أنْ يُذكر فيها اسمه»، أنَّ كُلَّ مانعٍ مُصلِّياً في مسجدٍ لله، - فرضاً كانتْ صلاتهُ فيه أو تطوُّعاً - وكل ساعٍ في إخرابه، فهو من المعتدين الظالمين.

القول في تأويل قوله جَلَّ ذِكْرُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ وجل عَمَّنْ مَنع مساجدَ الله أن يُذْكَرَ فيها اسمه، أنـه قد حرَّم عليهم دخـول المساجد التي سعوا في تخريبها ومنعوا عبادَ الله المؤمنين من ذِكْرِ الله عَزَّ وجل فيها، ما داموا على مُناصبةِ الحربِ إلّا على خوفٍ وَوَجل من العقوبةِ على دُخُولِهُمُوها.

وإنما قيل «أولئك ما كان لهم أن يَدخلوها إلاّ خائفين» فأخرج على وجهِ الخبرِ عن الجميع وهو خبرٌ عن «من مَنع مَساجد الله أن يُذْكَرَ فيها اسمه» لأن «مَنْ» في معنى الجميع، وإن كان لفظه واحداً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

أما قوله عَزَّ وجل: «لهم»، فإنَّه يعني: الذين أخبر عنهم أنهم منعوا مساجد الله أنْ يُذْكَرَ فيها اسمُه. أما قوله: «لهم في الدنيا خزيٌ»، فإنه يعني بـ «الخزي»: العارَ والشر والذلة، إمّا القتلُ والسِّباء، وإمّا الذِّلة والصَّغار بأداء الجزية.

وتأويل الآية: لهم في الدنيا الذِّلَّةُ والهوانُ والقتل والسبي - على منعِهم مساجدَ الله أنْ يُذْكَرَ فيها اسمُه وسَعيهم في خرابها، ولهم - على معصيتهم وكفرهم بربهم وسعيهم في الأرض فساداً - عذابُ جهنم، وهو العذاب العظيم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولله المشرق والمغرب»، لله مِلكُهما وتدبيرُهما، كما يقال: «لفلانٍ هذه الدارُ». يعني بها: أنها له، مِلْكاً. فذلك قوله: «ولله المشرقُ والمغرب»، يعني أنهما له، ملكاً وخَلقاً.

و«المشرق» هو موضعُ شروقِ الشمسِ، وهو موضعُ طلوعها، كما يقال لموضع طُلوعها منه: «مَطلعِ»، بكسر اللام، وكما بيَّنا في معنى «المساجد» آنفاً.

فإن قال قائل: أوَ ما كانَ للهِ إلا مشرقٌ واحدٌ ومغرب واحدٌ، حتى قيل: «ولله المشرق والمغرب»؟

قيل: إنَّ معنى ذلك غير الذي ذهبت إليه. وإنما معنى ذلك: ولله المشرقُ الذي تُشْرِقُ منه الشمس كل يوم، والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم. فتأويله، إذْ كان ذلك معناه: ولله ما بَين قُطْري المشرق وما بين قُطْري المغرب، إذْ كان شرُوق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلى الحوْل الذي بعده، وكذلك غروبها كل يوم.

فإنْ قال: أوَ لَيس وإنْ كان تأويل ذلك ما ذكرت، فلله كل ما دونه؟ الخلقُ خَلقُه!

قيل: بَلىٰ

فإنْ قال: فكيف خصَّ المشارق والمغارب بالخبرِ عنها أنها له في هذا الموضع، دونَ سائرِ الأشياء غيرها؟

قيل: إنَّ الله تعالى ذكره إنَّما خَصَّ الخبرَ عن المشرق والمغرب في هذه الآية بأنهما له مِلْكاً ـ وإنْ كان لا شيء إلاّ وهُوَ له مَلك ـ إعلاماً منه عبادَهُ المؤمنينَ أنَّ له مِلكهما ومِلك ما بينهما من الخَلْق، وأنَّ على جميعهم ـ إذْ كان له ملكهم ـ طاعتَه فيما أمَرَهم ونهاهم، وفيما فَرَضَ عليهم من الفرائضِ، والتوجُّهِ نحو الوجه الذي وُجِّهوا إليه، إذْ كان من حُكم المماليك طاعةُ مالِكِهم. فأخرج الخبر عن «المشرق والمغرب» والمراد به: مَنْ بينهما من الخلق، على النحو الذي قد بيَّنتُ، من الاكتفاءِ بالخبرِ عن سَبَب الشيءِ، من ذكره والخبر عنه، كما قيل: «وأشرِبُوا في قُلوبهم العِجْلَ»، وما أشبه ذلك.

ومعنى الآية إذاً: ولله مِلْك الخَلْقِ الذي بين المشرق والمغرب، يَتَعَبَّدُهم بما شاء، ويحكمُ فيهم ما يريد، عليهم طاعته، فَوَلُّوا وجوهَكُم ـ أيها المؤمنون

- نحو وجهي، فإنكم أينما تُولوا وجوهَكُمْ فهنالك وجهي.

فأما القولُ في هذه الآية ناسخةٌ أم منسوخةٌ، أم لا هيَ ناسخة ولا منسوخة؟ فالصواب فيه من القول أنْ يقالَ: إنها جاءت مجيءَ العُموم، والمرادُ الخاصُّ. وذلك أن قوله: «فأينما تُولوا فثَمَّ وجْهُ الله» مُحتمِل: أينما تُوَلوا - في حال سيْرِكُمْ في أسفارِكم في صلاتِكم التطوعَ، وفي حال مُسَايفتكم عدوَّكم في تطوعكم ومكتوبتكم - فَثَمَّ وجهُ الله.

ومحتمل: «فأينما تولوا - من أرضِ الله فتكونوا بها - فَثَمَّ قبلةُ الله التي تُوجِّهون وُجُوهكم إليها، لأن الكعبةَ ممكنٌ لكم التوجُّه إليها منها.

ومُحتمـل: فأينما تُوَلُّوا وجوهَكُم في دُعائِكم فهنالك وجهي، أستجيبُ لكم دعاءكم.

فإذْ كان قوله عَزَّ وجل: «فأينما تولوا فَثَمَّ وجه الله»، مُحْتَمِلاً ما ذكرنا من الأوجـه، لم يكنْ لأحـدٍ أنْ يزعم أنها ناسخةٌ أو منسوخةٌ، إلّا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها.

لأنَّ الناسخ لا يكون إلّا بمنسوخ، ولم تقم حجةٌ يجبُ التسليمُ لها بأنَّ قوله: «فأينما تولوا فثم وجه الله» معنيٌّ به: فأينما تُوَجِّهوا وجوهَكم في صلاتِكم فثَمَّ قبلتكم؛ ولا أنهـا نزلتْ بعـد صلاةِ رسـولِ الله ﷺ وأصحابه نحو بيت المقدس، أمراً من الله عَزَّ وجل لهم بها أن يتوجهوا نحو الكعبة، فيجوز أن يقـال: هي ناسخةُ الصلاةَ نحو بيتِ المقدس، إذْ كان من أهلِ العلمِ من أصحـابِ رسـولِ الله ﷺ وأئمـةِ التابعين مَنْ ينكر أنْ تكون نزلت في ذلك المعنى، ولا خبرَ عن رسول الله ﷺ ثابتٌ بأنها نزلت فيه. وكان الاختلاف في أمرها موجوداً على ما وصفتُ، ولا هي - إذْ لم تكن ناسخةً لما وصفنا - قامت حجَّتها بأنها منسوخة، إذْ كانت محتملةً ما وصفنا: بأنْ تكونَ جَاءت بعمومٍ،

ومعناها: في حالٍ دون حال - إن كان عُني بها التوجه في الصلاة - وفي كُلِّ حال، إنْ كان عُني بها الدعاء وغير ذلك من المعاني التي ذكرنا.

وقد دللنا في كتابنا (كتاب البيان عن أصول الأحكام) على أنْ لا ناسخَ من آيِ القرآنِ وأخبارِ رسولِ الله ﷺ إلاّ ما نَفى حكماً ثابتاً، وأُلزم العبادُ فَرْضَهُ، غير محتمل بظاهره وباطنه غيرَ ذلك. فأما إذا ما احتمل غيرَ ذلك - من أنْ يكون بمعنى الاستثناء، أو الخصوص والعموم، أو المُجْمَل، أو المفسَّر - فمن الناسخ والمنسوخ بمعزل. بما أغنى عن تكريرِهِ في هذا الموضعِ، ولا منسوخَ إلاَّ المنفيّ الذي قد كان ثبت حُكْمُه وفرضه.

ولم يصحَّ واحدٌ من هذين المعنيين لقوله: «فأينما تُولوا فثَمَّ وجه الله»، بحجة يجبُ التسليم لها، فيقال فيه: هو ناسخ أو منسوخ.

وأما قوله: «فأينما»، فإن معناه: حيثما.

وأما قوله: «تُوَلُّوا»، فإن الذي هو أوْلى بتأويله أنْ يكون: تولون نحوه وإليه، كما يقول القائل: «ولَّيتُهُ وجهي ووَلَّيته إليه»، بمعنى قابلته وواجهته. وإنما قُلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لإجماعِ الحجةِ على أنَّ ذلك تأويلُه، وشذوذِ مَنْ تأوَّله بمعنى: تولُّون عنه فتستدبرونه، فالذي تتوجهون إليه وَجه الله، بمعنىٰ قبلة الله.

وأما قوله: «فثم»، فإنه بمعنى: هنالك.

فإن قال قائل: وما هذه الآية من التي قبلها؟

قيل: هي لها مُواصلة. وإنما معنى ذلك: ومَنْ أظلمُ من النصارى الذين مَنعوا عبادَ الله مساجدَه أنْ يُذْكَرَ فيها اسمه، وَسَعَوْا في خرابها، ولله المشرقُ والمغرب، فأينما توجَّهوا وُجُوهَكُم فاذكروهُ، فإنَّ وَجْهه هنالك، يَسعكُم فَضْلهُ وأرضُه وبلادُه، ويعلم ما تعملون، ولا يمنعْكم تخريب مَنْ خَرَّبَ مسجدَ بيت

المقدس، ومَنْعُهم مَنْ مَنعُوا من ذِكْرِ الله فيه ـ أنْ تذكروا الله حيثُ كنتم من أرضِ الله، تَبتغون به وجهه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ١١٥﴾

يعني جَلَّ ثنـاؤه بقوله: «واسعٌ»، يَسَعُ خَلْقَهُ كلهم بالكفايةِ والإفضالِ والجودِ والتدبير.

وأما قوله: «عليم» فإنه يعني: أنه عليم بأفعالهم، لا يغيبُ عنه منها شيء ولا يعزبُ عن عِلْمِهِ، بل هو بجميعها عليمٌ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وقالوا اتخذَ اللهُ وَلداً»، الذين مَنعوا مساجدَ الله أنْ يُذكرَ فيها اسمُه. و«قالوا»: معطوف على قوله: «وسعى في خرابها».

وتأويل الآية: ومَنْ أظلمُ ممن مَنع مساجدَ الله أنْ يُذكر فيها اسمُه وسعى في خَرابها، وقالوا اتخذَ الله ولداً؛ وهُمُ النصارى الذين زعموا أنَّ عيسى ابنُ الله، فقال الله جَلَّ ثناؤه ـ مُكَذِّباً قِيلهم ما قالوا من ذلك، ومُنتفياً مِمَّا نَحلوه وأضافوا إليه بكذبهم وفِرْيتهم ـ: «سبحانه»، يعني بها: تنزيهاً، وتَبريئاً من أنْ يكونَ له ولدٌ، وعلواً وارتفاعاً عن ذلك. وقد دَللنا فيما مضى على معنى قول القائل: «سبحان الله»، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤه أنَّ له ما في السماوات والأرض مِلكاً وخَلقاً. ومعنى ذلك: وكيف يكون المسيحُ لله ولداً، وهو لا يخلو: إمَّا أنْ يكونَ في بعض هذه

الأماكن، إما في السماوات، وإما في الأرض، ولله مِلك ما فيهما. ولو كان المسيحُ ابناً كما زعمتم، لم يكن كسائر ما في السماوات والأرض من خَلْقِه وعبيدِهِ، في ظهورِ آياتِ الصنعةِ فيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾

لـ «القنوت» في كلام العرب معانٍ. أحدها: الطاعة، والآخر: القيام، والثالث: الكَفُّ عن الكلامِ والإمساكُ عنه.

وتأويل قوله: «كلٌّ له قانتون»، الطاعةُ والإقرارُ لله عَزَّ وجل بالعبودية، بشهادةِ أجسامِهم، بما فيها من آثارِ الصنعةِ والدلالةِ على وحدانيةِ الله عَزَّ وجل، وأنَّ الله تعالى بارِئها وخَالقها. وذلك أن الله جَلَّ ثناؤه أكْذَبَ الذين زعموا أنَّ لله ولداً بقوله: «بل لَهُ ما في السموات والأرض» مِلكاً وخلقاً. ثم أخبر عن جميع ما في السماوات والأرض أنها مُقِرَّةٌ بدلالتها على ربِّها وخالقها، وأنَّ اللهَ تعالى بارئها وصانعها. وإنْ جَحد ذلك بعضُهم، فألسنتهم مُذعِنةٌ له بالطاعة، بشهادتها لَهُ بآثارِ الصنعة التي فيها بذلك، وأنَّ المسيح أحدُهم، فأنَّى يكون لله ولداً وهذه صفته؟

وقد زعم بعض مَنْ قصرت مَعرفته عن توجيهِ الكلام وِجْهَتَهُ، أنَّ قوله: «كلٌّ له قانتون»، خاصّةٌ لأهلِ الطاعة وليست بعامة. وغير جائزٍ ادعاء خُصوص في آيةٍ عامٍّ ظاهرُها، إلاّ بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، لما قد بَيَّنا في كتابنا (كتاب البيان عن أصول الأحكام).

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ وعزَّ عن أنَّ المسيح ـ الذي زعمت النصارى أنه ابنُ الله ـ مُكَذِّبُهم هو والسماوات والأرض وما فيها، إمَّا باللسان، وإمَّا بالدَّلالة. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤه أخبرَ عن جميعهم، بطاعتهم إيَّاهُ، وإقرارهم له

بالعبودية، عَقِيب قوله: «وقَالوا اتخذ الله ولداً»، فدلَّ ذلك على صحة ما قلنا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «بَديع السَّماواتِ والأَرض»، مُبدِعها.

وإنما هو «مُفعِل» صُرف إلى «فعيل» كما صرف «المؤلم» إلى «أليم» و«المسمع» إلى «سميع». ومعنى «المُبدع»: المُنْشِيءُ والمحدِثُ ما لم يَسْبقه إلىٰ إنشاءِ مِثْلِه وإحداثِه أحدٌ. ولذلك سمي المُبْتَدِعُ في الدين «مبتدعاً»، لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره. وكذلك كل محدث فعلاً أو قولاً لم يتقدمه فيه متقدم، فإنَّ العربَ تسميه «مبتدعاً».

فمعنى الكلام: سبحان الله أنَّى يكونُ له ولدٌ وهو مالكُ ما في السماوات والأرض، تَشْهَدُ له جميعاً بدلالتها عليه بالوَحْدانية، وتقرُّ له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها ومُوجدها من غير أصْلٍ ولا مثالٍ احتذاها عليه؟

وهذا إعلامٌ من الله جَلَّ ثناؤه عبادَه أنَّ مما يشهدُ له بذلك: المسيحَ، الذي أضافوا إلى الله جَلَّ ثناؤه بُنُوَّته؛ وإخبارٌ منه لهم أنَّ الذي ابتدع السماواتِ والأرضَ من غير أصْلٍ وعلى غير مثالٍ، هو الذي ابتدع المسيحَ من غيرِ والدٍ بقدرته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وإذا قَضى أمراً»، وإذا أحكم أمراً وَحَتَمه.

وأصل كل «قضاء أمرٍ»: الإحكامُ، والفراغُ منه. ومن ذلك قيل للحاكم

بين الناس: «القاضي» بينهم، لِفَصْلِه القضاءَ بين الخصوم، وقَطْعِهِ الحُكْمَ بينهم، وفراغِه منه به، ومنه قيل للميت: «قد قضى»، يراد به: قد فرغَ من الدنيا وفصل منها. ومنه قيل: «ما يَنقضي عجبي من فلان»، يراد: ما ينقطع. ومنه قيل: «تقضَّى النهار»، إذا انصرم، ومنه قول الله عزَّ وجل: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي: فَصَل الحكم فيه بين عباده، بأمرهِ إيَّاهم بذلك، وكذلك قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ﴾ [الإسراء: ٤]، أي أعلمناهم بذلك وأخبرناهم به، ففرَغنا إليهم منه.

ويعني بقوله: «قضاهما» أحْكَمهما.

وأما قوله: «فإنما يَقول لَه كنْ فيكونُ»، فإنه يعني بذلك: وإذا أحْكَمَ أمراً فحتَمَه، فإنما يقولُ لذلك الأمر: «كُنْ»، فيكون ذلك الأمر على ما أمرَه اللهُ أنْ يكونَ، وأراده.

فإن قال لنا قائل: وما معنى قَوله: «وإذا قَضى أمراً فإنما يَقول له كُنْ فَيكون»؟ وفي أيِّ حالٍ يقول للأمر الذي يقيضه: «كن»؟ أفي حالِ عدمه - وتلك حالٌ لا يجوزُ فيها أمره، إذْ كان مُحالاً أن يأمر إلا المأمورَ، فإذا لم يكن المأمورُ استحال الأمر؛ وكما محالٌ الأمرُ من غيرِ آمرٍ، فكذلك محالٌ الأمر من آمرٍ إلّا لمأمور - أم يقول له ذلك في حالِ وجودِه؟ وتلك حالٌ لا يجوز أمره فيها بالحدوث، لأنه حادِثٌ موجودٌ. ولا يقال للموجود: «كن موجوداً»، إلا بغير معنى الأمر بحدوث عَينه؟

قيل: إن هذا عامٌّ في كل ما قضـاه الله وبَرَأه. لأن ظاهرَ ذلك ظاهرُ عُمومٍ، وغير جائزة إحالةُ الظاهر إلى الباطن من التأويل، بغير برهانٍ، لِمَا قد بيَّنا في كتابنا (كتاب البيان عن أصول الأحكام). وإذْ كان ذلك كذلك، فأمر الله جَلَّ وعَزَّ لشيءٍ إذا أراد تكوينه موجوداً بقوله: «كن» في حال إرادته إيّاه مكـوّنـاً، لا يتقـدَّمُ وجُـودَ الـذي أراد إيجـادَه وتكـوينـه، إرادتـه إياه ولا

أمرَهُ بالكون والوجود ـ ولا يتأخَّر عنه. فغير جائزٍ أنْ يكون الشيءُ مأموراً بالوجود مُراداً كذلك، إلا وهُوَ موجود؛ ولا أنْ يكون موجوداً، إلا وهو مأمور بالوجود مُرَادٌ كذلك.

ونظيرُ قوله: «وإذا قَضى أمراً فإنما يقول له كنْ فَيكون» قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُم إذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ الأَرْضِ إذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، فإنَّ خروجَ القومِ من قبورهم، لا يَتقدَّمُ دُعاءَ اللهِ ولا يتأخرُ عنه.

وإذْ كان الأمر في قوله جَلَّ ثناؤه: «وإذَا قَضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون»، هو ما وصفنا، من أنَّ حالَ أمرِه الشيءَ بالوجودِ حالُ وجودِ المأمورِ بالوجود، فبَيِّنٌ بذلك أنَّ الذي هو أوْلى بقوله «فيكون»، الرفعُ على العطفِ على قوله: «يقول». لأنَّ «القولَ» و«الكونَ» حالهما واحد. وهو نظيرُ قولِ القائل: «تاب فلان فاهتدى» و«اهتدى فلان فتاب»، لأنه لا يكون تائباً إلا وهو مهتدٍ، ولا مهتدياً إلَّا وهو تائبٌ. فكذلك لا يكون أنْ يكون الله آمراً شيئاً بالوجود إلا وهو موجود، ولا موجوداً إلا وهو آمرُه بالوجود.

ولذلك استجاز من استجازَ نَصْب «فيكونَ» مَنْ قرأ ﴿إنَّما قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إذا أَرَدْنَاهُ أَنْ نقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، بالمعنى الذي وصفنا، على معنى: أن نقول فَيكون.

وأمّا رَفَع من رفَع ذلك، فإنه رأى أنَّ الخبر قد تَمَّ عند قوله: «إذَا أردناهُ أنْ نقولَ له كن». إذْ كان معلوماً أنَّ الله إذا حَتَم قضاءَهُ على شيءٍ، كان المحتومُ عليه موجوداً. ثم ابتدأ بقوله: «فيكون»، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ في الأَرْحَامِ مَا نَشَاء﴾ [الحج: ٥].

فمعنى الآية إذاً: وقالوا اتخذ الله ولداً، سبحانه أن يكونَ له ولدٌ، بَلْ

هو مالكُ السماواتِ والأرض وما فيهما، كل ذلك مُقِرٌّ له بالعبودية بدلالته على وحدانيته. وأنَّى يكون له ولد! وهو الذي ابتدعَ السماواتِ والأرضَ من غير أصلٍ، كالذي ابتدع المسيحَ من غير والدٍ بمقدرته وسلطانِه، الذي لا يتعذرُ عليه به شيءٌ أراده، بل إنما يقول له إذا قضاه فأراد تكوينه: «كُنْ»، فيكون موجوداً كما أراده وشاءه.

فكذلك كان ابتداعه المسيحَ وإنشاؤه، إذ أراد خَلْقه من غير والد.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾

إن الله تعالى عنى بقوله: «وقال الذين لا يعلمون» النصارى دونَ غيرِهم؛ لأنَّ ذلك في سياقِ خبرِ اللهِ عنهم، وعن افترائِهم عليه، وادِّعائهم له ولداً، فقال جَلَّ ثناؤه مُخْبِراً عنهم فيما أخبر عنهم من ضلالتهم: أنهم مَعَ افترائِهم على الله الكذبَ بقولهم: «اتخذ الله ولداً»، تمنَّوا على اللهِ الأباطيلَ، فقالوا جهلاً منهم بالله. وبمنزلتهم عنده، وهم بالله مشركون: «لولا يكلمنا الله» كما يُكَلِّمُ رُسُلَهُ وأنبياءه، أوْ تأتينا آيةٌ كما أتتهم؟ ولا ينبغي لله أنْ يُكَلِّمَ إلا أولياءه، ولا يؤتي آيةً مُعْجزةً على دعوى مُدَّعٍ إلاّ لِمَنْ كان مُحِقّاً في دعواه وداعياً إلى الله وتوحيده؛ فأما مَنْ كان كاذباً في دَعواه وداعياً إلى الفِرْيةِ عليه، وادعاءِ البنينَ والبناتِ له، فغير جائزٍ أنْ يكلمه اللهُ جَلَّ ثناؤه، أو يؤتيه آيةً معجزةً تكون مؤيِّدة كذبَهُ وفريتَه عليه.

وأما معنى قوله: «لولا يُكَلِّمنا الله» فإنه بمعنى: هَلَّا يكلمنا الله.

وأما «الآية»، فقد ثَبت فيما قَبْلُ معنى «الآية»، أنها العلامة. وإنما أخبر الله عنهم أنهم قالـوا: هلا تَأتينـا آيةٌ على ما نريدُ ونسأل، كما أتت الأنبياءَ

والرُّسُلَ! فقال عَزَّ وجل: «كذلك قال الّذين منْ قبلهم مثل قولهم».

## القـول في تأويل قوله تعالى: كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ

قد دَللنـا على أنّ الـذين عنى الله تعالى ذكره بقوله: «وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله»، هم النصارى، والذين قالوا مِثْلَ قولهم هم اليهود: سألتْ موسى ﷺ أنْ يريهم ربهم جَهرة، وأن يسمعهم كلام ربهم ـ كما قد بيَّنا فيما مضى من كتابنا هذا ـ وسألوا من الآيات ما ليس لهم مسألته تحكماً منهم على ربهم. وكذلك تَمَنَّت النصارى على رَبِّها تَحَكُّماً منها عليه، أنْ يُسْمِعَهُم كلامَهُ، ويُريهم ما أرادوا من الآيات. فأخبر الله جَلَّ ثناؤه عنهم أنهم قالوا من القولِ في ذلك، مِثْل الذي قالته اليهود، وتمنّت على ربها مثل أمانيِّها، وأنَّ قولهم الذي قالوه من ذلك، إنما يشابه قَول اليهود، من أجلِ تشابُهِ قلوبِهم في الضلالةِ والكفر بالله. فهم وإنْ اختلفتْ مذاهبهم في كذبهم على الله وافترائهم عليه، فقلوبهم متشابهةٌ في الكفر بربهم والفريةِ عليه، وتَحكُّمِهم على أنبياء الله ورسله عليهم السلام.

فمعنى الآية: وقالت النصارى، الجُهَّالُ بالله وبعظمته: هلَّا يُكَلِّمُنَا اللهُ رَبُّنا، كما كَلَّمَ أنبياءه ورُسُلَهُ، أو تَجيئنا علامةٌ من الله نعرفُ بها صِدْقَ ما نحنُ عليه على ما نسـألُ ونريد؟ قال الله جَلَّ ثناؤه: فكما قال هؤلاء الجهالُ من النصارى وتمنَّوا على ربهم، قال مَنْ قبلهم من اليهود، فسألوا رَبَّهم أنْ يُريهم اللهُ نَفْسَـهُ جَهْرَةً، ويؤتيهم آيةً، واحتكموا عليه وعلى رسُله، وتَمنَّوا الأماني. فاشتبهت قلوبُ اليهود والنصارى في تمرُّدِهم على الله، وقلة معرفتهم بعظمته، وجرأتهم على أنبيائهِ ورسلهِ، كما اشتبهت أقوالهم التي قالوها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾



يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «قد بيَّنا الآياتِ لقوم يُوقنون»، قد بيّنا العلامات التي من أجْلها غَضِبَ الله على اليهود، وجَعَلَ منهم القِرَدَة والخَنازيرَ، وأعَدَّ لهم العذابَ المهين في معادهم؛ والتي من أجلها أخزَى الله النصارَى في الدنيا، وأعَدَّ لهم الخِزْيَ والعذابَ الأليم في الآخرة؛ والتي منْ أجلها جَعل سكان الجنان، الذين أسلموا وُجُوهَهُمْ للهِ وهُم مُحسنون - في هذه السورة وغيرها. فأُعْلِموا الأسبابَ التي من أجلها استحقَّ كُلُّ فريقٍ منهم من الله ما فعل به من ذلك، وخصَّ الله بذلك القومَ الذين يُوقنون، لأنهم أهلُ التَثَبُّتِ في الأمور، والطالبون معرفةَ حقائق الأشياء على يقين وصحة. فأخبر الله جَلَّ ثناؤه أنَّه بَيَّنَ لمن كانت هذه الصفةُ صفتهُ مَا بيَّن من ذلك، ليزولَ شَكُّه ويعلم حقيقةَ الأمر، إذْ كان ذلك خبراً من الله جَلَّ ثناؤه، وخبرُ اللهِ الخبرُ الذي لا يُعذَرُ سامِعُهُ بالشكِّ فيه. وقد يحتمل غيرُه من الأخبار ما يحتمل من الأسباب العارضة فيه من السهوِ والغلط والكذبِ، وذلك مَنْفِيٌّ عن خبرِ الله عَزَّ وجل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾

ومعنى قوله جَلَّ ثناؤه: «إنَّا أرْسلناك بالحق بَشيراً ونَذيراً»: إنا أرسلناك يا محمدُ بالإسلامِ الذي لا أقْبَلُ من أحدٍ غيرَهُ من الأديانِ، وهو الحَقُّ؛ مُبشِّراً مَنِ اتَّبَعَكَ فأطاعكَ، وقَبِلَ منك ما دَعَوْتَهُ إليه من الحق - بالنَّصْرِ في الدنيا، والظَّفَرِ بالثوابِ في الآخرة، والنعيمِ المُقيمُ فيها - ومنذراً مَنْ عصَاكَ فخالفك، وردَّ عليك ما دعوته إليه من الحق - بالخزي في الدنيا، والذل فيها، والعذاب المهين في الآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ١١٩﴾

إنَّ الله جَلَّ ثناؤه قَصَّ قَصَصَ أقوامٍ من اليهود والنصارى، وذكر ضلالتَهم وكُفْرَهم بالله وجراءتهم على أنبيائه، ثم قال لنبيه ﷺ: «إنا أرْسلناك» يا محمدُ «بالحقِّ بشيراً» مَنْ آمَنَ بكَ واتَّبعك، مِمَّنْ قَصَصْتُ عليك أنباءه ومَنْ لم أقْصُصْ عليكَ أنباءَه «ونذيراً» مَنْ كَفَرَ بك وخَالفَك. فبلِّغْ رسالتي، فليس عليك من أعمال مَنْ كَفَرَ بكَ - بعد إبلاغِك إيَّاهُ رسالتي - تَبِعةٌ، ولا أنت مسؤولٌ عما فعل بعد ذلك.

وأمّا «أصحاب الجحيم»، فـ«الجحيم»، هي النار بعينها إذا شَبَّت وَقُودَها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ولن تَرْضَى عنك اليهُودُ ولاَ النَصَارَى حتى تَتبع ملتهم»، وليست اليهودُ، يا محمد، ولا النصارى براضيةٍ عنكَ أبداً، فَدَعْ طَلَبَ ما يُرضيهم ويُوافقهم، وأقبلْ على طَلَبِ رضا الله في دُعائِهم إلى ما بعثَكَ الله به من الحق، فإن الذي تَدْعُوهم إليه من ذلك لهو السبيلُ إلى الاجتماع فيه معكَ على الأُلْفَةِ والدِّينِ القيِّم، ولا سبيلَ لك إلى إرضائهم باتِّباعِ مِلَّتِهم، لأنَّ اليهودية ضِدُّ النصرانيةِ، والنصرانية ضِدُّ اليهودية، ، ولا تجتمعُ النصرانية واليهودية في شخصٍ واحد، في حالٍ واحدة. واليهود والنصارى لا تجتمع على الرِّضا بك، إلا أنْ تكون يهودياً نصرانياً، وذلك مما لا يكونُ منكَ أبداً، لأنك شخص واحد، ولن يجتمعَ فيك دِينان متضادَّان في حالٍ واحدة. وإذا لم يَكُنْ إلى اجتماعهما فيكَ في وقتٍ واحدٍ سبيلٌ، لم يكن لكَ إلى إرضاءِ

الفريقين سبيلٌ. وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزَمْ هُدَى الله الذي لجميعِ الخَلْقِ إلى الأُلْفَةِ عليه سبيلٌ.

وأما «الملة» فإنها الدِّينُ، وجَمْعُها المِلَلَ.

ثم قال جَلَّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد - لهؤلاء النصارى واليهود الذين قالوا: «لنْ يَدْخلَ الجنةَ إلاّ مَنْ كان هُوداً أوْ نصارَى» -: «إن هدى الله هو الهدى». يعني: إنَّ بيانَ الله هو البيانُ المقنع، والقضاءُ الفاصلُ بيننا، فهلمُّوا إلى كتابِ الله وبيانه - الذي بَيَّنَ فيه لعباده ما اختلفوا فيه وهو التوراةُ التي تُقِرُّون جميعاً بأنها من عند الله - يتضحْ لكم فيها المُحِقُّ منَّا من المُبْطِلِ، وأيُّنا أهل الجنة وأيُّنا أهل النار وأيُّنا على الصواب وأيُّنا على الخطأ.

وإنما أمر الله نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى هدى الله وبيانه، لأن فيه تكذيبَ اليهودِ والنصارى فيما قالوا: من أنَّ الجنة لن يدخلها إلا مَنْ كان هوداً أو نصارى، وبيانَ أمر محمد ﷺ، وأنَّ المُكَذِّب به من أهلِ النار دون المصدِّق به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولئن اتبعت»، يا محمدُ، هَوَى هؤلاء اليهود والنصارى - فيما يُرْضِيهم عنكَ - من تهوُّدٍ وتنصُّرٍ، فَصِرْتَ من ذلك إلى إرضائهم، ووافقتَ فيه محبتهم - من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكُفْرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصتُ عليك من نَبئهم في هذه السورة - ما لَكَ من الله من وليٍّ - يعني بذلك: ليس لك يا محمد من وليٍّ يَلِي أمركَ، وقَيِّمٍ يقومُ به - ولا نصيرٍ، ينصرك من الله فيدفَعُ عنكَ ما ينزل بكَ من عقوبته،

ويمنعُك من ذلك، إنْ أحَلَّ بك ذلك ربك. وقد بيَّنا معنى «الولي» و«النصير» فيما مضى قبل.

وقد قيل: إنَّ الله تعالى ذكره أنزل هذه الآية على نبيه محمد ﷺ، لأنَّ اليهودَ والنصارى دعته إلى أديانها، وقال كلُّ حزب منهم: إن الهدى هو ما نحنُ عليه، دونَ ما عليه غيرنا من سائر الملل. فوعظه الله أنْ يفعل ذلك، وعلَّمه الحجةَ الفاصلة بينهم فيما ادَّعى كُلُّ فريق منهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾

عَنى الله بذلك علماءَ بني إسرائيل، الذين آمنوا بالله وصدَّقُوا رُسله، فأقرُّوا بحكم التوراة. فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد ﷺ، والإيمانِ به، والتصديقِ بما جاء به من عند الله، وذلك لأنَّ الآيات قَبْلَها مضت بأخبارِ أهلِ الكتابين، وتبديل مَنْ بَدَّلَ منهم كتابَ الله، وتأوُّلِهم إيَّاهُ على غير تأويلهِ، وادّعائِهم على الله الأباطيل.

فإذْ كان ذلك كذلك، فالذي هو أوْلى بمعنى الآية، أنْ يكون موجَّهاً إلى أنه خبرٌ عَمَّنْ قَصَّ الله جَلَّ ثناؤه قصصهم في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهـلُ الكتابين التوراة والإنجيل. وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: الذين آتيناهم الكتابَ الذي قد عرفته يا محمد ـ وهو التوراة ـ فقرأوه واتَّبَعُوا ما فيه، فَصَدَّقوك وآمنوا بك وبما جئتَ به من عندي، أولئك يتلُونه حَقَّ تلاوته.

وإنما أدخلت «الألف واللام» في «الكتاب»، لأنه معرفة. وقد كان النبي ﷺ وأصحابه عرفوا أيَّ الكُتُبِ عَنَى به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾

وتأويل ذلك أنه بمعنى: يتبعونه حقَّ اتباعه، من قول القائل: «ما زلتُ أَتْلُو أثره»، إذا اتَّبعَ أثرَهُ، لإجماعِ الحجةِ من أهلِ التأويلِ على أنّ ذلك تأويله.

وإذْ كان ذلك تأويله، فمعنى الكلام: الذين آتيناهُمُ الكتابَ، يا محمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبما جِئْتَهُمْ به من الحَقِّ من عندي، يتبعونَ كتابي الذي أنزلتُه على رسولي موسى صلوات الله عليه، فيؤمنونَ به ويُقِرُّونَ بما فيه من نَعْتِكَ وصفتك، وأنك رسولي، فرضٌ عليهم طاعتي في الإيمان بك والتصديق بما جئتهم به من عندي، ويَعمَلون بما أَحْللتُ لهم، ويجتنبون ما حَرَّمتُ عليهم فيه، ولا يُحَرِّفُونَهُ عن مواضِعِه، ولا يُبَدِّلُونَهُ ولا يغيرونه ـ كما أنزلته عليهم ـ بتأويلٍ ولا غيره.

أما قوله: «حَقَّ تِلاوته»، فمبالغةٌ في صفة اتِّباعِهم الكتابَ ولزومهم العملَ به، كما يقال. «إنَّ فلاناً لعالم حقُّ عالم»، وكما يقال: «إن فلاناً لفاضل كلُّ فَاضل»، ومعنى ذلك: أيُّ تلاوَةٍ، بمعنى مدح التلاوة التي تَلوْها وتفضيلها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «أولئك»، هؤلاء الذين أخبرَ عنهم أنهم يتلون ما آتاهُم من الكتابِ حَقَّ تلاوته، وأما قوله: «يُؤمنون به»، فإنه يعني: يُصَدِّقُون به. و«الهاء» التي في قوله: «به» عائدة على «الهاء» التي في «تلاوته»، وهما جميعاً من ذكر الكتاب الذي قال الله: «الذين آتيناهم الكتاب».

فأخبر الله جَلَّ ثناؤه أنَّ المؤمنَ بالتوراة، هو المُتَّبعُ مَا فيها من حَلالِها وحَرامِها، والعاملُ بما فيها من فرائض الله التي فَرضَها فيها على أهلها، وأنَّ أهلها الذين هُم أهلُها مَنْ كان ذلك صفتَه، دونَ مَنْ كان مُحَرِّفاً لها، مُبَدِّلاً

تأويلها، مغيِّراً سُننها، تاركاً ما فرض الله فيها عليه.

وإنما وصَف جَلَّ ثناؤه مَنْ وَصَفَ بما وُصف به من مُتَّبِعي التوراة، وأثنى عليهم بما أثنى به عليهم، لأنَّ في اتباعها اتِّباعَ محمدٍ نبيِّ الله ﷺ وتصديقَه، لأنَّ التوراةَ تأمرُ أهلَها بذلك، وتخبرهم عن الله تعالى ذكره بنبوته، وفرض طاعته على جميعِ خَلْق الله من بني آدَم، وأنَّ في التكذيب بمحمدٍ التكذيبَ لها. فأخبر جَلَّ ثناؤه أنَّ متَّبِعي التوراة هم المؤمنون بمحمدٍ ﷺ، وهم العاملون بما فيها.

القــول في تأويل قولــه تعــالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٢١﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ومن يَكْفُر به»، ومن يكفر بالكتابِ الذي أخبرَ أنه يتلوه ـ مَن آتاه من المؤمنينَ ـ حَقَّ تلاوته. ويعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «يكفر»، يَجْحد ما فيه من فرائضِ الله ونبوةِ محمدٍ ﷺ وتصديقه، ويبدِّله فيحرف تأويلَهُ، أولئك هم الذين خسروا عِلمهم وعَملهم، فَبَخَسُوا أنفسَهُم حُظوظَها من رحمةِ الله، واستبدلوا بها سَخَط الله وغَضَبه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾

وهذه الآية عِظةٌ من الله تعالى ذِكْرُه لليهودِ الذين كانوا بين ظهراني مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ، وتذكيرٌ منه لهم ما سَلَفَ من أياديهِ إليهم في صُنْعِه بأوائِلهم، استعطافاً منه لهم على دِينهِ وتصديق رسولهِ محمدٍ ﷺ، فقال: يا بني إسرائيل اذكـروا أيادي لدَيكم، وصنائعي عندكم، واستنقاذي إياكم من أيدِي عدوِّكم

فرعـون وقومه، وإنزالي عليكمُ المَنَّ والسلوى في تِيهكم، وتَمْكِيني لكم في البـلاد بعد أنْ كنتم مذلَّلين مقهورين، واختصاصي الرُّسُلَ منكم، وتفضيلي إيَّاكم على عالم مَنْ كنتم بين ظهرَانيه، أيامَ أنتم في طاعتي - باتباع رسولي إليكم، وتصديقه وتصديق ما جاءكم به من عندي، ودَعُوا التمادِي في الضلالِ والغيِّ.

وقـد ذكـرنـا فيمـا مضى النِّعم التي أنعمَ اللهُ بهـا على بني إسرائيل، والمعاني التي ذَكَّرَهُم جَلَّ ثناؤه من آلائهِ عِنْدَهم، والعالَم الذي فُضِّلوا عليه - فيما مضى قَبْلُ - فكرهنا تطويلَ الكتاب بإعادته، إذ كان المعنى في ذلك في هذا الموضع وهنالك واحداً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

وهذه الآية ترهيبٌ من الله جَلَّ ثناؤه للذين سَلفت عِظَتُه إياهم بما وعظهم به في الآية قبلها. يقول الله لهم: واتقوا - يا معشرَ بني إسرَائيل - المُبَدِّلينَ كتـابي وتنـزيلي، المُحَرِّفينَ تأويلَهُ عن وجههِ المُكَذِّبينَ برسولي محمد ﷺ - عذابَ يومٍ لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا تغني عنها غناءً أنْ تهلِكُوا على ما أنتم عليه من كُفْرِكم بي، وتكذيبكم رسولي، فتموتوا عليه، فإنه يومٌ لا يُقبلُ من نفسٍ فيما لزمها فِدْيةٌ، ولا يَشفع فيما وَجَب عليها من حَقٍّ لها شافعٌ، ولا هي ينصرها ناصر من الله إذا انتقم منها بمعصيتها إيّاه.

وقد مضى البيان عن كل معاني هذه الآية في نظيرتها قَبْلُ، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وإذ ابتلى»، وإذ اخْتَبَر.

يقال منه: «ابتليتُ فلاناً أبتليه ابتلاء»، ومنه قول الله عَزَّ وجل: ﴿وَٱبْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ [النساء: ٦]، يعني به: اختبروهم.

وكان اختبار الله تعالى ذِكْرُه إبراهيمَ، اختباراً بفرائض فَرَضَها عليه، وأمرٍ أمَرَهُ به. وذلك هو «الكلمات» التي أوْحاهُنَّ إليه، وكَلَّفَهُ العملَ بهن، امتحاناً منه له واختباراً، فأتَمَّهُنَّ، كما أخبر الله جَلَّ ثناؤه عنه أنه فعل.

## القول في تأويل قوله تعالى: فَأَتَمَّهُنَّ

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «فأتمهن»، فأتَمَّ إبراهيمُ الكلمات. و«إتمامه إيَّاهن»، إكمالُهُ إيَّاهُنَّ، بالقيامِ لله بما أوجبَ عليه فيهن، وهو الوفاءُ الذي قال الله جَلَّ ثناؤه: ﴿وإبْرَاهِيمَ الَّذِي وفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، يعني وفَّى بما عهد إليه، «بالكلمات»، بما أمره به من فرائضه ومحنته فيها.

## القول في تأويل قوله تعالى: قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «إنِّي جَاعلك للناس إماماً، فقال الله: يا إبراهيم، إني مُصَيِّرُكَ للناسِ إماماً، يُؤْتَمُّ به ويُقتدى به. يقال منه: «أممتُ القومَ فأنا أَؤُمُّهم أمّاً وإمَامة»، إذا كنت إمامهم.

وإنما أراد جَلَّ ثناؤه بقوله لإبراهيم: «إنِّي جاعِلك للناسِ إماماً»، إنِّي مصيِّرُك تَؤُم مَن بعْدك من أهل الإيمانِ بي وبرسلي، تتقدَّمُهم أنتَ، ويَتَّبعون هَدْيَك، ويَسْتَنُّون بسُنتك التي تعملُ بها، بأمري إيَّاك ووحيِي إليك.

## القول في تأويل قوله تعالى: قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي

يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: قال إبراهيم - لَمَّا رفع الله منزلته وكَرَّمه، فأعلمه ما هو صانعٌ به، من تَصييرِه إماماً في الخيراتِ لمن في عصره ولمن جاء بَعْدَهُ من ذريته وسائر الناس غيرهم، يُهْتَدَى بهَديِه، ويُقْتَدَى بأفعالِه وأخلاقه -: يا رب، ومن ذُرِّيتي فاجعلْ أئمةً يُقتدى بهم، كالذي جعلتني إماماً يُؤتَمُّ بي ويُقْتَدى بي. مسألةٌ من إبراهيم ربَّه سأله إيَّاها.

وقد زعم بعض الناس أنَّ قولَ إبراهيم: «ومن ذرِّيتي» مسألة منه ربَّه لعقبِه أنْ يكونوا على عَهدِه ودينه، كما قال ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فأخبر الله جَلَّ ثناؤه أنَّ في عَقِبه الظالمَ المخالفَ له في دِينه، بقوله: «لا يَنالُ عَهدي الظالمين».

والظاهرُ من التنزيل يدلُّ على غير الذي قاله صاحب هذه المقالة. لأنَّ قولَ إبراهيم صلوات الله عليه: «ومن ذُريتي»، في إثر قولِ الله جَلَّ ثناؤه: «إنِّي جَاعِلُكَ للناس إماماً». فمعلوم أن الذي سأله إبراهيم لذرِّيته، لو كان غيرَ الذي أخبرَ ربُّه أنه أعطاهُ إياه، لكان مُبيَّناً. ولكن المسألة لما كانت مما جرَى ذِكْرُه، اكتفى بالذِّكرِ الذي قد مضى، مِنْ تكريره وإعادته، فقال: «ومن ذريتي»، بمعنى: ومن ذريتي فاجعل مثلَ الذي جعلتني به، من الإمامةِ للناس.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (١٢٤)

هذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عن أنَّ الظالمَ لا يكون إماماً يقتدي به أهلُ الخيرِ. وهو من الله جَلَّ ثناؤه جوابٌ لما يُتَوَهَّمُ في مسألته إياه: أن يجعل من ذريته أئمةً مِثْلَهُ. فأخبر أنه فاعلٌ ذلك، إلا بمن كان من أهل الظلم منهم، فإنَّهُ غير مُصَيِّرَه كذلك، ولا جاعِلِه في محلِّ أوليائه عنده، بالتكرمةِ بالإمامةِ.

لأنَّ الإمامةَ إنما هي لأوليائهِ وأهلِ طاعته، دون أعدائه والكافرين به.

واختلف أهلُ التأويل في العهد الذي حَرَّمَ اللهُ جَلَّ ثناؤه الظالمين أنْ ينالوه. فقال بعضهم: ذلك «العهد»، هو النبوة.

وقال آخرون: معنى «العهد»: عهد الإمامة.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنَّهُ لا عَهْدَ عليكَ لظالمٍ أنْ تُطِيعَهُ في ظُلمه.

وقال آخرون: بل «العهد» الذي ذَكَرَهُ اللهُ في هذا الموضع: دِينُ الله.

وهذا الكلام، وإنْ كان ظاهرُه ظاهر خَبرٍ - عن أنه لا ينال مِنْ وَلَدِ إبراهيم صلوات الله عليه عهدُ الله، الذي هو النبوة والإمامة لأهل الخير، بمعنى الاقتداء به في الدنيا، والعهد الذي بالوفاء به ينجو في الآخرةِ مَنْ وَفَى للهِ به في الدنيا، مَنْ كان منهم ظالماً مُتَعَدِّياً جائراً عن قَصْدِ سبيلِ الحق - فهو إعلامٌ من الله تعالى ذِكْرُه لإبراهيمَ: أنَّ من ولده من يُشرك به، ويجورُ عن قَصْدِ السبيل، ويظلمُ نفسه وعبادَه.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾

أما قوله: «وإذْ جَعلنا البيت مَثابة»، فإنه عطف بـ«إذ» على قوله: «وإذ ابتلَى إبراهيمَ ربُّه بكلمات». وقوله: «وإذ ابتلى إبراهيم» معطوف على قوله: «يا بَني إسرائيلَ اذكروا نعمتي»، واذكروا «إذِ ابتلى إبراهيمَ ربُّه»، «وإذْ جعلنا البيتَ مَثابة».

و«البيت» الذي جعله الله مثابةً للناس، هو البيتُ الحرام.

و«المثابة» «مفعلة» من «ثاب القوم إلى الموضع»، إذا رجعوا إليه، «فهم يثوبون إليه مَثاباً ومَثابةً وثواباً».

فمعنى قوله: «وإذ جَعلنا البيتَ مَثابة للناس»: وإذْ جعلنا البيتَ مرجعاً للناس ومعاذاً، يأتونه كُلَّ عامٍ ويَرجعون إليه، فلا يَقْضُونَ منه وطراً، ومنه قيل: «ثابَ إليه عقله»، إذا رجع إليه بعد عزُوبه عنه.

القول في تأويل قوله تعالى: وَأَمْنًا

و «الأمن» مصدرٌ من قول القائل: «أمِنَ يأمَنُ أمْناً».

وإنما سماه الله «أمْناً»، لأنه كان في الجاهلية مَعَاذاً لمن استعاذ به. وكان الرجلُ منهم لو لقيَ به قاتلَ أبيهِ أو أخيهِ، لم يَهجْهُ ولم يعرض له حتى يخرج منه، وكان كما قال الله جَلَّ ثناؤه: ﴿أوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

القول في تأويل قوله تعالى: وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى

«واتخِذوا» بكسر «الخاء»، على تأويلِ الأمرِ باتخاذِ مقامِ إبراهيم مصلى.

و«مقام إبراهيم»، هو المقامُ المعروف بهذا الاسم، الذي هو في المسجد الحرام.

وأما قوله تعالى: «مُصَلًّى» يعني مصلى تُصَلُّون عنده.

(فتأويل الآية إذاً): اتخذوا أيها الناسُ من مقام إبراهيم مصلًّى تُصَلُّونَ عنده، عبادةً منكم، وتكرمةً مني لإبراهيم.

القول في تأويل قوله تعالى: وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وعَهِدْنا»؛ «وأمَرْنَا».

فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيمَ وإسماعيلَ بتطهيرِ بيتيَ للطائفين. «والتطهير» الذي أمَرَهُمَا اللهُ به في البيت، هو تطهيرُه من الأصنامِ، وعبادةِ الأوثان فيه، ومن الشرك بالله.

فإنْ قال قائل: وما معنى قوله: «وعَهِدنا إلى إبْراهيمَ وإسماعيل أن طَهرا بَيتيَ للطائفين»؟ وهل كان أيامَ إبراهيم - قَبْلَ بنائهِ البيتَ - بيتٌ يُطَهَّرُ من الشركِ وعبادةِ الأوثان في الحرم، فيجوز أن يكونا أُمِرَا بتطهيرِهِ؟

قيل: لذلك وجهان من التأويل، قد قال بكل واحد من الوجهين جماعةٌ من أهل التأويل.

أحدهما: أن يكون معناه: وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن ابنيا بيتيَ مُطَهَّراً من الشِّركِ والرَّيْب، كما قال تعالى ذكره: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]، فكذلك قوله: «وعَهِدْنَا إلى إبراهيمَ وإسماعيل أنْ طهِّرا بيتي»، أي: ابنيا بَيتيَ على طُهْرٍ من الشركِ بي والرَّيْب.

والوجه الآخر منهما: أن يكونَا أُمِرَا بأنْ يُطَهِّرَا مكانَ البيت قبل بُنيانهِ، والبيتَ بعدَ بنيانهِ، مما كان أهلُ الشرك بالله يجعلونه فيه - على عَهدِ نوحٍ ومَن قَبْلَهُ - من الأوثانِ، ليكون ذلك سُنَّةً لِمَنْ بَعْدَهُمَا، إذ كان الله تعالى ذكره قد جعلَ إبراهيمَ إماماً يقتدي به مَنْ بعدَهُ.

القول في تأويل قوله تعالى: لِلطَّآئِفِينَ

و«الطائفون» هُمُ الذين يطوفون به، غُرباءَ كانوا أو منْ أهلِه، لأنَّ «الطائف» هو الذي يطوفُ بالشيء دُون غيره.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «والعاكفين»، والمقيمينَ به. «والعاكفُ على الشيء»، هو المقيمُ عليه، وإنما قيَل للمعتكف «معتكف»، من أجل مقامه في الموضع الذي حبسَ فيه نَفْسَهُ لله تعالى.

و«العاكف» في هذا الموضع، المقيمُ في البيت مجاوراً فيه بغير طَوافٍ ولا صلاة. لأنَّ صفة «العكوف» ما وصفنا: من الإقامة بالمكان. والمقيمُ بالمكان قد يكون مقيماً به وهو جالِسٌ ومصلٍّ وطائفٌ وقائمٌ، وعلى غير ذلك من الأحوال. فلما كان تعالى ذِكْرُه قد ذكر ـ في قوله: «أنْ طَهِّرَا بَيتيَ للطائفين والعاكفينَ والرُّكَّعِ السجود» ـ المصلِّين والطائفين، علم بذلك أنَّ الحالَ التي عَنى اللهُ تعالى ذكره من «العاكف»، غير حال المصلي والطائف، وأنَّ التي عَنَى من أحواله، هو العكوفُ بالبيت، على سبيلِ الجوارِ فيه، وإنْ لم يكن مصلِّياً فيه ولا راكعاً ولا ساجداً.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «والركَّع»، جماعةَ القومِ الراكعينَ فيه له، واحِدُهم «راكع». وكذلك «السجود» هم جماعةُ القومِ الساجدين فيه له، واحدهم «ساجد» ـ كما يقال: «رجلٌ قاعدٌ ورجالٌ قعود» و«رجل جَالس ورجال جُلوس»، فكذلك «رجل ساجد ورجال سجود».

وقد بيَّنا فيما مضى بَيَان معنى «الركوع» و«السجود»، فأغنى ذلك عن إعادته ههنا.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وإذْ قَالَ إبراهيمُ رَبِّ اجعلْ هذا بلداً آمناً»، واذكروا إذْ قال إبراهيم: رَبِّ اجعلْ هذا البلد بلداً آمناً.

ويعني بقوله «آمناً»، آمناً من الجبابرةِ وغيرهم، أنْ يُسَلَّطُوا عليه، ومن عقوبةِ الله أنْ تناله كما تنالُ سائرَ البلدانِ، من خَسْفٍ وائتفاكٍ وغرق، وغير ذلك من سخط الله وَمَثُلاتهِ التي تصيبُ سائرَ البلاد غيرَه.

فإن قال لنا قائل: أَوَ مَا كانَ الحَرَمُ آمناً إلّا بعد أن سأل إبراهيمُ ربَّه له الأمان؟

قيل له: إنّ الله تعالى ذِكْرُه جعل مكةَ حرَماً حين خَلقها وأنشأها، كما أخبر النبيُّ ﷺ، «أنه حرَّمها يوم خَلَقَ السمواتِ والأرض»[1]، بغير تحريمٍ منه لها على لسانِ أحدٍ من أنبيائه ورسله، ولكنْ بمَنْعِه مَنْ أرادَها بسوء، وبدفعِهِ عنها من الآفاتِ والعقوباتِ وعن ساكِنيها، ما أحلَّ بغيرها وغير ساكنيها من النقمات. فلم يزل ذلك أمْرَها حتى بَوَّأها الله إبراهيمَ خليلَه، وأسكن بها أهلَهُ هاجرَ وولده إسماعيل فسأل حينئذٍ إبراهيمُ ربَّه إيجابَ فرضِ تحريمها على عبادِه على لسانِه، ليكون ذلك سُنةً لمن بعده من خَلْقِه يستنُّون به فيها، إذ كان تعالى ذِكْرُه قد اتَّخَذَهُ خليلاً، وأخبره أنه جاعله للناسِ إماماً يُقتدى به. فأجابه رَبُّه إلى ما سأله، وألزمَ عبادَه حينئذٍ فرض تحريمه على لسانه.

فصارَت مكة ـ بعد أنْ كانت ممنوعةً بِمَنْعِ الله إياها، بغيرِ إيجابِ الله فرضَ الامتناعِ منها على عبادِه، ومحرَّمةً بدفع الله عنها، بغير تحريمه إياها

(١) مسند أحمد: ٤/ ٣٢.

على لسانِ أحدٍ من رسله ـ فرضٌ تحريمها على خَلْقِه على لسانِ خليله إبراهيم عليه السلام، وواجبٌ على عبادِه الامتناعُ من استحلالها، واستحلال صيدها وعِضَاهها لها بإيجابهِ الامتناعَ من ذلك، ببلاغِ إبراهيمَ رسالةَ اللهِ إليه بذلك إليهم.

فلذلك أضيفَ تحريمها إلى إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله حَرَّم مكة». لأن فرض تَحريمها الذي ألْزَمَ اللهُ عبادَهُ على وجهِ العبادةِ له به ـ دون التحريمِ الذي لم يَزَل مُتَعبَّداً لها به على وجه الكِلاءة والحِفْظِ لها قبلَ ذلك ـ كان عن مسألةِ إبراهيمَ ربَّه إيجابَ فرضِ ذلك على لسانه، وهو الذي لزم العبادَ فرضُه دون غيره.

فقد تبين إذاً بما قُلنا صحّةُ معنى الخبرَيْن ـ أعني خبر أبي شريح وابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إن الله حرّم مكة يوم خلق الشمسَ والقمر»[1] وخبر جابر وأبي هريرة ورافع بن خديج وغيرهم: أن النبيَّ ﷺ قال: «اللهم إنَّ إبراهيم حرَّم مكة»[2]؛ وأنْ ليس أحدهما دافعاً صِحَّةَ معنى الآخر، كما ظنه بعض الجُهَّال.

وغيرُ جائز في أخبار رسولِ الله ﷺ أنْ يكونَ بعضُها دافعاً بعضاً، إذا ثبت صِحَّتُها. وقد جاء الخبران اللذان رُويا في ذلك عن رسول الله ﷺ، مجيئاً ظَاهراً مستفيضاً يقطعُ عُذرَ من بَلغه.

---

(١) أما حديث أبي شريح فقد أخرجه البخاري ١/٣٧ و٣/١٧ و٥/١٩٠، ومسلم (١٣٥٤) والترمذي والنسائي، وأما حديث ابن عباس فقد أخرجه البخاري ٢/١٨١ و٣/١٨ و٤/١٢٧ ومسلم (١٣٥٣)، وأبو داود (٢٤٨٠) والنسائي ٥/٢٠٤.

(٢) أما حديث جابر ورافع بن خديج فقد أخرجهما مسلم، وأما حديث أبي هريرة فقد أخرجه البخاري ومسلم.

وأمّا قولُ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فإنه، إنْ يَكُنْ قاله قبل إيجابِ الله فَرْضَ تحريمهِ على لسانه على خَلْقِه، فإنما عَنى بذلك تحريم الله إياه الذي حرَّمه بحِياطته إياه وكلاءَته، من غير تحريمهِ إياه على خَلْقِه على وجه التعبُّد لهم بذلك ـ وإنْ يكن قال ذلك بعد تحريم الله إياه على لسانهِ على خلقه على وجه التعبُّد، فلا مسألةَ لأحدٍ علينا في ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

وهذه مسألة من إبراهيم ربَّه: أنْ يرزقَ مؤمني أهل مكة من الثمرات، دون كافريهم. وخصَّ بمسألة ذلك للمؤمنين دون الكافرين، لمَّا أعلمه الله ـ عند مسألته إيَّاهُ أنْ يجعلَ من ذريته أئمةً يُقْتَدى بهم ـ أنَّ منهم الكافرَ الذي لا ينالُ عهدَه، والظالمَ الذي لا يُدركُ ولايته. فلمَّا أنْ عَلِمَ أنَّ من ذريتهِ الظالمَ والكافرَ، خَصَّ بمسألتهِ ربَّه أنْ يرزق من الثمراتِ من سُكَّانِ مكة، المؤمنَ منهم دونَ الكافرِ. وقال الله له: إنِّي قد أجبتُ دعاءكَ، وسأرزقُ مع مؤمني أهل هذا البلد كافرَهم، فأُمَتِّعَهُ به قليلاً.

وأمّا «مَنْ» من قوله: «مَنْ آمن منهم بالله واليوم الآخر»، فإنه نصبٌ على الترجمةِ والبيان عن «الأهل»، كما قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، بمعنى يسئلونك عن قتالٍ في الشهر الحرام، وكما قال تعالى ذكره: «ولِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]. بمعنى: ولِلهِ حِجُّ البيت على مَنِ استطاع إليه سبيلا.

وإنما سأل إبراهيمُ رَبَّهُ ما سألَ من ذلك، لأنه حَلَّ بوادٍ غير ذي زَرْعٍ

ولا ماء ولا أهلٍ، فسألَ أن يرزق أهله ثمراً، وأن يجعلَ أفئدةً من الناس تَهوي إليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾

وتأويلُ الآية: قال الله: يا إبراهيم، قد أجبتُ دَعْوتك، ورزقتُ مؤمِني أهل هذا البلد من الثمراتِ وكفارهم، متاعاً لهم إلى بُلوغ آجالهم، ثم أَضْطرُّ كُفَّارَهم بعد ذلك إلى النار.

وأما قوله: «فأمتِّعهُ قَليلًا» يَعني: فأجعل ما أرزقه من ذلك في حَياته مَتاعاً يتمتع به إلى وقت مماته.

وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما قالَ ذلك لإبراهيم، جواباً لمسألته ما سَأل من رزق الثمرات لمؤمني أهل مكة. معلوماً بذلك أن الجوابَ إنما هو فيما سألَهُ إبراهيم لا في غيرِه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ثم أضْطرُّه إلى عذاب النارِ»، ثم أدفعه إلى عذابِ النار وأسوقه إليها، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

ومعنى «الاضطرار»، الإكراه. يقال: «اضطررت فلاناً إلى هذا الأمر»، إذا أَلْجأْتُهُ إليه وحَملته عليه.

فذلك معنى قوله: «ثم أضطرُّه إلى عذابِ النار»، أدفعه إليها وأسوقه، سَحْباً وجَرًّاً على وجهه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٢٦﴾

قد دللنا على أنَّ «بِئْسَ» أصله «بَئِسَ» من «البُؤس» سُكِّن ثانيه، ونقلت حركةُ ثانيهِ إلى أوله، كما قيل للكَبد كِبْد، وما أشبه ذلك.

ومعنى الكلام: وساءَ المصيرُ عذابُ النار، بعد الذي كانوا فيه من متاع الدنيا الذي متَّعتهم فيها.

وأما «المصير»، فإنه «مَفْعِل» من قول القائل: «صِرْت مَصِيراً صالحاً»، وهو الموضع الذي يَصير إليه الكافرُ بالله من عذابِ النار.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «وإذْ يَرْفَعُ إبْراهيمُ القواعدَ منَ البيت»، واذكروا إذ يرفعُ إبراهيم القواعدَ من البيت.

و«القواعد» جمع «قاعدة»، يقال للواحدة من «قواعد البيت» «قاعدة»، وللواحدة من «قواعد النساء» وعجائزهن «قاعد»، فتلغى هاء التأنيث، لأنها «فاعل» من قول القائل: «قعدت عن الحَيض»، ولاحظَّ فيه للذكورة، كما يقال: «امرأة طَاهِرٌ وَطامثٌ»، لأنه لاحظَّ في ذلك للذكور، ولو عنى به «القعود» الذي هو خلاف «القيام»، لقيل: «قاعدة»، ولم يجز حينئذٍ إسقاط هاء التأنيث. و«قواعد البيت» أساسه.

ثم اختلف أهل التأويل في «القواعد» التي رفعها إبراهيم وإسماعيل من البيت. أَهُمَا أحْدَثَا ذلك، أم هي قواعدُ كانت لهُ قبلهما؟

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ

عن إبراهيم خليله أنه وابنه إسماعيل، رفعا القواعدَ من البيت الحرام. وجائزٌ أن يكونَ ذلك قواعدَ بيتٍ كان أَهْبَطَهُ مع آدمَ، فجعله مكانَ البيت الحرَام الذي بمكة. وجائزٌ أن يكون ذلك كان القُبة التي أنشأها الله من زَبَد الماء. وجائزٌ أن يكـون ياقوتة أو دُرَّةً أهبِطا من السماء. وجائزٌ أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم، حتى رفع قواعِدَهُ إبراهيمُ وإسماعيل. ولا عِلْمَ عندنا بأيٍّ ذلك كان من أيٍّ، لأنَّ حقيقـة ذلـك لا تُدْرَكُ إلا بخبرٍ عن الله وعن رسوله ﷺ، بالنَّقْلِ المُستفيض. ولا خبرَ بذلك تقومُ به الحجةُ فيجب التسليم لها، ولا هو - إذ لم يكن به خبرٌ، على ما وَصَفْنَا - مما يُدَلُّ عليه بالاستدلالِ والمقاييس، فَيُمَثَّلُ بغيرِهِ، ويُسْتَنْبَطُ عِلْمُهُ من جهةِ الاجتهاد. فلا قولَ في ذلك هو أولى بالصواب مما قُلنا. والله تعالى أعلم.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وإذْ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل يَقولان ربنا تَقَبَّلْ منا. وذكر أنَّ ذلك كذلك في قراءة ابن مسعود.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الذي رَفع القواعد، بعدَ إجماعِهم على أنَّ إبراهيمَ كان مِمَّنْ رَفعها.

فقال بعضهم: رفعها إبراهيمُ وإسماعيل جميعاً.

وقال آخرون: بل رفع قواعد البيت إبراهيم، وكان إسماعيل يُناوله الحِجارةَ.

وقال آخرون: بل الذي رفع قواعدَ البيت إبراهيمُ وحده وإسماعيل يومئذٍ طفلٌ صغير.

فمن قال: رفع القواعدَ إبراهيمُ وإسماعيلُ، أو قال: رفعها إبراهيمُ وكان إسماعيل يُناوله الحجارةَ، فالصوابُ في قوله أنْ يكونَ المضمرُ من القول لإبراهيم وإسماعيل. ويكون الكلامُ حينئذٍ: «وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل» يقولان ربَّنا تَقَبَّلْ منا. وقد كان يحتمل، على هذا التأويل، أن يكون المضمرُ من القول لإسماعيل خاصةً دون إبراهيم، ولإبراهيمَ خاصةً دون إسماعيل، لولا ما عليه عامةُ أهلِ التأويل من أن المضمرَ من القول لإبراهيم وإسماعيل جميعاً.

وأما على تأويل:ـ أنَّ إبراهيمَ هو الذي رَفَعَ القواعدَ دون إسماعيل ـ فلا يجوز أن يكون المضمر من القول عندَ ذلك إلّا لإسماعيل خاصة.

والصوابُ من القول عندنا في ذلك: أنّ المضمر من القول لإبراهيمَ وإسماعيلَ وأنَّ قواعدَ البيت رفعها إبراهيمُ وإسماعيلُ جميعاً. وذلك أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ إنْ كانا هما بنياها ورَفعاها، فهو ما قلنا. وإنْ كان إبراهيمُ تَفَرَّدَ ببنائها، وكان إسماعيلُ يناوله، فهما أيضاً رفعاها، لأنَّ رَفْعَها كان بهما: مِنْ أحَدِهما البناء، ومن الآخر نَقلُ الحجارة إليها، ومعونة وضعِ الأحجارِ مواضِعَها. ولا تمتنعُ العرب من نِسْبَةِ البناءِ إلى مَنْ كان بسببه البناء ومَعونته.

وإنما قُلنا ما قلنا من ذلك، لإجماعِ جميعِ أهل التأويل على أنَّ إسماعيل معنيٌّ بالخبر الذي أخبر الله عنه وعن أبيه، أنهما كأنا يقولانه، وذلك قولهما: «ربَّنا تَقبَّل منا إنك أنتَ السميعُ العليم». فمعلوم أن إسماعيلَ لم يَكُنْ ليقولَ ذلك، إلاَّ وهو: إمّا رجُلٌ كامل، وإمَّا غلام قد فَهِمَ مواضعَ الضَّر من النفع، ولزمته فرائضُ الله وأحكامه. وإذا كان ـ في حالِ بناء أبيه ما أمَرَه الله ببنائه ورَفعِه قواعدَ بيت الله ـ كذلك، فمعلومٌ أنه لم يكن تاركاً معونةَ أبيه: إمَّا على البناء، وإمَّا على نقلِ الحجارة. وأيُّ ذلك كان منه، فقد دخل في مَعنى

مَنْ رَفَع قواعدَ البيت، وثبَت أنَّ القولَ المضمرَ خبرٌ عنه وعن والدهِ إبراهيم عليهما السلام.

فتأويل الكلام: وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل يَقولان: ربَّنا تَقَبَّلْ منا عَمَلنا، وطاعتنا إياك، وعبادَتَنا لك، في انتهائنا إلى أمرك الذي أمرتنا به، في بناءِ بيتكَ الذي أمَرْتَنَا ببنائه، إنك أنتَ السميعُ العليم.

وفي إخبار الله تعالى ذِكْرُه أنهما رَفعا القواعدَ من البيت وهما يقولان: ربَّنا تقبَّلْ منا إنك أنت السميع العليم ـ دليلٌ واضحٌ على أن بناءهما ذلك لم يكن مَسْكَناً يَسْكُنَانِه ولا منزلاً ينزلانه بل هو دليلٌ على أنهما بنياه ورفعا قواعده لكل مَنْ أراد أن يعبدَ الله، تقرُّباً منهما إلى الله بذلك. ولذلك قالا: «ربَّنا تَقبَّلْ منا». ولو كانا بَنياه مسكناً لأنفسهم، لم يكن لقولهما: «تقبَّل منا» وجهٌ مفهوم. لأنه كانا يكونان ـ لو كان الأمرُ كذلك ـ سائلينَ أن يَتقبَّلَ منهما ما لا قُرْبَةَ فيه إليه. وليس موضعهما مَسألة الله قبولَ ما لا قربةَ إليه فيه.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾

وتأويل قوله: «إنك أنتَ السميع العليم»، إنك أنتَ السميعُ دُعاءنا ومسألتنا إياكَ قَبُولَ ما سألناكَ قبوله منا، مِنْ طاعتكَ في بناء بَيتك الذي أمرتنا ببنائهِ ـ العليمُ بما في ضمائرِ نُفوسنا مِنْ الإذعانِ لكَ في الطاعة، والمصير إلى ما فيه لكَ الرِّضَا والمحبة، وما نُبدي ونُخْفِي من أعمالنا.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾

وهذا أيضاً خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن إبراهيمَ وإسماعيل: أنهما كانا

يرفعان القواعدَ من البيت وهما يقولان: «رَبنا وَاجعلنا مُسْلِمَيْن لكَ»، يعنيان بذلك: واجعلنا مُسْتَسْلِمَينْ لأمرِكَ، خاضِعَيْنِ لطاعتك، لا نُشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غَيْرَك.

وقد دللنا فيما مضى على أن معنى «الإسلام»: الخضوع لله بالطاعة.

وأما قوله: «ومِنْ ذُرِّيتنا أمَّةً مسلمةً لك»، فإنهما خَصَّا بذلك بعضَ الذرية، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه قد كانَ أعْلَمَ إبراهيمَ خليلَه ﷺ قبل مسألته هذه، أنَّ مِنْ ذريته مَنْ لا ينالُ عهدَهُ لظُلمِهِ وفجورِهِ. فخصَّا بالدَّعوة بعضَ ذُرِّيتهما.

وأما «الأمَّة» في هذا الموضع، فإنه يعني بها الجماعة من الناس، من قول الله: ﴿ومِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

## القول في تأويل قوله تعالى: وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك. فقرأه بعضهم: «وأرنا مناسكنا»، بمعنى رؤية العين، أي أظْهِرْها لأعْيُنِنَا حتى نَراها. وذلك قراءةُ عامة أهلِ الحجاز والكوفة.

وكان بعضُ مَنْ يُوَجِّهُ تأويلَ ذلك إلى هذا التأويل، يُسَكِّن الراء من «أرْنا»، غيرَ أنه يُشِمُّها كسرة.

وقرأ آخرون: «وأرْنا مَناسكنا» بتسكين «الراء»، وزعموا أن معنى ذلك: وعلِّمنا، ودُلَّنا عليها ـ لا أنَّ معناه: أرِنَاها بالأبصار، وهذه قراءة رُويت عن بعض المتقدمين.

والقول واحدٌ: فمن كسر «الراء» جعل علامة الجزم سقوط «الياء» التي في قول القائل: «أَرِنيه» «أرِنه»، وأقرَّ الراء مكسورة كما كانت قبل الجزم. ومن

سكن «الـراء» من «أرْنـا»، توهم أنَّ إعرابَ الحرف في «الراء»، فَسَكَّنها في الجزم، كما فعلوا ذلك في «لم يكُن» و«لم يكُ».

وسواء كانَ ذلكَ من رُؤيةِ العين أو من رؤيةِ القلب. ولا معنى لفرق من فَرَّقَ بين رؤية العين في ذلك ورؤية القلب.

وأمّا «المناسك» فإنها جمع «مَنْسِك»، وهو الموضع الذي يُنْسكُ لله فيه، ويُتَقَرَّبُ إليه فيه بما يُرضيه من عمل صالح: إمّا بذبْحِ ذبيحةٍ له، وإما بصَلاةٍ أو طوافٍ أو سعي، وغير ذلك من الأعمال الصالحة. ولذلك قيل لمشاعرِ الحج «مناسكه»، لأنها أماراتٌ وعلاماتٌ يعتادها الناس ويتردَّدُون إليها.

وأصل «المَنْسِك» في كلام العرب: الموضعُ المعتاد الذي يَعتاده الرجلُ ويألَفُه، يقال: «لفلان مَنْسِك»، وذلك إذا كان له موضعٌ يعتاده لخيرٍ أو شر. ولذلك سميت «المناسكُ» «مناسك»، لأنها تُعْتَادُ، ويُتَرَدَّدُ إليها بالحَجِّ والعمرة، بالأعمالِ التي يُتقرَّبُ بها إلى الله.

وقـد قيل إن معنى «النُّسـك»: عبـادةُ الله. وأن «النـاسك» إنما سُمِّيَ «ناسكاً» بعبادةِ ربه.

فتأوَّل قائلو هذه المقالة: قولَه: «وأرنا مناسكنا»، وعَلِّمْنا عبادتَك، كيف نعبُدك؟ وأين نَعبدك؟ وما يرضيك عنا فنفعله؟

وهذا القول، وإنْ كان مذهباً يحتمله الكلامُ، فإنَّ الغالب على معنى «المناسك» ما وصفنا قبل، من أنها «مناسك الحج» التي ذكرنا معناها.

وخرج هذا الكلام من قولِ إبراهيمَ وإسماعيلَ على وجهِ المسألة منهما ربَّهما لأنفسهما. وإنما ذلك منهما مسألةُ ربِّهما لأنفسهما وذرِّيتهما المسلمين. فلمـا ضَمَّـا ذُرِّيتهما المسلمين إلى أنفسهما، صارا كالمخبرَيْنِ عن أنفسهما بذلك. وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لِتَقَدُّمِ الدعاءِ منهما للمسلمين من ذريتهما

قَبْلُ في أولِ الآية، وتأخُّرِه بَعْدُ في الآية الأخرى. فأما الذي في أول الآية فقـولهما: «ربَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْن لك ومنْ ذُريتنا أمةً مسلمةً لك»، ثم جمعا أنفسهما والأمةَ المسلمةَ من ذُريتهما، في مسألتهما ربَّهما أن يُريهم مَناسكُهم فقـالا: «وأرنا مناسكنا». وأما التي في الآية التي بعدها: «ربَّنا وابعثْ فيهمْ رَسولاً منهم»، فجعلا المسألة لذريتهما خاصة.

وقد ذُكر أنها في قراءة ابن مسعود: «وأرِهِمْ مناسكهُم»، يعني بذلك وأرِ ذريتَنا المسلمةَ مَناسكهم.

القـول في تأويل قولـه تعـالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾

أمّا «التوبة»، فأصلهـا الأوْبةُ من مكروهٍ إلى محبوبٍ. فتوبةُ العبد إلى ربـه، أوبتُه مما يكرهُه الله منه، بالندمِ عليه، والإقلاعِ عنه، والعزمِ على تَرْكِ العَوْدِ فيه. وتوبة الرب على عبده: عودُه عليه بالعفوِ له عن جُرْمِه، والصفحِ له عن عُقوبةِ ذنبه، مغفرةً له منه، وتفضلاً عليه.

فإنْ قال لنا قائل: وهلْ كان لهما ذُنوبٌ فاحتاجا إلى مسألةِ ربهما التوبة؟

قيل: إنه ليس أحدٌ من خَلْقِ الله، إلاّ وله من العمل ـ فيما بينه وبين ربه ـ ما يجبُ عليه الإنابةُ منه والتوبةُ. فجائزٌ أنْ يكونَ ما كان من قِبلهما ما قالا من ذلك، إنما خَصًّا به الحالَ التي كانا عليها، من رفعِ قواعدِ البيت. لأنَّ ذلك كان أحرى الأماكنِ أنْ يستجيبَ الله فيها دُعاءَهُما، وليجعلا مَا فَعلا من ذلـك سُنةً يُقتدى بها بعدَهُمَا، وتتخذ الناسُ تلك البقعةَ بعدهما موضعَ تَنصُّلٍ من الذنوبِ إلى الله. وجائز أن يكونا عَنيَا بقولهما: «وتُبْ علينا»، وتُبْ على الظَّلَمَةِ من أولادِنا وذريتنا ـ الذين أعْلَمْتَنَا أمْرَهُم ـ من ظُلْمِهم وشِرْكِهم،

حتى يُنيبوا إلى طاعتكَ. فيكون ظاهرُ الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعنيُّ به ذريتهما. كما يقال: «أكرمني فلان في ولدي وأهلي، وبَرَّني فلان»، إذا بَرَّ ولده.

وأما قوله: «إنك أنتَ التوّاب الرحيم»، فإنه يعني به: إنك أنت العائدُ على عبادكَ بالفضل، والمتفضلُ عليهم بالعفوِ والغفران ـ الرحيمُ بهم، المستنقذُ مَنْ تشاء منهم برحمتكَ من هَلكته، المُنجي مَنْ تريدُ نجاتَهُ منهم برأفتكَ من سَخَطك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾

وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ خاصة.

ويعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «يتلو عَليهم آياتك»: يقرأ عليهم كتابكَ الذي تُوحيه إليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾

ويعني بـ «الكتاب»: القرآن.

قد بَيَّنْتُ فيما مضى لم سُمِّيَ القرآنُ «كتاباً»، وما تأويله.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى «الحكمة» التي ذكرها الله في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هي السُّنة.

وقال بعضعم: «الحكمة»، هي المعرفةُ بالدين والفقه فيه.

والصواب من القول عندنا في «الحكمة» أنها العِلْمُ بأحكامِ الله التي لا يُدرك عِلْمها إلا ببيانِ الرسول ﷺ، والمعرفة بها، وما دلَّ عليه ذلك من نظائره. وهو عندي مأخوذٌ من «الحُكْم» الذي بمعنى الفَصْل بين الحق والباطل، بمنزلة «الجِلْسة والقعدة» من «الجلوس والقعود»، يقال منه: «إنَّ فلاناً لحكيمٌ بَيِّنُ الحِكْمة»، يعني به: إنه لبيِّنُ الإصابةِ في القول والفعل.

وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يَتلو عليهم آياتك، ويعلمهم كتابكَ الذي تُنَزِّلُهُ عليهم، وفصْلَ قضائك وأحكامك التي تُعلِّمه إياها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾

قد دللنا فيما مضى قبل على أن معنى «التزكية»: التطهير، وأن معنى «الزكاة»، النماء والزيادة.

فمعنى قولـه: «ويُزكيهم» في هذا الموضع: ويُطَهِّرهم من الشركِ باللهِ وعبادةِ الأوثان، ويُنمِّيهم ويكثرهم بطاعةِ الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: إنك يا رَبِّ أنتَ «العزيز» القويُّ الذي لا يُعْجِزُه شيءٌ أراده، فافعلْ بنا وبذريتنا ما سَألناه وطلبناه منك؛ و«الحكيم» الذي لا يدخلُ تدبيرَهُ خَللٌ ولا زَللٌ، فأعْطِنَا ما ينفعنا وينفعُ ذريتنا، ولا ينقُصك ولا ينقُص خَزَائنك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ومنْ يرغَبُ عَنْ ملة إبراهيم»، وأيُّ الناس يَزْهَدُ في ملةِ إبراهيمَ، ويَتركها رغبةً عنها إلى غيرها؟

وإنما عنى الله بذلك اليهودَ والنصارى، لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية، والنصرانية على الاسلام. لأنَّ «ملة إبراهيم» هي الحنيفية المسلمة، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولَا نَصْرَانِيّاً ولكِنْ كَانَ حَنيفاً مُسْلِماً﴾ [آل عمران: ٦٧]، فقال تعالى ذِكْرُه لهم: ومَنْ يَزْهدُ عن ملة إبراهيمَ الحنيفيةِ المسلمةِ إلّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إلا مَن سفه نفسه»، إلا من سَفهتْ نفسُه. وقد بَيَّنا فيما مضى أن معنى «السَّفَه»، الجهل.

فمعنى الكلام: ومَا يرغبُ عن ملةِ إبراهيمَ الحنيفية، إلّا سفيهٌ جاهلٌ بموضع حَظِّ نفسهِ فيما يَنْفَعُهَا، ويضرها في مَعَادِها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَلَقَدْ اصطفيناهُ في الدنيا»، ولقد اصطفينا إبراهيمَ. و«الهاء» التي في قوله «اصطفيناه»، من ذكر إبراهيم.

و«الاصطفاء» «الافتعال» من «الصفوة»، وكذلك «اصطفينا» «افتعلنا» منه، صُيِّرت تاؤها طاءً لِقُرْبِ مخرجها من مخرج الصاد.

ويعني بقوله: «اصطفيناه»: اخترناه واجتبيناه للخُلَّةِ، ونُصَيِّرُهُ في الدنيا لِمَنْ بَعدَه إماماً.

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن أنَّ مَنْ خالفَ إبراهيمَ فيما سَنَّ لمن

بعده، فهو لله مخالفٌ، وإعلامٌ منه خَلْقَهُ أنَّ مَنْ خالف ما جاء به محمد ﷺ، فهو لإبراهيمَ مخالفٌ. وذلك أن الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أنه اصطفاه لخُلته، وجَعله للناسِ إماماً، وأخبر أنَّ دينه كانَ الحنيفيّة المسلمة. ففي ذلك أوضحُ البيان من الله تعالى ذِكْرُه عن أنَّ مَنْ خالفه فهو لله عدوٌّ، لمخالفته الإمامَ الذي نَصبَهُ اللهُ لعباده.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ١٣٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وإنه في الآخرةِ لَمِنَ الصالحين»، وإن إبراهيم في الدار الآخرة لمن الصالحين.

و«الصالح» من بني آدم: هو المُؤَدِّي حُقُوقَ الله عليه.

فأخبر تعالى ذِكْرُه عَنْ إبراهيمَ خليله، أنه في الدنيا صَفيٌّ، وفي الآخرة وليٌّ، وأنه واردٌ مواردَ أوليائهِ الموفِّين بعهده.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ١٣١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إِذْ قال له ربه أسلم»، إذ قال له ربه: أَخْلِصْ لي العبادةَ، واخضعْ لي بالطاعة. وقد دللنا فيما مضى على معنى «الإسلام» في كلام العرب، فأغنى عن إعادته.

وأما معنى قوله: «قالَ أسلمتُ لرَبِّ العالمين»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه، قال إبراهيم مجيباً لربه: خضعتُ بالطاعَة، وأخلصتُ العبادة، لمالك جميع الخلائق ومُدَبِّرها دون غيره.

فإنْ قال قائل: قد علمتَ أنَّ «إذْ» وقتٌ، فما الذي وُقِّت به؟ وما الذي هو له صلة؟

قيل: هو صلة لقوله: «ولقد اصطفيناهُ في الدنيا». وتأويل الكلام: ولقد اصطفيناهُ في الدنيا، حين قال له رَبُّهُ: أسْلِمْ. قال: أسلمتُ لرب العالمين. وإنما معنى الكلام: ولقد اصطفيناه: في الدنيا حين قلنا له: أسلم. قال: أسلمتُ لرب العالمين. فأظهر اسم «الله» في قوله: «إذ قَال له ربه أسلم»، على وجهِ الخبرِ عن غائبٍ، وقد جرى ذِكْرُه قَبْلُ على وجه الخبر عن نفسه.

فإن قال لنا قائل: وهل دعا الله إبراهيم إلى الإسلام؟

قيل له: نعم، قد دَعاهُ إليه.

فإن قال: وفي أيِّ حالٍ دعاه إليه؟

قيل حين قال: ﴿يَا قَوْمِ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* إنِّي وَجَّهْتُ وجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفاً ومَا أَنَا مِنَ المُشْرِكينَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]، وذلك هو الوقتُ الذي قال له ربه: أسْلِمْ ـ من بعد ما امتحنه بالكوكب والقمر والشمس.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ووصَّى بها»، ووصى بهذه الكلمة. عَنى بـ«الكلمة» قوله: «أسلمتُ لرَبِّ العالمين»، وهي «الإسلامُ» الذي أمر به نبيه ﷺ، وهو إخلاصُ العبادةِ والتوحيدِ لله، وخضوع القلبِ والجوارحِ له.

ويعني بقوله: «ووصَّى بها إبراهيمُ بَنيه»، عَهِدَ إليهم بذلك وأمرهم به.

وأما قوله: و«يعقوب»، فإنه يعني: ووصى بذلك أيضاً يعقوبُ بَنيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنّ الله اصطفى لكم الدين»، إنَّ الله اختارَ لكم هذا الدين الذي عَهِدَ إليكم فيه، واجتباهُ لكم.

وإنما أدخل «الألف واللام» في «الدين»، لأن الذين خُوطِبُوا من ولَدهما وبَنِيهما بذلك، كانوا قد عرفوه بوصيَّتهما إياهُم به، وعَهدهما إليهم فيه، ثم قالا لهم ـ بعد أن عَرّفاهُمُوه ـ إنَّ الله اصطفى لكم هذا الدين الذي قد عهدَ إليكُم فيه، فاتقوا الله أنْ تَمُوتُوا إلاّ وأنتم عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾

إنْ قال لنا قائل: أَوَ إلى بني آدمَ الموت والحياةُ، فيُنْهَى أحدُهم أنْ يموتَ إلاّ على حالةٍ دون حالة؟

قيل له: إنَّ معنى ذلك على غير الوجه الذي ظَنَنْتَ. وإنما معنى: «فلاَ تَمُوتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون»، أي: فلا تُفارِقُوا هذا الدين ـ وهو الإسلام ـ أيامَ حياتكم. وذلك أنَّ أحداً لا يدري مَتى تأتيه منيَّتُه، فلذلك قالا لهم: «فلا تَموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون»، لأنكم لا تدرون متى تأتيكم مَناياكم من ليلٍ أو نهارٍ، فلا تفـارقـوا الإسلام، فتأتيكم منايَاكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم رَبُّكم، فتموتوا ورَبُّكم ساخطٌ عليكم، فتهلكوا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أمْ كنتم شُهداء»، أكنتم. ولكنه استفهم بـ «أم»، إذْ كان استفهاماً مستأنَفاً على كلامٍ قد سبقه، كما قيل: ﴿الٓمٓ* تَنْزِيلُ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ* أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ﴾ [السجدة: ١-٣]، وكذلك تفعل العرب في كل استفهام لبتدأته بعذ كلامٍ قد سبقه، تستفهم فيه بـ «أم».

«والشهداء» جَمْعُ «شهيد»، كما «الشركاءُ» جمع «شريك» و«الخصماءُ» جمع «خَصيم».

وتأويل الكلام: أكنتم - يا معشرَ اليهود والنصارى، المُكَذِّبينَ بمحمدٍ ﷺ، الجاحدينَ نبوَّتَهُ - حُضورَ يعقوبَ وشُهودَهُ إذْ حَضَرَهُ الموتُ. أي أنكم لم تحضـروا ذلك، فلا تَدَّعُوا على أنبيائي ورسلي الأباطيلَ، وتَنحلوهم اليهوديةَ والنصرانية، فإني ابتعثتُ خَليلي إبراهيمَ - وولدَهُ إسحاقَ وإسماعيلَ وذريتهم - بالحنيفيةِ المسلمةِ، وبذلك وصَّوْا بَنِيهم، وبه عَهِدُوا إلى أولادِهم من بَعدهم. فلو حَضَرْتُموهم فسمعتم منهم، علمتم أنَّهم على غيرِ ما نَحَلْتُموهم من الأديانِ والمِللِ من بعدهم.

وهذه آياتٌ نزلتْ، تكذيباً من الله تعالى لليهودِ والنصارى في دعواهم في إبراهيم وولده يعقوب: أنَّهم كانوا على مِلَّتهم، فقال لهم في هذه الآية: «أَمْ كُنتم شُهداءَ إذْ حضرَ يعقوبَ الموت»، فتعلموا ما قَال لولدِهِ وقالَ له وَلَدُه؟ ثم أعْلَمَهُم ما قالَ لهم وما قالوا لَه.

القول في تأويل قوله تعالى: إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إذْ قال لبنيه»، إذ قال يعقوبُ لبنيه.

و«إذْ» هذه مُكَــرَّرةٌ إبـدالاً من «إذْ» الأولى، بمعنى: أم كنتم شُهـداءَ يعقوبَ، إذ قال يعقوبُ لبنيه حين حضورِ موتِهِ.

ويعني بقوله: «مَا تَعبُدونَ من بَعدي» ـ أيَّ شيء تعبدون، «من بعدي»؟ أي مِنْ بَعدِ وَفاتي؟ قالوا: «نَعبدُ إلهك»، يعني به: قال بَنُوهُ له: نَعبدُ مَعبودَكَ الـذي تعبده، ومعبودَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ، «إلهاً واحداً» أي: نُخْلِصُ له العبادةَ، ونوحِّد له الربوبية، فلا نُشرك به شيئاً، ولا نتخذ دونه ربّاً.

ويعني بقوله: «ونحن له مسلمون»، ونحن له خاضعون بالعبودية والطاعة.

ويحتمـل قوله: «ونحن له مسلمون»، أنْ تكونَ بمعنى الحال، كأنهم قالـوا: نعبد إلهكَ مُسلمين له بطاعتنا وعبادتنا إياه. ويحتمل أنْ يكون خبراً مستأنفاً، فيكون بمعنى: نعبدُ إلهكَ بعدَك، ونحنُ له الآن وفي كُلِّ حالٍ مسلمون.

وأحسن هذين الوجهين ـ في تأويل ذلك ـ أنْ يكونَ بمعنى الحال، وأن يكون بمعنى: نعبدُ إلهكَ وإلهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ، مسلمين لعبادته.

وقيل: إنما قَدَّم ذِكْرَ إسماعيلَ على إسحاق، لأنَّ إسماعيلَ كان أَسَنَّ من إسحاق.

القـول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٣٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «تلكَ أمَّة قد خَلتْ»، إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ ووَلَدَهم.

يقول لليهود والنصارى: يا معشرَ اليهود والنصارى، دَعُو ذِكْرَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويَعقوبَ والمسلمينَ من أولادِهم بغير ما هم أهلُه، ولا تنحَلُوهم كفرَ اليهوديةِ والنصرانيةِ، فتضيفونها إليهم، فإنهم أمَّةٌ - ويعني: بـ «الأمة» في هذا الموضع: الجماعةَ والقرنَ من الناس - قد خَلتْ: مضَتْ لسبيلها.

وإنما قيل للذي قد مات فذهب: «قد خلا»، لتخلِّيه من الدنيا وانفراده، عَمَّا كان من الأُنْسِ بأهلِهِ وقرنائِهِ في دُنياه.

وأصله من قولهم: «خَلَا الرجل»، إذ صارَ بالمكان الذي لا أنيسَ له فيه، وانفردَ من الناس. فاستعمل ذلك في الذي يموت، على ذلك الوجه.

ثم قال تعالى ذِكْرُه لليهود والنصارى: إنَّ لِمَنْ نَحلتموهُ - ضلالَكُمْ وكفرَكُمْ الذي أنتم عليه - من أنبيائي ورُسلي، ما كسب.

و«الهاء والألف» في قوله: «لها»، عائدة إن شئت على «تلك»، وإن شئت على «الأمة».

ويعني بقوله: «لها ما كسبت»، أي ما عَمِلَتْ من خيرٍ، ولكم يا معشرَ اليهود والنصارى مثلَ ذلك مَا عملتم، ولا تؤاخَذون أنتم - أيها النَّاحِلُونَ ما نحلتموهم من المِللِ - فتسألوا عما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبُ وَوَلدهم يعملون. فيكسبون من خيرٍ وشر، لأنَّ لِكُلِّ نفسٍ ما كَسَبَتْ وعليها ما اكتسبت. فدَعُوا انتحالَهُم وانتحالَ مِلَلِهم، فإنَّ الدعاوَى غير مُغْنِيَتِكُم عند الله، وإنما يُغني عنكم عنده ما سَلَفَ لكم من صالحِ أعمالكم، إنْ كنتم عملتموها وقدَّمتموها.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ۗ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وقالوا كونُوا هوداً أو نصارى تَهتدوا»، وقالت اليهودُ لمحمدٍ ﷺ وأصحابه من المؤمنين: كونوا هُوداً تَهتدوا؛ وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى تهتدوا.

تعني بقولها: «تهتدوا»، أي تُصِيبُوا طَريقَ الحق.

احتج الله لنبيه ﷺ أبلغَ حجة وأوجزَها وأكملها، وعلَّمها محمداً نبيه ﷺ فقال: يا محمد، قُلْ ـ للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك: «كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا» ـ: بل تعالوا نتَّبع مِلَّةَ إبراهيمَ التي يُجمِعُ جميعُنَا على الشهادةِ لها بأنها دِينُ الله الذي ارتضاه واجتباه وأَمَرَ به ـ فإنَّ دينه كان الحنيفية المسلمة ـ ونَدَعْ سائرَ المِلَلِ التي نختلفُ فيها، فينكرها بعضنا، ويُقِرُّ بها بعضُنا. فإنَّ ذلك ـ على اختلافهِ ـ لا سبيلَ لنا على الإجماعِ عليه، كما لنا السبيلُ إلى الاجتماع على ملةِ إبراهيم.

وفي نصب قوله: «بَلْ ملة إبراهيم» أوجه ثلاثة:

**أحدهـا**: أنْ يوجّـه معنى قوله: «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى»، إلى معنى: وقـالـوا اتَّبِعُـوا اليهـوديةَ والنصـرانية. لأنهم إذ قالـوا: «كونوا هوداً أو نَصَـارى»، إلى اليهـودية والنصـرانية دَعَـوْهُمْ، ثم يُعطف على ذلك المعنى بالملة. فيكون معنى الكلام حينئذ: قُلْ يا محمد، لا نتبعُ اليهوديةَ والنصرانية، ولا نَتخذها مِلَّةً، بل نتبع ملةَ إبراهيم حنيفاً، ثم يحذف «نتبع» الثانية، ويعطف بـ «الملة» على إعراب اليهودية والنصرانية.

**والآخر**: أن يكون نصبه بفعل مضمر بمعنى «نتبع».

**والثالث**: أن يكون أريد: بل نَكون أصحابَ ملة إبراهيم، أو أهلَ ملة

إبراهيم. ثم حذف «الأهل» و«الأصحاب»، وأقيمت «الملة» مقامهم، إذ كانت مؤدية عن معنى الكلام.

وقد يجوز أن يكون منصوباً على وجه الإغراءِ باتِّباع ملةِ إبراهيم.

وقرأ بعض القُرَّاء ذلك رفعاً. فتأويله ـ على قراءة مَنْ قرأ رفعاً: بل الهُدى ملة إبراهيم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٥﴾

و«الملة»، الدِّينُ.

وأما «الحنيف»، فإنه المستقيمُ من كل شيء.

فمعنى الكلام إذاً: قُلْ يا محمد، بل نَتَّبِعُ مِلَّةَ إبراهيمَ مستقيماً.

فإنْ قال قائل: أوَ ما كان مَنْ كانَ من قبل إبراهيم ﷺ، من الأنبياء وأتباعهم، مستقيمينَ على ما أُمِرُوا به من طاعةِ الله استقامةَ إبراهيم وأتباعه؟

قيل: بَلى.

فإن قال: فكيف أضيف «الحنيفية» إلى إبراهيم وأتباعه على ملته خاصةً، دون سائر الأنبياء قبله وأتباعهم؟

قيل: إنَّ كُلَّ مَنْ كان قبل إبراهيمَ من الأنبياء كان حنيفاً مُتَّبِعاً طاعةَ الله، ولكن الله تعالى ذِكْرُه لم يجعل أحداً منهم إماماً لِمَنْ بَعْدَهُ من عباده إلى قيام الساعة، كالذي فعل من ذلك بإبراهيمَ، فجعله إماماً فيما بَيَّنَهُ من مناسكِ الحجِّ والختان، وغير ذلك من شرائع الإسلام، تَعَبُّداً به أبداً إلى قيام الساعة. وجعل ما سَنَّ من ذلك عَلَماً مميِّزاً بين مؤمني عبادِه وكُفَّارِهم، والمطيع منهم

له والعاصي. فسمِّيَ الحنيفُ من الناس «حنيفاً» باتباعِهِ ملتهُ، واستقامته على هَدْيِه ومنهاجِه، وسُمِّي الضالُّ عن ملته بسائرِ أسماءِ المِلل، فقيل: «يهوديٌّ، ونصرانيٌّ، ومجوسيٌّ»، وغير ذلك من صنوف الملل.

وأما قوله: و«ما كانَ مِن المشركين»، يقول: إنه لم يكن مِمَّنْ يَدِينُ بعبادةِ الأوثان والأصنام، ولا كانَ من اليهودِ ولا النصارى، بل كان حَنيفاً مُسلماً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: «قولوا» - أيها المؤمنون، لهؤلاء اليهودِ والنصارَى، الذين قالوا لكم: «كونوا هُوداً أو نصارى تَهتدوا» -: «آمنا»، أي: صدَّقنا «بالله».

وقد دللنا فيما مضى أنَّ معنى «الإيمان»، التصديقُ، بما أغنى عن إعادته.

«وما أنزل إلينا»، يقول أيضاً: صَدَّقْنَا بالكتابِ الذي أنزل الله إلى نبيِّنا محمد ﷺ. فأضاف الخطابَ بالتنزيلِ إليهم، إذ كانوا مُتَّبعيه، ومأمورينَ مَنْهيينَ به. فكان - وإنْ كان تنزيلاً إلى رسول الله ﷺ - بمعنى التنزيلِ إليهم، للذي لهم فيه من المعاني التي وصفت.

ويعني بقوله: «ومَا أُنْزِلَ إلى إبراهيم»، صدَّقنا أيضاً وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم «وإسماعيل وإسحاق ويَعقوبَ والأسباط»، وهم الأنبياء من ولد يَعقوب.

وقوله: «وَما أُوتيَ مُوسَى وعيسى»، يعني: وآمنا أيضاً بالتوراة التي آتاها الله موسى، وبالإنجيل الذي آتاهُ الله عيسى، والكُتُبَ التي آتى النبيينَ كُلَّهم، وأقْرَرْنَا وصَدَّقنا أنَّ ذلك كله حَقٌّ وهُدى ونور من عند الله، وأنَّ جَميعَ مَنْ ذَكَرَ الله من أنبيائه كانوا على حَقٍّ وهدى، يُصَدِّق بعضُهم بعضاً، على منهاجٍ واحدٍ في الدعاء إلى توحيدِ الله، والعملِ بطاعته، «لَا نُفَرِّق بَينَ أحد منهم»، يقول: لا نؤمنُ ببعضِ الأنبياء ونكفـرُ ببعضٍ، ونتبرأ من بعضٍ ونتولى بعضاً، كما تبرأت اليهودُ من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرَّت بغيرهما من الأنبياء، وكما تبرأتِ النصارَى من محمد ﷺ وأقرَّت بغيرهِ من الأنبياءِ، بل نشهدُ لجميعِهم أنَّهم كانوا رُسُلَ الله وأنبياءَه، بُعِثُوا بالحق والهدى.

وأمـا قولـه: «ونحنُ لَهُ مُسلمـون»، فإنـه يعني تعـالى ذكره: ونحنُ له خاضعون بالطاعة، مُذْعِنُونَ له بالعبودية.

وأما «الأسباط» الذين ذكرهم، فهم اثنا عشر رَجلاً من ولَدِ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وَلَد كُلُّ رجلٍ منهم أُمَّةً من الناس، فَسُمُّوا «أسباطاً».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به» فإنْ صَدَّقَ اليهودُ والنصـارَى بالله، ومَا أنزل إليكم، وما أنزل إلى إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباط ومَا أُوتيَ مُوسى وعيسى، وما أُوتيَ النبيون من ربهم وأقَرُّوا بذلـك، مِثْلَ مَا صدَّقْتُم أنتم به أيُّها المؤمنون وأقررتم، فقد وُفِّقُوا ورَشِدُوا، ولَزِمُوا طريقَ الحق، واهتدوا، وهـم حينئذٍ منكم وأنتم منهم، بدخولهم في مِلَّتكم بإقرارهم بذلك.

فَدَلَّ تعالى ذِكْرُه بهذه الآية، على أنه لم يَقْبَلْ من أحدٍ عَملاً إلاَّ بالإيمانِ بهذه المعاني التي عَدَّها قَبْلَها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وإن تَوَلَّوْا»، وإن تولى - هؤلاء الذين قالوا لمحمد ﷺ وأصحابه: «كونوا هوداً أو نصارَى» - فأعْرَضُوا، - فلم يؤمنوا بمِثْلِ إيمانكم أيُّها المؤمنونَ بالله، وبما جاءت به الأنبياءُ وابتُعِثت به الرُّسُلُ، وفرَّقوا بين رُسُلِ الله وبين الله ورسله، فَصَدَّقُوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ - فاعلموا، أيها المؤمنون، أنهم إنما هُمْ في عصيانٍ وفِرَاقٍ وحَربٍ للهِ ولرسولهِ ولكم.

وأصلُ «الشقاق» عندنا، واللهُ أعلم، مأخوذٌ من قولِ القائل: «شَقَّ عليه هذا الأمر» إذا كَرَبَهُ وآذاه. ثم قيل: «شاقَّ فلانٌ فلاناً»، بمعنى: نالَ كُلُّ واحدٍ منهما مِنْ صاحبه ما كرَبه وآذاه، وأثقلته مَساءتهُ. ومنه قول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿وإنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥] بمعنى: فراق بَينهما.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٣٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فسيكفيكهمُ الله»، فسيكفيكَ اللهُ يا محمد، هؤلاء الذين قالوا لَكَ ولأصحابك: «كونوا هوداً أو نَصارَى تهتدوا»، من اليهود والنصارى، إنْ هُمْ تَوَلَّوْا عن أنْ يُؤْمِنُوا بِمِثْلِ إيمانِ أصحابك بالله، وبما أنزل إليك، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسائر الأنبياء غيرهم، وفَرَّقُوا بين الله ورُسُله - إما بقتل السيف، وإما بجلاءٍ عن جوارك، وغير ذلك من العقوبات؛ فإن الله هو «السميع» لما يقولون لك بألسنتهم، ويُبْدُونَ لك

بأفواههم، من الجهلِ والدعاء إلى الكفر والملل الضَّالةِ ـ «العليمُ» بما يُبطنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحَسد والبغضاء.

ففعل الله بهم ذلك عَاجلاً، وأنجزَ وَعْدَه، فَكَفَى نبيَّهُ ﷺ بتسليطه إيَّاه عليهم، حتى قَتَلَ بعضهم، وأجلَى بعضاً، وأذلَّ بعضاً وأخزاه بالجزية والصَّغار.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بـ«الصبغة»، صِبْغَةَ الإسلام. وذلك أنَّ النصارى إذا أرادت أنْ تنصِّر أطفالهم، جعلتهم في ماءٍ لهم تزعمُ أنَّ ذلك لها تقديسٌ، بمنزلةِ غُسْلِ الجنابةِ لأهلِ الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية.

فقال الله تعالى ذِكْرُه ـ إذ قالوا لنبيه محمد ﷺ وأصحابه المؤمنين به: «كونوا هوداً أو نَصَارَىٰ تَهتدوا» ـ: قل لهم يا محمد: أيها اليهود والنصارى، بل اتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيمَ، صِبْغَةَ الله التي هي أَحْسَنُ الصِّبَغ، فإنها هي الحنيفيةُ المسلمة، ودَعُوا الشِّرْكَ بالله، والضلالَ عن محجَّة هُداه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾

وقوله تعالى ذِكْرُه: «ونَحنُ له عَابدون»، أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه نبيَّه ﷺ أنْ يقولَه لليهود والنصارى، الذين قالوا له ولِمَنْ تَبِعَهُ من أصحابه: «كونوا هوداً أو نَصارَى». فقال لنبيه محمد ﷺ: قُلْ: بل نتبعُ ملةَ إبراهيمَ حنيفاً، صبغةَ الله، ونحنُ له عابدون. يعني: ملة الخاضعين لله، المستكينين له، في اتِّباعنا ملةَ إبراهيم ودَيْنُونتنا له بذلك، غير مستكبرينَ في اتباع أمرِه، والإقرار برسالته

رُسُلَهُ، كما استكبرت اليهودُ والنصارَى، فكفروا بمحمد ﷺ استكباراً وبغياً وحسداً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «قُلْ أَتُحاجُّونَنا فِي اللهِ»، قل يا محمد ـ لمعاشرِ اليهود والنصارى، الذين قالوا لكَ ولأصحابك: «كونوا هُوداً أو نَصارَى تَهتدوا»، وزعموا أن دينهم خيرٌ من دينكم، وكتابهم خيرٌ من كتابكم، لأنه كان قبلَ كتابكم، وزعموا أنهم من أجل ذلك أولى بالله منكم ـ: «أتحاجوننا في الله وهو رَبُّنا وربكم»، بيدهِ الخيرات، وإليه الثوابُ والعقابُ، والجزاءُ على الأعمال ـ الحسنات منها والسيئات، فتزعمون أنكم بالله أَوْلى منا، من أجلِ أنَّ نبيكم قَبْلَ نَبِيِّنا، وكتابكم قبل كتابنا، وربكم وربنا واحدٌ، وأنَّ لكلٍّ فريقٍ منا ما عمل واكتسب من صالحِ الأعمالِ وسَيِّئها، يجازى عليها فيثابُ أو يعاقبُ، ـ لا على الأنساب وقِدَمِ الدِّينْ والكتاب.

ويعني بقوله: «قُلْ أتحاجوننا»، قل: أَتُخاصموننا وتجادلوننا؟

فأما قوله: «ونحن لهُ مُخْلِصُون»، فإنه يعني: ونحنُ لله مخلصو العبادةِ والطاعة، لا نشرك به شيئاً، ولا نعبد غيره أحداً، كما عَبَدَ أهلُ الأوثان معه الأوثانَ، وأصحابُ العِجل معه العجلَ.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُه توبيخٌ لليهود، واحتجاجٌ لأهل الإيمان، بقوله تعالى ذِكْرُه للمؤمنين من أصحابِ محمد ﷺ: قولوا ـ أيها المؤمنون، لليهود والنصارى الذين قالوا لكم: «كونوا هوداً أو نصارَى تهتدوا» ـ: «أتحاجوننا في الله»؟ يعني بقوله: «في الله»، في دِينِ الله الذي أمرنا أنْ ندينه به، وربنا وربكم

واحد عَدْلٌ لا يجور، وإنما يجازي العباد على ما اكتسبوا. وتزعمون أنكم أولى بالله منا، لِقِدَم دينكم وكتابكم ونبيكم، ونحن مخلصون له العبادة، لم نشرك به شيئاً، وقد أشركتم في عبادتكم إياه، فَعَبَدَ بعضُكم العجلَ، وبعضُكم المسيحَ، فأنَّى تكونون خيراً منا، وأوْلى بالله منا؟

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ﴾

بمعنى: أي هذين الأمرين تفعلون؟ أتجادلوننا في دِينِ الله، فتزعمونَ أنكم أوْلى منا وأهدى منا سبيلاً ـ وأمرنا وأمركم ما وصفنا، على ما قد بَيَّناهُ آنفاً ـ أم تزعمون أنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومن سمى الله، كانوا هوداً أو نصارى على مِلَّتكم، فيصبح للناس بَهْتُكُمْ وكَذِبكُم، لأنَّ اليهودية والنصرانية حَدَثَتْ بعد هؤلاء الذين سماهم الله من أنبيائه.

وهذه الآية أيضاً احتجاجٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ على اليهود والنصارى، الذين ذَكَرَ اللهُ قَصَصهم. يقول الله لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد ـ لهؤلاء اليهود والنصارى ـ: أتحاجُّونَنا في الله، وتزعمونَ أنَّ دينكم أفضل من ديننا، وأنكم على هُدى ونحن على ضلالةٍ، ببرهانٍ من الله تعالى ذكره، فتدعوننا إلى دينكم؟ فهاتوا برهانكم على ذلك فنتبعكم عليه، أم تقولون: إنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هُوداً أو نصارى على دينكم؟ فهاتوا ـ على دَعْواكُم ما ادَّعَيْتُم من ذلك ـ برهاناً، فنصدقكم، فإنَّ الله قد جعلهم أئمةً يُقْتَدى بهم.

ثم قال تعالى ذِكْرُه لنبيِّهِ ﷺ: قُل لهم يا محمد - إن ادَّعوا أنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ كانوا هوداً أو نصَارَى: أأنتم أعْلَمُ بهم وبِمَا كانُوا عليه من الأديان، أم الله؟

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾

يعني: فإنْ زَعمتْ يا محمــدُ اليهــودُ والنصَــارى - الـذين قالوا لكَ ولأصحابِكَ: «كُونُوا هوداً أو نصارى» أنَّ إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، فمن أظلَمُ منهم؟ يقول: وأيُّ امرئٍ أظلَمُ منهم؟ وقد كَتَمُوا شهادةً عندهم من الله بأنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مسلمين، فكتموا ذلك، ونحلُوهم اليهوديةَ والنصرانية.

وإنما عنى تعالى ذِكْرُه بذلك أنَّ اليهود والنصارَى، إنِ ادَّعوْا أنَّ إبراهيم ومن سُمِّي مَعه في هذه الآية، كانوا هُوداً أو نصارى، تبيَّنَ لأهل الشركِ الذين هم نُصراؤُهم، كَذِبُهم وادِّعَاؤُهم على أنبياءِ الله الباطلَ - لأنَّ اليهوديةَ والنصرانية حدثتْ بعدَهم - وإنْ هُم نَفوْا عنهم اليهوديةَ والنصرانية، قيل لهم: فَهَلمُّوا إلى ما كانوا عليه من الدِّينِ، فإنا وأنتم مُقِرُّونَ جميعاً بأنهم كانوا على حَقٍّ، ونحن مختلفون فيما خالف الدِّينَ الذي كانوا عليه.

فإن قال قائل: وأية شهادةٍ عندَ اليهودِ والنصارى من الله في أمرِ إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباط؟

قيل: الشهادةُ التي عندهم من الله في أمرهم، ما أنزل الله إليهم في التوراةِ والإنجيل، وأمرُهم فيهما بالاستنانِ بسُنَّتهم واتباعِ ملتهم، وأنهم كانوا حنفاء مسلمين. وهي الشهادةُ التي عندهم من الله التي كَتَمُوها، حين دَعَاهم

نبيُّ الله ﷺ إلى الإسلامِ، فقالوا له: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، وقالوا له ولأصحابه: «كُونوا هوداً أو نصارى تَهْتَدُوا»، فأنزلَ الله فيهم هذه الآيات، في تكذِيبهم، وكتمانِهم الحق، وافترائِهم على أنبياء الله الباطلَ والزُّورَ.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وقُلْ ـ لهؤلاء اليهود والنصارَى، الذين يحاجُّونك يا محمد ـ: «وما الله بغافلٍ عما تعملون»، من كتمانِكم الحَقَّ فيما ألزَمكم في كتابِه بيانَهُ للناسِ من أمرِ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوبَ والأسباطِ في أمرِ الإسلام، وأنهم كانوا مُسلمين، وأنَّ الحنيفية المسلمة دينُ الله الذي على جميع الخَلْقِ الدينُونةُ به، دون اليهودية والنصرانية وغيرهما من المللَ ـ ولا هُو سَاهٍ عن عقابِكم على فِعْلِكم ذلك، بل هو مُحْصٍ عليكم حتى يُجازيكم به من الجزاء ما أنتمْ له أهلٌ في عاجلِ الدنيا وآجلِ الآخرة. فجازاهم عاجلاً في الدنيا، بقتلِ بعضِهم وإجلائِه عن وطنه وداره، وهو مُجازيهم في الآخرة العذابَ المهين.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١﴾ ۞

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «تلك أمة»، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ.

وقد بَيَّنا فيما مضى أنَّ «الأمة»، الجماعة.

فمعنى الآية إذاً: قلْ يا محمـد ـ لهؤلاء الذين يُجادلونَكَ في الله من اليهودِ والنصارى، إنْ كَتَمُوا ما عندَهم من الشهادة في أمر إبراهيم ومن سَمَّينا مَعه، وأنهم كانوا مسلمين، وزعموا أنهم كانوا هوداً أو نصارى فكذبوا ـ: إنَّ إبـراهيم وإسمـاعيل وإسحـاق ويعقوبَ والأسباط أمَّةٌ قد خَلتْ أي: مَضتْ لسبيلها ـ فصارتْ إلى رَبِّها، وخَلتْ بأعمالها وآمالها، لها عند الله ما كَسَبَتْ من خيرٍ في أيامِ حياتِها، وعليها ما اكتسبتْ من شر، لا ينفعها غيرُ صالح أعمالها، ولا يضرها إلّا سيِّئها. فاعلموا أيها اليهود والنصارى ذلك، فإنكم، إنْ كان هؤلاء ـ وهم الذين بهم تَفتخرون، وتزعمون أنَّ بهم تَرْجُونَ النجاةَ من عذابِ ربكم، مع سيئاتِكم وعظيمِ خطيئاتكم ـ لَا ينفعهم عند الله غيرُ ما قدَّموا من صالح الأعمال، ولا يضرهم غير سَيِّئها، فأنتم كذلك أحرَى أنْ لا ينفعكم عند الله غير ما قَدَّمْتُم من صالـح الأعمالِ، ولا يضرُّكم غير سَيِّئها فاحذروا على أنفسِكم، وبادروا خروجَها بالتوبةِ والإنابةِ إلى الله مما أنتمْ عليه من الكفرِ والضلالةِ والفِرْيةِ على الله وعلى أنبيائه ورُسُله، ودَعُوا الاتِّكالَ على فَضَائلِ الآباءِ والأجدادِ، فإنمـا لكم ما كسبتم، وعليكم ما اكتسبتم، ولا تُسـألـون عمـا كان إبراهيمُ وإسمـاعيلُ وإسحاق ويعقوبُ والأسباط يَعملون من الأعمال، لأنَّ كل نَفْسٍ قَدِمت على الله يوم القيامة، فإنما تُسألُ عَمَّا كسبتْ وأسلفتْ، دونَ ما أسلفَ غيرُها.

القول في تأويل قوله تعالى: سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «سيقول السفهاء»، سيقول الجُهَّالُ «مِنَ الناس»، وهم اليهودُ وأهلُ النفاق.

وإنمـا سَمَّاهم الله عَزَّ وجل «سُفهاء»، لأنهم سَفِهوا الحق. فتجاهلت

أحبارُ اليهود، وتعاظمت جُهَّالُهم وأهلُ الغباء منهم، عن اتِّباعِ محمدٍ ﷺ، إذْ كان من العربِ ولم يكن من بني إسرائيل، وتَحيَّرَ المنافقون فتبلَّدوا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ما ولَّاهم»: أيُّ شيء صَرَفَهُم عن قِبْلَتِهم؟ وهو من قول القائل: «ولّاني فلان دُبُرَهُ»، إذا حَوَّلَ وَجْهَهُ عنه واستدبره فكذلك قوله: «ما ولّاهم»؟ أيّ شيء حَوَّل وجُوههم؟

وأما قوله: «عن قبلتهم»، فإنَّ «قبلة» كل شيء ما قابلَ وجهه.

فتأويلُ الكلام إذاً - إذ كان ذلك معناه -: سيقولُ السفهاء من الناس لكم، أيها المؤمنون بالله ورسوله، إذا حَوَّلْتُمْ وجوهكم عَن قبلة اليهودِ التي كانتْ لكم قِبلةً، قَبْلَ أمري إياكم بتحويلِ وجوهِكُم عنها شَطْرَ المسجد الحرام -: أيّ شيء حَوَّلَ وجُوه هؤلاء، فصَرَفَها عن الموضع الذي كانوا يستقبلونه بوجوههم في صلاتهم؟

فأعلم الله جَلَّ ثناؤه نبيَّه ﷺ، مَا اليهودُ والمنافقون قائلون من القولِ عند تحويلِ قبلتهِ وقبلةِ أصحابهِ عن الشام إلى المسجد الحرام، وعَلَّمَهُ ما ينبغي أنْ يكونَ من رَدِّهِ عليهم من الجواب. فقال له: إذا قالوا ذلك لكَ يا محمدُ، فَقُلْ لهم: «للهِ المشرقُ والمغرب يَهدي مَنْ يَشاء إلى صرَاط مستقيم».

وكان سببُ ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ صلّى نحو بيتِ المقدس مُدّةً سنذكر مَبْلَغها فيما بَعْدُ إنْ شاء الله تعالى، ثم أراد الله تعالى صَرْفَ قبلة نبيِّه ﷺ إلى المسجدِ الحرام. فأخبره عما اليهودُ قائِلُوهُ من القولِ عند صَرْفِه وَجْهَهُ ووجهَ أصحابهِ شطرَهُ، وما الذي ينبغي أنْ يكون مِنْ ردِّهِ عليهم من الجواب.

عن البراء بن عازب: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان أوَّلَ ما قَدِمَ المدينةَ، نزلَ على أجدادِه - أو أخواله - من الأنصار، وأنه صَلَّى قِبَلَ بيتِ المقدس ستةَ عشر شهراً، وكان يعجبه أنْ تكونَ قبلته قِبَلَ البيت، وأنه صلى صلاة العصر ومعه قومٌ، فخرج رجلٌ ممن صلَّى معه، فَمرَّ على أهل المسجد وهم رُكوع فقال: أشهدُ لقد صلَّيتُ مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكةَ. فداروا كماهُمْ قِبَلَ البيتِ. وكانَ يُعجبه أن يحوَّل قِبَلَ البيت، وكان اليهودُ أعجبهم أنَّ رسولَ الله ﷺ يُصَلِّي قِبَلَ بيت المقدس وأهلُ الكتاب، فلما ولَّى وجْهه قِبَلَ البيتِ أنكروُا ذلك[1].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

يعني بذلك عَزَّ وجل: قُلْ يا محمد - لهؤلاء الذين قالوا لكَ ولأصحابك: ما ولَّاكُم عن قِبْلَتِكُمْ من بيتِ المقدس، التي كنتم على التوجُّه إليها إلى التوجُّه إلى شطرِ المسجدِ الحرام؟-: لله مُلك المشرق والمغرب - يعني بذلك: ملكُ ما بين قُطرَيْ مَشرقِ الشمسِ وقُطرَيْ مغربها، وما بينهما من العالم - يَهدي مَنْ يشاء من خَلْقِه، فيُسدده ويوفِّقه إلى الطريق القويم، وهو «الصراط المستقيم» - ويعني بذلك: إلى قِبْلَةِ إبراهيمَ الذي جعله للناسِ إماماً - ويخذُل مَنْ يشاء منهم، فيضلُّه عن سبيل الحق.

وإنّما عنى جَلَّ ثناؤه بقوله: «يَهدي من يَشاء إلى صراط مُستقيم»، قُلْ يا محمد: إنّ الله هَدانا بالتوجُّه شطرَ المسجد الحرام لقبلة إبراهيم، وأضلَّكم - أيها اليهودُ والمنافقون وجماعةُ الشرك بالله - فخذلكم عما هَدَانا لهُ من ذلك.

---

(١) حديث البراء أخرجه الإمام أحمد ٤/٢٨٣ و٤/٣٠٤، والبخاري ١/١٦، و٦/٢٥ و١/١١٠، ومسلم (٥٢٥)، والنسائي ١/٢٤٣ و٢/٦٠، وابن خزيمة ٤٣٧.

البقرة: ١٤٣

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وكذلك جَعلناكم أمة وسطاً»، كما هديناكم أيُّها المؤمنون بمحمدٍ عليه السلام وبما جاءكم به من عندِ الله، فَخَصَصْناكم بالتوفيقِ لقِبلة إبراهيمَ ومِلَّتِهِ، وفَضَّلْنَاكُمْ بذلك على مَنْ سِواكم من أهلِ الملل، كذلك خصصناكم ففضَّلناكم على غيركم من أهل الأديان، بأنْ جعلناكم أمة وسطاً.

وقد بَيَّنا أنَّ «الأمة»، هي القرن من الناس والصِّنف منهم وغَيرهم.

وأما «الوسَط»، فإنه في كلام العرب الخيارُ. يقال منه: «فلان وَسَطُ الحسب في قومه»، أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه، و«هو وَسَطٌ في قومه، وواسطٌ»، كما يقال: «شاة يابسةُ اللبن ويَبَسةُ اللبن»، وكما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾ [طه: ٧٧].

وأنا أرى أنَّ «الوسَط» في هذا الموضع، هو «الوسط» الذي بمعنى: الجزءُ الذي هو بين الطرفين، مثل «وسَط الدار» محرَّك الوسَط مُثَقَّله، غيرَ جائز في «سينه» التخفيف.

وأرى أنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما وصفهم بأنهم «وسَط»، لتوسطهم في الدين، فلا هُمْ أهلُ غُلوٍّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالتَّرهُّبِ، وقِيلهم في عيسى ما قالوا فيه ـ ولا هُم أهلُ تقصيرٍ فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهلُ تَوَسُّطٍ واعتدالٍ فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمورِ إلى الله أوْسطها.

وأما التأويل، فإنه جاء بأن «الوسط» العدلُ. وذلك معنى الخيار، لأن الخيارَ من الناس عُدولهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

«والشهداء» جمع «شهيد».

فمعنى ذلك: وكذلك جَعلناكم أمَّة وسَطاً عُدولاً، لتكونوا شُهداءَ لأنبيائي ورُسلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بَلَّغَتْ ما أُمِرَتْ ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكونَ رسولي محمدٌ ﷺ شهيداً عليكم، بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي، وعن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: يُدعى بنوحٍ عليه السلام يومَ القيامة فيُقال له: هل بلَّغتَ ما أُرسِلْتَ به؟ فيقول: نعم. فيقال لقومه: هل بَلَّغَكُمْ؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير! فيقال له: مَنْ يعلم ذاك؟ فيقول: محمدٌ وأمته. فهو قوله: «وكذلك جعلناكم أمَّةً وسَطاً لتكونوا شُهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً»[1].

وعن أبي هريرة قال: خرجتُ مع النبي ﷺ في جنازة، فلما صلى على الميت قال الناس: نِعْمَ الرجلُ! فقال النبي ﷺ: وجَبت! ثم خرجت مَعه في جنازةٍ أخرى، فلما صَلُّوا على الميتِ قال الناس: بئس الرجل! فقال النبي ﷺ وجَبت. فقام إليه أبيٌّ بن كعب فقال: يا رسولَ الله، ما قولك وجبت؟ قال: قول الله عَزَّ وجل: «لتكونوا شُهداءَ على الناس»[2].

---

(١) لفظ الطبري، والحديث أخرجه البخاري (٤٤٨٧) وأحمد ٢/٣٢، ٥٨.

(٢) لفظ الطبري، وحديث أبي هريرة أخرجه الإمام أحمد ٢/٥٢٨ وابن ماجة (١٤٩٢) وابن حبان (٣٠٢٤) وهو في الصحيحين البخاري (٢٦٤٢)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وما جَعلنا القبلة التي كنتَ عليها»، ولم نجعل صَرْفك عَن القبلة التي كنتَ على التوجُّهِ إليها يا محمد، فصرفْناك عنها، إلا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُكَ ممن لا يتَّبعك، ممن يَنقلبُ على عقبيه.

والقبلة التي كان رسولُ الله ﷺ عليها، التي عناها الله بقوله: «وما جعلنا القِبلةَ التي كنتَ عليها»، هي القبلةُ التي كنت تتوجَّه إليها قبل أن يصرفك إلى الكعبة.

وإنما ترك ذكر «الصرف عنها»، اكتفاء بدلالة ما قد ذكر من الكلام على معناه، كسائرِ ما قَدْ ذَكَرْنَا فيما مضى من نَظائره.

وإنما قُلنا: ذلك معناه، لأن محنةَ الله أصحابَ رسولهِ في القِبلة، إنما كانت ـ فيما تظاهَرتْ به الأخبارُ ـ عند التحويلِ من بيتِ المقدسِ إلى الكعبة، حتى ارتدَّ ـ فيما ذكر ـ رجالٌ مِمَّنْ كان قد أسلمَ واتَّبع رسولَ الله ﷺ، وأظهرَ كثيرٌ من المنافقين ـ من أجل ذلك ـ نِفَاقَهم، وقالوا: ما بَال مُحمدٍ يُحَوِّلُنا مرةً إلى ههنا ومرة إلى ههنا! وقال المسلمون، فيمن مضى من إخوانهم المسلمين وهم يصلون نحو بيتِ المقدس: بطلت أعمالُنا وأعمالُهم وضاعت! وقال المشركون: تَحَيَّرَ محمدٌ ﷺ في دينه! فكان ذلك فتنةً للناس، وتمحيصاً للمؤمنين.

فلذلك قال جَلَّ ثناؤه: «ومَا جَعلنا القِبلةَ التي كنتَ عليها إلا لنعلمَ مَنْ يتَّبع الرسول ممن ينقلب على عَقبيه»، أي: ومَا جعلنا صَرْفَكَ عن القِبلة التي كنتَ عليها، وتحويلك إلى غيرها، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿ومَا جَعلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، بمعنى: وما جعلنا خَبرَك عن الرؤيا

التي أريناك. وذلك أنه لو لم يكن أخبرَ القومَ بما كان أُري، لم يكن فيه على أحدٍ فتنةٌ. وكذلك القبلة الأولى التي كانت نحو بيت المقدس، لو لم يكن صرفٌ عنا إلى الكعبة، لم يكن فيها على أحد فتنةٌ ولا محْنة.

فإن قال لنا قائل: أوَ مَا كان الله عالماً بِمَنْ يتَّبع الرسولَ مِمَّنْ ينقلب على عقبيه، إلَّا بعد اتباعِ المُتَّبِعِ، وانقلابِ المُنْقَلِبِ على عقبيه، حتى قال: ما فعلنا الذي فعلنا من تحويلِ القِبلة إلا لنعلمَ المتَّبِعَ رسولَ الله ﷺ من المنقلبِ على عقبيه؟

قيل: إنَّ الله جَلَّ ثناؤه هو العالمُ بالأشياء كلها قَبل كونها، وليس قوله: «وما جعلنا القبلةَ التي كنتَ عليها إلا لنعلمَ مَنْ يتَّبع الرسولَ ممن يَنقلب على عَقبيه»، بخبر عن أنه لم يعلم ذلك إلَّا بعد وجُوده.

فإن قال: فما معنىٰ ذلك؟

قيل له: أما معناه عندنا، فإنه: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلَّا ليعلم رَسولي وحزبي وأوليائي مَنْ يتبع الرسولَ مِمَّنْ ينقلب على عَقبيه، فقال جَلَّ ثناؤه: «إلا لنعلم»، ومعناه ليعلمَ رَسولي وأوليائي. إذْ كان رسولُ الله ﷺ وأولياؤهُ من حزبه، وكان من شَأنِ العربِ إضافة ما فعلته أتباعُ الرئيسِ إلى الرئيس، ومَا فعل بهم إليه، نحو قولهم: «فتح عُمر بن الخطاب سَوادَ العراق وجَبى خَرَاجها»، وإنَّما فَعَلَ ذلك أصحابُه، عن سببٍ كان منه في ذلك، وكالذي رُوي في نظيره عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله جَلَّ ثناؤه: مَرِضْتُ فلم يَعُدْني عَبدي، واستقرضته فلم يقرضني، وشتمني ولم يَنبغِ له أن يشتمني[1].

---

(١) أخرجه الطبري بإسنادين صحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٢٢٠٦) و(٢٢٠٧) وهو في مستدرك الحاكم ١/٤١٨ وصححه ووافقه الذهبي. والنهي عن سب الدهر ثابت من أوجهٍ في الصحيحين.

فأضاف تعالى ذِكْرَه الاستقراض والعيادة إلى نفسه، وقد كان ذلك بغيره، إذ كان ذلك عن سببه.

وقد حكي عن العرب سماعاً: «أجوعُ في غَيْر بَطني، وأعرى في غير ظهْري»، بمعنى: جُوع أهله وعياله وعُرْي ظهورهم.

فكذلك قوله: «إلّا لنعلم»، بمعنى: يعلم أوليائي وحزبي.

وأما قوله: «مَنْ يتَّبع الرسول». فإنه يعني: الذي يتبع محمداً ﷺ فيما يأمره الله به، فيوجِّه نحو الوَجه الذي يتوَجَّه نحوه محمدٌ ﷺ.

وأما قوله: «ممن يَنقلب على عَقبيه»، فإنه يعني: من الذي يرتدُّ عن دِينهِ فينافق، أو يكفر، أو يخالف محمداً ﷺ في ذلك، ممن يظهر اتِّباعه.

وأصلُ «المرتد على عقبيه»، هو «المنقلب على عقبيه»، الراجع مستدبراً في الطريق الذي قد كان قطعه، منصرفاً عنه. فقيل ذلك لكل راجع عن أمرٍ كانَ فيه، من دِينٍ أو خير. ومن ذلك قوله: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ [الكهف: ٦٤]، بمعنى: رَجعا في الطريق الذي كانا سَلكاه، وإنما قيل للمرتد: «مرتد»، لرجوعهِ عن دِينهِ ومِلَّته التي كان عليها.

وإنما قيل: «رجع على عَقبيه»، لرجوعه دُبُراً على عَقبيه، إلى الوجه الذي كان فيه بَدْءُ سيرهِ قبل مَرْجعه عنه. فيجعل ذلك مثلاً لكل تاركٍ أمراً وآخذٍ آخرَ غيره، إذا انصرف عَمَّا كان فيه، إلى الذي كان له تاركاً فأخذه. فقيل: «ارتد فلانٌ على عَقِبه، وانقلب على عَقبيه».

القول في تأويل قوله عزَّ وجل: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾

وتأويل ذلك: وما جعلنا تحويلتنا إياكَ عن القِبلة التي كُنْتَ عليها وتَوْلِيَتَنَاكَ عنها، إلا لنعلمَ مَنْ يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت تحويلتُنا إياكَ عنها وتوليتُناكَ «لكبيرة إلّا على الذين هدى الله».

وهذا التأويل أوْلَى التأويلات عندي بالصواب. لأنَّ القوم إنما كَبُرَ عليهم تحويلُ النبيِّ ﷺ وَجْهَهُ عن القِبلة الأولى إلى الأخرى، لا عين القبلةِ، ولا الصلاة. لأنَّ القِبلة الأولى والصلاة، قد كانت وهي غير كبيرة عليهم.

ومعنى قوله: «كبيرة»، عظيمة.

وأما قوله: «إلّا عَلَى الذين هَدى الله»، فإنه يعني به: وإن كان تَقْلِيبَتُناكَ عن القِبلة التي كنتَ عليها، لعظيمة إلا على مَنْ وفَّقَهُ اللهُ جَلَّ ثناؤه، فهداهُ لتصديقك والإيمان بك وبذلك، واتباعِك فيه، وفيما أنزل الله تعالى ذكره عليك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾

قيل: عنى بـ الإيمان ، في هذا الموضع: الصلاةَ.

قد دللنا فيما مضى على أنَّ «الإيمان»، التصديق. وأن التصديق قد يكون بالقولِ وحده، وبالفعلِ وحده، وبهما جميعاً.

فمعنى قوله: «وما كان الله ليُضيع إيمانكم» ـ على ما تظاهرت به الرواية من أنه الصلاة ـ: وما كان الله ليُضيع تصديقَ رَسوله عليه السلام، بصَلاتكم التي صَلَّيْتُمُوها نحو بيتِ المقدس عن أمره، لأن ذلك كان منكم تصديقاً لرسولي، واتِّباعاً لأمْري، وطاعةً منكم لي.

قال: «وإضاعته إياه» جَلَّ ثناؤه ـ لو أضاعه ـ: تركُ إثابةِ أصْحابه وعامليه عليه، فيذهب ضياعاً، ويصير باطلاً، كهيئة «إضاعة الرجل مَالَهُ»، وذلك إهلاكه إياه فيما لَا يعتاضُ منه عِوَضاً في عاجلٍ ولا آجل.

فأخبر الله جَلَّ ثناؤه أنه لم يكن يُبطل عَمَلَ عاملٍ عَمِلَ له عملاً وهو له طاعة، فلا يُثيبهُ عليه، وإنْ نُسخ ذلك الفرضُ بعد عملِ العاملِ إياه على ما كلفه من عمله.

فإنْ قال قائل: وكيفَ قال الله جَلَّ ثناؤه: «وما كان الله لِيُضيع إيمانكم»، فأضاف الإيمانَ إلى الأحياء المُخَاطَبين، والقومُ المخاطَبُون بذلك إنما كانوا أشفقوا على إخوانهم الذين كانوا ماتوا وهم يُصَلُّون نحو بيتِ المقدس، وفي ذلك من أمرِهم أُنزلت هذه الآية؟

قيل: إن القومَ وإنْ كانوا أشفقُوا من ذلك، فإنهم أيضاً قد كانوا مُشفقين من حُبُـوطِ ثوابِ صلاتهم التي صلوها إلى بيت المقدس قبل التحويل إلى الكعبة، وظَنُّوا أنَّ عملهم ذلك قد بطلَ وذهبَ ضياعاً. فأنزل الله جَلَّ ثناؤه هذه الآية حينئذٍ فوجَّه الخِطابَ بها إلى الأحياء ودخل فيهم الموتى منهم. لأنَّ مِنْ شأنِ العربِ ـ إذا اجتمع في الخبر المخاطَبُ والغائبُ ـ أنْ يُغَلِّبُوا المخاطَبَ فيدخل الغائب في الخطاب. فيقولوا لرجلٍ خاطبوه على وجه الخبر عنه وعن آخر غائب غير حاضر: «فعلنا بكما وصنعنا بكما»، كهيئة خطابهم لهما وهما حاضران، ولا يستجيزون أن يقولوا: «فعلنا بهما»، وهم يخاطبون أحدهما، فيردُّوا المخاطب إلى عِدَاد الغَيب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾

ويعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «إنّ الله بالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحيمٌ»: أن الله بجميعِ عبادِهِ ذُو رأفة.

و«الرأفة»، أعلى مَعاني الرحمة، وهي عَامَّةٌ لجميعِ الخَلْقِ في الدنيا، ولبعضِهم في الآخرة.

وأما «الرحيم»: فإنه ذُو الرحمةِ للمؤمنين في الدنيا والآخرة، على ما قد بَيَّنا فيما مضى قبل.

وإنما أراد جَلَّ ثناؤه بذلك أنَّ الله عَزَّ وجل أرْحمُ بعباده منْ أن يُضِيعَ لهم طاعةً أطاعُوه بها فلا يُثيبهم عليها، وأرأفُ بهم من أنْ يُؤاخذهم بترك ما لم يفرضه عليهم - أيْ: ولا تأسوا عَلى مَوتاكم الذين ماتوا وهم يُصَلُّونَ إلى بيتِ المقدس -، فإني لهم - على طاعتهم إيايَ بصَلاتهم التي صلوها كذلك - مثيبٌ، لأني أرحمُ بهم من أنْ أُضِيعَ لهم عملاً عَمِلُوه لي، ولا تحزنوا عليهم، فإني غيرُ مُؤَاخِـذهم بترْكِهم الصلاةَ إلى الكعبة، لأني لم أكنْ فرضتُ ذلك عليهم، وأنا أرأفُ بخلْقِي من أنْ أعاقبهم على تَرْكِهم ما لَمْ آمرهم بعملهْ.

وفي «الـرؤوف» لغات. إحداها «رَؤُف» على مثال «فَعُل»، وهي قراءةُ عامةِ قُرَّاءِ أهلِ الكوفة. والأخرى «رَؤوف» على مثال «فعول»، وهي قراءة عامة قُرَّاءِ المدينة، و«رَئِف»، وهي لغة غطفان، على مثال «فَعِل» مثل حَذِر. و«رَأْف» على مثال «فَعْل» بجزم العين، وهي لغة لبني أسد.

والقراءة على أحد الوجهين الأوَّلين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: قد نرى يا محمد نحنُ تقلُّبَ وجهك في السماء.

ويعني: بـ«التقلب»، التحوُّل والتصرُّف.

ويعني بقوله: «في السماء»، نحو السماء وقِبَلها.

وإنما قيل له ذلك ﷺ - فيما بلغنا - لأنه كان - قَبل تحويلِ قبلته من بيتِ المقدس إلى الكعبة - يرفعُ بَصَرَهُ إلى السماءِ ينتظرُ من الله جَلَّ ثناؤه أمْرَهُ بالتحويلِ نحو الكعبة.

ثم اختلف في السبب الذي من أجله كان ﷺ يهوى قبلة الكعبة.

قال بعضهم: كره قبلةَ بيتِ المقدس، من أجل أنَّ اليهودَ قالوا: يتَّبع قِبْلَتَنا ويُخالفنا في دِيْنِنَا!

وقال آخرون: بل كان يهوى ذلك، من أجل أنه كان قبلةَ أبيه إبراهيم عليه السلام.

فأما قوله: «فلنوَلينَّك قِبْلَةً تَرْضَاها»، فإنه يعني: فلنصرفنَّك عن بيتِ المقدس، إلى قبلةٍ «ترضاها»: تَهواها وتُحبها.

وأما قوله: «فوَلِّ وَجهك»، يعني: اصْرفْ وجهكَ وحَوِّله.

وقوله: «شَطرَ المسجد الحَرَام»، يعني: بـ «الشطر»، النحوَ والقصدَ والتِّلقاء.

ثم اختلفوا في المكان الذي أمر الله نبيّه ﷺ أن يولِّيَ وجهَهُ إليه من المسجد الحرام.

فقال بعضهم: القبلةُ التي حُوِّل إليها النبيُّ ﷺ، وعناها الله تعالى ذكره بقوله: «فلنولينَّك قبلة تَرْضاها»، حيالَ مِيزابِ الكعبة.

وقال آخرون: بل ذلك البيت كله قبلةٌ، وقبلةُ البيت الباب.

والصوابُ من القول في ذلك عندي ما قال الله جَلَّ ثناؤه: «فوَلِّ وجهك

شَطر المسجـد الحرام»، فالمولِّي وجهه شطرَ المسجد الحرام، هو المصيبُ القبلةَ. وإنما عَلى مَنْ تَوَجَّهَ إليه النيةُ بقلبه أنه إليه متوجِّه، كما أن على مَن ائتمَّ بإمام فإنما عليه الائتمامُ به، وإن لم يكن مُحاذياً بدنُه بدنَه، وإنْ كان في طَرَف الصّفِّ والإمام في طرف آخر، عن يمينه أو عن يساره، بعد أنْ يكون من خلفه مؤتمّاً به، مصلياً إلى الوجه الذي يصلِّي إليه الإمام. فكذلك حكمُ القبلة، وإنْ لم يكن يحاذيها كل مُصَلٍّ ومتوَجِّه إليها ببدنه، غير أنه متوجِّه إليها. فإنْ كان عن يمينها أو عن يسارها مقابلَها، فهو مستقبلها بَعُدَ ما بينه وبينها أو قَرُبَ، مِنْ عن يمينها أو عن يسارها، بعد أن يكون غيرَ مُسْتَدْبِرِها ولا مُنْحَرِفٍ عنها ببدنه ووَجهه.

وقبلة البيت: بابه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾

يعني جَلَّ ثنـاؤه بذلك: فأينما كنتم من الأرضِ أيها المؤمنونَ فحوِّلُوا وجُوهَكُمْ في صلاتكم نَحو المسجد الحرام وتلقاءَه.

و«الهاء» التي في «شَطْرِه» عائدةٌ إلى المسجد الحرام.

فأوجب جَلَّ ثناؤه بهذه الآية على المؤمنين، فرضَ التوجُّه نحو المسجدِ الحرامِ في صلاتهم حيث كانوا من أرضِ الله تبارك وتعالى.

وأدخلت «الفاء» في قوله: «فولوا» جواباً للجزاء. وذلك أن قوله: «حيثما كنتم» جزاء، ومعناه: حيثما تكونوا فَوَلُّوا وجوهَكُم شطره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «وإنَّ الذين أوتُوا الكتاب»، أحبارَ اليهود وعلماء النصارى.

وقوله: «لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ من ربهم»، يعني هؤلاء الأحبارَ والعلماءَ من أهلِ الكتاب يعلمون أن التوجُّهَ نحو المسجد، الحقُّ الذي فرضه الله عَزَّ وجل على إبراهيم وذريته وسائر عباده بعده.

ويعني بقوله: «من رَبِّهم»، أنه الفرضُ الواجبُ على عباد الله تعالى ذكره، وهو الحقُّ من عند ربهم، فَرَضَه عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٤٤﴾

يعني بذلك تبارك وتعالى: وليس الله بغافلٍ عما تعملون أيها المؤمنون، في اتِّباعكم أمْرَهُ، وانتهائكم إلى طاعته، فيما ألزمكم من فرائضهِ، وإيمانكم به في صَلاتكم نحو بيتِ المقدس، ثم صلاتكم من بعد ذلك شطرَ المسجد الحرام، ولا هو ساهٍ عنه، ولكنه جَلَّ ثناؤه يُحصيه لكم ويدَّخره لكم عنده، حتى يجازيَكم به أحسنَ جزاء، ويثيبكم عليه أفضلَ ثواب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ﴾

يعني بذلك تبارك اسمه: ولئن جئتَ، يا محمدُ، اليهودَ والنصارَى، بكل برهانٍ وحُجة - وهي «الآية» - بأنَّ الحَقَّ هو ما جئتهم به، من فرض التحوُّلِ من قبلة بيت المقدس في الصلاة، إلى قبلة المسجد الحرام، ما صَدَّقُوا به، ولا اتَّبَعُوا - مع قيام الحجة عليهم بذلِك - قبلتَك التي حوَّلْتُك إليها، وهي التوجُّه شَطرَ المسجد الحرام.

فكانَ مَعنى الكلام - إذ كان الأمر على ما وصفنا -: لو أتيتَ الذين أوتوا الكتاب بِكُلِّ آيةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ.

وأما قوله: «وما أنتَ بتابعٍ قِبلتهم»، يقول: وما لكَ من سبيلٍ يا محمدُ إلى اتِّباعِ قبلتهم. وذلك أنَّ اليهودَ تستقبل بيت المقدس بصلاتها، وأن النصارى تستقبل المشرقَ، فأنَّى يكونُ لك السبيلُ إلى اتباع قبلتهم، مع اختلاف وجوهها؟ يقول: فالْزَمْ قبلتَك التي أُمِرْتَ بالتوجه إليها، ودَعْ عنك ما تقولُه اليهود والنصارى وتدعُوك إليه من قبلتهم واستقبالها.

وأما قوله: «وما بعضُهم بتابعٍ قبلةَ بعض»، فإنه يعني بقوله: وما اليهودُ بتابعةٍ قبلةَ النصارى، ولا النصارى بتابعةٍ قبلةَ اليهود فمتوجِّهة نحوها.

وإنما يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: أنَّ اليهودَ والنصارى لا تجتمع على قِبْلَةٍ واحدة، مع إقامةِ كُلِّ حزبٍ منهم على مِلَّتهم. فقال تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، لا تُشعر نفسك رضَا هؤلاء اليهود والنصارى، فإنه أمرٌ لا سبيلَ إليه. لأنهم مع اختلاف مِلَلِهم لا سبيلَ لكَ إلى إرضاء كُلِّ حزبٍ منهم. مِنْ أجل أنك إنِ اتَّبَعْتَ قبلةَ اليهود أسخطتَ النصارى، وإن اتَّبعتَ قبلة النصارى أسخطتَ اليهود، فَدَعْ ما لا سبيلَ إليه، وادْعُهم إلى ما لهم السبيل إليه، من الاجتماعِ على مِلَّتكَ الحنيفيَّةِ المسلمة، وقبلتِك قبلةِ إبراهيم والأنبياء من بعده.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ولئن اتبعت أهواءهم»، ولئن التمستَ يا محمدُ رِضَا هؤلاء اليهود والنصارى، الذين قالوا لك ولأصحابك: «كونوا هُوداً أو نصارى تهتدوا»، فاتبعتَ قِبْلَتهم - يعني: فرَجعت إلى قبلتهم.

ويعني بقوله: «مِنْ بَعْدِ مَا جاءك من العلم»، من بعد ما وصَل إليك من العلم، بإعلامي إياكَ أنهم مُقيمُونَ على باطلٍ، وعلى عنادٍ منهم للحق، ومعرفةٍ منهم أنَّ القبلةَ التي وَجَّهْتُكَ إليها هي القبلةُ التي فرضتُ على أبيكَ إبراهيم عليه السلام وسائر ولده من بعده من الرسل - التوجُّهَ نحوها، «إنك إذاً لمن الظالمين»، يعني: إنك إذا فعلتَ ذلك، من عبادي الظَّلمةِ أنفسَهُم، المخالفينَ أمرِي، والتاركين طاعتي، وأحدُهم، وفي عِدادِهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه»، أحبارَ اليهود وعلماء النصارى: يقول: يعرفُ هؤلاء الأحبارُ من اليهود، والعلماءُ من النصارى: أن البيتَ الحرام قبلتُهم وقبلةُ إبراهيمُ وقبلةُ الأنبياء قبلك، كما يعرفون أبناءَهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: وإنَّ طائفةً من الذين أوتوا الكتاب - وهُمُ اليهود والنصارى.

وقوله: «ليكتمون الحق»، - وذلك الحقُّ هو القِبلة - التي وجَّه الله عَزَّ وجل إليها نبيَّهُ محمداً ﷺ. يقول: فَولِّ وجهكَ شطرَ المسجدِ الحرام - التي كانت الأنبياءُ من قبل محمدٍ ﷺ يتوجَّهون إليها، فكتمتها اليهودُ والنصارى، فوجَّه بعضُهم شرقاً، وبعضُهم بيتَ المقدس، ورَفَضُوا ما أمرهم الله به، وكتموا مَعَ ذلك أمرَ محمدٍ ﷺ وهم يجدونَه مكتوباً عندهم في التوراةِ والإنجيل. فأطلع الله عَزَّ وجل نبيه محمداً ﷺ وأمَّتَهُ على خيانتهم الله تبارك وتعالى، وخيانتهم عبادَه، وكتمانِهم ذلك، وأخبر أنهم يفعلون ما يَفعلون من ذلك على عِلْمٍ منهم بأنَّ الحَقَّ غيرُه، وأنَّ الواجبَ عليهم من الله جَلَّ ثناؤه خلافُه، فقال: «ليكتمونَ الحق وهم يعلمون»، أنْ لَيس لَهم كتمانه، فيتعمَّدون معصيةَ الله تبارك وتعالى.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾



يعني تعالى ذِكْرُه: اعلمْ يا محمد أنَّ الحَقَّ ما أعلمك رَبُّكَ وأتاك من عندِهِ، لا ما يقولُ لكَ اليهودُ والنصارى.

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه عليه السلام: عن أنَّ القِبلةَ التي وَجَّهَهُ نحوها، هي القبلةُ الحقُّ التي كان عليها إبراهيمُ خليلُ الرحمن ومَنْ بعده من أنبياء الله عَزَّ وجل.

يقول الله تعالى ذِكْرُه له: فاعمل بالحقِّ الذي أتاكَ مِنْ رَبِّكَ يا محمد، ولا تَكونَنَّ من الممترين.

يعني بقوله: «فلا تكونن من الممترين»، أي فلا تكونن من الشاكِّين في أنَّ القِبلَةَ التي وجَّهتك نَحوها قبلةُ إبراهيم خليلي عليه السلام وقبلة الأنبياء غيره.

فإنْ قالَ لنا قائلٌ: أوَ كان النبيُّ ﷺ شاكّاً في أنَّ الحَقَّ من ربه، أو في أنَّ القبلةَ التي وجَّهه اللهُ إليها حَقٌّ من الله تعالى ذِكْرُه حتى نُهيَ عن الشك في ذلك، فقيل له: «فلا تكونن من الممترين»؟

قيل: ذلك من الكلام الذي تُخرجه العربُ مخرَجَ الأمر أو النهي للمخاطب به، والمراد به غيره، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الكافِرِينَ وَالمُنافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، ثم قال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٢]. فخرج الكلامُ مخرجَ الأمرِ للنبيِّ ﷺ والنهي له، والمراد به أصحابه المؤمنون به. وقد بيّنا نظيرَ ذلك فيما مضى قبل بما أغنى من إعادته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «ولكلٍّ»، ولِكُلِّ أهلِ مِلَّةٍ، فحذف «أهل الملة»، واكتفى بدلالة الكلام عليه.

فتأويلُ أهلِ هذه المقالة في هذه الآية: ولِكُلِّ أهلِ ملة قبلةٌ هو مستقبلها، ومولٍّ وَجْهَهُ إليها.

وقال آخرون: «ولكل وجهة هو موليها»: هي صلاتهم إلى بيت المقدس، وصلاتهم إلى الكعبة.

وتأويلُ قائلِ هذه المقالة: ولكلٍّ ناحيةٍ وجَّهكَ إليها رَبُّكَ يا محمد قبلة، الله عَزَّ وجل مُولِّيها عبادَه.

وأمـا «الوجهة»، فإنها مصدر مثل «القعدة» و«المشية»، من «التوجّه». وتأويلها: مُتوَجَّهٌ إليه بوَجهه في صلاته.

وأما قوله: «هو مُولِّيها»، فإنه يعني هو مولٍّ وَجْهَهُ إليها ومستقبلها.

ومعنى «التـوْلية» ههنا الإقبال، كما يقول القائل لغيره: «انصرِف إليَّ» بمعنى: أقبل إليَّ. «والانصراف» المستعمل، إنما هو الإنصراف عن الشيء، ثم يقال: «انصرفَ إلى الشيء»، بمعنى: أقبل إليه منصرفاً عن غيرِه. وكذلك يقال «ولَّيت عنه»، إذا أدبرت عنه. ثم يقال: «ولَّيت إليه»، بمعنى أقبلت إليه مولِّياً عن غيره[1].

فمعنى الكلام إذاً: ولِكُلِّ أهلِ مِلة وجهةٌ، الكلُّ منهم مولُّوها وُجوهَهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فاستبقوا»، فبادروا وسَارعوا، من «الاستباق»، وهو المبادرة والإسراع.

وإنما يعني بقوله: «فاستبقوا الخيرات»، أي: قد بَيَّنْتُ لكم أيها المؤمنون الحقَّ، وهَـدَيْتُكم للقِبلة التي ضلَّت عنها اليهودُ والنصارى وسائرُ أهل الملل غيركم، فبادروا بالأعمال الصالحة، شكراً لربكم، وتزوّدوا في دنياكم لآخرتكم، فإني قد بيّنت لكم سُبُـلَ النجاة، فلا عُذْرَ لكم في التفريط، وحافِظُوا على قبلتكم، فلا تُضَيِّعوها كما ضَيَّعتها الأممُ قبلكم، فتضلُّوا كما ضلت.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

---

(١) أنظر معاني القرآن للفراء: ١/٨٥.

ومعنى قوله: «أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً»، في أيِّ مكانٍ وبقعةٍ تهلكون فيه، يأتِ بكمُ اللهُ جميعاً يوم القيامة، إنَّ الله على كل شيء قدير.

وإنما حَضَّ الله عَزَّ وجل المؤمنين بهذه الآية على طاعته، والتزوُّدِ في الدنيا للآخرة، فقال جَلَّ ثناؤه لهم: فاسْتَبِقُوا أيها المؤمنون إلى العمل بطاعةِ ربكم، ولزومِ ما هداكم له من قِبْلَةِ إبراهيمَ خليله وشرائع دينه، فإن الله تعالى ذكره يأتي بكم وبِمَنْ خالفَ قبلتكم ودينكم وشريعتكم جميعاً يوم القيامة، من حيث كنتُم من بقـاع الأرض، حتى يوفِّي المحسنَ منكم جزاءه بإحسـانـه، والمسيءَ عقابه بإساءته، أو يتفضَّلَ فيصفحَ.

وأما قوله: «إنَّ الله على كل شيء قدير»، فإنه تعالى ذكره يعني: إنَّ الله تعالى على جَمْعِكم - بعد مماتكم - من قبوركم إليه، من حيث كنتم وكانت قبوركم، وعلى غير ذلك مما يشاء، قديرٌ. فبادروا خروجَ أنفسِكم بالصالحاتِ من الأعمالِ قبل مماتِكم، ليوم بَعثكم وحَشركم.

القـول في تأويل قوله تعالى: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ومن حيث خرجت»، ومن أيِّ موضعٍ خرَجْتَ إلى أيِّ موضع وجَّهتَ، فَوَلِّ يا محمدُ وَجهكَ - يقول: حوِّلْ وَجْهك. وقد دللنا على أن «التولية» في هذا الموضع شطر المسجد الحرام، إنما هي: الإقبالُ بالوجه نحوه. وقد بَيَّنا معنى «الشطر» فيما مضى.

وأما قوله: «وإنه لَلْحَقُّ من ربك»، فإنه يعني به تعالى ذكره: وإنَّ التوجه

شَطرَهُ لَلْحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه من عند ربك، فحافظوا عليه، وأطيعوا الله في توجهكم قِبَله.

وأما قوله: «ومَا اللهُ بغافلٍ عَما تَعملون»، فإنه يقول: فإنَّ الله تعالى ذِكْرُه لَيس بساهٍ عن أعمالكم، ولا بغافلٍ عنها، ولكنه مُحْصِيها لكم، حتى يجازيكم بها يوم القيامة.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ**

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «ومن حَيثُ خرجت فَولِّ وَجْهكَ شَطْرَ المسجد الحرام»، من أيِّ مكان وبُقعة شَخصتَ فخرجت يا محمد، فولِّ وجهكَ تِلْقاءَ المسجدِ الحرام، وهو شَطره.

ويعني بقوله: «وحيث ما كنتم فولُّوا وجُوهكم»، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرضِ الله، فولُّوا وجوهَكُم في صلاتكم تُجاهه وقِبَله وقَصْده.

القول في تأويل قوله تعالى: **لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى**

عنى الله تعالى بـ «الناس» في قوله: «لئلا يكون للناس»، أهلَ الكتابِ.

فإنْ قال قائـل: فأيَّةُ حُجَّـةٍ كانت لأهل الكتاب بصلاة رسول الله ﷺ وأصحابه نحوَ بيتِ المقدس، على رسولِ الله ﷺ وأصحابه؟

قيل: إنهم كانـوا يقـولـون: ما درَى مُحمد وأصحابهُ أين قِبلتهم حتى هَدَيْنَاهُم نحنُ! وقولهم: يُخالفنا مُحمد في دِيننا ويتبعُ قِبلتنا! فهي الحجةُ التي

كانوا يحتجُّون بها على رسولِ الله ﷺ وأصحابه، على وجه الخصومة منهم لهم، والتمويه منهم بها على الجُهَّالِ وأهلِ الغباء من المشركين.

وقد بيّنا فيما مضى أنَّ معنى حِجاجِ القومِ إيَّاه، الذي ذكره الله تعالى ذكره في كتابه، إنَّما هيَ الخُصوماتُ والجدال. فقطع الله جَلَّ ثناؤه ذلك من حُجَّتهم وحَسَمَهُ، بتحويلِ قبلةِ نبيِّه ﷺ والمؤمنين به، من قِبلةِ اليهود إلى قبلةِ خليلهِ إبراهيم عليه السلام. وذلك هو معنى قول الله جَلَّ ثناؤه: «لئلا يكون للناسَ عليكم حجة»، يعني: بـ«الناس»، الذين كانوا يَحتجُّون عليهم بما وصفت.

وأما قوله: «إلا الذين ظَلمُوا منهم»، فإنهم مُشْرِكُو العرب من قريش، فيما تأوَّله أهلُ التأويل.

فإنْ قال قائـلٌ: وأيّة حُجة كانت لمشركي قريش على رسولِ الله ﷺ وأصحـابـه، في تَوَجُّهِهم في صَلاتِهم إلى الكعبـة؟ وهـل يجـوز أن يكـون للمشركين على المؤمنين ـ فيما أمرهم الله به أو نهاهم عنه ـ حُجة؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلافِ ما توهمتَ وذهبتَ إليه. وإنما «الحُجَّة» في هذا الموضع، الخصومةُ والجدال. ومعنى الكلام: لئلا يكونَ لأحدٍ من الناس عليكم خُصُومةٌ ودعوى باطل[1] غير مشركي قريش فإنَّ لهم عليكم دعوى بَاطلاً وخصومةً بغير حق، بقِيلِهم لكم: «رَجَع محمد إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا». فذلك من قولهم وأمانيِّهم الباطلة، هي «الحجة» التي كانت لقريش على رسول الله ﷺ وأصحابه. ومن أجل ذلك استثنى الله تعالى ذكره «الذين ظلموا» من قريش من سائر الناسِ غيرهم، إذْ نفى أنْ يكونَ لأحدٍ منهم في قِبْلَتهم التي وجَّهَهُم إليها حُجة.

(١) يقال: دعوى باطل وباطلة.

وإذ كان ذلك معنى الآية بإجماعِ الحُجَّةِ من أهلِ التأويل، فبَيِّنٌ خطأُ قولِ مَنْ زعم أنَّ معنى قوله: «إلا الذين ظلموا منهم»: ولا الذين ظلموا منهم، وأن «إلا» بمعنى «الواو». لأن ذلك لو كان معناه، لكان النفيُ الأول عن جميع الناس - أنْ يكون لَهم حُجة على رسولِ الله ﷺ وأصحابه في تحوُّلهم نحو الكعبةِ بوجوههم - مبيِّناً عن المعنى المراد، ولم يكن في ذكر قوله بعد ذلك: «إلا الذين ظَلموا منهم» إلا التلبيس الذي يتعالى عن أنْ يُضافَ إليه أو يوصف به.

وأما قوله: «فلا تَخْشَوْهُم واخشوْني»، يعني: فلا تخشوا هؤلاء الذين وصفتُ لَكم أمْرَهُم من الظَّلَمَةِ في حُجَّتِهم وجِدالهم وقولِهم ما يقولون: في أنَّ محمداً ﷺ قد رجع إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا! - أو أن يَقدروا لكم على ضرٍّ في دِينكم، أو صدِّكم عما هَدَاكم اللهُ تعالى ذكره له من الحق، ولكن اخشوني فخافوا عقابي، في خلافكم أمرِي إنْ خالفتموه.

وذلك من الله جَلَّ ثناؤه تقدُّمٌ إلى عبادِه المؤمنين، بالحضِّ على لزوم قبلتهم والصلاة إليها، وبالنهي عن التوجُّه إلى غيرها. يقول جَلَّ ثناؤه: واخشوْني أيها المؤمنون، في تركِ طاعَتِي فيما أمرتُكم به من الصلاة شَطرَ المسجد الحرام.

القول في تأويل قوله عَزَّ وجل: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ 

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ولأتمَّ نعمتي عليكم»، ومِنْ حيثُ خرجتَ من البلاد والأرض، وإلى أيِّ بقعة شخصتَ، فولِّ وجهكَ شطرَ المسجد الحرام، وحيثُ كنت، يا محمد والمؤمنون، فَوَلُّوا وجوهَكُمْ في صلاتِكم شَطرَه، واتخذوه

قبلةً لكم، كيلا يكونَ لأحدٍ من الناس - سوى مشركي قريش - حجةٌ، ولأُتِمَّ بذلك - من هدايتي لكم إلى قبلةِ خليلي إبراهيم عليه السلام، الذي جعلته إماماً للناس - نِعْمتي، فأكمل لكم به فضلي عليكم، وأتممَ به شرائعَ مِلَّتكم الحنيفية المسلمة التي وصيتُ بها نوحاً وإبراهيمَ وموسى وعيسى وسائر الأنبياء غيرهم. وذلك هو نعمته التي أخبر جَلَّ ثناؤه أنه مُتِمُّها على رسولهِ ﷺ والمؤمنينَ به من أصحابه.

وقوله: و«لعلكم تهتدون»، يعني: وكي تَرْشُدُوا للصوابِ من القِبلة. و«لعلكم» عَطْفٌ على قوله: «ولأُتِمَّ نعمتي عليكم»، «ولأتم نعمتي عليكم» عَطْفٌ على قوله: «لئلا يكون».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ١٥١﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «كما أرسلنا فيكم رسولاً»، ولأتِمَّ نعمتي عليكم ببيانِ شرائعِ مِلَّتِكم الحنيفيةِ، وأهديَكم لدينِ خليلي إبراهيم عليه السلام، فأجعل لكم دَعوتَهُ التي دعاني بها ومسألتَهُ التي سَأَلَنِيهَا فقال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]، كما جعلت لكم دعوته التي دعاني بها، ومسألته التي سَأَلَنِيهَا فقال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فابتعثتُ منكم رَسُولي الذي سألني إبراهيمُ خليلي وابنُهُ إسماعيل، أنْ أبعثَهُ من ذرِّيتهما.

فـ «كما» ـ إذ كان ذلك معنى الكلام ـ صلةٌ لقول الله عَزَّ وجل: «ولأُتِمَّ نعمتي عليكم». ولا يكون قوله: «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم»، متعلقاً بقوله: «فاذكروني أذكركم».

وقوله: «كما أرسلنا فيكم رَسولاً منكم»، فإنه يعني بذلك العرب، قال لهم جَلَّ ثناؤه: الْزَمُوا أيُّها العربُ طاعتي، وتَوجَّهُوا إلى القبلة التي أمرتكم بالتوجُّه إليها، لتنقطع حُجةُ اليهود عنكم، فلا تكون لهم عليكم حجةٌ، ولأتم نعمتي عليكم، وتهتدوا، كما ابتدأتكم بنعمتي، فأرسلتُ فيكم رسولاً منكم. وذلك الرسول أَرْسَلَهُ إليهم منهم: محمد ﷺ.

وأمّا قوله: «يتلو عليكم آياتنا»، فإنه يعني آياتِ القرآن، وبقوله: «ويُزَكِّيكم» ويُطَهِّرُكم من دَنَسِ الذنوب، و«يعلمكم الكتاب» وهو الفرقان، يعني: أنه يُعَلِّمُهُم أحكامَهُ. ويعني: بـ «الحِكمة» السننَ والفقهَ في الدين. وقد بَيَّنا جميعَ ذلك فيما مضى قَبْلُ.

وأما قوله: «ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»، فإنه يعني: ويعلمكم من أخبارِ الأنبياءِ وقَصَص الأممِ الخاليةِ، والخبر عما هو حادثٌ وكائنٌ من الأمورِ التي لم تكن العربُ تعلمها، فَعَلِمُوها من رسولِ الله ﷺ. فأخبرهم جَلَّ ثناؤه أنَّ ذلك كله إنما يدركونه برَسوله ﷺ.

## القول في تأويل قوله عَزَّ وجل: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: فاذكروني أيها المؤمنون بطاعتكم إياي فيما آمُرُكُمْ به وفيما أَنْهَاكُمْ عنه، أَذْكُرْكُمْ برحمتي إياكم ومغفرَتِي لكم. وقد كان بعضهم يتأوّل ذلك أنه من الذِّكْرِ بالثناءِ والمدح.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ١٥٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: اشكروا لي أيها المؤمنون فيما أنعمتُ عليكم من الإسلام، والهداية للدِّين الذي شرعته لأنبيائي وأصفيائي، «ولا تكفرون»، يقول ولا تَجْحَدُوا إحساني إليكم، فأسلبكم نعمتي التي أنعمتُ عليكم، ولكن اشْكُروا لي عليها، وأزيدكم فَأُتَمِّمَ نعمتي عليكم، وأهديكم لما هديتُ له مَنْ رَضيتُ عنه من عبادي، فإنِّي وعدتُ خلقي أنَّ مَنْ شكر لي زِدْتُه، ومن كَفَرني حَرَمْتُه وسلبته ما أعطيتُه.

والعرب تقول: «نَصحتُ لك وشكرتُ لك»، ولا تكاد تقول: «نصحتك»، وربما قالت: «شكرتك ونصحتك». وقد دللنا على أن معنى «الشكر»، الثناء على الرجل بأفعاله المحمودة، وأنَّ معنى «الكفر» تغطية الشيء، فيما مضى قَبْلُ، فأغنى ذلك عن إعادتِه ههنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾

وهذه الآية حضٌّ من الله تعالى ذِكْرُه على طاعته، واحتمال مَكْرُوهِها على الأبدانِ والأموال، فقال: «يا أيها الذينَ آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة» على القيام بطاعتي، وأداءِ فرائضي في ناسخِ أحكامي، والانصراف عَما أنسخهُ منها إلى الذي أُحْدِثُه لكم من فرائضي، وأنقلكم إليه من أحكامي، والتسليم لأمري فيما آمركم به في حينِ إلزامِكم حُكْمَهُ، والتحول عنه بعد تحويلي إياكم عنه - وإنْ لَحِقَكُمْ في ذلك مكروهٌ من مقالةِ أعدائكم من الكفارِ بقَذْفِهم لكم الباطل، أو مشقةٌ على أبدانكم في قيامِكم به، أو نقصٌ في أموالكم - وعلى جهاد أعدائكم وحربهم في سبيلي، بالصبر منكم لي على مكروهِ ذلك وَمَشَقَّتِهِ عليكم، واحتمالِ عَنَائه وثِقْلِه، ثم بالفزع منكم فيما يَنوبكم من مُفظِعات الأمور

الى الصلاة لي. فانكم بالصبر على المكاره تدركون مرضاتي، وبالصلاة لي تستنجحون طلباتكم قِبَلي، وتدركون حاجاتكم عندي، فإني مع الصابرينَ على القيامِ بأداءِ فرائضي وتركِ معاصيَّ، أنْصُرهُم وأرْعَاهم وأكلَؤُهم، حتى يَظْفروا بما طلبوا وأمَّلُوا قِبَلي. وأما قوله: «إن الله مع الصابرين»، فإن تأويله: فإن الله نَاصرُه وظَهيرهُ وراضٍ بفعله، كقول القائل: «افعل يَا فلان كذا وأنا معك»، يعني: إني ناصرُكَ على فِعْلِكَ ذلك ومُعينكَ عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر على طاعتي في جهادِ عدوِّكم، وتركِ معاصيَّ، وأداءِ سائرِ فرائضي عليكم، ولا تقولوا لمن يقتلُ في سبيل الله: هو ميتٌ، فإنَّ الميتَ من خَلْقي مَنْ سلبته حياتَه وأعدمتهُ حواسَّه، فلا يلتذُّ لذةً ولا يُدرك نعيماً، فإنَّ مَنْ قُتل منكم ومن سائر خَلْقي في سبيلي، أحياءٌ عندي، في حياةٍ ونعيمٍ، وعيشٍ هَنِيٍّ، ورزقٍ سَنِيٍّ، فَرحينَ بما آتيتهم من فضلي، وَحَبَوْتُهم به من كرامتي.

فإن قال لنا قائل: وما في قوله: «ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياء»، من خصوصيةِ الخبرِ عن المقتولِ في سبيل الله الذي لم يَعُمَّ به غيره؟ وقد علمت تظاهُر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه وَصفَ حالَ المؤمنين والكافرين بعد وفاتهم، فأخبر عن المؤمنين أنهم يُفْتَحُ لهم من قبورهم أبوابٌ إلى الجنة يَشمون منها رَوْحها، ويستعجلون الله قيامَ الساعة، لِيَصِيرُوا إلى مساكِنِهم منها، ويجمع بينهم وبين أهاليهم وأولادهم فيها - وعن الكافرين أنهم يُفتح لهم من قبورِهم أبوابٌ إلى النار يَنظرون إليها، ويُصِيبهم من نَتنها ومكروهها، ويُسلط عليهم فيها إلى قيام الساعة مَنْ يَقمَعُهم فيها، ويسألون الله

فيها تأخيرَ قيامِ الساعة، حِذاراً من المصيرِ إلى ما أعد الله لهم فيها، مع أشباهِ ذلك من الأخبار. وإذا كانت الأخبار بذلك متظاهرةً عن رسولِ الله ﷺ، فما الذي خُصَّ به القتيلُ في سبيل الله، مِمَّا لم يعم به سائر البشر غيره من الحياةِ، وسائرُ الكفار والمؤمنين غيرُه أحياءٌ في البرزخ، أما الكفار فَمُعَذَّبُونَ فيه بالمعيشةِ الضَّنْكِ، وأما المؤمنون فَمُنَعَّمُونَ بالروح والريحان ونَسيم الجنان؟

قيل: إنَّ الـذي خَصَّ اللهُ به الشهداءَ في ذلك، وأفادَ المؤمنين بخبره عنهم تعالى ذِكْرُه، إعلامُهُ إياهم أنهم مرزوقون من مآكلِ الجنة ومطاعمها في بَرْزَخِهم قَبـل بعثهم، ومُنَعَّمُونَ بالذي يُنَعَّمُ به داخلوها بعد البعثِ من سائر البشر، من لذيذِ مطاعِمها التي لم يُطعمها اللهُ أحداً غيرَهم في برزخهِ قبل بعثهِ. فذلك هو الفضيلةُ التي فضَّلهم بها وخَصَّهُم بها من غيرهم، والفائدة التي أفادَ المؤمنين بالخبر عنهم، فقال تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: ﴿ولَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون* فَرِحِينَ بِما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠].

فإنْ قال قائل: فإنَّ الخبرَ عما ذكرتَ أنَّ الله تعالى ذِكْرُه أفاد المؤمنينَ بخبرهِ عن الشهداءِ من النعمةِ التي خَصَّهم بها في البرزخ، غيرُ موجودٍ في قوله: «ولا تَقولوا لمنْ يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء»، وإنما فيه الخبرُ عن حَالهم، أمواتٌ هم أم أحياءٌ.

قيل: إنَّ المقصود بذكر الخبر عن حياتهم، إنما هو الخبر عَمَّا هم فيه من النِّعمة، ولكنه تعالى ذِكْرُه لما كان قد أنبأ عبادَه عما خَصَّ به الشهداء في قولـه: ﴿ولَا تَحْسَبَنَّ الَّـذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْـوَاتـاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وعلموا حالهم بخبرهِ ذلك، ثم كان المراد من الله تعالى ذِكْرُه في قوله: «ولا تقولوا لِمَنْ يُقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياء»،

نَهْيُ خَلْقِه عن أنْ يقولوا للشهداء أنهم موتى - تَرَكَ إعادة ذكر ما قد بَيَّنَ لهم من خبرهم.

وأما قوله: «ولكنْ لا تَشعرُون»، فإنه يعني به: ولكنكم لا تَرونهم فتعلموا أنهم أحياءٌ، وإنما تعلمون ذلك بخبري إياكم به.

القــول في تأويل قولـه تعـالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

وهذا إخبار من الله تعالى ذِكْرُه أتباعَ رَسوله ﷺ، أنه مُبْتَلِيهم ومُمْتَحِنُهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسولَ مِمَّنْ ينقلب على عقبيه، كما ابتلاهم فامتحنهم بتحويلِ القبلةِ من بيتِ المقدس إلى الكعبة، وكما امتحن أصفياءَه قَبلهم. ووَعدهم ذلك في آية أخرى فقال لهم: ﴿أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّـا يأتكم مَثَـلُ الَّـذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَـأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ألَا إنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ومعنى قوله: «وَلنبلونكم»، ولنختبرنكم. وقد أتينا على البيان عن أن معنى «الابتلاء»، الاختبار، فيما مضى قبل.

وقوله: «بشيء من الخوف»، يعني من الخوف من العدو، وبالجوع - وهو القحط - يقول: لنختبرنكم بشيءٍ من خوفٍ ينالكم من عدوكم، وبسَنَةٍ تُصيبكم ينـالكم فيها مجاعةٌ وشِدَّةٌ، وتتعذر المطالب عليكم، فتنقص لذلك أموالكم؛ وحروبٌ تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار، فينقص لها عَدَدُكم؛ وموتُ ذَرارِيكم وأولادكم، وجُدوب تحدُث فتنقص لها ثِمَارُكم. كل ذلك امتحانٌ مني

لكم، واختبارٌ مني لكم، فيتبيّن صادِقُوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه، ويُعرف أهلُ البصائر في دينهم منكم، من أهل النفاق فيه والشك والارتياب.

كل ذلك خطابٌ منه لأتباع رَسولِ الله ﷺ وأصحابه.

وإنما قال تعالى ذِكْرُه: «بشيء من الخوف» ولم يقل: بأشياء، لاختلافِ أنواعِ ما أعلم عبادَه أنه مُمْتَحِنُهم به. فلما كان ذلك مختلفاً ـ وكانت «من» تَدلُّ على أنَّ كُلَّ نوعٍ منها مُضمر «شيء»، فإنَّ معنى ذلك: ولنبلونكم بشيء من الخوف، وبشيء من الجوع، وبشيء من نقص الأموال ـ اكتفى بدلالة ذكر «الشيء» في أوله، من إعادته مع كل نوع منها.

ففعل تعالى ذِكْرُه كُلَّ ذلك بهم، وامتحنهم بضروب المِحَن.

ثم قال تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: يا محمد، بَشِّرِ الصابرين على امتحاني بما أمتحنهم به، والحافظين أنفسهم عن التقدم على نَهْيِي عما أنهاهم عنه، والآخذينَ أنْفُسَهُم بأداءِ ما أكلفهم من فرائضي، مع ابتلائي إياهم بما أبتليهم به، القائلين إذا أصابتهم مصيبة: «إنا لله وإنا إليه راجعون». فأمر الله تعالى ذِكْرُه بأن يَخُصَّ ـ بالبشارة على ما يمتحنهم به من الشدائد ـ أهلَ الصبر، الذين وصف الله صفتهم.

وأصل «التبشير»: إخبار الرجل الرجلَ الخبرَ، يَسُرُّهُ أو يَسُوؤُهُ، لم يسبقه به إلى غيره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: وبَشِّرْ، يا محمدُ، الصابرين الذين يعلمون أنَّ جميع

ما بهم من نعمةٍ فمنّي، فَيُقِرُّونَ بعبوديتي، ويوحِّدونني بالربوبية، ويصدقون بالمعادِ والرجوعِ إليَّ، فيستسلمونَ لقضائي، ويرجون ثَوابي، ويخافون عقابي، ويقولون - عند امتحاني إياهم ببعض محَني، وابتلائي إياهم بما وَعَدْتُهم أنْ أبتليهم به من الخوفِ والجوعِ ونَقصِ الأموالِ والأنْفُسِ والثمراتِ وغير ذلك من المصائبِ التي أنا مُمْتَحِنُهُم بها -: إنا مماليكُ رَبِّنا ومعبودنا أحياء، ونحن عبيدُه وإنا إليه بعد مَماتنا صائرون - تسليماً لقضائي ورضاً بأحكامي.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك»، هؤلاء الصابرون، الذين وصفهم ونَعتهم. «عليهم»، يعني: لَهم. «صلواتٌ»، يعني: مغفرة. «وصلوات الله» على عباده، غُفرانه لعباده، كالذي روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم صَلِّ على آلِ أبي أوْفى»[1].

يعني: اغفر لَهم. وقد بَيَّنا «الصلاة» وما أصلها في غير هذا الموضع.

وقوله: «ورحمة»، يعني: ولَهُم مع المغفرة، التي بها صَفح عن ذُنُوبِهِم وتغمُّدها، رحمة من الله ورأفة.

ثم أخبر تعالى ذِكْرُه - مع الذي ذكر أنه مُعْطِيهم على اصْطبارهم على محنة، تسليماً منهم لقضائه، من المغفرة والرحمة - أنهم هم المهتدون،

---

(١) جزء من حديث صحيح: أخرجه - عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه - البخاري في أربعة مواضع ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة. انظر: المنتقى من حديث المصطفى للدكتور بشّار عواد معروف. حديث رقم ٥٦.

المصيبون طريقَ الحَق، والقائلون مَا يُرْضِي عنهم، والفاعلون ما استوجبوا به من الله الجزيل من الثواب.

وقد بَيَّنا معنى «الاهتداء»، فيما مضى، فإنه بمعنى الرشد للصواب.

القول في تأويل قوله تعالى: إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ

«والصفا» جمع «صَفاة»، وهي الصخرةُ الملساء.

وأما «المروة»، فإنها الحصاةُ الصغيرة، يُجْمَعُ قَليلها «مَرَوات»، وكثيرها «المَرْو»، مثل «تمرة وتمرَات وتمر».

وإنما أعلم الله تعالى ذِكْرُه بقوله: ﴿إِنَّ الصَّفا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾ عبادَهُ المؤمنينَ أنَّ السعيَ بينهما من مشاعرِ الحجِّ التي سَنَّهَا لهم، وأمرَ بها خليلَهُ إبراهيم ﷺ، إذ سأله أن يريه مناسك الحج، وذلك وإن كان مخرجه مخرجَ الخبرِ، فانه مرادٌ به الأمر لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه قد أمر نبيه محمداً ﷺ باتباعِ ملةِ إبراهيم عليه السلام، فقال له: ثم أوحينا إليكَ أن اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً، وجعل تعالى ذِكْرُه إبراهيم إماماً لِمَنْ بعده، فإذا كان صحيحاً أنَّ الطوافَ والسعيَ بين الصفا والمروة من شعائر الله ومن مناسك الحج، فمعلومٌ أنَّ إبراهيمَ ﷺ، قد عمل به، وسَنَّهُ لِمَنْ بعده، وقد أمر نبينا ﷺ أمته باتباعه، فعليهم العملُ بذلك على ما بَيَّنَهُ رسولُ الله ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى: فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فمن حجَّ البيت»، فمن أتاه عائداً إليه بَعدَ بدء. وكذلك كل مَنْ أكثرَ الاختلافَ إلى شيءٍ فهو «حَاجٌّ إليه».

يعني بقوله: «يحجون»، يكثرون الترددَ إليه لسُؤدده ورياسته. وإنما قيل للحاج «حاجّ»، لأنه يَأتي البيتَ قَبل التعريف، ثم يعود إليه لطوَافِ يومِ النحر بعد التعريف، ثم ينصرف عنه إلى مِنى، ثم يعود إليه لطوَاف الصَّدَر.

فلتكراره العودَ إليه مَرَّةً بعد أخرى قيل له: «حاجٌّ».

وأما «المعتمر»، فإنما قيل له: «معتمر»، لأنه إذا طاف به انصرف عنه بعد زيارته إياه. وإنما يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أو اعتمر»، أو اعتمرَ البيتَ، ويعني بـ «الاعتمار» الزيارة. فَكُلُّ قاصدٍ لشيءٍ فهو له «معتمر».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فلا جُنَاحَ عليه أن يَطَّوَّفَ بهما»، يقول: فلا حَرَج عليه ولا مَأثم في طَوَافه بهما.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾



معنى ذلك: ومن تطوع بالحج والعمرة بعد قَضَاء حجته الواجبة عليه، فإنَّ الله شاكرٌ له على تَطَوُّعِهِ له بِمَا تطوعَ به من ذلك ابتغاءَ وجهه، فمجازيهِ به، عليمٌ بما قصد وأرادَ بتطُّوعه بما تطوع به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾

يعني بقوله: «إنّ الذين يَكتمون مَا أنزلنا من البينات»، علماءَ اليهود

وأحبارَهم، وعلماءَ النصارى، لكِتْمانِهم الناسَ أمْرَ محمدٍ ﷺ، وتركهم اتِّبَاعَهُ وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

و«البيِّنات» التي أنزلها الله: ما بَيَّنَ من أمرِ نبوةِ محمدٍ ﷺ ومبعثه وصفته، في الكتابين اللذين أخبر الله تعالى ذكره أنَّ أهلهما يجدون صفته فيهما.

ويعني تعالى ذِكْرُه بـ «الهدى» ما أوضح لَهم من أمره في الكتبِ التي أنزلها على أنبيائهم، فقال تعالى ذكره: إنَّ الذين يكتمون الناسَ الذي أنزلنا في كُتُبهم من البيانِ عن أمرِ محمدٍ ﷺ ونبوته، وصِحَّةِ المِلَّةِ التي أرسَلْتُه بها وحَقِّيَّتها فلا يخبرونهم به، ولا يعلنونه من بعد تبييني ذلك للناس وإيضاحيه لهم، في الكتاب الذي أنزلته إلى أنبيائهم، «أولئك يَلعنهم الله وَيلعنهم اللاعنون إلّا الذين تابوا» الآية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلۡكِتَـٰبِ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «من بعد ما بيّناه للناس»، بعضَ الناس، لأن العِلْمَ بنبوةِ محمدٍ ﷺ وصفته وَمبعثه لم يكن إلّا عندَ أهلِ الكتاب دون غيرهم، وإياهم عَنَى تعالى ذِكْرُه بقوله: «للناس في الكتاب»، ويعني بذلك: التوراة والإنجيل.

وهذه الآيةُ وإنْ كانت نَزلت في خاصٍّ من الناس، فإنها معنيٌّ بها كل كاتمٍ علماً فرضَ الله تعالى للناس وذلك نظير الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: من سُئل عَن علمٍ يَعْلَمُهُ فكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يوم القيامة بلجامٍ من نار[1].

---

(١) هو من حديث أبي هريرة، وذكره الطبري هنا بغير إسناد، وهو حديث صحيح أخرجه أحمد ٢/٢٦٣ و٣٠٥ و٣٤٤ و٣٥٣، وأبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجة (٢٦١)، وابن حبان (٩٥)، وغيرهم.

وكان أبو هريرة يقول: لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدَّثت شيئاً: «إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِن البيِّنَاتِ﴾ إلى آخر الآية، والآية الأخرى: ﴿وإذْ أخَذَ الله مِيثَاق الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاس﴾ إلى آخر الآية [آل عمران: ١٧٨].

القــول في تأويل قولــه تعــالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾



يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك يَلعنهم الله»، هؤلاء الذين يكتمون ما أنزلهُ الله من أمر محمد ﷺ وصفته وأمر دينه، أنه الحق ـ من بعد ما بيَّنه الله لهم في كتبهم ـ يلعنهم بكتمانهم ذلك، وتركهم تَبيينه للناس.

و«اللعنة» «الفَعْلة»، من «لعنة الله» بمعنى أقصاه وأبعده وأسْحَقه. وأصل «اللعن». الطرْد.

فمعنى الآية إذاً: أولئـك يُبعـدهم الله منـه ومن رحمته، ويسألُ ربهم الـلاعنون أنْ يلعنهم، لأن لعنةَ بني آدم وسائر خَلق الله مَا لَعنوا أن يقولوا: «اللهم العنه» إذْ كان معنى «اللعن» هو ما وصفنا من الإقصاء والإبعاد.

و«اللاعنون»، الملائكةُ والمؤمنون. لأن الله تعالى ذكره قد وصف الكفار بأن اللعنة التي تحلّ بهم إنما هي من الله والملائكة والناس أجمعين، فقال تعالى ذكره: ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولٰئكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين﴾ [البقرة: ١٦١]، فكذلك اللعنة التي أخبر الله تعالى ذِكْرُه أنها حَالَّة بالفريق الآخر: الذين يكتمون ما أنزل الله من البيّنات والهدى من بعدما بيّنه للناس، هي لعنة الله، ولعنة الذين أخبر أن لعنتهم حالَّة بالذين كفروا وماتوا وهم كفار، وهم «اللاعنون»، لأن الفريقين جميعاً أهلُ كفر.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أنَّ الله واللاعنين يَلعنون الكاتمينَ الناسَ ما علموا من أمرِ نبوةِ محمدٍ ﷺ وصِفَتِه ونَعْتِه في الكتابِ الذي أنزله الله وَبيَّنه للناس، إلاّ مَنْ أناب من كتمانهِ ذلك منهم، وَراجَعَ التوبةَ بالإيمانِ بمحمدٍ ﷺ، والإقرار به وبنبوَّتِه وتصديقهِ فيما جاء به من عند الله، وبيان ما أنزل الله في كتبه التي أنزل إلى أنبيائه، من الأمر باتِّباعهِ، وأصلح حالَ نفسه بالتقربِ إلى الله من صَالح الأعمال بما يُرضيه عنه، وبيَّن الذي عَلم من وَحيِ الله الذي أنزله إلى أنبيائهِ وعهد إليهم في كُتُبه فلم يكتمه، وأظهرَه فلم يُخْفِه - «فأولئك»، يعني: هؤلاء الذين فَعلُوا هذا الذي وصفت منهم، هم الذين أتوبُ عليهم، فأجعلهم من أهل الإيابِ إلى طاعتي، والإنابةِ إلى مَرضَاتي.

ثم قال تعالى ذِكْرُه: «وَأنا التوابُ الرحيم»، يقول: وأنا الذي أرجع بقلوبِ عَبيدي المنصرفة عَنّي إليَّ، والرادُّها بعد إدبارِها عَن طاعتي إلى طَلَبِ مَحَبَّتِي، والرحيم بالمُقْبِلينَ بعد إقبالهم إليَّ، أتَغَمَّدُهم مني بعفوٍ، وأصفحُ عن عظيمِ ما كانوا اجترموا فيما بيني وبينهم، بفضلِ رحمتي لهم.

فإنْ قال قائل: وكيف يُتابُ على مَنْ تاب؟ وما وَجه قوله: «إلّا الذينَ تابوا فأولئك أتوبُ عليهم»؟ وهل يكون تائب إلا وهو مَتوُبٌ عليه، أو متوبٌ عليه إلا وهو تائب؟

قيل: ذلك مما لا يكون أحدهُما إلا والآخر معه، فسواء قيل: إلّا الذين تِيبَ عليهم فتابوا - أو قيل: إلا الذين تابوا فإني أتوب عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٦١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنَّ الذين كفروا»، إنَّ الذين جَحَدُوا نبوة محمدٍ ﷺ وكذبوا به ـ من اليهود والنصارى وسائر أهل الملل، والمشركين من عَبدة الأوثان ـ «وماتوا وهم كفار»، يعني: وماتوا وهم على جُحودهم ذلك وتكذيبهم محمداً ﷺ، «أولئك عَليهم لَعنةُ الله والملائكة»، يعني: فأولئك الذين كفروا وماتوا وهم كفارٌ عليهم لعنةُ الله، يقول: أبْعَدَهُم اللهُ وأسحقهم من رحمتهِ، «والملائكة»، يعني: وَلعنهم الملائكةُ والناس أجمعون. ولعنة الملائكة والناس إياهم قولهم: «عليهم لعنةُ الله».

فإنْ قال قائـل: وكيف تَكُونُ على الذي يموتُ كافراً بمحمدٍ ﷺ لعنةُ الناسِ أجمعين من أصنافِ الأمم، وأكثرهم مِمَّنْ لا يؤمن به ويصدقه؟

قيل عَنَى اللهُ بذلك جَميعَ الناس، بمعنى لعنهم إياهم بقولهم: «لعن الله الظالم ـ أو الظالمين». فإنَّ كُلَّ أحدٍ من بني آدم لا يمتنع من قِيلِ ذلك كائناً مَنْ كان، وَمِنْ أيِّ أهلِ ملةٍ كان، فيدخل بذلك في لعنته كلّ كافرٍ كائن مَنْ كان لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر عَمَّنْ شَهدهم يوم القيامة أنهم يلعنونهم فقال: ﴿ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ٱفْتَـرَى عَلَى اللهِ كَذِبـاً أُولئِـكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

القـول في تأويل قولـه عَزَّ وجل: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝١٦٢﴾

قوله: «لا يُخَفَّفُ عنهم العذاب»، فإنه خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن دَوَام العذاب أبداً من غير توقيتٍ ولا تخفيفٍ، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا

لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، وكما قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

وأما قوله: «ولا هم يُنظرون»، فإنه يعني: ولا هُم يُنظرون بمعذرةٍ يَعتذرون، كقوله: ﴿هٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ* وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

قد بَيَّنا فيما مضى معنى «الألوهية»، وأنها اعتباد الخلق.

فمعنى قوله: «وإلهكم إلهٌ وَاحدٌ لا إلهَ إلا هو الرحمن الرحيم»: والذي يَستحقُّ عَليكم أيها الناسُ الطاعةَ له، ويستوجبُ منكم العبادَةَ، معبودٌ واحدٌ وربٌّ واحد، فلا تعبدوا غيرَهُ، ولا تُشْرِكُوا معه سواه، فإنَّ مَنْ تُشْرِكُونَهُ معه في عبادَتِكُم إياه، هو خَلْقٌ من خَلْقِ إلهكم مثلكم، وإلهكم إلهٌ واحد، لا مِثْلَ لهُ وَلا نَظير.

واختُلِف في معنى وَحدانيته تعالى ذِكْرُه.

فقال بعضهم: معنى وحدانية الله، معنى نَفي الأشباهِ والأمثالِ عنه، كما يقال: «فلانٌ واحدُ الناسِ - وهو وَاحِدُ قومِهِ»، يعني بذلك أنه ليسَ له في الناسِ مِثْلٌ، ولا له في قومِهِ شَبيهٌ ولا نظيرٌ. فكذلك معنى قول «اللهُ واحد»، يعني به: الله لا مِثْلَ له ولا نظير.

وأما قوله: «لا إله إلا هو»، فإنه خبرٌ منه تعالى ذِكْرُه أنه لا رَبَّ للعالمين غيرُه، ولا يستوجبُ على العبادِ العبادةَ سواه، وأنَّ كُلَّ ما سواه فَهُمْ خَلْقُه،

والواجبُ على جميعِهم طاعتُه والانقيادُ لأمره، وتَرْكُ عبادة ما سواه من الأنداد والآلهـة، وهَجْـر الأوثـانِ والأصنـام. لأنَّ جميع ذلك خَلْقُه، وعلى جميعِهم الدينونةُ له بالوحدانيةِ والألوهةِ، ولا تَنبغي الألوهةُ إلّا له، إذْ كان ما بهم من نعمةٍ في الدنيا فَمِنْهُ، دونَ ما يعبدون من الأوثان ويشركون معه من الأشراكِ؛ وما يصيرون إليه من نعمةٍ في الآخرة فمنه، وأنَّ ما أشركوا معه من الأشراكِ لا يضر ولا ينفعُ في عاجلٍ ولا في آجل، ولا في دنيا ولا في آخرة.

وهذا تنبيه من الله تعالى ذِكْرُه أهلَ الشرك به على ضلالهم، ودعاءٌ منه لهم إلى الأوبةِ من كُفْرِهم، والإنابةِ من شِرْكِهم.

ثم عَرَّفهم تعالى ذِكْرُه بالآية التي تتلوها، موضعَ استدلال ذوي الألبابِ منهم على حقيقةِ ما نَبَّههم عليه من توحيدهِ وحُجَجه الواضحةِ القاطعةِ عُذرَهُم، فقال تعالى ذِكْرُه: أيها المشركون، إنْ جهلتم أو شَكَكْتُم في حقيقةِ ما أخبرتُكم من الخبرِ: من أنَّ إلهكم إلهٌ واحد، دونَ ما تَدَّعُونَ ألوهيته من الأندادِ والأوثانِ، فتدبَّرُواحُججيوفكِّرُوا فيها، فإن مِنْ حُججي خَلْق السموات والأرض، واختلاف الليلِ والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما يَنفعُ الناسَ، وما أنزلتُ من السمـاء من ماءٍ فأحييتُ به الأرضَ بعد موتها، وما بَثَثْتُ فيها من كُلِّ دابةٍ، والسحاب الذي سَخَّرْتُه بين السماءِ والأرض. فإنْ كان ما تعبدونه من الأوثان والآلهة والأنداد وسائر ما تشركون به، إذا اجتمع جميعُه فتظاهرَ أو انفردَ بعضُه دون بعضٍ، يقدرُ على أنْ يخلقَ نَظيرَ شيءٍ من خَلْقِي الذي سميتُ لكم، فلكم بعبادتكم ما تعبدون من دوني حينئذٍ عُذْرٌ، وإلَّا فلا عُذْرَ لكم في اتخاذ إلهٍ سِوايَ، ولا إله لكم ولما تعبدونَ غيري.

فليتـدبـر أولُو الألبابِ إيجازَ الله احتجاجَهُ على جميعِ أهلِ الكُفْرِ به والملحدين في توحيده، في هذه الآية وفي التي بعدها، بأوْجز كلامٍ، وأبلغِ حُجَّةٍ، وألطفِ معنى يشرف بهم على مَعرفة فَضْلِ حكمةِ الله وبَيانه.

القول في المعنى الذي من أجله أنزل الله على نبيه ﷺ قوله ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ . . . الآية.

إنّ الله تعالى ذِكْرُه نَبَّه عبادَهُ ـ على الدلالةِ على وَحدانيته وتَفَرُّدِه بالألوهية، دونَ كُلِّ ما سواه من الأشياء ـ بهذه الآية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنَّ في خَلْقِ السموات والأرض»، إن في إنشاء السماوات والأرض وابتداعهما.

ومعنى «خلق» الله الأشياء: ابتداعُه وإيجادُه إيَّاها، بعد أنْ لم تَكُنْ موجودةً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «واختلاف الليل والنهار»، وتعاقب الليل والنهار عليكم أيها الناسُ.

وإنما «الاختلاف» في هذا الموضع «الافتعال»، من «خُلوف» كُلِّ واحدٍ منهما الآخرَ، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان: ٦٢].

بمعنى: أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يخلف مَكان صاحبه، إذا ذهب الليلُ جَاء النهارُ بعده، وإذا ذهب النهارُ جاء الليل خَلْفَهُ. ومن ذلك قيل: «خَلَفَ فلانٌ فلاناً في أهلِهِ بسوء».

### القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: إنَّ في الفلك التي تجري في البحر.

و«الفُلك» هو السُّفن، واحدهُ وجمعه بلفظٍ واحد، ويُذَكَّرُ ويؤنَّثُ، كما قال تعالى ذِكْرُه في تذكيره في آية أخرى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، فَذَكَّره.

وقد قال في هذه الآية: «والفلكِ التي تجري في البحر»، وهي مُجْراة، لأنها إذا أُجْرِيَتْ فهي «الجارية»، فأضيف إليها من الصفة ما هو لها.

وأما قوله: «بما ينفع الناس»، فإنَّ معناه: ينفعُ الناسَ في البحر.

### القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وما أنزل الله من السماء من مَاء»، وفيما أنزلهُ الله من السماء من ماء، وهو المطرُ الذي يُنزله الله من السماء.

وقوله: «فأحيا به الأرضَ بَعدَ موتها»، وإحياؤها عمارَتُها، وإخراجُ نباتها.

و«موت الأرض»، خَرَابُهَا، ودُثُور عمارتها، وانقطاعُ نباتها، الذي هو للعبادِ أقواتٌ، وللأنامِ أرزاقٌ.

### القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وبثَّ فيها منْ كُلِّ دَابةٍ»، وإنَّ فيما بَثَّ في الأرضِ من دابةٍ.

ومعنى قولـه: «وبَثَّ فيهـا»، وفَرَّق فيها، من قول القائل: «بَثَّ الأمير سراياه»، يعني: فَرَّقَ.

«والدابة»، اسمٌ لكلِّ ذِي رُوحٍ كان غيرَ طائرٍ بجناحيه، لدبيبهِ على الأرض.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وتصريف الرياح»، وفي تصريفهِ الرياحَ، فأسقط ذكر الفاعل وأضافَ الفِعْلَ إلى المفعول، كما تقول: «يعجبني إكرام أخيكَ»، تريد: إكرامُك أخَاك.

«وتصريف» الله إياها، أنْ يُرْسِلَها مَرَّة لَواقحَ، ومرةً يجعلها عَقيماً، ويبعثها عذاباً تُدمِّرُ كُلَّ شيءٍ بأمر ربها.

القـول في تأويل قولـه تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾

يعني تعـالى ذِكْرُه بقوله: «والسحاب المسخر»، وفي السحاب، جمع «سحـابـة». يدل على ذلـك قولـه تعالى ذِكْرُه: ﴿وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

وإنما قيل للسحاب «سحاب» إنْ شاء الله، لِجَرِّ بعضِه بعضاً وسَحْبِه إياه، من قول القائل: «مَرَّ فلان يَجُرُّ ذَيْلَهُ»، يعني: «يسحبه».

فأما معنى قوله: «لآيات»، فإنه عَلامات ودلالاتُ على أنَّ خالِقَ ذلك كلّه ومنشئه، إلهٌ واحدٌ.

«لقومٍ يعقلون»، لِمَنْ عَقل مَوَاضع الحُجَج، وفَهِمَ عن الله أدِلَّتَهُ على وحدانيته. فأعلم تعالى ذِكْرُه عبادَه، بأنَّ الأدلة والحجج إنما وضعت مُعتَبراً لذوي العقولِ والتمييز، دونَ غيرهم من الخَلْقِ، إذْ كانوا هم المخصوصين بالأمرِ والنهي، والمُكَلَّفينَ بالطاعةِ والعبادة، ولهم الثوابُ، وعليهم العقاب.

فإنْ قال قائلٌ: وكيف احتج على أهلِ الكفر بقوله: «إنَّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار» الآية، في توحيد الله؟ وقد علمتَ أنَّ أصنافاً من أصنافِ الكَفَرةِ تدفعُ أنْ تكون السماوات والأرض وسائر ما ذكر في هذه الآية مخلوقةً؟

قيل: إنَّ إنكارَ مَنْ أنكر ذلك غيرُ دافعٍ أنْ يكون جميعُ ما ذكرَ تعالى ذِكْرُه في هذه الآية، دليلاً على خالقِه وصانعِه، وأنَّ له مُدَبِّراً لا يشبههُ شيءٌ، وبارئاً لا مِثْلَ له. وذلك وإنْ كان كذلك، فإنَّ الله إنما حَاجَّ بذلك قوماً كانوا مُقِرِّين بأنَّ الله خالقهم، غير أنهم يُشركون في عبادَتِه عبادَة الأصنامِ والأوثان. فحاجَّهم تعالى ذِكْرُه فقال - إذْ أنكروا قوله: «وإلهكم إلهٌ واحد»، وزعموا أنَّ له شُركاء من الآلهة -: إنَّ إلهكم الذي خلق السموات وأجرى فيها الشمسَ والقمرَ لكم بأرزاقكم دائبين في سيرهما. وذلك هو معنى اختلافِ الليلِ والنهار في الشمس والقمر، وذلك هو معنى قوله: «والفلك التي تجري في البحر بما ينفعُ الناس» - وأنزل إليكم الغيثَ من السماء، فأخصب به جنابكم بعد جُدوبه، وأمْرَعَهُ بعد دُثوره، فَنَعَشكم به بعد قُنوطكم -، وذلك هو معنى قوله: «ومَا أنزَل الله من السماء من مَاءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتها» - وسخَّر لكم الأنعامَ فيها لكم مطاعمُ ومآكل، ومنها جمَالٌ ومراكبُ، ومنها أثاثٌ وملابس - وذلك هو معنى قوله: «وبَثَّ فيها من كُلِّ دابة» - وأرْسل لكم الرياحَ لواقحَ لأشجارِ ثماركم وغذائِكم وأقواتِكم، وسيَّرَ لكم السحاب الذي بوَدْقِهِ حَياتكم وحياةُ نَعَمِكُم ومواشيكم - وذلك هو معنى قوله: «وتصريف الرياح والسحاب

المسخَّر بين السماء والأرض».

فأخبرهم أنَّ إلههم هو الله الذي أنعمَ عليهم بهذه النعم، وتفرَّدَ لهم بها. ثم قال: هل مِنْ شُركائكم مَنْ يفعلُ مِنْ ذلكم مِنْ شيءٍ، فَتُشرِكُوه في عبادَتِكُم إيايَ، وتجعلوه لي نِدًّاً وعِدْلاً؟

فإنْ لم يَكُنْ من شُركَائكم مَنْ يفعل مِنْ ذلكم من شيء، ففي الذي عَددتُ عليكم من نعمتي، وتفردتُ لكم بأياديَّ، دلالاتٌ لكم إنْ كنتم تَعقلون مواقِعَ الحَقِّ والباطل، والجور والإنصاف. وذلك أني لكم بالإحسان إليكم مُتَفَرِّدٌ دونَ غيري، وأنتم تجعلونَ لي في عبادتكم إيايَ أنداداً. فهذا هو معنى الآية.

والذين ذُكِّروا بهذه الآية واحتج عليهم بها، هُمُ القومُ الذين وصفتُ صِفَتَهُم، دون المُعَطِّلةِ والدُّهْرية، وإن كان في أصغر ما عَدَّ اللهُ في هذه الآية، من الحجج البالغة المَقْنَعُ لجميعِ الأنام، تركنا البيان عنه، كراهةَ إطالةِ الكتابِ بذكره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أنَّ مِنَ الناس مَنْ يَتَّخِذُ من دون الله أنداداً له - وقد بَيَّنا فيما مضى أنَّ «النِدَّ»، العدل، فكرهنا إعادته - وأن الذين اتَّخَذُوا هذه «الأنداد» من دُون الله، يحبون أندادَهم كَحُبِّ المؤمنين الله. ثم أخبرَهم أنَّ المؤمنينَ أشَدُّ حباً لله، من مُتَّخِذِي هذه الأنداد لأندادهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ١٦٥﴾

والصواب من القراءة عندنا في ذلك: «ولو تَرى الذين ظلموا» ـ بالتاء من «ترى» ـ «إذ يرون العذاب أنَّ القوةَ لله جميعاً وأن الله شديد العَذاب» بمعنى: لرأيتَ أنَّ القوةَ لله جميعاً وأنَّ الله شديد العذاب. فيكون قوله: «لرأيتَ» الثانية، محذوفةً مستغنىً بدلالة: «ولو ترى الذين ظلموا»، عن ذِكْرِه، إذْ كان جواباً لـ «لو».

ويكون الكلام، وإنْ كان مخرجهُ مَخرجَ الخطابِ لرسولِ الله ﷺ ـ معنيّاً به غيره. لأنَّ النبيَّ ﷺ كان لاشك عالماً بأنَّ القوة لله جميعاً، وأنَّ الله شديدُ العذاب. ويكون ذلك نظيرَ قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧] وقد بَيَّناه في موضعه.

وإنما اخترنا ذلك على قراءة «الياء»، لأنَّ القومَ إذا رَأوا العذابَ، قَد أيقنوا أنَّ القوةَ لله جميعاً وأنَّ الله شديد العذاب، فلا وجه أنْ يُقالَ: لو يرون أنَّ القوة لله جميعاً ـ حينئذٍ. لأنه إنما يقال: «لو رأيت»، لِمَنْ لم يَرَ، فأما مَنْ قد رآهُ، فلا معنى لأنْ يُقالَ له: «لو رأيت».

ومعنى قوله: «إذ يرون العذاب»، إذ يُعايِنُونَ العذاب.

وإنما عنى تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولو تَرَى الذين ظلموا»، ولو ترى، يا محمد، الذين ظلموا أنفسهم، فاتَّخَذُوا من دوني أنداداً يحبونهم كَحُبِّكُم إيايَ، حين يُعايِنُون عَذابي يومَ القيامةِ الذي أعددتُ لهم، لَعَلِمْتُم أنَّ القوةَ كلها لي دُون الأندادِ والآلهة، وأنَّ الأندادَ والآلهة لا تُغني عنهم هنالك شيئاً، ولا تَدْفَعُ عنهم عذاباً أحللتُ بهم، وأيقنتم أنِّي شديدُ عذابي لِمَنْ كَفَرَ بي، وادَّعى مَعي إلـهاً غيري.

القول في تأويل قوله عَزَّ وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إذْ تبرّأ الذين اتُّبِعُوا منَ الذين اتبعوا ورَأوا العذاب»، إذْ تبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوهم.

إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أنَّ المتَّبَعين على الشِّرْكِ بالله يتبرأونَ من أتباعِهم حين يُعَايِنُونَ عذابَ الله. ولم يخصص بذلك منهم بعضاً دون بعضٍ، بل عَمَّ جميعَهُم. فداخلٌ في ذلك كُلُّ متبوعٍ على الكفرِ بالله والضلالِ أنه يتبرأُ من أتباعِهِ الذين كانوا يتَّبعونه على الضلالِ في الدنيا، إذا عاينوا عَذابَ الله في الآخرة.

وأما دلالة الآية فيمن عَنَى بقوله: «إذ تَبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبعوا»، فإنها إنما تدلُّ على أنَّ الأندادَ الذين اتخذهم مِن دُون الله مَنْ وَصَفَ تعالى ذِكْرُه صِفَتَهُ بقوله: «ومِنَ الناسِ مَنْ يَتَّخِذُ من دُون الله أنداداً»، هم الذين يتبرأون من أتباعهم.

القول في تأويل قوله تعالى: وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أن الله شديد العذاب، إذ تبرأ الذين اتُّبِعُوا، وإذ تَقَطَّعت بهمُ الأسبابُ.

«والأسباب»، الشيء يُتعلَّقُ به و«السبب» الحبل، «والأسباب» جمع «سَبب»، وهو كل ما تسبب به الرجل إلى طَلْبته وحاجته. فيقال للحبل «سبب»، لأنه يُتسبب بالتعلقِ به إلى الحاجةِ التي لا يُوصَلُ إليها إلا بالتعلقِ به. ويقال للطريق «سبب»، للتسبب بركوبه إلى ما لا يُدْرَكُ إلا بقطعه. وللمصاهرة «سبب»، لأنها سَببٌ للحرمة. وللوسيلة «سَبب»، للوصولِ بها إلى الحاجة، وكذلك كُلُّ ما كان به إدراكُ الطَلْبة، فهو «سبب» لإدراكها.

فإذْ كان ذلك كذلك، فالصوابُ من القول في تأويل قوله: «وتقطعت بهم

الأسباب» أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أن الذين ظلموا أنفسهم - من أهلِ الكفر الذين ماتوا وهم كفار، يتبرأ - عند معاينتهم عذابَ الله - المتبوعُ من التابع، وتَتَقطَّعُ بهم الأسباب.

وقد أخبر تعالى ذِكْرُه في كتابه أنَّ بَعضهم يلعنُ بعضاً، وأخبر عن الشيطان أنه يقول لأوليائه: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وأخبر تعالى ذِكْرُه أنَّ الأخِلاَّءَ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقينَ، وأنَّ الكافرينَ لا ينصرُ يومئذٍ بعضُهم بعضاً، فقال تعالى ذِكْرُه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ* مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٥]، وأنَّ الرجلَ منهم لا ينفعه نَسِيبُه ولا ذو رَحِمِه، وإنْ كان نسيبهُ لله وليّاً، فقال تعالى ذِكْرُه في ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، وأخبر تعالى ذِكْرُه أنَّ أعمالَهم تصيرُ عليهم حَسَراتٍ.

وكل هذه المعاني أسبابٌ يتسبب في الدنيا بها إلى مطالب، فقطعَ اللهُ منافعها في الآخرة عن الكافرينَ بهِ، لأنها كانت بخلافِ طاعتهِ ورضاه، فهي منقطعةٌ بأهلها فلا خِلالُ بعضِهم بعضاً نَفَعَهُم عند وُرُودِهم على رَبِّهم، ولا عبادتُهم أندادَهُم ولا طاعتهم شياطِينَهُم ولا دافعت عنهم أرحامٌ فَنَصَرَتْهُمْ من انتقامِ اللهِ منهم، ولا أغْنَتْ عنهم أعمالُهم، بل صارت عليهم حَسَراتٍ. فكلُّ أسبابِ الكُفَّارِ منقطعةٌ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «وقَال الذين اتَّبعوا»، وقال أتباعُ الرجالِ - الذين

كانوا اتخذوهم أنداداً من دونِ الله، يطيعونهم في معصيةِ الله، ويَعصُون رَبَّهم في طاعتهم، إذْ يَرَوْنَ عَذابَ الله في الآخرة ـ: «لو أنَّ لنا كَرَّةً».

يعني «بالكرَّة»، الرجعةَ إلى الدنيا.

وقوله: «فنتبرأ منهم»، منصوبٌ، لأنه جوابٌ للتمني بـ «الفاء». لأن القوم تمنوا رجعةً إلى الدنيا ليتبرأوا من الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله، كما تبرأ منهم رؤساؤهم الذين كانوا في الدنيا، المَتْبُوعونَ فيها على الكفر بالله، إذْ عاينوا عَظيمَ النازلِ بهم من عذابِ الله، فقالوا: يا ليتَ لنا كرّة إلى الدنيا فنتبرأ منهم، و﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا ونَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾

ومعنى قوله: «كذلك يُريهمُ آلله أعمالَهم»، يقول: كما أراهم العذابَ الذي ذكره في قوله: «ورأوا العذاب»، الذي كانوا يُكَذِّبُونَ به في الدنيا فكذلك يُرِيهم أيضاً أعمالَهم الخبيثةَ التي استحقُّوا بها العقوبةَ من الله «حسرات عليهم»، يعني: نَدامات.

وقيل: إنَّ «الحسرة» أشَدُّ الندامة.

فإنْ قال لنا قائل: فكيف يَرَون أعمالَهم حَسراتٍ عليهم، وإنما يتندمُ المتندمُ عَلى تَرْكِ الخيراتِ وفَوْتها إياه؟ وقد علمت أنَّ الكفار لم يكن لهم من الأعمالِ ما يتندَّمونَ على تَرْكِهم الازدياد منه، فيريهم الله قليلَهُ! بل كانت أعمالُهم كلها معاصيَ لله، ولا حسرةَ عليهم في ذلك، وإنما الحسرةُ فيما لم يَعملوا من طاعةِ الله؟

(قيل): إن معنى قوله: «كذلك يُريهم الله أعمالَهمْ حَسراتٍ عليهم»، كذلك يُري اللهُ الكافرينَ أعمالَهم الخبيثةَ حسراتٍ عليهم، لِمَ عَمِلُوا بها؟ وهَلاَّ عَمِلُوا بغيرِها؟ فندموا على ما فرطَ منهم من أعمالهم الرديئة، إذْ رأوا جزاءَهَا من اللهِ وعقابَها، لأنَّ الله أخبر أنه يريهم أعمالَهم ندماً عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وما هؤلاء الذين وَصَفتهم من الكفار - وإنْ نَدِمُوا بعد معاينتهم مَا عاينوا من عذابِ الله، فاشتدت ندامتهم على ما سَلَفَ منهم من أعمالِهم الخبيثة، وتَمَنَّوا إلى الدنيا كَرَّةً لِيُنِيبُوا فيها، ويتبرأوا من مُضِلِّيهم وسادَتِهم الذين كانوا يطيعونهم في معصيةِ الله فيها - بخارجينَ من النار التي أصْلاَهُمُوهَا اللهُ بِكُفْرِهم به في الدنيا، ولا ندمُهم فيها بِمُنْجِيهم من عذابِ الله حينئذٍ، ولكنهم فيها مخلدون.

وفي هذه الآية الدلالةُ على تكذيبِ الله الزاعمينَ أنَّ عَذابَ الله أهلَ النار من أهلِ الكفر مُنْقَضٍ، وأنه إلى نهايةٍ، ثم هو بعدَ ذلك فانٍ. لأن الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن هؤلاء الذين وصف صِفَتَهم في هذه الآية، ثم ختمَ الخبرَ عنهم بأنهم غيرُ خارجينَ من النار، بغيرِ استثناءٍ منه وَقتاً دونَ وقتٍ. فذلك إلى غير حَدٍّ ولا نهاية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: يا أيها الناسُ كُلُوا مِمَّا أحللتُ لكم من الأطعمةِ على لسانِ رسولي محمد ﷺ، فطيَّبْتُه لكم - مما تُحَرِّمونَهُ عَلى أنفسِكُم من

البحائر والسوائبِ والوصائلِ وما أشبه ذلك مما لم أحرمه عليكم ـ دونَ مَا حَرَّمته عليكم من المطاعمِ والمآكل فنجَّسته من مَيتة ودَمٍ ولحمِ خنزيرٍ وما أُهِلَّ به لغيري. ودَعُـوا خُطواتِ الشيطان ـ الـذي يُوبِقُكُم فَيُهْلِكُكُم، ويُورِدُكُم مَواردَ العطب، ويُحَرِّمُ عليكم أموالكم ـ فلا تتبعوها ولا تعملوا بها، إنه ـ يعني بقوله «أنه» إنَّ الشيطان، و«الهاء» في قوله: «أنه» عائدةٌ على الشيطان ـ لكم أيها النـاس «عـدوٌّ مُبين»، يعني: أنـه قد أبـان لكم عَداوته، بإبائهِ عن السجودِ لأبيكم، وغُروره إياه حَتى أخرجَهُ من الجنةِ، واسْتَزَلَّهُ بالخطيئة، وأكل من الشجرة.

يقول تعالى ذِكْرُه: فلا تَنْتَصِحُوه، أيها الناسُ، مع إبانتهِ لكم العداوةَ، ودَعُوا ما يأمركم به، والتزموا طاعتي فيما أمَرْتُكم به ونَهَيْتُكم عنه مما أحْلَلْتُه لكم وحَـرَّمْتُه عليكم، دون ما حرمتموه أنتم على أنفسكم وحللتموه، طاعةً منكم للشيطان واتباعاً لأمره.

ومعنى قوله: «حَلالاً»، طِلْقاً. وهو مصدر من قول القائل: «قد حَلَّ لك هذا الشيء»، أي صار لك مُطْلَقاً، «فهو يَحِلُّ لك حَلاَلاً وحِلًّا»، ومن كلام العرب: «هو لك حِلٌّ»، أي: طِلْق.

وأما قوله: «طيِّباً»، فإنه يعني به: طاهراً غير نَجس ولا مُحَرَّمٍ.

وأمـا «الخـطوات» فإنـه جمـع «خُطوة»، و«الخطوة» بُعْدُ ما بين قدمي الماشي. و«الخَطوة» بفتح «الخاء» «الفعلة» الواحدة من قول القائل: «خَطوت خَطوة واحدةً». وقد تجمع «الخُطْوة» «خُطاً» و«الخَطْوة» تجمع «خَطوات»، «وخِطاء».

والمعنى في النهي عن اتباع خُطواته، النهيُ عن طريقهِ وأثرهِ فيما دَعَا إليه، مما هو خلافُ طاعةِ الله تعالى ذِكْرُه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنما يأمُرُكم»، الشيطان، «بالسوء والفحشاء وأنْ تَقُولوا على الله ما لا تعلمون».

«والسوء» الإثم، مثل «الضُّرّ»، من قولِ القائل: «ساءك هذا الأمرُ يسوؤك سُوءاً»، وهو ما يَسوء الفاعل.

وأما «الفحشاء»، فهي مصدرٌ مثل «السراء والضراء»، وهي كل ما استُفْحِشَ ذِكْرُه، وقَبُحَ مَسموعُهُ.

وقيل: إن «السوء» الذي ذكره الله، هو معاصي الله. فإنْ كان ذلك كذلك، فإنما سَمّاها الله «سوءاً» لأنها تسوءُ صاحِبَها بسوءِ عاقِبَتِهَا له عند الله. وقيل: إن «الفحشاء»، الزنا: فإنْ كان ذلك كذلك، فإنما يُسمى كذلك، لِقُبْحِ مسموعه، ومكرُوه ما يُذْكَر به فاعلُه.

وأما قوله: «وأنْ تَقولوا على الله مَا لا تعلمون»، فهو ما كانوا يُحَرِّمونَ من البحائرِ والسوائبِ والوَصائلِ والحوامي، ويزعمون أن الله حرَّم ذلك. فقال تعالى ذِكْرُه لهم: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ ولكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

فأخبرهم تعالى ذِكْرُه في هذه الآية، أنَّ قِيلَهم: «إنَّ الله حَرَّمَ هذا» من الكذبِ الذي يأمرهم به الشيطانُ، وأنه قد أحلَّه لهم وَطَيَّبه، ولم يحرم أكله عليهم، ولكنهم يقولون على اللهِ ما لا يعلمون حقيقتَهُ، طاعةً منهم للشيطان، واتباعاً منهم خطواتِهِ، واقتفاءً منهم آثارَ أسلافِهم الضُّلَّالِ وآبائهم الجُهَّال، الذين كانوا بالله وبما أنزل على رسوله جُهالاً، وعن الحق ومنهاجه ضُلَّالاً ـ

وإسرافاً منهم، كما أنزل الله في كتابِهِ على رسولِهِ ﷺ فقال تعالى ذِكْرُه: «وإذا قيلَ لهمُ اتبعوا ما أنزل اللهُ قَالوا بَلْ نَتبع مَا ألفيْنا عليه آباءنا».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

وفي هذه الآية وجهان من التأويل:ـ

**أحدهما**: أنْ تكونَ «الهاء والميم» من قوله: «وإذا قِيلَ لهم» عائدة على «من» في قولـه: «ومِنَ الناسِ مَنْ يَتخذُ من دون الله أنداداً»، فيكون معنى الكلام: ومن الناس مَنْ يَتخذُ من دُون الله أنداداً، وإذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله. قالوا: بل نتبعُ ما أَلْفَيْنَا عَليه آباءنا.

**والآخر**: أن تكون «الهاء والميم» اللتان في قوله: «وإذا قيل لهم»، من ذكر «الناس» الذين في قوله: «يا أيها الناس كُلوا مما في الأرض حَلالاً طيباً»، فيكون ذلك انصرافاً من الخطابِ إلى الخبر عن الغائبِ، كما في قوله تعالى ذِكْرُه: ﴿حَتى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

وأشبه عندي بالصواب وأولى بتأويل الآية: أن تكون «الهاء والميم» في قوله: «لهم»، مِنْ ذِكْرِ «الناس»، وأن يكونَ ذلك رجوعاً من الخطابِ إلى الخبر عن الغائبِ. لأن ذلكَ عَقيب قوله: «يا أيها الناس كُلُوا مما في الأرض». فلأنْ يكونَ خبراً عنهم، أوْلى من أنْ يكونَ خبراً عن الذين أخبرَ أنَّ منهم «مَنْ يَتخذُ من دُون الله أنداداً»، مع ما بينهما من الآيات، وانقطاع قَصَصهم بقصةٍ مستأنفة غيرِها ـ وأنها نَزَلت في قومٍ من اليهود قالوا ذلك، إذْ دُعُوا إلى الإسلام.

وأما تأويل قوله: «اتَّبِعُوا ما أنزلَ الله»، فإنه: اعْمَلُوا بما أنزل اللهُ في كتابه على رسـوله، فأحِلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه، واجعلوه لكم إماماً تأْتَمُّونَ به، وقائداً تَتبعون أحكامه.

وقوله: «ألفينا عَليه آباءنا»، يعني: وَجَدنا.

فمعنى الآية: وإذا قيل لهؤلاء الكفار: كُلُوا مما أحلَّ اللهُ لكم، وَدَعُوا خُطواتِ الشيطانِ وطـريقَـهُ، واعْمَلُوا بمـا أنزلَ اللهُ على نبيه ﷺ في كتابه ـ استكبروا عن الإذعانِ للحقِّ وقالوا: بل نأتَمُّ بآبائِنا فنتَّبع ما وجدناهم عليه، من تحليلِ ما كانوا يُحِلُّون، وتحريمِ ما كانوا يُحَرِّمُونَ.

قال الله تعالى ذِكْرُه: «أوَ لو كانَ آباؤهم» ـ يعني: آباء هؤلاء الكفار الذين مَضَوا على كُفْرِهم بالله العظيم ـ «لا يعقلون شيئاً» من دينِ الله وفرائضِه، وأمرِه ونهيِه، فيُتَّبعـون على ما سَلَكـوا من الطريق، ويؤتَمُّ بهم في أفعالهم ـ «ولا يَهتدون» الرُّشْدَ، فيهتدي بهم غَيْرُهم، ويَقتدي بهم مَنْ طَلب الدين، وأرادَ الحَقَّ والصوابَ؟

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الكفار: فكيف أيها الناس تَتَّبعونَ ما وجدتم عليه آباءكم فتتركون ما يأمركم به ربُّكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئاً، ولا هم مُصيبـون حقاً، ولا مُدْرِكون رشداً؟ وإنما يَتَّبِعُ المتبعُ ذا المعرفةِ بالشيء المستعمل له في نفسه، فأما الجاهل فلا يتبعه ـ فيما هو به جاهل ـ إلا مَنْ لا عقل له ولا تمييز.

القـول في تأويل قولـه تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾

إن معنى الآية: ومثل وعَظ الكافر وواعظه، كمثل الناعق بغنمه ونَعيقه، فإنه يسمع نَعقه ولا يَعقلُ كلامه، على ما قد بَيَّنا قبل.

فأما وَجه جَواز حذف «وعظ» اكتفاء بالمثل منه، فقد أتينا على البيانِ عنه في قولـه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً﴾ [البقرة: ١٧]، وفي غيره من نظائره من الآيات، بما فيه الكفاية من إعادته.

وإنما اخترنا هذا التأويل، لأنَّ هذه الآيةَ نزلت في اليهود، وإياهم عَنى الله تعـالى ذِكْـرُه بهـا، ولم تكن اليهودُ أهلَ أوثانٍ يَعبدونها، ولا أهلَ أصنام يُعظِّمونها ويرجون نَفعها أو دَفع ضُرِّها. ولا وجه ـ إذ كان ذلك كذلك ـ لتأويل مَن تأوَّل ذلك أنه بمعنى: مَثل الذين كفروا في ندائِهم الآلهة ودُعائهم إياها.

فإن قال قائلٌ: وما دليلكَ على أنّ المقصود بهذه الآية اليهود؟

قيل: دليلُنا على ذلك ما قبلَها من الآياتِ وما بَعدَها، فإنهم هم المَعْنيون به. فكان ما بينهما بأن يكون خبراً عنهم، أحقَّ وأولى من أن يكون خبراً عن غيرهم، حتى تأتي الأدلةُ واضحةً بانصراف الخبرِ عنهم إلى غيرِهم.

وأما قوله: «يَنْعِقُ»، فإنه: يُصوِّت بالغنم، «النَّعيق، والنُّعاق».

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ»، هؤلاء الكفارَ الذين مَثَلُهم كمثل الذي يَنْعِق بما لا يسمع إلا دُعاءً ونداءً «صُمٌّ» عن الحق فهم لا يسمعون «بُكمٌ» يعني: خُرسٌ عن قِيلِ الحقِّ والصَّواب، والإقرار بما أمرهم الله أن يُقِرُّوا به، وتَبْيين ما أَمَرَهُم الله تعالى ذِكْرُه أن يُبينوه من أمر محمد ﷺ للناس، فلا

ينطقون به ولا يقولونه، ولا يبينونه للناس، «عُميٌ» عن الهُدَىٰ وطريقِ الحق فلا يُبصرونه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «يا أيها الذين آمنوا»، يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسولَه، وأقرُّوا لِلّهِ بالعبودية، وأذعنوا له بالطاعة.

«كلوا من طيبات ما رَزَقناكم»، يعني: اطْعَمُوا من حَلال الرِّزق الذي أحللناهُ لكم، فطابَ لكم بتحليلي إياهُ لكم، مما كنتم تُحَرِّمونَ أنتم، ولم أكن حَرَّمْتُه عليكم، من المطاعمِ والمشاربِ. «واشكروا لله»، يقول: وأثنوا على الله بما هو أهله منكم، على النِّعم التي رزقكم وَطَيَّبها لكم. «إن كنتم إياه تعبدون»، يقول: إن كنتم مُنْقادين لأمرِه سامعين مطيعينَ، فكلوا مما أباحَ لكم أكلَهُ وحَلَّله وطيَّبَهُ لكم، ودعوا في تحريمه خُطوات الشيطان.

وقد ذكرنا بعض ما كانوا في جاهليتهم يحرِّمونه من المطاعِم، وهو الذي نَدَبهم إلى أكله ونهاهُم عن اعتقادِ تحريمه، إذْ كان تحريمهم إياهُ في الجاهلية طاعةً منهم للشيطان، واتباعاً لأهلِ الكُفر منهم بالله من الآباء والأسلاف. ثم بيَّنَ لهم تعالى ذِكْرُه ما حَرَّم عليهم، وفَصَّله لهم مُفَسَّراً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: لا تُحَرِّموا على أنفسكم ما لم أُحَرِّمه عليكم أيها المؤمنون بالله وبرسوله من البَحَائرِ والسَّوائبِ ونحو ذلك، بَل كُلُوا ذلك فإني لم أُحرِّم عليكم غير المَيْتَة والدَّم ولحم الخنزير، ومَا أُهِلَّ به لغيري.

ومعنى قوله: «إنما حَرَّم عليكم الميتةَ»، ما حَرَّمَ عليكم إلا الميتةَ.

وأما قوله: «وَمَا أُهِلَّ به لغير الله»، فإنه يعني به: وما ذُبِحَ للآلهة والأوثان يُسَمَّى عليه بغير اسمه، أو قُصِدَ به غيرهُ من الأصنام.

وإنما قيل: «وما أُهِلَّ به»، لأنهم كانوا إذا أرادوا ذبحَ ما قَرَّبُوه لآلهتهم، سَمَّوا اسمَ آلهتِهم التي قَرَّبوا ذلك لها، وجَهَرُوا بذلك أصْواتَهم، فجرى ذلك من أمرهم على ذلك، حتى قيل لكلِّ ذابحٍ، سَمَّى أو لم يُسَمِّ، جهرَ بالتسمية أو لم يجهر ـ: «مُهِلٌّ». فَرَفْعُهم أصواتَهم بذلك هو «الإهلالُ» الذي ذكره الله تعالى فقال: «وما أُهِلَّ به لغير الله». ومن ذلك قيل للمُلَبِّي في حَجةٍ أو عُمْرةٍ «مُهِلٌّ»، لرفعه صوتَهُ بالتلبيةِ. ومنه «استهلالُ» الصَّبيِّ، إذا صاحَ عند سقوطه من بَطن أمه، «واستهلالُ» المَطَر، وهو صوت وقُوعه على الأرض.

واختلفَ أهلُ التأويل في ذلك، فقال بعضُهم: يعني بقوله: «وما أُهِلَّ به لغير الله»، ما ذُبِحَ لغير الله.

وقال آخرون: معنى ذلك: ما ذُكِرَ عليه غير اسم الله.

## القول في تأويل قوله تعالى: فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فمن اضطر»، فمن حَلَّتْ به ضَرورةُ مجاعةٍ إلى ما حرَّمتُ عليكم من المَيْتَةِ والدَّمِ ولحم الخِنزير وما أُهلَّ به لغير الله ـ وهو

بالصفة التي وصفنا - فلا إثمَ عليه في أكلِه إنْ أكله.

وقوله: فمن «اضطر» «افتعل» من «الضَّرورة».

و«غيرَ بَاغ» نُصِب على الحال مِنْ «مَنْ»، فكأنه قيل: فمن اضطرَّ لا باغياً ولا عادياً فأكلَهُ، فهو له حلالٌ.

وقد قيل إن معنى قوله: «فمن اضطر»، فمن أُكْرِهَ على أكله فأكلَهُ، فلا إثمَ عليه.

وأما قوله: «غيرَ باغٍ ولا عَاد»، فإن أهلَ التأويل في تأويله مختلفون.

فقال بعضُهم: يعني بقوله: «غيرَ باغ»، غيرَ خارجٍ على الأئمةِ بسيفه باغياً عليهم بغير جَوْر، ولا عادياً عليهم بحربٍ وعدوان، فمفسدٌ عليهم السبيلَ.

وقال آخرون في تأويل قوله: «غيرَ باغٍ ولا عاد»: غيرَ باغٍ الحرامَ في أكله، ولا معتدٍ الذي أُبيحَ له منه.

وقال آخرون وتأويل ذلك: فمن اضطر غيرَ باغ في أكله شهوةً، ولا عادٍ فوقَ ما لابُدَّ له منه.

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول مَنْ قال: فمن اضطر غير باغٍ بأكلهِ ما حُرم عليه من أكله، ولا عادٍ في أكله، ولَهُ عن تَرْكِ أكلِهِ - بوجودِ غيرهِ مما أحَلَّهُ اللهُ له - مندوحةٌ وغِنَى.

وذلك أن الله تعالى ذِكْرُه لم يُرَخِّصْ لأحدٍ في قتل نفسه بحال. وإذْ كان ذلك كذلك، فلاشك أن الخارجَ على الإمام والقاطعَ الطريقَ، وإنْ كانا قد أتيا ما حرَّم الله عليهما: من خروجِ هذا على مَنْ خرجَ عليه، وسَعي هذا بالإفساد في الأرض، فغيرُ مبيحٍ لهمـا فعلهمـا ما فعلا مما حَرَّمَ اللهُ عليهما، ما كان حَرَّم الله

عليهما قبل إتيانهما ما أتيا من ذلك، من قتلِ أنفسهما، ورَدُّهما إلى محارم الله عليهما بعد فعلهما ما فعلا، وإنْ كان قد حرَّمَ عليهما ما كان مُرَخَّصاً لهما قبلَ ذلك من فعلهما، وإن لم نَرَ رَدَّهما إلى محارم الله عليهما تحريماً، فغير مرخَّص لهما ما كان عليهما قبل ذلك حراماً. فإذْ كان ذلك كذلك، فالواجبُ على قُطاعِ الطريقِ والبُغاةِ على الأئمة العادلة، الأَوبةُ إلى طاعةِ الله، والرجوعُ إلى ما ألـزمهُمـا اللهُ الرجوعَ إليه، والتوبةُ من معاصي الله، لا قتلُ أنفسهما بالمجاعة، فيزدادان إلى إثمهما إثماً، وإلى خلافِهما أمرَ اللهِ خلافاً.

وأما الذي وجَّه تأويلَ ذلك إلى أنه باغ في أكله شهوة، فأكل ذلك شهوة، لا لدفع الضَّرورة المخوف منها االهلاك - مما قد دخل فيما حرمه الله عليه - فهو بمعنى ما قلنا في تأويله، وإنْ كان للفظهِ مُخالفاً.

فأما توجيه تأويل قوله: «ولا عاذٍ»، ولا آكلٍ منه شبعةً، ولكن ما يمسك به نفسه، فإن ذلك، بعض معاني الاعتداء في أكله. ولم يخصص الله من معاني الاعتداء في أكله معنًى، فيقال عَنَى به بعض معانيه.

فإذْ كان ذلك كذلك، فالصوابُ من القول ما قلنا: من أنه الاعتداء في كل معانيه المحرَّمَة.

وأما تأويل قوله: «فلا إثم عليه»، يقول: مَنْ أكلَ ذلك على الصِّفةِ التي وصفنا، فلا تَبِعةَ عليه في أكله ذلك كذلك ولا حَرَج.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «إنّ الله غَفور رَحيم»، «إنّ اللهَ غَفورٌ» إنْ أطعتُم الله في إسلامكم، فاجتنبتم أكلَ ما حَرَّم عليكم، وتركتم اتباعَ الشيطان فيما كنتم تُحَرِّمُونَهُ في جاهليتكم، طاعةً منكم للشيطان واقتفاءً منكم خُطواته، مما

لم أُحَرِّمه عليكم، لما سَلَفَ منكم، في كفركم وقبل إسلامكم، في ذلك من خطأ وذَنْبٍ ومعصية، فصافحٌ عنكم، وتاركٌ عقوبَتكم عليه، «رحيم» بكم إن أطعتموه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنّ الذينَ يَكتمون ما أنزل الله من الكتاب»، أحبارَ اليهود الذين كَتَموا الناسَ أمرَ محمدٍ ﷺ ونبوَّتَه، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، بِرُشَىً كانوا أُعطوها على ذلك.

وأما تأويل قوله: «ويَشْتَرون به ثمناً قليلاً»، فإنه يعني: يبتاعون به. «والهاء» التي في «به»، من ذِكْر «الكِتْمان». فمعناه: ابتاعوا بكتمانهم ما كتموا الناسَ من أمرِ محمدٍ ﷺ وأمر نبوَّته ثمناً قليلاً. وذلك أنَّ الذي كانوا يُعْطَوْن، على تحريفهم كتابَ الله وتأويلِهِمُوهُ على غيرِ وجهِهِ، وكتمانهم الحَقَّ في ذلك، اليسير من عَرَضِ الدنيا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك»، هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل اللهُ من الكتاب في شأنِ محمدٍ ﷺ بالخَسيس من الرِّشْوة يُعْطَوْنَها، فيحرِّفون لذلك آياتِ الله ويُغَيِّرون معانيها. «ما يأكلون في بطونهم»، بأكلهم ما أكلوا من الرُّشَى على ذلك والجعالة، وما أخذوا عليه من الأجر. «إلا النار» - يعني: إلا ما

يُوردُهم النـارَ ويُصْلِيهمُـوها، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ اليَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء: ١]، معناه: ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النارَ بأكْلِهم، فاستغنى بذكر «النار» وفَهْم السامعينَ معنى الكلام، عن ذكرَ «ما يوردهم، أو يدخلهم». وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعةٌ من أهل التأويل.

وأما قوله: «ولا يُكلِّمهمُ الله يَومَ القيامة»، يقول: ولا يكلمهم بما يُحِبُّونَ ويَشْتَهُونَ، فأما بما يسُوءهم ويكرَهون، فإنه سيكلمهم. لأنه قد أخبر تعالى ذِكْرُه أنه يقول لهم - إذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾. قال: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ الآيتين [المؤمنون ١٠٧، ١٠٨].

وأمـا قولـه: «ولا يُزكِّيهم»، فإنـه يعني: ولا يُطَهِّرهم من دَنِس ذنوبهم وكفرهم، «ولهم عذاب أليم»، يعني: مُوجع.

القـول في تأويل قولـه تعـالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك الذين اشتَرَوُا الضلالة بالهدى»، أولئك الذين أخذوا الضلالةَ، وتركوا الهدى، وأخذوا ما يُوجِبُ لهم عذابَ الله يوم القيامـة، وتـركـوا ما يُوجب لهم غفـرانه ورضْوَانه. فاستغنى بذكر «العذاب» و«المغفرة»، من ذكر السبب الذي يُوجبهما، لفهم سامعي ذلك لمعناه والمراد منه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾

اختلف أهـلُ التأويل في تأويل ذلك. فقال بعضهم معنى ذلك: فما أَجْرَأَهُم على العملِ الذي يُقَرِّبُهم إلى النار.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فما أَعْمَلَهُمْ بأعمالِ أهلِ النار.

واختلفوا في تأويل «ما» التي في قوله: «فما أصبرهم على النار».

فقـال بعضهم: هي بمعنى الاستفهـام، وكـأنه قال: فما الذي صَبَّرهم؟ أيُّ شيء صبرهم؟

وقال آخرون: هو تعجُّب. يعني: فما أَشَدَّ جراءتهم على النار بعَملهم أعمالَ أهلِ النار!

فمن قال: هو تعجُّب - وجَّه تأويلَ الكلام إلى: «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذابَ بالمغفرة»، فما أشد جراءتهم - بفعلِهم ما فَعَلُوا من ذلك - على ما يُوجِبُ لهم النارَ! كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، تعجباً من كُفْرِهِ بالذي خَلقه وسَوَّى خَلْقَهُ.

فأمـا الذين وجهوا تأويله إلى الاستفهام، فمعناه: هؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فما أصبرهم على النار - والنارُ لا صبرَ عليها لأحدٍ - حتى استبدلوها بمغفرةِ الله فاعتاضوها منها بدلاً؟

وأولى هذه الأقـوال بتأويل الآية قول مَنْ قال: ما أجرأهم على النار، بمعنى: ما أجرأهم على عَذاب النار وأعملهم بأعمال أهلها. وذلك أنه مسموع من العرب: «ما أصبرَ فلاناً على الله»، بمعنى: ما أجرأ فلاناً على الله! وإنما يعجب الله خَلقـه بإظهارِ الخبرِ عن القومِ الذين يكتمون ما أنزل الله تبارك وتعالى من أمرِ محمدٍ ﷺ ونبوَّته، واشترائِهم بكتمانِ ذلك ثَمناً قليلاً من السحت والرُّشَى التي أعطوها - على وَجه التعجب من تقدمهم على ذلك. مع علمهم بأنَّ ذلك موجبٌ لهم سَخط اللهِ وأليمَ عقابِهِ.

وإنما معنى ذلك: فما أجرأهم على عذاب النار! ولكن اجتزىء بذكر «النار» من ذكر «عذابها»، كما يقال: «ما أشبه سخاءك بحاتم»، بمعنى: ما أشبه سَخاءك بسخاء حاتم، «وما أشبه شَجاعتك بعنترة».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

إن الله تعالى ذِكْرُه أشار بقوله: «ذلك»، إلى جميع ما حواه قوله: «إنّ الذين يَكتمونَ مَا أنزلَ الله من الكتاب»، إلى قوله: «ذلك بأنَّ الله نَزَّلَ الكتابَ بالحق»، من خبره عن أفعالِ أحبار اليهود، وذكره ما أَعَدَّ لهم تعالى ذِكْرُه من العقاب على ذلك، فقال: هذا الذي فعلته هؤلاء الأحبارُ من اليهود ـ بكتمانهم الناسَ ما كتموا من أمرِ محمدٍ ﷺ ونبوته مع علمهم به، طلباً منهم لعرَضٍ من الدنيا خسيس ـ وبخلافهم أمري وطاعتي ـ وذلك ـ من تركي تطهيرَهم وتزكيتَهُم وتكليمَهُم، وإعدادي لهم العذابَ الأليم ـ بأني أنزلتُ كتابي بالحق، فكفروا به واختلفوا فيه.

فيكـون في «ذلـك» حينئـذٍ وجهان من الإعراب: رفعٌ ونَصب. والرفع بـ «الباء»، والنصب بمعنى: فعلت ذلك بأني أنزلتُ كتابي بالحق، فكفروا به واختلفوا فيه. وترك ذكر «فكفروا به واختلفوا»، اجتزاءً بدلالة ما ذكر من الكلام عليه.

وأما قوله: «وإنّ الذينَ اختلفوا في الكتاب لفي شِقاقٍ بعيد»، يعني بذلك اليهودَ والنصارى. اختلفوا في كتاب الله، فكفرت اليهودُ بما قصَّ الله فيه من قَصَصِ عيسى بن مريم وأمه. وصَدَّقَتِ النصارى ببعض ذلك، وكفروا ببعضه، وكفروا جميعاً بما أنزل الله فيه من الأمرِ بتصديقِ محمدٍ ﷺ. فقال لنبيه محمدٍ

ﷺ: إن هؤلاء الذين اختلفوا فيما أنزلتُ إليك يا محمد لفي منازعةٍ ومفارقةٍ للحق بعيدة من الرشد والصواب، كما قال الله تعالى ذِكْرُه: ﴿فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ آهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله ذلك. فقال بعضهم: معنى ذلك: ليس البرَّ الصلاةُ وحدها. ولكن البرّ الخصال التي أُبَيِّنُهَا لكم.

وقال آخرون: عنى الله بذلك اليهود والنصارى. وذلك أن اليهودَ تُصلي فتوجّه قِبَلَ المغربِ، والنصارى تصلي فَتَوَجَّهُ قبل المشرق، فأنزل الله فيهم هذه الآية، يخبرهم فيها أن البرّ غير العمل الذي يعملونه، ولكنه ما بيناه في هذه الآية.

وأولى هذين القولين بتأويل الآية، القول الذي قاله قتادة والربيع بن أنس: أن يكون عنى بقوله: «ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب»، اليهودَ والنصارَى. لأن الآيات قَبْلَها مضت بتوبيخِهم ولَومهم، والخبر عنهم وعما أُعِدَّ لهم من أليمِ العذابِ. وهذا في سياق ما قبلها. إذْ كان الأمر كذلك، - «ليس البر»، - أيها اليهود والنصارى، أنْ يولي بعضُكم وجهه قِبَلَ المشرق وبعضُكم قبل المغرب، «ولكنّ البرّ منْ آمن بالله واليوم الآخر وَالملائكة والكتاب» الآية.

وقد يجوز أن يكون معنى الكلام: ولكن البارَّ مَنْ آمن بالله، فيكون «البر» مصدراً وُضع موضعَ الاسم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وآتَى المالَ على حُبه»، وأعطى مَاله في حين محبته إياه، وضنه به، وشُحِّه عليه.

فتأويل الآية: وأعطى المال - وهو له محب، حريصٌ على جمعه، شحيح به - ذَوي قَرابته، فوصل به أرحامهم.

وأما «اليتامى» «والمساكين»، فقد بينا معانيهما فيما مضى.

وأما «ابن السبيل»، فإنه المجتاز بالرَّجل. ثم اختلف أهل العلم في صفته.

فقال بعضهم: هو الضيفُ من ذلك.

وقال بعضهم: هو المسافر يمر عليك.

وإنما قيل للمسافر «ابن السبيل»، لملازمته الطريقَ - والطريقُ هو «السبيل» - فقيل لملازمته إياه في سفره: «ابنه»، كما يقال لطير الماء «ابن الماء»، لملازمته إياه، وللرجل الذي أتت عليه الدهور «ابن الأيام والليالي والأزمنة».

وأما قوله: «والسائلين»، فإنه يعني به: المستطعمين الطالبين.

وأما قوله وفي «الرقاب»، فإنه يعني بذلك: وفي فك الرقاب من العبودة، وهم المُكَاتَبُونَ الذين يسعون في فَكِّ رقابهم من العبودة، بأداءِ كتاباتهم التي فارقوا عليها سادَاتهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وأقامَ الصلاة»، أدامَ العملَ بها بحدودها. وبقوله: «وآتى الزكاة»، أعطاها على مَا فَرضها الله عليه.

فإن قال قائل: وهل من حقٍ يجب في مال إيتاؤه فرضاً غير الزكاة؟

قيل: قد اختلفَ أهلُ التأويل في ذلك:

فقال بعضهم فيه حقوقٌ تجبُ سوى الزكاة، واعتلُّوا لقولهم ذلك بهذه الآية، وقالوا: لما قالَ اللهُ تبارك وتعالى: «وآتَى المالَ على حُبِّهِ ذَوي القُربى»، ومَنْ سَمَّى اللهُ معهم، ثم قال بعدُ: «وأقامَ الصَّلاةَ وآتىٰ الزكاة»، عَلِمنا أنَّ المالَ ـ الذي وَصَفَ المؤمنينَ به أنهم يُؤْتُونَهُ ذَوي القُربى ومَن سَمَّى معهم ـ غيرُ الزكاة التي ذكر أنهم يؤتونها؛ لأن ذلك لو كان مالاً واحداً لم يكن لتكريره معنى مفهوم. قالوا: فلما كان غيرَ جائز أن يقول تعالى ذِكْرُه قولاً لا معنى له، علمنا أنَّ حُكمَ المال الأول غيرُ الزكاة، وأن الزكاةَ التي ذكرَها بَعْدُ غيره. قالوا: وبعد، فقد أبانَ تأويلُ أهلِ التأويل صِحَّةَ ما قلنا في ذلك.

وقال آخرون: بل المال الأول هو الزكاة، ولكنَّ الله وصَفَ إيتاء المؤمنين مَنْ آتـوه ذلـك في أول الآية. فعرَّف عبادَهُ ـ بوصْفِه ما وصفَ من أمرِهم ـ المواضعَ التي يجبُ عليهم أن يَضَعُوا فيها زَكَواتِهم، ثم دَلَّهم بقوله بعد ذلك: «وآتى الزكاة»، أن المال الذي آتاه القومُ هو الزكاةُ المفروضةُ ـ كانت ـ عليهم، إذْ كان أهلُ سُهْمَانِها هم الذين أخبرَ في أول الآية أنَّ القومَ آتوهم أموالهم.

وأما قوله: «والموفون بعهدهم إذا عاهدوا»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه: والذين لا ينقضون عَهدَ الله بعد المعاهدة، ولكن يوفُون به ويُتِمُّونَهُ على ما عاهدوا عليه إنْ عاهدوه عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

وإن أهل التأويل تَأَوَّلُوا «البأساء» بمعنى: البؤس، «والضراء» بمعنى: الضر في الجسد. وذلك مَنْ تأويلهم مَبْنِيٌّ على أنهم وجَّهُوا «البأساءَ والضراء» إلى أسماء الأفعال، دون صفات الأسماء ونعوتها. فالذي هو أولى بـ «البأساء والضراء»، على قولِ أهلِ التأويل، أن تكون «البأساء والضراء» أسماء أفعال، فتكون «البأساء» اسماً «للبؤس»، و«الضراء» اسماً «للضر».

وأما «الصابرين» فنصبٌ، وهو من نعت «مَن» على وجه المدح. لأن من شأن العـرب ـ إذا تطاولت صفةُ الواحد ـ الاعتراضُ بالمدحِ والذم بالنصب أحياناً، وبالرفع أحياناً.

القول في تأويل قوله تعالى: وَحِينَ ٱلْبَأْسِ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وحين البأس»، والصابرين في وقت البأس، وذلك وَقت شدة القتال في الحرب.

القول في تأويل قوله تعالى: أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ



يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك الذين صدقوا»، من آمن بالله واليوم الآخر، ونعتهم النعتَ الذي نعتهم به في هذه الآية. يقول: فمن فعل هذه الأشياء، فهم الذين صدقوا الله في إيمانهم، وحققوا قولهم بأفعالهم لا مَنْ ولَّى وجهه قِبَلَ المشرقِ والمغرب وهو يخالفُ الله في أمرِه، وينقضُ عَهْدَهُ وميثاقَهُ، ويكتمُ الناسَ بيانَ ما أمره الله ببيانه، ويكذِّب رُسُلَهُ.

وأما قوله: «وأولئك هُم المتقون»، فإنه يعني: وأولئك الذين اتقوا عقابَ الله، فتجنَّبُوا عصيانه، وحَذِروا وعده، فلم يتعدَّوْا حدودَهُ. وخافوه، فقاموا بأداء فرائضه.

القــول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «كتب عليكم القصاص في القتلى»، فُرِض عليكم.

فإن قال قائل: أفرضٌ على وليِّ القتيل القصاصُ من قاتلِ وَلِيِّهِ؟

قيل: لا، ولكنه مباحٌ له ذلك، والعفو، وأخذُ الدية.

فإن قال قائل: وكيف قال: «كُتِبَ عليكم القصاص»؟

قيل: إن معنى ذلك على خلاف ما ذهبتَ إليه، وإنما معناه: يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصَاصُ في القتلى الحرّ بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى، أي: أن الحر إذا قتل الحرَّ، فَدَمُ القاتل كفءٌ لدمِ القتيل، والقصاصُ منه دون غيره من الناس، فلا تجاوزوا بالقتلِ إلى غيرِهِ مِمَّنْ لم يقتلْ، فإنه حرامٌ عليكم أن تقتلوا بقتيلِكم غيرَ قاتِلِهِ.

والفرض الذي فرضَ الله علينا في القصاص، هو ما وصفتُ من تَرْكِ المجاوزةِ بالقصاص قَتلَ القاتل بقتيله إلى غيره، لا أنه وَجَبَ علينا القصاصُ فرضاً وُجوبَ فرضِ الصلاة والصيام، حتى لا يكون لنا تَرْكُهُ، ولو كان ذلك فرضاً لا يجوزُ لنا تركُهُ، لم يكن لقوله: «فَمن عُفِيَ لهُ من أخيه شيءٌ»، معنىً مفهوم. لأنه لا عفوَ بعد القصاص فيقال: «فمن عفي له من أخيه شيء».

وقد قيل إن معنى القصاص في هذه الآية، مقاصَّة دياتِ بعض القتلى بدياتِ بعض. وذلك أن الآية عندهم نزلت في حِزبين تحاربوا على عهدِ رسولِ الله ﷺ، فقتل بعضهم بعضاً، فأمِرَ النبيُّ ﷺ أن يُصْلح بينهم بأن تَسقط دياتُ نساءِ أحدِ الحزبين بدياتِ نساءِ الآخرين، ودياتُ رجالِهم بدياتِ رجالهم، وديات عبيدهم بديات عبيدهم، قصاصاً. فذلك عندهم مَعنى «القصاص» في هذه الآية.

فإن قال قائل: فإنه تعالى ذِكْرُه قال: «كُتب عليكم القصَاص في القتلى الحر بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى»، فما لنا أنْ نقتص للحُرِّ إلا من الحر، ولا للأنثى إلا من الأنثى؟

قيل: بل لنا أن نقتص للحر من العبد، وللأنثى من الذكر بقول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ [الإسراء: ٣٣]، وبالنقل المستفيض عن رسول الله ﷺ أنه قال: المسلمون تتكافأ دماؤهم[1].

فإن قال: فإذ كان ذلك، فما وجه تأويل هذه الآية؟

قيل: اختلف أهلُ التأويل في ذلك.

فقال بعضهم: نَزلت هذه الآية في قومٍ كانوا إذا قَتَلَ الرجلُ منهم عَبْدَ

---

(١) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ، وهو حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (٢٦٨٥)، وانظر صحيح أبي داود للعلامة الألباني (٢٤٥٧).

قومٍ آخرين، لم يرضوا من قتيلهم بدمِ قاتله، من أجلِ أنه عَبْدٌ، حتى يقتلوا به سَيِّدَهُ. وإذا قتلت المرأةُ من غيرِهم رجلًا، لم يرضوا من دم صاحبهم بالمرأةِ القاتلة، حتى يقتلوا رجلًا من رهطِ المرأة وعشيرتها. فأنزل الله هذه الآية، فأعلمهم أن الذي فُرض لهم من القصاص أن يقتلوا بالرجلِ الرجلَ القاتلَ دون غيرِه، وبالأنثى الأنثى القاتلةَ دون غيرها من الرجال، وبالعبدِ العبدَ القاتلَ دون غيره من الأحرار. فنهاهم أن يَتَعَدَّوْا القاتلَ إلى غيرِه في القصاص.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في فريقين كان بينهم قتالٌ على عهد رسول الله ﷺ، فقتل من كلا الفريقين جماعةٌ من الرجال والنساء، فامِر النبي ﷺ أنْ يُصلح بينهم، بأن يجعل ديات النساء من كل واحدٍ من الفريقين قصاصاً بديات النساء من الفريق الآخر، وديات الرجال بالرجال، وديات العبيد بالعبيد، فذلك معنى قوله: «كتب عليكم القصاص في القتلى».

وقال آخرون: بل ذلك أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه بمقاصَّة ديةِ الحرِّ ودية العبد، ودية الذَّكرِ ودية الأنثى، في قتل العمد - إن اقتُصَّ للقتيل من القاتل، والتراجع بالفضل والزيادة بين ديتي القتيل والمقتص منه.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في حال مَا نزلت: والقومُ لا يقتلون الـرجـل بالمرأة، ولكنهم كانوا يقتلون الرجلَ بالرجلِ، والمرأةَ بالمرأة، حتى سَوَّى الله بين حُكْمِ جميعهم بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، فجعل جميعَهم قَوَدَ بعضهم ببعض.

فإذْ كان مُختلَفاً الاختـلافُ الذي وصفتُ، فيما نزلت فيه هذه الآية، فالواجب علينا استعمالها، فيما دلت عليه من الحُكم، بالخبر القاطعِ العذرَ. وقد تظاهرت الأخبار عن رَسولِ الله ﷺ بالنقلِ العامِّ: أن نفس الرجل الحر قَوَدٌ قصَاصاً بنفس المرأة الحرة. فإذْ كان ذلك كذلك، وكانت الأمَّة مختلفة في

التـراجـع بفضل مَا بين دِيَةِ الرجلِ والمرأة، كان واضحاً فسادُ قول مَنْ قال بالقصـاص في ذلـك والتـراجع بفضل ما بين الديتين، بإجماع جميع أهلِ الإسلام: على أن حراماً على الرجل أنْ يُتلفَ من جَسدهِ عضواً بِعِوَضٍ يأخذهُ على إتلافه، فدعْ جميعَه ـ وعلى أن حراماً على غيره إتلاف شيء منه ـ مثل الذي حُرِّم من ذلك ـ بعوَض يُعطيه عليه. فالواجبُ أنْ تكون نفسُ الرجل الحر بنفس المرأة الحرة قَوَداً.

وإذْ كان ذلك كذلك، كان بيّناً بذلك أنه لم يرد بقوله تعالى ذِكْرُه: «الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى» أنْ لا يُقادَ العبدُ بالحرِّ، وأنْ لا تُقتلَ الأنثى بالذكر ولا الذكر بالأنثى. وإذْ كان ذلك كذلك، كان بيِّناً أن الآية معنيٌّ بها أحد المعنيين الآخـرين. إمّا قولنا: من أنْ لا يُتعدَّى بالقصاصِ إلى غيرِ القاتلِ والجاني، فيؤخذ بالأنثى الذكر وبالعبد الحر. وإمّا القول الآخر: وهو أن تكون الآيةُ نزلت في قوم بأعيانهم خاصة أُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يجعل ديات قتلاهم قصَاصاً بعضها من بعض.

وقد أجمع الجميع ـ لا خلاف بينهم ـ على أن المقاصَّة في الحقوق غير واجبـة، وأجمعوا على أن الله لم يقض في ذلك قضاء ثم نَسخه. وإذْ كان كذلك، وكان قوله تعالى ذِكْرُه: «كُتب عليكم القصَاص» يُنْبِىءُ عن أنه فَرضٌ، كان معلوماً أنَّ القولَ خلافُ ما قاله قائل هذه المقالة. لأنَّ ما كان فرضاً على أهل الحقوق أنْ يفعلوه، فلا خيارَ لهم فيه. والجميع مُجْمِعُونَ على أنَّ لأهلِ الحقوق الخيارَ في مقاصَّتهم حقوقهم بعضَها من بعض. فإذْ تبيَّنَ فسادُ هذا الوجه الذي ذكرنا، فالصحيح من القول في ذلك هو ما قلنا.

وأما «القصاص» فإنه من قول القائل: «قاصصتُ فلاناً حقّي قِبَلَهُ من حَقه قِبَلي، قصاصاً ومُقاصَّة». فقتل القاتل بالذي قتله «قصاص»، لأنه مفعول به

مثلُ الذي فعَل بمن قتله، وإن كان أحد الفعلين عُدواناً والآخر حَقّاً. فهما وإنِ اختلفا من هذا الوجه، فهما متفقان في أنَّ كُلَّ واحدٍ قد فعلَ بصاحبه مثلَ الذي فعل صاحبُه به. وجعل فعل وَليِّ القتيلِ الأوّل إذا قَتَلَ قاتلَ وليه ـ قصاصاً، إذ كان بسبب قتله استحق قتلَ من قتله، فكأن وليّه المقتول هو الذي وَلِي قَتل قاتله، فاقتص منه.

وأما «القتلى» فإنها جَمْعُ «قتيلٍ» كما «الصرعى» جمع «صريع»، والجرحى جمع «جريح». وإنما يجمع «الفعيل» على «الفعلى» إذا كان صفة للموصوف به، بمعنى الزمانة والضرر الذي لا يقدر معه صاحبه على البراح من موضعه ومصرعه، نحو القتلى في معاركهم، والصرعى في مواضعهم، والجرحى، وما أشبه ذلك.

فتأويل الكلام إذاً: فُرض عليكم، أيها المؤمنون، القصاصُ في القتلى: أن يُقْتَصَّ الحُرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والأنثى بالأنثى. ثم ترك ذكر «أن يقتص» اكتفاءً بدلالة قوله: «كُتب عليكم القصاص» ـ عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: تأويله: فمن تُرك له من القتل ظلماً، من الواجب كان لأخيه عليه من القصَاص ـ وهو الشيء الذي قال الله: «فمن عُفِيَ له من أخيهِ شيءٌ» ـ فاتباعٌ من العافي للقاتل بالواجب له قِبَلَهُ من الدية، وأداءٌ من المعفوِّ عنه ذلك إليه بإحسان.

وقال آخرون معنى قوله: «فمن عُفي»، فمن فَضَل له فضل، وبقيتْ له بقية. وقالوا: معنى قوله: «من أخيه شيء»: من ديةِ أخيه شيء، أو من أرْشِ[1] جراحتِهِ، فاتباعٌ منه القاتلَ أو الجارحَ الذي بَقي ذلك قِبَلَهُ ـ بمعروفٍ، وأداءٌ ـ من القاتلِ أو الجارحِ ـ إليه ما بقي قبله له من ذلك بإحسان.

وأولى الأقوال عندي بالصواب في قوله: «فمن عُفي له من أخيه شيء»: فمن صُفِح له ـ من الواجب كان لأخيه عليه من القود ـ عن شيءٍ من الواجب، على ديةٍ يأخذها منه، فاتباعٌ بالمعروف ـ من العافي عن الدم، الراضي بالديةِ من دم وَلِيِّهِ ـ وأداءٌ إليه ـ من القاتل ـ ذلك بإحسان. لما قد بَيَّنَّا من العللِ فيما مضى قَبْلُ: من أنَّ معنى قولِ الله تعالى ذِكْرُه: «كُتب عليكم القصاص»، إنما هو القصَاص من النفوس القاتلة أو الجارحة أو الشاجَّة عمداً. كذلك «العفو» أيضاً عن ذلك.

وأما معنى قَوله: «فاتباع بالمعروف»، فإنه يعني: فاتباع على ما أوجبه الله لَهُ من الحقِّ قِبَلَ قاتلِ وليه، من غير أن يزداد عليه ما ليس له عليه ـ في أسنان الفرائض أو غير ذلك ـ أو يكلفه ما لم يوجبه الله له عليه.

وأما إحسان الآخر في الأداء، فهو أداءُ ما لَزِمه بقتله لولي القتيل، على ما ألزمه اللهُ وأوجبه عليه، من غيرِ أنْ يبخسه حقًّا له قبله بسبب ذلك، أو يحوجه إلى اقتضاءٍ ومطالبة.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: «فاتباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان»، ولم يَقُـلْ فاتباعاً بالمعروف وأداءً إليه بإحسان، كما قال: ﴿فإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]؟

---

(١) الأرش: ديةُ الجنايات والجراحات كالشَّجَّةِ ونحوها.

قيل: لو كان التنزيل جاء بالنصب، وكان: فاتباعاً بالمعروف وأداءً إليه بإحسان ـ كان جائزاً في العربية صحيحاً، على وجْه الأمر، كما يقال: «ضرباً ضرباً، وإذا لقيتَ فلاناً فتبجيلاً وتعظيماً»، غير أنه جاءَ رفعاً، وهو أفصح في كلام العرب من نَصْبِه. وكذلك ذلك في كُلِّ ما كان نظيراً له، مما يكون فرضاً عامًّا ـ فيمن قد فعل، وفيمن لم يفعل إذا فعل ـ لا ندباً وحثًّا. ورفعه على معنى: فمن عفي له من أخيه شيء، فالأمر فيه: اتباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان، أو فالقضاء والحكم فيه: اتباع بالمعروف.

وقد قال بعض أهل العربية[1]: رفع ذلك على معنى: فمن عُفِيَ له من أخيه شيء، فعليه اتباعٌ بالمعروف. وهذا مذهب، والأول الذي قلناه هو وجه الكلام. وكذلك كلّ ما كان من نظائر ذلك في القرآن، فإن رفعَه على الوجه الذي قُلناه. وذلك مثل قوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقوله: ﴿فإمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وأما قوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾، فإن الصواب فيه النصب، وهو وجه الكلام، لأنه على وجه الحثِّ من الله تعالى ذِكْرُه عبادَهُ على القتلِ عند لقاء العدو، كما يقال: «إذا لقيتم العَدُوَّ فتكبيراً وتهليلاً»، على وجه الحضِّ على التكبير، لا على وجه الإيجاب والإلزام.

### القول في تأويل قوله تعالى: ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك»، هذا الذي حكمتُ به وَسَنَنْتُه لكم، من إباحتي لكم ـ أيتها الأمة ـ العفوَ عن القصاص من قاتل قتيلكم، على ديةٍ تأخذونها فتملكونها مُلْكَكُمْ سائرَ أموالِكم التي كنتُ مَنعتها مَن قَبْلَكُمْ من الأممِ

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء ١: ١٠٩-١١٠.

السالفة. «تخفيف من ربكم»، يقول: تخفيفٌ مني لكم مما كنت ثَقَّلته على غيركم، بتحريم ذلك عليهم. «ورحمةٌ»، مني لكم.

القول في تأويل قوله تعالى: فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فمن اعتدى بعد ذلك»، فمن تجاوز ما جَعله الله له بعدَ أخذِهِ الدِّية، اعتداءً وظلماً إلى ما لم يُجعل له من قتل قاتِلِ وليه وسفكِ دمه، فله بفعله ذلك وتعدِّيه إلى ما قد حَرَّمْتُه عليه، عذابٌ أليم.

واختلفوا في معنى «العذاب الأليم» الذي جعله الله لمن اعتدى بعد أخذهِ الديةَ من قاتل وليِّه.

فقال بعضهم: ذلك «العذابُ» هو القتلُ بمن قتله بعد أخذ الدية منه، وعفوه عن القصاص منه بدم وليِّه.

وقال بعضهم: ذلك «العذابُ» عقوبة يعاقبه بها السلطانُ على قدر ما يَرَى من عقوبته.

وأولى التأويلين بقوله: «فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم»، تأويلُ من قال: فمن اعتـدى بعد أخذِهِ الديةَ فَقتلَ قاتلَ وليه، فله عذابٌ أليم في عاجـل الدنيا، وهو القتل. لأن الله تعالى جعل لكل وليِّ قتيلٍ قُتِلَ ظلماً، سلطاناً على قاتل وَلِيِّه، فقال تعالى ذِكْرُه: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي القَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣].

فإذْ كان ذلك كذلك، وكان الجميعُ من أهلِ العلم مُجْمِعِينَ على أنَّ من قَتل قاتلَ وليه بعد عفوِهِ عنه وأخذِهِ منه ديةَ قتيلِهِ، أنه بقتلِهِ إياهُ له ظالمٌ

في قتله - كان بَيِّناً أن لا يولَّى من قَتله ظُلماً كذلك، السلطانَ عليه في القصاص والعفو وأخذ الدية، أيّ ذلك شاء[١]. وَإِذْ كان ذلك كذلك، كان معلوماً أن ذلك عذابُه. لأن مَنْ أقيمَ عليه حدُّه في الدنيا، كان ذلك عقوبته من ذنبه، ولم يكن به متَّبعاً في الآخرة، على ما قد ثبت به الخبر[٢] عن رسول الله ﷺ.

## القول في تأويل قوله تعالى: وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولكم في القصَاص حَياةٌ يا أولي الألباب»، ولكم يا أولي العقول، فيما فرضت عليكم وأوجبتُ لبعضكم على بعض، من القصاصِ في النفوس والجراح والشجاج، مَا مَنع به بعضكم من قتل بعض، وقَدَع بعضكم عن بعض، فحييتم بذلك، فكان لكم في حكمي بينكم بذلك حياةٌ.

وأما تأويل قوله: «يا أولي الألباب»، فإنه: يا أولي العقول. «والألباب» جمع «اللب»، و«اللب» العقل.

---

(١) قال العلامة محمود شاكر: في هذه العبارة غموض، وأخشى أن يكون قد سقط من الكلام شيء، ولكن المعنى العام ظاهر.

(٢) كالذي رواه البخاري (٦٧٨٤) من حديث عبادة بن الصامت قال: «بايعتُ رسول الله ﷺ في رهط، فقال: أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فأخذ به في الدنيا، فهو كفارةٌ له وطهور، ومن ستره الله فذلك إلى الله، إن شاء الله عذَّبه وإن شاء غفر له.

وخَصَّ اللهُ تعالى ذِكْرُه بالخطابِ أهلَ العقول، لأنهم هم الذين يعقلون عن الله أمره ونهيه، ويتدبّرون آياته وحججه دونَ غيرهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾

وتأويل قوله: «لعلكم تتقون»، أي تتقون القصاص، فتنتهون عن القتل.

القول في تأويل قوله جَلَّ ذِكْرُه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ١٨٠﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «كُتب عليكم»، فُرض عليكم، أيها المؤمنون، الوصيةُ «إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الموتُ إنْ تَرَكَ خيراً» والخيرُ: المالُ، «للوالدين والأقربين» الذين لا يرثونه، «بالمعروف»: وهو مَا أذِنَ اللهُ فيه وأجازه في الوصيةِ مما لم يجاوز الثلث، ولم يتعمّد المُوصي ظُلم وَرَثته. «حقًّا على المتقين» يعني بذلك: فرض عليكم هذا وأوجبه، وجعله حقًّا واجباً على مَن اتقى الله فأطاعه أن يعمل به.

فإن قال قائل: أوَ فرضٌ على الرجل ذي المال أن يُوصي لوالديه وأقربيه الذين لا يرثونه؟

قيل: نعم.

فإن قال: فإنْ هو فرَّطَ في ذلك فلم يُوصِ لهم، أيكونُ مُضَيِّعاً فرضاً يَحْرَج بتضييعه؟

قيل: نعم.

فإن قال: وما الدلالةُ على ذلك؟

قيل: قول الله تعالى ذِكْرُه: «كُتبَ عليكم إذا حَضر أحدَكُمُ الموتُ إنْ تَرَكَ خيراً الوصيَّةُ للوالدين والأقربين»، فأعلم أنه قد كتبه علينا وفَرَضَهُ، كما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ولا خلافَ بين الجميع أن تاركَ الصيامِ وهو عليه قادرٌ، مُضَيِّعٌ بتركهِ فَرْضاً للهِ عليه. فكذلك هو بتركِ الوصية لوالديه وأقربيه ولهُ ما يوصي لهم فيه، مُضِيعٌ فَرْضَ الله عَزَّ وجل.

فإن قال: فإنك قد علمت أنّ جماعة من أهل العلم قالوا: الوصيةُ للوالدين والأقربين منسوخةٌ بآية الميراث؟

قيل: له: وخالفهم جماعةٌ غيرهم فقالوا: هي محكمةٌ غيرُ منسوخة. وإذا كان في نسخ ذلك تنازعٌ بين أهل العلم، لم يكن لنا القضاءُ عليه بأنه منسوخٌ إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، إذْ كان غيرَ مستحيل اجتماعُ حكمِ هذه الآية وحكمِ آية المواريث في حال واحدةٍ على صحةٍ، بغير مدافعةِ حُكْمِ إحداهما حُكمَ الأخرى ـ وكان الناسخُ والمنسوخ هما المعنيان اللذان لا يجوز اجتماع حكمهما على صحةٍ في حالةٍ واحدة، لنفي أحدهما صاحبَه.

واختلف أهل العلم في حكم هذه الآية.

فقال بعضهم: لم ينسخِ الله شيئاً من حُكْمِها، وإنما هي آيةٌ ظاهرُها ظاهرُ عمومٍ في كل والد ووالدة والقريب، والمرادُ بها في الحكم البعضُ منهم دون الجميع، وهو مَنْ لا يرثُ منهم الميت دون مَنْ يَرث.

وقال آخرون: بل هي آية قد كان الحكم بها واجباً وعُمل به بُرهةً، ثم نَسخ اللهُ منها بآية المواريث الوصيةَ لوالدي المُوصِي وأقربائه الذين يرثونه، وأقرَّ

فرضَ الوصية لمن كان منهم لا يرثه.

وقال آخرون: بل نَسخ الله ذلك كله وفرضَ الفرائض والمواريث، فلا وصية تجب لأحدٍ على أحد قريبٍ ولا بعيدٍ.

وأما «الخير» الذي إذا تركه تاركٌ وَجَبَ عليه الوصيةُ فيه لوالِدَيه وأقرَبيه الذين لا يرثون، فهو: المال.

ثم اختلفوا في مبلغ المال الذي إذا تركه الرجل كان ممن لزمه حكم هذه الآية.

فقال بعضهم: ذلك ألف درهم.

وقال بعضهم: ذلك ما بين خمس مئة درهم إلى الألف.

وقال بعضهم: الوصية واجبة من قليلِ المالِ وكثيرِه.

وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: «كُتِبَ عَليكم إذا حَضر أحدَكُم الموتُ إنْ ترك خيراً الوصية» القول بأن الله لم يحدَّ ذلك بحدٍّ، ولا خص منه شيئاً فيجوز أن يحال ظاهر إلى باطن. فكلُّ مَنْ حضرته منيَّته وعنده مالٌ قَلَّ ذلك أو كثر، فواجبٌ عليه أن يوصي منه لمن لا يرثه من آبائهِ وأمهاتهِ وأقربائه الذين لا يرثونه بمعروف، كما قال الله جَلَّ ذِكْرُه وأمرَ به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: فمن غيَّر ما أوصَى به الموصي ـ من وصيتهِ بالمعروفِ لوالديهِ أو أقربيهِ الذين لا يرثونه ـ بعد ما سمع الوصيةَ، فإنما إثمُ التبديلِ على مَنْ بَدَّل وصيته.

فإن قال لنا قائل: وعلامَ عادت «الهاء» التي في قوله: «فمن بَدَّلَهُ»؟

قيل: على محذوفٍ من الكلامِ يدلُّ عليه الظاهرُ. وذلك هو أمر الميت، وإيصاؤه إلى من أوصَى إليه، بما أوصَىٰ به. لمن أوْصَى له.

ومعنى الكـلام: «كُتب عليكم إذا حَضـر أحدكم الموت إنْ ترك خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربين بالمعروف حقًّا عَلى المتقين»، فَأَوْصُوا لهم، فمن بَدَّلَ ما أوصيتُمْ به لهم بعد ما سَمعكم تُوصُونَ لَهم، فإنما إثْمُ ما فعلَ من ذلك عليه دونكم.

وإنمـا قلنا إن «الهاء» في قوله: «فمن بدله» عائدةٌ على محذوفٍ من الكلام يدل عليه الظاهرُ، لأن قوله: «كُتب عليكم إذا حَضر أحدكمْ الموتُ إن ترك خيراً الوصية» من قول الله، وأنّ تبديل المبدِّل إنما يكون لوصية الموصِي. فأما أمرُ الله بالوصية فلا يقدر هو ولا غيره أنْ يُبَدِّلَهُ، فيجوز أن تكون «الهاء» في قوله: «فمن بدله» عائدة على «الوصية».

وأما «الهاء» في قوله: «بعدما سمعه»، فعائدة على «الهاء» الأولى في قوله: «فمن بَدَّله».

وأما «الهاء» التي في قوله: «فإنما إثمه»، فإنها مكنيٌّ «التبديل»، كأنه قال: فإنما إثم ما بدَّل من ذلك على الذين يبدلونه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٨١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: «إن الله سميع» لوصيتكم التي أمرتكم أن تُوصُوا بها لآبائكم وأمهاتِكم وأقربائِكم حين تُوصُونَ بها، أتعدلون فيها على ما أذِنتُ لكم من فعل ذلك بالمعروف، أم تَحِيفُونَ فتمْيلون عن الحق وتجورون عن

القصد؟ «عليمٌ» بما تخفيه صدوركم من الميل إلى الحق، والعدل، أم الجور والحيْف.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

وأوْلى الأقوالِ في تأويل الآية أنْ يكونَ تأويلها: فَمَنْ خاف من مُوصٍ جَنفاً أو إثماً ـ وهو أنْ يميلَ إلى غير الحَقِّ خطأً منه، أو يتعمد إثماً في وصيته، بأنْ يُوصِي لوالديه وأقربيه الذين لا يَرِثُونَهُ بأكثرَ مما يجوزُ له أنْ يُوصِي لهم به من مالِهِ، وغير ما أَذِنَ الله له به مما جاوز الثلث أو بالثلث كله، وفي المال قلة، وفي الوَرَثَة كثرةٌ ـ فلا بأس على مَنْ حَضَرَهُ أنْ يُصلحَ بين الذين يُوصَى لهم، وبين ورثةِ الميت، وبين الميتِ، بأن يأمرَ الميت في ذلك بالمعروف ويعرِّفه ما أباح الله له في ذلك وأذِنَ له فيه من الوصيةِ في ماله، وينهاه أنْ يجاوزَ في وصيتِهِ المعروفَ الذي قال الله تعالى ذِكْرُه في كتابه: «كُتِبَ عليكم إذا حَضَرَ أحدَكُمُ الموتُ إنْ تركَ خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربينَ بالمعروف»، وذلك هو «الإصلاحُ» الذي قال الله تعالى ذِكْرُه: «فأصلح بينهم فلا إثمَ عليه». وكذلك لمن كان في المـال فَضْل وكثرةٌ وفي الورثة قِلة، فأراد أنْ يقتصرَ في وصيتِهِ لوالديه وأقربيه عن ثُلُثِهِ، فأصلح مَنْ حَضَرَهُ بينه وبين ورثته وبين والديه وأقربيه الذين يريدُ أنْ يُوصِي لهم، بأنْ يأمرَ المريضَ أنْ يزيدَ في وصيته لهم، ويبلغ بها ما رَخَّصَ اللهُ فيه من الثلث. فذلك أيضاً هو من الإصلاحِ بينهم بالمعروف.

وإنما اخترنا هذا القولَ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه قال: «فمن خَاف من مُوصٍ جَنفاً أو إثماً»، يعني بذلك: فمن خاف من موصٍ أن يَجْنَف أو يأثم. فخوفُ

الجنف والإثم من الموصِي، إنما هو كائنٌ قبلَ وقوعِ الجنف والإثم. فأما بعد وجودهِ منه، فلا وَجْهَ للخوفِ منه بأنْ يَجنف أو يأثم، بل تلك حالُ مَنْ قد جَنَفَ أو أثم. ولوْ كان ذلك معناه لقيل: فمن تبيّن من مُوصٍ جَنفاً أو إثماً - أو أيقنَ أو عَلِمَ - ولم يقل: فمن خَافَ منه جَنفاً.

فإنْ أشْكَلَ ما قلنا من ذلك على بعضِ الناسِ فقال: فما وجهُ الإصلاحِ حينئذٍ، والإصلاحُ إنما يكون بين المختلفين في الشيء؟

قيل: إنّ ذلك وإنْ كان من معاني الإصلاح، فمن الإصلاح الإصلاحُ بين الفريقين، فيما كان مخوفاً حدوثُ الاختلاف بينهم فيه، بما يُؤمَنُ معه حُدوث الاختلاف. لأنَّ «الإصلاح»، إنما هو الفعل الذي يكون معه إصلاحُ ذات البين، فسواء كان ذلك الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين - قبلَ وقوع الاختلاف أو بعد وقوعه.

فإن قال قائل: فكيف قيل: «فأصلح بينهم»، ولم يجر للورثة ولا للمختلفين، أو المخوف اختلافهم، ذكرٌ؟

قيل: بل قد جرى ذِكْرُ الذين أمر الله تعالى ذِكْرُهُ بالوصيةِ لهم، وهم والدا الموصي وأقْربُوه، والذين أمروا بالوصية في قوله: «كُتب عليكم إذا حَضر أحدكم الموتُ إن تَرَكَ خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف»، ثم قال تعالى ذِكْرُه: «فمن خافَ من مُوص» - لمن أمرته بالوصية له - «جَنفاً أو إثماً فأصلح بينهم» - وبين من أمرته بالوصية له - «فلا إثم عليه». والإصلاح بينه وبينهم، هو إصلاح بينهم وبين ورثة الموصي.

وأما «الجنف»، فهو الجورُ والعدول عن الحق في كلام العرب، يقال منه: «جَنف الرجل على صاحبه يَجنَف» - إذا مال عليه وجَار - «جَنفاً».

فمعنى الكلام: من خاف من موصٍ جَنفاً له بموضع الوصية، وميلاً عن

الصواب فيها، وجوراً عن القصد أو إثماً بِتَعَمُّدِهِ ذلك على عِلْمٍ منه بخطأ ما يأتي من ذلك، فأصلح بينهم، فلا إثم عليه.

وأما قوله: «إنّ الله غَفورٌ رَحيم»، فإنه يعني: والله غَفورٌ للموصي - فيما كان حدَّثَ به نفسَهُ من الجنفِ والإثم، إذا تَرَكَ أن يأثم ويَجنف في وصيته، فتجاوزَ له عما كان حدَّث به نفسه من الجور، إذ لم يُمْضِ ذلك فيُغْفِل أن يؤاخذه به، «رحيمٌ» بالمصلح بينَ المُوصي وبين مَنْ أراد أن يَحيف عليه لغيره، أو يَأثَم فيه له.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «يا أيها الذين آمنوا»، يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا بهما وأقرُّوا.

ويعني بقوله: «كتب عليكم الصيام»، فُرِضَ عليكم الصيام.

و«الصيام» مصدر، من قول القائل: «صُمت عن كذا وكذا» - يعني: كففت عنه - «أصوم عَنه صوْماً وصياماً». ومعنى «الصيام»، الكَفُّ عما أمَرَ اللهُ بالكَفِّ عنه. ومن ذلك قيل: «صَامتِ الخيلُ»، إذا كَفَّتْ عن السيرِ، ومنه قول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً﴾ [مريم: ٢٦] يعني: صمتاً عن الكلام.

وقوله: «كما كُتب على الذين من قبلكم»، يعني فُرِضَ عليكم مثل الذي فرض على الذين منْ قبلكم.

ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا فُرِض عليكم الصيامُ كما فرض على

الذين من قبلكم من أهل الكتاب، «أياماً معدودات»، وهي شهر رمضان كله. لأن مَنْ بعدَ إبراهيم ﷺ كان مأموراً باتباع إبراهيم، وذلك أن الله جَلَّ ثناؤه كان جَعله للناس إماماً، وقد أخبرنا الله عَزَّ وجل أن دينه كان الحنيفية المسلمةَ، فأمر نبينا ﷺ بمثل الذي أمر به مَنْ قبله من الأنبياء.

وأما التشبيه، فإنما وقع على الوقت. وذلك أنَّ مَنْ كان قبلنا إنما كان فرِض عليهم شهر رمضان، مثل الذي فُرض علينا سواء.

وأما تأويل قوله: «لعلكم تَتقون»، فإنه يعني به: لتتقوا أكلَ الطعام وشربَ الشرابِ وجماعَ النساءِ فيه. يقول: فرضت عليكم الصوم والكف عَمَّا تكونون بترك الكف عنه مفطرين، لتتقوا ما يُفطركم في وقت صومكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: كتب عليكم أيها الذين آمنوا ـ الصيامُ أياماً معدودات.

وقوله: «كما كتب على الذين من قبلكم» من الصيام، كأنه قيل: كُتِبَ عليكم الذي هو مثل الذي كُتِبَ على الذين من قبلكم: أن تصوموا أياماً معدودات.

ثم اختلف أهل التأويل فيما عَنى الله عَزَّ وجل بقوله: «أياماً معدودات».

وأولى ذلك بالصواب عندي قولُ مَنْ قال: عنى الله جَلَّ ثناؤه بقوله: «أياماً معدودات»، أيامَ شهر رمضان. وذلك أنه لم يأت خبرٌ تَقوم به حُجةٌ، بأنَّ صوماً فُرِض على أهل الإسلام غير صوم شهر رمضان، ثم نُسِخَ بصوم شهر رمضان، وأن الله تعالى قَد بيَّن في سياق الآية أنَّ الصيامَ الذي أوجبه جَلَّ ثناؤه علينا هو صيام شهر رمضان دون غيره من الأوقات، بإبانته عن الأيام التي أخبر أنه كتب علينا صومَها بقوله: «شهرُ رَمضان الذي أُنْزِلَ فيه القرآنُ». فمن ادَّعى أنَّ

صوماً كان قد لزم المسلمين فرضه غير صوم شهر رمضان الذي هم مجمعون على وجوبِ فرض صومه ـ ثم نسخ ذلك ـ سئل البرهانَ على ذلك من خبرٍ تقومُ به حُجة، إذْ كان لا يعلم ذلك إلا بخبرٍ يقطع العذرَ.

وإذ كان الأمر في ذلك على ما وصفنا للذي بيّنا، فتأويل الآية: كُتِبَ عليكم أيها المؤمنون الصيامُ كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أياماً معدودات هي شهر رمضان. وجائز أيضاً أن يكون معناه: «كتب عليكم الصيام»، كتب عليكم شهر رمضان.

وأما «المعدودات»، فهي التي تُعَدُّ مبالغها وساعاتُ أوقاتها. ويعني بقوله: «معدودات»، مُحْصَيَاتٍ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «فمن كان منكم مريضاً»، من كان منكم مريضاً، ممن كلِّف صَومه، أو كان صحيحاً غير مريض وكان على سَفر، «فَعِدَّةٌ من أيامٍ أخر»، يقول: فعليه صوم عدة الأيام التي أفطرها في مرضه أو في سفره، «من أيام أخر»، يعني: من أيامٍ أُخَرَ غيرِ أيامِ مرضهِ أو سفره.

وأما قوله: «وعَلى الذين يُطيقونه فديةٌ طَعامُ مسكين»، فإنّ قراءة كافة المسلمين: «وعلى الذين يُطيقونه»، وعلى ذلك خطوط مصاحفهم، وهي القراءة التي لا يجوز لأحدٍ من أهل الإسلام خلافُها، لنقل جميعهم تصويبَ ذلك قرناً عن قرن.

وأما معنى «الفدية» فإنه: الجزاء، من قولك: «فديت هذا بهذا»، أي جزيته به، وأعطيته بدلاً منه.

ومعنى الكلام: وعلى الذين يُطيقون الصيام جزاءُ طعام مسكين، لكلّ يوم أفطرَه من أيام صيامه الذي كتب عليه.

واختلف أهلُ العلم في مبلغ الطعام الذي كانوا يطعمون في ذلك إذا أفطروا.

فقال بعضهم: كان الواجبُ من طعام المسكين لإفطار اليوم الواحد نِصفَ صاعٍ من قمح.

وقال بعضهم: كان الواجب من طعام المسكين لإفطار اليوم، مُدًّا من قمحٍ ومن سائر أقواتهم.

وقال بعضهم: كان ذلك نصف صاع من قمح، أو صاعاً من تمر أو زبيب.

وقال بعضهم: ما كان المفطر يتقوَّته يومَه الذي أفطرَه.

وقال بعضهم: كان ذلك سحوراً وعَشاءً، يكون للمسكين إفطاراً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾

إن الله تعالى ذِكْرُه عَمَّمَ بقوله: «فمن تطوع خيراً»، فلم يخصص بعضَ معاني الخير دون بعض. فإنَّ جَمْع الصَوْم مع الفدية من تطوُّعِ الخير، وزيادةَ مسكينٍ على جزاء الفدية من تطوُّعِ الخير. وجائز أن يكون تعالى ذِكْرُه عَنى بقوله: «فمن تطوع خيراً»، أيَّ هذه المعاني تطوّع به المفتدي من صومه، فهو خيرٌ له. لأنَّ كل ذلك من تطوع الخير، ونوافل الفضل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَأَنْ تَصوموا»، ما كُتِبَ عليكم من شهرِ رمضان، «فهو خيرٌ لكم» من أن تُفْطِرُوه وتفتدوا.

وأما قوله: «إن كنتم تعلمون»، فإنه يعني: إن كنتم تعلمون خيرَ الأمرين لكم أيها الذين آمنوا، من الإفطار والفدية، أو الصوم على ما أمركم الله به.

القول في تأويل قوله تعالى: **شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ**

و«الشهر»، فيما قيل، أصله من «الشهرة». يقال منه: «قد شَهر فلانٌ سَيْفه» - إذا أخرجه من غمده فاعترض به مَنْ أراد ضَرْبَهُ - «يشهرُه شهراً». وكذلك «شَهر الشهر»، إذا طلع هلاله، «وأشهرْنا نحن»، إذا دخلنا في الشهر.

وأما «رمضان»، فإنَّ بعضَ أهلِ المعرفة بلغة العرب كان يزعم أنه سمي بذلك لشدة الحرِّ الذي كان يكونُ فيه، حتى تَرْمَض فيه الفِصَال، كما يقال للشهر الذي يُحَجُّ فيه «ذو الحجة»، والذي يُرتبع فيه «ربيع الأول، وربيع الآخرة».

وأما قوله: «الذي أنزل فيه القرآن»، فإنه ذكر أنه نَزَل في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، في ليلة القدر من شهر رمضان. ثم أنزِل إلى محمد ﷺ على ما أراد الله إنزاله إليه.

وأما قوله: «هُدى للناس»، فإنه يعني رَشاداً للناس إلى سبيل الحق وقَصْد المنهج.

وأما قوله: «وَبَيِّنات»، فإنه يعني: وواضحات «من الهدى» - يعني: من البيان الدالِّ على حدودِ الله وفرائضهِ وحلاله وحرامه.

وقوله: «والفرقان» يعني: والفصل بين الحق والباطل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾

اختلف أهل التأويل في معنى «شهود الشهر».

(وأولى التأويلات عندي بالصواب) قول من قال: فمن شهد منكم الشهر فليصمه، جميعَ ما شهد منه مقيماً، ومَنْ كان مريضاً أو على سفر فعدةٌ من أيامٍ أخر.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: ومن كان مريضاً أو على سفر في الشهر فأفطر، فعليه صيامُ عدة الأيام التي أفطرها، من أيام أخرَ غير أيام شهر رمضان.

ثم اختلف أهلُ العلم في المرَض الذي أباح الله معه الإفطارَ، وأوجب معه عدة من أيامٍ أخر.

فقال بعضهم: هو المرض الذي لا يُطيق صاحبه معه القيامَ لصَلاته.

وقال بعضهم: هو كل مرض كان الأغلبَ من أمر صاحبه بالصوم الزيادة في عِلَّتِه زيادة غير مُحتملة.

وقال آخرون: هو كلّ مرض يسمى مرَضاً.

والصواب من القول في ذلك عندنا أن «المرض» الذي أذن الله تعالى ذِكْرُه بالإفطار معه في شهر رمضان، من كان الصومُ جاهدَهُ جَهداً غير محتمل،

فكل من كان كذلك فله الإفطار وقضاء عدة من أيام أخر. وذلك أنه إذا بلغ ذلك الأمرَ، فإن لم يكن مأذوناً له في الإفطار فقد كُلِّف عُسراً، ومُنع يُسراً. وذلك غير الذي أخبر الله أنه أراده بخلقه بقوله: «يُريدُ الله بكم اليسرَ وَلا يُريد بكم العسر». وأما مَنْ كان الصومُ غيرَ جَاهدِه، فهو بمعنى الصحيح الذي يُطيق الصوم، فعليه أداءُ فرضه.

وأما قوله: «فعدة من أيام أخر»، فإنّ معناها: أياماً معدودة سوى هذه الأيام.

وأما «الأُخَر» فإنها جمع «أخرى» كجمعهم «الكبرى» على «الكُبَر» و«القُربى» على «القُرَب».

فإن قال لنا قائل: فإن الله تعالى قال: «فمن كانَ منكم مريضاً أو عَلى سفر فعدةٌ من أيام أخر»، ومعنى ذلك عندك: فعليه عدةٌ من أيام أخر، كما قد وصفتَ فيما مضى. فإنْ كان ذلك تأويله، فما قولك فيمن كان مريضاً أو عَلى سَفر فَصَام الشهرَ، وهو ممن له الإفطار، أيجزيه ذلك من صيام عدة من أيام أخر، أو غيرُ مُجزيه ذلك، وفَرْضُ صوم عدة من أيام أخر ثابتٌ عليه بهيئته، وإنْ صام الشهر كله؟ وهل لِمَنْ كان مريضاً أو عَلَى سَفر صيامُ شهر رمضان، أم ذلك محظور عليه، وغير جائز له صومه، والواجب عليه الإفطار فيه، حتى يقيم هذا ويبرأ هذا؟

قيل: قد اختلف أهلُ العلم في كل ذلك، ونحن ذاكرُو اختلافِهم في ذلك، ومُخْبِرُونَ بأوْلاَهُ بالصواب إنْ شاء الله.

فقال بعضهم: الإفطارُ في المرض عَزْمة من الله واجبةٌ، وليس بتَرْخيص، فمن صام في السفر فعليه القضاءُ إذا أقام.

وعلة مَنْ قال هذه المقالة: أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ فَرَضَ بقوله: «فمن شَهِدَ

مِنكُمُ الشهـرَ فليصمه» صومَ شهر رمضان على مَنْ شهده مُقيماً غير مسافرٍ، وجعل على مَنْ كان مريضاً أو مسافراً صومَ عدةٍ من أيامٍ أخر غير أيام شهر رمضان بقوله: «ومَنْ كان مريضاً أو على سَفر فعدةٌ من أيام أخر». قالوا: فكما غيرُ جائزٍ للمقيمِ إفطارُ أيام شهر رمضان وصَوم عدة أيام أخر مكانها ـ لأن الذي فرضَه الله عليه بشهوده الشهرَ صومُ الشهر دون غيره ـ فكذلك غير جائز لمن لم يشهده من المسافرين مقيماً، صوْمُه. لأن الذي فرضه الله عليه عدة من أيام أخر.

وقـال آخـرون: إبـاحةُ الإفطار في السفر رُخصة من الله تعالى ذِكْرُه، رَخَّصَها لعباده، والفرضُ الصوم. فمن صام فرضَه أدّى، ومن أفطر فبرُخصةِ اللهِ له أفطر. قالوا: وإنْ صام في سفر فلا قَضاءَ عليه إذا أقام.

وهذا القولُ عندنا أولى بالصواب، لإجماع الجميع على أنَّ مريضاً لو صام شهرَ رمضان ـ وهو ممن له الإفطار لمرضه ـ أنّ صومه ذلك مجزىءٌ عنه، ولا قضاءَ عليه إذا برأ من مرضه بعدة من أيام أخر. فكان معلوماً بذلك أنَّ حُكْمَ المسـافـر حكمه في أنْ لا قضاءَ عليه إنْ صامه في سفره. لأن الذي جعل للمسافر من الإفطار وأُمِرَ به من قضاء عدةٍ من أيام أخر، مثلُ الذي جعل من ذلـك للمـريض وأُمـر به من القضـاء. ثم في دلالـة الآية كفـايةٌ مُغْنيةٌ عن استشهادِ شاهدٍ على صحّة ذلك بغيرها. وذلك قول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، ولا عُسرَ أعظم من أن يُلزم من صامه في سفره عدةً من أيام أخر، وقد تكلف أداءَ فَرْضِه في أثقل الحالين عليه حتى قضاه وأدّاه.

فإن ظن ذو غَباوة أنّ الذي صامه لم يكن فرضَهُ الواجبَ، فإن في قول الله تعالى ذِكْرُه: «يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ» «شهرُ رَمضَان الذي أنزل فيه القرآن»، ما يُنْبِىءُ أنَّ المكتوبَ صومُه من الشهور على كل مُؤمن، هو

شهرُ رمضان مسافراً كان أو مقيماً، لعموم الله تعالى ذِكْرُه المؤمنينَ بذلك بقوله: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكمُ الصيام» «شهر رمضان» ـ وأن قوله: «ومَنْ كان مريضاً أو عَلى سفر فعدةٌ من أيام أخر» معناه: ومَنْ كان مريضاً أو على سفر فأفطرَ برُخصةِ الله، فعليه صوم عدة أيام أخر مكانَ الأيام التي أفطر في سفره أو مرضه ـ ثم في تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بقوله ـ إذ سئل عن الصوم في السفـر: «إن شئتَ فصم، وإن شئت فأفـطر»[1] ـ الكفـايةُ الكـافيةُ عن الاستدلال على صحة ما قُلنا في ذلك بغيره.

فإن قال قائل: إن الأخبار بما قلت، وإن كانت متظاهرةً، فقد تظاهرت أيضاً بقوله: «ليس من البِرِّ الصيامُ في السفر»[2]؟

قيل: إن هذا لمن بلغ منه الصوم ما بَلغ من الذي قال له النبي ﷺ ذلك، فليس من البر صومه. لأن الله تعالى ذِكْرُه قد حَرَّمَ على كل أحدٍ تعريضَ نَفسهِ لما فيه هلاكُها، وله إلى نجاتها سبيلٌ. وإنما يُطلبُ البِرُّ بما نَدب الله إليه وحَضَّ عليه من الأعمال، لا بما نهى عنه.

فإن قال قائل: وكيف عطف على «المريض»، وهو اسم بقوله: «أوْ على سفر» و«على» صفة لا اسم.

قيل: جاز أن ينسق بـ «على» «المريض»، لأنها في معنى الفعل. وتأويل ذلـك: أو مسـافراً، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾ [يونس: ١٢]، فعطف بـ «القاعد، والقائم» على «اللام» التي في «لجنبه»، لأن معناها الفعل، كأنه قال: دعانا مضطجعا أو قاعداً أو قائماً.

---

(١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو في البخاري (١٩٤٢) و(١٩٤٣)، ومسلم (١١٢١).

(٢) من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه، وهو في البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: يريد الله بكم، أيها المؤمنون ـ بترخيصهِ لكم في حال مرضكم وسَفركم في الإفطار، وقضاء عدةٍ من أيامٍ أُخَر من الأيامِ التي أفطرتموها بعد إقامتكم وبعد بُرْئِكم من مرضكم ـ التخفيفَ عليكم، والتسهيلَ عليكم، لعلمه بمشقةِ ذلك عليكم في هذه الأحوال ـ «ولا يُريد بكم العُسْرَ»، يقول: ولا يريد بكم الشدةَ والمشقةَ عليكم، فيكلِّفكم صومَ الشهر في هذه الأحوال، مع علمه شِدَّةَ ذلك عليكم، وثقل حملهِ عليكم لو حَمَّلَكُمْ صومَهُ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولتكملوا العدة»، عدةَ ما أفطرتم، من أيام أُخَر، أوجبتُ عليكم قضاءَ عدةٍ من أيامٍ أخر بعد برئكم من مرضكم، أو إقامتكم من سفركم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: ولتعظِّموا الله بالذِّكْرِ له بما أنعمَ عليكم به، من الهدايةِ التي خذل عنها غيركم من أهلِ الملل الذين كتب عليهم من صوم شهر رمضان مثلَ الذي كتب عليكم فيه، فضلُّوا عنه بإضلالِ الله إياهم، وخصَّكم بكرامته فهداكم له، ووفقكم لأداء ما كتبَ الله عليكم من صومهِ، وتشكروه على ذلك بالعبادةِ لهُ.

والذكر الذي حضهم الله على تعظيمه به، «التكبير» يوم الفطر، فيما تأوله جماعة من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٨٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: ولتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من الهدايةِ والتوفيق، وتيسيرِ ما لو شاء عسَّر عليكم.

و«لعـل» في هذا الموضع بمعنى «كي»، ولذلك عطف به على قوله: «ولتكملوا العدة ولتكبروا الله عَلى ما هَداكم ولَعلكم تَشكرون».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وإذا سَألك يا محمد عبادي عَني: أين أنا؟ فإني قريبٌ منهم أسمعُ دُعاءهم، وأُجيبُ دعوةَ الداعي منهم.

وأما قوله: «فليستجيبوا لي»، فإنه يعني: فليستجيبوا لي بالطاعة. يقال منه: «استجبت له، واستجبته»، بمعنى أجبته.

وقال بعضهم: معنى «فليستجيبوا لي»: فليدعوني.

وأما قوله: «وليؤمنوا بي» فإنه يعني: وَليصدِّقوا أي: وليؤمنوا بي، إذا هُم استجابوا لي بالطاعة، أني لهم من وَرَاء طاعتهم لي في الثواب عليها، وإجزالي الكرامةَ لهم عليها.

وأما الذي تأول قوله: «فليستجيبوا لي»، إنه بمعنى: فليدعوني، فإنه كان يتأوَّل قـوله وليؤمنوا بي إني أستجيب لهم.

وأما قوله: «لعلهم يَرشُدُون» فإنه يعني: فليستجيبوا لي بالطاعة، وليؤمنوا بي فيصدِّقوا على طاعتهم إيايَ بالثوابِ مني لهم، وليهتدوا بذلك من فعلهم فيرشدوا.

فإن قال لنا قائل: وما معنى هذا القول من الله تعالى ذِكْرُه؟ فأنت ترى كثيراً من البشر يدعون الله فلا يجابُ لهم دُعاء، وقد قال: «أجيبُ دَعوة الداع إذا دَعان»؟

قيل: إن لذلك وجهين من المعنى:

**أحدهما**: أن يكون معنيّاً «بالدعوة»، العملُ بما نَدب اللهُ إليه وأمر به. فيكون تأويلُ الكلام: وإذا سألك عبادي عَني فإني قريبٌ ممن أطاعني وعَملَ بما أمرتُه به، أجيبه بالثوابِ على طاعته إيايَ إذا أطاعني. فيكون معنى «الدعاء»: مسألةُ العبدِ ربَّه ما وَعَدَ أولياءَهُ على طاعتهم بعملهم بطاعته، ومعنى «الإجابة» من الله التي ضمنها له، الوفاءُ له بما وَعَدَ العاملين له بما أمرهم به، كما روي عن النبي ﷺ من قوله: «إنّ الدعاء هو العبادة»[1].

فأخبر ﷺ أنّ دعاء الله إنما هو عبادته ومسألته، بالعمل له والطاعة.

**والوجه الآخر**: أن يكون معناه: أجيب دعوة الداع إذا دَعان إن شئت. فيكون ذلك، وإن كان عاماً مخرجُه في التلاوة، خاصاً معناهُ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أحل لكم»، أطلق لكم وأبيح.

ويعني بقوله: «ليلة الصيام»، في ليلة الصيام.

---

(١) حديث صحيح، انظر صحيح ابن ماجة (٣٠٨٦) وصحيح أبي داود (١٣٢٩). كلاهما للعلامة الشيخ الألباني - طبع المكتب الإسلامي.

فأما «الرفث» فإنه كنايةٌ عن الجماع في هذا الموضع، يقال: «هو الرفثُ والرُّفوث».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: نساؤكم لباسٌ لكُم وأنتم لباسٌ لهن.

فإن قال قائل: وكيف يكون نساؤنا لباساً لنا، ونحن لهن لباساً، و«اللباس» إنما هو ما لبس؟

قيل: لذلك وجهان من المعاني:

**أحدهما**: أن يكون كل واحدٍ منهما جُعل لصاحبه لباساً، لتجرُّدهما عند النوم، واجتماعهما في ثوب واحد، وانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه، بمنزلة ما يلبسه على جَسده من ثيابه، فقيل لكل واحد منهما: هو «لباس» لصاحبه، فكنى عن اجتماعهما متجردين في فراش واحد بـ «اللباس»، كما يكني بـ «الثياب» عن جسد الإنسان.

**والوجه الآخر**: أن يكون جَعل كلَّ واحد منهما لصاحبه «لباساً»، لأنه سَكنٌ له، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ [الفرقان: ٤٧]، يعني بذلك سكناً تسكنون فيه. وكذلك زوجةُ الرجل سَكنه يسكنُ إليها، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فيكون كل واحد منهما «لباساً» لصاحبه، بمعنى سكونه إليه. وبذلك كان مجاهد وغيره يقولون في ذلك.

وقد يُقالُ لما سَتر الشيءَ وواراهُ عَن أبصار الناظرين إليه: «هو لباسه، وغشاؤه»، فجائزٌ أن يكونَ قيل: «هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباس لهن»، بمعنى:

أنَّ كُلَّ واحدٍ منكم ستر لصاحبه - فيما يكون بينكم من الجماع - عن أبصارِ سائر الناس.

القول في تأويل قوله جَلَّ ذِكْرُه: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

إن قال لنا قائل: وما هذه الخيانةُ التي كانَ القوم يختانونها أنفسَهم، التي تابَ الله منها عليهم فعفا عنهم؟

قيل: كانت خيانتُهم أنفسَهم التي ذكرها الله في شيئين:

أحدهما: جماع النساء.

والآخر: المطعم والمشربُ في الوقت الذي كان حَراماً ذلك عليهم.

فعن البراء قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنامَ قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإنَّ قيس بن صِرْمة الأنصاري كان صائماً، وكان توجَّه ذلك اليوم فعمِلَ في أرضه، فلما حضر الإفطارُ أتى امرأتَهُ فقال: هل عندكم طعامٌ؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لكَ. فغلبته عَيْنُه فنام، وجاءت امرأته قالت: قد نمتَ! فلم ينتصف النهارُ حتى غُشيَ عليه، فَذُكِرَ ذلك للنبيِّ ﷺ، فنزلت فيه هذه الآية: «أُحِلَّ لكم ليلةَ الصيام الرفث إلى نسائكم» إلى «من الخيط الأسود» ففرحوا بها فرحاً شديداً[1].

فأما «المباشرة» في كلام العرب، فإنه مُلاقاة بَشَرة ببشَرة. و«بشرة» الرجل جلدته الظاهرة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩١٥) و(٤٥٠٨) وغيره.

وإنما كنى الله بقوله: «فالآن بَاشروهن» عن الجماع. يقول: فالآن إذ أحللتُ لكم الرفثَ إلى نسائكم، فجامعوهن في ليالي شهر رمضان حتى يطلع الفجر، وهو تبيُّنُ الخيطِ الأبيض من الخيطِ الأسود من الفجر.

واختلفوا في تأويل قوله: «وابتغوا مَا كَتَبَ اللهُ لكم». فقال بعضهم: الولد:

وقال بعضهم معنى ذلك: ليلة القدر.

وقال آخرون: بل معناه: ما أَحَلَّهُ اللهُ لكم، ورَخَّصه لكم.

وقرأ ذلك بعضهم: «وَٱتَّبِعُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ».

والصواب من القول في تأويل ذلك عندي أنْ يُقالَ: إن الله تَعالى ذِكْرُه قال: «وابتغوا» ـ بمعنى: اطلبوا، «ما كتب الله لكم»، يعني: الذي قَضَى الله تعالى لكم.

وإنما يريد الله تعالى ذِكْرُه: اطلبوا الذي كتبتُ لكم في اللوح المحفوظ أنه يُباحُ فيطلقُ لكم. وَطَلَبُ الولدِ إنْ طلبه الرجلُ بجماعه المرأةَ، مما كتب الله له في اللوح المحفوظ. وكذلك إنْ طلب ليلةَ القدر، فهو مما كتب الله له. وكذلك إنْ طلب ما أحلَّ الله وأباحه، فهو مما كتبه له في اللوح المحفوظ.

وقد يدخل في قوله: «وابتغوا ما كتب الله لكم» جميعُ معاني الخير المطلوبة، غيرَ أنَّ أشبهَ المعاني بظاهرِ الآيةِ قولُ مَنْ قال: معناه وابتغوا ما كتب الله لكم من الولد، لأنه عَقِيبُ قوله: «فالآن باشرُوهن»، بمعنى جامعوهنَّ، فلأنْ يكون قوله: «وابتغوا ما كتب الله لكم»، بمعنى: وابتغوا ما كتب الله في مُباشرتِكُم إياهن من الولدِ والنسلِ، أشبهُ بالآية من غيره من التأويلات التي ليس على صِحَّتِهَا دلالةٌ من ظاهرِ التنزيل، ولا خبرٌ عن الرسول ﷺ.

## البقرة: ١٨٧

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «حتى يتبيَّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسود من الفجرِ».

فقال بعضهم: يعني بقوله: «الخيط الأبيض»، ضوءَ النهار، وبقوله: «الخيطِ الأسود»، سوادَ الليل.

فتأويله على قول قائلي هذه المقالة: وكلوا بالليل في شهر صَوْمكم واشربوا وبَاشروا نساءكم مبتغين مَا كتَب اللهُ لكم من الولد، من أول الليل، إلى أنْ يقع لكم ضوءُ النهار بطلوع الفجر من ظلمة الليل وسواده.

وعلَّة مَنْ قال هذه المقالة، وتأوَّل الآية هذا التأويل، ما (ثبت) عن عَدِي ابن حاتِم قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فعلَّمَني الإسلام، ونَعت ليَ الصلوات كيفَ أصَلي كلَّ صلاةٍ لوقتها، ثم قال: إذا جاء رمضان فكل واشرب حتى يتبين لك الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتِمَّ الصيامَ إلى الليل. ولم أدر ما هو، ففتلتُ خَيطين من أبيض وأسود، فنظرتُ فيهما عند الفجر، فرأيتهما سواءً. فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسولَ الله، كل شيءٍ أوْصَيْتَني قد حفظتُ، غير «الخيط الأبيض من الخيط الأسود»! قال: وما منعك يا ابنَ حاتم؟ وتبسَّم كأنه قد علم ما فعلتُ. قلتُ: فتلتُ خيطين من أبيض وأسود، فنظرتُ فيهما من الليل فوجدتهما سواء! فضحك رسول الله ﷺ حتى رُؤي نَواجذُه، ثم قال: ألم أقُلْ لك «من الفجر»؟، إنما هو ضوء النهار وظلمة الليل[1].

---

(١) هو في الصحيحين: البخاري (١٩١٦) و(٤٥٠٩)، ومسلم (١٠٩٠).

وعن سهل بن سعد قال: نزلت هذه الآية: «وكُلُوا واشربوا حتى يتبيَّنَ لكمُ الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود»، فلم ينزل «من الفجر». قال: فكان رجالٌ إذا أرادوا الصومَ ربط أحدهم في رجليه الخيطَ الأسود والخيط الأبيض، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبيَّن له. فأنزل الله بعد ذلك: «من الفجر»، فعلموا أنما يعني بذلك الليلَ والنهارَ[1].

وقال متأولو قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «حتى يتبيَّن لكمُ الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود من الفجر»، إنه بياضُ النهارِ وسوادُ الليل ـ: صفةُ ذلك البياضِ أنْ يكون منتشراً مستفيضاً في السماء، يملأ بياضه وضوؤه الطُّرُقَ. فأما الضوء الساطع في السماء، فإن ذلك غير الذي عناه الله بقوله: «الخيط الأبيض من الخيط الأسود».

وسمع سمرة بن جندب النبي ﷺ يقول: لا يغرّنكم نداء بلال، ولا هذا البياضُ، حتى يبدوَ الفجرُ وَينفجر[2].

وقال آخرون: الخيطُ الأبيض: هو ضوءُ الشمس. والخيط الأسود: هو سوادُ الليل.

وعِلَّةُ مَنْ قال هذا القول: أنَّ الوقتَ إنما هو النهارُ دون الليل. قالوا: وأول النهار طلوعُ الشمس، كما أنّ آخرَه غروبُها. قالوا: ولو كان أوله طلوعُ الفجر، لوَجب أنْ يكون آخرَه غروبُ الشفق. قالوا: وفي إجماع الحجة على أنَّ آخرَ النهارِ غروب الشمس، دليلٌ واضح على أن أوله طلوعها.

وأولى التأويلين بالآية، التأويلُ الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) هو في الصحيحين: البخاري (١٩١٧) و(٤٥١١)، ومسلم (١٠٩١).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٩٤) من طرق إلى سمرة رضي الله عنه.

«الخيط الأبيض» بياض النهار، «والخيط الأسود» سوادُ الليل. وهو المعروف في كلام العرب.

وأما الأخبارُ التي رويتْ عن رسولِ الله ﷺ أنه شرب أو تسحَّر، ثم خرج إلى الصلاة، فإنه غيرُ دافع صحةَ ما قلنا في ذلك. لأنه غير مستنكر أن يكون ﷺ شَرب قبل الفجر ثم خرج إلى الصلاة، إذ كانت الصلاةُ ـ صلاة الفجر ـ هي على عهده كانت تُصلى بعد ما يطلع الفجر ويتبيَّن طلوعه، ويؤذَّن لها قبل طلوعه.

وأما قوله: «من الفجر»، فإنه تعالى ذِكْرُه يعني: حتى يتبيَّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود الذي هو من الفجر، وليس ذلك هو جَميعَ الفجر، ولكنه إذا تبيَّن لكم أيها المؤمنون من الفجر ذلك الخيط الأبيض الذي يكون من تحت الليل الذي فوقه سواد الليل، فمن حينئذٍ فصُوموا، ثم أتِمُّوا صيامكم من ذلك إلى الليل.

وفي قوله تعالى ذِكْرُه: «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيضُ من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيامَ إلى الليل»، أوضحُ الدلالة على خطأ قولِ مَنْ قال: حلالٌ الأكلُ والشربُ لمن أراد الصوم إلى طلوع الشمس. لأنَّ الخيطَ الأبيض من الفجر، يتبيَّنُ عند ابتداء طلوع أوائل الفجر. وقد جعل الله تعالى ذِكْرُه ذلك حداً لمن لزمَه الصومُ في الوقت الذي أباح إليه الأكل والشرب والمباشرة.

فمن زعم أنَّ له أنْ يتجاوزَ ذلك الحدَّ، قيل له: أرأيتَ إنْ أجازَ له آخَرُ ذلك ضحوةً أو نصف النهار؟

فإن قال: إنّ قائلَ ذلك مخالفٌ للأمة.

وقيل له: وأنتَ لما دلَّ عليه كتابُ الله ونَقْلُ الأمةِ مخالفٌ، فما الفرقُ

بينك وبينه من أصْل أو قياس؟

فإن قال: الفرقُ بيني وبينه أن الله أمرَ بصوم النهار دون الليل، والنهارُ من طلوع الشمس.

قيل له: كذلك يقولُ مخالفوك، والنهار عندهم أوَّله طلوع الفجر، وذلك هو ضوء الشمس وابتداءُ طلوعها دون أن يتتامَّ طلوعها، كما أن آخرَ النهار ابتداءُ غروبها دون أن يتتامَّ غروبها.

ويقال لقائلي ذلك: إن كان «النهار» عندكم كما وصفتم، هو ارتفاع الشمس، وتكامل طُلوعها، وذهاب جميع سُدْفة الليل وَغَبَس[1] سواده ـ فكذلك عندكم «الليل»: هو تتامُّ غروب الشمس، وذهاب ضيائها، وتكامل سواد الليل وظلامه؟

فإن قالوا: ذلك كذلك!

قيل لهم: فقد يجبُ أن يكون الصوم إلى مَغيب الشفق وذهاب ضوء الشمس وبياضها من أفق السماء!

فإن قالوا: ذلك كذلك! أوجبوا الصومَ إلى مغيبِ الشفق الذي هو بَياضٌ. وذلك قولٌ إنْ قالوه مدفوعٌ بنقلِ الحجة، التي لا يجوز فيما نقلته مُجمعةً عليه ـ الخطأ والسهوُ وكفى بذلك شاهداً على تخطئته.

وإن قالوا: «بل أول الليل» ابتداء سُدْفته وظلامه، ومَغيبُ عَين الشمس عنا.

---

(١) سُدْفة الليل: ظلام الليل. والغَبس: الظلام أيضاً. ويجوز أن تقرأ بالشين المعجمة: غبش، وهو مخالطة البياض سواد الليل، وكله بمعنى.

قيل لهم: وكذلك «أول النهار»: طلوع أوّل ضياء الشمس، ومغيب أوَائل سُدفة الليل.

ثم يعكس عليه القول في ذلك، ويُسأل الفرقَ بين ذلك، فلن يقول في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخر مثله.

وأما «الفجر» فإنه مصدر من قول القائل: «تفجَّر الماءُ يتفجَّرُ فَجراً»، إذا انبعثَ وجرى. فقيل للطالعِ من تباشيرِ ضياء الشمس من مطلع الشمس «فجر» لانبعاثِ ضوئه عليهم، وتورُّده عليهم بطرِقِهم ومحاجِّهم، تفجُّرَ الماء المتفجِّر من منبعه.

وأما قوله: «ثم أتِمُّوا الصيامَ إلى الليل»، فإنه تعالى ذِكْرُه حَدَّ الصومَ بأن آخرَ وقته إقبالُ الليل ـ كما حدَّ الإفطارَ وإباحةَ الأكل والشرب والجماع وأوَّل الصوم، بمجيء أول النهار وأوَّل إدبار آخر الليل. فدلّ بذلك على أنْ لا صومَ بالليل، كما لا فِطْرَ بالنهار في أيام الصوم ـ وعلى أنَّ المُواصِلَ مجوِّعُ نفسه في غيرِ طاعةِ ربه، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبلَ الليلُ وأدبر النهارُ وغابت الشمس، فقد أفطر الصائم»[1].

وعن عبدالله بن أبي أوفى قال: كنا مع النبي ﷺ في مسير وهو صائم، فلما غَرَبت الشمسُ قال لرجل: انزل فاجدَحْ[2] لي. قالوا: لو أمسيتَ يا رسول الله! فقال: انزل فاجدح. قال الرجل: يا رسول الله إنَّ علينا نهاراً! فقال له الثالثة، فنزل فجدح له. ثم قال رسول الله ﷺ: إذا أقبل الليل من ههنا ـ وضرب بيده نحو المشرق فقد أفطر الصائم[3].

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٤)، ومسلم (١١٠٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) هو خلط الشيء بغيره، والمراد هنا: خلط السويق بالماء وتحريكه حتى يستوي.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٤١) و(١٩٥٥) و(١٩٥٦) و(١٩٥٨) و(٥٢٩٧)، ومسلم (١١٠١).

فتأويل الآية إذاً: ثم أتِمُّوا الكَفَّ عما أمركم الله بالكفِّ عنه، من حين يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، إلى الليل. ثم حَلَّ لكم ذلك بعدَه إلى مثل ذلك الوقت.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه ـ بقوله: «ولا تباشرُوهن»، لا تجامعوا نساءكم.

وبقـوله: «وأنتم عَاكفونَ في المساجد»، يقول: في حال عُكوفكم في المساجد، وتلك حال حَبْسِهم أنفسهم على عبادة الله في مساجدهم.

«والعكوف» أصله المقام، وحبسُ النفس على الشيء.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى «المباشرة» التي عنى الله بقوله: «ولا تُباشروهن».

فقال بعضهم: معنى ذلك: الجماعُ دون غيره من معاني «المباشرة».

وقال آخرون: معنى ذلك على جميع معاني «المباشرة»، من لَمْسٍ وقُبلةٍ وجِماع.

وعلة مَنْ قال هذا القول: أن الله تعالى ذِكْرُه عَمَّ بالنهي عن المباشرة، ولم يُخَصِّصْ منها شيئاً دون شيء. فذلك على ما عَمَّهُ، حتى تأتي حُجةٌ يجبُ التسليمُ لها بأنه عنى به مباشرةً دون مباشرةٍ.

وأولى القولين عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: الجماعُ، أو ما قام مقامَ الجماع، مما أوجبَ غسلاً إيجابه. وذلك أنه لا قولَ في ذلك إلا أحد قولين:

إما جعلُ حُكْمِ الآيةِ عامّاً، أو جَعل حكمها في خاص من معاني المباشرة.

وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ: أن نساءه كنّ يُرَجِّلْنه وهو معتكف. فلمّا صَحَّ ذلك عنه، عُلِمَ أنَّ الذي عني به من معاني المباشرة، البعض دون الجميع. فعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اعتكف يُدني إليَّ رأسه فأرَجِّله[1]. وعنها رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُدني إليَّ رأسه وهو مُجاورٌ في المسجد، وأنا في حجرتي، وأنا حائضٌ، فأغسله وأرَجِّله[2].

فإذْ كان صحيحاً عن رسولِ الله ﷺ ما ذكرنا من غَسل عائشة رأسَهُ وهو معتكفٌ، فمعلومٌ أنَّ المراد بقوله: «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد»، غيرُ جميع ما لزمه اسم «المباشرة» ـ وأنه معنيٌّ به البعض من معاني المباشرة دون الجميع. فإذْ كان ذلك كذلك، وكان مُجْمَعاً على أنّ الجماع مما عُني به، كان واجباً تحريمُ الجماع على المعتكفِ وما أشبهه، وذلك كلُّ ما قام في الالتذاذ مقامه منَ المباشرة.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: هذه الأشياء التي بيّنتها: من الأكل والشرب والجماع في شهر رمضان نهاراً في غير عذر، وجماع النساء في الاعتكاف في المساجد، يقول: هذه الأشياء حَدَّدتُها لكم، وأمرْتُكم أن تجتنبوها في الأوقاتِ التي أمرتكم أن تجتنبوها، وحرَّمتها فيها عليكم، فلا تقرَبُوها، وابعُدوا منها أن

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٩) و(٢٠٣٣) و(٢٠٣٤) و(٢٠٤١) و(٢٠٤٥)، ومسلم (٢٩٧).

(٢) نفسه.

تركبـوهـا، فتستحقُّوا بها من العقوبة ما يستحقه من تعدّى حُدودي، وخالف أمري، وركب معاصيّ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾

يعني تعـالى ذِكْـرُه بذلـك: كما بيَّنت لكم أيها الناس واجبَ فرائضي عليكم من الصوم، وعرَّفتكم حدودَه وأوقاته، وما عليكم منه في الحَضَر، وما لكم فيه في السفـر والمرض، وما اللازمُ لكم تجنُّبه في حال اعتكافِكم في مسـاجـدكم، فأوضحتُ جميعَ ذلـك لكم ـ فكذلك أبيِّنُ أحكامي، وحلالي وحَرامي، وحُدودي، وأمري ونهيي، في كتابي وتنزيلي، وعلى لسان رسولي ﷺ للناس.

ويعني بقـولـه: «لعلهم يتقون»، يقول: أبيِّنُ ذلك لهم ليتقوا مَحارمي ومعاصيّ، ويتجنَّبُوا سَخطي وغَضبي، بتركهم رُكوبَ ما أبيِّنُ لهم في آياتي أني قد حرَّمته عليهم، وأمرتهم بهجره وتركه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾ ۞

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: ولا يأكل بعضُكم مالَ بعض بالباطل. فجعل تعالى ذِكْرُه بذلك آكلَ مالِ أخيه بالباطل، كالآكلِ مالَ نَفسهِ بالباطل.

ونـظيرُ ذلـك قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]،

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، بمعنى: لا يلمزْ بعضكم بعضاً، ولا يقتُلْ بعضكم بعضاً. لأن الله تعالى ذِكْرُه جعل المؤمنين إخوةً، فقاتلُ أخيهِ كقـاتلِ نفسه، ولامِزُهُ كلامزِ نفسه. وكذلك تفعل العرب، تكني عن نفسها بأخواتها، وعن أخواتها بأنفسها، فتقولَ: «أخي وأخوك أيُّنا أبطش».

يعني: أنا وأنت نصْطرع، فننظر أيُّنا أشدّ - فيكني المتكلم عن نفسه بأخيه، لأن أخا الرجل عندها كنفسه.

فتأويل الكلام: ولا يأكلْ بعضكم أموال بعضٍ فيما بينكم بالباطل.

«وأكله بالباطل» أكْلُهُ من غيرِ الوجهِ الذي أباحه الله لآكليهِ.

وأما قوله: «وتُدلوا بها إلى الحكام»، فإنه يعني: وتخاصموا بها - يعني: بأموالكم - إلى الحكام «لتأكلوا فريقاً» - طائفة - من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون.

ويعني بقـولـه: «بالإثم»، بالحرام الذي قد حَرَّمَهُ اللهُ عليكم، «وأنتم تعلمون»، أي: وأنتم تَتعمَّدُونَ أكلَ ذلك بالإثم، على قَصْدٍ منكم إلى ما حَرَّم الله عليكم منه، ومعرفةٍ بأنَّ فِعْلَكُمْ ذلك معصية لله وإثم.

وأصل «الإدلاء»: إرسالُ الرجل الدلو في سَببٍ متعلقاً به في البئر. فقيل للمحتج لدعواه: «أدلى بحجة كيت وكيت»، إذا كان حجته التي يحتج بها سَبباً له، هو به متعلقٌ في خصومته، كتعلّق المستقي من بئر بدَلو قد أرسلها فيها بسببها الذي الدلو به متعلقة. يقال فيهما جميعاً - أعني من الاحتجاج، ومن إرسال الدلو في البئر بسبب: «أدلى فلان بحجته، فهو يُدلي بها إدلاء - وأدلى دلوه في البئر، فهو يدليها إدلاء».

فأما قوله: «وتدلوا بها إلى الحكام»، فإن فيه وَجهين من الإعراب:

**أحـدهما**: أن يكون قوله: «وتُدْلوا» جزماً عطفاً على قوله: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»، أي: ولا تدلوا بها إلى الحكام. وقد ذُكر أن ذلك كذلك في قراءة أُبَيٍّ بتكرير حرف النهي: «ولا تدلوا بها إلى الحكام».

**والآخر منهما**: النصب على الصرْف[1]، فيكون معناه حينئذ: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وأنتم تدلون بها إلى الحكام.

وهو أنْ يكون في موضع جزم ـ على ما ذُكر في قراءة أُبَيّ ـ أحسن منه أن يكون نَصباً.

القول في تأويل قوله تعالى. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾

وتـأويل الآية: يسألونك يا محمد عن الأهلة ومحاقها وسِرَارِها وتَمامها واستـوائها، وتغير أحوالها بزيادةٍ ونُقصانٍ ومَحاق واستسرار، وما المعنى الذي خَالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة أبداً على حال واحدة لا تتغيرُ بزيادةٍ ولا نقصان؟ ـ فقل يا محمد: خالف بين ذلك ربُّكم لتصييره الأهلة ـ التي سألتم عن أمْرِهَا، ومخالفة ما بينها وبين غيرها فيما خالف بينها وبينه ـ مواقيتَ لكم ولغيركم من بني آدم في معـايشهم، ترقبـون بزيادتها ونقصانها ومحاقِها

---

(١) ذكر الفراء في كتابه «معاني القرآن» ١/٣٣: «فإن قلت: وما الصرف؟ قلت: أن تأتي بالواو معطوفاً على كلام في أوله حادثة لا تستقيم كعادتها على ما عطف عليها، فإذا كان كذلك فهو الصرف كقول الشاعر:

لا تنـه عن خلق وتـأتـيَ مثـلـه عارٌ عليك إذا فعـلـت عظيمُ

ألا ترى أنه لا يجوز إعادة «لا» في «تأتي مثله»، فلذلك سمي صرفاً، إذ كان معطوفاً، ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث قبله».

واستسرارها وإهلالكم إياها، أوقاتَ حَلِّ ديونكم، وانقضاء مدة إجارة مَن استأجرتموه، وتصرُّم عدة نسائكم، ووقت صومكم وإفطاركم، فجعلها مواقيت للناس.

وأما قوله «والحج» فإنه يعني: وللحجِّ. يقول: جعلها أيضاً ميقاتاً لحجكم، تعرفون بها وقتَ مناسككم وحَجكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾

نزلت هذه الآية في قوم كانوا لا يدخلون - إذا أحرموا - بيوتَهم من قبل أبوابها.

فعن البراء قال: كانت الأنصارُ إذا حَجُّوا ورَجعوا لم يدخلوا البيوتَ إلا من ظُهورها. قال: فجاء رجل من الأنصار فدخل من بابه، فقيل له في ذلك، فنزلت هذه الآية: «وليسَ البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها»[1].

فتأويل الآية إذاً: وليس البر أيها الناس بأن تأتوا البيوتَ في حال إحرامكم من ظهورها، ولكن البر من اتقى الله، فخافَهُ وتَجَنَّبَ محارمه، وأطاعه بأداءِ فرائضه التي أمره بها. فأما إتيانُ البيوتِ من ظهورها فلا بِرَّ لله فيه، فأتوها من حيثُ شئتُم من أبوابها وغير أبوابها، ما لم تعتقدوا تحريم إتيانها من أبوابها في حالٍ من الأحوال، فإن ذلك غيرُ جائز لكم اعتقادُه، لأنه مما لم أحرمه عليكم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٠٣) و(٤٥١٢)، ومسلم (٣٠٢٦).

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: واتقوا الله أيها الناسُ، فاحذروه وارهبوه، بطاعته فيما أمركم به من فرائضه، واجتناب ما نهاكم عنه، لتفلحوا فتنجحوا في طلباتكم لديه، وتُدْرِكُوا به البقاءَ في جَنَّاته، والخلودَ في نعيمه.

وقد بيَّنا معنى «الفلاح» فيما مضى قبلُ بما يدل عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾

وتأويل الآية: وقاتلوا أيها المؤمنون في سبيل الله وسبيلُه: طريقه الذي أوضحه، ودِينُه الذي شرعه لعباده ـ يقول لهم تعالى ذِكْرُه: قاتلوا في طاعتي وعَلى ما شرعتُ لكم من ديني، وادعوا إليه مَنْ وَلَّى عنه واستكبر بالأيدي والألسن، حتى يُنيبوا إلى طاعتي، أو يعطوكم الجزيةَ صَغاراً إنْ كانوا أهلَ كتاب. وأمرهم تعالى ذِكْرُه بقتال مَنْ كان منه قتالٌ من مُقاتِلة أهلِ الكفر، دون مَنْ لم يكن منه قتالٌ، من نسائهم وذراريهم، فإنهم أموال وخَوَلٌ لَهم، إذا غُلب المقاتلون منهم فقُهروا. فذلك معنى قوله: «قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم». لأنه أباح الكَفَّ عَمَّنْ كَفَّ فلم يُقاتل من مشركي أهل الأوثان، والكافِّين عن قتال المسلمين مَن كفار أهل الكتاب على إعطاء الجزية صَغاراً.

فمعنى قوله: «ولا تعتدوا»: لا تقتلوا وليداً ولا امرأةً، ولا من أعطاكم الجزية من أهل الكتابَين والمجوس، «إنّ الله لا يُحب المعتدين»، الذين يجاوزون حدوده، فيستحلُّونَ ما حرَّمه الله عليهم من قتل هؤلاء الذين حَرَّم قتلهم من نساء المشركين وذراريهم.

القـــول في تأويل قولـــه تعـــالـى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾

يعني تعـالى ذِكْـرُه بذلـك: واقتلوا أيهـا المؤمنون الذين يقاتلونكم من المشركين حيثُ أصبتُم مَقاتِلَهم وأمْكَنَكُم قتلهم. وذلك هو معنى قوله: «حيث ثقفتموهم».

ومعنى «الثَّقْفَة» بالأمر: الحِذق به والبصر، يقال: «إنه لثَقِف لَقِفٌ»، إذا كان جَيِّدَ الحَذر في القتال، بصيراً بمواقع القتل. وأما «التَّثْقِيف»، فمعنى غير هذا، وهو التقويم.

فمعنى: «واقتلوهم حيث ثقفتموهم»، اقتلوهم في أيِّ مكان تمكنتم من قتلهم، وأبصرتم مقاتلهم.

وأما قوله: «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم»، فإنه يَعني بذلك المهاجرينَ الذين أُخْرِجُوا من ديارهم ومنازلهم بمكة، فقال لهم تعالى ذِكْرُه: أخرجوا هؤلاء الـذين يقـاتلونكم - وقـد أخـرجوكم من دياركم - من مساكنهم وديارهم كما أخرجوكم منها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «والفتنة أشد من القتل»، والشركُ بالله أشدُّ من القتل.

وقد بيَّنت فيما مضى أنَّ أصل «الفتنة»، الابْتلاءُ والاختبار.

فتأويل الكلام: وابتلاءُ المؤمن في دينه حتى يرجعَ عنه فيصيرَ مشركاً بالله من بعد إسلامه، أشدُّ عليه وأضرُّ من أنْ يُقتلَ مقيماً على دينه، متمسكاً عليه، مُحقّاً فيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾

والقَرَأَةُ مختلفةٌ في قراءة ذلك.

فقرأته عامَّة قراء المدينة ومكة: «ولا تُقاتلوهم عندَ المسجد الحرام حتى يُقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم»، بمعنى: ولا تبتدئوا - أيها المؤمنون - المشركينَ بالقتالِ عند المسجد الحرام، حتى يبدأوكم به، فإن بدأوكم به هناك عند المسجد الحرَام في الحرم، فاقتلوهم، فإنَّ الله جعلَ ثَوابَ الكافرِيَن على كفرهم وأعمالِهم السيئة، القتل في الدنيا، والخزي الطويل في الآخرة.

وقال بعضُهم: هذه آيةٌ محكمة غيرُ منسوخة.

وقرأ ذلك عُظْمُ قُرَّاءِ الكوفيين: «ولا تَقْتلوهم عند المسجد الحرام حَتى يَقْتُلوكم فيه فإنْ قَتلوكم فاقتلوهم»، بمعنى: ولا تبدأوهم بقتلٍ حتى يبدأوكم به.

وأولى هاتين القراءتين بالصواب، قراءةُ مَنْ قرأ: «ولا تُقاتلوهم عند المسجد الحرام حَتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم». لأن الله تعالى ذِكْرُه لم يأمر نبيَّه ﷺ وأصحابه في حالٍ - إذا قاتلهم المشركون - بالاستسلام لهم حتى يَقتلوا منهم قتيلاً، بعد ما أذن لَهُ ولهم بقتالهم، فتكونَ القراءة بالإذن بقتلهم بعد أن يقتلوا منهم، أولى من القراءة بما اخترنا. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنه قد كان تعالى ذِكْرُه أذِن لهم بقتالهم، إذا كان ابتداء القتال من المشركين، قَبل أن يقتلوا منهم قتيلاً وبعد أن يقتلوا منهم قتيلاً.

وقد نسخ الله تعالى ذِكْرُه هذه الآية بقوله: «وقاتلوهم حَتى لا تكون فتنة»، وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ونحو ذلك من الآيات.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: فإن انتهى الكافرون الذين يقاتلونكم عن قتالكم وكفرهم بالله، فتركوا ذلك وتابوا، «فإنَّ الله غفورٌ» لذنوبِ مَنْ آمَنَ منهم وتابَ من شِرْكِهِ، وأناب إلى الله من معاصيه التي سلفت منه، وأيامه التي مَضت، «رحيم» به في آخرته، بفضلهِ عليه، وإعطائهِ ما يعطى أهلَ طاعتهِ من الثواب، بإنابته إلى محبته من مَعصيته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا تكون فتنة، يعني: حتى لا يكون شِرْكٌ بالله، وحتى لا يُعْبَدَ دونهُ أحدٌ، وتضمحلَّ عبادةُ الأوثانِ والآلهة والأنداد، وتكون العبادةُ والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان.

وأما «الدين»، الذي ذكره الله في هذا الموضع، فهو العبادة والطاعة لله في أمره ونهيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ١٩٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فإن انتهوا»، فإن انتهى الذين يقاتلونكم من الكفـار عن قتالِكم، وَدخلُوا في مِلَّتِكُمْ، وأقرُّوا بما ألزمكم الله من فرائضه، وتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان، فَدَعُوا الاعتداءَ عليهم وقتالَهم وجهادَهم،

فإنه لا ينبغي أن يُعتدى إلا على الظالمين ـ وهم المشركون بالله، والذين تركوا عبادته وعبدوا غيرَ خالِقِهم.

فإن قال قائل: وهل يجوز الاعتداء على الظالم فيقال: «فَلا عُدوان إلاّ على الظالمين»؟

قيل: إن المعنى في ذلك على غير الوجه الذي إليه ذهبتَ. وإنما ذلك على وَجه المجازاة، لما كان من المشركين من الاعتداء. يقول: افعلوا بهم مِثْلَ الذي فعلوا بكم، كما يقال: «إن تَعاطيتَ منّي ظلماً تعاطيته منك»، والثاني ليس بظلم، وإنما كان ذلك نظير قوله: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، وَ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، وقد بيَّنا وجه ذلك ونظائره فيما مَضى قبلُ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «الشهر الحرام بالشهر الحرام»، ذا القعدة، وهو الشهرُ الذي كان رسولُ الله ﷺ اعتمر فيه عُمْرَةَ الحُدَيبية، فصدَّهُ مشركو أهلِ مكةَ عن البيتِ ودخول مكة، سنة ستٍ من هجرته. وصالح رسولُ الله ﷺ المشركين في تلك السنة، على أنْ يعودَ من العام المقبل فيدخلَ مكةَ ويقيمَ ثلاثاً. فلما كان العامُ المقبل، وذلك سنة سبع من هجرته، خرج معتمراً وأصحابه في ذي القَعدة ـ وهو الشهر الذي كان المشركون صدُّوه عن البيت فيه في سنة ست ـ وأخلى له أهلُ مكة البلد حتى دخلها رسولُ الله ﷺ، فقضى حاجته منها، وأتَمَّ عمرته، وأقام بها ثلاثاً ـ ثم خرج منها منصرفاً إلى المدينة.

فقال الله جَلَّ ثناؤه لنبيِّه ﷺ وللمسلمين مَعه «الشهرُ الحرام» - يعني ذا القعدة، الذي أوصَلكم الله فيه إلى حَرمهِ وبيتهِ، على كراهة مشركي قُريش ذلك، حتى قضيتم منه وَطَركم - «بالشهر الحرام»، الذي صَدَّكُم مشركو قريش العامَ الماضيَ قَبله فيه حتى انصرفتم عن كُرْهٍ منكم عن الحرم، فلم تدخلوه، ولم تصلوا إلى بيت الله، فأقصَّكم الله أيها المؤمنون من المشركين بإدخالكم الحرم في الشهر الحرام على كرهٍ منهم لذلك، بما كان منهم إليكم في الشهر الحرام من الصَدِّ والمَنْعِ من الوصول إلى البيت.

وإنما سمى الله جَلَّ ثناؤه ذا القَعدة «الشهرَ الحرام»، لأن العرب في الجاهلية كانت تحرِّمُ فيه القتالَ والقتلَ، وتضعُ فيه السلاح، ولا يقتل فيه أحدٌ أحداً، ولو لقيَ الرجلُ فيه قاتلَ أبيه أو ابنه. وإنما كانوا سموه «ذا القَعدة» لقعودهم فيه عن المغازي والحروب، فسماه الله بالاسم الذي كانت العرب تُسَمِّيه به.

وأما «الحرمات» فإنها جمع «حرْمة»، «كالظلمات» جمع «ظلمة» و«الحجرات» جمع «حُجرة»، وإنما قال جَلَّ ثناؤه: «والحرمات قصاص» فجمع لأنه أراد: الشهرَ الحرام، والبلدَ الحرام، وحُرمةَ الإحرام.

فقال جَلَّ ثناؤه لنبيِّه محمد ﷺ والمؤمنين معه: دخولكم الحرَم، بإحرامكم هذا، في شهركم هذا الحرام، قصاصٌ مما مُنِعْتُمْ من مِثْلِهِ عامَكم الماضي. وذلك هو «الحرمات» التي جعلها الله قَصاصاً.

وقد بيَّنا أن «القصاص» هو المجازاةُ من جهة الفعل أو القول أو البَدن، وهو في هذا الموضع من جهة الفعل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

وقوله: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» مدنيّ لا مكّي، إذْ كان فرضُ قتال المشركين لم يكن وَجَب على المؤمنين بمكة، وأنّ قوله: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم»، نظيرُ قوله: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم»، وأن معناه: فمن اعتدى عليكم في الحرَم فقاتلَكم فاعتدوا عليه بالقتال نحو اعتدائِهِ عليكم بقتالِه إياكم، لأني قد جعلتُ الحُرمات قصاصاً، فمن استحلّ منكم أيها المؤمنون من المشركين حُرْمةً في حَرَمي، فاسْتَحِلُّوا منه مِثْلَهُ. فيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: واتقوا أيها المؤمنون في حُرماته وحدوده أن تعتَدُوا فيها، فتتجاوزوا فيها ما بيَّنه وحدَّه لكم، واعلموا أنَّ الله يُحب المتقين، الذين يتقونه بأداء فَرائضه وتجنب محارمه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾

والصواب من القول في ذلك عندي أنْ يُقال: إنَّ الله جَلَّ ثناؤه أمَر بالإنفاق في سبيله بقوله: «وأنفقوا في سبيل الله» ـ وسبيلُه: طريقه الذي شَرَعه لعباده وأوضحه لهم. ومعنى ذلك: وأنفقوا في إعزاز ديني الذي شرعتُه لكم، بجهاد عدوِّكم الناصبين لكم الحربَ على الكفر بي، ونَهاهم أنْ يُلْقُوا بأيديهم إلى التَّهْلُكَةِ فقال: «ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة».

وذلك مثلٌ: والعربُ تقول للمستسلم للأمر: «أعطَى فلان بيديه»،

وكذلك يقال للممكِّنِ من نفسهِ مما أُريدَ به: «أعطى بيديه».

فمعنى قوله: «ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة»، ولا تستسلموا للهلكة، فتُعطوها أزمَّتكم فتهلكوا.

والتاركُ النفقةَ في سبيلِ الله عند وجوبِ ذلك عليه، مستسلمٌ للهلكة بتركهِ أداءَ فرضِ الله عليه في ماله. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤه جَعل أحدَ سهام الصدقات المفروضات الثمانية «في سبيله»، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَآبْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠] فمن تركَ إنفاقَ ما لزمه من ذلك في سبيل الله على ما لزمه، كان للهلكةِ مستسلماً، وبيديهِ للتهلكةِ ملقياً.

وكذلك الآئسُ من رحمة الله لذنبٍ سَلَفَ منه، مُلْقٍ بيديه إلى التهلكة. لأن الله قد نهى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وكذلك التاركُ غزوَ المشركين وجهادَهم، في حالِ وجوبِ ذلك عليه، في حال حاجة المسلمين إليه، مُضيعٌ فرضاً، مُلقٍ بيده إلى التهلكة.

فإذ كانت هذه المعاني كلها يحتملها قوله: «ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة»، ولم يكن الله عَزَّ وجل خصَّ منها شيئاً دون شيء، فالصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إن الله نهى عن الإلقاء بأيدينا لما فيه هلاكُنا، والإستسلام للهلكة ـ وهي العذاب ـ بتركِ ما لزمنا من فرائضه. فغيرُ جائز لأحدٍ منا الدخولُ في شيءٍ يكرهه اللهُ منا، مِمَّا نستوجبُ بدخولنا فيه عَذابَهُ.

غير أن الأمر وإنْ كان كذلك، فإنَّ الأغلبَ من تأويلِ الآية: وأنفقوا، أيها المؤمنون، في سبيل الله، ولا تتركوا النفقةَ فيها، فتهلكوا باستحقاقكم ـ بترككم ذلك ـ عذابي.

فيكون ذلك إعلاماً منه لهم - بعد أمره إياهم بالنفقة - ما لِمَنْ تَرَكَ النفقةَ المفروضة عليه في سبيله، منَ العقوبة في المعاد.

وأما «التهلكة»، فإنها «التفعُلة» من «الهلاك».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وأحسنوا»، أحسنوا أيها المؤمنون في أداء ما أَلْزَمْتُكُمْ من فرائضي، وتجنُّب ما أمرتكم بتجنبه من معاصيَّ، ومن الإنفاق في سبيلي، وعَوْدِ القوي منكم على الضعيف ذي الخَلَّة، فإنّي أحبّ المحسنين في ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾

(اختلف القَرَأَةُ في قراءة «العمرة» فقرأها عامتهم بالنصب وقرأها بعضهم بالرفع).

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا، قراءةُ مَنْ قرأ بنصب «العمرة»، على العطف بها على «الحجّ»، بمعنى الأمر بإتمامهما له. ولا معنى لاعتلال من اعتلَّ في رفعها بأن «العمرة» زيارة البيت. فإن المعتمر متى بلغه، فلا عمل بقي عليه يؤمر بإتمامه. وذلك أنه إذا بلغ البيت فقد انقضت زيارته، وبقي عليه تمامُ العمل الذي أمره الله به في اعتماره وزيارَته البيت، وذلك هو الطوافُ بالبيت، والسعيُ بين الصفا والمروة، وتجنبُ ما أمر الله بتجنبه إلى إتمامه ذلك. وذلك عملٌ - وإن كان مما لزمه بإيجابِ الزيارةِ على نفسه - غيرُ الزيارة. هذا، مع إجماع الحجة على قراءة «العمرة» بالنصب، ومخالفة جميع قَرَأَةِ الأمصارِ قراءةَ مَنْ قرأ ذلك رفعاً. ففي ذلك مستغنى عن الاستشهاد على خطأ

من قرأ ذلك رفعاً.

وتأويل قوله: «والعمرةَ لله»، على قراءة من قرأ ذلك نصباً [يعني]: وأتِمُّوا الحج والعمرة لله إلى البيت، بعد إيجابكم إياهما ـ لا أنَّ ذلك أمرٌ من الله عَزَّ وجل ـ بابتداء عَمَلهما والدخول فيهما، وأداء عملهما بتمامه ـ بهذه الآية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾

وتأويل قوله: «فإنْ أحْصرتم»، فإن أحْصَركم خوفُ عَدوٍّ أو مرضٌ أوْ علةٌ عن الوصولِ إلى البيت أي: صيَّركم خوفكم أو مرضكم تَحصُرون أنفسكم فتحبسونها عن النفوذ لما أوجبتُموه على أنفسكم من عمل الحج والعمرة. فلذا قيل: «أحصرتم»، لمَّا أسقط ذِكر الخوف والمرض. يقال منه: «أحصرني خوفي من فلان عن لقائك، ومَرَضي عن فلان»، يراد به: جعلني أحبسُ نفسي عن ذلك، فأما إذا كان الحابس الرجلُ والإنسانُ، قيل: «حَصرَني فلانٌ عن لقائك»، بمعنى: حبسني عنه.

فلو كان معنى الآية ما ظنه المتأوِّل من قوله: «فإن أحصِرْتم»، فإن حبسكم حابس من العدوِّ عن الوصولِ إلى البيت ـ لوجب أن يكون: فإن حُصِرْتم.

ومما يُبَيِّن صحةَ ما قلناه، من أن تأويل الآية مرادٌ بها إحصارُ غير العدوِّ، وأنه إنما يراد بها الخوفُ من العدو، قولُه: «فإذا أمِنْتُم فَمَنْ تَمَتَّعَ بالعُمْرة إلى الحج». و«الأمنُ» إنما يكونُ بزوالِ الخوف. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أنَّ الإحصارَ الذي عنى الله في هذه الآية، هو الخوفُ الذي يكون بزوالِه الأمنُ. وإذْ كان ذلك كذلك، لم يكن حَبسُ الحابس الذي ليس مع حَبْسه خوفٌ على

النفس من حبسه، داخلاً في حكم الآية بظاهرها المتْلوّ، وإنْ كان قد يُلحق حكمه عندنا بحكمه من وجه القياس، من أجل أن حَبْس مَنْ لا خَوفَ على النفس من حبسه، كالسلطان غير المَخُوفة عقوبته، والوالدِ، وزوج المرأة، إن كان منهم أو من بعضِهم حبس ومنعٌ عن الشخوصِ لعملِ الحج أو الوصولِ إلى البيتِ بعد إيجابِ الممنوع الإحرامَ، غيرُ داخلٍ في ظاهر قوله: «فإن أحصرتم»، لما وصفنا من أنَّ معناه: فإنْ أُحْصَرَكُمْ خوفُ عدوٍّ ـ بدلالة قوله: «فإذا أمنتم فمن تَمتَّع بالعمرة إلى الحج».

وإذ كان ذلك أولى التأويلين بالآية لما وصفنا، وكان ذلك منعاً من الوصول إلى البيت، فكل مانعٍ عَرضَ للمحرمِ فَصَدَّهُ عن الوصول إلى البيت، فهو له نظير في الحكم.

ثم اختلف أهل العلم في تأويل قوله: «فما اسْتَيْسَرَ من الهدي».

فقال بعضهم: هو شاةٌ.

وقال آخرون: «ما استيسر من الهدي»: من الإبل والبقر، سنٌّ دون سنٍ.

وأولى القولين بالصواب قول من قال: «ما استيسر من الهدي» شاة. لأن الله جَلَّ ثناؤه إنما أوجب ما استيسر من الهدي. وذلك على كل ما تيسَّر للمهدِي أن يهديَه، كائناً ما كان ذلك الذي يُهدِي، إلا أن يكون الله جَلَّ ثناؤه خصَّ من ذلك شيئاً، فيكون ما خصَّ من ذلك خارجاً من جملة ما احتمله ظاهرُ التنزيل، ويكون سائر الأشياء غيرُه مجزئاً إذا أهداه المهدي، بعد أن يستحق اسم «هدْي».

فإن قال قائل: فإنّ الذين أبوا أن تكون الشاة مما استيسر من الهدي، بأنه لا يستحق اسم «هَدْي»، كما أنه لو أهدَى دجاجةً أو بيضةً، لم يكن مُهدياً هَدْياً مُجزئاً.

قيل: لو كان في المهدِي الدجاجةَ والبيضة من الاختلاف، نحو الذي في المُهْدِي الشاة، لكان سبيلهما واحدة: في أن كلَّ واحد منهما قد أدَّى ما عليه بظاهر التنزيل، إذ لم يكن أحد الهديين مُخْرِجَهُ من أنْ يكون مؤدياً - بإهدائه ما أهدى من ذلك - مما أوجبه اللهُ عليه في إحصاره. ولكن لما أُخرج المهدي ما دون الجَذَع من الضأن، والثَّني من المعز والإبل والبقر فصاعداً من الأسنان - من أن يكون مهدياً ما أوجبه الله عليه في إحصاره أو متعته - بالحجة القاطعة العذرَ نقلاً عن نبيّنا ﷺ وراثةً، كان ذلك خارجاً من أن يكون مراداً بقوله: «فما استيسر من الهدْي»، وإن كان مما استيسر لنا من الهدايا.

ولما اختُلِف في الجذع من الضّأن والثّني من المعِز، كان مجزئاً ذلك عن مُهديه، لظاهر التنزيل، لأنه مما استيسر من الهدْي.

فإن قال قائل: فما محلّ «ما» التي في قوله جَلَّ وعزّ: «فما استيسر من الهدْي»؟

قيل: رفعٌ.

فإن قال: بماذا؟

قيل: بمتروكٍ، وذلك «فعَلَيْهِ»، لأنه تأويل الكلام: وأتموا الحج والعمرة، أيها المؤمنون، لله، فإنْ حَبَسَكُم عن إتمامِ ذلك حابسٌ من مَرَضٍ أو كسرٍ أو خوف عدّوٍ، فعليكم - لإحلالكم، إنْ أردتم الإحلالَ من إحرامكم - ما استيسر من الهدي. وإنما اخترنا الرفع في ذلك، لأنَّ أكثرَ القرآن جاء برفع نظائره، وذلك كقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ﴾ وكقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾، وما أشبه ذلك. مما يطولُ بإحصائه الكتابُ، تركنا ذكره استغناء بما ذكرنا عنه.

ولو قيل: موضع «ما» نصبٌ، بمعنى: فإن أحصرتم فأهدُوا ما استيسر من

الهدي، لكان غير مخطىء قائلُه.

وأما «الهدي»، فإنه جمع، واحدها «هديّة»، على تقدير «جدِيَّة السرج» والجمع «الجَدْي» مخفف.

وبتخفيف «الياء» وتسكين «الدال» من «الهدي» قرأه القَرَأَةُ في كل مصر، إلا ما ذُكر عن الأعرج.

و«الهدي» عندي إنما سمي «هدياً» لأنه تَقَرَّب به إلى الله جَلَّ وعَزّ مُهْدِيهِ، بمنزلةِ الهدية يُهديها الرجلُ إلى غيره متقرباً بها إليه. يقال منه: «أهديتُ الهدي إلى بيت الله، فأنا أهديه إهداء». كما يقال في الهدية يُهديها الرجلُ إلى غيره: «أهديتُ إلى فلان هَديَّةً وأنا أهديها»، ويقال للبدَنة «هدية».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فإنْ أُحْصرتم، فأردتم الإحلالَ من إحرامكم، فعليكم ما استيسر من الهدي. ولا تُحِلُّوا من إحرامكم إذا أُحصرتم حتى يَبلُغَ الهديُ - الذي أوجبتُه عليكم لإحلالكم من إحرامكم الذي أُحصرتم فيه، قبل تمامِه وانقضاء مشاعره ومناسِكه - مَحِلَّهُ. وذلك أنَّ حَلْقَ الرأسِ إحلالٌ من الإحرامِ الذي كان المحرمُ قد أوجبه على نفسه. فنهاه الله عن الإحلالِ من إحرامه بحِلاقهِ، حتى يبلغ الهديُ - الذي أباحَ الله جَلَّ ثناؤه له الإحلال بإهدائه - محلَّه.

ثم اختلف أهلُ العلم في «مَحِلّ» الهدي الذي عناه الله جَلَّ اسمه، الذي متى بلغه كان للمحصر الإحلال من إحرامه الذي أحصر فيه.

فقال بعضهم: محلّ هدي المحصر الذي يَحلُّ به ويجوزُ له ببلوغهِ إياه حَلْقُ رأسه ـ إذا كان إحصارُه من خوفِ عَدُوٍّ منعه ذَبْحَه، إنْ كان مما يُذْبَح، أو نحرَه إن كان مما يُنْحَر، في الحل ذبح أو نحر أو في الحرم ـ حيث حبس وإن كان من غير خوف عدو، فلا يَحلّ حتى يَطوفَ بالبيت ويسعى بَين الصّفا والمروة. وهذا قولُ مَنْ قال: الإحصارُ إحصارُ العدوِّ دونَ غيرِه.

وقال بعضهم: مَحِلُّ هَدي المحصر الحرمُ، لا محلَّ له غيره.

وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل هذه الآية، قولُ من قال: إن الله عَزَّ وجل عَنى بقوله: «فإن أحصرتم فما استيْسر من الهدْي ولا تَحلِقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي مَحِله» ـ كُلَّ مُحْصَرٍ في إحرامٍ، بعمرةٍ كان إحرامُ المحصر أو بحجٍ. وجَعل مَحل هديه الموضعَ الذي أحصِر فيه، وجعل له الإحلال من إحرامه ببلوغ هديه مَحِلَّه ـ وتأوّل بـ«المحلّ» المَنْحَرَ أو المَذْبَح، وذلك حينَ حلّ نحرُه أو ذبحُه، في حرم كان أو في حل، وألزمه قضاءَ ما حَلَّ منه من إحرامه قبل إتمامه إذا وجدَ إليه سبيلاً، وذلك لتواترِ الأخبارِ عن رسول الله ﷺ أنه صُدَّ عام الحديبية عن البيتِ وهو محرمٌ وأصحابه بعمرة، فنحر هو وأصحابُه بأمره الهديَ، وحلّوا من إحرامهم قبل وصولهم إلى البيت، ثم قضَوا إحرامهم الذي حَلُّوا منه في العام الذي بعده. ولم يدَّع أحدٌ من أهل العلم بالسِّير ولا غيرهم أنَّ رسولَ الله ﷺ ولا أحداً من أصحابه أقام على إحرامه انتظاراً للوصول إلى البيت، والإحلال بالطواف به وبالسعي بين الصفا والمروة، ولا تحفّى وصولَ هَديه إلى الحرم.

فأولى الأفعال أن يُقْتَدَى به فعلُ رسول الله ﷺ، إذ لم يأت بحظره خبرٌ، ولم تَقُمْ بالمنْعِ منه حُجة. فإذْ كان ذلك كذلك، وكان أهل العلم مُختلفين فيما اخترنا من القول في ذلك ـ فمن متأوّلٍ معنى الآية تأويلَنا، ومن مُخالفٍ ذلك، ثم كان ثابتاً بما قلنا عن رسول الله ﷺ النَّقلُ ـ كان الذي نُقل عنه أولى

الأمور بتأويل الآية، إذْ كانت هذه الآية لا يَتدافع أهل العلم أنها يَومئذ نزلت، وفي حُكم صدِّ المشركين إياهُ عن البيت أُوحِيَتْ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي، ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يَبلغ الهديُ مَحِله، إلا أن يُضطر إلى حلقه منكم مضطرٌ، إما لمرضٍ، وإما لأذىً برأسه من هوامّ أو غيرها، فيحلق هنالك للضرورة النازلة به، وإن لم يبلغ الهدي محِله، فيلزمه بحِلاق رأسه وهو كذلك، فديةٌ من صيام أو صدقة أو نُسُك.

فأما «المرض» الذي أُبيحَ معه العلاجُ بالطِّيب وحَلق الرأس، فكلُّ مرض كان صلاحه بحلقهِ، كالبِرْسام الذي يكون من صلاح صاحبه حَلْق رأسه وما أشبه ذلك، والجراحات التي تكون بجسد الإنسان التي يحتاج معها إلى العلاج بالدواء الذي فيه الطيب، ونحو ذلك من القُروح والعلل العارضة للأبدان.

وأما «الأذى» الذي يكون إذا كان برأس الإنسان خاصة له حَلْقه، فنحو الصداع والشَّقيقة وما أشبه ذلك، وأن يكثر صِئْبان الرأس، وكل ما كان للرأس مؤذِياً مما في حَلْقهِ صلاحُه ودفع المضرَّة الحالَّة به، فيكون ذلك بعموم قول الله جَلَّ وعز: «أو به أذى من رَأسه».

وقد تظاهرتِ الأخبارُ عن رسول الله ﷺ أن هذه الآية نزلت عليه بسبب كعب بن عُجْرَة، إذ شكا كثرةَ أذىً برأسِهِ من صئبانه، وذلك عام الحديبية.

فعن عبدالله بن معقل قال: قعدت إلى كعب وهو في المسجد، فسألته عن هذه الآية: «ففديةٌ من صيام أو صَدقةٍ أو نسك»، فقال كعب: نزلت فيَّ،

كان بي أذى من رأسي، فحملتُ إلى رسول الله ﷺ والقَمْلُ يتناثرُ على وجهي، فقال: ما كنتُ أرَى أنَّ الجهْدَ بَلَغَ منك ما أرى! أتجد شاة؟ فقلت: لا! فنزلت هذه الآية: «ففدية من صيام أو صدقة أو نسك»، قال: فنزلت فيَّ خاصة، وهي لكم عامة[1].

وقد بيَّنا قَبْلُ معنى «الفِدية»، وأنها بمعنى الجزاء والبدَل.

واختلف أهل العلم في مبلغ الصيام والطعام اللذين أوجبهما الله على مَنْ حَلق شعره من المحرمين في حال مرضه، أو مِنْ أذىً برأسه.

والصواب: من القول في ذلك عندنا ما ثبت به الخبرُ عن رسول الله ﷺ، وتظاهرت به عنه الرواية: أنه أمر كعبَ بن عُجْرة بحلق رأسه من الأذى الذي كان برأسه، ويفتدى إن شاء بنُسُك شاةٍ، أو صيامِ ثلاثةِ أيامٍ، أو إطعام فَرَقٍ من طعام بَين ستة مساكين، كل مسكين نصف صاع. وللمفتدي الخيارُ بين أيِّ ذلك شاء، لأن الله لم يَحْصُره على واحدةٍ منهن بعينها، فلا يجوزُ له أن يَعْدُوها إلى غيرها، بل جعل إليه فعلَ أيِّ الثلاثِ شاء.

ومن أبَى ما قلنا من ذلك قيل له: ما قلتَ في المُكَفِّرِ عن يمينهِ، أمخيَّرٌ - إذا كان موسراً - في أن يُكَفِّرَ بأيِّ الكفارات الثلاث شاء؟ فإنْ قال: «لا»، خرج من قولِ جميع الأمة. وإن قال: «بلى!»، سئل الفرقَ بينه وبين المفتدِي من حَلْق رأسه وهو محرم من أذىً به. ثم لن يقول في أحدهما شيئاً إلا إذا ألزم في الآخر مثله.

على أنّ ما قلنـا في ذلك إجماعٌ من الحجة، ففي ذلك مستغنىً عن

---

(١) أخرجه البخاري (١٨١٦) و(٤٥١٧)، ومسلم (١٢٠١) من طريق عبدالله بن معقل عن كعب رضي الله عنه، وله طرق أخرى في الصحيحين من غير طريق عبدالله بن معقل.

الاستشهاد على صحته بغيره.

واختلف أهلُ العلم في الموضع الذي أمر الله أن يَنْسُك نُسْك الحلْق ويُطعم فديته.

والصواب من القول في ذلك: أنّ الله أوجبَ على حالق رأسِه من أذى من المحرمين، فديةً من صيامٍ أو صدقةٍ أو نسك، ولم يشترط أن ذلك عليه بمكان دون مكان، بل أبهم ذلك وأطلقه، ففي أيِّ مكان نَسَكَ أو أطعم أو صام، فيجزي عن المفتدي وذلك لقيام الحجة على أنَّ الله إذْ حرَّم أمهات نسائنا فلم يَحصرهن على أنهن أمهات النساء المدخول بهن، لم يجب أن يكنَّ مردوداتِ الأحكام على الربائب المحصورات على أنَّ المُحَرَّمَةَ منهن المدخولُ بأمها.

فكـذلـك كل مُبْهَمَةٍ في القرآن، غيرُ جائز رَدُّ حكمهما على المفسَّرة قياساً. ولكن الواجب أن يحكم لكل واحدة منهما بما احتمله ظاهرُ التنزيل، إلّا أن يأتي في بعض ذلك خبرٌ عن الرسول ﷺ، بإحالة حُكْمِ ظاهره إلى باطنه، فيجبُ التسليمُ حينئذٍ لحكمِ الرسولِ ﷺ، إذ كان هو المبيِّنُ عن مُراد الله.

وأجمعوا على أن الصيام مُجزىءٌ عن الحالقِ رأسَهُ من أذىً حيثُ صام من البلاد.

واختلفـوا فيمـا يجب أن يفعـل بِنُسْك الفدية من الحلق، وهل يَجوز للمفتدي الأكل منه أم لا؟

والذي نقول به في ذلك: أنّ الله أوجبَ على المفتدي نُسكاً، إن اختارَ التكفير بالنسـك. ولن يخلو الواجبُ عليه في ذلك من أن يكون ذَبْحه دون غيره، أو ذَبْحه والتصدق به. فإن كان الواجب عليه في ذلك ذَبْحه، فالواجب

أن يكون إذا ذبحَ نُسكاً فقد أدَّى ما عليه، وإنْ أكلَ جميعَهُ ولم يطعم مسكيناً منه شيئاً. وذلك ما لا نعلمُ أحداً من أهلِ العلم قاله. أو يكون الواجبُ عليه ذبحه والصدقة به. فإن كان ذلك عليه، فغير جائزٍ له أكلُ ما عليه أن يتصدَّق به، كما لو لزمته زكاةٌ في ماله، لم يكن له أن يأكل منها، بل كان عليه أن يُعطيها أهلَها الذين جعلها الله لهم. ففي إجماعهم ـ على أنَّ ما ألزمه الله من ذلك، فإنما ألزمه لغيره ـ دلالةٌ واضحة على حُكم ما اختلفوا فيه من غيره.

ومعنى «النُّسُـك»، الذبح لله، في لغة العرب، يقال: «نَسَك فلانٌ لله نسيكةً» ـ بمعنى: ذبح لله ذبيحة ـ «يَنسكها نَسكاً».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: فإذا بَرَأتم من مرضكم الذي أحصَركم عن حَجّكم أو عُمرتكم.

وقال آخرون: معنى ذلك، فإذا أمنتم من خوفكم.

وهـذا القـول أشبه بتأويل الآية. لأن «الأمن» هو خِلافُ «الخوف» لا خلاف «المرض»، إلا أن يكون مَرَضاً مخوفاً منه الهلاك، فيقال: فإذا أمنتُم الهلاكَ من خوف المرض وشدَّته، وذلك معنى بعيدٌ.

وإنمـا قلنا إنّ معناه: الخوفُ من العدوِّ، لأن هذه الآيات نَزلت على رسولِ الله ﷺ أيام الحديبية، وأصحابهِ من العدوِّ خائفون، فعرَّفهم اللهُ بها ما عليهم إذا أحصرهم خوفُ عدوِّهم عَن الحج، وما الذي عليهم إذا هم أمنوا من ذلك فزال عنهم خوفهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فإن أحصرتم أيها المؤمنون، فما استيسر من الهدْي، فإذا أمنتم فزال عنكم خوفُكم من عدوكم أو هلاككم من مرضكم، فتمتعتم بعمرتكم إلى حجكم، فعليكم ما استيسر من الهدْي:

ثم اختلف أهل التأويل في صفة «التمتُّع» الذي عنى اللهُ بهذه الآية.

وأولى الأقوال بتأويل الآية قولُ مَنْ قال: عنى بها: فإن أحصرتم أيها المؤمنون في حجكم فما استيسر من الهدي. فإذا أمنتم، فمن تمتَّع ممن حَلَّ من إحرامه بالحج ـ بسبب الإحصار، بعُمرة اعتمرها لفوتهِ الحج في السنة القابلة في أشهر الحج ـ إلى قضاء الحجة التي فاتته حين أحصر عنها، ثم دخل في عمرته فاستمتع بإحلاله من عمرته إلى أن يحج ـ فعليه ما استيسر من الهدي. وإنْ كان قد يكون مُتمتعاً مَنْ أنشأ عمرة في أشهر الحج وقضاها ثم حَلَّ من عمرته وأقام حلالاً حتى يحج من عامه. غيرَ أنَّ الذي هو أولى بالذي ذكره الله في قوله: «فمن تمتع بالعمرة إلى الحج»، هو ما وصفنا، من أجل أنَّ الله جَلَّ وعز، أخبر عما على المحصَر عن الحج والعمرة من الأحكام في إحصاره. فكان مما أخبر تعالى ذِكْرُه: أنه عليه ـ إذا أمِنَ من إحصاره فتمتع بالعمرة إلى الحج ـ ما استيسر من الهدي، فإنْ لم يجد فصيامُ ثلاثة أيام. وكان معلوماً بذلك أنه معنيٌّ به اللازمُ له ـ عند أمنه من إحصاره ـ من العمل بسبب الإحلال الذي كان منه في حجه الذي أحصِر فيه، دون المتمتع الذي لم يَتقدم عمرته ولا حجه إحصارُ مرض ولا خوف.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فما استيسر من الهدي، فهديه جزاء لاستمتاعه بإحلاله من إحرامه الذي حَلَّ منه حين عاد لقضاء حَجته التي أحصِر فيها، وعمرته التي كانت لَزِمَتْهُ بفوتِ حجته. فإن لم يجد هدياً، فعليه صيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحج في حجه، وسبعة إذا رجع إلى أهله.

ثم اختلف أهل التأويل في الثلاثة الأيام التي أوجبَ الله عليه صَومهن في الحج: أي في أيام الحج هُنَّ؟

والصوابُ من القول في ذلك عندي: أنَّ للمتمتعِ أنْ يصوم الأيام الثلاثة التي أوجبَ الله عليه صَومهن لمتعته إذا لم يجد ما استيسر من الهدي، من أولِ إحرامهِ بالحج بعد قضاءِ عمرته واستمتاعه بالإحلال إلى حجه، إلى انقضاء آخرِ عملِ حجّهِ، وذلك بعد انقضاء أيام منى سوى يوم النحر، فإنه غير جائز له صومُه، ابتدأ صَوْمَهُنَّ قبله، أو ترك صومَهنّ فأخَّرَهُ حتى انقضاء يوم عرفة.

فإن صامهن قَبل إحرامه بالحج، فإنه غير مجزىءٍ صَوْمُه ذلك، من الواجبِ عليه من الصومِ الذي فرضه اللهُ عليه لمتعته. وذلك أنَّ الله جَلَّ وعزّ إنما أوجب الصومَ على مَنْ لم يجد هدياً ممن استمتع بعمرته إلى حجه، فالمعتمر قبل إحلاله من عمرته، وقبل دخوله في حجه، غيرُ مستحقٍ اسمَ «مُتمتع» بعمرته إلى حجه. وإنما يقال له قبل إحرامه «معتمر»، حتى يدخل بعد إحلاله في الحج قَبل شخوصه عن مكة. فإذا دخل في الحجّ محرماً به ـ بعد قَضاء عمرته في أشهر الحج، ومقامه بمكة بعد قضاء عُمرته حَلالاً حتى حج من عامه ـ سُمي «متمتعاً». فإذا استحق اسم «متمتع» لزمه الهديُ. وحينئذٍ يكون له الصوم بعَدَمِهِ الهديَ، إن عَدمه فلم يجده.

فأما إن صامه قبل دخوله في الحج - وإن كان من نيته الحج - فإنما هو رجلٌ صَام صوماً ينوي به قضاءً عما عسى أنْ يلزمه أو لا يلزمه، فسبيلُه سبيلُ رجلٍ مُعسر صام ثلاثة أيام ينوي بصومهن كفارةَ يمينٍ، ليمينٍ يريدُ أنْ يحلف بها ويَحنَث فيها. وذلك ما لا خلافَ بين الجميع أنه غيرُ مجزىءٍ من كفارة، إن حلف بها بعد الصوم فحنِث.

فإنِ ظنّ ظان أن صومَ المعتمر - بعد إحلاله من عمرته، أو قبله، وقبل دخوله في الحج - مجزىءٌ عنه من الصوم الذي أوجبه الله عليه إنْ تمتع بعمرته إلى الحج، نظيرَ ما أجزأ الحالفَ بيمينٍ إذا كفَّر عنها قبل حَنْثه فيها بعد حلفه بهـا، فقد ظنّ خطأ. لأن الله جَلَّ ثناؤه جعل لليمين تحليلاً هو غيرُ تكفير، فالفاعل فيها قبل الحنْث فيها ما يفعله المكفِّر بعد حنْثه فيها، محلِّل غير مكفِّر. والمتمتع إذا صام قبل تمتعه، صائمٌ تكفيراً لما يظن أنه يلزمه ولَمَّا يلزمْه، وهو كالمُكَفِّرِ عن قَتلِ صيدٍ يريدُ قتله وهو محرمٌ قبل قتله، وعن تَطيُّبٍ قبل تَطيُّبه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: فمن لم يَجد ما استيسرَ من الهدي، فعليه صيام ثلاثة أيام في حجه، وصيام سبعة أيام إذا رجع إلى أهله ومصره.

فإن قال لنا قائل: أوَ ما يجبُ عليه صوم السبعة الأيام، بعد الأيام الثلاثة التي يصومهن في الحج، إلا بعد رجوعه إلى مصره وأهله؟

قيل: بلى، قد أوجبَ الله عليه صومَ الأيام العشرة بعدم ما استيسر من الهدي لمتعته، ولكن الله تعالى ذِكْرُه رَأفةً منه بعباده رَخص لمن أوجبَ ذلك عليه، كما رَخَّصَ للمسافر والمريض في شهر رمضان الإفطارَ وقضاء عدة ما أفطرَ من الأيام من أيام أُخَر. ولو تَحمَّل المتمتعُ فصامَ الأيام السبعة في سفره

قبل رُجوعه إلى وطنه، أو صامَهن بمكة، كان مؤدِّياً ما عليه من فرض الصوم في ذلك، وكان بمنزلة الصائم شهر رمضان في سفره أو مَرَضه مختاراً للعسر على اليسر.

وبالذي قلنا في ذلك قالت عُلماء الأمة.

فإن قال: وما بُرهانك على أن معنى قوله: «وسبعة إذا رجعتم»: إذا رجعتم إلى أهليكم وأمصاركم ـ دون أن يكون معناه: إذا رجعتم من منى إلى مكة؟ قيل: إجماع جميع أهل العلم على أن معناه ما قلنا دون غيره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله «كاملة».

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قولُ من قال: معنى ذلك: تلك عشرةٌ كاملةٌ عليكم فَرَضْنَا إكمالَهَا. وذلك أنه جَلَّ ثناؤه، قال: فمن لم يَجِدِ الهديَ فعليه صيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحجِّ وسَبعة إذا رجع. ثم قال: تلك عشرة أيام عليكم إكمالُ صَومها لمتعتكم بالعمرة إلى الحج. فأخرجَ ذلك مخرج الخبر، ومعناه الأمر بها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ذلك»، أي: التمتع بالعمرة إلى الحج، لمن لم يكن أهلهُ حاضري المسجد الحرام.

ثم اختلف أهل التأويل فيمن عَنَى بقوله: «ذلك لمن لم يكن أهله

حاضري المسجد الحرام»، بعد جماعِ جميعهم على أنَّ أهل الحرم مَعنيون به، وأنه لا مُتعة لهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة عندنا قول من قال: إن حاضِري المسجد الحرام، مَنْ هو حوله ممن بينه وبينه من المسافة ما لا تقصَر إليه الصلوات. لأن «حاضر الشيء»، في كلام العرب، هو الشاهدُ له بنفسه. وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان لا يستحق أن يسمى «غائباً»، إلا مَنْ كان مُسافراً شاخصاً عن وطنه، وكان المسافر لا يكون مسافراً إلا بشخوصه عن وطنه إلى ما تُقْصَرُ في مثله الصلاة، وكان من لم يكن لا يستحق اسم «غائب» عن وطنه ومنزله ـ كان كذلك من لم يكن من المسجد الحرام على ما تقصر إليه الصلاة، غير مستحق أن يقال هو من غير حاضريه، إذا كان الغائب عنه هو مَنْ وصفنا صفته.

وإنما لم تكنِ المتعةُ لمن كان من حاضري المسجد الحرام، من أجل أنَّ «التمتع» إنما هو الاستمتاعُ بالإحلال من الإحرام بالعُمرة إلى الحج، مرتفقاً في ترك العَـود إلى المنـزل والوطن بالمقام بالحرم حتى ينشىء منه الإحرامَ بالحج. وكان المعتمر مَتى قضَى عُمرته في أشهر الحجِّ، ثم انصرف إلى وطنه أو شَخص عن الحرم إلى ما تقصر فيه الصلاة، ثم حَجَّ من عامه ذلك، بطل أن يكون مستمتعاً. لأنه لم يستمتع بالمرفق الذي جُعل للمستمتع من ترك العود إلى الميقـات، والـرجـوع إلى الـوطن بالمقـام في الحرم. وكان المكيُّ من حاضري المسجد الحرام لا يرتفق بذلك، من أجل أنه متى قضى عُمرته أقام في وطنِه بالحرم، فهو غير مرتفقٍ بشيءٍ مما يرتفقُ به من لم يكن أهله من حاضري المسجد الحرام، فيكون متمتعاً بالإحلال من عُمرته إلى حجه.

القـول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٦﴾

يعني بذلك جَلَّ اسمه: «واتقوا الله»، بطاعته فيما ألزمكم من فرائضه وحدوده، واحذروا أن تعتدوا في ذلك وتتجاوزوا فيما بَيَّن لكم من مناسككم، فتستحِلُّوا ما حَرَّمَ فيها عليكم. «واعلموا»: تَيَقَّنُوا أنه تعالى ذِكْرُه شديدُ عقابه لمن عاقبه على من انتهكَ مَحارمه، وركب من مَعَاصيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: وقتُ الحج أشهر معلومات.

ثم اختلف أهلُ التأويل في قوله: «الحج أشهر مَعلومات».

والصواب من القول في ذلك عندنا، قولُ من قال: إن معنى ذلك: الحج شهران وعشرٌ من الثالث. لأن ذلك من الله خبرٌ عن ميقات الحج، ولا عملَ للحـج يُعمل بعد انقضاء أيام منى. فمعلومٌ أنه لم يَعْنِ بذلك جميع الشهر الثالث. وإذا لم يكن معنياً به جميعه، صَحَّ قولُ من قال: وعشر ذي الحجة.

فإن قال قائل: فكيف قيل: «الحج أشهر معلومات»، هو شهران وبعض الثالث؟

قيل: إن العرب لا تمتنع خاصة في الأوقات من استعمال مثل ذلك، فتقول: «لهُ اليومَ يومان منذ لم أره»، وإنما تعني بذلك: يوماً وبعضَ آخر، وكما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وإنما يتعجل في يوم ونصف. وقد يفعَلُ الفاعلُ منهم الفعل في الساعة، ثم يخرجه عامّاً على السنة والشهر فيقول: «زرته العام، وأتيته اليوم»، وهو لا يريد بذلك أنَّ فعله أخذ من أول الوقت الذي ذكره إلى آخره، ولكنه يعني أنه فعله إذ ذلك، وفي ذلك الحين. فكذلك «الحج أشهرٌ»، والمراد منه: الحج شهران وبعض آخر.

فمعنى الآية إذاً: ميقاتُ حَجكم أيها الناس شهران وبعض الثالث، وهو شوال وذو القعدة وعَشر ذي الحجة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «فمن فَرض فيهن الحج»، فَمَنْ أوجبَ الحج على نفسه وألزمها إياه فيهنّ ـ يعني: في الأشهر المعلومات التي بيَّنها، وإيجابه إياه على نَفسه، العزمُ على عمل جميع ما أوجبَ الله على الحج عمله، وتَرك جميع ما أمرَه الله بتركه.

وقد اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي يكون به الرجلُ فارضاً الحجَّ، بعد إجماع جميعهم على أن معنى «الفرض»: الإيجاب والإلزام.

فقال بعضهم: فَرض الحج، الإهلال.

وقال آخرون: فرض الحج إحرامه.

وهذا القولُ الثاني يحتمل أن يكون بمعنى ما قلنا، من أنْ يكونَ الإحرامُ ـ كان عند قائله ـ الإيجاب بالعزم، ويحتمل أن يكون كان عنده بالعزم والتلبية، كما قال القائلون القولَ الأول.

وإنما قُلنا إنَّ فرضَ الحج الإحرام، لإجماع الجميع على ذلك. وقلنا: إنّ الإحرام هو إيجاب الرجل ما يلزم المحرمَ أن يوجبه على نفسه على ما وصفنا آنفاً، لأنه لا يخلو القول في ذلك من أحد أمور ثلاثة:

إما أن يكون الرجل غيرَ محرم إلا بالتلبية، وفعل جميع ما يجبُ على الموجب الإحرامَ على نفسه فعلُه، فإن يكن ذلك كذلك، فقد يجب أن لا يكون محرماً إلا بالتجرد للإحرام، وأن يكون من لم يكن له متجرداً فغير محرم.

وفي إجماع الجميع عَلى أنه قد يكون محرماً وإن لم يكن متجرداً من ثيابه، بإيجابه الإحرامَ ـ ما يدلُّ على أنه قد يكون محرماً وإنْ لم يُلَبِّ إذْ كانت التلبيةُ بعضَ مَشاعرِ الإحرام، كما التجرد له بعض مشاعره. وفي إجماعهم على أنه قد يكون محرماً بتركِ بعضِ مشاعر حجه، ما يدل على أنّ حُكم غيره من مَشاعره حكمُه.

أو يكون ـ إذْ فسد هذا القول ـ قد يكون محرماً وإنْ لم يُلَبِّ ولم يتجرد ولم يعزم العزمَ الذي وصفنا. وفي إجماع الجميع على أنه لا يكون محرماً مَنْ لم يعزم على الإحرامِ ويوجبه على نفسه، إذا كان من أهل التكليف، ما ينبىء عن فساد هذا القول.

وإذْ فسد هذان الوجهان، فبيِّنَةٌ صِحَّةُ الوجه الثالث: وهو أن الرجل قد يكون محرماً بإيجابه الإحرام بعزمه، على سبيل ما بيَّنّا، وإنْ لم يظهر ذلك بالتجرد والتلبية وصَنيع بعض ما عليه عمله من مَناسكه. وإذا صحَّ ذلك، صحَّ ما قلنا من أنَّ فرضَ الحجّ، هو ما قُرِنَ إيجابهُ بالعزم، على نحو ما بيّنا قبل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾

اختلف أهل التأويل في معنى «الرفث» في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هو الإفحاشُ للمرأة في الكلام، وذلك بأن يقول: «إذا حللنا فعلتُ بك كذا وكذا»، لا يكني عنه، وما أشبه ذلك.

وقال آخرون: «الرفث» في هذا الموضع: الجماع نفسه.

والصواب من القول في ذلك عندي، أن الله جَلَّ ثناؤه نهى ـ مَنْ فرض الحجّ في أشهر الحج ـ عن الرفث فقال: «فمن فَرَض فيهن الحج فلا رفث». و«الرفث» في كلام العرب أصله: الإفحاشُ في المنطق، على ما قد بَيَّنا فيما

مضى، ثم تستعمله في الكناية عن الجماع. فإذ كان ذلك كذلك، وكان أهل العلم مختلفين في تأويله، وفي هذا النهي من الله: عن بَعض معاني «الرفث» أمْ عن جميعِ معانيهِ؟ - وجَب أنْ يكونَ على جميع معانيه، إذا لم يأت خبرٌ - بخصوص «الرفث» الذي هو بالمنطق عند النساء، من سائر معاني «الرفث» - يجبُ التسليم له. إذ كان غيرَ جائز نَقلُ حُكم ظاهر آية إلى تأويل باطن، إلا بحجة ثابتة.

فإن قال قائل: إن حُكمها من عموم ظَاهرها إلى الباطن من تأويلها، منقول بإجماع. وذلك أنَّ الجميعَ لا خلافَ بينهم في أنَّ «الرفث» عند غير النساء غير محظور على مُحرم، فكان معلوماً بذلك أنَّ الآية معنيٌّ بها بعض «الرفث» دون بعض. وإذ كان ذلك كذلك، وجَب أن لا يحرَّم من معاني «الرفث» على المحرِم شيء، إلا ما أُجْمِعَ على تحريمه عليه، أو قامت بتحريمه حجة يجب التسليم لها.

قيل: إنَّ ما خُصَّ من الآية فَأُبيحَ، خارجٌ من التحريم، والحظرُ ثابت لجميع ما لم تخصصه الحجة من معنى «الرفث» بالآية، كالذي كان عليه حكمه لو لم يُخَصَّ منه شيء، لأن ما خصَّ من ذلك وأخرج من عمومه، إنما لزمنا إخراج حكمه من الحظر بأمر من لا يجوز خلافُ أمره. فكان حُكم ما شمله معنى الآية - بعد الذي خُصَّ منها - على الحكم الذي كان يلزم العبادَ فرضُه بها، لو لم يخصص منها شيء، لأن العلة فيما لم يخصص منها بعدَ الذي خُصَّ منها، نظيرُ العلة فيه قبل أن يُخص منها شيء.

## القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الفسوق»، التي نهى الله عنها في هذا الموضع.

وأولى الأقوال بتأويل الآية قولُ من قال: معنى قوله: «ولا فُسوق»، النهيُ عن معصية الله في إصابة الصيد وفعل ما نهى الله المحرمَ عن فعله في حال إحرامه.

وذلك أن الله جَلَّ ثناؤه قال: «فَمن فَرَضَ فيهن الحج فَلا رَفَث ولا فُسوق»، يعني بذلك: فلَا يرفُثْ ولا يَفْسُق، أي لا يفعل ما نَهاه الله عَنْ فعله في حال إحرامه، ولا يخرُجْ عن طاعةِ الله في إحرامه. وقد علمنا أن الله جَلَّ ثناؤه قد حرَّم معاصيه على كلِّ أحدٍ، محرِماً كان أو غيرَ محرمٍ، وكذلك حرَّم التنابز بالألقاب في حال الإحرام وغيرها بقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]، وحرَّم على المسلم سِبابَ أخيه في كل حال، فَرَض الحجّ أو لم يَفرضه.

فإذْ كان ذلك كذلك، فلا شكّ أنَّ الذي نَهى الله عنه العبدَ من الفسوقِ في حال إحرامِهِ وفرضه الحجّ، وهو ما لم يكن فسوقاً في حال إحلاله وقبلَ إحرامِهِ بحجه، كما أن «الرفث» الذي نهاهُ عنه في حال فَرضه الحج، هو الذي كان له مُطلقاً قبل إحرامه. لأنه لا معنى لأن يقال فيما قَد حَرَّم الله على خلقه في كُلّ الأحوال: «لا يفعلن أحدُكم في حال الإحرام، ما هو حَرَام عليه فعلُه في كل حال». لأنَّ خصوصَ حال الإحرام به لا وجه له، وقد عُمَّ به جميع الأحوال من الإحلال والإحرام.

فإذ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أن الذي نُهي عنه المحرمُ من «الفسوق» فخُصَّ به حالُ إحرامه، وقيل له: «إذا فرضتَ الحجَّ فلا تفعله»، هو الذي كان له مطلقاً قبلَ حالِ فَرضه الحَجَّ، وذلك هو ما وصفنا وذكرنا، أن الله جَلَّ ثناؤه خَصَّ بالنهي عنه المحرمَ في حال إحرامه مما نهاه عنه: من الطِّيبِ، واللباسِ، والحَلْقِ، وقَصِّ الأظفار، وقَتل الصيد، وسائر ما خَصَّ الله بالنهي عنه المحرِمَ في حال إحرامه.

فتأويل الآية إذاً: فمن فرض الحج في أشهر الحجّ فأحرم فيهن، فلا يرفث عند النساء فيُصرِّح لهنَّ بجماعهن، ولا يُجامعهُن، ولا يفسق بإتيان ما نهاه الله في حال إحرامه بحجه: مِنْ قتلِ صيدٍ، وأخذ شَعر، وقَلم ظُفر، وغير ذلك مما حَرّم الله عليه فعلَه وهو مُحرم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾

ومعنى ذلك: قد بطل الجدال في الحج ووقته، واستقام أمره ووقته على وقت واحد، ومناسك متفقة غير مختلفة، ولا تنازع فيه ولا مراء. وذلك أنّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أن وَقتَ الحج أشهرٌ معلوماتٌ، ثم نَفَى عن وَقته الاختلاف الذي كانت الجاهلية في شركها تختلف فيه.

وإنما اخترنا هذا التأويل في ذلك، ورأيناه أولى بالصواب مما خالفه، لِمَا قد قَدَّمْنَا من البيانِ آنفاً في تأويل قوله: «ولا فسوق»، أنه غير جائزٍ أنْ يكون الذي خَصَّ بالنهي عنه في تلك الحال إلا ما هو مُطلق مُباح في الحال التي يُخالفها، وهي حال الإحلال. وذلك أنَّ حُكم ما خُصَّ به من ذلك حُكم حال الإحرام، إن كان سواءً فيه حال الإحرام وحال الإحلال، فلا وجه لخصوصه به حالاً دون حال، وقد عمّ به جميع الأحوال.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: افعلوا أيها المؤمنون ما أمَرْتُكُمْ به في حَجِّكم، من إتمامِ مناسككم فيه، وأداء فرضكم الواجب عليكم في إحرامكم، وتجنُّب ما أمرتكم بتجنبه من الرفث والفسوق في حجكم، لتستوجبوا به الثوابَ الجزيلَ، فإنكم مَهما تَفعلوا من ذلك وغيره من خيرٍ وعملٍ صالح ابتغاءَ

مَرْضاتي وطلب ثَوابي، فأنا به عالِمٌ، ولجميعه مُحْصٍ، حتى أوفِّيكم أجْرَهُ، وأجـازيكـم عليه، فإنـي لا تخـفـى عليَّ خافـية، ولا ينكتم عَنِّي ما أردتم بأعمالكم، لأني مُطَّلِعٌ على سرائركم، وعالم بضمائر نفوسكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾

وتأويل الآية: فمن فَرضَ في أشهر الحجّ فأحرم فيهن، فلا يرفثنَّ ولا يفسقنَّ، فإنَّ أمر الحج قد استقام لكم، وعرَّفكم ربكم ميقاتَهُ وحدودَهُ، فاتقوا الله فيما أمركم بهِ ونهاكم عنه من أمر حجكم ومَناسككم، فإنكم مهما تفعلوا من خيرٍ أمرَكُم به أو به وندبكم إليه، يعلمه. وتَزَوَّدُوا من أقواتكم ما فيه بلاغُكم إلى أداء فرضِ ربكم عليكم في حَجِّكم ومناسككم، فإنه لا بِرَّ لله جَلَّ ثناؤهُ في ترككم التزوُّدَ لأنفسكم ومسألتِكم الناس، ولا في تضييع أقواتكم وإفسادها، ولكن البرَّ في تقوى رَبِّكم باجتنابِ ما نهاكم عنه في سفركم لحجكم، وفعل ما أمركم به فإنه خيرُ التزود، فمنه تزودوا.

وقد بينا معنى «التقوى» فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٧﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: واتقون يا أهل العقول والأفهام، بأداء فرائضي عليكم التي أوجَبْتُهَا عليكم في حَجِّكم ومناسككم، وغير ذلك من ديني الذي شرعتُه لكم ـ وخافوا عقابي باجتناب مَحارمي التي حرَّمتها عليكم، تَنْجُوا بذلك مما تخافون من غَضبي عليكم وعقابي، وتُدْرِكُوا ما تطلبونَ من الفوز بجناتي.

وخَصَّ جَلَّ ذِكْرُه بالخطابِ بذلك أُولي الألباب، لأنهم هم أهلُ التمييزِ

بين الحق والباطل، وأهلُ الفكر الصحيح والمعرفة بحقائق الأشياء التي بالعقول تُدْرَكُ، وبالألباب تُفهم. ولم يجعل لغيرهم من أهل الجهل في الخطاب بذلك حَظاً، إذ كانوا أشباحاً كالأنعام، وصُوراً كالبهائم، بل هُم منها أضلُّ سبيلا.

و«الألباب» جمع «لُبٍّ»، وهو العقل.

القول في تأويل قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ

يعني بذلك جَلَّ ذِكْرُه: ليس عليكم أيها المؤمنون جُناحٌ.

و«الجناح»: الحرج.

وقوله: «أن تَبتغوا فَضْلا من ربكم»، يعني أن تَلتمسوا فضلاً من عند ربكم.

يقال منه: «ابتغيتُ فضلاً من الله ـ ومن فَضْلِ الله ـ أبتغيه ابتغاءً»، إذا طلبته والتمسته، «وبَغيته أبغيه بَغياً».

وقيل: إنَّ معنى «ابتغاء الفضل من الله»، التماس رزق الله بالتجارة، وأنَّ هذه الآية نزلت في قومٍ كانوا لا يرون أنْ يَتَّجِرُوا. إذا أحرَمُوا، يلتمسون البِرَّ بذلك فأعلمهم جَلَّ ثناؤه أن لا برَّ في ذلك، وأنَّ لهم التماس فضله بالبيع والشراء.

القول في تأويل قوله تعالى: فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «فإذا أفضتم»، فإذا رَجعتم من حيثُ بدأتم.

ولذلك قيل للذي يَضرب القداح بين الأيسار: «مفيض»، لجمعه

القداح، ثم إفاضته إياها بين الياسرين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فإذا أفضتم فكررتم رَاجعين من عَرفَة، إلى حيثُ بدأتم الشخوصَ إليها منه، «فاذكروا الله»، يعني بذلك: الصلاة والدعاء عند المشعر الحرام.

وقد بينا قَبْلُ أنَّ «المشاعر» هي المعالم، من قول القائل: «شعرت بهذا الأمر»، أي علمت، فـ«المشعر»، هو المعلَم. سمي بذلك، لأن الصلاةَ عنده والمقام والمبيتَ والدعاءَ، من مَعالم الحج وفروضه التي أمر الله بها عباده.

فأما «المشعر»: فإنه هو ما بين جَبلي المزدلفة من مَأزِمَيْ عَرفَة إلى مُحسِّر. وليس مأزِمَا عَرفَة من «المشعر».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝١٩٨﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: واذكروا الله أيها المؤمنون عند المشعر الحرام ـ بالثناءِ عليه والشكرِ له على أياديهِ عندكم، وليكن ذكركم إياه بالخضوع لأمره، والطاعة له، والشكر على ما أنعم عليكم من التوفيق لما وفقكم له من سُنن إبراهيمَ خليله، بعد الذي كنتم فيما كنتم فيه من الشرك والحيرةِ والعمى عن طريقِ الحق، وبَعد الضلالة ـ كذكره إياكم بالهُدى حتى استنقذكم من النار به، بعد أَنْ كنتم على شَفا حفرةٍ منها، فنجَّاكم منها. وذلك هو معنى قوله: «كما هداكم».

وأما قوله: «وإنْ كنتم من قَبْلِهِ لمن الضالين»، فإنَّ من أهل العربية مَنْ يُوجِّهُ تأويل «إنْ» إلى تأويل «ما»، وتأويل «اللام» التي في «لمن» إلى «إلاَّ».

فتأويل الكلام على هذا المعنى: وما كنتم - من قبل هدايةِ الله إياكم لما هداكم لهُ من ملةِ خليلهِ إبراهيمَ التي اصطفاها لمن رضيَ عنه من خَلْقِهِ - إلاّ من الضالين.

ومنهم مَنْ يوجه تأويل «إنْ» إلى «قد».

فمعناه، على قول قائل هذه المقالة: واذكروا الله أيها المؤمنون، كما ذكركم بالهدي فهداكم لما رَضِيَهُ من الأديان والملل، وقد كُنْتُمْ من قبل ذلك من الضالِّين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، ومَنِ المعنيُّ بالأمر بالإفاضة من حيثُ أفاض الناسُ؟ ومَن «الناس» الذين أُمروا بالإفاضة من مَوْضع إفاضتهم؟

فقال بعضهم: المعنيُّ بقوله: «ثم أفيضوا»، قريش ومَن ولَدَته قريش، الذين كانوا يُسَمَّوْنَ في الجاهليةِ «الحُمُس»، أُمروا في الإسلام أن يُفيضوا من عَرَفات، وهي التي أفاض منها سائرُ الناس غير الحُمس. وذلك أنَّ قريشاً ومَنْ ولدته قُريش كانوا يقولون: «لا نخرج من الحرم»، فكانوا لا يشهدون مَوقفَ الناس بعرفة معهم، فأمرهم الله بالوقوف معهم.

وقال آخرون: المخاطَبون بقوله: «ثم أفيضوا»، المسلمون كُلُّهم، والمعنيُّ بقوله: «من حيثُ أفاض الناس»، من جَمْع[1]، وبـ«الناس»، إبراهيم

---

(١) جَمْع: هي المزدلفة.

خليلُ الرحمن عليه السلام.

والذي نراه صَواباً من تأويل هذه الآية: أنه عُني بهذه الآية قريشٌ ومَنْ كان متحمساً معها من سائر العرب، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله.

وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويلُ الآية: فمن فَرض فيهنَّ الحج فلا رَفثَ ولا فُسوقَ ولا جِدالَ في الحج، ثم أفيضوا من حَيْثُ أفاضَ الناس، واستغفروا الله إنَّ الله غفورٌ رحيم، وما تَفعلوا من خَيرٍ يعلمه الله.

وهذا، إذ كان ما وصفنا تأويله، فهو من المُقَدَّم الذي مَعناه التأخير، والمُؤَخَّـرِ الذي معناه التقديم، على نحو ما تقدم بياننا في مثله. ولولا إجماعُ من وصفتُ إجماعه على أن ذلك تأويله، لقلتُ: أولى التأويلين بتأويل الآية ما قاله الآخرون من أنَّ الله عنى بقوله: «من حيث أفاضَ الناس»، من حيث أفاضَ إبـراهيم. لأنَّ الإفاضةَ من عرفات لاشك أنها قبل الإفاضة من جَمْع، وقبل وجوب الذكر عند المشعر الحرام. وإذ كان ذلك لاشك كذلك، وكان الله عَزَّ وجل إنما أمر بالإفاضة من الموضع الذي أفاض منه الناسُ، بَعد انقضاء ذكر الإفاضة من عرفات، وبعد أمره بذكره عند المشعر الحرام، ثم قال بعد ذلك: «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس» ـ كان معلوماً بذلك أنه لم يأمر بالإفاضة إلَّا من الموضع الذي لم يُفيضوا منه، دون الموضع الذي قد أفاضوا منه، وكان الموضعُ الذي قد أفاضوا منه فانقضى وَقتُ الإفاضة منه، لا وَجه لأنْ يقالَ: «أفِضْ منه».

فإذْ كان لا وَجه لذلك، وكان غير جائز أن يأمر الله جَلَّ وعزّ بأمرٍ لا معنى له، كانت بيِّنـةً صحـةُ ما قالوه من التأويل في ذلك، وفسادُ ما خالفه، لولا الإجماع الذي وصفناه، وتظاهر الأخبار بالذي ذكرنا.

فإنْ قال لنا قائلٌ: وكيف يجوز أن يكون ذلك معناه، «والناس» جماعة «وإبراهيم» ﷺ واحد، والله تعالى ذِكْرُه بقوله: «ثم أفيضوا من حيث أفاضَ الناس»؟

قيل: إنَّ العربَ تفعلُ ذلك كثيراً، فتدلُّ بذكر الجماعةِ على الواحد، ومن ذلك قول الله عَزَّ وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، والذي قال ذلك واحد، وهو فيما تظاهرت به الروايةُ من أهل السير ـ نعيم بن مسعود الأشجعي. ومنه قول الله عَزَّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحاً﴾ [المؤمنون: ٥١]، قيل: عنى بذلك النبي ﷺ ـ ونظائر ذلك في كلام العرب أكثر من أن تحصى.

القول في تأويل قوله تعالى: وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فإذا أفضتم من عرفاتٍ مُنصرفين إلى مِنى، فاذكروا الله عند المشعرِ الحرام، وادعوهُ واعبدوه عنده، كما ذكركم بهدايته فَوَفَّقَكُمْ لما ارتضى لخليلهِ إبراهيم، فهداهُ له من شريعة دينه، بعد أن كنتم ضُلاَّلاً عنه.

وفي «ثم» في قوله: «ثم أفيضوا من حَيْثُ أفاضَ الناس»، من التأويل وجهان:

أحدهما أن معناه: ثم أفيضوا فانصرفوا راجعين إلى منى من حيث أفاضَ إبراهيمُ خليلي من المشعر الحرام، وسَلُوني المغفرةَ لذنوبكم، فإني لها غَفورٌ، وبكم رحيم.

وأما قوله: «فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكراً»، فإنَّ أهل التأويل اختلفوا في صفة «ذكرِ القوم آباءهم»، الذين أمرَهُم الله أن يجعلوا ذكرهم إياه كذكرهم آباءَهم أو أشد ذكراً.

فقال بعضهم: كان القوم في جاهليتهم، بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكرُهم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، وأن يُلزموا أنفسهم من الإكثار من ذكره، نظيرَ ما كانوا ألزموا أنفسهم في جاهليتهم من ذكر آبائهم.

والآخر منهما: «ثم أفيضوا» من عرفة إلى المشعر الحرام، فإذا أفضتم إليه منها، فاذكروا الله عنده كما هداكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: ﴿فإذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ﴾، فإذا فرَغتم من حَجِّكم فذبحتم نِسائككم، فاذكروا الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فاذكروا الله كذكر الأبناء والصِّبيانِ الآباءَ.

وقال آخرون: بل قيل لهم: «اذكروا الله كذكركم آباءكم»، لأنهم كانوا إذا قضوا مناسكهم فدعوا ربَّهم، لم يذكروا غيرَ آبائهم، فأمروا من ذكر الله بنظير ذكر آبائهم.

والصواب من القول عندي في تأويل ذلك أنْ يُقالَ: إن الله جَلَّ ثناؤه أمرَ عباده المؤمنين بذكره بالطاعةِ له، في الخضوعِ لأمرِهِ، والعبادةِ له، بعد قَضاء مَناسكهم. وذلك «الذكر» جائزٌ أنْ يكونَ هو التكبيرُ الذي أمَر به جَلَّ ثناؤه بقوله:

﴿وَٱذْكُرُوا ٱللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] الذي أوجبه على من قضى نُسكه بعد قضائه نُسكه، فألزمه حينئذ مِنْ ذِكْره ما لم يكن له لازماً قبل ذلك، وحثَّ على المحـافظةِ عليه مُحافظة الأبناء على ذكر الآباء في الإكثار منه، بالاستكانةِ له، والتضرعِ إليه، بالرغبة منهم إليه في حوائجهم، كتضرُّعِ الولدِ لوالدِهِ، والصبيِّ لأمهِ وأبيه، أو أشد من ذلك، إذ كان ما كان بهم وبآبائهم من نعمة فمنه، وهو وليه.

وإنما قلنا: «الذكر» الذي أمر الله جَلَّ ثناؤه به الحاجَّ بعد قضاء مناسكه بقوله: «فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً»: «جائزٌ أن يكون هو التكبير الذي وَصَفنا»، من أجل أنه لا ذكر لله أمرَ العباد به بعد قَضاء مَناسكهم لم يكن عليهم من فرضه قبل قضائهم مناسكهم، سوى التكبير الذي خَصَّ الله به أيام منى. فإذ كان ذلك كذلك، وكان معلوماً أنه جَلَّ ثناؤه قد أوجبَ على خَلْقِه بعد قَضائهم مناسكهم من ذكره ما لم يكنْ واجباً عليهم قبل ذلك، وكان لا شيء من ذكره خَصَّ به ذلك الوقت سوى التكبير الذي ذكرناه ـ كانت بَيِّنَةً صحةُ ما قلنا من تأويلِ ذلك على ما وصفنا.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠﴾

يعني بذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فإذَا قَضَيْتُم مَناسِكَكُمْ» أيها المؤمنونَ «فاذْكُروا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً» وارغبُوا إليهِ فيما لَدَيهِ مِنْ خيرِ الدُّنيا والآخرة بابتهالٍ وتمسْكُنٍ، واجعلوا أعمالَكُم لوجهِهِ خالِصاً ولِطَلبِ مرضاتِهِ، وقولُوا ربَّنا آتِنا في الدُّنيا حسَنة، وفي الآخرةِ حسَنة، وقِنا عذابَ النَّار؛ ولا تكونُوا كمَن اشْتَرى الحياةَ الدُّنيا بالآخرةِ، فكانت أعمالُهم للدُنيا وزينَتِها، فلا يسألونَ ربَّهم إلا متاعها، ولا حظَّ لهم في ثوابِ اللهِ، ولا نصيبَ لهم في جناتِهِ، وكريم ما

أعدَّ لأوليائِه، كما قال في ذلك أهل التأويل.

وأمـا معنى الخـلاق فقـد بيَّنَّاهُ في غير هذا الموضع، وذكرنا اختلاف المختلفينَ في تأويلِهِ، والصحيح لدينـا من معنـاه بالشواهدِ من الأدلةِ، أنه النصيبُ بما فيه كفايةُ عن إعادتِه في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى الحسَنة التي ذكر الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: يعني بذلك ومن الناس من يقول: ربَّنا أعطِنا عافيةً في الدُّنيا، وعافيةً في الآخرة.

وقـال آخـرون: بل عنى الله عَزَّ وجَلَّ بالحسَنة في هذا الموضع: في الدُّنيا: العِلم والعبادة، وفي الآخرة الجَنَّة.

وقال آخرون: الحسَنة في الدُّنيا: المال، وفي الآخرة: الجَنَّة.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أخبر عن قومٍ من أهلِ الإيمان بهِ وبرسولِه، مِمَّن حجَّ بيته، يسألُونَ ربَّهم الحسَنة في الدُّنيا، والحسَنة في الآخرة، وأن يقيهم عذابَ النَّار، وقد تجمعُ الحسَنة من الله عَزَّ وجَلَّ العافية في الجسمِ والمعاشِ والرزق، وغير ذلك والعلم والعبادة. وأما في الآخرة فلاشكَّ أنها الجَنَّة، لأن من لم ينَلها يومئِذٍ، فقد حُرِمَ جميع الحسنات، وفارقَ جميع معاني العافية.

وإنما قلنا إن ذلك أولى التأويلات بالآية، لأن الله عَزَّ وجَلَّ لم يخصصْ بقوله مخبراً عن قائل ذلك من معاني الحسَنة شيئاً، ولا نصب على خصوصه

دلالة دالة على أن المرادَ من ذلك بعض دونَ بعض، فالواجبُ من القول ِ فيه ما قُلنا، من أنه لا يجوز أن يخصّ من معاني ذلك شيء، وأن يحكم بعمومه على ما عمَّه الله.

وأما قوله: «وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» فإنه يعني بذلك: اصرفْ عنّا عذابَ النار، يقال منه: وقَيتَه، كذا أقيهِ وقايةً وواقية ووقاءً ممدوداً، وربما قالوا: وقاكَ اللهُ وَقْياً: إذا دفعتَ عنهُ أذى أو مكروهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٢٠٢﴾

يعني بقـوله جَلَّ ثناؤُهُ: «أولئك»، الذين يقولون بعد قضاء مناسِكِهم: «رَبَّنَا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وَقِنا عذابَ النار»، رغبةً منهم إلى الله جَلَّ ثناؤُهُ فيما عنده، وعلماً منهم بأنَّ الخيرَ كله من عنده، وأنَّ الفضلَ بيده يُؤتيه مَنْ يَشاء. فأعْلَمَ جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ لهم نصيباً وحظاً من حجِّهم ومناسكهم، وثواباً جزيلاً على عملهم الذي كسبوه وَباشروا معاناته بأموالهم وأنفسهم، خاصاً ذلك لهم دون الفريق الآخر، الذين عانوا ما عانوا من نَصَب أعمالهم وتعبها؛ وتكلَّفُـوا ما تكلفـوا من أسفارهم، بغير رغبةٍ منهم فيما عند رَبِّهم من الأجر والثواب، ولكن رَجاء خسيسٍ من عَرَضِ الدنيا، وابتغاء عَاجل حُطامها.

وأما قوله: «والله سريع الحساب»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤُهُ أنه محيطٌ بعمل الفريقين كليهما اللذين من مسألة أحدهما: «رَبنا آتنا في الدنيا»، ومن مسألة الآخر: «رَبَّنَا آتِنَا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، فَمُحْصٍ له بأسرعِ الحساب، ثم إنه مجازٍ كِلاَ الفريقين على عمله.

وإنمـا وصف جَلَّ ثناؤُهُ نفسه بسرعة الحساب، لأنه جل ذكره يُحصِي

ما يُحصي من أعمالِ عبادهِ بغير عَقْدِ أصابع، ولا فكرٍ ولا رَوية، فِعلَ العَجَزةِ الضَّعَفةِ من الخَلْق، ولكنه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ولا يَعزبُ عنه مثقالُ ذرة فيهما، ثم هو مُجازٍ عبادَه على كل ذلك. فلذلك امتدح نَفْسَهُ جَلَّ ذكره بسرعةِ الحساب، وأخبر خلقه أنه ليس لهم بمِثْلٍ، فيحتاجَ في حسابه إلى عَقْدِ كفٍّ أو وَعْي صَدْرٍ.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾

يعني جَلَّ ذكره: اذكروا الله بالتوحيدِ والتعظيم في أيامٍ مُحصَيات، وهي أيامُ رَمي الجمار. أمَرَ عبادَهُ يومئذٍ بالتكبير أدبارَ الصلوات، وعند الرمي مع كل حَصَاةٍ من حَصى الجمار يرمي بها جَمرةً من الجمار.

وإنمـا قلنا إنَّ «الأيام المعدودات»، هي أيامُ مِنى وأيام رمي الجمار، لتظاهُرِ الأخبار عن رسولِ الله ﷺ أنه كان يقول فيها: إنها أيام ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ.

فإنْ قال قائل: إن النبي ﷺ إذ قال في أيام منى: إنها أيامُ أكلٍ وشرب وذكر الله، لم يخبر أُمَّته أنها «الأيام المعدودات» التي ذكرها الله في كتابه، فما تنكر أن يكون النبيُّ ﷺ عَنَى بقوله: «وذكْر الله»، «الأيام المعلومات»؟

قيل: غير جائز أن يكــون عَنَى ذلك؛ لأنَّ الله لم يكن يُوجب في «الأيام المعلومـات» من ذكـره فيها ما أوجبَ في «الأيام المعدودات»، وإنما وصف «المعلومـات» جَلَّ ذِكْرُهُ، بأنها أيامٌ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله على بهائمِ الأنعام، فقال: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٧]، فلم يُوجِبْ في «الأيام المعلومات» من ذِكْرِهِ كالذي أوجبه في «الأيام المعدودات» من ذكره، بل أخبر أنها أيام ذكره على بَهائم الأنعام؛ فكان معلوماً إذ قال ﷺ لأيام التشريق: «إنَّها أيامُ أكلٍ وشربٍ

وذِكْرِ الله»[1] فأخرج قوله: «وذكر الله» مطلقاً بغير شرط، ولا إضافة إلى أنه الذكر على بهائم الأنعام أنه عنى بذلك الذكر الذي ذكره الله في كتابه، فأوجبه على عبادِهِ مُطْلَقاً بغير شرطٍ، ولا إضافة إلى معنى في «الأيام المعدودات»، وأنه لو كان أراد بذلك ﷺ وَصْف «الأيام المعلومات» به، لوصل قوله: «وذكر» إلى أنه ذكر الله على ما رزقهم من بهائم الأنعام، كالذي وصف الله به ذلك، ولكنه أطلق ذلك باسم الذكر من غير وَصْلِهِ بشيءٍ، كالذي أطلقه تبارك وتعالى باسم الذكر فقال: «واذْكُرُوا الله في أيامٍ معدودات». فكان ذلك من أوضحِ الدليلِ على أنه عَنَى بذلك ما ذكره الله في كتابه، وأوجبه في «الأيام المعدودات».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾

وأولى الأقـوالِ بالصحـةِ قولُ مَنْ قال: تأويل ذلك: «فمن تَعَجَّلَ فِي يوْمَيْنِ» من أيام منى الثلاثة فنفر في اليوم الثاني، «فلا إثمَ عليه»، لحطِّ الله ذنوبَه إنْ كان قد اتقى الله في حَجِّهِ، فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه، وفَعَلَ فيه ما أمره الله بفعله، وأطاعَهُ بأدائِه على ما كَلَّفَهُ من حدوده. «ومن تأخر» إلى اليوم الثالث منهن، فلم ينفرْ إلى النفر الثاني حتى نفر من غدِ النفرِ الأول، «فلا إثم عليه»، لتكفيرِ الله له ما سَلَفَ من آثامهِ واجرامه، إنْ كان اتقى الله في حجه بأدائه بحدوده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٠٣﴾

---

(١) حديث صحيح من حديث نبيشة الهذلي، وعبدالله بن عمرو، وأبي هريرة، وكعب بن مالـك رضي الله عنهم. انـظر تحفة الأشراف الأحاديث رقم (٨٦٥٣) و (١١١٣٧) و (١١٥٨٧) و (١٥٠٤٤).

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: واتَّقُوا الله، أيها المؤمنون، فيما فَرَضَ عليكم من فرائضه، فخافوه في تضييعها والتفريطِ فيها، وفيما نهاكم عنه في حجكم ومناسككم أنْ ترتكبوه أو تأتوه، وفيما كَلَّفَكُمْ في إحرامكم لحجكم أن تقصِّروا في أدائه والقيامِ به، «واعلموا أنكم إليه تُحشرون»، فَمُجَازِيكم هو بأعمالكم - المحسنُ منكم بإحسانه، والمسيءُ بإساءته - وموفٍّ كلَّ نَفْسٍ منكم ما عَمِلَتْ وأنتم لا تُظْلَمُون.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾

وهذا نعتٌ من الله تبارك وتعالى للمنافقين. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ومن الناس مَنْ يعجبك يا محمدُ ظاهرُ قوله وعلانيته، ويستشهدُ الله على ما في قلبه، وهو أَلَدُّ الخِصَامِ، جَدِلٌ بالباطل.

وفي قوله: «وَيُشْهِدُ ٱللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ»، وجهان من القراءة:

فقرأته عامةُ القَرَأة: «وَيُشْهِدُ ٱللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ»، بمعنى أن المنافق الذي يُعجب رسول الله ﷺ قولُهُ، يستشهدُ الله على ما في قلبه أن قوله موافقٌ اعتقادَه، وأنه مؤمن بالله ورسوله وهو كاذب.

وقرأ ذلك آخرون: ﴿وَيَشْهَدُ ٱللهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾، بمعنى: والله يشهدُ على الذي في قلبه من النفاقِ، وأنه مُضْمِرٌ في قلبه غيرَ الذي يُبديه بلسانه، وعلى كذبه في قلبه. وهي قراءة ابن مُحَيْصن.

والذي نختارُ في ذلك من قولِ القَرَأةِ، قراءة من قرأ: «وَيُشْهِدُ ٱللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ»، بمعنى: يستشهدُ الله على ما في قلبه، لإجماعِ الحجة من القَرَأةِ عليه.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤﴾

«الأَلَدُّ» من الرجال: الشديدُ الخصومة، يقال: في «فعلت» منه: «قد لَدَدْتَ يا هذا، ولم تكن ألدَّ، فأنت تلُدُّ لَدَداً وَلَدادَةً». فأما إذا غلب من خاصمه فإنما يقال فيه: «لَدَدْت يا فلانُ فلاناً فأنت تَلُدُّه لَداً».

ثم اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: تأويله: أنه ذُو جِدال.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنه غيرُ مستقيمِ الخصومةِ، ولكنه مُعْوَجُّهَا.

وكـلا هذين القولين متقاربُ المعنى، لأنَّ الاعوجاجَ في الخصومة من الجِدالِ واللَّدد.

وقال آخرون: معنى ذلك: وهو كاذبٌ في قوله.

وهذا القولُ يحتمل أنْ يكون معناه معنى القولين الأولين، إنْ كان أرادَ به قائله أنه يخاصمُ بالباطل من القول والكذب منه، جدلاً واعوجاجاً عن الحق.

وأما «الخِصَامِ» فهو مصدر من قول القائل: «خاصمت فلاناً خصاماً ومخاصمة».

وهذا الخبر من الله تبارك وتعالى عن المنافق الذي أخبر نبيه محمداً ﷺ أنه يُعجبه إذا تكلم قِيلُهُ ومَنْطِقُهُ، ويستشهدُ الله على أنه مُحِقٌّ في قِيله ذلك، لشدةِ خصومته وجداله بالباطل والزور من القول.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَإِذَا تَوَلَّى»، وإذا أدبر هذا المنافقُ من عندك يا محمد منصرفاً عنك.

فمعنى الآية: وإذا خرَج هذا المنافقُ من عندك يا محمد غضْبانَ، عَمل في الأرض بما حرَّم الله عليه، وحاول فيها معصيةَ الله وقطعَ الطريق وإفسادَ السبيل على عباد الله، كما قد ذكرنا آنفاً من فعلِ الأخنسِ بنِ شريقٍ الثقفي.

و«السعي» في كلام العرب: العملُ، يقال منه: «فلانٌ يسعى على أهلِهِ» يعني به: يعملُ فيما يعودُ عليهم نَفْعُهُ.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «الإفساد» الذي أضافه الله عزَّ وجلَّ إلى هذا المنافق.

والصوابُ من القول في ذلك أنْ يُقال: إنّ الله تبارك وتعالى وَصَف هذا المنافقَ بأنه إذا تولَّى مُدْبراً عن رسول الله ﷺ عَمِل في أرض الله بالفساد، وقد يدخلُ في «الإفساد» جميع المعاصي؛ وذلك أن العمل بالمعاصي إفسادٌ في الأرض، فلم يخصص الله وصفه ببعض معاني «الإفساد» دون بعض؛ وجائزٌ أن يكون ذلك الإفسادُ منه كان بمعنى قطع الطريق، وجائز أن يكون غير ذلك. وأيّ ذلك كان منه، فقد كان إفساداً في الأرض، لأن ذلك منه لله عزَّ وجلَّ معصيةٌ. غير أنَّ الأشبـهَ بظاهرِ التنزيلِ أنْ يكونَ كان يقطعُ الطريقَ ويُخيف السبيل، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ وصفَهُ في سياق الآية بأنه «سعى في الأرض ليفسدَ فيها ويُهلكَ الحَرْثَ والنسل»، وذلك بفعل مخيف السبيل، أشبهُ منه بفعل قَطَّاع الرحم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾

اختلف أهل التأويل في وجه «إهلاك» هذا المنافق الذي وصفه الله بما وصَفه به من صفة «إهلاك الحرث والنسل».

فقال بعضهم: كان ذلك منه إحراقاً لزرعِ قومٍ من المسلمين، وعقراً لِحُمُرِهم.

وقال آخرون: إذا تولى سعى في الأرض بالعدوان والظلم، فيحبسُ الله بذلك القَطْرَ، فيُهلك الحرثَ والنسلَ والله لايحبُّ الفساد.

وهذا وإنْ كان مذهباً من التأويل تَحْتَمِلُهُ الآيةُ، فإنَّ الذي هو أشبهُ بظاهر التنزيل من التأويل (هو الأول)، فلذلك اخترناه.

وأما «ٱلْحَرْثَ»: فإنه الزرعُ، «وَٱلنَّسْلَ»: العقب والولد.

«وإهلاكه الزرع» إحراقه، وقد يجوز أن يكون كان باحتباس القَطْرِ من أجل معصيته ربَّه وَسعيه بالإفسادِ في الأرض، وقد يحتمل أن يكون كان بقتلِهِ القُوَّام به والمتعاهدينَ له حتى فسد فهلك، وكذلك جائز في معنى: «إهلاكه النسل»: أن يكون كانَ بقتلِهِ أمهاته أو آباءه التي منها يكون النسل، فيكون في قَتْلِهِ الآباءَ والأمهات انقطاع نسلهما.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: والله لايحب المعاصيَ، وقطعَ السبيل، وإخافةَ الطريق.

و«الْفَسَادَ» مَصْدَرٌ من قولِ القائل: «فَسَدَ الشيءُ يَفْسُد»، نظير قولهم: «ذهب يذهب ذهاباً»، ومن العرب من يجعل مصدر «فسد، فسوداً»، ومصدر «ذهب يذهب ذُهوباً».

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وإذا قِيلَ لهذا المنافق الذي نعَتَ نعتَه لنبيه عليه السلام، وأخبره أنه يُعجبه قوله في الحياة الدنيا: اتَّقِ الله وَخَفْهُ في إفسادكَ في

أرْضِ الله، وسعيكَ فيها بما حرَّم الله عليك من معاصيه، وإهلاكك حروثَ المسلمين ونسلهم ـ استكبر وَدَخَلَتْهُ عِزةٌ وحَميةٌ بما حرّم الله عليه، وتمادى في غيِّه وضلاله. قال الله جَلَّ ثناؤُهُ: فكفاه عقوبةً من غيِّهِ وضلالهِ، صِلِيُّ نارِ جهنمَ، ولَبِئْسَ المِهاد لصاليها.

وأما قوله: «وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ»، فإنه يعني: ولبئس الفراشُ والوِطاء جهنمُ التي أوعدَ بها جَلَّ ثناؤُهُ هذا المنافق، ووطَّأها لنفسه بنفاقه وفجوره وتمرُّده على ربه.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: ومن الناس مَنْ يبيعُ نفسه بما وعدَ الله المجاهدينَ في سبيله وابتاع به أَنْفُسَهُم بقوله: ﴿إِنَّ الله ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد دللنا على أنَّ معنى «شرى» باع، في غير هذا الموضع بما أغنى عن إعادته.

أما قوله: «ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱلله»، فإنه يعني أنَّ هذا الشاري يشري، إذا اشترى طلبَ مرضاة الله.

ونصب «ٱبْتِغَـآءَ» بقوله: «يَشْرِي». فكأنه قال: ومن الناسِ مَنْ يَشري نفسه من أجل ابتغاء مرضاةِ الله، ثم تُرِكَ «من أجل»، وعَملَ فيه الفعل.

والـذي هو أولى بظاهـر هذه الآية من التأويل، ما روي عن عمر بن الخطاب وعن عليٍّ بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم، مِنْ أنْ يكون عنيَ بها الآمِرُ بالمعروف والناهي عن المنكر.

وذلك أن الله جَلَّ ثناؤُهُ وصَف صفة فريقين: أحدهما منافقٌ يقول بلسانه خِلافَ ما في نفسه، وإذا اقتدر على معصية الله ركبها، وإذا لم يقتدر رَامَها، وإذا نُهِيَ أخذته العزّة بالإثم بما هو به آثم. والآخر منهما بائعٌ نَفْسَهُ، طالبٌ من الله رضا الله. فكان الظاهرُ من التأويل أنَّ الفريقَ الموصوف بأنه شرى نفسه لله وطلب رضـاه، إنمـا شراها للوثُوبِ بالفريقِ الفاجر طلبَ رضا الله. فهذا هو الأغلبُ. الأظهر من تأويل الآية.

فالصواب من القول في ذلك أن يقال: إنّ الله عَزَّ ذِكْرُهُ وصف شارياً نفسَه ابتغاء مرضاته؛ فَكُلُّ مَنْ باعَ نفسه في طاعته حتى قُتِلَ فيها، أو استقتل وإن لم يُقتل، فمعنيٌّ بقوله: «ومِنَ الناسِ مَنْ يشري نَفْسَهُ ابتغاءَ مرضاتِ الله» في جهادِ عَدُوِّ المسلمين كانَ ذلكَ منه، أو في أمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن منكر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠٧﴾

قد دللنا فيما مضى على معنى «الرأفة»، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، وأنها رقة الرحمة.

فمعنى ذلك: والله ذُو رحمةٍ واسعة بعبده الذي يَشْرِي نَفْسَهُ له في جهادِ مَنْ حادَّهُ في أمرهِ من أهلِ الشركِ والفُسوقِ، وبغيره من عباده المؤمنين في عاجلهم وآجل معادهم، فينجز لَهمُ الثوابَ على ما أبلَوا في طاعته في الدنيا، ويُسْكِنُهم جَنَّاتِهِ على ما عَمِلُوا فيها من مرضاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾

اختلف أهـلُ التـأويل في معنى «ٱلسِّلْمِ» في هذا المـوضـع. فقـال بعضهم: معناه الإسلام.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ادخلوا في الطاعة.

وقـد اختلفت القَـرَأَةُ في قراءةِ ذلك. فقرأته عامةُ قَرَأة أهلِ الحجاز، «ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً» بفتح «السين»، وقرأته عامة قَرَأة الكوفيين بكسر «السين».

فأمـا الـذين فتحـوا «السين» من «السلم»، فإنهم وَجَّهُـوا تأويلهـا إلى المسالمة، بمعنى: ادخلوا في الصلحِ والمسالمةِ وتركِ الحربِ وإعطاءِ الجزية.

وأما الذين قرأوا ذلك بالكسر من «السين»، فإنهم مختلفون في تأويله، فمنهم مَنْ يُوجِّهُهُ إلى الإسلام، بمعنى: ادخلوا في الإسلامِ كافةً. ومنهم مَنْ يوجهّه إلى الصلح، بمعنى: ادخلوا في الصلح.

وأَوْلى التـأويلاتِ بقـوله: «ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ»، قولُ مَنْ قال: معناه: ادخلوا في الإسلام كافة.

وأمّا الذي هو أولى القراءتين بالصواب في قراءة ذلك، فقراءة مَنْ قرأ بكسر «السين»، لأن ذلك إذا قرئَ كذلك ـ وإن كان قد يحتمل معنى الصلح ـ فإن معنى الإسلام ودوامَ الأمرِ الصالح عند العرب، أغلبُ عليه من الصُّلْحِ والمسالمة.

وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ سائرَ ما في القرآن من ذكر «السلم» بالفتح، سوى هذه التي في «سورة البقرة»، فإنه كان يَخُصُّها بكسرِ سِينها، توجيهاً منه لمعناها إلى الإسلامِ دون ما سواها.

وإنما اخترنا ما اخترنا من التأويل في قوله: «ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ»، وصَرَفْنَا معناهُ إلى الإسلام، لأنَّ الآيةَ مخاطبٌ بها المؤمنون، فَلَنْ يعدوَ الخطاب، إذ كان خطاباً للمؤمنين، من أحدِ أمرين:

إما أن يكون خطاباً للمؤمنين بمحمدٍ المصدقينَ به وبما جاءَ به. فإنْ يَكُنْ ذلك كذلك، فلا معنى أنْ يقالَ لهم وهم أهلُ الإيمان: «ادخلوا في صلح المؤمنين ومسالمتهم»، لأنَّ المسالمةَ والمصالحةَ إنما يُؤْمَرُ بها مَنْ كان حرباً، بتركِ الحربِ، فأما المُوَالي فلا يجوز أنْ يقالَ له: «صالح فلاناً»، ولا حربَ بينهما ولا عداوة.

أو يكون خطاباً لأهلِ الإيمان بِمَنْ قَبْلَ محمدٍ ﷺ من الأنبياء المصدِّقينَ بهم وبما جاءوا به من عند الله، المنكرين محمداً ونبوته، فقيل لهم: ﴿ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ﴾، يعني به الإسلام، لا الصُّلح، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ إنما أمر عباده بالإيمانِ به وبنبيه محمد ﷺ وما جاء به، وإلى ذلك دعاهم، دون المسالمةِ و المصالحة. بل نهى نَبِيَّهُ ﷺ في بعض الأحوال عن دعاء أهل الكفر إلى الصلح فقال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، وإنما أباحَ له ﷺ في بعض الأحوال، إذا دعَوهُ إلى الصلح، ابتداءَ المصالحة، فقال له جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، فأما دعاؤهم إلى الصُّلح ابتداءً، فغيرُ موجودٍ في القرآن، فيجوز توجيه قوله: «ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ» إلى ذلك.

فإن قال لنا قائل: فأيُّ هذين الفريقين دُعِيَ إلى الإسلام كافة؟

قيل: قد اخْتُلِفَ في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: دُعِيَ إليه المؤمنون بمحمد ﷺ وما جاء به.

وقال آخرون: قيل: دُعي إليه المؤمنون بِمَنْ قَبْلَ محمدٍ ﷺ من الأنبياء، المُكَذِّبون بمحمد.

فإن قال: فما وجهُ دعاء المؤمن بمحمد وبما جاء به إلى الإسلام؟

قيل: وجهُ دعائه إلى ذلك، الأمرُ له بالعمل بجميع شرائعه، وإقامة جميع أحكامه وحدوده، دون تضييع بعضه والعمل ببعضه، وإذا كان ذلك معناه، كان قولـه: «كَافَّةً» من صفة «ٱلسِّلْمِ»، ويكون تأويله: ادخلوا في العمل بجميع معاني السلم، ولا تضيعوا شيئاً منه يا أهلَ الإيمان بمحمد وما جاء به.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أمر الذين آمنوا بالدخول في العملِ بشرائعِ الإسلام كُلِّها، وقد يدخل في «الذين آمنوا» المُصدِّقونَ بمحمد ﷺ وبما جاء به، والمُصَدِّقون بمن قَبْلَهُ من الأنبياء والرسل وما جاءوا به. وقد دعا الله عزَّ وجلَّ كِلاَ الفريقين إلى العمل بشرائعِ الإسلام وحدوده، والمحافظةِ على فرائضه التي فَرَضَها، ونهاهم عن تضييعِ شيءٍ من ذلك، فالآية عامة لكل مَنْ شمله اسم «الإيمان»، فلا وجه لخصوصِ بعضٍ بها دون بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَآفَّةً

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «كَافَّةً»، عامة، جميعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: اعملوا، أيها المؤمنون، بشرائع الإسلام كُلِّها، وادخلوا في التَّصديق به قولاً وعملاً، ودعوا طرائق الشيطانِ وآثارَهُ أنْ تتبعوها، فإنه لكم عَدوٌّ مبين لكم عداوته. وطريقُ الشيطان الذي نهاهم أن يتبعوه، هو ما خالفَ حُكْمَ الإسلامِ وشرائعه، ومنه تَسْبيتُ السَّبْتِ، وسائر سُنن أهلِ الملل التي تُخالفُ مِلَّةَ الإسلام.

وقد بَيَّنْتُ معنى «الخطوات» بالأدلة الشاهدة على صحته فيما مضى، فكرهتُ إعادته في هذا المكان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإنْ أخطأتم الحَقَّ، فضللتم عنه، وخالفتم الإسلام وشرائعه، من بعد ما جاءتكم حُجَجي وبيِّنات هداي، واتَّضَحَتْ لكم صحةُ أمر الإسلام بالأدلة التي قطعت عذركم أيها المؤمنون؛ فاعلموا أنَّ الله ذو عزةٍ لايمنعه من الانتقام منكم مانعٌ، ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكم أمْرَهُ ومعصيتكم إيَّاهُ دافع. «حَكِيمٌ» فيما يفعلُ بكم من عقوبته على معصيتكم إياه، بعد إقامته الحُجَّةَ عليكم، وفي غيره من أموره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾

يعني بذلك جلَّ ثناؤهُ: هل ينظرُ المُكَذِّبون بمحمدٍ ﷺ وما جاء به، إلا أنْ يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة؟

ثم اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «وَالْمَلائِكَةُ».

فقـرأ بعضهم: «هَـلْ يَنظُرُونَ إلَّا أن يَأْتِيَهُمْ آلله فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ»، بالرفع، عطفاً بـ «الملائكة» على اسم الله تبارك وتعالى، على معنى: هل ينظرون إلا أنْ يأتيهم الله والملائكةُ في ظلل من الغمام.

وقرأ ذلك آخرون: «هَلْ يَنظُرُونَ إلَّا أن يَأْتِيَهُمْ آلله فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ

وَٱلْمَلاَئِكَةِ» بالخفض، عطفاً بـ «الملائكة» على «الظلل»، بمعنى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام وفي الملائكة.

وكذلك اختلفت القَرَأَةُ في قراءة «ظلل»: فقرأها بعضُهم: «فِي ظُلَلٍ»، وبعضهم: «فِي ظِلالٍ».

فمن قرأها «فِي ظُلَلٍ»، فإنه وَجَّهَهَا إلى أنها جمع «ظُلَّة»، و«الظُلَّة»، تجمع «ظُلل وظِلال»، كما تُجْمَعُ «الخُلَّة»، «خُلَل وخِلال»، و«الجلَّة»، «جُلَلَ وجِلال».

والصوابُ من القراءة في ذلك عندي: «هَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ».

وأما الذي هو أَوْلَى القراءتين في «وَالْمَلاَئِكَةُ»، فالصوابُ بالرفع، عطفاً بها على اسم الله تبارك وتعالى، على معنى: هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وإلاّ أن تأتيهم الملائكة، على ما روي عن أُبيٍّ بن كعب. لأن الله جَلَّ ثناؤُهُ قد أخبر في غير موضعٍ من كتابه: أن الملائكة تأتيهم، فقال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾ [الفجر:٢٢]، وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ أن تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

فإن أشكلَ على امرىءٍ قولُ الله جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَالمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾، فظن أنه مخالفٌ معناه معنى قوله: «هَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ أن يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ»، إذ كان قوله: «وَالْمَلاَئِكَةُ» في هذه الآية بلفظ جميع، وفي الأخرى بلفظ الواحد، فإن ذلك خطأ من الظنّ، وذلك أن «الملك» في قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ﴾ بمعنى الجميع ومعنى «الملائكة»، والعرب تذكر الواحد بمعنى الجميع فتقول: «فلانٌ كثيرُ الدرهمِ والدينار»، يُرَادُ به: الدراهم والدنانير، و«هلك البعير والشاةُ»، بمعنى جماعة الإبل والشاء. فكذلك قوله:

«وَالمَلَكُ» بمعنى «الملائكة».

ثم اختلف أهل التأويل في قوله: «ظُلل الغمام»، وهل هو من صِلَةِ فِعْلِ الله جَلَّ ثناؤُهُ، أو من صلة فعل «الملائكة». ومن الذي يأتي فيها؟

فقال بعضهم: هو من صلة فعل الله، ومعناه: هل ينظرون إلا أنْ يأتيهُم الله في ظلل من الغمام، وأنْ تأتيهم الملائكة.

وقال آخرون: بل قوله: «فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ» من صلة فعل «الملائكة» وإنما تأتي الملائكةُ فيها: وأما الرب تعالى ذِكْرُهُ فإنه يأتي فيما شاء.

وأولى التأويلين بالصوابِ في ذلك تأويلُ مَنْ وجَّه قوله: «فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ» إلى أنه من صلةِ فعل الرب عزَّ وجلَّ، وأن معناه: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام وتأتيهم الملائكة.

وأما معنى قوله: «هَلْ يَنظُرُونَ»، فإنه: ما ينظرون. وقد بَيَّنَّا ذلك بعلله فيما مضى من كتابنا هذا قبل.

ثم اختلف في صفة إتيانِ الربِّ تبارك وتعالى الذي ذكره في قوله: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ».

فقال بعضهم: لاصِفَةَ لذلك غير الذي وصَف به نَفْسَهُ عزَّ وجلَّ من المجيءِ والإتيانِ والنزول، وغيرُ جائز تكلُّفُ القولِ في ذلك لأحدٍ إلا بخبرٍ من الله جل جلاله أو من رسولٍ مرسل، فأما القول في صفات الله وأسمائه، فغيرُ جائز لأحدٍ من جهة الاستخراج إلا بما ذكرنا.

وقال آخرون: إتيانه عزَّ وجلَّ، نظيرُ ما يُعْرَفُ من مجيء الجائي من موضعٍ إلى موضع، وانتقاله من مكان إلى مكان.

وقال آخرون: معنى قوله : «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ»، يعني به:

هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمرُ الله، كما يقال: «قد خشينا أن يأتينا بنو أُمية»، يراد به: حُكمهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: هل ينظرون إلا أنْ يأتيهم ثوابهُ وحسابه وعذابه، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ والنَّهارِ﴾ [سبأ: ٣٣]، وكما يقال: «قطع الوالي اللصَّ أو ضربه»، وإنما قَطَعَهُ أعوانُهُ.

فمعنى الكلام إذاً: هل ينظرُ التاركون الدخولَ في السلم كافة، والمتبعون خُطواتِ الشيطان، إلّا أنْ يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام، فيقضي في أمرهم ما هو قاضٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ٢١٠﴾

يعني جَلَّ ثناؤهُ بذلك: وفُصِلَ القضاءُ بالعدل بين الخَلْقِ، على ما ذكرناه قَبْلُ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ من أخْذِ الحَقِّ لكلِّ مظلومٍ من كل ظالم، حتى القصاص للجَمَّاء من القَرْنَاء من البهائم[1].

وأما قوله: «وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ»، فإنه يعني: وإلى الله يؤولُ القضاء بين خَلْقِهِ يومَ القيامة، والحكم بينهم في أمورهم التي جرت في الدنيا، من ظُلْمِ بعضِهم بعضاً، واعتداءِ المعتدي منهم حدودَ الله وخلافَ أمره، وإحسانِ المحسن منهم وطاعته إياه فيما أمرَه به ـ فيفصلُ بين المتظالمين، ويُجازي أهلَ الإحسان بالإحسان، وأهلَ الإساءة بما رأى، ويَتفضَّلُ على مَنْ لم يكن منهم كافراً فيعفو، ولذلك قال جَلَّ ثناؤهُ: «وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ»، وإنْ كانت أمورُ الدنيا كلها والآخرةِ، من عنده مَبْدَؤُهَا، وإليه مصيرها، إذْ كان خَلْقُهُ في الدنيا يَتظالمون، ويَلِي النظرَ بينهم أحياناً في الدنيا بعضُ خَلْقِهِ، فيحكم بينهم بعضُ

(١) حديث صحيح. أخرجه أحمد ٢/٢٣٥ و ٣٠١ و ٣٢٣ و ٤١١، والبخاري في الأدب المفرد (١٨٣)، ومسلم (١٨/٨) والترمذي (٢٤٢٠) وغيرهم.

عبيده، فيجوزُ بعضٌ ويعدلُ بعضٌ، ويصيبُ واحدٌ ويخطئ واحد، ويمكّن من تنفيذ الحكم على بعض، ويتعذّر ذلك على بعض، لِمَنَعَةِ جانبه وغلبتهِ بالقوة، فأعلم عبادَه تعالى ذِكْرُهُ أنَّ مرجعَ جميع ذلك إليه في موقف القيامة، فينصفُ كُلًّا من كُلٍّ، ويجازي حَقَّ الجزاء كُلًّا حيثُ لا ظلمَ ولا مُمْتَنَعَ من نفوذِ حُكْمِه عليه، وحيثُ يستوي الضعيفُ والقويُّ والفقيرُ والغني، ويضمحلُّ الظلمُ، وينزلُ سلطانُ العدل.

وإنما أدخل جَلَّ وعزَّ «الألف واللام» في «الأمور»، لأنه جَلَّ ثناؤُهُ عَنَى بها جميعَ الأمور، ولم يَعْنِ بها بعضاً دون بعضٍ، فكان ذلك بمعنى قول القائل: «يعجبني العسل - والبغل أقوى من الحمار»، فيدخل فيه «الألف واللام»، لأنه لم يُقصد به قصد بعض دون بعض، إنما يُرادُ به العموم والجمع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: سَلْ يا محمد بني إسرائيل - الذين لاينتظرون - بالإنابةِ إلى طاعتي، والتوبةِ إليَّ بالإقرارِ بنُبُوَّتِكَ وتَصديقكَ، فيما جِئْتَهُمْ به من عندي - إلا أنْ آتيهم في ظلل من الغمام وملائكتي، فأفصلُ القضاء بينك وبين مَنْ آمن بك وصدَّقك بما أنزلت إليك من كتبي، وفرضتُ عليك وعليهم من شرائع ديني، وبينهم - كم جئتهم به من قَبْلِكَ من آيةٍ وعلامة على ما فرضتُ عليهم من فرائضي، فأمرتهم به من طاعتي، وتابعتُ عليهم من حججي على أيدي أنبيائي ورسلي من قبلك، مؤيِّدةً لهم على صدقهم، بيِّنةً أنها من عندي، واضحةً أنها من أدلتي على صدق نُذُري ورُسلي فيما افترضتُ عليهم من تصديقهم وتصديقك، فكفروا حُجَجي، وكذَّبوا رسلي، وغيَّروا نعمي قِبَلهم، وبدَّلوا عهدي ووصيتي إليهم.

وإنما أنبأ الله نبيه بهذه الآيات، فأمره بالصبرِ على مَنْ كذَّبه واستكبر على

ربه، وأخبره أنَّ ذلك فِعْل مَنْ قَبْلَهُ من أسلافِ الأمم قبلهم بأنبيائهم، مع مظاهرته عليهم الحجج؛ وأنّ من هو بين أظهُرهم من اليهود إنما هم من بقايا مَنْ جَرَتْ عاداتهم بذلك، ممن قص عليه قصصهم من بني إسرائيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

يعني «بالنعم» جَلَّ ثناؤُهُ: الإسلام، وما فرض من شرائع دينه.

ويعني بقوله: «وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللهِ»، ومَنْ يُغَيِّرْ ما عاهد الله في نعمته التي هي الإسلام، من العمل والدخول فيه فيكفر به، فإنه مُعَاقِبُه بما أوْعَدَ على الكفر به من العقوبة، والله شديدُ عقابهُ، أليمٌ عذابهُ.

فتأويلُ الآية إذاً: يا أيها الذين آمنوا بالتوراة فصَدَّقُوا بها، ادْخُلُوا في الإسلامِ جميعاً، ودَعُوا الكفر وما دعاكم إليه الشيطانُ من ضلالته، وقد جاءتكم البينات من عندي بمحمد وما أظهرتُ على يديه لكم من الحجج والعِبَرِ، فلا تبدِّلوا عهدي إليكم فيه وفيما جاءكم به من عندي في كتابكم بأنه نبيي ورسولي، فإنه مَنْ يبدِّلْ ذلك منكم فيغيره، فإني له معاقبٌ بالأليمِ من العقوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۗ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: زُيِّنَ للذين كفروا حبُّ الحياةِ الدنيا العاجلة اللذات، فهم يبتغون فيها المُكَاثرةَ والمفاخرةَ، ويطلبون فيها الرياسات والمباهاة، ، ويستكبرون عن اتِّباعكَ يا محمد والإقرار بما جئتَ به من عندي، تعظُّماً منهم على مَنْ صدَّقك واتبعك، ويسخرون بمن تَبِعَكَ من أهلِ الإيمانِ والتصديق بك، في تَرْكِهم المكاثرةَ والمفاخرة بالدنيا وزينتها من الرِّياشِ

والأموال بطلب الرياسات، وإقبالهم على طَلَبِهم ما عندي برفضِ الدنيا وتَرْكِ زينتها. والذين عملوا لي، وأقبلوا على طاعتي، ورفضوا لذات الدنيا وشهواتها، اتِّباعاً لكَ، وطلباً لما عندي، واتقاءً منهم بأداء فرائضي وتجنُّب معاصيَّ، فوق الذين كفروا يوم القيامة، بإدخال المتقين الجنةَ، وإدخال الذين كفروا النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

ويعني بذلك: والله يعطي الذين اتقوا يوم القيامة من نِعَمِهِ وكراماتِهِ وجزيل عطاياه، بغير محاسبةٍ منه لهم على ما مَنَّ به عليهم من كرامته.

فإنْ قال لنا قائل: وما في قوله: «يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» من المدح؟

قيل: المعنى الـذي فيه من المـدح، الخبـرُ عن أنه غير خائفٍ نفادَ خزائنه، فيحتاج إلى حساب ما يخرج منها، إذ كان الحساب من المعطي إنما يكون ليعلم قَدْرَ العطاء الذي يخرج من ملكه إلى غيره، لئلا يتجاوز في عطاياه إلى ما يُجحف به، فربنا تبارك وتعالى غيرُ خائفٍ نفادَ خزائنه، ولا انتقاصَ شيء من مُلْكِهِ، بعطائهِ ما يُعطي عبادَهُ، فيحتاج إلى حساب ما يعطي وإحصاء ما يبقى. فذلك المعنى الذي في قوله: «وَٱللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ

اختلف أهلُ التأويل في معنى: «الأمة» في هذا الموضع، وفي «الناس» الذين وصفهم الله بأنهم: كانوا أُمةً واحدة.

فقال بعضهم: هم الذين كانوا بين آدم ونوح، وهم عشرةُ قرونٍ، كُلُّهم كانوا على شريعةٍ من الحق، فاختلفوا بعد ذلك.

فكان تأويلُ الآية على معنى قول هؤلاء: كان الناس أُمَّةً مجتمعةً على ملةٍ واحدة ودينٍ واحد فاختلفوا، فبعث الله النبيين مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ.

وأصلُ «الأُمة»، الجماعةُ تجتمع على دِيْنٍ واحد، ثم يُكتفى بالخبر عن «الأُمة»، من الخبر عن «الدين»، لدلالتها عليه، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨، النحل: ٩٣]، يُراد به: أهل دين واحد وملة واحدة. فوجَّه ابن عباس في تأويله قوله: «كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً»، إلى أنَّ الناسَ كانوا أهلَ دينٍ واحد حتى اختلفوا.

وقال آخرون: بل تأويلُ ذلك: كان آدمُ على الحقِّ، إماماً لذريته، فبعث الله النبيين في ولده، ووجهوا معنى «الأُمة» إلى الطاعة لله، والدعاء إلى توحيده واتباع أمره، من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً﴾ [النحل: ١٢٠]، يعني بقوله: «أُمة»، إماماً في الخير يُقتدى به ويُتَّبع عليه.

وكأنَّ مَنْ قال هذا القولَ، استجاز بتسميةِ الواحدِ باسمِ الجماعةِ، لاجتماعِ أخلاقِ الخير الذي يكون في الجماعة المفرَّقة فيمن سماه بـ «الأُمة»، كما يقالَ: «فلانٌ أمةٌ وحدَهُ»، يقوم مقام الأُمة.

وقد يجوز أن يكون سماه بذلك، لأنه سببٌ لاجتماع الأشتاتِ من الناس على ما دعاهم إليه من أخلاقِ الخير. فلما كان آدمُ ﷺ سبباً لاجتماع مَنِ اجتمع على دينه من ولده إلى حال اختلافهم، سماه بذلك «أُمة».

وقال آخرون: معنى ذلك: كان الناسُ أُمة واحدة على دينٍ واحد، يوم استخرَج ذُرِّيَةَ آدمَ من صُلْبِهِ فعرضهم على آدم.

وقال آخرون بخلافِ ذلك كله في ذلك، وقالوا: إنما معنى قوله: «كَانَ

النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً»، على دينٍ واحد، فبعث الله النبيين.

وأولى التأويلات في هذه الآية بالصواب أن يقال: إن الله عزَّ وجلَّ أخبر عباده أنَّ الناسَ كانوا أُمةً واحدة على دينٍ واحد وملةٍ واحدة وكان الدينُ الذي كانوا عليه دينَ الحق، فاختلفوا في دينهم، فبعث الله عند اختلافهم في دينهم النبيينَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ، «وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ»، رحمةً منه جَلَّ ذكره بخلقه، واعتذاراً منه إليهم.

وقد يجوز أن يكون ذلك الوقتُ الذي كانوا فيه أُمةً واحدة من عهدِ آدمَ إلى عهد نوح عليهما السلام، وجائزٌ أن يكون كان ذلك حين عَرَضَ على آدمَ خلقه، وجائزٌ أن يكون كان ذلك في وقت غير ذلك ـ ولا دلالة من كتاب الله ولا خبر يثبت به الحجة، على أيِّ هذه الأوقات كان ذلك، فغيرُ جائز أنْ نقول فيه إلا ما قال الله عزَّ وجلَّ: من أنَّ الناس كانوا أُمةً واحدة، فبعث الله فيهم، لما اختلفوا، الأنبياءَ والرسل، ولا يضرُّنا الجهلُ بوقتِ ذلك، كما لا ينفعُنا العِلْمُ به، إذا لم يكن العلم به لله طاعةً[1].

غير أنه أيّ ذلك كان، فإنَّ دليلَ القرآن واضحٌ على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أُمةً واحدة، إنما كانوا أُمةً واحدةً على الإيمانِ ودينِ الحق، دون الكفر بالله والشرك به، وذلك أن الله جَلَّ وعَزَّ قال في السورة التي يذكر فيها «يونس»: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩]. فتوعَّدَ جَلَّ ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أُمة واحدة، ولو كان اجتماعُهم قبل الاختلاف كان على الكفر، ثم كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا

(١) قال العلامة محمود شاكر: هذه حجةُ رجلٍ تقي ورع عاقل، بصيرٍ بمواضع الزلل في العقول، وبمواطن الجرأة على الحق من أهل الجرأة الذين يتهجمون على العلم بغياً بالعلم. ولو عقل الناس لأمسكوا فضلَ ألسنتهم، ولكنهم قَلَّما يفعلون.

بانتقال بعضهم إلى الإيمان. ولو كان ذلك كذلك، لكان الوعدُ أولى بحكمته جَلَّ ثنـاؤُهُ في ذلك الحال من الوعيد، لأنها حال إنابة بعضهم إلى طاعته. ومحالٌ أنْ يتوعَّدَ في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك.

وأما قوله: «فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»، فإنه يعني أنه أرسل رسلاً يبشـرون مَنْ أطـاع الله بجزيلِ الثواب وكريمِ المآب. ويعني بقوله: «وَمُنْـذِرِينَ»، ينـذرون مَنْ عصى الله فكفـرَ به بشدَّةِ العقاب وسوءِ الحساب والخلود في النار. «وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ»، يعني بذلـك: ليحكم الكتـابُ ـ وهو التوراةُ ـ بين الناس فيما اختلف المختلفون فيه، فأضاف جَلَّ ثناؤُهُ «الحكم» إلى «الكتاب»، وأنه الذي يحكمُ بين النـاس دون النبيين والمرسلين، إذْ كان مَنْ حَكم من النبيين والمرسلين بحُكمٍ، إنما يحكمُ بما دلَّهم عليه الكتابُ الذي أنزل الله عزَّ وجلَّ. فكان الكتابُ، بدلالته على ما دلَّ وصفه على صحته من الحكم، حاكماً بين الناس، وإن كان الذي يفصل القضاء بينهم غيرُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ»، وما اختلف في الكتابِ الذي أنزله، وهو التوراة، «إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ»، يعني بذلك اليهودَ من بني إسرائيل، وهم الذين أُوتُوا التوراةَ والعِلْمَ بها، و«الهاء» في قوله: «أُوتُوهُ» عائدةٌ على «الكتاب» الذي أنزله الله. «مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ»، يعني بذلك: من بعد ما جاءتهم حججُ الله وأدِلَّتُهُ أنَّ الكتابَ الذي اختلفوا فيه وفي أحكامه من عند الله، وأنه

الحَقُّ الذي لا يَسَعُهم الاختلافُ فيه ولا العملُ بخلافِ ما فيه. فأخبر عَزَّ ذِكْرُه عن اليهود من بني إسرائيل أنهم خالفوا الكتابَ التوراةَ، واختلفوا فيه على علمٍ منهم ما يأتونَ، مُتَعَمِّدِينَ الخلافَ على الله فيما خالفوه فيه من أمرِه وحُكْمِ كتابه.

ثم أخبر جَلَّ ذكره أنَّ تَعَمُّدَهم الخطيئةَ التي أتوها، وركوبَهم المعصية التي ركبوها، من خلافهم أمرَهُ، إنما كان منهم بغياً بينهم.

و«البغي» مصدرٌ من قول القائل: «بغى فلانٌ على فلان بغياً»، إذا طغى واعتدى عليه فجاوز حَدَّهُ. ومن ذلك قيل للجرح إذا أمدّ، وللبحر إذا كثر ماؤه ففاض، وللسحاب إذا وقع بأرض فأخصبت، «بَغَى»، كل ذلك بمعنى واحد، وهي زيادتُه وتجاوز حَدِّه.

فمعنى قولـه جَلَّ ثنـاؤُهُ: «وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ»، من ذلـك. يقـول: لم يكن اختـلافُ هؤلاء المختلفين من اليهود من بني إسرائيل، في كتابي الذي أنزلته مع نَبيِّ، عن جهلٍ منهم به، بل كان اختلافهم فيه، وخلافُ حُكْمِه، من بعد ما ثبتت حجته عليهم، بغياً بينهم طلبَ الـرياسـة من بعضهم على بعض، واستـذلالاً من بعضهم لبعض.

## القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَهَدَى ٱللهُ»، فَوفَّقَ [ الله ] الذين آمنوا وهم أهلُ الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ، المُصَدِّقينَ به وبما جاء به أنه من عندِ الله، لمـا اختلف الذين أُوتوا الكتاب فيه. وكان اختلافُهم الذي خَذَلَهم الله فيه،

وهَدَى له الذين آمنوا بمحمدٍ ﷺ فوفَّقهم لإصابتهِ: «الجمُعة» ضَلُّوا عنها، وقد فُرضتْ عليهم كالـذي فُرض علينـا، فجعلوهـا «السبت»، فقال ﷺ: «نحنُ الآخرونَ السابقون، بيدَ أنهم أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِنَا، وأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهم، وهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فلليهودِ غداً وللنصارى بعد غد»[1]

فكـانت هداية الله جَلَّ ثنـاؤُهُ الـذين آمنـوا بمحمدٍ وبما جاء به، لما اختلف ـ هؤلاء الأحزاب من بني إسرائيل الذين أُوتُوا الكتاب ـ فيه من الحق بإذنه أنْ وَفَّقَهُمْ لإصابةِ ما كان عليه من الحق مَنْ كان قبل المختلفين الذين وصف الله صفتهم في هذه الآية، إذْ كانوا أُمة واحدة، وذلك هو دينُ إبراهيم الحنيفِ المسلم خليلِ الـرحمٰن، فصاروا بذلك أُمةً وَسطاً، كما وصفهم به ربهم، ليكونوا شهداءَ على الناس.

وأمّا قوله: «بِإِذْنِهِ»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤُهُ: بِعِلْمِهِ، بما هداهم له. وقد بَيَّنا معنى «الإذن» إذْ كان بمعنى العلم في غير هذا الموضع، بما أغنى عن إعادته هٰهنا.

وأما قوله: «وَٱللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ»، فإنه يعني به: والله يُسَدِّدُ مَنْ يشاء من خَلْقِه ويُرشده إلى الطريق القويم على الحق الذي لا اعوجاجَ فيه، كما هدى الذين آمنوابمحمدٍ ﷺ لما اختلف الذين أُوتُوا الكتاب فيه بغياً بينهم، فسددهم لإصابةِ الحق والصواب فيه.

وفي هذه الآية البيانُ الواضح على صحة ما قاله أهل الحقّ: من أنَّ كُلَّ نعمةٍ على العباد في دينهم أو دنياهم فمن الله جَلَّ وعَزَّ.

فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله: «فَهَدَى ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ»؟ أَهَدَاهُم للحق، أم هداهم للاختلاف؟ فإنْ كان هداهم للاختلاف، فإنما

(١) حديث متفق عليه، أخرجه البخاري ٦٨/١ و ٢/٢ و ٦٠/٤، ١٥٩/٨ و ٥٣/٩ و ١٧٥، ومسلم ٧/٣. وانظر المسند الجامع ٧٥٠/١٦ـ٧٥٥.

أضَلَّهُم! وإنْ كان هداهم للحق، فكيف قِيلَ: «فَهَدَى ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ»؟

قيل: إن ذلـك على غير الوجه الذي ذهبتَ إليه، وإنما معنى ذلك: فهدى الله الذين آمنوا للحقّ فيما اختلف فيه من كتاب الله الذين أُتوه، فكفرَ بتبـديلهِ بعضُهم، وثَبَتَ على الحق والصوابِ فيه بعضُهم ـ وهم أهلِ التوراة الذين بدّلوها ـ فهدى الله للحقّ مما بدَّلوا وحرَّفوا، الذين آمنوا من أُمةِ محمدٍ ﷺ.

فإن أشكل ما قلنا على ذي غَفلةٍ فقال: وكيف يجوز أن يكون ذلك كما قلت، و«مِنْ» إنما هي في كتاب الله في «الحق»، و«اللام» في قوله: «لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ»، وأنت تحول «اللام» في «الحق»، و«من» في «الاختلاف»، في التأويل الذي تتأوله فتجعله مقلوباً؟

قيل: ذلـك في كلام العرب موجودٌ مستفيضٌ، والله تبارك وتعالى إنما خاطبَهم بمنطقهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

أما قوله: «أَمْ حَسِبْتُمْ»، كأنه استفهم بـ«أَمْ» في ابتداء لم يتقدمه حرفُ استفهام، لسبوقِ كلامٍ هو به متصلٌ. ولو لم يكن قبله كلام يكون به متصلاً، وكان ابتداءً، لم يكن إلا بحرف من حروف الاستفهام، لأن قائلا لو كان قال مبتدئاً كلاماً لآخر: «أم عندك أخوك»؟ لكان قائلاً ما لا معنى له. ولكن لو قال:

«أنتَ رجلٌ مُدِلٌّ بقوتك، أم عندكَ أخوكَ يَنْصُركَ؟» كان مصيباً. وقد بيَّنَّا بعض هذا المعنى فيما مضى من كتابنا هذا، بما فيه الكفاية عن إعادته.

فمعنى الكلام: أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة، ولم يُصِبْكُمْ مثلُ ما أصابَ مَنْ قَبْلَكُم مِن أتباعِ الأنبياء والرسل من الشدائدِ والمحنِ والاختبار، فَتُبْتلُوا بما ابْتُلُوا واخْتُبِرُوا به من «البأساء» - وهو شِدَّةُ الحاجةِ والفاقةِ - و«الضراء» - وهي العِللُ والأوصاب - ولم تزلزلوا زلزالهم - يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدةٌ وجهدٌ حتى يستبطىءَ القومُ نصرَ الله إياهم فيقولون: متى الله ناصرنا؟ ثم أخبرهم الله أنَّ نصره منهم قريبٌ، وأنه مُعليهم على عدوِّهم، ومظهرهم عليه، فنجَّز لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نارَ حربِ الذين كفروا.

وهذه الآية - فيما يزعمُ أهلُ التأويل - نزلت يومَ الخندق حين لقي المؤمنون ما لَقُوا من شدة الجهد من خوفِ الأحزاب، وشدة أذى البرد وضيق العيش الذي كانوا فيه يومئذ. يقول الله جلَّ وعزَّ للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ إلى قوله: ﴿وإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بالله الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

وأما قوله: «وَلَمَّا يَأْتِكُم»، فإنّ عامة أهل العربية يتأوّلونه بمعنى: ولم يأتكم، ويزعمون أن «ما» صلة وحشو.

وأما معنى قوله: «مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِنْ قَبْلِكُم»، فإنه يعني: شبه الذين خلوا فَمَضَوا قبلكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يسألك أصحابُكَ يا محمد: أي شيء ينفقون من أموالهم، فيتصدقون به؟ وعلى مَنْ يُنفقونه فيما ينفقونه ويتصدقون به؟ فقل لهم: ما أنفقتم من أموالكم وتَصدَّقتم به، فأنفقوه وتصدقوا به واجعلوه لآبائكم وأمهاتكم وأقربيكم، ولليتامى منكم، والمساكين، وابن السبيل، فإنكم ما تأتوا من خير وتصنعوه إليهم، فإن الله به عليم، وهو مُحْصِيهِ لكم حتى يوفِّيَكم أجورَكُم عليه يوم القيامة، ويثيبكم على ما أطعتموه بإحسانكم عليه.

و«الخير» الذي قال جَلَّ ثناؤُهُ في قوله: «قُلْ مَا أَنْفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ»، هو المالُ الذي سأل رسولَ الله ﷺ أصحابُه من النفقةِ منه، فأجابهم الله عنه بما أجابهم به في هذه الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾

قال أبو جعفر: يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ»، فُرض عليكم القتال، يعني: قتال المشركين، «وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ».

واختلف أهل العلم في الذين عُنوا بفرض القتال.

فقال بعضهم: عني بذلك أصحابُ رسول الله ﷺ خاصةً دون غيرهم.

وهذا قول لا معنى له، لأن نسخَ الأحكام من قِبَل الله جلَّ وعزَّ، لا من قبل العباد. وقوله «قالوا سمعنا وأطعنا»، خَبَرٌ من الله عن عبادِهِ المؤمنين، وأنهم قالوه، لا نسخٌ منه.

وقال آخرون: هو على كل واحدٍ حتى يقومَ به من في قيامهِ الكفايةُ، فيسقطُ فرضُ ذلك حينئذٍ عن باقي المسلمين، كالصلاةِ على الجنائز، وغسلهم الموتى ودفنهم، وعلى هذا عامةُ علماء المسلمين.

وذلك هو الصوابُ عندنا، لإجماعِ الحجةِ على ذلك، ولقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥]، فأخبر جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ الفضلَ للمجاهدين، وأنَّ لهم وللقاعدين الحسنى، ولو كان القاعدون مُضَيِّعِينَ فرضاً، لكان لهم السُّوأى لا الحسنى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وهو ذو كُرْهٍ لكم. فترك ذكر «ذو» اكتفاءً بدلالة قوله: «كرْهٌ لَّكُمْ»، عليه، كما قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٣].

و«الكُرْه» بالضم: هو ما حَمَلَ الرجلُ نفسَه عليه من غير إكراهِ أحدٍ إياه عليه: و«الكَرْه» بفتح «الكاف»، هو ما حَمَلَهُ عليه فأدخله عليه كرهاً. وممن حكي عنه هذا القولُ معاذُ بن مسلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولا تكرهوا القتالَ فإنكم لعلكم أنْ تَكرهوهُ وهو خيرٌ لكم، ولا تُحبوا تركَ الجهاد فلعلكم أنْ تُحِبُّوه وهو شَرٌّ لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٢١٦

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: والله يعلم ما هو خيرٌ لكم مما هو شَرٌّ لكم، فلا تَكرهُوا ما كتبتُ عليكم من جهادِ عدوكم وقتالِ مَنْ أمرتُكُمْ بقتاله، فإني أعلم أنَّ قتالكم إياهم هو خيرٌ لكم في عاجلكم ومَعادِكم، وتَرْكَكُمْ قتالَهُم شَرٌّ لكم، وأنتم لاتعلمون من ذلك ما أعلمُ. يَحُضُّهم جَلَّ ذِكْرُه بذلك على جهادِ أعدائه، ويُرَغِّبُهم في قتالِ مَنْ كفرَ به.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ**

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يسألك، يا محمد، أصحابُك عن الشهر الحرام ـ وذلك رَجبٌ ـ عن قتالٍ فيه.

وخفضُ «القتال» على معنى تكرير «عن» عليه.

أي «قُلْ» يا محمد: «قِتَالٌ فِيهِ» ـ يعني في الشهر الحرام «كَبِيرٌ»، أي عظيمٌ عند الله استحلالُه وسفكُ الدماء فيه. ومعنى قوله: «قِتَالٍ فِيهِ»، قل: القتالُ فيه كبير. وإنما قال: «قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ»، لأن العرب كانت لاتقرعُ فيه الأسنَّةَ، فَيلْقَى الرجلُ قاتِلَ أبيهِ أو أخيه فيه فلاَ يهيجه تعظيماً له. وتُسَمِّيه مُضَرُ «الأصمَّ» لسكونِ أصواتِ السلاح وقَعْقَعتهِ فيه.

وقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَصَدٌّ عَنْ سَبيلِ ٱللهِ». ومعنى «الصدّ» عن الشيء، المنعُ منه والدفع عنه، ومنه قيل: «صَدَّ فلانٌ بوجهه عن فلان»، إذا أعرض عنه فمنعه من النظرِ إليه.

وقوله: «وَكُفْرٌ بِهِ»، يعني: وكفر بالله، و«الباء» في «به» عائدةٌ على اسم

الله الذي في «سَبِيلِ ٱللهِ». وتأويلُ الكلام: وصدٌّ عن سبيل الله وكُفْرٌ به، وعن المسجد الحرام، وإخراجُ أهلِ المسجد الحرام ـ وهم أهله وولاته ـ أكبرُ عند الله من القتالِ في الشهرِ الحرام.

فـ«الصدُّ عن سبيل الله» مرفوعٌ بقوله: «أَكْبَرُ عِندَ ٱللهِ». وقوله: «وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ» عَطْفٌ على «الصَدِّ». ثم ابتدأ الخبر عن الفتنة فقال: «وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ»، يعني الشرك أعظمُ وأكبرُ من القتل من الكفر بعينه. وذلك مما لا يُخيل على أحدٍ خطأهُ وفسادُه.

وكـان بعض أهـل العربية من أهل البصرة يقول القولَ الأول في رفع «الصد»، ويزعم أنه معطوفٌ به على «الكبير»، ويجعل قوله: «وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ» مرفوعاً على الابتداء. وقد بينا فسادَ ذلك وخطأ تأويله.

ثم اختلف أهل التأويل في قوله: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ»، هل هو منسوخٌ أم ثابتُ الحكم؟

فقال بعضهم: هو مَنْسُوخٌ بقول الله جلَّ وعزَّ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُم كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وبقوله: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

وقال آخرون: بل ذلك حكم ثابتٌ، لا يحلّ القتال لأحدٍ في الأشهرِ الحرم بهذه الآية، لأن الله جعل القتال فيه كبيراً.

والصواب من القول في ذلك: أنَّ النهي عن قتال المشركين في الأشهر الحُرم منسوخٌ بقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّة كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وإنما قلنا ذلك ناسخٌ لقوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ»، لتظاهُرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ أنه غزَا هَوازِنَ بحُنين وثَقيفاً بالطائفِ، وأرسل أبا عامرٍ إلى أوْطاس لحربِ مَنْ بها من المشركين، في بعض الأشهر الحُرُمِ، وذلك في شوال وبعض ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم، فكان معلوماً بذلك أنه لو كان القتالُ فيهن حراماً وفيه معصيةٌ، كان أبعدَ الناسِ من فِعْلِهِ ﷺ.

وأخرى، أن جميعَ أهل العلم بِسِيَر رسولِ الله ﷺ لا تتدافع أنَّ بيعةَ الرضوان على قتالِ قريش كانت في ذي القعدة، وأنه ﷺ إنما دعا أصحابَهُ إليها يومئذٍ، لأنه بلغه أنَّ عثمانَ بن عفان قتله المشركون إذْ أرسلَهُ إليهم بما أرسله به من الرسالة، فبايع ﷺ على أنْ يُنَاجِزَ القومَ الحربَ ويُحارِبَهم، حتى يرجع عثمان بالرسالة، جرى بين النبي ﷺ وقريش الصلح، فَكَفَّ عن حربهم حينئذٍ وقتالهم، وكان ذلك في ذي القعدة؛ وهو من الأشهر الحُرم.

فإذْ كان ذلك كذلك، فبيِّنٌ صحةُ ما قلنا في قوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ»، وأنه منسوخ.

فإن ظنّ ظانّ أنَّ النهي عن القتال في الأشهر الحُرم كان بعد استحلالِ النبيِّ ﷺ إياهن لما وصفنا من حروبه، فقد ظنّ جهلاً. وذلك أن هذه الآية - أعني قوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ» - في أمر عبدالله بن جحش وأصحابه، وما كان من أمرهم وأمرِ القتيلِ الذي قتلوه، فأنزل الله في أمره هذه الآية في آخر جمادى الآخرة من السنة الثانية من مَقْدَمِ رسولِ الله ﷺ المدينةَ وهجرته إليها، وكانت وقعةُ حُنين والطائف في شوال من سنة ثمان من مَقْدمِه المدينةَ وهجرته إليها، وبينهما من المدة ما لايَخفى على أحدٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾

يعني تعالى ذكره: ولا يزالُ مشركو قريش يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إنْ قدروا على ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢١٧﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ»، من يرجع منكم عن دينه، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصصاً﴾ [الكهف: ٦٤] يعني بقوله: «فَارْتَدَّا»، رَجَعَا. ومن ذلك قيل: «استردَّ فلانٌ حَقَّهُ من فلانٍ»، إذا استرجعه منه.

وإنما أظهر التضعيف في قوله: «يَرْتَدِدْ» لأنَّ لامَ الفعلِ ساكنة بالجزم، وإذا سُكِّنت فالقياسُ تركُ التضعيف، وقد تضعَّف وتدغم وهي ساكنة، بناء على التثنية والجمع.

وقوله: «فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ»، يقول: مَنْ يرجعْ عن دينهِ دين الإسلامِ، «فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ»، فَيَمُتْ قبل أنْ يتوبَ من كُفْرِهِ، فهم الذين حَبطت أعمالهم.

يعني بقوله: «حَبِطَتْ أَعْمَالهُمْ»، بطلت وذهبت. وبُطُولُهَا: ذهابُ ثوابِها، وبُطول الأجر عليها والجزاء في دار الدنيا والآخرة.

وقوله: «وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ آلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»، يعني: الذين ارتدُّوا

عن دينهم فماتوا على كفرهم، هم أهل النار المُخَلَّدُونَ فيها.

وإنما جعلهم «أهلها» لأنهم لا يخرجون منها، فهم سكانها المقيمون فيها، كما يقال: «هؤلاء أهلُ محلّةِ كذا»، يعني: سكانها المقيمون فيها.

ويعني بقوله: «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»، هم فيها لابِثُونَ لَبْثاً، من غير أمَدٍ ولا نهاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾

يعني بذلك جَلَّ ذكره: إنّ الذين صَدَّقُوا بالله وبرسوله وبما جاء به وبقوله: «وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ»، الذين هجروا مُساكنة المشركين في أمصارهم ومجاورتهم في ديارهم، فَتَحَوَّلُوا عنهم وعن جِوارهم وبلادهم، إلى غيرها هجرةً، (لِمَا كَرِهُوا من كُفرهم وشِركهم وإيثاراً للمؤمنين من أصحاب محمد ﷺ)[1] لما انْتُقِلَ عنه إلى ما انْتُقِلَ إليه. وأصلُ المهاجرة: «المفاعلة» من هجرةِ الرجلِ الرجلَ للشحناءِ تكونُ بينهما، ثم تستعمل في كل مَنْ هَجَرَ شيئاً لأمرٍ كرهه منه. وإنما سُمِّيَ المهاجرون من أصحابِ رسول الله ﷺ «مهاجرين»، لما وصفنا من هجرتهم دُورَهُم ومنازلهم كراهةً منهم النزولَ بين أظْهُرِ المشركين وفي سلطانهم، بحيث لا يأمنون فِتنتهم على أنفسِهم في ديارهم ـ إلى الموضع الذي يأمنون ذلك.

(١) ما بين الحاصرتين مما اقترحه العلامةُ محمود شاكر، لعدم اتصال الكلام في الأصل.

وأما قوله: «وَجَاهَدُواْ»، فإنه يعني: وقاتلوا وحاربوا.

وأصلُ «المجاهدة، المفاعلة» من قول الرجل: «قد جَهَدَ فلانٌ فلاناً على كذا» ـ إذا كَرَبَهُ وشقَّ عليه ـ «يجهده جهداً». فإذا كان الفعل من اثنين، كل واحد منهما يُكابِدُ من صَاحبه شِدَّةً ومَشقةً، قيل: «فلانٌ يجاهد فلاناً» ـ يعني: أنَّ كل واحدٍ منهما يفعل بصاحبه ما يجهده ويشق عليه ـ «فهو يُجاهده مجاهدة وجهاداً».

وأما «سَبِيلِ ٱللهِ»، فطريقُهُ ودِينُهُ.

فمعنى قولـه إذاً: «وَٱلَّـذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، والذين تَحَـوَّلُـوا من سلطانِ أهـلِ الشرك هجرةً لهم، وخوفَ فِتنتهم على أديانهم، وحاربوهم في دين الله لِيُدْخِلُوهم فيه وفيما يُرْضِي الله، «أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللهِ»، أي: يطمعون أنْ يرحمهم الله فيدخلهم جنته بفضلِ رحمته إياهم.

«وَٱللهُ غَفُورٌ»، أي ساترٌ ذُنوبَ عباده بعفوه عنها، مُتَفَضِّلٌ عليهم بالرحمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ**

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يسألكَ أصحابُك يا محمد عن الخمر وشُربها.

و«ٱلْخَمْـرِ» كُلُّ شرابٍ خَمَّـرَ العقـلَ فسترهُ وغَطَّى عليه، وهو من قول القـائـل: «خَمَرت الإناء» إذا غطيته، و«خَمِرَ الرجلُ»، إذا دخل في الخَمَر. ويقال: «هو في خُمار الناس وغُمارهـم»، يُرادُ به دخل في عُرضْ الناس. ويقال للضبـع: «خـامـري أُمَّ عامر»، أي استتري. وما خامرَ العقلَ من داء وسُكْرٍ فخالطه وغَمَره فهو «خمر».

ومن ذلك أيضاً «خِمارُ المرأة»، وذلك لأنها تستر به رأسَها فتغطيه، ومنه يقال: «هو يمشي لك الخمرَ»، أي مستخفياً.

وأما «الميسر» فإنها «المفعل» من قول القائل: «يسَرَ لي هذا الأمر»، إذا وَجَبَ لي «فهو يَيْسِر لي يَسَراً وَميسِراً» و«الياسر» الواجبُ، بقداحٍ وَجب ذلك، أو فُتاحةٍ أو غير ذلك. ثم قيل للمقامر، «ياسرٌ ويَسَر».

وأما قوله: «قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ»، فإنه يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: قُلْ يا محمد لهم: «فِيهِمَا»، يعني في الخمر والميسر «إِثْمٌ كَبِيرٌ».

والذي هو أولى بتأويل «الإثم الكبير» الذي ذكر الله جَلَّ ثناؤُهُ أنه في الخمر والميسر: في «الخمر» زوالُ عقلِ شارب الخمر إذا سكر من شربه إياها حتى يعزبَ عنه معرفةُ ربه، وذلك أعظمُ الآثام. وأما في «الميسر»، فما فيه من الشُّغلِ به عن ذكرِ الله وعن الصلاة، ووقوعِ العداوةِ والبغضاء بين المتياسرين بسببه، كما وصف ذلك به ربنا جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٩١].

وأما قوله: «وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ»، فإنَّ منافعَ الخمر كانت أثمانها قبل تحريمها، وما يَصِلُون إليه بشربها من اللذةِ.

وأما الميسر، فما يصيبون فيه من أنصباء الجَزُور، وذلك أنهم كانوا يُيَاسِرُونَ على الجزور، وإذا أفلجَ الرجلُ منهم صاحبَه نَحَرَهُ، ثم اقتسموا أعشاراً على عددِ القِداح.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾

يعني بذلك عَزَّ ذِكْرُه: والإثم بشرب [ الخمر ] هذه والقمار هذا، أعظمُ وأكبرُ مضرة عليهم من النفع الذي يتناولون بهما. وإنما كان ذلك كذلك، لأنهم كانوا إذا سكروا وَثَبَ بعضُهم على بعضٍ، وقاتَل بعضهم بعضاً، وإذا ياسرُوا وقع بينهم فيه بسببه الشرُّ، فأدَّاهم ذلك إلى ما يَأْثَمُونَ به.

ونزلت هذه الآية في الخمر قبل أن يُصرَّح بتحريمها، فأضاف الإِثْمَ جَلَّ ثناؤُهُ إليهما، وإنما الإثم بأسبابهما، إذْ كان عن سببهما يحدثُ.

وقد قال عددٌ من أهل التأويل: معنى ذلك: وإثمهما بعد تحريمهما أكبرُ من نفعهما قَبْلَ تحريمهما.

وإنما اخترنا ما قلنا في ذلك من التأويل لتواتر الأخبار وتظاهُرها بأنَّ هذه نزلت قبل تحريمِ الخمرِ والميسر، فكان معلوماً بذلك أنَّ الإثمَ الذي ذكره الله في هذه الآية فأضافه إليهما، إنما عَنَى به الإثمَ الذي يحدث عن أسبابهما ـ على ما وصفنا ـ لا الإثمَ بعد التحريمِ.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ

يعني جل ذكره بذلك ويسألك يا محمد أصحابك: أيّ شيءٍ يُنفقون من أموالهم فيتصدقون به؟ فقل لهم يا محمد: أنفقوا منها العفوَ.

واختلف أهل التأويل في معنى «الْعَفْوَ» في هذا الموضع.

فقال بعضهم: معناه الفَضْلُ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ما كان عَفْواً لا يَبينُ على مَنْ أنفقه أو تَصَدَّقَ به.

وقال آخرون: معنى ذلك: الوسط من النفقة، ما لم يكن إسرافاً ولا إقتاراً.

وقال آخرون: معنى ذلك: «قُلِ ٱلْعَفْوَ»، خذ منهم ما أتوك به من شيء قليلاً أو كثيراً.

وقال آخرون: معنى ذلك: ما طابَ من أموالكم.

وقال آخرون: معنى ذلك: الصدقةُ المفروضة.

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معنى «الْعَفْوَ»: الفضلُ من مالِ الرجل عن نفسهِ وأهلهِ في مؤونتهم ما لا بُدَّ لهم منه. وذلك هو الفضلُ الذي تَظَاهرت به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ بالإذن في الصدقة، وصَدقته في وجوه البر[1].

فإذا كان الذي أَذِنَ ﷺ لأمتهِ، الصدقةَ من أموالهم بالفضل عن حاجة المتصدق، فالفضلُ من ذلك هو «العفو» من مالِ الرجل، إذْ كان «العفو»، في كلام العرب، في المال وفي كل شيء: هو الزيادةُ والكثرة ـ ومن ذلك قوله جَلَّ ثناؤهُ: «حتى عَفَوْا» بمعنى: زَادُوا على ما كانوا عليه من العَددِ وكثروا.

ثم اختلف أهلُ العلم في هذه الآية: هل هي منسوخةٌ أم ثابتةُ الحكم على العباد؟

فقال بعضهم: هي منسوخة، نسختها الزكاةُ المفروضة.

وقال آخرون: بل مُثْبَتَةُ الحُكْمِ غير منسوخة.

والصواب من القول في ذلك ما قاله ابن عباس على ما رواه عنه عطية، من أن قوله: «قُلِ ٱلْعَفْوَ»، ليس بإيجابِ فَرْضٍ فُرِض من الله حقاً في ماله، ولكنه إعلامٌ منه ما يرضيه من النفقة مما يُسخطه، جواباً منه لمن سأل نبيه محمداً ﷺ عما فيه له رضاً. فهو أدبٌ من الله لجميعِ خَلْقِهِ على ما أدَّبهم

(١) يعني أن التصدق بالعفو في وجوه البر إذ الزكاة المفروضة لها شأن آخر.

به في الصدقات غير المفروضات ثابتُ الحكم، غيرُ ناسخٍ لحكمٍ كان قبله بخلافه، ولا منسوخ بحكم حدث بعده. فلا ينبغي لذي وَرَعٍ ودِينٍ أنْ يتجاوز في صدقاته التطوعَ وهباتِه وعطايا النفل وصدقته، ما أدَّبهم به نبيه ﷺ بقوله: «إذا كان عند أحدكم فَضْلٌ فليبدأ بنفسه، ثم بأهله، ثم بولده»[1]، ثم يسلك حينئذٍ في الفضل مسالكه التي تُرْضِي الله ويُحِبُّها. وذلك هو «القوَام» بين الإسرافِ والإقتار، الذي ذكره الله عز وجل في كتابه إن شاء الله تعالى.

ويقال لمن زعم أن ذلك منسوخ: ما الدلالةُ على نسخه، وقد أجمع الجميعُ لا خلافَ بينهم: على أنَّ للرجل أنْ ينفق من ماله صدقةً وهِبةً ووصيةً، الثلثَ؟ فما الذي دل على أن ذلك منسوخ؟

فإنْ زعم أنه يعني بقوله: «إنه منسوخ»، أنَّ إخراجَ العفو من المال غيرُ لازمٍ فرضاً، وأن فرض ذلك ساقطٌ بوجود الزكاة في المال قيل له: وما الدليلُ على أنَّ إخراجَ العفو كان فرضاً فأسقطه فرضُ الزكاة، ولا دلالةَ في الآية على أنَّ ذلك كان فرضاً، إذْ لم يكن أمرٌ من الله عزَّ ذكره، بل فيها الدلالة على أنها جوابُ ما سألَ عنه القومُ على وَجه التعرف لما فيه لله الرضا من الصدقات؟

ولا سبيل لمدَّعِي ذلك إلى دلالة تُوجِبُ صحةَ ما ادَّعى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾

يعني بقوله عز ذكره: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ آللهُ لَكُمُ آلأَيَاتِ»، هكذا يبين، أي: كما بَيَّنْتُ لكم أعلامي وحُججي ـ وهي «آياتُه» في هذه السورة ـ وعرَّفْتُكم فيها

---

(١) حديث صحيح. أخرجه المؤلف والحميدي (١١٧٦)، وأحمد ٢/٢٥١ و ٤٧١. والبخاري في الأدب المفرد (١٩٧)، وأبو داود (١٦٩١) والنسائي ٥/٦٢.

ما فيه خَلاصُكم من عقابي، وبينتُ لكم حدودي وفرائضي، ونَبَّهتُكم فيها على الأدلـة على وحدانيتي، ثم على حُجج رسولي إليكم، فأرشدتكم إلى ظهور الهدى؛ فكذلك أُبَيِّنُ لكم في سائر كتابي الذي أنزلته على نبيِّي محمد ﷺ آياتي وحُججي وأُوضِّحُها لكم، لتتفكَّروا في وَعْدي ووعيدي، وثوابي وعقابي. فتختاروا طاعتي التي تنالون بها ثوابي في الدار الآخرة، والفوز بنعيم الأبد، على القليلِ من اللذاتِ واليسيرِ من الشهـواتِ، بركـوبِ معصيتي في الدنيا الفانية، التي مَنْ ركبها كان مَعَادُهُ إليَّ، ومصيرهُ إلى ما لا قِبَلَ له به من عقابي وعذابي.

## القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾

يعني: ويسألك يا محمد أصحابُكَ عن مالِ اليتامى، وخلطهم أموالهم به في النفقةِ والمُطَاعمةِ والمُشَاربةِ والمُسَاكنةِ والخِدْمةِ، فَقُلْ لهم: تفضُّلكم عليهم بإصلاحِكُمْ أمـوالَهم ـ من غيرِ مَرْزِئَة[1] شيءٍ من أموالهم، وغير أخذِ عِوَضٍ من أموالهم على إصلاحكم ذلك لهم ـ خيرٌ لكم عند الله وأعظمُ لكم أجراً، لِمَا لكم في ذلك من الأجرِ والثواب ـ وخيرٌ لهم في أموالهم في عاجل دنياهم، لما في ذلك من توفر أموالهم عليهم ـ «وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ» فتشاركوهم بأموالِكم أموالَهم في نفقاتِكم ومطاعمكم ومشاربكم ومساكنكم، فتضمُّوا من أموالهم عِوَضاً من قيامكم بأمورِهم وأسبابهم وإصلاحِ أموالهم، فهم إخوانكم، والإخوانُ يُعينُ بعضهم بعضاً، ويَكْنُفُ بعضهم بعضاً[2]، فَذُو المالِ يُعِينُ ذا

(١) يعني: أصاب منه خيراً ما كان، فنقص من ماله.

(٢) أي: حاطه وصانه وكان إلى جنبه وعاونه.

الفاقةِ، وذو القوةِ في الجسم يعين ذا الضعف. يقول تعالى ذكره: فأنتم أيها المؤمنون وأيتامكم كذلك، إنْ خالطتموهم بأموالكم - فخلطتم طعامَكم بطعامهم، وشرابكم بشرابهم، وسائرَ أموالكم بأموالهم، فأصبتم مِنْ أموالهم فَضْل مَرْفَق بما كانَ منكم من قيامِكم بأموالهم ولائهم، ومعاناة أسبابهم، على النظر منكم لهم نَظَرَ الأخ الشفيق لأخيه، العامل فيما بينه وبينه بما أوجبَ الله عليه وألزمه - فذلكَ لكم حلالٌ، لأنكم إخوان بعضكم لبعض.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: إنَّ ربكم قد أَذِنَ لكم في مخالطتكم اليتامى على ما أذن لكم به، فاتَّقُوا الله في أنفسكم أنْ تخالطوهم وأنتم تريدون أكلَ أموالهم بالباطل، وتجعلون مخالطتكم إيَّاهم ذريعةً لكم إلى إفساد أموالهم وأكْلِهَا بغيرِ حَقِّهَا، فتستوجبوا بذلك منه العقوبةَ التي لا قِبَلَ لكم بها، فإنه يعلمُ مَنْ خالط منكم يتيمه - فشارَكَهُ في مطعمهِ ومشربهِ ومسكنه وخدمه ورعاته في حال مخالطته إياه - ما الذي يقصدُ بمخالطته إياه: أفَسَادَ مالهِ وأكلَهُ بالباطل، أم إصلاحَهُ وتثميره؟ لأنه لايخفى عليه منه شيء، ويعلم أيُّكم المريدَ صلاحَ ماله، من المريد إفسادَه.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ولو شاء الله لحرَّم ما أَحَلَّهُ لكم من مخالطةِ أيتامِكم بأموالكم أموالَهم، فجَهَدكُم ذلكَ وشَقَّ عليكم، ولم تقدروا على القيام باللازم لكم من حَقِّ الله تعالى والواجب عليكم في ذلك من فرضه، ولكنه رخَّص لكم فيه وَسَهَّلَهُ عليكم، رحمةً بكم ورأفةً.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: إنَّ الله «عَزِيزٌ» في سلطانه، لايمنعه مانعٌ مما أَحَلَّ بكم من عقوبةٍ لو أعْنَتَكُم بما يُجْهِدكم القيامُ به من فرائضهِ فَقَصَّرتم في القيام به، ولايقدرُ دافعٌ أنْ يدفعه عن ذلك ولا عن غيره مما يفعله بكم وبغيركم من ذلك لو فَعَلَهُ، ولكنه بفضل رحمته مَنَّ عليكم بتركِ تكليفهِ إياكم ذلك؛ وهو «حَكِيمٌ» في ذلك لو فعله بكم وفي غيرِهِ من أحكامهِ وتدبيره، لايدخلُ أفعالَهُ خَلَلٌ ولا نَقْصٌ ولا وَهْيٌ ولا عيبٌ، لأنه فِعْلُ ذي الحكمةِ الذي لايجهلُ عواقبَ الأمور فيدخل تدبيره مذمّة عاقبة، كما يدخلُ ذلك أفعالَ الخَلْقِ لجهلهم بعواقبِ الأمور، لسوءِ اختيارِهم فيها ابتداءً.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾

اختلف أهلُ التأويل في هذه الآية: هل نزلت مُراداً بها كل مُشْرِكةٍ، أم مُرادٌ بحكمها بعض المشركاتِ دون بعضٍ؟ وهل نُسِخَ منها بعد وجوبِ الحكم بها شيءٌ أم لا؟

فقال بعضهم: نزلت مراداً بها تحريم نِكَاحِ كُلِّ مشركةٍ على كلِّ مسلمٍ من أيِّ أجناسِ الشِّركِ كانت، عابدَة وثنٍ كانت، أو كانت يهوديةً أو نصرانيةً أو مجوسيةً أو من غيرهم من أصناف الشرك، ثم نسخ تحريم نكاح أهل الكتاب بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ إلى ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٤-٥].

وقال آخرون: بل أُنزلتْ هذه الآيةُ مراداً بحكمها مشركات العرب، لم ينسخ منها شيءٌ ولم يُستثن، وإنما هي آيةٌ عامٌّ ظاهرُها، خاصٌّ تأويلها.

وقال آخرون: بل أنزلت هذه الآية مُراداً بها كل مشركةٍ من أيِّ أصنافِ الشركِ كانت، غير مخصوص منها مشركةٌ دون مشركة، وثنيةً كانت أو مجوسية أو كتابيةً، ولا نُسخ منها شيءٌ.

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية من قال: إن الله تعالى ذكره عَنَى بقوله: «وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ» مَنْ لم يكن من أهلِ الكتاب من المشركات - وأنَّ الآيةَ عامٌّ ظاهرها خاصٌّ باطنها، لم يُنْسَخْ منها شيء - وأنَّ نساءَ أهلِ الكتابِ غير داخلاتٍ فيها، وذلك أنّ الله تعالى ذِكْرُهُ أَحَلَّ بقوله: ﴿وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ للمؤمنين من نكاح محصناتهن، مثلَ الذي أباح لهم من نساء المؤمنات.

وقد بَيَّنا في غيرِ هذا الموضع من كتابنا هذا، وفي كتابنا «كتاب اللطيف من البيان»: أنَّ كُلَّ آيتين أو خبرين كان أحدهما نافياً حُكْمَ الآخر في فطرة العقل، فغير جائز أن يُقضَى على أحدهما بأنه ناسخُ حكم الآخر، إلّا بحجةٍ من خبرٍ قاطع للعذر مَجيئُه، وذلك غير موجود، أن[1] قوله: ﴿وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ ناسخُ ما كان قد وَجَبَ تحريمهُ من النساء بقوله: «وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ». فإذْ لم يكن ذلك موجوداً كذلك، فقولُ القائلِ: «هذه ناسخةٌ هذه»، دعوى لابرهانَ له عليها، والمُدَّعي دعوَى لابرهانَ عليها مُتَحَكِّمٌ، والتحكم لايعجزُ عنه أحدٌ.

---

(١) قال العلامة محمود شاكر في قوله: «أن قوله» بدلاً من «بأن قوله» هو أعرق في العربية.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ» بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، خيرٌ عند الله وأفضل من حُرَّةٍ مشركةٍ كافرةٍ، وإن شَرُفَ نَسَبُها وكَرُمَ أَصْلُها. يقول: ولا تبتغوا المناكحَ في ذواتِ الشرفِ من أهلِ الشركِ بالله، فإنَّ الإماء المسلمات عند الله خيرٌ مَنكحاً منهن.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وإنْ أعجبتكم المشركةُ من غير أهل الكتاب في الجمال والحسب والمال، فلا تنكحوها، فإنَّ الأمَةَ المؤمنةَ خيرٌ عند الله منها.

وإنما وُضِعَتْ «لو» موضعَ «إنْ» لتقارب مخرجيهما، ومعنييهما، ولذلك تُجَابُ كُلُّ واحدةٍ منهما بجواب صَاحبتها.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: أنَّ الله قد حرَّم على المؤمنات أنْ ينكحن مشركاً كائناً مَنْ كان المشركُ، ومن أيِّ أصنافِ الشرك كان، فلا تنكحوهنَّ أيها المؤمنون منهم، فإنَّ ذلك حرامٌ عليكم، وَلَأَنْ تُزَوِّجُوهُنَّ من عبدٍ مؤمنٍ مُصَدِّقٍ بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، خيرٌ لكم من أن تزوجوهن من حُرٍّ مشركٍ، ولو شَرُفَ نَسَبُهُ وكَرُمَ أصلُه، وإنْ أعجبكم حَسَبُهُ ونسبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أُوْلَئِكَ»، هؤلاء الذين حَرَّمْتُ عليكم أيها المؤمنون مناكحتهم من رجالِ أهلِ الشركِ ونسائهم، يدعونكم إلى النار ـ يعني: يدعونكم إلى العمل بما يُدْخِلُكُم النارَ ـ وذلك هو العمل الذي هم به عاملون من الكفر بالله ورسوله. يقول: ولا تَقْبلُوا منهم ما يقولون، ولاتستنصحوهم، ولا تنكحوهم ولا تنكحوا إليهم، فإنهم لايَأْلُونَكُمْ خَبالاً، ولكن اقبلوا من الله ما أَمَرَكُم به فاعملوا به، وانتهوا عما نهاكم عنه، فإنه يدعوكم إلى الجنة، يعني بذلك: يدعوكم إلى العمل بما يُدْخلكم الجنةَ، ويوجبُ لكم النجاةَ إنْ عملتم به من النارِ، وإلى ما يمحو خطاياكم أو ذنوبكم، فيعفو عنها ويسترها عليكم.

وأما قوله «بإِذْنِهِ»، فإنه يعني: أنه يدعوكم إلى ذلك بإعلامِهِ إيَّاكم سبيلَهُ وطريقَهُ الذي به الوصولُ إلى الجنة والمغفرة.

ثم قال تعالى ذِكْرُهُ: «وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»، يقول: ويُوضِّحُ حججه وأدلته في كتابه الذي أنزله على لسان رسوله لعباده، ليتذكَّرُوا فيعتَبِرُوا، ويُمَيِّزُوا بين الأمرين اللذين أحدهما دَعَّاءٌ إلى النار والخلودِ فيها، والآخرُ دَعَّاءٌ إلى الجنة وغفرانِ الذنوب، فيختاروا خيرهما لهم، ولم يجهل التمييزَ بين هاتين إلاّ غبيٌّ غَبينُ الرأي مدخولُ العقلِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ»، ويسألك يامحمدُ أصحابُكَ عن الحيضِ.

وإنما كان القومُ سألوا رسولَ الله ﷺ - فيما ذُكِرَ لنا - عن الحيض، لأنهم كانوا قبل بيانِ الله لهم ما يَتَبَيَّنُونَ من أمره، لايُساكنونَ حائضاً في بيتٍ، ولا يؤاكلونهنَّ في إناءٍ ولا يشاربونهن. فَعَرَّفهم الله بهذه الآية، أنَّ الذي عليهم في أيام حيضِ نسائهم: أن يتجنَّبوا جِماعَهُنَّ فقط، دون ما عدا ذلك من مضاجعتهن ومؤاكلتهن ومشاربتهن.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هُوَ أَذًى

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: قُلْ لِمَنْ سألَك من أصحابك يا محمد عن المحيض: «هُوَ أَذًى».

و«الأذى» هو ما يؤذِي به من مكروهٍ فيه. وهو في هذا الموضع يسمى «أَذًى» لِنتنِ ريحهِ وقذرهِ ونجاسته، وهو جامعٌ لمعانٍ شتى من خلال الأذى، غير واحدة.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْمَحِيض»، فاعتزلوا جماعَ النساء ونكاحهن في محيضهنّ.

واختلف أهلُ العلم في الذي يجبُ على الرجلِ اعتزالُه من الحائض.

فقال بعضهم: الواجبُ على الرجل، اعتزالُ جميعِ بَدَنِهَا أنْ يباشره بشيءٍ من بدنه.

وقال آخرون: بل الذي أمر الله تعالى ذِكْرُهُ باعتزاله منهن، مَوْضِعُ الأذى، وذلك موضعُ مخرجِ الدم.

وقال آخرون: بل الذي أمر الله تعالى ذِكْرُهُ باعتزاله منهنّ في حال حيضهن، ما بين السُّرَّةِ إلى الركبة، وله ما فوقَ ذلك ودونَهُ منها.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: إنَّ للرجلِ من امرأته الحائض ما فوق المؤتَزَر ودونَهُ.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُه: وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ

اختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك. فقرأه بعضهم: «حَتَّى يَطْهُرْنَ» بضم «الهاء» وتخفيفها. وقرأه آخرون بتشديد «الهاء» وفتحها.

وأما الذين قرأوه بتخفيف «الهاء» وضمها، فإنهم وَجَّهُوا معناه إلى: ولا تقربوا النساء في حالِ حيضهنَّ حتى ينقطع عنهن دَمُ الحيضِ وَيطهُرن.

وأما الذين قرأوا ذلك بتشديد «الهاء» وفتحها، فإنهم عنوا به: حتى يغتسلن بالماء. وشَدَّدُوا «الطاء» لأنهم قالوا: معنى الكلمة: حتى يتطهَّرْنَ، أُدغمت «التاء» في «الطاء» لتقاربِ مخرجيهما.

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءةُ مَنْ قرأ ﴿حَتَّى يَطَّهَّرْنَ﴾ بتشديدها وفتحها، بمعنى: حتى يغتسلن - لإجماعِ الجميعِ على أن حراماً على الرجلِ أنْ يقربَ امرأته بعد انقطاع دم حيضها حتى تطهر.

وإنما اختُلف في «التطهر» الذي عَنَاهُ الله تعالى ذِكْرُهُ، فأحَلَّ له جماعها.

فقال بعضهم: هو الاغتسالُ بالماء، لايحل لزوجها أنْ يَقْرَبَها حتى تغسلَ جميعَ بدنها.

وقال بعضهم: هو الوضوء للصلاة.

وقال آخرون: بل هو غسل الفرج، فإذا غسلت فرجها، فذلك تَطَهُّرها الذي يحلُّ به لزوجها غشيانُها.

فإذْ كان إجماعٌ من الجميع أنها لاتحلُّ لزوجها بانقطاع الدم حتى تطَّهر، كان بَيِّناً أنَّ أولى القراءتين بالصواب أنفاهما للَّبْسِ عن فَهْمِ سامعها. وذلك هو الذي اخترنا، إذْ كان في قراءةِ قارئها بتخفيف «الهاء» وضمها، ما لايُؤْمَنُ معه اللبس على سامعها من الخطأ في تأويلها، فيرى أن لزوج الحائض غشيانَها بعد انقطاعِ دمِ حيضها عنها، وقبلَ اغتسالها وتطهُّرها.

فتأويل الآية إذاً: ويسألونك عن المحيض قل هو أذى، فاعتزلوا جماع نسائكم في وقت حيضهنّ، ولا تقربوهن حتى يغتسلن فيتطهرن من حيضهن بعد انقطاعه.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ»، فإذا اغتسلن فتطهَّرن بالماءِ فجامِعُوهُنَّ.

فإنْ قال قائلٌ: أفرضٌ جماعهن حينئذ؟

قيل: لا

فإن قال: فما معنى قوله إذاً: «فَأْتُوهُنَّ»؟

قيل: ذلك إباحةُ ما كان منَع قبل ذلك من جماعهن، وإطلاقٌ لما كان حَظَر في حال الحيض، وذلك كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وما أشبه ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ».

فقال بعضهم: معنى ذلك، فإذا اغتسلن.

وقال آخرون: معنى ذلك: فإذا تطهَّرن للصلاة.

وأولى التأولين بتأويل الآية، قولُ مَنْ قال: معنى قوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ»، فإذا اغتسلن، لإجماعِ الجميع على أنها لاتصيرُ بالوضوء بالماء طاهراً الطُّهرَ الذي يحلُّ لها به الصلاةُ. وإنَّ القولَ لايخلو في ذلك من أحدِ أمرين:

إمـا أن يكون معناه: فإذا تطهَّرن من النجاسة فَأْتُوهُنَّ. فإنْ كان ذلك معناه، فقد ينبغي أن يكون متى انقطع عنها الدمُ فجائزٌ لزوجهَا جماعُها، إذا لم تكن هنـالـك نجـاسـةٌ ظاهـرة. هذا، إن كان قوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ» جائزاً استعماله في التطهُّر من النجاسة، ولاأَعْلَمُهُ جائزاً إلا على استكراه الكلام.

أو يكون معناه: فإذا تطهَّرن للصلاة. وفي إجماع الجميع من الحجة على أنـه غيرُ جائزٍ لزوجها غشيانها بانقطاع دم حيضها، إذا لم يكن هنالك نجاسة، دون التطهرِ بالماء إذا كانت واجِدَتَهُ أدلُّ الدليل على أنَّ معناه: فإذا تطهرن الطُّهْرَ الذي يجزيهن به الصلاة. وفي إجماع الجميع من الأمة على أنَّ الصلاةَ لاتحلُّ لها إلا بالاغتسال، أوضحُ الدلالة على صحة ما قلنا: من أنَّ غشيانَها حرامٌ إلا بعد الاغتسال، وأن معنى قوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ»، فإذا اغتسلن فصرن طواهرَ الطهرَ الذي يجزيهنّ به الصلاة.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُه: فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله».

فقـال بعضهم: معنى ذلك: فَأْتُوا نساءكم إذا تطهَّرن من الوجه الذي

نهيتُكم عن إتيانهن منه في حالِ حيضهن، وذلك: الفرجُ الذي أمر الله بترك جماعِهنَّ فيه في حال الحيض.

وقال آخرون: معناها: فأتوهن من الوجه الذي أمركم الله فيه أنْ تأتوهن منه. وذلك الوجه، هو الطهر دون الحيض. فكان معنى قائل ذلك في الآية: فأتوهنّ من قُبْل[1] طُهرهنّ لا من قُبْل حيضهن.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فأتوا النساء من قِبل النكاح، لا من قِبل الفُجور.

وأولى الأقوالِ بالصوابِ في تأويل ذلك عندي قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: فَأْتُوهُنَّ من قُبْل طُهرِهنَّ. وذلك أنَّ كُلَّ أمرٍ بمعنى، فَنَهْيٌ عن خِلافه وضِدِّهِ. وكذلك النهيُ عن الشيء أمرٌ بضدهِ وخلافهِ. فلو كان معنى قوله: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله»، فأتوهن من قِبل مَخْرجِ الدمِ الذي نهيتكم أن تأتوهن من قبله في حال حيضهن ـ لوجب أن يكون قوله: «وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ»، تأويله: ولا تقربوهن في مخرج الدم، دون ما عدا ذلك من أماكن جسدها، فيكون مطلقاً في حال حيضها إتيانهن في أدبارهن. وفي إجماع الجميع ـ على أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ لم يُطْلِق في حال الحيض من إتياهن في أدبارهن شيئاً حرَّمه في حال الطُّهر، ولا حرَّم من ذلك في حال الطهر شيئاً أحَلَّهُ في حال الحيض ـ ما يُعْلَمُ به فسادُ هذا القول.

وبَعْدُ، فلو كان معنى ذلك على ما تأوَّلَهُ قائلو هذه المقالة، لَوَجَبَ أنْ يكون الكلام: فإذا تطهرن فأتوهن في حيث أمركم الله حتى يكون معنى الكلام حينئذٍ على التأويل الذي تأوله، ويكون ذلك أمراً بإتيانهن في فروجهن. لأنّ

---

(١) القُبْل: بضم القاف وسكون الباء الموحدة وتضم أيضاً، نقيض الدُّبُر.

الكلام المعروفَ إذا أُريدَ ذلك، أن يقال: «أتى فلانٌ زَوجته من قِبَل فرجها» ـ ولا يقال: أتاها من فرجها ـ إلا أن يكون أتاها من قِبل فرجها في مكانٍ غيرِ الفرج.

فإن قال لنا قائـل: فإنَّ ذلك وإنْ كان كذلك، فليس معنى الكلام: فأتوهن في فروجهن ـ وإنما معناه: فأتوهن من قِبَل قُبُلهن في فروجهن ـ كما يقال: «أتيتُ هذا الأمرَ منَ مأتاه».

قيل له: إن كان ذلك كذلك، فلا شك أنَّ مأتى الأمر ووجهه غيره، وأن ذلك مطلبه. فإن كان ذلك على ما زعمتم، فقد يجب أن يكون معنى قوله: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ»، غير الذي زعمتم أنه معناه بقولكم: ائتوهن من قبل مخرج الدم، ومن حيث أُمِرْتُمْ باعتزالهن ـ ولكن الواجبُ أن يكون تأويلُه على ذلك: فأتوهن من قبل وُجوههنّ في أقبالهن، كما كان قول القائل: «ائتِ الأمـرَ من مأتـاه»، إنمـا معنـاه: اطلبـه من مطلبـه، ومطلبُ الأمر غيرُ الأمر المـطلوب. فكـذلـك يجب أن يكون مأتى الفرج ـ الذي أمر الله في قولهم بإتيانه ـ غير الفرج.

وإذا كان كذلك، وكان معنى الكلام عندهم: فأتوهن من قبل وجوههن في فروجـهـن ـ وَجَـبَ أنِ يكـون على قولهـم محرَّمــاً إتـيانهنّ في فروجـهن من قِبَـل أدبارهن. وذلك إنْ قالوه، خرج مَنْ قاله من قِيل أهلِ الإسلام، وخالف نَصَّ كتاب الله تعالى ذكره، وقولَ رسولِ الله ﷺ. وذلك أن الله يقول: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُـوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾، وأذن رسـولُ الله ﷺ في إتيانهن في فروجهن من قبل أدبارهن[1].

فقد تبين إذاً، إذْ كان الأمرُ على ما وصفنا، فسادُ تأويل مَنْ قال ذلك:

---

(١) انظر فتح الباري (٤٥٢٨) ومسلم (١٤٣٥).

فأتوهن في فروجهن حيثُ نَهيتكُمْ عن إتيانهنّ في حالِ حيضهن، وصحةُ القولِ الذي قلناه، وهو أن معناه: فأتوهن في فروجهنّ من الوجه الذي أذِنَ الله لكم بإتيانهن، وذلك حال طُهْرِهِنَّ وتَطَهُّرِهِنَّ، دونَ حالِ حيضهن.

## القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «إِنَّ الله يُحِبُّ ٱالتَّوَّابِينَ»، المُنيبينَ من الإدبارِ عن الله وعن طاعته، إليهِ وإلى طاعتهِ. وقد بَيَّنا معنى «التوبة» قَبْلُ.

واختلف في معنى قوله: «وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ».

فقال بعضهم: هم المُتَطهِّرُونَ بالماء.

وقال آخرون: معنى ذلك: «إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ»، من الذنوب؛ «وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ»، من أدبار النساء أنْ يأتوها.

وقال آخرون: معنى ذلك: «وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ»، من الذنوب أن يعودوا فيها بعد التوبة منها.

وأوْلَى الأقوالِ في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: «إنّ الله يحب التوابين من الذنوب، ويحب المتطهرين بالماء للصلاة». لأنَّ ذلك هو الأغلب من ظاهر معانيه.

وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ ذَكَرَ أمرَ المحيض، فنهاهم عن أمورٍ كانوا يفعلونها في جاهليتهم: مِنْ تَرْكِهِم مُساكنةَ الحائضِ ومؤاكَلتها ومشاربَتَها، وأشياء غير ذلك مما كان تعالى ذِكْرُهُ يكرهها من عباده، فلما استفتى أصحابُ رسولِ الله رسولَ الله ﷺ عن ذلك، أوحى الله تعالى إليه في ذلك، فبيَّن لهم

ما يكرهه مما يرضاه ويُحِبُّهُ، وأخبرهم أنه يُحِبُّ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ أناب إلى رضاه ومحبته، تائباً مما يكرهه. وكان مما بيَّنَ لهم من ذلك، أنه قد حرّم عليهم إتيانَ نسائِهم وإنْ طَهُرن من حيضهن حتى يغتسلن، ثم قال: ولا تقربوهن حتى يَطْهُـرْنَ، فإذا تطهَّـرن فأتـوهن، فإن الله يحب المتـطهـرين ـ يعني بذلـك: المتطهرين من الجنابةِ والأحداثِ للصلاة، والمتطهرات بالماء ـ من الحيض والنفاس والجنابة والأحداث ـ من النساء.

وإنما قال: «وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ» ـ ولم يقل «المتطهرات» ـ وإنما جرى قبـل ذلـك ذكـرُ التـطهر للنساء، لأن ذلك بِذِكْرِ «الْمُتَطَهِّرِينَ» يجمعُ الرجالَ والنساء. ولو ذَكَرَ ذلك بِذِكْرِ «المتطهرات»، لم يكنْ للرجالِ في ذلك حَظٌّ، وكان للنساء خاصةً. فذكر الله تعالى ذِكْرُهُ بالذِّكْرِ العام جميعَ عباده المكلفين، إذ كان قد تَعَبَّدَ جميعَهم بالتطهر بالماء، وإن اختلفت الأسبابُ التي تُوجِبُ التطهر عليهم بالماء في بعض المعاني، واتفقت في بعض.

## المجلد الأول

# فهرس المحتويات